الميزان

في تفسير القرآن

ج/٢٠

الجزء العشرون

من كتاب

الميزان
في تفسير القرآن

لمؤلفه
الأستاذ العلامة
السيد محمد حسين الطباطبائي

ملتزم الطبع والنشر
الشيخ محمد الآخوندي
مؤسس
دار الكتب الإسلامية
طهران - سوق السلطاني
تلفن ٥٢٠٤١٠

الطبعة الثالثة
١٣٩٧ هـ ق

تمتاز هذه الطبعة عمّا سبقها بعناية تامّة
في التصحيح و ضبط الكلمات و تصرّفات غير يسيرة
من المؤلف دام ظلّه

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿سورة الملك مكيّة و هي ثلاثون آية﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ تَبارَكَ الَّذى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) اَلَّذى خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) اَلَّذى خَلَقَ سَبْعَ سَموات طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ اِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ (٤) وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَ اَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (٥) وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) اِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ (٧) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما اُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ اِنْ أَنْتُمْ اِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (٩) وَ قالُوا لَوْ كُنّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (١١) اِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ اَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِاجْهَرُوا بِهِ اِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة بيان عموم ربوبيّته تعالى للعالمين تجاه قول الوثنيّة إنّ لكلّ شطر من العالم ربّاً من الملائكة و غيرهم و إنّه تعالى ربّ الأرباب فقط .

ولذا يعدّ سبحانه كثيراً من نعمه في الخلق و التدبير ـ وهو في معنى الاحتجاج على ربوبيّته ـ و يفتتح الكلام بتباركه و هو كثرة صدور البركات عنه ، و يكرّر توصيفه بالرحمان و هو مبالغة في الرحمة الّتي هي العطيّة قبال الاستدعاء فقرا و فيها إنذار ينتهي إلى ذكر الحشر و البعث .

و تتلخّص مضامين آياتها في الدعوة إلى توحيد الربوبيّة و القول بالمعاد .

و السورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : «تبارك الّذى بيده الملك وهو على كلّ شيىء قدير» تبارك الشيىء كثرة صدور الخيرات و البركات عنه .

و قوله : «الّذي بيده الملك» يشمل باطلاقه كلّ ملك ، و جعل الملك في يده استعارة بالكناية عن كمال تسلّطه عليه وكونه متصرّفاً فيه كيف يشاء كما يتصرّف ذواليد فيما بيده و يقلّبه كيف يشاء فهو تعالى يملك بنفسه كلّ شيىء من جميع جهاته ، و يملك ما يملكه كلّ شيىء .

فتوصيفه تعالى بالّذي بيده الملك أوسع من توصيفه بالمليك في قوله : «عند مليك مقتدر» القمر : ٥٥ ، و أصرح و آكد من توصيفه في قوله : « له الملك » التغابن : ١ .

و قوله : «و هو على كلّ شيىء قدير» إشارة إلى كون قدرته غير محدودة بحدّ ولا منتهية إلى نهاية و هو لازم إطلاق الملك بحسب السياق ، و إنكان إطلاق الملك و هو من صفات الفعل من لوازم إطلاق القدرة و هي من صفات الذات .

و في الآية مع ذلك إيماء إلى الحجة على إمكان ما سيأتى من أمر المعاد .

قوله تعالى : «الّذى خلق الموت و الحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً و هو العزيز الغفور» الحياة كون الشيء بحيث يشعر ويريد ، و الموت عدم ذلك لكنّ الموت على ما يظهر من تعليم القرآن انتقال من نشأة من نشآت الحياة إلى نشأة اُخرى كما تقدّم استفادة ذلك من قوله تعالى : « نحن قدّرنا بينكم الموت - إلى قوله - فيما لا تعلمون» الواقعة : ٦١ فلا مانع من تعلّق الخلق بالموت كالحياة .

على أنّه لو اُخذ عدميّاً كما عند العرف فهو عدم ملكة الحياة و له حظٌّ من الوجود يصحّ تعلّق الخلق به كالعمى من البصر و الظلمة من النور

و قوله : « ليبلوكم أيّكم أحسن عملا» غاية خلقه تعالى الموت و الحياة ، والبلاء الامتحان ، و المراد أنّ خلقكم هذا النوع من الخلق و هو أنّكم تحيون ثمّ تموتون خلق مقدّميّ امتحانيّ يمتاز به منكم من هو أحسن عملاً من غيره و من المعلوم أنّ الامتحان و التمييز لا يكون إلّا لأمرٍ ما يستقبلكم بعد ذلك و هو جزاء كلّ بحسب عمله .

وفي الكلام مع ذلك إشارة إلى أنّ المقصود بالذات من الخلقة هو إيصال الخير من الجزاء حيث ذكر حسن العمل و امتياز من جاء بأحسنه فالمحسنون عملا هم المقصودون بالخلقة وغيرهم مقصودون لأجلهم .

و قد ذيّل الكلام بقوله : « و هو العزيز الغفور » فهو العزيز لأنّ الملك و القدرة المطلقين له وحده فلا يغلبه غالب و ما أقدر أحداً على مخالفته إلّا بلاء و امتحانا وسينتقم منهم و هو الغفور لأنّه يعفو عن كثير من سيّآتهم في الدنيا وسيغفر كثيرا منها في الآخرة كما وعد .

و فى التذييل بالاسمين مع ذلك تخويف وتطميع على مايدعو إلى ذلك سياق الدعوة .

و اعلم أنّ مضمون الآية ليس مجرّد دعوى خالية عن الحجّة يراد به التلقين كما ربّما يتوهّم بل هي مقدّمة قريبة من الضرورة - أو هي ضروريّة - تستدعي الحكم

بضرورة البعث للجزاء فانّ الانسان المتلبّس بهذه الحياةالدنيويّة الملحوقة للموت لايخلومن أن يحصل له وصف حسن العمل أوخلافه و هو مجهّز بحسب الفطرة بما لولا عروض عارض السوء لساقه إلىحسن العمل ، و قلّما يخلو انسان من حصولأحد الوصفين كالأطفال و من في حكمهم .

و الوصف الحاصل المترتّب على وجود الشيىء الساري في أغلب أفراده غاية في وجوده مقصودة في إيجاده فكما أنّ الحياة النباتيّة لشجرة كذا إذ كانت تؤدّي في الغالب إلى إثمارها ثمرةكذا يعدّ ذلكغاية لوجودها مقصودة منهاكذلك حسنالعمل و الصلاح غاية لخلق الا نسان ، و من المعلوم أيضاً أنّ الصلاح و حسن العمل لوكان مطلوباً لكان مطلوباً لغيرهلا لنفسه ، والمطلوب بالذات الحياة الطيّبة الّتي لا يشوبها نقص ولا يعرضها لغو ولا تأثيم فالآ ية فيمعنى قوله : «كلّ نفسذائقة الموت و نبلوكم بالشرّ و الخير فتنة» الانبياء : ٣٥ .

قوله تعالى : « الّذى خلق سبع سماوات طباقاً » الخ أي مطابقة بعضها فوق بعض أوبعضها يشبه البعض ـ على ما احتمل ـ و قدمرّ في تفسير حمالسجدة بعض ما يمكننا من القول فيها .

و قوله : «ما ترى فيخلق الرحمان من تفاوت» قالالراغب : الفوت بعد الشيىء عن الا نسان بحيث يتعذّر إدراكه قال تعالى : « و إن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفّار» . قال : و التفاوت الاختلاف في الأوصاف كأنّه يفوت وصف أحدهما الآخر أو وصفكلّ واحد منهما الآخرقال تعالى : «ما ترى فيخلق الرحمان من تفاوت» أي ليس فيها ما يخرج عن مقتضىالحكمة . انتهى .

فالمراد بنفي التفاوت اتّصال التدبير و ارتباط الأشياء بعضها ببعض من حيث الغايات و المنافع المترتّبة على تفاعل بعضها في بعض فاصطكاك الأسباب المختلفة في الخلقة و تنازعها كتشاجر كفّتي الميزان و تصارعهما بالثقل والخفّة و الارتفاع و الانخفاض فا نّهما في عين أنّهما تختلفان تتّفقان في إعانة من بيدهالميزانفيمايريدهمن تشخيص وزن السلعة الموزونة .

فقد رتّب الله أجزاء الخلقة بحيث تؤدّى إلى مقاصدها من غير أن يفوّت بعضها غرض بعض أو يفوت من بعضها الوصف اللازم فيه لحصول الغاية المطلوبة.

و الخطاب في «ما ترى» خطاب عامّ لكلّ من يمكنه الرؤية و في إضافة الخلق إلى الرحمان، إشارة إلى أنّ الغاية منه هي الرحمة العامّة، و تنكير «تفاوت» و هو في سياق النفي و إدخال «من» عليه لافادة العموم.

وقوله: «فارجع البصر هل ترى من فطور» الفطور الاختلال و الوهي، و المراد بإرجاع البصر النظر ثانياً و هو كناية عن المداقّة في النظر و الإمعان فيه.

قوله تعالى: «ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً و هو حسير» الخاسىء من خسأ البصر إذا انقبض عن مهانة كما قال الراغب، و قال ايضا: الخاسر المعيا لانكشاف قواه، و يقال للمعيا: حاسر و محسور: أمّا الحاسر فتصوّر أنّه بنفسه قد حسر قوّته، و أما المحسور فتصوّر أن التعب قد حسره، وقوله عزّ وجلّ: «ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير» يصحّ أن يكون بمعنى حاسر وأن يكون بمعنى محسور، انتهى.

وقوله: «كرّتين» الكرّة الرجعة و المراد بالتثنية التكثير والتكرير و المعنى ثمّ ارجع البصر رجعة بعد رجعة أي رجعات كثيرة ينقلب إليك البصر منقبضة مهينة و الحال أنّه كليل مُعيا لم يجد فطوراً.

فقد اُشير في الآيتين إلى أنّ النظام الجاري في الكون نظام واحد متّصل الأجزاء مرتبط الأبعاض.

قوله تعالى: « ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح» إلى آخر الآية المصابيح جمع مصباح و هو السراج سمّي الكواكب مصابيح لإنارتها و إضاءتها و قد تقدّم كلام في ذلك في تفسير سورة حمۤ السجدة.

و قوله: «و جعلناها رجوماً للشياطين» أي و جعلنا الكواكب الّتي زيّنّا بها السماء رجوما يرجم بها من استرق السمع من الشياطين كما قال تعالى: «إلاّ من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين» الحجر: ١٨ وقال: «إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه

شهاب ثاقب» الصافات : ١٠ .

قيل : إنّ الجملة دليل أنّ المراد بالكواكب المزيّنة بها السماء مجموع الكواكب الأصليّة والشهب السماويّة فإنّ الكواكب الأصلية لاتزول عن مستقرّها و الكوكب و النجم يطلقان على الشهب كما يطلقان على الأجرام الأصلية .

و قيل : تنفصل من الكواكب شهب تكون رجوماً للشياطين أمّا الكواكب أنفسها فليست تزول إلاّ أن يريد الله إفناءها .

وهذا الوجه أوفق للأنظار العلميّة الحاضرة، وقد تقدّم بعض الكلام في معنى رمي الشياطين بالشهب .

وقوله : « و أعتدنا لهم عذاب السعير » أي وهيّأنا للشياطين و هم أشرار الجنّ عذاب النار المسعّرة المشتعلة .

قوله تعالى : «وللّذين كفروا بربّهم عذاب جهنّم وبئس المصير» لمّا أورد بعض آيات ربوبيّته تعالى عقّبها بالوعيد على من كفر بربوبيّته على ماهو شأن هذه السورة من تداخل الحجج والوعيد والإنذار.

والمراد بالّذين كفروا بربوبيّته أعمّ من الوثنيّين النافين لربوبيّته لغير أربابهم القائلين بأنه تعالى ربّ الأرباب فقط ، والنافين لها مطلقاً و المثبتين لربوبيّته مع التفريق بينه و بين رسله كاليهود والنصارى حيث آمنوا ببعض رسله و كفروا ببعض .

والآية مع ذلك متّصلة بقوله : « الّذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور » لمافيها من الإشارة إلى البعث والجزاء ومتّصلة بما قبلها كالتعميم بعد التخصيص .

قوله تعالى : إذا اُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميّز من الغيظ» قال الراغب : الشهيق طول الزفير وهوردّ النفس والزفير مدّه انتهى ، والفوران كما في المجمع ارتفاع الغليان والتميّز التقطّع والتفرّق ، والغيظ شدّة الغضب ، والمعنى إذا طرح الكفّار في جهنّم سمعوا لها شهيقا ـ أي تجذبهم إلى داخلها كما يجذب الهواء

بالشهيق إلى داخل الصدر ـ و هي تغلي بهم فترفعهم و تخفضهم تكاد تتلاشى من شدّة الغضب .

قوله تعالى : « كلّما اُلقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » الفوج ـ كما قاله الراغب ـ الجماعة المارّة المسرعة ؛ وفي قوله : « كلّما اُلقي فيها فوج » إشارة إلى أنّ الكفّار يلقون في النار جماعة جماعة كما يشير إليه قوله : « وسيق الذين كفروا إلى جهنّم زمرا » الزمر : ٧١ و إنّما يلقون كذلك بلحوق التابعين لمتبوعيهم في الضلال كما قال تعالى : « ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنّم » الأنفال : ٣٧ وقد تقدّم بعض توضيحه في ذيل الآية من سورة الأنفال .

و الخزنة جمع خازن وهو الحافظ على الشيء المدّخر والمراد بهم الملائكة الموكّلون على النار المدبّرون لأنواع عذابها قال تعالى : «عليها ملائكة غلاظ شداد» التحريم : ٦ ، وقال : « و ماأدراك ماسقر ـ إلى أن قال ـ عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلّا ملائكة » المدّثّر : ٣١.

والمعنى كلّما طرح في جهنّم جماعة من جماعات الكفّار المسوقين إليها سألهم الملائكة الموكّلون على النار الحافظون لها ـ توبيخا ـ ألم يأتكم نذير؟ وهو النبيّ المنذر .

قوله تعالى : « قالوا بلى قدجاءنا نذير فكذّبنا » إلى آخر الآية حكاية جوابهم لسؤال الخزنة ، وفيه تصديق أنّهم قدجاءهم نذير فنسبوه إلى الكذب واعتراف .

وقوله : « مانزّل الله من شيء » بيان لتكذيبهم ، و كذا قوله : « إن أنتم إلّا في ضلال كبير » وقيل : قوله : « إن أنتم » ـ الخ كلام الملائكة يخاطبون به الكفّار بعد جوابهم عن سؤالهم بما أجابوا ، وهو بعيد من السياق ، وكذا احتمال كونه من كلام الرسل الّذين كذّبوهم تحكيه الملائكة لاُولئك الكفّار .

قوله تعالى : «وقالوا لوكنّا نسمع أو نعقل ماكنّا في أصحاب السعير» يطلق السمع ويراد به إدراك الصوت والقول بالجارحة وربّما يراد به ماهو الغاية منه عند العقلاء وهو الالتزام بمقتضاه من الفعل و الترك ، ويطلق العقل على تمييز الخير من الشرّ

والنافع من الضارّ ، وربّما يراد به ماهو الغايه منه وهو الالتزام بمقتضاه من طلب الخيرو النافع واجتناب الشرّ والضارّ قال تعالى : «لهم قلوب لايفقهون بهاو لهمأعين لايبصرون بها ولهمآذانلايسمعون بها اُولئككالأنعام بل همأضلّ » الأعراف :١٧٩.

وأكثر ماينتفع بالسمع عامّة الناس لقصورهم عن تعقّل دقائق الأمور وإدراك حقيقتها والاهتداء إلى مصالحها ومفاسدها وإنّما ينتفع بالعقل الخاصّة .

فقوله : « لوكنّا نسمع أونعقل » اُريد بالسمع استجابة دعوة الرسلوالالتزام بمقتضى قولهموهم النصحاء الاُمناء ،وبالعقل الالتزام بمقتضى مايدعون إليهمنالحقّ بتعقّلهوالاهتداء العقليّ إلى أنّه حقّ ومنالواجب أنيخضع الإنسان للحقّ .

وإنّما قدّم السمع علىالعقل لأنّ استعماله منشأن عامّةالناس وهمالأكثرون والعقل شأن الخاصّة وهم آحاد قليلون .

و المعنى لو كنّا في الدنيا نطيع الرسل في نصائحهم ومواعظهم أو عقلنا حجّة الحقّ ما كنّا اليوم في أصحاب السعير وهم مصاحبو النار المخلّدون فيها .

وقيل : إنّما جمع بين السمع والعقل لأنّ مدار التكليف على أدلّة السمع والعقل .

قوله تعالى : « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » كانوا إنّما قالوا : « لو كنّا نسمع أونعقل ما كنّا في أصحاب السعير » ندامة على ما فرّطوا في جنبالله وفوّتوا على أنفسهم من الخير فاعترفوا بأنّ ما أتوا به كان تبعته دخول النار وكان عليهم أن لا يأتوا به ، وهذا هو الذنب فقد اعترفوا بذنبهم .

وإنّما أفرد الذنب بناءٍ على إرادة معنى المصدر منه وهو في الأصل مصدر .

وقوله : « فسحقاً لأصحاب السعير » السحق تفتيت الشيءكما ذكره الراغب وهو دعاء عليهم .

قوله تعالى : « إنّ الّذين يخشون ربّهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » لمّا ذكرحال الكفّار ومايجازون به على كفرهم قابله بحالالمؤمنينبالغيب لتمام التقسيم وذكر من وصفهم الخشية لأنّ المقام مقام الإنذار والوعيد .

وعدّ خشيتهم خشية بالغيب لكون ما آمنوا به محجوباً عنهم تحت حجب الغيب .

قوله تعالى : « وأسرّوا قولكم أو اجهروا به إنّه عليم بذات الصدور » رفع شبهة يمكن أن تختلج في قلوبهم مبنيّة على الاستبعاد وذلك أنّه تعالى ساق الكلام في بيان ربوبيّته لكلّ شيءِ المستتبعة للبعث والجزاءِ وذكر ملكه وقدرته المطلقين وخلقه وتدبيره ولم يذكر علمه المحيط بهم وبأحوالهم وأعمالهم وهو ممّا لا يتمّ البعث والجزاء بدونه .

وكان من الممكن أن يتوهّموا أنّ الأعمال على كثرتها الخارجة عن الإحصاء لا يتأتّى ضبطها وخاصّة ما تكنّه الصدور منها فإنّ الإنسان يقيس الأشياء بنفسه ويزنها بزنة نفسه وهو غيرقادر علىإحصاء جزئيّات الأعمال الّتي هي حركات مختلفة متقضّية وخاصّة أعمال القلوب المستكنّة في زواياها .

فدفعه بأنّ إظهار القول وإخفاءه سواءٍ بالنسبة إليه تعالى فإنّه عليم بذات الصدور ، والسياق يشهد أنّ المراداستواء خفايا الأعمالوجلاياها بالنسبة إليه ، وإنّما ذكرإسرار القول وجهره منحيث ظهور معنىالخفاء والظهور فيه بالجهروالإسرار.

قوله تعالى : « ألا يعلم منخلق وهواللطيف الخبير » استفهام إنكاريّ مأخوذ حجّة علىعلمه تعالىبأعمال الخلق ظاهرها وباطنها وسرّها وجهرها وذلك أنّ أعمال الخلق ـ ومن جملتها أعمال الإنسان الاختياريّة ـ وإن نسبت إلى فواعلها لكنّ الله سبحانه هو الّذي يريدها ويوجدها منطريق اختيار الإنسان واقتضاء سائر الأسباب فهو الخالق لأعيان الأشياء و المقدّر لها آثارها كيفما كانت والرابط بينها وبين آثارها الموصل لها إلى آثارها قال تعالى : « الله خالق كلّ شيء وهو على كلّ شيء وكيل » الزمر : ٦٢ ، وقال : « الّذي خلق فسوّى والّذي قدّر فهدى » الأعلى : ٣ فهو سبحانه محيط بعين من خلقه وأثره ومنأثره أعماله الظاهرة والباطنة وما أسرّه وما جهر به وكيف يحيط به ولا يعلمه .

وفي الآية إشارة إلى أنّ أحوال الأشياء وأعمالها غير خارجة عن خلقها لأنّه

تعالى استدلّ بعلمه بمن خلق على علمه بخصوصيّات أحواله وأعماله ولولا كون الأحوال والأعمال غير خارجة عن وجود موضوعاتها لم يتمّ الاستدلال .

على أنّ الأحوال والأعمال من مقتضيات موضوعاتها والّذي ينتسب إليه وجود الشيء ينتسب إليه آثار وجوده .

وقوله : « وهو اللطيف الخبير » أي النافذ في بواطن الأشياء المطّلع على جزئيات وجودها وآثاره، والجملة حالية تعلّل ماقبلها والاسمان الكريمان من الأسماء الحسنى ذيّلت بهما الآية لتأكيد مضمونها .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي باسناده عن سفيان بن عيينه عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ « ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً » قال : ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوبكم عملاً ، و إنما الاصابة خشية الله والنيّة الصادقة والخشية .

ثم قال : الابقاء على العمل حتّى يخلص أشدّ من العمل .

ألا والعمل الخالص الّذي لاتريدأن يحمدك عليه أحد إلاّ الله ، والنيّة أفضل من العمل ألا وإنّ النيّة هي العمل . ثمّ تلاقوله : « قل كلّ يعمل على شاكلته » يعني على نيّته .

وفي المجمع قال أبوقتادة : سألت النبيّ صلى الله عليه وآله عن قوله تعالى : « أيّكم أحسن عملاً » ماعنى به ؟ فقال : يقول : أيّكم أحسن عقلاً . ثمّ قال : أتمّكم عقلاً و أشدّكم لله خوفاً ، وأحسنكم فيما أمرالله به ونهى عنه نظراً وإن كان أقلّكم تطوّعا.

وفيه عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه تلاقوله تعالى : «تبارك الّذي بيده الملك ـ إلى قوله ـ أيّكم أحسن عملاً » ثمّ قال : أيّكم أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله .

وفي تفسير القميّ في قوله تعالى : «الّذي خلق سبع سماوات طباقا» قال : بعضها طبق لبعض .

وفيه في قوله تعالى : «من تفاوت» قال : من فساد .

وفيه في قوله تعالى : «ثمّ ارجع البصر» قال : انظر في ملكوت السماوات والأرض.

وفيه في قوله تعالى : « بمصابيح » قال : بالنجوم .

وفيه في قوله تعالى : «سمعوا لها شهيقاً » قال : وقعاً .

وفيه في قوله تعالى : «تكاد تميّز من الغيظ» قال : على أعداء الله .

وفيه في قوله تعالى : « وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير » قال : قد سمعوا وعقلوا ولكنّهم لم يطيعوا ولم يقبلوا ، والدليل على أنّهم قد سمعوا وعقلوا ولم يقبلوا . قوله : «فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » .

أقول : يعني عليه السلام أنّه يدلّ على أنّ المراد من عدم السمع والعقل عدم الإطاعة و القبول بعد السمع و العقل أنّه تعالى سمّى قولهم ذلك اعترافاً بالذنب ، ولايعدّ فعل ذنباً من فاعله إلّا بعد العلم بجهة مساءته بسمع أوعقل .



☆ ☆ ☆

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) .

﴿ بيان ﴾

في الآيات كرّة بعد كرّة بآيات التدبير الدالّة على ربوبيّته تعالى مقرونة بالإنذار والتخويف أعني قوله : « هوالّذي جعل لكم الأرض ذلولا » الآية ، وقوله : « أولم يروا إلى الطير » الآية بعد قوله : «الّذي خلق الموت والحياة » الآية وقوله « الّذي خلق سبع سماوات » الآية وقوله :«ولقد زيّنّا » الآية .

قوله تعالى : « هوالّذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فيمناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » الذلول من المراكب مايسهل ركوبه منغير أن يضطرب ويجمح والمناكب جمع منكب وهومجتمع مابين العضد والكتف واستعير لسطح الأرض قال

الراغب : واستعارته للأرض كاستعارة الظهر لها في قوله : «ماترك على ظهرها من دابّة» وتسمية الأرض ذلولاً وجعل ظهورها مناكب لها يستقرّ عليها ويمشي فيها باعتبار انقيادها لأنواع التصرّفات الإنسانيّة من غير امتناع ، وقد وجّه كونها ذلولاذا مناكب بوجوه مختلفة تؤل جميعها إلى ماذكرنا .

والأمر في قوله : « وكلوا من رزقه » للإباحة والنشور والنشر إحياء الميّت بعد موته وأصله من نشر الصحيفة و الثوب إذا بسطهما بعد طيّهما .

والمعنى هو الّذي جعل الأرض مطاوعة منقادة لكم يمكنكم أن تستقرّوا على ظهورها وتمشوافيها تأكلون من رزقه الّذي قدّره لكم بأنواع الطلب والتصرّف فيها.

وقوله : « وإليه النشور» أي ويرجع إليه نشرالأموات بإخراجهم من الارض وإحيائهم للحساب و الجزاء ، واختصاص رجوع النشر بهكناية عن اختصاص الحكم بالنشوربه والإحياء يوم القيامة فهوربّكم المدبّر لأمر حياتكم الدنيا بالإقرارعلى الأرض والهداية إلى مآرب الحياة ، وله الحكم بالنشورللحساب والجزاء .

وفي عدّ الأرض ذلولاً والبشر على مناكبها تلويح ظاهر إلى ماأدّت إليه الأبحاث العلميّة أخيرا من كون الأرض كرة سيّارة .

قوله تعالى : «ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور» إنذار وتخويف بعد إقامة الحجّة وتوبيخ على مساهلتهم في أمر الربوبيّة وإهمالهم أمر الشكر على نعم ربّهم بالخضوع لربوبيّته ورفض مااختلقوه من الأنداد .

والمراد بمن في السماءِ الملائكة المقيمون فيها الموكّلون على حوادث الكون وإرجاع ضمير الإفراد إلى«من» باعتبار لفظه وخسف الأرض بقوم كذاشقّها وتغييبهم في بطنها والمور على مافي المجمع التردّد في الذهاب والمجيء مثل الموج .

والمعنىء أمنتم في كفركم بربوبيّته تعالى الملائكة المقيمين في السماءِ الموكلين باُمور العالم أن يشقّوا الأرض ويغيّبوكم فيها بأمر الله فإذا الأرض تضطرب ذهاباً ومجيئاً بزلزالها .

وقيل : المراد بمن في السماء هو الله سبحانه والمراد بكونه في السماءِ كون سلطانه وتدبيره وأمره فيها لاستحالة أن يكون تعالى في مكان أو جهة أو محاطاً بعالم من العوالم، وهذا المعنى وإن كان لابأس به لكنّه خلاف الظاهر.

قوله تعالى : « أم أمنتم من في السماءِ أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير » الحاصب الريح الّتي تأتي بالحصاة والحجارة ، والمعنى ءأمنتم من في السماءِ أن يرسل عليكم ريحاً ذات حصاة و حجارة كما أرسلها على قوم لوط قال تعالى:«إنّا أرسلنا عليهم حاصباً إلاّ آل لوط » القمر : ٣٤ .

وقوله : « فستعلمون كيف نذير» النذير مصدر بمعنى الانذار والجملة متفرّعة على مايفهم من سابق الكلام من كفرهم بربوبيّته تعالى وأمنهم من عذابه والمعنى ظاهر .

وقيل : النذير صفة بمعنى المنذر والمراد به النبيّ صلّى الله عليه وآله وهو سخيف .

قوله تعالى : «ولقد كذّب الّذين من قبلهم فكيف كان نكير » المراد بالنكير العقوبة وتغيير النعمة أو الإنكار ، والآية كالشاهد يستشهد به على صدق مافي قوله : «فستعلمون كيف نذير » من الوعيد والتهديد .

والمعنى ولقد كذّب الّذين من قبلهم من الاُمم الهالكة رسلي وجحدوا بربوبيّتي فكيف كان عقوبتي وتغييري النعمة عليهم أو كيف كان إنكاري ذلك عليهم حيث أهلكتهم واستأصلتهم .

وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله : «من قبلهم» إشعاراً بسقوطهم ـ لجهالتهم وإهمالهم في التدبّر في آيات الربوبيّة وعدم مخافتهم من سخط ربّهم ـ عن تشريف الخطاب فأعرض عن مخاطبتهم فيما يلقى إليهم من المعارف إلى خطاب النبيّ صلّى الله عليه وآله .

قوله تعالى : أولم يروا إلى الطير فوقهم صافّات و يقبضن مايمسكهنّ إلاّ الرحمان إنّه بكلّ شيءٍ بصير » المراد بكون الطير فوقهم طيرانه في الهواء ، وصفيف الطير بسطه جناحه حال الطيران وقبضه قبض جناحه حاله ، والجمع في «صافّات و يقبضن » لكون المراد بالطير استغراق الجنس .

وقوله: «مايمسكهنّ إلاّ الرحمان» كالجواب لسؤال مقدّر كأنّ سائلاً يسأل فيقول: ماهو المراد بإلفات نظرهم إلى صفيف الطير وقبضه فوقهم؟ فاُجيب بقوله: «مايمسكهنّ إلاّ الرحمان».

وقرار الطير حال الطيران في الهواء من غير سقوط وإن كان مستنداً إلى أسباب طبيعيّة كقرار الإنسان على بسيط الأرض والسمك في الماء وسائر الاُمور الطبيعيّة المستندة إلى علل طبيعيّة تنتهي إليه تعالى لكن لمّا كان بعض الحوادث غير ظاهر السبب للإنسان في بادي النظر سهل له إذا نظر إليه أن ينتقل إلى أنّ الله سبحانه هو السبب الأعلى الّذي ينتهي إليه حدوثه و وجوده، ولذا نبهّهم الله سبحانه في كلامه بإرجاع نظرهم إليها ودلالتهم على وحدانيّته في الربوبيّة.

وقدورد في كلامه تعالى شيءكثير من هذا القبيل كامساك السماوات بغير عمد وإمساك الأرض وحفظ السفن على الماء واختلاف الأثمار والألوان والألسنة وغيرها ممّاكان سببه الطبيعيّ القريب خفيّاً في الجملة يسهل للذهن الساذج الانتقال إلى استناده إليه تعالى ثمّ إذاتنبّه لوجود أسبابه القريبة بنوع من المجاهدة الفكرية وجد الحاجة بعينها في أسبابه حتّى تنتهي إليه تعالى وأنّ إلى ربّك المنتهى.

قال في الكشّاف: فإن قلت: لم قيل: و يقبضن و لم يقل: و قابضات؟ قلت: لأنّ الأصل في الطيران هو صفّ الأجنحة لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل في السباحة هومدّ الأطراف وبسطها وأمّا القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرّك فجيىء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنّهنّ صافّات و يكون منهنّ القبض تارة كما يكون من السابح. انتهى.

وهو مبنيّ على أن تكون الآية هي مجموع قوله: «صافّات و يقبضن» و هو الطيران، ويمكن أن يستفاد أنّ الآية عدم سقوطهنّ وهنّ صافّات، و آية اُخرى أنّهنّ ربّما يقبضن ولا يسقطن حينما يقبضن.

ولايخفى مافي ذكر طيران الطير في الهواء بعدذكر جعل الأرض ذلولاً والإنسان على مناكبها من اللطف.

قوله تعالى : « أمّن هذا الّذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمان إن الكافرون إلاّ في غرور » توبيخ و تقريع لهم في اتّخاذهم آلهة من دون الله لينصروهم و لذا التفت عن الغيبة إلى الخطاب فخاطبهم ليشتدّ عليهم التقريع .

و قوله : « أمّن هذا الّذي » الخ معناه بل من الّذي يشار إليه فيقال : هذا جند لكم ينصركم من دون الرحمان إن أرادكم بسوء أو عذاب ؟ فليس دون الله من ينصركم عليه ، و فيه إشارة إلى خطاءهم في اتّخاذ بعض خلق الله آلهة لينصروهم في النوائب و هم مملوكون لله لا يملكون لأنفسهم نفعاً و ضرّاً ولا لغيرهم .

و إذلم يكن لهم جواب أجاب تعالى بقوله : « إن الكافرون إلاّ في غرور » أي أحاط بهم الغرور و غشيهم فخيّل إليهم ما يدّعون من اُلوهيّة آلهتهم .

قوله تعالى :«أم من هذا الّذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجّوا في عتوّ و نفور» أي بل من الّذي يشار إليه بأنّ هذا هو الّذي يرزقكم إن أمسك الله رزقه فينوب مقامه فيرزقكم ؟ ثمّ أجاب سبحانه بقوله : « بل لجّوا في عتوّ ونفور» أي إنّ الحقّ قد تبيّن لهم لكنّهم لا يخضعون للحقّ بتصديقه ثمّ اتّباعه بل تمادوا في ابتعادهم من الحقّ و نفورهم منه ، ولجّوا في ذلك .

قوله تعالى : « أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى أم من يمشي سويّاً على صراط مستقيم » إكباب الشيء على وجهه إسقاطه عليه ، و قال في الكشّاف : معنى أكبّ دخل في الكبّ وصار ذاكبّ .

استفهام إنكاري عن استواء الحالين تعريضاً لهم بعد ضرب حجاب الغيبة عليهم و تحريمهم من تشريف الحضور و الخطاب بعد استقرار اللجاج فيهم ، و المراد أنّهم بلجاجهم في عتوّ عجيب و نفور من الحقّ كمن يسلك سبيلا و هو مكبّ على وجهه لا يرى ما في الطريق من ارتفاع وانخفاض ومزالق ومعاثر فليس هذا السائر كمن يمشي سويّا على صراط مستقيم فيرى موضع قدمه و ما يواجهه من الطريق على استقامة ، و ما يقصده من الغاية ، وهؤلاء الكفّار سائرون سبيل الحياة وهم يعاندون الحقّ على علم به فيغمضون عن معرفة ما عليهم أن يعرفوه و العمل بما عليهم أن يعملوا به و لا

يخضعون للحقّ حتّى يكونوا على بصيرة من الأمر و يسلكوا سبيل الحياة وهم مستوون على صراط مستقيم فيأمنوا الهلاك .

و قد ظهر أنّ ما في الآية مثل عامّ يمثّل حال الكافر الجاهل اللجوج المتمادي على جهله و المؤمن المستبصر الباحث عن الحقّ .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن سعد عن أبي جعفر عليه السلام قال : القلب أربعة : قلب فيه نفاق و إيمان ، وقلب منكوس ، و قلب مطبوع ، وقلب أزهر . فقلت : ما الأزهر؟ قال : فيه كهيئة السراج .

فأمّا المطبوع فقلب المنافق، وأمّا الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه شكر و إن ابتلاه صبر ، و أمّا المنكوس فقلب المشرك ثمّ قرء هذه الآية «أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى أم من يمشي سويّاً على صراط مستقيم » ، فأمّا القلب الّذى فيه إيمان و نفاق فقوم كانوا بالطائف فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك و إن أدركه على إيمانه نجى .

اقول : و رواه في تفسير البرهان عن ابن بابويه باسناده عن الفضيل عن سعد الخفّاف عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنّ القلوب أربعة ، وساق الحديث إلى آخره إلاّ أنّ فيه : و قلب أزهر أنور .

و قوله : «فهم قوم كانوا بالطائف» المراد به الطائف الشيطانيّ الّذي ربّما يمسّ الإنسان قال تعالى : «إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذاهم مبصرون» الأعراف : ٢٠١ فالمعنى أنّهم يعيشون مع طائف شيطانيّ يمسّهم حيناً بعد حين فإن أدركهم الأجل و الطائف معهم هلكوا و إن أدركهم و هم في حال الإيمان نجوا .

و اعلم أنّ هناك روايات تطبّق قوله : « أفمن يمشي مكبّاً على وجهه » الآية على من حاد عن ولاية علي عليه السلام و من يتّبعه و يواليه ، و هي من الجري و الله أعلم .

☆☆☆

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ يَقُولُونَ مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ قِيلَ هٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللّٰهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمٰنُ آمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠).

﴿ بيان ﴾

آيات اُخر يذكّرهم الله تعالى بها دالّة على وحدانيّته تعالى في الخلق و التدبير مقرونة بالانذار و التخويف، جارية على غرض السورة و هو التذكرة بالوحدانيّة مع الإنذار غير أنّه تعالى لماأشار إلى لجاجهم وعنادهم للحقّ في قوله السابق: «بل لجّوا في عتوّ و نفور» غيّر السياق بالإعراض عن خطابهم والالتفات إلى خطاب النّبي صلى الله عليه و آله بأمره أن يتصدّى خطابهم ويقرع أسماعهم آياته في الخلق والتدبير الدالّة على توحّده في الربوبيّة و إنذارهم بعذاب الله، وذلك قوله: «قل هو الّذي أنشأكم» الخ

«قل هو الّذي ذرأكم » الخ « قل إنّما العلم » الخ « قل أرأيتم إن أهلكني الله » الخ « قل هو الرحمن » الخ «قل أرأيتم إن أصبح «ماؤكم غوراً» الخ .

قوله تعالى «قل هو الّذي أنشأكم و جعل لكم السمع و الأبصار و الأفئدة قليلا ما تشكرون» الإنشاء إحداث الشيء ابتداء و تربّيه .

ما في ذيل الآية من لحن العتاب في قوله : «قليلاً مّا تشكرون » و قد تكرّر نظيره في غير موضع من كلامه كما في سورة المؤمنون[١] والم[٢] السجدة يدلّ على أنّ إنشاءه تعالى الإنسان و تجهيزه بجهاز الحسّ و الفكر من أعظم نعمه تعالى الّتي لايقدّر قدرها .

و ليس المراد بإنشائه مجرّد خلقه كيفما كان بل خلقه و إحداثه من دون سابقة في مادّته كما أشار إليه في قوله يصف خلقه طوراً بعد طور : «و لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ثمّ خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ـ إلى أن قال ـ ثمّ أنشأناه خلقاً آخر» المؤمنون : ١٤ فصيرورة المضغة إنسانا سميعاً بصيراً متفكّراً بتركيب النفس الانسانيّة عليها خلق آخر لايسانخ أنواع الخلقة المادّيّة الواردة على مادّة الإنسان من أخذها من الأرض ثمّ جعلها نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة فإنّما هي أطوار مادّيّة متعاقبة بخلاف صيرورتها إنسانا ذاشعور فلاسابقة لها تماثلها أوتشابهها فهوالإنشاء .

و مثله قوله : «و من آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون » الروم : ٢٠ (انظر إلى موضع إذا الفجائيّة) .

وقوله : «هو الّذى أنشأكم» إشارة إلى خلق الإنسان .

و قوله : « وجعل لكم السمع و الأبصار و الأفئدة » إشارة إلى تجهيزه بجهاز الحسّ و الفكر، والجعل إنشائيّ كجعل نفس الانسان كما يشير إليه قوله : « و هو الّذي أنشأ لكم السمع و الأبصار و الأفئدة قليلا ما تشكرون» المؤمنون : ٧٨

---

(١) الاية ٧٨ .

(٢) الاية ٩ .

فالإنسان بخصوصيّة إنشائه و كونه بحيث يسمع و يبصر يمتاز من الجماد و النبات ـ والاقتصار بالسمع والبصر من سائر الحواسّ كاللمس و الذوق والشمّ لكونهما العمدة و لا يبعد أن يكون المراد بالسمع و البصر مطلق الحواسّ الظاهرة من باب إطلاق الجزء و إرادة الكلّ ـ و بالفؤاد و هو النفس المتفكّرة يمتاز من سائر الحيوان.

و قوله : «قليلاً مّاتشكرون» أي تشكرون قليلاً على هذه النعمة ـ أوالنعم ـ العظمى فما زائدة و قليلا مفعول مطلق تقديره تشكرون شكرا قليلا ، و قيل : ما مصدريّة و المعنى قليلا شكركم.

قوله تعالى : «قل هو الّذي ذرأكم في الأرض و إليه تحشرون» الذرء الخلق و المراد بذرئهم في الأرض خلقهم متعلّقين بالأرض فلا يتمّ لهم كمالهم إلاّ بأعمال متعلّقة بالمادّة الأرضيّة بما زيّنها الله تعالى بما تنجذب إليه النفس الانسانيّة فى حياتها المعجّلة ليمتاز به الصالح من الطالح قال تعالى: « إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً و إنّا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً» الكهف : ٨

و قوله : « و إليه تحشرون» إشارة إلى البعث و الجزاء و وعد جازم.

قوله تعالى : «و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» المراد بهذا الوعد الحشر الموعود ، و هو استعجال منهم استهزاء.

قوله تعالى : «قل إنّما العلم عند الله و إنّما أنا نذير مبين» جواب عن قولهم «متى هذا الوعد» الخ و محصّله أنّ العلم به عند الله لا يعلم به إلاّ هو كما قال : «لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو » الاعراف ١٨٧ و ليس لي إلاّ أنّي نذير مبين اُمرت أن اُخبركم أنّكم إليه تحشرون و أمّا أنّه متى هو فليس لي بذلك علم.

هذا على ما يفيده وقوع الآية في سياق الجواب عن السؤال عن وقت الحشر . وعلى هذا تكون اللام في العلم للعهد ، والمراد العلم بوقت الحشر ، وأمّا لو كانت للجنس على ما تفيده جملة « إنّما العلم عند الله » في نفسها فالمعنى إنّما حقيقة العلم عند الله ولا يحاط بشيء منه إلاّ بإذنه كما قال : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما

شاء » البقرة : ٢٥٥ ولم يشأ أن أعلم من ذلك إلاّ أنّه سيقع وا ُنذركم به وأمّا أنّه متى يقع فلا علم لي به .

قوله تعالى : « فلمّا رأوه زلفة سيئت وجوه الّذين كفروا الخ » الزلفة القرب والمراد به القريب أو هو من باب زيد عدل ، وضمير « رأوه » للوعد وقيل للعذاب والمعنى فلمّا رأوا الوعد المذكور قريباً قد أشرف عليهم ساء ذلك وجوه الّذين كفروا به فظهر في سيماهم أثر الخيبة والخسران .

وقوله : « وقيل هذا الّذي كنتم به تدّعون » قيل تدعون وتدّعون بمعنى واحد كتدخرون وتدّخرون والمعنى وقيل لهم : هذا هو الوعد الّذي كنتم تسألونه وتستعجلون به بقولكم : متى هذا الوعد ، وظاهر السياق أنّ القائل هم الملائكة بأمر من الله ، وقيل القائل من الكفّار يقوله بعضهم لبعض .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم » « إن » شرطيّة شرطها قوله : « أهلكني الله » وجزاؤها قوله : « فمن يجير » الخ والمعنى قل لهم أخبروني إن أهلكني الله ومن معي من المؤمنين أو رحمنا فلم يهلكنا فمن الّذي يجير ويعيذ الكافرين - وهم أنتم كفرتم بالله فاستحققتم أليم العذاب - من عذاب أليم يهدّدهم تهديداً قاطعاً أي إنّ هلاكي ومن معي وبقاؤنا برحمة ربّي لا ينفعكم شيئاً في العذاب الّذي سيصيبكم قطعاً بكفركم بالله .

قيل : إنّ كفّار مكّة كانوا يدعون على رسول الله صلّى الله عليه وآله وعلى المؤمنين بالهلاك فأمر صلّى الله عليه وآله أن يقول لهم إن أهلكنا الله تعالى أو أبقانا فأمرنا إلى الله ونرجو الخير من رحمته وأمّا أنتم فما تصنعون ؟ من يجيركم من أليم العذاب على كفركم بالله ؟

قوله تعالى : « قل هو الرحمن آمنّا به وعليه توكّلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين » الضمير للّذي يدعو إلى توحيده وهم يدعونه عليه ، والمعنى قل الّذي أدعوكم إلى توحيده وتدعونه عليّ وعلى من معي هو الرحمن الّذي عمّت نعمته كلّ شيء آمنّا به وعليه توكّلنا من غير أن نميل ونعتمد على شيء دونه فستعلمون أيّها الكفّار من هو في ضلال مبين ؟ نحن أم أنتم ؟

قال في الكشّاف : فإن قيل : لمَ أُخّر مفعول « آمنّا » وقدّم مفعول «توكّلنا»؟ قلت : لوقوع آمنّا تعريضا بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم كأنّه قيل : آمنّا ولم نكفر كما كفرتم ثمّ قال : وعليه توكّلنا خصوصاً لم نتّكل على ما أنتم متّكلون عليه من رجالكم وأموالكم .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » الغور ذهاب الماء ونضوبه في الأرض والمراد به الغائر ، والمعين الظاهر الجاري من الماء والمعنى أخبروني إن صار ماؤكم غائراً ناضباً في الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر جار.

وهناك روايات تطبّق الآيات على ولاية عليّ عليه السلام ومحادّته وهي من الجري وليست بمفسّرة .



﴿ سورة القلم مكّية وهي اثنتان وخمسون آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَاِنَّ لَكَ لَاَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَاِنَّكَ لَعَلٰى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِاَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) اِنَّ رَبَّكَ هُوَ اَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ اَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ اَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) اَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) اِذَا تُتْلٰى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ اَسَاطِيرُ الْاَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) اِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا اَصْحَابَ الْجَنَّةِ اِذْ اَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَاَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) اَنِ اغْدُوا عَلٰى حَرْثِكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) اَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلٰى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَاَوْهَا قَالُوا اِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ اَوْسَطُهُمْ اَلَمْ اَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا اِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَاَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلٰى بَعْضٍ

يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قالُوا يا وَيْلَنا إنَّا كُنَّا طاغِينَ (٣١) عَسى رَبُّنا أنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إنَّا إلى رَبِّنا راغِبُونَ (٣٢) كَذلِكَ الْعَذابُ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) .

﴿ بيان ﴾

السورة تعزّي النبيّ صلى الله عليه وآله إثر ما رماه المشركون بالجنون وتطيّب نفسه بالوعد الجميل والشكر على خلقه العظيم وتنهاه نهياً بالغاً عن طاعتهم ومداهنتهم، وتأمره أمراً أكيداً بالصبر لحكم ربّه .

وسياق آياتها على الجملة سياق مكّيّ ، ونقل عن ابن عباس وقتادة أنّ صدرها إلى قوله : «سنسمه على الخرطوم ـ ستّة عشرة آية ـ مكّيّ ، وما بعده إلى قوله : « لوكانوا يعلمون ـ سبع عشرة آية ـ مدنيّ، وما بعده إلى قوله : «يكتبون ـ خمس عشرة آية ـ مكّيّ ، وما بعده إلى آخر السورة ـ أربع آيات ـ مدنيّ .

ولا يخلو من وجه بالنسبة إلى الآيات السبع عشرة «إنّا بلوناهم ـ إلى قوله ـ لوكانوا يعلمون » فإنّها أشبه بالمدنيّة منها بالمكّيّة .

قوله تعالى : «ن» تقدّم الكلام في الحروف المقطّعة الّتي في أوائل السور في تفسير سورة الشورى .

قوله تعالى : «والقلم ومايسطرون » القلم معروف ، والسطر بالفتح فالسكون وربّما يستعمل بفتحيتن ـ كما في المفردات ـ الصفّ من الكتابة ، ومن الشجر المغروس ومن القوم الوقوف وسطر فلان كذا كتب سطراً سطراً .

أقسم سبحانه بالقلم ومايسطرون به وظاهر السياق أنّ المراد بذلك مطلق القلم ومطلق مايسطرون به وهو المكتوب فإنّ القلم ومايسطر به من الكتابة من أعظم النعم الالهيّة الّتي اهتدى إليها الإنسان يتلو الكلام في ضبط الحوادث الغائبة عن الأنظار

والمعاني المستكنّة في الضمائر ، وبه يتيسّر للإنسان أن يستحضر كلّ ماضرب مرور الزمان أوبعد المكان دونه حجابا .

وقد امتنّ الله سبحانه على الإنسان بهدايته إليهما وتعليمهماله فقال في الكلام «خلق الإنسان علّمه البيان» الرحمان : ٤ وقال في القلم : «علّم بالقلم علّم الإنسان مالم يعلم » العلق : ٥ .

فإقسامه تعالى بالقلم ومايسطرون إقسام بالنعمة ، وقد أقسم تعالى في كلامه بكثير من خلقه بما أنّه رحمة ونعمة كالسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار إلى غير ذلك حتّى التين والزيتون .

وقيل : «ما» في قوله : «وما يسطرون» مصدريّة والمراد به الكتابة .

وقيل : المراد بالقلم القلم الأعلى الّذي في الحديث أنّه أوّل ماخلق الله وبما يسطرون مايسطره الحفظة والكرام الكاتبون واحتمل أيضا أن يكون الجمع في «يسطرون» للتعظيم لا للتكثير وهو كماترى ، واحتمل أن يكون المراد مايسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ واحتمل أن يكون المراد بالقلم ومايسطرون أصحاب القلم ومسطوراتهم وهي احتمالات واهية.

قوله تعالى « ما أنت بنعمة ربّك بمجنون » مقسم عليه و الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله ، والباء في «بنعمة» للسببيّة أو المصاحبة أي ماأنت بمجنون بسبب النعمة ـ أومع النعمة ـ الّتي أنعمها عليك ربّك .

والسياق يؤيّد أنّ المراد بهذه النعمة النبوّة فإنّ دليل النبوّة يدفع عن النبيّ كلّ اختلال عقليّ حتّى تستقيم الهداية الإلهيّة اللّازمة في نظام الحياة الإنسانية ، والآية تردّ مارموه به من الجنون كما يحكى عنهم في آخر السورة « ويقولون إنّه لمجنون » .

وقيل : المراد بالنعمة فصاحته ﷺ وعقله الكامل وسيرته المرضيّة وبراءته من كلّ عيب واتّصافه بكلّ مكرمة فظهور هذه الصفات فيه ﷺ ينافي حصول الجنون فيه وماقدّمناه أقطع حجة والآية ومايتلوها كماترى تعزية للنبيّ ﷺ وتطييب

لنفسه الشريفة وتأييد له كما أنّ فيها تكذيباً لقولهم .

قوله تعالى : «وإنّ لك لأجراً غير ممنون» الممنون من المنّ بمعنى القطع يقال : منّه السير منّاً إذا قطعه وأضعفه لامن المنّة بمعنى تثقيل النعمة قولا .

والمراد بالأجر أجر الرسالة عند الله سبحانه ، وفيه تطييب لنفس النبي صلى الله عليه وآله وأنّ له على تحمّل رسالة الله أجرا غير مقطوع وليس يذهب سدىً .

وربّما اُخذ المنّ بمعنى ذكر المنعم إنعامه على المنعم عليه بحيث يثقل عليه ويكدّر عيشه بتقريب أنّ مايعطيه الله أجر في مقابل عمله فهو يستحقّه عليه تعالى فلامنّة عليه وهو غير سديد فإنّ كل عامل مملوك لله سبحانه بحقيقة معنى الملك بذاته وصفاته وأعماله فمايعطيه العبد من ذلك فهو موهبة وعطيّة ومايملكه العبد من ذلك فإنّما يملكه بتمليك الله وهو المالك لماملّكه من قبل ومن بعد فهو تفضّل منه تعالى ولئن سمّى مايعطيه بإزاء العمل أجراً وسمّى مابينه و بين عبده من مبادلة العمل والأجر معاملة فذلك تفضّل آخر فللّه سبحانه المنّة على جميع خلقه والرسول ومن دونه فيه سواء .

قوله تعالى : « و إنّك لعلى خلق عظيم » الخلق هو الملكة النفسانيّة الّتي تصدر عنها الأفعال بسهولة وينقسم إلى الفضيلة و هي الممدوحة كالعفّة و الشجاعة ، و الرذيلة و هي المذمومة كالشره و الجبن لكنه إذا اُطلق فهم منه الخلق الحسن .

قال الراغب : و الخلق ـ بفتح الخاء ـ و الخلق ـ بضمّ الخاء ـ في الأصل واحد كالشَرب و الشُرب و الصرم و الصُرم لكن خصّ الخلق ـ بالفتح ـ بالهيآت و الأشكال و الصور المدركة بالبصر ، و خصّ الخلق ـ بالضمّ ـ بالقوى و السجايا المدركة بالبصيرة قال تعالى : «و إنّك لعلى خلق عظيم » . انتهى .

و الآية و إن كانت في نفسها تمدح حسن خلقه صلى الله عليه وآله وتعظّمه غير أنّها بالنظر إلى خصوص السياق ناظرة إلى أخلاقه الجميلة الاجتماعيّة المتعلّقة بالمعاشرة كالثبات على الحقّ و الصبر على أذى الناس و جفاء أجلافهم و العفو و الإغماض وسعة البذل والرفق والمداراة و التواضع وغيرذلك ، و قد أوردنا في آخر الجزء السادس من الكتاب

ماروي في جوامع أخلاقه صلى الله عليه وآله.

و ممّا تقدّم يظهر أنّ ما قيل : إنّ المراد بالخلق الدين و هو الإسلام غير مستقيم إلاّ بالرجوع الى ما تقدّم.

قوله تعالى : «فستبصر و يبصرون بأيّكم المفتون» تفريع على محصّل ماتقدّم أي فإذا لم تكن مجنوناً بل متلبّساً بالنبوّة ومتخلّقاً بالخلق و لك عظيم الأجر من ربّك فسيظهر أمر دعوتك و ينكشف على الأبصار و البصائر من المفتون بالجنون ؟ أنت أو المكذّبون الرامون لك بالجنون.

و قيل المراد ظهور عاقبة أمر الدعوة له و لهم في الدنيا أو في الآخرة ؟ والآية تقبل الحمل على كلّ منها . و لكلّ قائل ، ولا مانع من الجمع فإنّ الله تعالى أظهر نبيّه عليهم و دينه على دينهم ، ورفع ذكره صلى الله عليه وآله و محا أثرهم في الدنيا و سيذوقون وبال أمرهم غداً و يعلمون [1] أنّ الله هو الحقّ المبين يوم هم [2] على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الّذي كنتم به تستعجلون.

و قوله : «بأيّكم المفتون» الباء زائدة للصلة ، و المفتون اسم مفعول من الفتنة بمعنى الابتلاء يريد به المبتلى بالجنون و فقدان العقل ، والمعنى فستبصر و يبصرون أيّكم المفتون المبتلى بالجنون ؟ أنت أم هم ؟

وقيل : المفتون مصدر على زنة مفعول كمعقول وميسور ومعسور في قولهم : ليس له معقول ، وخذ ميسوره ، ودع معسوره ، و الباء في «بأيّكم» بمعنى في و المعنى فستبصر و يبصرون في أي الفريقين الفتنة.

قوله تعالى : «إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله و هو أعلم بالمهتدين» لمّا اُفيد بما تقدّم من القول أنّ هناك ضلالاً و اهتداءً ، و اُشير إلى أنّ الرامين للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم بالجنون هم المفتونون الضالّون و سيظهر أمرهم و أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) النور : ٢٥ .
(٢) الذاريات : ١٤ .

مهتد وكان ذلك ببيان من الله سبحانه أكّد ذلك بأنّ الله أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين لأنّ السبيل سبيله وهو أعلم بمن هو في سبيله و من ليس فيه وإليه أمر الهداية .

قوله تعالى : « فلا تطع المكذّبين » تفريع على المحصّل من معنى الآيات السابقة وفي المكذّبين معنى العهد و المراد بالطاعة مطلق الموافقه عملاً أوقولاً والمعنى فإذا كان هؤلاء المكذّبون لك مفتونين ضالّين فلاتطعهم .

قوله تعالى : « ودّوا لو تدهن فيدهنون» الإدهان من الدهن يراد به التليين أي ودّ وأحبّ هؤلاء المكذّبون أن تليّنهم بالاقتراب منهم في دينك فيليّنوك بالاقتراب منك في دينهم ، و محصّله أنّهم ودّوا أن تصالحهم و يصالحوك على أن يتسامح كلّ منكم بعض المسامحة في دين الآخر كما قيل : إنّهم عرضوا عليه أن يكفّ عن ذكر آلهتهم فيكفّوا عنه و عن ربّه .

و بما تقدّم ظهر أنّ متعلّق مودّتهم مجموع « لو تدهن فيدهنون» و أنّ الفاء في «فيدهنون» للتفريع لا للسببيّة .

قوله تعالى : «ولا تطع كلّ حلاّف مهين ـ إلى قوله ـ زنيم» الحلاّف كثير الحلف ، و لازم كثرة الحلف و الإقسام في كلّ يسير و خطير و حقّ و باطل أن لا يحترم الحالف شيأً ممّا يقسم به ، و إذا كان حلفه بالله فهو لا يستشعر عظمة الله عزّ اسمه و كفى به رذيلة .

والمهين من المهانة بمعنى الحقارة و المراد به حقارة الرأي ، وقيل : هو المكثار في الشّر ، و قيل : هو الكذّاب .

و الهمّاز مبالغة من الهمز والمراد به العيّاب الطعّان ، وقيل : الطعّان بالعين و الإشارة و قيل : كثير الاغتياب .

و المشّاء بنميم النميم السعاية و الإفساد ، و المشّاء به هو نقّال الحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم .

و المنّاع للخير كثير المنع لفعل الخير أو للخير الّذي ينال أهله .

والمعتدي من الاعتداء وهو المجاوزة للحدّ ظلماً .

والأثيم هو الّذي كثر إثمه حتّى استقرّ فيه من غير زوال والإثم هو العمل السيّىء الّذي يبطىء الخير.

والعتل بضمّتين هو الفظّ الغليظ الطبع ، وفسّر بالفاحش السيّىء الخلق ، وبالجافي الشديد الخصومة بالباطل ، وبالأكول المنوع للغير ، وبالّذي يعتلّ الناس ويجرّهم إلى حبس أو عذاب .

والزنيم هو الّذي لا أصل له ، وقيل : هو الدعيّ الملحق بقوم وليس منهم ، وقيل : هو المعروف باللؤم ، وقيل : هو الّذي له علامة في الشرّ يعرف بها وإذا ذكر الشرّ سبق هو إلى الذهن ، والمعاني متقاربة .

فهذه صفات تسع رذيلة وصف الله بها بعض أعداء الدين ممّن كان يدعو النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى الطاعة والمداهنة ، وهي جماع الرذائل .

وقوله : « عتلّ بعد ذلك زنيم » معناه أنّه بعد ما ذكر من مثالبه ورذائله عتلّ زنيم قيل : وفيه دلالة على أنّ هاتين الرذيلتين أشدّ معايبه .

والظاهر أنّ فيه إشارة إلى أنّ له خبائث من الصفات لا ينبغي معها أن يطاع في أمر الحقّ ولو اُغمض عن تلك الصفات فإنّه فظّ خشن الطبع لا أصل له لا ينبغي أن يعبأ بمثله في مجتمع بشريّ فليطرد ولا يطع في قول ولا يتّبع في فعل .

قوله تعالى : « أن كان ذا مال وبنين » الظاهر أنّه بتقدير لام التعليل وهو متعلّق بفعل محصّل من مجموع الصفات الرذيلة المذكورة أي هو يفعل كذا وكذا لأن كان ذا مال وبنين فبطر بذلك وكفر بنعمة الله وتلبّس بكلّ رذيلة خبيثة بدل أن يشكر الله على نعمته ويصلح نفسه فالآية في إفادة الذمّ والتهكّم تجري مجرى قوله : « ألم تر إلى الّذي حاجّ إبراهيم في ربّه أن آتاه الله الملك» .

وقيل : إنّه متعلّق بقوله السابق « لا تطع » والمعنى لا تطعه لكونه ذا مال وبنين أي لا يحملك كونه ذا مال وبنين على طاعته ، والمعنى المتقدّم أقرب وأوسع .

قيل : ولا يجوز تعلّقه بقوله : « قال » في الشرطيّة التالية لأنّ ما بعد الشرط

لا يعمل فيما قبله عند النحاة .

قوله تعالى : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين » الأساطير جمع اُسطورة وهي القصّة الخرافيّة ، والآية تجري مجرى التعليل لقوله السابق : « لا تطع » .

قوله تعالى : « سنسمه على الخرطوم » الوسم والسمة وضع العلامة ، والخرطوم الأنف وقيل : إنّ في إطلاق الخرطوم على أنفه وإنّما يطلق في الفيل والخنزير تهكّما ، وفي الآية وعيد على عداوته الشديدة لله ورسوله وما نزّله على رسوله .

والظاهر أنّ الوسم على الأنف اُريد به نهاية إذلاله بذلّة ظاهرة يعرفه بها كلّ من رآه فإنّ الأنف ممّا يظهر فيه العزّة والذلّة كما يقال : شمخ فلان بأنفه وحمي فلان أنفه وأرغمت أنفه وجدع أنفه .

والظاهر أنّ الوسم على الخرطوم ممّا سيقع يوم القيامة لا في الدنيا وإن تكلّف بعضهم في توجيه حمله على فضاحته في الدنيا .

قوله تعالى : « إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنّة ـ إلى قوله ـ كالصريم » البلاء الاختبار وإصابة المصيبة ، والصرم قطع الثمار من الأشجار ، والاستثناء عزل البعض من حكم الكلّ وأيضاً الاستثناء قول إن شاء الله عند القطع بقول وذلك أنّ الأصل فيه الاستثناء فالأصل في قولك : أخرج غداً إن شاءِ الله هو أخرج غداً إلّا أن يشاء الله أن لا أخرج ، والطائف العذاب الّذي يأتي بالليل ، والصريم الشجر المقطوع ثمره ، وقيل : الليل الأسود ، وقيل : الرمل المقطوع من سائر الرمل وهو لا ينبت شيئاً ولا يفيد فائدة .

الآيات أعني قوله : « إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنّة » إلى تمام سبع عشرة آية وعيد لمكذّبي النبيّ صلى الله عليه وآله الرامين له بالجنون ، وفي التشبيه والتنظير دلالة على أنّ هؤلاء المكذّبين معذّبون لا محالة والعذاب الواقع عليهم قائم على ساقه ، غير أنّهم غافلون وسيعلمون ، فهم مولعون اليوم بجمع المال و تكثير البنين

مستكبرون بها معتمدون عليها وعلى سائر الأسباب الظاهريّة الّتي توافقهم وتشايع أهواءهم من غير أن يشكروا ربّهم على هذه النعم ويسلكوا سبيل الحقّ ويعبدوا ربّهم حتّى يأتيهم الأجل ويفاجئهم عذاب الآخرة أو عذاب دنيويّ من عنده كما فاجأهم يوم بدر فيروا انقطاع الأسباب عنهم وأنّ المال والبنين سدى لاينفعهم شيئاً كما شاهد نظير ذلك أصحاب الجنّة من جنّتهم وسيندمون على صنيعهم ويرغبون إلى ربّهم ولا يردّ ذلك عذاب الله كما ندم أصحاب الجنّة وتلاوموا ورغبوا إلى ربّهم فلم ينفعهم ذلك شيئاً كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، هذا على تقدير اتّصال الآيات بما قبلها ونزولها معها .

وأمّا على ما رووا أنّ الآيات نزلت في القحط والسنة الّذي أصاب أهل مكّة وقريشا إثر دعاء النبيّ صلى الله عليه وآله عليهم بقوله : « اللّهمّ اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فالمراد بالبلاء إصابتهم بالقحط وتناظر قصّتهم قصّة أصحاب الجنّة غير أنّ في انطباق ما في آخر قصّتهم من قوله : « فأقبل بعضهم على بعض » الخ على قصّة أهل مكّة خفاء .

وكيف كان فالمعنى «إنّا بلوناهم» أصبناهم بالبليّة «كما بلونا » وأصبنا بالبليّة « أصحاب الجنّة » وكانوا قوماً من اليمن و جنّتهم فيها وسيأتي إن شاء الله قصّتهم في البحث الروائيّ الآتي « إذ » ظرف لبلونا « أقسموا » و حلفوا « ليصرمنّها » أي ليقطعنّ و يقطفنّ ثمار جنّتهم « مصبحين » داخلين في الصباح و كأنّهم ائتمروا و تشاوروا ليلا فعزموا على الصرم صبيحة ليلتهم « ولا يستثنون » لم يقولوا إلاّ أن يشاء الله اعتماداً على أنفسهم و اتّكاءً على ظاهر الأسباب . أو المعنى قالوا وهم لايعزلون نصيباً من ثمارهم للفقراء والمساكين .

« فطاف عليها » على الجنّة « طائف » أي بلاء يطوف عليها و يحيط بها ليلا «من» ناحية« ربّك وهم نائمون، فأصبحت » وصارت الجنّة « كالصريم » و هو الشجر المقطوع ثمره أو المعنى فصارت الجنّة كالليل الأسود لمّا اسودّت بإحراق النار الّتي أرسلها الله إليها أوالمعنى فصارت الجنّة كالقطعة من الرمل لانبات بها ولا فائدة .

ـ ٢ ـ

قوله تعالى : « فتنادوا مصبحين ـ إلى قوله ـ قادرين » التنادي نداء بعض القوم بعضا ، والإصباح الدخول في الصباح ، وصارمين من الصرم بمعنى قطع الثمار من الشجرة ، والمراد به في الآية القاصدون لقطع الثمار ، والحرث الزرع والشجر، والخفت الاخفاء والكتمان ، والحرد المنع وقادرين من القدر بمعنى التقدير .

والمعنى « فتنادوا » أي فنادى بعض القوم بعضاً « مصبحين » أي والحال أنّهم داخلون في الصباح « أن اغدوا على حرثكم » تفسير للتنادي أي بكّروا مقبلين على جنّتكم ـ فاغدوا أمر بمعنى بكّروا مضمّن معنى أقبلوا ولذا عدّي بعلى ولو كان غير مضمّن عدّي بإلى كما في الكشّاف ـ « إن كنتم صارمين » أي قاصدين عازمين على الصرم والقطع .

« فانطلقوا » وذهبوا إلى جنّتهم « وهم يتخافتون » أي والحال أنّهم يأتمرون فيما بينهم بطريق المخافتة والمكاتمة « أن لا يدخلنّها » أي الجنّة « اليوم عليكم مسكين » أي أخفوا ورودكم الجنّة للصرم من المساكين حتّى لا يدخلوا عليكم فيحملكم ذلك على عزل نصيب من الثمر المصروم لهم « وغدوا » وبكّروا إلى الجنّة « على حرد » أي على منع للمساكين « قادرين » مقدّرين في أنفسهم أنّهم سيصرمونها ولا يساهمون المساكين بشيء منها .

قوله تعالى : « فلمّا رأوها قالوا إنّا لضالّون بل نحن محرومون » أي فلمّا رأوا الجنّة وشاهدوها وقد أصبحت كالصريم بطواف طائف من عندالله قالوا : إنّا لضالّون عن الصواب في غدوّنا إليها بقصد الصرم ومنع المساكين .

وقيل : المراد إنّا لضالّون طريق جنّتنا وما هي بها .

وقوله : « بل نحن محرومون » إضراب عن سابقه أي ليس مجرّد الضلال عن الصواب بل حرمنا الرزق .

قوله تعالى : « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون ـ إلى قوله ـ راغبون» أي « قال أوسطهم » أي أعدلهم طريقا وذلك أنّه ذكّرهم بالحقّ وإن تبعهم في العمل،

وقيل : المراد أوسطهم سنّا وليس بشيء « ألم أقل لكم » وقد كان قال لهم ذلك وإنّما لم يذكر قبل في القصّة إيجازا بالتعويل على ذكره ههنا .

« لو لا تسبّحون » المراد بتسبيحهم له تعالى تنزيههم له من الشركاء حيث اعتمدوا على أنفسهم وعلى سائر الأسباب الظاهريّة فأقسموا ليصرمنّها مصبحين ولم يستثنوا لله مشيّة فعزلوه تعالى عن السببيّة والتأثير ونسبوا التأثير إلى أنفسهم وسائر الأسباب الظاهريّة ، وهو إثبات للشريك ، ولو قالوا : لنصرمنّها مصبحين إلّا أن يشاء الله كان معنى ذلك نفي الشركاء وأنّهم إن لم يصرموا كان لمشيّة من الله وإن صرموا كان ذلك بإذن من الله فللّه الأمر وحده لا شريك له .

وقيل : المراد بتسبيحهم لله ذكر الله تعالى وتوبتهم إليه حيث نووا أن يصرموها ويحرموا المساكين منها ، وله وجه على تقدير أن يراد بالاستثناء عزل نصيب من الثمار للمساكين .

قوله تعالى : « قالوا سبحان ربّنا إنّا كنّا ظالمين » تسبيح منهم لله سبحانه إثر توبيخ أوسطهم لهم ، أي ننزّه الله تنزيهاً من الشركاء الّذين أثبتناهم فيما حلفنا عليه فهو ربّنا الّذي يدبّر بمشيّته اُمورنا لأنّا كنّا ظالمين في إثباتنا الشركاء فهو تسبيح واعتراف بظلمهم على أنفسهم في إثبات الشركاء .

وعلى القول الآخر توبة واعتراف بظلمهم على أنفسهم وعلى المساكين .

قوله تعالى : « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » أي يلوم بعضهم بعضاً على ما ارتكبوه من الظلم .

قوله تعالى : « قالوا يا ويلنا ـ إلى قوله ـ راغبون » الطغيان تجاوز الحدّ وضمير « منها » للجنّة باعتبار ثمارها والمعنى قالوا يا ويلنا إنّا كنّا متجاوزين حدّ العبوديّة إذ أثبتنا شركاء لربّنا ولم نوحّده ، ونرجو من ربّنا أن يبدلنا خيراً من هذه الجنّة الّتي طاف عليها طائف منه لأنّا راغبون إليه معرضون عن غيره .

قوله تعالى : « كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » العذاب مبتدء مؤخّر وكذلك خبر مقدّم أي إنّما يكون العذاب على ما وصفناه في قصّة

أصحاب الجنّة وهو أنّ الإنسان يمتحن بالمال والبنين فيطغى مغترّاً بذلك فيستغني بنفسه وينسى ربّه ويشرك بالأسباب الظاهرية وبنفسه ويجترىء على المعصية وهو غافل عمّا يحيط به من وبال عمله ويهيّؤ له من العذاب كذلك حتّى إذا فاجاه العذاب وبرز له بأهول وجوهه وأمرّها انتبه من نومة الغفلة وتذكّر ما جاءه من النصح قبلا وندم على ما فرّط بالطغيان والظلم وسأل الله أن يعيد عليه النعمة فيشكر كما انتهى إليه أمر أصحاب الجنّة ، ففي ذلك إعطاء الضابط بالمثال .

وقوله : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » لأنّه ناش عن قهر إلهي لا يقوم له شيء لا رجاء للتخلّص منه ولو بالموت والفناء كما في شدائد الدنيا ، محيط بالإنسان من جميع أقطار وجوده لا كعذاب الدنيا دائم لا انتهاء لأمده كما في الابتلاءات الدنيويّة .

﴿ بحث روائي ﴾

في المعاني بإسناده عن سفيان بن سعيد الثوريّ عن الصادق عليه السلام في تفسير الحروف المقطّعة في القرآن قال : وأمّا نٓ فهو نهر في الجنّة قال الله عزّ وجل : اجمد فجمد فصار مداداً ثم قال للقلم : اكتب فسطر القلم في اللوح المحفوظ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فالمداد مداد من نور والقلم قلم من نور واللوح لوح من نور .

قال سفيان : فقلت له : يابن رسول الله بيّن أمر اللوح والقلم والمداد فضل بيان وعلّمني ممّا علّمك الله فقال : يابن سعيد لولا أنّك أهل للجواب ما أجبتك فنون ملك يؤدّي إلى القلم وهو ملك ، والقلم يؤدّي إلى اللّوح وهو ملك ، واللّوح يؤدّي إلى إسرافيل وإسرافيل يؤدّي الى ميكائيل وميكائيل يؤدّي إلى جبرائيل وجبرائيل يؤدّي إلى الانبياء والرسل . قال : ثم قال : قم يا سفيان فلا آمن عليك .

وفيه بإسناده عن إبراهيم الكرخيّ قال: سألت جعفر بن محمّد عليه السلام عن اللّوح والقلم قال : هما ملكان .

وفيه باسناده عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه‌السلام : «ن والقلم وما يسطرون » القلم قلم من نور وكتاب من نور في لوح محفوظ يشهده المقرّبون وكفى بالله شهيدا .

أقول : وفي المعاني المتقدّمة روايات أخرى عن أئمّة أهل البيت عليهم‌السلام ، وقد تقدّم في ذيل قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ » الجاثية : ٢٩ حديث القمّي عن عبد الرحيم القصير عن الصادق عليه‌السلام في اللّوح والقلم وفيه : ثمّ ختم على فم القلم فلم ينطق بعد ذلك ولا ينطق أبداً وهو الكتاب المكنون الّذي منه النسخ كلّها .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن جرير عن معاوية بن قرّة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «نّ والقلم وما يسطرون » قال : لوح من نور وقلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة .

أقول : وفي معناه روايات اُخر ، وقوله : يجري بما هو كائن الخ أي منطبق على متن الكائنات من دون أن يتخلّف شيء منها عمّا كتب هناك ونظيره ما في رواية أبي هريرة : ثمّ ختم على في القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة .

وفي المعاني باسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قول الله عزّوجل: « وإنّك لعلى خلق عظيم » قال : هو الاسلام .

وفي تفسير القمّي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله : « إنّك لعلى خلق عظيم » قال : على دين عظيم .

أقول : يريد اشتمال الدين والاسلام على كمال الخُلق واستنانه صلى‌الله‌عليه‌وآله به ، وفي الرواية المعروفة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله : بعثت لاُتمّم مكارم الأخلاق .

وفي المجمع باسناده عن الحاكم باسناده عن الضحّاك قال : لمّا رأت قريش تقديم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليّاً وإعظامه له نالوا من علي وقالوا : قد افتتن به محمّد فأنزل الله تعالى : « نّ والقلم وما يسطرون » قسم أقسم‌الله به « ما أنت بنعمة ربّك بمجنون وإنّ لك لأجراً غير ممنون وإنّك لعلى خلق عظيم » يعني القرآن ـ إلى قوله ـ

بمن ضلّ عن سبيله » وهم النفر الّذين قالوا ما قالوا « وهو أعلم بالمهتدين » يعني عليّ بن أبي طالب.

أقول : ورواه في تفسير البرهان عن محمّد بن العبّاس بإسناده إلى الضحّاك وساق نحواً ممّا مرّ و في آخره : وسبيله عليّ بن أبي طالب .

وفيه في قوله تعالى : « ولا تطع كلّ حلّاف » الخ قيل : يعني الوليد بن المغيرة عرض على النبيّ صلى الله عليه وآله المال ليرجع عن دينه ، وقيل : يعني الأخنس بن شريق عن عطاء ، وقيل : يعني الأسود بن عبد يغوث عن مجاهد .

أقول : وفي ذلك روايات في الدّرّ المنثور وغيره تركنا إيرادها من أرادها فليراجع جوامع الروايات .

وفيه عن شدّاد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا يدخل الجنّة جوّاظ ولا جعظريّ ولا عتلّ زنيم . قلت : فما الجوّاظ ؟ قال : كلّ جمّاع منّاع قلت : فما الجعظريّ ؟ قال : الفظّ الغليظ قلت : فما العتلّ الزنيم ؟ قال : كلّ رحيب الجوف سيّىء الخلق أكول شروب غشوم ظلوم زنيم.

وفيه في معنى الزنيم : قيل هو الّذي لا أصل له .

وفي تفسير القمّيّ في قوله : « عتلّ بعد ذلك زنيم » قال : العتلّ العظيم الكفر الزنيم الدعيّ .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : «إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنّة » إنّ أهل مكّة ابتلوا بالجوع كما ابتلي أصحاب الجنّة وهي كانت في الدنيا وكانت باليمن يقال له الرضوان على تسعة أميال من صنعاء .

وفيه باسناده إلى ابن عبّاس أنّه قيل له إنّ قوماً من هذه الاُمّة يزعمون أنّ العبد يذنب فيحرم به الرزق فقال ابن عبّاس فوالله الّذي لا إله إلّا هو هذا أنور في كتاب الله من الشمس الضاحية ذكره الله في سورة ن والقلم .

إنّه كان شيخ وكان له جنّة وكان لا يدخل إلى بيته ثمرة منها ولا إلى منزله حتّى يعطي كلّ ذي حقّ حقّه فلمّا قبض الشيخ ورثه بنوه وكان له خمس من البنين

فحملت جنّتهم في تلك السنة الّتي هلك فيها أبوهم حملاً لم يكن حملته قبل ذلك فراحوا الفتية إلى جنّتهم بعد صلاة العصر فأشرفوا على ثمرة ورزق فاضل لم يعاينوا مثله في حياة أبيهم .

فلمّا نظروا إلى الفضل طغوا و بغوا وقال بعضهم لبعض : إنّ أبانا كان شيخا كبيراً قد ذهب عقله وخرف فهلمّوا نتعاقد فيما بيننا أن لا نعطي أحداً من فقراء المسلمين في عامنا شيأ حتّى نستغني ويكثر أموالنا ثم نستأنف الصنيعة فيما استقبل من السنين المقبلة فرضي بذلك منهم أربعة وسخط الخامس وهو الّذي قال الله : «قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون » .

فقال الرجل : يابن عبّاس كان أوسطهم في السنّ ؟ فقال : لا بل كان أصغرهم سنّاً وأكبرهم عقلاً وأوسط القوم خير القوم ، والدليل عليه في القرآن قوله : إنكم ياأُمّة محمّد أصغر الأُمم وخير الأُمم قوله عزّ وجل : «وكذلك جعلنا كم اُمّة وسطا ».

قال لهم أوسطهم : اتّقوا وكونوا على منهاج أبيكم تسلموا وتغنموا فبطشوا به وضربوه ضرباً مبرحاً فلمّا أيقن الأخ منهم أنّهم يريدون قتله دخل معهم في مشورتهم كارهاً لأمرهم غير طائع .

فراحوا إلى منازلهم ثمّ حلفوا بالله ليصرمنّ إذا أصبحوا ولم يقولوا إن شاء الله فابتلاهم الله بذلك الذنب وحال بينهم و بين ذلك الرزق الّذى كانوا أشرفوا عليه فأخبر عنهم في الكتاب فقال : « إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنّة إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربّك و هم نائمون فأصبحت كالصريم » قال : كالمحترق .

فقال الرجل : يابن عبّاس ما الصريم ؟ قال : الليل المظلم ، ثمّ قال : لاضوء له ولا نور .

فلمّا أصبح القوم « فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » قال : «فانطلقوا وهم يتخافتون» قال الرجل : وما التخافت يابن عبّاس ؟ قال : يتشاورون

فيشاور بعضهم بعضاً لكيلا يسمع أحد غيرهم فقالوا : «لايدخلنّها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين» في أنفسهم أن يصرموها ولايعلمون ماقد حلّ بهم من سطوات الله ونقمته.

«فلمّا رأوها» وماقد حلّ بهم «قالوا إنّا لضالّون بل نحن محرومون» فحرمهم الله ذلك الرزق بذنب كان منهم ولم يظلمهم شيئاً.

«قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون قالوا سبحان ربنا إنّا كنّا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون» قال: يلومون أنفسهم فيما عزموا عليه «قالوا يا ويلنا إنا كنّا طاغين عسى ربّنا أن يبدلنا خيراً منها إنّا إلى ربّنا راغبون» فقال الله «كذلك العذاب و لعذاب الآخرة أكبر لوكانوا يعلمون».

أقول : وقدورد مايقرب من مضمون هذا الحديث والّذي قبله في روايات اُخر وفي بعض الروايات أنّ الجنّة كانت لرجل من بني إسرائيل ثمّ مات و ورثه بنوه فكان من أمرهم ماكان.



✩✩✩

انَّ لِلمتقين عند ربهم جنات النعيم (٣٤) افنجعل المسلمين كالمجرمين (٣٥) مالكم كيف تحكمون (٣٦) أم لكم كتاب فيه تدرسون (٣٧) انَّ لكم فيه لما تخيرون (٣٨) أم لكم أيمان علينا بالغة الى يوم القيامة انَّ لكم لما تحكمون (٣٩) سلهم أيهم بذلك زعيم(٤٠) أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم ان كانوا صادقين (٤١) يوم يكشف عن ساق و يدعون الى السجود فلا يستطيعون (٤٢) خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة و قد كانوا يدعون الى السجود و هم سالمون (٤٣) فذرني و من يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون(٤٤) و املي لهم انَّ كيدي متين (٤٥) أم تسئلهم أجراً فهم من مغرم مثقلون (٤٦) أم عندهم الغيب فهم يكتبون (٤٧) فاصبر لحكم ربك و لا تكن كصاحب الحوت اذ نادى و هو مكظوم (٤٨) لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم (٤٩) فاجتبيه ربه فجعله من الصالحين (٥٠) و ان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر و يقولون انه لمجنون (٥١) و ما هو الا ذكر للعالمين (٥٢)

﴿ بيان ﴾

فيها تذييل لماتقدّم من الوعيد لمكذّبي النبيّ صلى الله عليه وآله وتسجيل العذاب عليهم في الآخرة إذ المتّقون في جنّات النعيم ، و تثبيت أنّهم والمتّقون لا يستون بحجّة قاطعة فليس لهم أن يرجوا كرامة من الله و هم مجرمون فما يجدونه من نعم الدنيا استدراج و إملاء .

و فيها تأكيد أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر لحكم ربّه .

قوله تعالى : « إنّ للمتّقين عند ربّهم جنّات النعيم » بشرى و بيان لحال المتّقين في الآخرة قبال ما بيّن من حال المكذّبين فيها .

و في قوله : « عند ربّهم » دون أن يقال : عند الله إشارة إلى رابطة التدبير و الرحمة بينهم وبينه سبحانه و أنّ لهم ذلك قبال قصرهم الربوبيّة فيه تعالى وإخلاصهم العبوديّة له .

و إضافة الجنّات إلى النعيم وهو النعمة للإشارة إلى أنّ ما فيها من شيء نعمة لاتشوبها نقمة و لذّة لايخالطها ألم ، و سيجيء إن شاء الله في تفسير قوله تعالى : « ثمّ لتسألنّ يومئذ عن النعيم » التكاثر : ٨ أنّ المراد بالنعيم الولاية .

قوله تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » تحتمل الآية في بادىء النظر أن تكون مسوقة حجّة على المعاد كقوله تعالى « أم نجعل الّذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار » ص : ٢٨ و قد تقدّم تفسيره .

و أن تكون ردّاً على قول من قال منهم للمؤمنين : لو كان هناك بعث و إعادة لكنّا منعّمين كما في الدنيا و قد حكى سبحانه ذلك عن قائلهم : « و ما أظنّ الساعة قائمة و لئن رجعت إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى » حمّ السجدة : ٥٠ .

ظاهر سياق الآيات التالية الّتي تردّ عليهم الحكم بالتساوي هو الاحتمال الثاني ، و هو الّذي رووه أنّ المشركين لمّا سمعوا حديث البعث و المعاد قالوا : إن صحّ ما

يقوله محمد و الّذين آمنوا معه لم تكن حالنا إلاّ أفضل من حالهم كما في الدنيا ولاأقلّ من أن تتساوى حالنا و حالهم .

غير أنّه يرد عليه أنّ الآية لو سيقت لردّ قولهم ، سنساويهم في الآخرة أو نزيد عليهم كما في الدنيا ، كان مقتضى التطابق بين الردّ و المردود أن يقال : أفنجعل المجرمين كالمسلمين و قد عكس .

و التدبّر في السياق يعطي أنّ الآية مسوقة لردّ دعواهم التساوي لكن لا من جهة نفي مساواتهم على إجرامهم للمسلمين بل تزيد على ذلك بالاشارة إلى أنّ كرامة المسلمين تأبى أن يساويهم المجرمون كأنّه قيل : إنّ قولكم : سنتساوى نحن والمسلمون باطل فانّ الله لا يرضى أن يجعل المسلمين بما لهم من الكرامة عنده كالمجرمين و أنتم مجرمون .

فالآية تقيم الحجّة على عدم تساوي الفريقين من جهة منافاته لكرامة المسلمين عليه تعالى لا من جهة منافاة مساواة المجرمين للمسلمين عدله تعالى .

و المراد بالاسلام تسليم الأمر لله فلا يتّبع إلاّ ما أراده سبحانه من فعل أو ترك و يقابله الاجرام و هو اكتساب السيّئة و عدم التسليم .

و الآية و ما بعدها إلى قوله : « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » في مقام الردّ لحكمهم بتساوي المجرمين و المسلمين حالاً يوم القيامة تورد محتملات هذا الحكم من حيث منشائه في صور استفهامات إنكارية و تردّها .

وتقرير الحجّة أنّ كون المجرمين كالمسلمين يوم القيامة على ما حكموا به إمّا أن يكون من الله تعالى موهبة و رحمة و إمّا أن لا يكون منه .

و الأوّل إمّا أن يدلّ عليه دليل العقل و لا دليل عليه كذلك و ذلك قوله : «ما لكم كيف تحكمون» .

و إمّا أن يدلّ عليه النقل و ليس كذلك و هو قوله : « أم لكم كتاب » الخ و إمّا أن يكون لا لدلالة عقل أو نقل بل عن مشافهة بينهم وبين الله سبحانه عاهدوه و

واثقوه على أن يسوّي بينهما و ليس كذلك فهذه ثلاثة احتمالات .

و إمّا أن لا يكون من الله فإمّا أن يكون حكمهم بالتساوي حكماً جدّيّاً أولا يكون فإن كان جدّيّاً فإمّا أن يكون التساوي الّذي يحكمون به مستنداً إلى أنفسهم بأن يكون لهم قدرة على أن يصيروا يوم القيامة كالمسلمين حالاً وإن لم يشأ الله ذلك و ليس كذلك و هو قوله : « سلهم أيّهم بذلك زعيم » أو يكون القائم بهذا الأمر المتصدّي له شركاؤهم ولا شركاء و هو قوله : « أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم» الخ .

و إمّا أن يكون ذلك لأنّ الغيب عندهم والاُمور الّتي ستستقبل الناس قدرها و قضاؤها منُوطان بمشيّتهم تكون و تقع كيف يكتبون فكتبوا لأنفسهم المساواة مع المسلمين ، و ليس كذلك ولاسبيل لهم إلى الغيب و ذلك قوله : «أم عندهم الغيب فهم يكتبون» و هذه ثلاثة احتمالات .

و إن لم يكن حكمهم بالمساواة حكماً جدّيّاً بل إنّما تفوّهوا بهذا القول تخلّصاً و فراراً من اتّباعك على دعوتك لأنّك تسألهم أجراً على رسالتك و هدايتك لهم إلى الحقّ فهم مثقلون من غرامته ، وليس كذلك ، و هو قوله : «أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون» و هذا سابع الاحتمالات .

هذا ما يعطيه التدبّر في الآيات في وجه ضبط ما فيها من الترديد و قد ذكروا في وجه الضبط غير ذلك من أراد الوقوف عليه فليراجع المطوّلات .

فقوله : «ما لكم كيف تحكمون» مسوق للتعجّب من حكمهم بكون المجرمين يوم القيامة كالمسلمين ، و هو إشارة إلى تأبّي العقل عن تجويز التساوي ، ومحصّله نفي حكم العقل بذلك إذ معناه أيّ شيء حصل لكم من اختلال الفكر وفساد الرأي حتّى حكمتم بذلك ؟

قوله تعالى : «أم لكم كتاب فيه تدرسون إنّ لكم لما تخيّرون » إشارة إلى انتفاء الحجّة على حكمهم بالتساوي من جهة السمع كما أنّ الآية السابقة كانت

إشارة إلى انتفائها من جهة العقل .

والمراد بالكتاب الكتاب السماويّ النازل من عند الله وهو حجّة، ودرس الكتاب قراءته ، و التخيّر الاختيار ، وقوله ، «إنّ لكم لما تخيّرون» في مقام المفعول لتدرسون و الاستفهام إنكاريّ .

و المعنى بل ألكم كتاب سماويّ تقرؤن فيه إنّ لكم في الآخرة - أو مطلقا - لما تختارونه فاخترتم السعادة و الجنّة .

قوله تعالى : «أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة أنّ لكم لما تحكمون» إشارة إلى انتفاء أن يملكوا الحكم بعهد و يمين شفاهيّ لهم على الله سبحانه .

و الأيمان جمع يمين و هو القسم ، و البلوغ هو الانتهاء في الكمال فالأيمان البالغة هي المؤكّدة نهاية التوكيد ، و قوله : «إلى يوم القيامة» على هذا ظرف مستقرّ متعلّق بمقدّر و التقدير أم لكم علينا أيمان كائنة إلى يوم القيامة مؤكّدة نهاية التوكيد الخ .

و يمكن أن يكون « إلى يوم القيامة» متعلّقاً ببالغة و المراد ببلوغ الأيمان انطباقها على امتداد الزمان حتّى ينتهى إلى يوم القيامة .

وقد فسّروا الأيمان بالعهود و المواثيق فيكون من باب إطلاق اللازم و إرادة الملزوم كناية ، و احتمل أن يكون من باب إطلاق الجزء و إرادة الكلّ .

و قوله : «إنّ لكم لما تحكمون» جواب القسم و هو المعاهد عليه ، و الاستفهام للإنكار .

و المعنى بل ألكم علينا عهود أقسمنا فيها إقساماً مؤكّداً إلى يوم القيامة إنّا سلّمنا لكم أنّ لكم لما تحكمون به .

قوله تعالى : « سلهم أيّهم بذلك زعيم » إعراض عن خطابهم و التفات إلى النبيّ صلى الله عليه وآله بتوجيه الخطاب لسقوطهم عن درجة استحقاق الخطاب و لذلك أورد بقيّة السؤالات وهي مسائل أربع في سياق الغيبة أوّلها قوله : «سلهم أيّهم بذلك زعيم» و الزعيم القائم بالأمر المتصدّي له ، و الاستفهام إنكاريّ .

و المعنى سل المشركين أيّهم قائم بأمر التسوية الّذي يدّعونه أي إذا ثبت أنّ الله لايسوّي بين الفريقين لعدم دليل يدلّ عليه فهل الّذي يقوم بهذا الأمر و يتصدّاه هو منهم ؟ فأيّهم هو ؟ و من الواضح بطلانه لايتفوّه به إلّا مصاب في عقله .

قوله تعالى : «أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين » ردّ لهم على تقدير أن يكون حكمهم بالتساوي مبنيّاً على دعواهم أنّ لهم آلهة يشاركون الله سبحانه في الربوبيّة سيشفعون لهم عند الله فيجعلهم كالمسلمين والاستفهام إنكاريّ يفيد نفي الشركاء .

و قوله : «فليأتوا بشركائهم» الخ كناية عن انتفاء الشركاء يفيد تأكيد ما في قوله: «أم لهم شركاء» من النفي .

وقيل: المراد بالشركاء شركاؤهم في هذا القول ، والمعنى أم لهم شركاء يشاركونهم في هذا القول و يذهبون مذهبهم فليأتوا بهم إن كانوا صادقين .

و أنت خبير بأنّ هذا المعنى لايقطع الخصام .

و قيل : المراد بالشركاء الشهداء و المعنى أم لهم شهداء على هذا القول فليأتوا بهم إن كانوا صادقين .

و هو تفسير بما لا دليل عليه من جهة اللفظ . على أنّه مستدرك لأنّ هؤلاء الشهداء شهداء على كتاب من عند الله أو وعد بعهد و يمين و قد ردّ كلا الاحتمالين فيما تقدّم .

و قيل : المراد بالشركاء شركاء الاُلوهيّة على ما يزعمون لكنّ المعنيّ من إتيانهم بهم إتيانهم بهم يوم القيامة ليشهدوا لهم أو ليشفعوا لهم عند الله سبحانه .

و أنت خبير بأنّ هذا المعنى أيضاً لايقطع الخصام .

قوله تعالى : «يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلايستطيعون ـ الى قوله ـ وهم سالمون» يوم ظرف متعلّق بمحذوف كاذكر و نحوه ، و الكشف عن الساق تمثيل في اشتداد الأمر اشتداداً بالغاً لما أنّهم كانوا يشمّرون عن سوقهم إذا اشتدّ الأمر للعمل أو للفرار قال في الكشّاف : فمعنى «يوم يكشف عن ساق» في معنى يوم يشتدّ الأمر و يتفاقم ، و لاكشف ثمّ ولا ساق كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ولا يد

ثمّ ولا غلّ وإنمّا هو مثل في البخل انتهى

والآية ومابعدها إلى تمام خمس آيات اعتراض وقع في البين بمناسبة ذكر شركائهم الّذين يزعمون أنّهم سيسعدونهم لوكان هناك بعث وحساب فذكر سبحانه أن لاشركاء لله ولاشفاعة وإنّما يحرز الإنسان سعادة الآخرة بالسجود أي الخضوع لله سبحانه بتوحيد الربوبيّة في الدنيا حتّى يحمل معه صفة الخضوع فيسعد بها يوم القيامة.

وهؤلاء المكذّبون المجرمون لم يسجدوا لله في الدنيا فلايستطيعون السجود في الآخرة فلايسعدون ولاتتساوى حالهم وحال المسلمين فيها البتّة بل الله سبحانه يعاملهم في الدنيا الاستكبارهم عن سجوده معاملة الاستدراج والإملاء حتّى يتمّ لهم شقاؤهم فيردوا العذاب الأليم في الآخرة.

فقوله: «يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلايستطيعون» معناه اذكر يوم يشتدّ عليهم الأمر ويدعون إلى السجود لله خضوعاً فلايستطيعون لاستقرار ملكة الاستكبار في سرائرهم واليوم تبلى السرائر[1].

وقوله: «خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة» حالان من نائب فاعل يدعون أي حال كون أبصارهم خاشعة وحال كونهم يغشاهم الذلّة بقهر، ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها.

وقوله: «وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون» المراد بالسلامة سلامتهم من الآفات والعاهات الّتي لحقت نفوسهم بسبب الاستكبار عن الحقّ فسلبتها التمكّن من إجابة الحقّ أو المراد مطلق استطاعتهم منه في الدنيا.

والمعنى وقد كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود لله وهم سالمون متمكّنون منه أقوى تمكّن فلايجيبون إليه.

وقيل المراد بالسجود الصلاة و هو كما ترى.

قوله تعالى: «فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث» المراد بهذا الحديث القرآن الكريم، وقوله: «فذرني ومن يكذّب» الخ كناية عن أنّه يكفيهم وحده وهو غير

---

(١) الطارق الاية ٩.

تاركهم وفيه نوع تسلية للنبيّ صلّى الله عليه وآله وتهديد للمشركين .

قوله تعالى : «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» استئناف فيه بيان كيفيّة أخذه تعالى لهم وتعذيبه إيّاهم المفهوم من قوله : «فذرني» الخ .

والاستدراج هو استنزالهم درجة فدرجة حتّى يتمّ لهم الشقاء فيقعوا في ورطة الهلاك وذلك بأن يؤتيهم الله نعمة بعد نعمة وكلّما اُوتوا نعمة اشتغلوا بها وفرّطوا في شكرها وزادوا نسياناً له وابتعدوا عن ذكره .

فالاستدراج إيتاؤهم النعمة بعد النعمة الموجب لنزولهم درجة بعد درجة واقترابهم من ورطة الهلاك ، وكونه من حيث لا يعلمون إنّما هو لكونه من طريق النعمة الّتي يحسبونها خيرا وسعادة لا شرّ فيها ولا شقاء .

قوله تعالى : «واُملي لهم إنّ كيدي متين» الا ملاء الا مهال ، والكيد ضرب من الاحتيال ، والمتين القويّ .

والمعنى واُمهلهم حتّى يتوسّعوا في نعمنا بالمعاصي كما يشاؤن إنّ كيدي قويّ .

والنكتة في الالتفات الّذي في «سنستدرجهم» عن التكلّم وحده إلى التكلّم مع الغير الدّلالة على العظمة وأنّ هناك موكّلين على هذه النعم الّتي تصبّ عليهم صبّاً ، والالتفات في قوله : «واُملي لهم» عن التكلّم مع الغير إلى التكلّم وحده لأنّ الا ملاء تأخير في الأجل ولم ينسب أمر الأجل في القرآن إلى غير الله سبحانه قال تعالى : «ثمّ قضى أجلا وأجل مسمّى عنده» الأنعام : ٢.

قوله تعالى : «أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون» المغرم الغرامة ، والا ثقال تحميل الثقل ، والجملة معطوفة على قوله : «أم لهم شركاء» الخ .

والمعنى أم تسأل هؤلاء المجرمين ـ الّذين يحكمون بتساوي المجرمين والمسلمين يوم القيامة ـ أجراً على دعوتك فهم من غرامة تحملها عليهم مثقلون فيواجهونك بمثل هذا القول تخلّصاً من الغرامة دون أن يكون ذلك منهم قولا جدّيّاً .

قوله تعالى : «أم عندهم الغيب فهم يكتبون» ظاهر السياق أن يكون المراد بالغيب غيب الأشياء الذي منه تنزل الاُمور بقدر محدود فتستقرّ في منصّة الظهور ، والمراد

بالكتابة على هذا هوالتقدير والقضاء ، والمراد بكون الغيب عندهم تسلّطهم عليه و ملكهم له .

فالمعنى أم بيدهم أمر القدرو القضاء فهم يقضون كما شاؤا فيقضون لأنفسهم أن يساووا المسلمين يوم القيامة .

وقيل : المراد بكون الغيب عندهم علمهم بصحّة ماحكموا به والكتابة على ظاهر معناه والمعنى أم عندهم علم بصحّة ما يدّعونه اختصّوا به ولايعلمه غيرهم فهم يكتبونه ويتوارثونه وينبغي أن يبرزوه .

وهو بعيد بل مستدرك والاحتمالات الاُخر المذكورة مغنية عنه .

وإنّما اُخّرذكر هذا الاحتمال عن غيره حتّى عن قوله : «أم تسألهم أجراً» مع أنّ مقتضى الظاهر أن يتقدّم عليه ، لكونه أضعف الاحتمالات وأبعدها .

قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربّك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » صاحب الحوت يونس النبيّ عليه‌السلام و المكظوم من كظم الغيظ إذا تجرّعه ولذا فسّر بالمختنق بالغمّ حيث لايجد لغيظه شفاء ، ونهيه صلى‌الله‌عليه‌وآله عن أن يكون كيونس عليه السلام وهو في زمن النداء مملوء بالغمّ نهي عن السبب المؤدّي إلى نظير هذا الابتلاء وهو ضيق الصدر و الاستعجال بالعذاب .

والمعنى فاصبر لقضاء ربّك أن يستدرجهم ويمليء لهم ولا تستعجل لهم العذاب لكفرهم ولاتكن كيونس فتكون مثله وهو مملوء غمّاً أوغيظاً ينادي الله بالتسبيح والاعتراف بالظلم أي فاصبر واحذر أن تبتلي بما يشبه ابتلاءه ، ونداؤه قوله في بطن الحوت : «لاإله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين » كما في سورة الانبياء .

وقيل : اللاّم في «لحكم ربّك» بمعنى إلى وفيه تهديد لقومه ووعيد لهم أن سيحكم الله بينه وبينهم ، والوجه المتقدّم أنسب لسياق الآيات السابقة .

قوله تعالى : « لولا أن تداركه نعمة من ربّه لنبذ بالعراء وهومذموم » في مقام التعليل للنهي السابق : «لاتكن كصاحب الحوت» والتدارك الإدراك واللحوق، وفسّرت

النعمة بقبول التوبة، والنبذ الطرح والعراء الأرض غير المستورة بسقف أو نبات والذمّ مقابل المدح.

والمعنى لولا أن أدركته ولحقت به نعمة من ربّه وهو أنّ الله قبل توبته لطرح بالأرض العراء وهو مذموم بما فعل.

لا يقال: إنّ الآية تنافي قوله تعالى: «فلولا أنّه كان من المسبّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون» الصافّات: ١٤٤ فإنّ مدلوله أنّ مقتضى عمله أن يلبث في بطنه إلى يوم القيامة ومقتضى هذه الآية أنّ مقتضاه أن يطرح في الأرض العراء مذموما و هما تبعتان متنافيتان لا تجتمعان.

فإنّه يقال: الآيتان تحكيان عن مقتضيين مختلفين لكلّ منهما أثر على حدة فآية الصافّات تذكر أنه عليه السلام كان مداوماً للتسبيح مستمرّاً عليه طول حياته قبل ابتلائه ـ وهو قوله: كان من المسبّحين ـ ولولا ذلك للبث في بطنه إلى يوم القيامة، والآية الّتي نحن فيها تدلّ على أنّ النعمة وهو قبول توبته في بطن الحوت شملته فلم ينبذ بالعراء مذموما.

فمجموع الآيتين يدلّ على أنّ ذهابه مغاضبا كان يقتضي أن يلبث في بطنه إلى يوم القيامة فمنع عنه دوام تسبيحه قبل التقامه وبعده، وقدّر أن ينبذ بالعراء وكان مقتضى عمله أنّ ينبذ مذموماً فمنع من ذلك تدارك نعمة ربّه له فنبذ غير مذموم بل اجتباه الله وجعله من الصالحين فلا منافاة بين الآيتين.

وقد تكرّر في مباحثنا السابقة أنّ حقيقة النعمة الولاية وعلى ذلك يتعيّن لقوله: «لولا أن تداركه نعمة من ربّه» معنى آخر.

قوله تعالى: «فاجتباه ربّه فجعله من الصالحين» تقدّم توضيح معنى الاجتباء والصلاح في مباحثنا المتقدّمة.

قوله تعالى: «وإن يكاد الّذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمّا سمعوا الذكر» إن مخفّفة من الثقيلة، والزلق هو الزلل، و الإزلاق الإزلال وهو الصرع كناية عن القتل والإهلاك.

والمعنى أنّه قارب الّذين كفروا أن يصرعوك بأبصارهم لمّا سمعوا الذكر .

والمراد بإزلاقه بالأبصار و صرعه بها - على ماعليه عامّة المفسّرين - الإصابة بالأعين ، وهو نوع من التأثير النفسانيّ لادليل على نفيه عقلا و ربّما شوهد من الموارد مايقبل الانطباق عليه ، وقدوردت فيه الروايات فلاموجب لإنكاره .

وقيل : المعنى أنّهم ينظرون إليك إذاسمعوا منك الذكر الّذي هو القرآن نظراً مليئاً بالعداوة والبغضاء يكادون يقتلونك بحديد نظرهم.

قوله تعالى : «ويقولون إنّه لمجنون وماهو إلاّ ذكر للعالمين» رميهم له بالجنون عند ما سمعوا الذكر دليل على أنّ مرادهم به رمي القرآن بأنّه من إلقاء الشياطين ، ولذا ردّ قولهم بأنّ القرآن ليس إلّا ذكراً للعالمين .

وقدردّ قولهم: «إنّه لمجنون» في أوّل السورة بقوله : «ماأنت بنعمة ربّك بمجنون» وبه ينطبق خاتمة السورة على فاتحتها .

﴿ بحث روائي ﴾

في المعاني بإسناده عن الحسين بن سعيد عن أبي الحسن عليه السلام في قوله عزّ وجلّ : «يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود» قال : حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجّداً وتدمج أصلاب المنافقين فلايستطيعون السجود .

وفيه بإسناده عن عبيد بن زرارة عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن قول الله عزّ وجلّ : « يوم يكشف عن ساق » قال : كشف إزاره عن ساقه فقال : سبحان ربّي الأعلى .

أقول : قال الصدوق بعد نقل الحديث : قوله: سبحان ربّي الأعلى تنزيه الله سبحانه أن يكون له ساق انتهى وفي هذا المعنى رواية اُخرى عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام .

وفيه بإسناده عن معلّى بن خنيس قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : ما يعني بقوله:

« وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » قال : وهم مستطيعون .

وفي الدرّ المنثور أخرج البخاريّ وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد : سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول : يكشف ربّنا عن ساقه فيسجد له كلّ مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا .

وفيه أخرج ابن منده في الردّ على الجهميّة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « يوم يكشف عن ساق » قال : يكشف الله عن ساقه .

وفيه أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا والطبراني والآجريّ في الشريعة والدارقطنيّ في الرؤية والحاكم وصحّحه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبدالله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : يجمع الله الناس يوم القيامة وينزل الله في ظلل من الغمام فينادي مناديا أيّها الناس ألم ترضوا من ربّكم [الذي] خلقكم وصوّركم ورزقكم أن يولّي كلّ إنسان منكم ما كان يعبد في الدنيا ويتولّى ؟ أليس ذلك من ربّكم عدلا ؟ قالوا : بلى .

قال : فينطلق كلّ إنسان منكم إلى ما كان يعبد في الدنيا ويتمثّل لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيتمثّل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ، ويتمثّل لمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير حتّى يمثّل لهم الشجرة والعود والحجر .

ويبقى أهل الإسلام جثوماً فيتمثّل لهم الربّ عزّ وجل فيقول لهم : مالكم لم تنطلقوا كما انطلق الناس ؟ فيقولون : إنّ لنا ربّاً ما رأيناه بعد فيقول : فبم تعرفون ربّكم إن رأيتموه ؟ قالوا: بيننا وبينه علامة إن رأيناه عرفناه ؟ قال : وما هي ؟ قالوا: يكشف عن ساق .

فيكشف عند ذلك عن ساق فيخرّ كلّ من كان يسجد طائعاً ساجداً ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون . الحديث .

أقول : والروايات الثلاث مبنيّة على التشبيه المخالف للبراهين العقلية ونصّ الكتاب العزيز فهي مطروحة أو مؤوّلة .

وفي الكافي بإسناده عن سفيان بن السمط قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : إنّ الله

إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة وذكّره الاستغفار ، فإذا أراد بعبد شرّاً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها ، وهو قول الله عزّ وجل : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » بالنعم والمعاصي .

أقول : وقد تقدّم بعض روايات الاستدراج في ذيل قوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » الآية ١٨٢ من سورة الأعراف .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « إذنادى وهومكظوم » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام : يقول : مغموم .

وفيه في قوله تعالى : « لولا أن تداركه نعمة من ربّه » قال : النعمة الرحمة .

وفيه في قوله تعالى : « لنبذ بالعراء » قال : الموضع الّذي لا سقف له .

وفي الدرّ المنثور في قوله تعالى : « وإن يكادالّذين كفروا » أخرج البخاري عن ابن عبّاس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : العين حقّ .

وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن جابر أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر .

أقول : وهناك روايات تطبّق الآيات السابقة على الولاية وهي من الجري دون التفسير ولذلك لم نوردها .



﴿سورة الحاقّة مكّيّة و هي اثنتان و خمسون آية﴾

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ الحَاقَّةُ (١) مَا الحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدرٰيكَ مَا الحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَت ثَمُودُ وَ عَادٌ بِالقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَ أَمَّا عَادٌ فَأُهلِكُوا بِرِيحٍ صَرصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيهِم سَبعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى القَومَ فِيهَا صَرعَىٰ كَأَنَّهُم أَعجَازُ نَخلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَل تَرَىٰ لَهُم مِن بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرعَونُ وَ مَن قَبلَهُ وَ المُؤتَفِكَاتُ بِالخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوا رَسُولَ رَبِّهِم فَأَخَذَهُم أَخذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلنَاكُم فِي الجَارِيَةِ (١١) لِنَجعَلَهَا لَكُم تَذكِرَةً وَ تَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢).

﴿بيان﴾

السورة تذكر الحاقّة و هي القيامة و قدسمّتها أيضاً بالقارعة و الواقعة .

وقد ساقت الكلام فيها في فصول ثلاث فصل تذكر فيه إجمالا الاُمم الّذين كذّبوا بها فأخذهم الله أخذة رابية ، و فصل تصف فيه الحاقّة و انقسام الناس فيها إلى أصحاب اليمين و أصحاب الشمال و اختلاف حالهم بالسعادة والشقاء ، وفصل تؤكّد فيه صدق القرآن في إنبائه بها و أنّه حقّ اليقين ، والسورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « الحاقّة ما الحاقّة وما أدراك ما الحاقّة » المراد بالحاقّة القيامة الكبرى سمّيت بها لثبوتها ثبوتاً لامردّ له و لاريب فيه ، من حقّ الشيء بمعنى ثبت وتقرّر تقرّراً واقعياً .

و « ما » في « ما الحاقّة » استفهاميّة تفيد تفخيم أمرها ، ولذلك بعينه وضع الظاهر موضع الضمير و لم يقل : ماهي ، و الجملة الاستفهاميّة خبر الحاقّة .

فقوله : «الحاقّة ما الحاقّة» مسوق لتفخيم أمر القيامة يفيد تفخيم أمرها وإعظام حقيقتها إفادة بعد إفادة .

و قوله : «و ما أدراك ما الحاقّة» خطاب بنفي العلم بحقيقة اليوم و هذا التعبير كناية عن كمال أهمية الشيء و بلوغه الغاية في الفخامة و لعلّ هذا هو المراد ممّا نقل عن ابن عباس «أنّ ما في القرآن من قوله تعالى : « ما أدراك » فقد أدراه و ما فيه من قوله : « ما يدريك » فقد طوى عنه » يعني أنّ «ما أدراك » كناية و « ما يدريك » تصريح .

قوله تعالى : «كذّبت ثمود و عاد بالقارعة» المراد بالقارعة القيامة وسمّيت بها لأنّها تقرع و تدكّ السماوات والأرض بتبديلها والجبال بتسييرها والشمس بتكويرها و القمر بخسفها و الكواكب بنثرها و الأشياء كلّها بقهرها على ما نطقت به الآيات ، و كان مقتضى الظاهر أن يقال : كذّبت ثمود و عاد بها فوضع القارعة موضع الضمير لتأكيد تفخيم أمرها .

و هذه الآية و ما يتلوها إلى تمام تسع آيات و إن كانت مسوقة للاشارة إلى إجمال قصص قوم نوح و عاد و ثمود و فرعون و من قبله والمؤتفكات و إهلاكهم لكنّها في الحقيقة بيان للحاقّة ببعض أوصافها و هو أنّ الله أهلك اُمماً كثيرة بالتكذيب بها فهي في الحقيقة جواب للسؤال بما الاستفهاميّة كما أنّ قوله : « فإذا نفخ في الصور » الخ جواب آخر .

و محصّل المعنى هي القارعة الّتي كذّبت بها ثمود و عاد و فرعون ومن قبله و المؤتفكات و قوم نوح فأخذهم الله أخذة رابية و أهلكهم بعذاب الاستئصال .

قوله تعالى : « فأمّا ثمود فاُهلكوا بالطاغية » بيان تفصيليّ لأثر تكذيبهم بالقارعة ، و المراد بالطاغية الصيحة أو الرجفة أو الصاعقة على اختلاف ظاهر تعبير

القرآن في سبب هلاكهم في قصّتهم قال تعالى : « وأخذ الّذين ظلموا الصيحة » هود : ٦٧ وقال أيضا : « فأخذتهم الرجفة » الأعراف : ٧٨ ، وقال أيضا : « فأخذتهم صاعقة العذاب الهون » حم السجدة : ١٧ .

وقيل : الطاغية مصدر كالطغيان والطغوى والمعنى فأمّا ثمود فاُهلكوا بسبب طغيانهم ، ويؤيّده قوله تعالى : «كذّب ثمود بطغواها » الشمس : ١١

وأوّل الوجهين أنسب لسياق الآيات التالية حيث سيقت لبيان كيفيّة إهلاكهم من الإهلاك بالريح أوالأخذ الرابي أوطغيان الماء فليكن هلاك ثمود بالطاغية ناظراً إلى كيفيّة إهلاكهم .

قوله تعالى : « وأمّا عاد فاُهلكوا بريح صرصر عاتية » الصرصر الريح الباردة الشديدة الهبوب ، و عاتية من العتوّ بمعنى الطغيان و الابتعاد من الطاعة والملاءمة .

قوله تعالى : « سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيّام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية » تسخيرها عليهم تسليطها عليهم ، والحسوم جمع حاسم كشهود جمع شاهد من الحسم بمعنى تكرار الكيّ مرّات متتالية :، و هي صفة لسبع أي سبع ليال و ثمانية أيّام متتالية متتابعة وصرعى جمع صريع وأعجاز جمع عجز بالفتح فالضمّ آخر الشيء ، وخاوية الخالية الجوف الملقاة والمعنى ظاهر

قوله تعالى : « فهل ترى لهم من باقية » أي من نفس باقية ، والجملة كناية عن استيعاب الهلاك لهم جميعاً ، وقيل : الباقية مصدر بمعنى البقاء وقد اُريد به البقيّة وما قدّمناه من المعنى أقرب .

قوله تعالى : « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة » المراد بفرعون فرعون موسى ، وبمن قبله الاُمم المتقدّمة عليه زماناً من المكذّبين ، و بالمؤتفكات قرى قوم لوط و الجماعة القاطنة بها ، و«خاطئة» مصدر بمعنى الخطاء والمراد بالمجيىء بالخاطئة إخطاء طريق العبوديّة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : «فعصوا رسول ربّهم فأخذهم أخذة رابية » ضمير « عصوا » لفرعون ومن قبله والمؤتفكات ، والمراد بالرسول جنسه ، والرابية الزائدة من ربا يربو ربوة إذا زاد ، والمراد بالأخذة الرابية العقوبة الشديدة و قيل : العقوبة الزائدة على سائر العقوبات وقيل : الخارقة للعادة .

قوله تعالى : « إنّا لمّا طغا الماء حملناكم في الجارية » إشارة إلى طوفان نوح والجارية السفينة ، وعدّ المخاطبين محمولين في سفينة نوح والمحمول في الحقيقة أسلافهم لكون الجميع نوعاً واحداً ينسب حال البعض منه إلى الكلّ و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « لنجعلها لكم تذكرة و تعيها اُذن واعية » تعليل لحملهم في السفينة فضمير « لنجعلها » للحمل باعتبار أنّه فعلة أي فعلنا بكم تلك الفعلة لنجعلها لكم أمراً تتذكّرون به وعبرة تعتبرون بها وموعظة تتّعظون بها .

وقوله : وتعيها اُذن واعية » الوعي جعل الشيء في الوعاء ، والمراد بوعي الاُذن لها تقريرها في النفس وحفظها فيها لترتّب عليها فائدتها وهي التذكّر والاتّعاظ .

وفي الآية بجملتيها إشارة إلى الهداية الربوبيّة بكلا قسميها أعني الهداية بمعنى إراءة الطريق والهداية بمعنى الايصال إلى المطلوب .

توضيح ذلك أنّ من السنّة الربوبيّة العامّة الجارية في الكون هداية كلّ نوع من أنواع الخليقة إلى كماله اللائق به بحسب وجوده الخاصّ بتجهيزه بما يسوقه نحو غايته كما يدلّ عليه قوله تعالى : « الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه : ٥٠ ، وقوله : « الّذي خلق فسوّى والّذي قدّر فهدى» الأعلى : ٣ وقد تقدّم توضيح ذلك في تفسير سورتي طه والأعلى وغيرهما .

والانسان يشارك سائر الأنواع المادّيّة في أنّ له استكمالاً تكوينيّاً وسلوكاً وجوديّاً نحو كماله الوجوديّ بالهداية الربوبيّة الّتي تسوقه نحو غايته المطلوبة و يختصّ من بينها بالاستكمال التشريعيّ فإنّ للنفس الانسانية استكمالا من

طريق أفعالها الاختياريّة بما يلحقهامن الأوصاف والنعوت وتتلبّس به من الملكات والأحوال في الحياة الدنيا و هي غاية وجود الإنسان الّتي تعيش بها عيشة سعيدة مؤبّدة .

وهذا هو السبب الداعي إلى تشريع السنّة الدينيّة بإرسال الرسل و إنزال الكتب والهداية إليها « لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل » النساء : ١٦٥ وقد تقدّم تفصيله في أبحاث النبوّة في الجزء الثاني من الكتاب وغيره ، وهذه هداية بمعنى إراءة الطريق و إعلام الصراط المستقيم الّذي لا يسع الإنسان إلاّ أن يسلكه قال تعالى : « إنّا هدينا السبيل إمّا شاكراً و إمّاكفورا » الدهر : ٣ فإن لزم الصراط وسلكه حيّ بحياة طيّبة سعيدة وإن تركه وأعرض عنه هلك بشقاء دائم وتمّت عليه الحجّة على أيّ حال قال تعالى : «ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة» الأنفال : ٤٢ .

إذا تقرّر هذا تبيّن أنّ من سنّة الربوبيّة هداية الناس إلى سعادة حياتهم بإراءة الطريق الموصل إليها ، وإليها الإشارة بقوله : «لنجعلها لكم تذكرة » فإنّ التذكرة لاتستوجب التذكّر ممّن ذكّربها بل ربّما أثّرت وربّما تخلّفت .

ومن سنّة الربوبيّة هداية الأشياء إلى كمالاتها بمعنى إنهائها وإيصالها إليها بتحريكها وسوقها نحوه ، وإليها الإشارة بقوله : « وتعيها اُذن واعية » فإنّ الوعي المذكور من مصاديق الاهتداء بالهداية الربوبيّة وإنّما لم ينسب تعالى الوعي إلى نفسه كما نسب التذكرة إلى نفسه لأنّ المطلوب بالتذكرة إتمام الحجّة وهو من الله وأمّا الوعي فإنّه وإن كان منسوبا إليه كما أنّه منسوب إلى الإنسان لكنّ السياق سياق الدعوة وبيان الأجر والمثوبة على إجابة الدعوة والأجر والمثوبة من آثار الوعي بما أنّه فعل للإنسان منسوب إليه لا بما أنّه منسوب إلى الله تعالى .

ويظهر من الآية الكريمة أنّ للحوادث الخارجيّة تأثيرا في أعمال الإنسان كما يظهر من مثل قوله : « ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من

السماء والأرض » الأعراف : ٩٦ أنّ لأعمال الإنسان تأثيرا في الحوادث الخارجيّة وقد تقدّم بعض الكلام فيه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور : أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله « لنجعلها لكم تذكرة » قال : لأمّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وكم من سفينة قد هلكت وأثر قد ذهب يعني مابقي من السفينة حتّى أدركته امّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم فرأوه كانت ألواحها ترى على الجوديّ .

اقول: وتقدّم ما يؤيّد ذلك في قصّة نوح في تفسيرسورة هود .

وفيه أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر وابن أبي حاتم و ابن مردويه عن مكحول قال : لمّا نزلت «وتعيها اذن واعية » قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :سألت ربّي أن يجعلها اذن عليّ . قال مكحول : فكان عليّ يقول : ما سمعت عن رسول الله شيأ فنسيته .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواحديّ وابن مردويه وابن عساكر وابن النجاري عن بردة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لعليّ : إنّ الله أمرني أن ادنيك و لا اقصيك و أن اعلّمك و أن تعي و حقّ لك أن تعي فنزلت هذه الآية « وتعيها اذن واعية » .

وفيه أخرج أبونعيم في الحلية عن عليّ قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : يا عليّ إنّ الله أمرني أن ادنيك واعلّمك لتعي فانزلت هذه الآية « وتعيها اذن واعية »فأنت اذن واعية لعلمي .

اقول : وروى هذا المعنى في تفسيرالبرهان عن سعدبن عبدالله باسناده عن أبي عبدالله عليه السلام ، وعن الكلينيّ باسناده عنه عليه السلام ، وعن ابن بابويه باسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام .

ورواه أيضاً عن ابن شهر آشوب عن حلية الأولياء عن عمر بن عليّ ، وعن الواحدىّ في أسباب النزول عن بريدة ، وعن أبي القاسم بن حبيب في تفسيره عن زرّ بن حبيش عن عليّ عليه السلام .

وقد روى في غاية المرام من طرق الفريقين ستّة عشر حديثا في ذلك وقال في البرهان إنّ محمّد بن العبّاس روى فيه ثلاثين حديثا من طرق العامّة والخاصّة .

* * *

فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة (١٣) و حملت الارض و الجبال فدكتا دكة واحدة (١٤) فيومئذ وقعت الواقعة (١٥) و انشقت السماء فهي يومئذ واهية (١٦) و الملك على ارجائها و يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية (١٧) يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية (١٨) فاما من اوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه (١٩) اني ظننت اني ملاق حسابيه (٢٠) فهو في عيشة راضية (٢١) في جنة عالية (٢٢) قطوفها دانية (٢٣) كلوا و اشربوا هنيئا بما أسلفتم في الايام الخالية (٢٤) وأما من اوتى كتابه بشماله فيقول ياليتني لم اوت كتابيه (٢٥) ولم أدر ما حسابيه (٢٦) ياليتها كانت القاضية (٢٧) ما أغنى عني ماليه (٢٨) هلك عني سلطانيه (٢٩) خذوه فغلوه (٣٠) ثم الجحيم صلوه (٣١) ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه (٣٢) انه كان لا يؤمن بالله العظيم (٣٣) ولا يحض على طعام المسكين (٣٤) فليس له اليوم ههنا حميم (٣٥) ولا طعام الا من غسلين (٣٦) لا ياكله الا الخاطئون (٣٧)

﴿ بيان ﴾

هذا هو الفصل الثاني من الآيات يعرّف الحاقّة ببعض أشراطها ونبذة ممّا يقع فيها .

قوله تعالى : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة » قد تقدّم أنّ النفخ في الصور كناية عن البعث والإحضار لفصل القضاء ، وفي توصيف النفخة بالواحدة إشارة إلى مضيّ الأمر ونفوذ القدرة فلا وهن فيه حتّى يحتاج إلى تكرار النفخة ، والّذي يسبق إلى الفهم من سياق الآيات أنّها النفخة الثانية الّتي تحيي الموتى .

قوله تعالى : « وحملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة » الدكّ أشدّ الدقّ وهو كسر الشيء وتبديله إلى أجزاءٍ صغار ، وحمل الأرض والجبال إحاطة القدرة بها ، وتوصيف الدكّة بالواحدة للإشارة إلى سرعة تفتّتهما بحيث لا يفتقر إلى دكّة ثانية .

قوله تعالى : « فيومئذ وقعت الواقعة » أي قامت القيامة .

قوله تعالى : « وانشقّت السماء فهي يومئذ واهية » انشقاق الشيء انفصال شطر منه من شطر آخر ، وواهية من الوهي بمعنى الضعف ، وقيل : من الوهي بمعنى شقّ الأديم والثوب ونحوهما .

ويمكن أن تكون الآية أعني قوله : «وانشقّت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها » في معنى قوله : « ويوم تشقّق السماء بالغمام و نزّل الملائكة تنزيلا » الفرقان : ٢٥ .

قوله تعالى : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية» قال الراغب : رجا البئر والسماء وغيرهما جانبها والجمع أرجاء قال تعالى : «والملك على أرجائها » انتهى ، والملك ـ كما قيل ـ يطلق على الواحد والجمع والمراد به في

الآية الجمع .

وقوله : « ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية » ضمير « فوقهم » على ظاهر ما يقتضيه السياق للملائكة ، وقيل : الضمير للخلائق .

وظاهر كلامه أنّ للعرش اليوم حملة من الملائكة قال تعالى : « الّذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به ويستغفرون للّذين آمنوا » المؤمن : ٧ وقد وردت الروايات أنّهم أربعة ، وظاهر الآية أعني قوله : « ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية » أنّ الحملة يوم القيامة ثمانية وهل هم من الملائكة أو من غيرهم ؟ الآية ساكتة عن ذلك وإن كان لا يخلو السياق من إشعار ما بأنّهم من الملائكة .

ومن الممكن ـ كما تقدّمت الإشارة إليه ـ أن يكون الغرض من ذكر انشقاق السماء وكون الملائكة على أرجائها وكون حملة العرش يومئذ ثمانية بيان ظهور الملائكة والسماء والعرش للإنسان يومئذ ، قال تعالى : « وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبّحون بحمد ربّهم » الزمر : ٧٥ .

قوله تعالى : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » الظاهر أنّ المراد به العرض على الله كما قال تعالى : « وعرضوا على ربّك صفّاً » الكهف : ٤٨ والعرض إراءة البائع سلعته للمشتري ببسطها بين يديه ، فالعرض يومئذ على الله وهو يوم القضاء إبراز ما عند الإنسان من اعتقاد وعمل إبرازاً لا يخفى معه عقيدة خافية ولا فعلة خافية وذلك بتبدّل الغيب شهادة والسرّ علناً قال: « يوم تبلى السرائر » الطارق: ٩ وقال : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » المؤمن : ١٦ .

وقد تقدّم في أبحاثنا السابقة أنّ ما عدّ في كلامه تعالى من خصائص يوم القيامة كاختصاص الملك بالله ، وكون الأمر له ، وأن لا عاصم منه ، وبروز الخلق له وعدم خفاء شيء منهم عليه وغير ذلك ، كلّ ذلك دائميّة الثبوت له تعالى ، وإنّما المراد ظهور هذه الحقائق يومئذ ظهوراً لا ستر عليه ولا مرية فيه .

فالمعنى يومئذ يظهر أنكم في معرض ءاني علم الله ويظهر كلّ فعلة خافية من أفعالكم .

قوله تعالى : « فأمّا من اُوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه » قال في المجمع : هاؤم أمر للجماعة بمنزلة هاكم تقول للواحد هاءَ يا رجل وللاثنين : هاؤما يا رجلان ، وللجماعة : هاؤم يا رجال ، وللمرأة : هاءِ يا امرأة بكسر الهمزة وليس بعدها ياء وللمرأتين : هاؤما ، وللنساء هاؤنّ هذه لغة أهل الحجاز .

وتميم وقيس يقولون هاءَ يا رجل مثل قول أهل الحجاز ، وللاثنين : هاءآ ، وللجماعة : هاؤا وللمرأة : هائي ، وللنساء : هاؤنّ .

وبعض العرب يجعل مكان الهمزة كافاً فيقول : هاك هاكما هاكم هاك هاكما هاكنّ ومعناه خذ وتناول ، ويؤمر بها ولا ينهى . انتهى .

والآية وما بعدها إلى قوله : « الخاطؤن » بيان تفصيليّ لاختلاف حال الناس يومئذ من حيث السعادة والشقاء ، وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « فمن اُوتي كتابه بيمينه » أسرى : ٧١ كلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين ، والظاهر أنّ قوله : « هاؤم اقرأوا كتابيه » خطاب للملائكة ، والهاء في « كتابيه » وكذا في أواخر الآيات التالية للوقف وتسمّى هاء الاستراحة .

والمعنى فأمّا من اُوتي كتابه بيمينه فيقول للملائكة خذوا واقرأوا كتابيه أي إنّها كتاب يقضي بسعادتي .

قوله تعالى : « إنّي ظننت أنّي ملاق حسابيه » الظنّ بمعنى اليقين ، والآية تعليل لما يتحصّل من الآية السابقة ومحصّل التعليل إنّما كان كتابي كتاب اليمين وقاضياً بسعادتي لأنّي أيقنت في الدنيا أنّي ساُلاقي حسابي فآمنت بربّي وأصلحت عملي .

قوله تعالى : « فهو في عيشة راضية » أي يعيش عيشة يرضاها فنسبة الرضا إلى العيشة من المجاز العقليّ .

قوله تعالى : « في جنّة عالية - إلى قوله - الخالية » أي هو في جنّة عالية قدراً فيها ما لا عين رأت ولا اُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وقوله : « قطوفها دانية » القطوف جمع قطف بالكسر فالسكون وهو ما يجتنى من الثمر والمعنى أثمارها قريبة منه يتناوله كيف يشاء .

وقوله : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيّام الخالية » أي يقال لهم : كلوا واشربوا من جميع ما يؤكل فيها وما يشرب حالكونه هنيئاً لكم بما قدّمتم من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا الّتي تقضّت أيّامها .

قوله تعالى : « وأمّا من اُوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم اُوت كتابيه ولم أدر ماحسابيه » وهؤلاء هم الطائفة الثانية وهم الأشقياء المجرمون يؤتون صحيفة أعمالهم بشمالهم وقد مرّ الكلام في معناه في سورة الإسراء ، وهؤلاء يتمنّون أن لو لم يكونوا يؤتون كتابهم ويدرون ما حسابهم يتمنّون ذلك لما يشاهدون من أليم العذاب المعدّ لهم .

قوله تعالى : «ياليتها كانت القاضية » ذكروا أنّ ضمير «ليتها» للموتة الاُولى الّتى ذاقها الإنسان في الدنيا .

والمعنى ياليت الموتة الاُولى التي ذقتها كانت قاضية عليّ تقضي بعدمي فكنت انعدمت ولم اُبعث حيّاً فأقع في ورطة العذاب الخالد واُشاهد مااُشاهد .

قوله تعالى : « ماأغنى عنّي ماليه هلك عنّي سلطانيه» كلمتاتحسّر يقولهما حيث يرى خيبة سعيه فيالدنيا فإنّهكان يحسب أنّ مفتاح سعادته في الحياة هوالمال والسلطان يدفعان عنه كلّ مكروه ويسلّطانه على كلّ مايحبّ ويرضى فبذل كلّ جهده في تحضيلهما وأعرض عن ربّه وعن كلّ حقّ يدعى إليه وكذّب داعيه فلمّا شاهد تقطّع الأسباب وأنّه في يوملاينفع فيه مال ولابنون ذكرعدمنفع ماله وبطلان سلطانه تحسّراً وتوجّعا وماذا ينفع التحسّر ؟

قوله تعالى : «خذوه فغلّوه -إلى قوله - فاسلكوه» حكاية أمرهتعالىالملائكة بأخذه وإدخاله النار ،والتقدير يقالللملائكة خذوه الخ و «غلّوه» أمرمنالغلّ بالفتح

وهو الشدّ بالغلّ الّذي يجمع بين اليد والرجل والعنق .

وقوله : «ثمّ الجحيم صلّوه» أي أدخلوه النار العظيمة وألزموه إيّاها .

وقوله : «ثمّ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » السلسة القيد ، والذرع الطول ، والذراع بُعد مابين المرفق ورأس الأصابع وهو واحد الطول وسلوكه فيه جعله فيه ، والمحصّل ثمّ اجعلوه في قيد طوله سبعون ذراعا .

قوله تعالى : « إنّه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحضّ على طعام المسكين » الحضّ التحريض والترغيب ، والآيتان في مقام التعليل للأمر بالأخذ والإدخال في النار أي إنّ الأخذ ثمّ التصلية في الجحيم والسلوك في السلسلة لأجل أنّه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحرّض على طعام المسكين أي يساهل في أمر المساكين ولا يبالي بما يقاسونه .

قوله تعالى : « فليس له اليوم ههنا حميم - إلى قوله - الخاطؤن» الحميم الصديق والآية تفريع على قوله : « إنّه كان لا يؤمن » الخ والمحصّل أنّه لمّا كان لا يؤمن بالله العظيم فليس له اليوم ههنا صديق ينفعه أي شفيع يشفع له إذ لا مغفرة لكافر فلا شفاعة.

وقوله : « ولا طعام إلّا من غسلين » الغسلين الغسالة وكأنّ المراد به ما يسيل من أبدان أهل النار من قيح ونحوه والآية عطف على قوله في الآية السابقة : « حميم » ومتفرّع على قوله : «ولا يحضّ» الخ والمحصّل أنّه لمّا كان لا يحرّض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا طعام إلّا من غسلين أهل النار .

وقوله : «لا يأكله إلّا الخاطؤن » وصف لغسلين والخاطؤن المتلبّسون بالخطيئة والإثم .

﴿بحث روائي﴾

في الدّر المنثور في قوله تعالى : « ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية » أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يحمله اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية .

أقول : وفي تقييد الحاملين في الآية بقوله : « يومئذ » إشعار بل ظهور في اختصاص العدد بالقيامة .

وفي تفسير القمّي وفي حديث آخر قال : حمله ثمانية أربعة من الأوّلين وأربعة من الآخرين فأمّا الأربعة من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وأمّا الأربعة من الآخرين فمحمّد وعليّ والحسن والحسين عليهم السلام .

أقول : وفي غير واحد من الروايات أنّ الثمانية مخصوصة بيوم القيامة ، وفي بعضها أنّ حملة العرش ـ والعرش العلم ـ أربعة منّا وأربعة ممّن شاء الله .

وفي تفسير العيّاشي عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه إذا كان يوم القيامة يدعى كلّ اُناس بإمامه الّذي مات في عصره فإن أثبته اُعطي كتابه بيمينه لقوله : « يوم ندعو كلّ اُناس بإمامهم » فمن اُوتي كتابه بيمينه فاُولئك يقرأون كتابهم ، واليمين إثبات الإمام لأنه كتابه يقرؤه ـ إلى أن قال ـ ومن أنكر كان من أصحاب الشمال الّذين قال الله : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظلّ من يحموم » الخ .

أقول : وفي عدّة من الروايات تطبيق قوله : « فأمّا من اُوتي كتابه بيمينه » الخ على عليّ عليه السلام ، وفي بعضها عليه وعلى شيعته ، وكذا تطبيق قوله : « وأمّا من اُوتي كتابه بشماله » الخ على أعدائه ، وهي من الجري دون التفسير .

وفي الدّر المنثور أخرج الحاكم وصحّحه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلّى الله عليه و سلّم قال : لو أنّ دلوا من غسلين يهراق في الدنيا لأنتن بأهل الدنيا .

وفيه أخرج البيهقيّ في شعب الإيمان عن صعصعة بن صوحان قال : جاء أعرابي

إلى عليّ بن أبي طالب فقال : كيف هذا الحرف : لايأكله إلاّ الخاطون ؟ كلٌّ و الله يخطو فتبسّم عليّ وقال: ياأعرابيّ «لايأكله إلاّ الخاطؤن » قال : صدقت والله يا أمير المؤمنين ماكان الله ليسلم عبده .

ثمّ التفت عليّ إلى أبي الأسود فقال : إنّ الأعاجم قد دخلت في الدين كافّة فضع للناس شيئاً يستدلّون به على صلاح ألسنتهم فرسم لهم الرفع والنصب والخفض .

وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه في الدروع الواقية في حديث عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: ولو أنّ ذراعاً من السلسلة الّتي ذكرها الله في كتابه وضع على جميع جبال الدنيا الذابت عن حرّها .



☆ ☆ ☆

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)

﴿ بيان ﴾

هذا هو الفصل الثالث من آيات السورة يؤكّد ما تقدّم من أمر الحاقّة بلسان تصديق القرآن الكريم ليثبت بذلك حقّيّة ما أنبأ به من أمر القيامة .

قوله تعالى : « فلا أُقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » ظاهر الآية أنّه إقسام بما هو مشهود لهم وما لا يشاهدون أي الغيب والشهادة فهو إقسام بمجموع الخليقة ولا يشمل ذاته المتعالية فإنّ من البعيد من أدب القرآن أن يجمع الخالق والخلق في صفّ واحد ويعظّمه تعالى وما صنع تعظيما مشتركا في عرض واحد .

وفي الإقسام نوع تعظيم وتجليل للمقسم به وخلقه تعالى بما أنّه خلقه جليل جميل لأنّه تعالى جميل لا يصدر منه إلّا الجميل وقد استحسن تعالى فعل نفسه وأثنى

على نفسه بخلقه في قوله : « الّذي أحسن كلّ شيء خلقه » الم السجدة ٧ وقوله : « فتبارك الله أحسن الخالقين » المؤمنون : ١٤ . فليس للموجودات منه تعالى إلّا الحسن وما دون ذلك من مساءة فمن أنفسها وبقياس بعضها إلى بعض .

وفي اختيار ما يبصرون وما لا يبصرون للإقسام به على حقّيّة القرآن ما لا يخفى من المناسبة فإنّ النظام الواحد المتشابك أجزاؤه الجاري في مجموع العالم يقضي بتوحّده تعالى ومصير الكلّ إليه وما يترتّب عليه من بعث الرسل وإنزال الكتب والقرآن خير كتاب سماويّ يهدي إلى الحقّ في جميع ذلك وإلى طريق مستقيم .

وممّا تقدّم يظهر عدم استقامة ما قيل : إنّ المراد بما تبصرون وما لا تبصرون الخلق والخالق فانّ السياق لا يساعد عليه وكذا ما قيل : انّ المراد النعم الظاهرة والباطنة ، وما قيل : إنّ المراد الجنّ والانس والملائكة أو الأجسام والأرواح أو الدنيا والآخرة أو ما يشاهد من آثار القدرة وما لا يشاهد من أسرارها فاللفظ أعمّ مدلولاً من جميع ذلك .

قوله تعالى : « إنّه لقول رسول كريم » الضمير للقرآن والمستفاد من السياق أنّ المراد برسول كريم النبيّ صلى الله عليه وآله وهو تصديق لرسالته قبال ما كانوا يقولون إنّه شاعر أو كاهن .

ولا ضير في نسبة القرآن إلى قوله فإنّه إنّما نسب إليه بما أنّه رسول والرسول بما أنّه رسول لا يأتي إلاّ بقول مرسله ، وقد بيّن ذلك فضل بيان بقوله بعد : « تنزيل من ربّ العالمين » .

وقيل : المراد برسول كريم جبريل ، والسياق لا يؤيّده إذ لو كان هو المراد لكان الأنسب نفي كونه ممّا نزلت به الشياطين كما فعل في سورة الشعراء .

على أنّ قوله بعد : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل » ومايتلوه إنّما يناسب كونه صلى الله عليه وآله هو المراد برسول كريم .

قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون » نفي أن يكون القرآن

نظماً ألّفه شاعر ولم يقل النبيّ صلى الله عليه وآله شعراً ولم يكن شاعراً .

وقوله : « قليلاً ما تؤمنون » توبيخ لمجتمعهم حيث إنّ الأكثرين منهم لم يؤمنوا وما آمن به إلاّ قليل منهم .

قوله تعالى : « ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون » نفي أن يكون القرآن كهانة والنبيّ صلى الله عليه وآله كاهناً يأخذ القرآن من الجنّ وهم يلقونه إليه .

وقوله : « قليلاً ما تذكّرون » توبيخ أيضاً لمجتمعهم .

قوله تعالى : « تنزيل من ربّ العالمين » أي منزّل من ربّ العالمين وليس من صنع الرسول نسبه إلى الله كما تقدّمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ـ إلى قوله ـ حاجزين » يقال : تقوّل على فلان اي اختلق قولاً من نفسه ونسبه إليه ، والوتين ـ على ماذكره الراغب ـ عرق يسقي الكبد وإذا انقطع مات صاحبه ، وقيل : هو رباط القلب .

والمعنى « ولو تقوّل علينا » هذا الرسول الكريم الّذي حمّلناه رسالتنا وأرسلناه إليكم بقرآن نزّلناه عليه واختلق « بعض الأقاويل » ونسبه إلينا « لأخذنا منه باليمين » كمايقبض على المجرم فيؤخذ بيده أو المراد قطعنا منه يده اليمنى أوالمراد لانتقمنا منه بالقوّة كما فيرواية القمّي « ثم لقطعنا منه الوتين » وقتلناه لتقوّله علينا « فما منكم من أحد عنه حاجزين » تحجبونه عنّا وتنجونه من عقوبتنا وإهلاكنا .

وهذا تهديد للنبيّ صلى الله عليه وآله على تقدير أن يفتري على الله كذبا وينسب إليه شيأ لم يقله وهو رسول من عنده أكرمه بنبوّته واختاره لرسالته .

فالآيات في معنى قوله : « ولو لا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيأ قليلاً إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثمّ لا تجد لك علينا نصيرا » أسرى : ٧٥ ، وكذا قوله في الأنبياء بعد ذكر نعمه العظمى عليهم : « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » الأنعام : ٨٨ .

فلا يرد أنّ مقتضى الآيات أنّ كلّ من ادّعى النبوّة وافترى على الله الكذب أهلكه الله وعاقبه في الدنيا أشدّ العقاب وهومنقوض ببعض مدّعي النبوّة من الكذّابين.

وذلك أنّ التهديد في الآية متوجّه إلى الرسول الصادق في رسالته لو تقوّل على الله ونسب إليه بعض ما ليس منه لا مطلق مدّعى النبوّة المفتري على الله في دعواه النبوّة وإخباره عن الله تعالى .

قوله تعالى : « وإنّه لتذكرة للمتّقين » يذكّرهم كرامة تقواهم ومعارف المبدء والمعاد بحقائقها ، ويعرّفهم درجاتهم عند الله ومقاماتهم في الآخرة والجنّة وما هذا شأنه لا يكون تقوّلاً وافتراء فالآية مسوقة حجّة على كون القرآن منزّهاً عن التقوّل والفرية .

قوله تعالى : « وإنّا لنعلم أنّ منكم مكذّبين وإنّه لحسرة على الكافرين » ستظهر لهم يوم الحسرة .

قوله تعالى : « وإنّه لحقّ اليقين فسبّح باسم ربّك العظيم » قدتقدّم كلام في نظيرتي الآيتين في آخرسووة الواقعة ، والسورتان متّحدتان في الغرض وهووصف يوم القيامة ومتّحدتان في سياق خاتمتهما وهي الإقسام على حقّيّة القرآن المنبىء عن يوم القيامة ، وقد ختمت السورتان بكون القرآن وما أنبأ به عن وقوع الواقعة حقّ اليقين ثمّ الأمر بتسبيح اسم الربّ العظيم المنزّه عن خلق العالم باطلا لامعاد فيه وعن أن يبطل المعارف الحقّة الّتي يعطيها القرآن في أمر المبدء والمعاد .

﴿ سورة المعارج مكّيّة وهي أربع وأربعون آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلٰئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (٦) وَنَرَاهُ قَرِيباً (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) .

﴿ بيان ﴾

الّذي يعطيه سياق السورة أنّها تصف يوم القيامة بما اُعدّ فيه من أليم العذاب للكافرين . تبتدىء السورة فتذكر سؤال سائل سأل عذاباً من الله للكافرين فتشير إلى أنّه واقع ليس له دافع قريب غير بعيد كما يحسبونه ثمّ تصف اليوم الّذي يقع فيه والعذاب الّذي اُعدّ لهم فيه وتستثني المؤمنين الّذين قاموا بوظائف الاعتقاد الحقّ والعمل الصالح .

وهذا السياق يشبه سياق السور المكّيّة غير أنّ المنقول عن بعضهم أنّ قوله : « والّذين في أموالهم حقّ معلوم » مدنيّ والاعتبار يؤيّده لأنّ ظاهره الزكاة وقد شرّعت بالمدينة بعد الهجرة ، وكون هذه الآية مدنيّة يستتبع كون الآيات الحافّة بها الواقعة تحت الاستثناء وهي أربع عشرة آية (قوله : « إلّا المصلّين ـ إلى قوله ـ في جنّات مكرمون) مدنيّة لما في سياقها من الاتّحاد واستلزام البعض للبعض .

ومدنيّة هذه الآيات الواقعة تحت الاستثناء تستدعي ما استثنيت منه وهوعلى الأقلّ ثلاث آيات (قوله : إنّ الإنسان خلق هلوعا ـ إلى قوله ـ منوعاً) .

على أنّ قوله : « فما للّذين كفروا قبلك مهطعين » متفرّع على ماقبله تفرّعاً ظاهراً وهو ما بعده إلى آخر السورة ذو سياق واحد فتكون هذه الآيات أيضاً مدنيّة.

ومن جهة اُخرى مضامين هذا الفصل من الآيات تناسب حال المنافقين الحافّين حول النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله عن اليمين وعن الشمال عزين وهم الرادّون لبعض ما أنزل الله من الحكم وخاصّة قوله : « أيطمع كلّ امرىء منهم » الخ ، وقوله : « على أن نبدّل خيراً منهم » الخ على ما سيجيء ، وموطن ظهور هذا النفاق المدينة لا مكّة ، ولا ضير في التعبير عن هؤلاء بالّذين كفروا فنظير ذلك موجود في سورة التوبة وغيرها .

على أنّهم رووا أنّ السورة نزلت في قول القائل : « اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » الأنفال : ٣٢ وقد تقدّم في تفسير الآية أنّ سياقها والّتي بعدها سياق مدنيّ لا مكّي . لكنّ المرويّ عن الصادق عليه‌السلام أنّ المراد بالحقّ المعلوم في الآية حقّ يسمّيه صاحب المال في ماله غير الزكاة المفروضة .

ولا عبرة بما نسب إلى اتّفاق المفسّرين أنّ السورة مكّيّة على أنّ الخلاف ظاهر وكذا ما نسب إلى ابن عبّاس أنّها نزلت بعد سورة الحاقّة .

قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » السؤال بمعنى الطلب والدعاء ، ولذا عدّي بالباء كما في قوله : « يدعون فيها بكلّ فاكهة آمنين » الدخان : ٥٥ وقيل : الفعل مضمّن معنى الاهتمام والاعتناء ولذا عدّي بالباء ، وقيل : الباء زائدة للتأكيد،

ومآل الوجوه واحد وهو طلب العذاب من الله كفراً وعتوّاً .

وقيل : الباء بمعنى عن كما في قوله : « فاسأل به خبيرا » الفرقان : ٥٩ ، وفيه أنّ كونها في الآية المستشهد بها بمعنى عن ممنوع . على أنّ سياق الآيات التالية وخاصّة قوله : « فاصبر صبراً جميلا » لايلائم كون السؤال بمعنى الاستفسار والاستخبار.

فالآية تحكي سؤال العذاب وطلبه عن بعض من كفر طغيانا وكفرا ، وقد وصف العذاب المسؤل من الأوصاف بما يدلّ على إجابة الدعاء بنوع من التهكّم والتحقير وهو قوله : « واقع » وقوله : « ليس له دافع » .

والمعنى سأل سائل من الكفّار عذابا للكافرين من الله سيصيبهم ويقع عليهم لامحالة ولادافع له أي إنّه واقع عليهم سأل أو لم يسأل ففيه جواب تحقيريّ وإجابة لمسؤله تهكّماً .

قوله تعالى : « للكافرين ليس له دافع » للكافرين متعلّق بعذاب وصفة له ، وكذا قوله : « ليس له دافع » وقد مرّت الإشارة إلى معنى الآية .

قوله تعالى : « من الله ذي المعارج » الجارّ والمجرور متعلّق بقوله : « دافع » أي ليس له دافع من جانب الله ومن المعلوم أنّه لو اندفع لم يندفع إلّا من جانب الله سبحانه ، ومن المحتمل أن يتعلّق بقوله : « بعذاب » .

والمعارج جمع معرج وفسّروه بالمصاعد وهي الدرجات وهي مقامات الملكوت الّتي يعرج إليها الملائكة عند رجوعهم إلى الله سبحانه على ما يفسّره قوله بعد : « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم » الخ فله سبحانه معارج الملكوت ومقاماتها المترتّبة علوّاً وشرفا الّتي تعرج فيها الملائكة والروح بحسب قربهم من الله وليست بمقامات وهميّة اعتباريّة .

وقيل : المراد بالمعارج الدرجات الّتي يصعد فيها الاعتقاد الحقّ والعمل الصالح قال تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه » الفاطر ١٠ ، و قال : « ولكن يناله التقوى منكم » الحجّ : ٣٧ .

وقيل : المراد به مقامات القرب الّتي يعرج إليها المؤمنون بالإيمان والعمل

الصالح قال تعالى : « هم درجات عندالله والله بصير بما يعملون » آل عمران : ١٦٣ وقال : « لهم درجات عند ربّهم ومغفرة ورزق كريم » الأنفال : ٤ وقال : « رفيع الدرجات ذو العرش » المؤمن : ١٥ .

والحقّ أنّ مآل الوجهين إلى الوجه الأوّل ، والدرجات المذكورة حقيقيّة ليست بالوهميّة الاعتباريّة .

قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » المراد بهذا اليوم يوم القيامة على ما يفيده سياق الآيات التالية .

والمراد بكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة على ما ذكروا أنّه بحيث لو وقع في الدنيا وانطبق على الزمان الجاري فيها كان مقداره من الزمان خمسين ألف سنة من سني الدنيا .

والمراد بعروج الملائكة والروح إليه يومئذ رجوعهم إليه تعالى عند رجوع الكلّ إليه فإنّ يوم القيامة يوم بروز سقوط الوسائط وتقطّع الأسباب وارتفاع الروابط بينها وبين مسبّباتها والملائكة وسائط موكّلة على اُمور العالم وحوادث الكون فإذا تقطّعت الأسباب عن مسبّباتها وزيّل الله بينهم ورجع الكلّ إلى الله عزّ اسمه رجعوا إليه وعرجوا معارجهم فحفّوا من حول عرش ربّهم وصفّوا قال تعالى : « وترى الملائكة حافّين من حول العرش » الزمر : ٧٥ ، وقال : « يوم يقوم الروح والملائكة صفّا » النبأ : ٣٨ .

والظاهر أنّ المراد بالروح الروح الّذي هو من أمره تعالى كما قال : « قل الروح من أمر ربّي » أسرى : ٨٥ وهو غير الملائكة كما هو ظاهر قوله تعالى : « ينزّل الملائكة بالروح من أمره » النحل : ٢ .

فلا يعبأ بما قيل : إنّ المراد بالروح جبريل وإن اُطلق عليه الروح الأمين وروح القدس في قوله : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٢ وقوله : « قل نزّله روح القدس من ربّك » النحل : ١٠٢ فإنّ المقيّد غير المطلق .

قوله تعالى : « فاصبر صبراً جميلا » لمّا كان سؤال السائل للعذاب عن تعنّت

واستكبار وهو ممّا يشقّ تحمّله أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بالصبر ووصفه بالجميل ـ والجميل من الصبر ما ليس فيه شائبة الجزع والشكوى ـ وعلّله بأنّ اليوم بمافيه من العذاب قريب .

قوله تعالى : « إنّهم يرونه بعيداً ونراه قريبا » ضميرا « يرونه » و « نراه » للعذاب أو ليوم القيامة بما فيه من العذاب الواقع ويؤيّد الأوّل قوله فيما بعد : « يوم تكون السماء كالمهل » الخ .

والمراد بالرؤية الاعتقاد بنوع من العناية المجازيّة ورؤيتهم ذلك بعيدا ظنّهم أنّه بعيد من الإمكان فإنّ سؤال العذاب من الله سبحانه استكبارا عن دينه وردّاً لحكمه لايجامع الإيمان بالمعاد وإن تفوّه به السائل ، ورؤيته تعالى ذلك قريباعلمه بتحقّقه وكلّ ما هو آت قريب .

وفي الآيتين تعليل أمره صلى الله عليه وآله بالصبر الجميل فإنّ تحمّل الأذى والصبر على المكاره يهون على الإنسان إذا استيقن أنّ الفرج قريب وتذكّر ذلك فالكلام في معنى قولنا فاصبر على تعنّتهم واستكبارهم في سؤالهم العذاب صبراً جميلاً لا يشوبه جزع وشكوى فإنّا نعلم أنّ العذاب قريب على خلاف ما يستبعدونه ، وعلمنا لا يتخلّف عن الواقع بل هو نفس الواقع .

قوله تعالى : « يوم تكون السماء كالمهل » المهل المذاب من المعدنيّات كالنحاس والذهب وغيرهما ، وقيل : درديّ الزيت ، وقيل : عكر القطران[1] .

والظرف متعلّق بقوله : « واقع » على ما يفيده السياق .

قوله تعالى : « وتكون الجبال كالعهن » العهن مطلق الصوف ، ولعلّ المراد المنفوش منه كما في قوله تعالى : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » القارعة : ٥ .

وقيل : هو الصوف الأحمر ، وقيل : المصبوغ ألواناً لأنّ الجبال ذوات ألوان مختلفة فمنها جدد بيض وحمر وغرابيب سود[2] .

---

(١) اى رديه و خبيثه .

(٢) كمافى الاية ٢٧ من سورة فاطر .

قوله تعالى: «ولا يسأل حميم حميما» الحميم القريب الّذي تهتمّ بأمره وتشفق عليه.

إشارة إلى شدّة اليوم فالإنسان يومئذ تشغله نفسه عن غيره حتّى أنّ الحميم لا يسأل حميمه عن حاله لاشتغاله بنفسه.

قوله تعالى: «يبصّرونهم» الضميران للأحماء المعلوم من السياق والتبصير الإراءة والإيضاح أي يُرى ويوضح الأحماء للأحماء فلا يسألونهم عن حالهم اشتغالاً بأنفسهم.

والجملة مستأنفة في معنى الجواب عن سؤال مقدّر كأنّه لمّا قيل: لا يسأل حميم حميما سئل فقيل: هل يرى الأحماء يومئذ أحماءهم؟ فاُجيب: يبصّرونهم ويمكن أن يكون «يبصّرونهم» صفة «حميما».

ومن رديّ التفسير قول بعضهم: إنّ معنى قوله: «يبصّرونهم» يبصّر الملائكة الكفّار، وما قيل: إنّ المعنى يبصّر المؤمنون أعداءهم من الكفّار وما هم فيه من العذاب فيشمتون بهم، وما قيل: إنّ المعنى يبصّر أتباع الضلالة رؤساءهم. وهي جميعا وجوه لا دليل عليها.

قوله تعالى: «يودّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته الّتي تؤويه ومن في الأرض جميعا ثمّ ينجيه» قال في المجمع: المودّة مشتركة بين التمنّي وبين المحبّة يقال: وددت الشيء أي تمنّيته ووددته أي أحببته أودّ فيهما جميعا. انتهى ويمكن أن يكون استعماله بمعنى التمنّي من باب التضمين.

وقال: والافتداء افتداء الضرر عن الشيء ببدل منه انتهى، وقال: الفصيلة الجماعة المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها إلى اُبوّة خاصّة عن اُبوّة عامّة. انتهى وذكر بعضهم أنّ الفصيلة عشيرته الأقربين الّذين فصل عنهم كالآباء الأدنين.

وسياق هذه الآيات سياق الإضراب والترقّي بالنسبة إلى قوله: «ولا يسأل حميم حميما» فيفيد أنّ المجرم يبلغ به شدّة العذاب إلى أن يتمنّى أن يفتدي من العذاب بأحبّ أقاربه وأكرمهم عليه بنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته وجميع من في الأرض ثمّ ينجيه الافتداء فيودّ ذلك فضلا عن عدم سؤاله عن حال حميمه.

والمعنى « يودّ » ويتمنّى « المجرم » وهو المتلبّس بالاجرام أعمّ من الكافر « لو يفتدي من عذاب يومئذ » وهذا هو الّذي يتمنّاه ، والجملة قائمة مقام مفعول يودّ . « ببنيه » الّذين هم أحبّ الناس عنده « وصاحبته » الّتي كانت سكنا له وكان يحبّها وربّما قدّمها على أبويه « وأخيه » الّذي كان شقيقه وناصره « وفصيلته » من عشيرته الأقربين « الّتي تؤويه » وتضمّه إليها « ومن في الأرض جميعا » من اُولي العقل « ثمّ ينجيه » هذا الافتداء .

قوله تعالى : « كلاّ إنّها لظى نزّاعة للشوى تدعو من أدبر وتولّى وجمع فأوعى » كلاّ للردع ، وضمير « إنّها » لجهنّم أو للنار وسمّيت لظى لكونها تتلظّى وتشتعل ، والنزّاعة اسم مبالغة من النزع بمعنى الاقتلاع ، والشوى الأطراف كاليد والرجل يقال : رماه فأشواه أي أصاب شواه كذا قال الراغب ، وإيعاء المال إمساكه في وعاء .

فقوله : « كلاّ » ردع لتمنّيه النجاة من العذاب بالافتداء وقد علّل الردع بقوله: « إنّها لظى » الخ ومحصّله أنّ جهنّم نار مشتعلة محرقة للأطراف شأنها أنّها تطلب المجرمين لتعذّبهم فلا تصرف عنهم بافتداء كائنا ما كان .

فقوله : « إنّها لظى » أي نار صفتها الاشتعال لا تنعزل عن شأنها ولا تخمد ، وقوله : « نزّاعة للشوى » أي صفتها إحراق الأطراف واقتلاعها لا يبطل ما لها من الأثر فيمن تعذّبه .

وقوله : « تدعو من أدبر وتولّى وجمع فأوعى » أي تطلب من أدبر عن الدعوة الالهيّة إلى الايمان بالله وأعرض عن عبادته تعالى وجمع المال فأمسكه في وعائه ولم ينفق منه للسائل والمحروم .

وهذا المعنى هو المناسب لسياق الاستثناء الآتي وذكر الصلاة والانفاق فيه .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع حدّثنا السيّد أبوالحمد قال : حدّثنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني وساق السند عن جعفر بن محمّد الصادق عن آبائه عليهم السلام قال : لمّا نصب رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً وقال : من كنت مولاه فعليّ مولاه ، طار ذلك في البلاد فقدم على النبي صلى الله عليه وآله النعمان بن الحارث الفهريّ .

فقال : أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله وأمرتنا بالجهاد والحجّ والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها ثمّ لم ترض حتّى نصبت هذا الغلام فقلت : من كنت مولاه فعليّ مولاه ، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله ؟ فقال : والله الّذي لا إله إلاّ هو إنّ هذا من الله .

فولّى النعمان بن الحارث وهو يقول : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فرماه الله بحجر على رأسه فقتله وأنزل الله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » .

أقول : وهذا المعنى مروي بغير طريق من طرق الشيعة ، وقد ردّ الحديث بعضهم بأنّه موضوع لكون سورة المعارج مكّيّة ، وقد عرفت الكلام في مكّيّة السورة.

وفي الدرّ المنثور أخرج الفاريابيّ وعبد بن حميد والنسائيّ وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه وابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله : « سأل سائل » قال هو النضر ابن الحارث قال : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدّيّ في قوله : « سأل سائل » قال : نزلت بمكّة في النضر بن الحارث وقد قال : « اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك » الآية وكان عذابه يوم بدر .

اقول : وهذا المعنى مرويّ أيضاً عن غير السدّيّ ، وفي بعض رواياتهم أنّ

القائل : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك الآية هو الحارث بن علقمة رجل من عبد الدار ، وفي بعضها أنّ سائل العذاب هو أبو جهل بن هشام سأله يوم بدر ولازمه مدنيّة السورة والمعتمد على أيّ حال نزول السورة بعد قول القائل : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك الآية وقد تقدّم كلام في سياق الآية .

وفي أمالي الشيخ بإسناده إلى أبي عبدالله عليه السلام في حديث : ألا فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإنّ في القيامة خمسين موقفاً كلّ موقف مثل ألف سنة ممّا تعدّون ثمّ تلا هذه الآية « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

أقول : وروى هذا المعنى في روضة الكافي عن حفص بن غياث عنه عليه السلام .

و في المجمع روى أبو سعيد الخدري قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : ما أطول هذا اليوم فقال : و الّذي نفس محمّد بيده إنّه ليخفّ على المؤمن حتّى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور عن عدّة من الجوامع عن أبي سعيد عنه صلى الله عليه وآله .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : «يوم تكون السماء كالمهل» قال : الرصاص الذائب و النحاس كذلك تذوب السماء .

و فيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : «يبصّرونهم» يقول : يعرّفونهم ثمّ لا يتساءلون .

و فيه في قوله تعالى : «نزّاعة للشوى» قال : تنزع عينه و تسودّ وجهه .

و فيه في قوله تعالى : «تدعو من أدبر و تولّى» قال : تجرّه إليها .

✡ ✡ ✡

إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَ إذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إلَّا المُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (٢٣) وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ (٢٥) وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (٢٩) إلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (٣٢) وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ (٣٣) وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (٣٤) أُولئِكَ فِي جَنّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥)

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى السبب الأوّلي الّذي يدعو الإنسان إلى رذيلة الإدبار و التولّي و الجمع و الإيعاء الّتي تؤدّيه إلى دخول النار الخالدة الّتي هي لظى نزّاعة للشوى على ما تذكره الآيات .

و ذلك السبب صفة الهلع الّتي اقتضت الحكمة الإلهية أن يخلق الإنسان عليها ليهتدي بها إلى ما فيه خيره و سعادته غير أنّ الإنسان يفسدها على نفسه ويسيىء

استعمالها في سبيل سعادته فتسلك به إلى هلكة دائمة إلاّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في جنّات مكرمون .

قوله تعالى : « إنّ الإنسان خلق هلوعاً إذا مسّه الشّرّ جزوعا و إذا مسّه الخير منوعاً» الهلوع صفة مشتقّة من الهلع بفتحتين و هو شدّة الحرص ، و ذكروا أيضاً أنّ الهلوع تفسّره الآيتان بعده فهو الجزوع عند الشرّ و المنوع عند الخير و هو تفسير سديد و السياق يناسبه .

و ذلك أنّ الحرص الشديد الّذي جبل عليه الإنسان ليس حرصاً منه على كلّ شيء خيراً كان أو شرّاً أو نافعا أو ضاراً بل حرصاً على الخير و النافع ولا حرصا على كلّ خير أو نافع سواء ارتبط به أو لم يرتبط وكان له أو لغيره بل حرصاً منه على ما يراه خيرا لنفسه أو نافعا في سبيل الخير ، ولازم هذا الحرص ان يظهر منه التزعزع والاضطراب عند مسّ الشرّ و هو خلاف الخير و أن يمتنع عن ترك الخير عند مسّه و يؤثر نفسه على غيره إلاّ أن يرى الترك اكثر خيراً و أنفع بحاله فالجزع عند مسّ الشرّ و المنع عند مسّ الخير من لوازم الهلع و شدّة الحرص .

و ليس الهلع و شدّة الحرص المجبول عليه الإنسان - و هو من فروع حبّ الذات - في حدّ نفسه من الرذائل المذمومة كيف ؟ و هي الوسيلة الوحيدة الّتي تدعو الإنسان إلى بلوغ سعادته و كمال وجوده ، و انّما تكون رذيلة مذمومة إذا أساء الإنسان في تدبيرها فاستعملها فيما ينبغي وفيما لا ينبغي و بالحقّ و بغير حقّ كسائر الصفات النفسانيّة الّتي هي كريمة ما لزمت حدّ الاعتدال و إذا انحرفت إلى جانب الإفراط او التفريط عادت رذيلة ذميمة .

فالإنسان في بدء نشأته و هو طفل يرى ما يراه خيراً لنفسه أو شرّاً لنفسه بما جهّز به من الغرائز العاطفة وهي الّتي تهواه نفسه وتشتهيه قواه من غير أن يحدّه بحدّ أو يقدّره بقدر فيجزع إذا مسّه ألم أو أيّ مكروه ، و يمنع من يزاحمه فيما أمسك به بكلّ ما يقدر عليه من بكاء و نحوه .

و هو على هذه الحال حتّى إذا رزق العقل و الرشد أدرك الحقّ و الباطل و

الخير و الشرّ و اعترفت نفسه بما أدرك و حينئذ يتبدّل عنده كثير من مصاديق الحقّ و الباطل و الخير و الشرّ فعاد كثير ممّا كان يراه خيراً لنفسه شرّاً عنده و بالعكس .

فان أقام على ما كان عليه من اتّباع أهواء النفس و العكوف على المشتهيات و اشتغل بها عن اتّباع الحقّ و غفل عنه ، طبع على قلبه فلم يواجه حقّاً إلاّ دحضه و لا ذا حقّ إلّا اضطهده و إن أدركته العناية الإلهيّة عاد ما كان عنده من الحرص على ما تهواه النفس حرصاً على الحقّ فلم يستكبر على حقّ واجهه ولا منع ذاحقّ حقّه .

فالإنسان في بادىء أمره وهو عهد الصبى قبل البلوغ والرشد مجهّز بالحرص الشديد على الخير وهوصفة كماليّة له بحسب حاله بهاينبعث إلى جلب الخير واتّقاء الشرّ قال تعالى : « وإنّه لحبّ الخير لشديد » العاديات : ٨ .

ثمّ إذا رزق البلوغ والرشد زادتجهيزاً آخر وهوالعقل الّذي بها يدرك حقائق الاُمور على ماهي عليها فيدرك ماهوالاعتقاد الحقّ وما هو الخير في العمل ، ويتبدّل حرصه الشديد على الخير وكونه جزوعاً عند مسّ الشرّ ومنوعاً عند مسّ الخير من الحرص الشديد على الخير الواقعي من الفزع والخوف إذا مسّه شرّ اُخرويّ وهو المعصية والمسابقة إلى مغفرة ربّه إذا مسّه خيراُخرويّ وهو مواجهة الحسنة ، وأمّا الشرّ والخير الدنيويّان فإنّه لا يتعدّى فيهما ما حدّه الله له من الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر عن المعصية وهذه الصفة صفة كماليّة لهذا الإنسان .

وأمّا إذا أعرض الإنسان عمّايدركه عقله ويعترف به فطرته وعكف على اتّباع الهوى واعتنق الباطل وتعدّى إلى حقّ كلّ ذي حقّ ولم يقف في حرصه على الخير على حدّ فقد بدّل نعمة الله نقمة وأخذ صفة غريزيّة خلقها الله وسيلة له يتوسّل بها إلى سعادة الدنيا والآخرة وسيلة إلى الشقوة والهلكة تسوقه إلى الإدبار والتولّي والجمع والإيعاء كما في الآيات .

وقد بان ممّا تقدّم أنّه لا ضير في نسبة هلع الإنسان في الآيات إلى الخلقة والكلام مسوق للذمّ وقد قال تعالى : « الّذي أحسن كلّ شيء خلقه » السجدة : ٧ ، وذلك أنّ ما يلحقه من الذمّ إنّما هو من قبل الإنسان وسوء تدبيره لا من قبله تعالى فهو كسائر نعمه تعالى على الإنسان الّتي يصيّرها نقماً بسوء اختياره .

وذكر الزمخشريّ فراراً من الإشكال أنّ في الكلام استعارة ، والمعنى أنّ الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكّنهما منه كأنّه مجبول مطبوع عليهما ، وكأنّه أمر مخلوق فيه ضروريّ غير اختياريّ فالكلام موضوع على التشبيه لا لإفادة كونه مخلوقاً لله حقيقة لأنّ الكلام مسوق للذمّ والله سبحانه لا يذمّ فعل نفسه ، ومن الدليل عليه استثناء المؤمنين الّذين جاهدوا أنفسهم فنجوا عن الجزع والمنع جميعا .

وفيه أنّ الصفة مخلوقة نعمة وفضيلة والإنسان هو الّذي يخرجها من الفضيلة إلى الرذيلة ومن النعمة إلى النقمة والذمّ راجع إلى الصفة من جهة سوء تدبيره لا من حيث إنّها فعله تعالى .

واستثناء المؤمنين ليس لأجل أنّ الصفة غير مخلوقة فيهم بل لأجل أنّهم أبقوها على كمالها ولم يبدّلوها رذيلة ونقمة .

واُجيب أيضاً عن الاستثناء بأنّه منقطع وهو كما ترى .

قوله تعالى : « إلّا المصلّين » استثناء من الإنسان الموصوف بالهلع ، وفي تقديم الصلاة على سائر الأعمال الصالحة المعدودة في الآيات التالية دلالة على شرفها وأنّها خير الأعمال .

على أنّ لها الأثر البارز في دفع رذيلة الهلع المذموم وقد قال تعالى : « إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » العنكبوت : ٤٥ .

قوله تعالى : « الّذين هم على صلاتهم دائمون » في إضافة الصلاة إلى الضمير دلالة على أنّهم مداومون على ما يأتون به من الصلاة كائنة ما كانت لا أنّهم دائماً في الصلاة ، وفيه إشارة إلى أنّ العمل إنّما يكمل أثره بالمداومة .

قوله تعالى : « والّذين في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم » فسّره بعضهم

بالزكاة المفروضة ، وفي الحديث عن الصادق عليه‌السلام أنّ الحقّ المعلوم ليس من الزكاة وإنّما هو مقدار معلوم ينفقونه للفقراء ، والسائل هو الفقير الّذي يسأل ، والمحروم الفقير الّذي يتعفّف ولا يسأل والسياق لا يخلو من تأييده فإنّ للزكاة موارد مسمّاة في قوله : « إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين و في سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله » التوبة : ٦٠ وليست مختصّة بالسائل والمحروم على ما هو ظاهر الآية .

قوله تعالى : « والّذين يصدّقون بيوم الدين » الّذي يفيده سياق عدّ الأعمال الصالحة أنّ المراد بتصديقهم يوم الدين التصديق العمليّ دون التصديق الاعتقاديّ وذلك بأن تكون سيرتهم في الحياة سيرة من يرى أنّ ما يأتي به من عمل سيحاسب عليه فيجازى به إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً .

وفي التعبير بقوله : « يصدّقون » دلالة على الاستمرار فهو المراقبة الدائمة بذكره تعالى عند كلّ عمل يواجهونه فيأتون بما يريده ويتركون ما يكرهه .

قوله تعالى : « والّذين هم من عذاب ربّهم مشفقون » أي خائفون ، والكلام في إشفاقهم من عذاب ربّهم نظير الكلام في تصديقهم بيوم الدين فهو الإشفاق العملي الظاهر من حالهم .

و لازم إشفاقهم من عذاب ربّهم مع لزومهم الأعمال الصالحة و مجاهدتهم في الله أن لا يثقوا بما يأتون به من الأعمال الصالحة و لا يأمنوا عذاب الله فإنّ الأمن لا يجامع الخوف .

و الملاك في الإشفاق من العذاب أنّ العذاب على المخالفة فلا منجى منه إلاّ بالطاعة من النفس و لا ثقة بالنفس إذ لا قدرة لها في ذاتها إلاّ ما أقدرها الله عليه و الله سبحانه مالك غير مملوك قال تعالى : « قل فمن يملك من الله شيأ » المائدة : ١٧ .

على أنّ الله سبحانه و إن وعد أهل الطاعة النجاة و ذكر أنّه لا يخلف الميعاد لكنّ الوعد لا يقيّد إطلاق قدرته فهو مع ذلك قادر على ما يريد و مشيّته نافذة فلا أمن بمعنى انتفاء القدرة على ما يخالف الوعد فالخوف على حاله ، و لذلك نرى

أنّه تعالى يقول في ملائكته : « يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » فيصفهم بالخوف وهو يصرّح بعصمتهم ، و يقول في أنبيائه : « و يخشونه و لا يخشون أحداً إلاّ الله » الاحزاب : ٣٩، ويصف المؤمنين في هذه الآية بالاشفاق وهو يعدهم في آخر الآيات بقول جازم فيقول : « اُولئك في جنّات مكرمون » .

قوله تعالى : « إنّ عذاب ربّهم غيرمأمون » تعليل لاشفاقهم من عذاب ربّهم فيتبيّن به أنّهم مصيبون في إشفاقهم من العذاب و قدتقدّم وجهه .

قوله تعالى : «والذين هم لفروجهم حافظون -الى قوله - هم العادون » تقدّم تفسير الآيات الثلاث في أوّل سورة المؤمنون .

قوله تعالى : « والّذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » المتبادر من الأمانات أنواع الأمانة الّتي يؤتمنون عليها من المال وسائر ما يوصى به من نفس أو عرض ورعايتهم لها أن يحفظوها ولا يخونوها قيل : ولكثرة أنواعها جيىء بلفظ الجمع بخلاف العهد .

وقيل : المراد بها جميع ما كلّفهم الله من اعتقاد وعمل فتعمّ حقوق الله وحقوق الناس فلو ضيّعوا شيأ منها فقد خانوه .

وقيل : كلّ نعمة أعطاها الله عبده من الأعضاء وغيرها أمانة فمن استعمل شيأ منها في غير ما أعطاه الله لأجله وأذن له في استعماله فقد خانه .

وظاهر العهد عقد الانسان مع غيره قولا أو فعلا على أمر ورعايته أن يحفظه ولا ينقضه من غير مجوّز .

وقيل : العهد كلّ ما التزم به الانسان لغيره فايمان العبد لربّه عهد منه عاهد به ربّه أن يطيعه في كلّ ما كلّفه به فلو عصاه في شيء ممّا أمره به أو نهاه عنه فقد نقض عهده .

قوله تعالى : « والّذين هم بشهاداتهم قائمون » الشهادة معروفة ، والقيام بالشهادة عدم الاستنكاف عن تحمّلها وأداء ما تحمّل منها كما تحمّل من غير كتمان ولا تغيير ، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

قوله تعالى : « والّذين هم على صلاتهم يحافظون » المراد بالمحافظة على الصلاة رعاية صفات كمالها على ما ندب إليه الشرع .

قيل : والمحافظة على الصلاة غير الدوام عليها فإنّ الدوام متعلّق بنفس الصلاة والمحافظة بكيفيّتها فلا تكرار في ذكر المحافظة عليها بعد ذكر الدوام عليها .

قوله تعالى : « اُولئك في جنّات مكرمون » الإشارة إلى المصلّين في قوله : « إلّا المصلّين » وتنكير جنّات للتفخيم ، و « في جنّات » خبر و « مكرمون » خبر بعد خبر أو ظرف لقوله : « مكرمون » .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمّي : « إذا مسّه الشرّ جزوعا » قال : الشرّ هو الفقر والفاقة « وإذا مسّه الخير منوعا » قال : الغنى والسعة .

وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : ثمّ استثنى فقال « إلّاالمصلّين » فوصفهم بأحسن أعمالهم « الّذين هم على صلاتهم دائمون » يقول : إذا فرض على نفسه شيأ من النوافل دام عليه .

أقول : قوله : إذا فرض على نفسه الخ استفاد عليه‌السلام هذا المعنى من إضافة الصلاة إلى ضمير « هم » وقد أشرنا إليه فيما مرّ .

وفي الكافي بإسناده إلى الفضيل بن يسار قال : سألت أبا جعفر عليه‌السلام عن قول الله عزّ وجل : « والّذين هم على صلاتهم يحافظون » قال : هي الفريضة . قلت : « الّذين هم على صلاتهم دائمون » قال : هي النافلة .

وفي المجمع في قوله تعالى : « والّذين في أموالهم حقّ معلوم » وروي عن أبي عبدالله عليه‌السلام أنّه قال : الحقّ المعلوم ليس من الزكاة وهو الشيء الّذي تخرجه من مالك إن شئت كلّ جمعة وإن شئت كلّ يوم ، ولكلّ ذي فضل فضله .

قال : وروي عنه أيضاً أنّه قال : هو أن تصل القرابة وتعطي من حرمك وتصدّق

على من عاداك .

أقول : وروى هذا المعنى في الكافي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام بعدّة طرق ورواه في المحاسن عن أبي جعفر عليه السلام .

وفي الكافي باسناده عن صفوان الجمّال عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزوجل « للسائل والمحروم » قال: المحروم المحارف الّذي قد حرم كدّ يمينه في الشراء والبيع .

قال : وفي رواية اُخرى عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام أنّهما قالا : المحروم الرجل الّذي ليس بعقله بأس ولم يبسط له في الرزق وهو محارف .

وفي المجمع في قوله تعالى : « والّذين هم على صلاتهم يحافظون » روى محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام أنّه قال : اُولئك أصحاب الخمسين صلاة من شيعتنا .

أقول : ولعلّه مبنيّ على ما ورد عنهم عليهم السلام أنّ تشريع النوافل اليوميّة لتتميم الفرائض .



✩ ✩ ✩

فَمالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (٤٠) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)

﴿ بيان ﴾

لمّا ذكر سبحانه في الفصل الأوّل من آيات السورة في ذيل ما حكى من سؤالهم العذاب أنّ لهم عذاباً واقعا ليس له دافع و هو النار المتلظّية النزّاعة للشوى الّتي تدعو من أدبر و تولّى و جمع فأوعى .

ثم بيّن في الفصل الثاني منها الملاك في ابتلائهم بهذه الشقوة و هو أنّ الإنسان مجهّز بغريزة الهلع و حبّ خير نفسه و يؤدّيه اتّباع الهوى في استعمالها إلى الاستكبار على كلّ حقّ يواجهه فيورده ذلك النار الخالدة ، و لا ينجو من ذلك إلّا الصالحون عملاً المصدّقون ليوم الدين المشفقون من عذاب ربّهم .

انعطف في هذا الفصل من الآيات ـ و هو الفصل الثالث ـ على اُولئك الكفّار كالمتعجّب من أمرهم حيث يجتمعون على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم : مهطعين عن اليمين و عن

الشمال عزين مقبلين عليه بأبصارهم لايفارقونه فخاطبه ﷺ : ما بالهم يحيطون بك مهطعين عليك يلازمونك ؟ هل يريد كلّ امرء منهم أن يُدخل جنّة نعيم و هو كافر و قد قدّر الله سبحانه أن لا يكرم بجنّته إلاّ من استثناه من المؤمنين فهل يريدون أن يسبقوا الله و يعجزوه بنقض ماحكم به و إبطال ما قدّره كلاّ إنّ الله الّذي خلقهم من نطفة مهينة قادرأن يبدّلهم خيراً منهم ويخلق ممّا خلقهم منه ، غيرهم ممّن يعبده ويدخل جنّته .

ثمّ أمر النبيّ ﷺ أن يقطع خصامهم ويذرهم يخوضوا و يلعبوا حتّى يلاقوا يومهم الّذي يوعدون .

قوله تعالى : «فما للّذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين» قال في المجمع : قال الزّجاج : المهُطع المقبل ببصره على الشيء لايزايله وذلك من نظر العدوّ وقال أبوعبيدة الاهطاع الاسراع ، و عزين جماعات في تفرقة ، واحدتهم عزة . انتهى ، وقِبلَ الشيء بالكسر فالفتح الجهة الّتي تليه و الفاء في «فما» فصيحة .

و المعنى إذا كان الإنسان بكفره و استكباره على الحقّ مصيره إلى النار إلاّ من استثني من المؤمنين فما للّذين كفروا عندك مقبلين عليك لايرفعون عنك أبصارهم و هم جماعات متفرّقة عن يمينك و شمالك أيطمعون أن يدخلوا الجنّة فيعجزوا الله و يسبقوه فيما قضى به أن لايدخل الجنّة إلاّ الصلحاء من المؤمنين .

قوله تعالى : «أيطمع كلّ امرء منهم أن يدخل جنّة نعيم» .الاستفهام للانكار أي ـ ما هو الّذي يحملهم على أن يحتفّوا بك و يهطعوا عليك ؟ ـ هل يحملهم على ذلك طمع كلّ منهم أن يدخل جنّة نعيم وهوكافر فلاطمع للكافر في دخول الجنّة .

و نسب الطمع إلى كلّ امرء منهم ولم ينسب إلى جماعتهم بأن يقال : أيطمعون أن يدخلوا الخ كما نسب الاهطاع إلى جماعتهم فقيل : مهطعين لأنّ النافع من الطمع في السعادة و الفلاح هو الطمع القائم بنفس الفرد الباعث له إلى الإيمان و العمل الصالح دون القائم بالجماعة بما أنّها جماعة فطمع المجموع من حيث أنّه مجموع لا يكفي في سعادة كلّ واحد واحد .

و في قوله : « أن يُدخل » مجهولا من باب الإفعال إشارة إلى أنّ دخولهم في الجنّة ليس منوطاً باختيارهم و مشيّتهم بل لو كان فانّما هو إلى الله سبحانه فهو الّذي يدخلهم الجنّة إن شاء ولن يدخل بما قدّر أن لا يدخلها كافر .

قيل : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلّي عند الكعبة و يقرء القرآن فكان المشركون يجتمعون حوله حلقاً حلقاً وفرقاً يستمعون و يستهزؤن بكلامه ، و يقولون إن دخل هؤلاء الجنّة كما يقول محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلندخلها قبلهم فنزلت الآيات .

وهذا القول لايلائمه سياق الآيات الظاهر في تفرّع صنعهم ذلك على ما مرّ من حرمان الناس من دخول الجنّة إلّا من استثني من المؤمنين إذ من الضروري على هذا أنّ اجتماعهم حوله صلى الله عليه وآله وسلم و إهطاعهم عليه إنّما حملهم عليه إفراطهم في عداوته و مبالغتهم في إيذائه و إهانته ، و أنّ قولهم : سندخل الجنّة قبل المؤمنين ــ و هم مشركون مصرّون على إنكار المعاد غير معترفين بنار و لا جنّة ــ إنّما كان استهزاءً و تهكّما .

فلا مساغ لتفريع عملهم ذاك على ما تقدّم من حديث النار و الجنّة و السؤال ــ في سياق التعجيب ــ عن السبب الحامل لهم عليه ثمّ استفهام طمعهم في دخول الجنّة و إنكاره عليهم .

فبما تقدّم يتأيّد أن يكون المراد بالّذين كفروا في قوله : «فما للّذين كفروا» قوما من المنافقين آمنوا به صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرا ولازموه ثمّ كفروا بردّ بعض ما نزل عليه كما يشير إليه أمثال قوله تعالى : «ذلك بأنّهم آمنوا ثمّ كفروا فطبع على قلوبهم» المنافقون : ٣ ، وقوله : «لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم» التوبة : ٦٦ ، وقوله : «فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم» التوبة : ٧٧ .

فهؤلاء قوم كانوا قد آمنوا ودخلوا في جماعة المؤمنين ولازموا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مهطعين عليه عن اليمين وعن الشمال عزين ثمّ كفروا ببعض ما نزل إليه لايبالون به فقرّعهم الله سبحانه في هذه الآيات أنّهم لاينتفعون بملازمته ولا لهم أن يطمعوا في دخول الجنّة فليسوا ممّن يدخلها وليسوا بسابقين ولامعجزين .

ويؤيّده قوله الآتي : « إنّا لقادرون على أن نبدّل خيراً منهم » الخ على ما سنشير إليه .

قوله تعالى : «كلاّ إنّا خلقناهم ممّا يعلمون» ردع لهم عن الطمع في دخول الجنّة مع كفرهم .

وقوله : « إنّا خلقناهم ممّا يعلمون » المراد بما يعلمون النطفة فإنّ الإنسان مخلوق منها ، و الكلام مرتبط بما بعده والمجموع تعليل للردع ، ومحصّل التعليل أنّا خلقناهم من النطفة ـ وهم يعلمون به ـ فلنا أن نذهب بهم ونخلق مكانهم قوماً آخرين يكونون خيراً منهم مؤمنين غير رادّين لشيء من دين الله ، ولسنا بمسبوقين حتّى يعجزنا هؤلاء الكفّار ويسبقونا فندخلهم الجنّة و ينتقض به ما قدّرنا أن لا يدخل الجنّة كافر .

و قيل : «من» في قوله : «ممّا يعلمون» تفيد معنى لام التعليل ، و المعنى إنّا خلقناهم لأجل ما يعلمون وهو الاستكمال بالإيمان والطاعة فمن الواجب أن يتلبّسوا بذلك حتّى ندخلهم الجنّة فكيف يطمعون في دخولها وهم كفّار ؟ وإنّما علموا بذلك من طريق إخبار النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وقيل : «من» لابتداء الغاية ، والمعنى إنّا خلقناهم من نطفة قذرة لا تناسب عالم القدس و الطهارة حتى تتطهّر بالإيمان و الطاعة و تتخلّق بأخلاق الملائكة فتدخل و أنّى لهم ذلك وهم كفّار .

وقيل: المراد بما في «مالا يعلمون» الجنس والمعنى إنّا خلقناهم من جنس الآدميّين الّذين يعلمون أو من الخلق الّذين يعلمون لا من جنس الحيوانات الّتي لا تعقل ولا تفقه فالحجّة لازمة لهم تامّة عليهم ، والوجوه الثلاثة سخيفة .

قوله تعالى : «فلا اُقسم بربّ المشارق والمغارب إنّا لقادرون على أن نبدّل خيراً منهم و ما نحن بمسبوقين» المراد بالمشارق و المغارب مشارق الشمس و مغاربها فإنّ لها في كلّ يوم من أيّام السنة الشمسيّة مشرقا ومغربا لا يعود اليهما إلى مثل اليوم من السنة القابلة ، ومن المحتمل أن يكون المراد بها مشارق جميع النجوم

و مغاربها .

وفي الآية على قصرها وجوه من الالتفات ففي قوله : «فلا اُقسم» التفات من التكلم مع الغير في «إنّا خلقناهم» إلى التكلّم وحده ، والوجه فيه تأكيد القسم بإسناده إلى الله تعالى نفسه .

وفي قوله : « بربّ المشارق والمغارب » التفات من التكلّم وحده إلى الغيبة ، و الوجه فيه الإشارة إلى صفة من صفاته تعالى هي المبدء في خلق الناس جيلا بعد جيلا و هي ربوبيّته للمشارق و المغارب فإنّ للشروق بعد الشروق و الغروب بعد الغروب الملازم لمرور الزمان دخلاً تامّاً في تكوّن الإنسان جيلا بعد جيل وسائر الحوادث الأرضيّة المقارنة له .

وفي قوله : «إنّا لقادرون» التفات من الغيبة إلى التكلّم مع الغير ، والوجه فيه الإشارة إلى العظمة المناسبة لذكر القدرة ، وفي ذكر ربوبيّته للمشارق والمغارب إشارة إلى تعليل القدرة فإنّ الّذي ينتهي إليه تدبير الحوادث في تكوّنها لايعجزه شيء من الحوادث الّتي هي أفعاله عن شيء منها ولايمنعه شيء من خلقه من أن يبدّله خيراً منه و إلّا شاركه المانع في امر التدبير و الله سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيّته فافهم ذلك .

وقوله : «إنّا لقادرون على أن نبدّل خيراً منهم» «على» متعلّق بقوله : «لقادرون» و المفعول الأوّل لنبدّل ضمير محذوف راجع إليهم و إنّما حذف للإشارة إلى هوان أمرهم وعدم الاهتمام بهم ، و«خيرا» مفعوله الثاني و هو صفة اُقيمت مقام موصوفها، و التقدير إنّا لقادرون على أن نبدّلهم قوماً خيراً منهم ، وخيريّتهم منهم أن يؤمنوا بالله ولا يكفروا به ويتّبعوا الحقّ ولايردّوه .

وقوله : « وما نحن بمسبوقين » المراد بالسبق الغلبة على سبيل الاستعارة ، وكونه تعالى مسبوقاً هو أن يمنعه خلقهم أن يذهب بهم ويأتي بدلهم بقوم خير منهم .

وسياق الآية لا يخلو من تأييد مّا لما تقدّم من كون المراد بالّذين كفروا قوماً من المنافقين دون المشركين المعاندين للدين النافين لأصل المعاد فإنّ ظاهر قوله :

« خيراً منهم » لايخلو من دلالة أوإشعار بأنّ فيهم شائبة خيريّة ولله أن يبدّل خيراً منهم ، والمشركون لا خير فيهم لكن هذه الطائفة من المنافقين لا يخلو تحفّظهم على ظواهر الدين ممّا آمنوا به ولم يردّوه من خير للإسلام .

فقد بان بما تقدّم أنّ قوله : « إنّا خلقناهم ممّا يعلمون » إلى آخر الآيات الثلاث تعليل للردع بقوله : « كلاّ » ، وأنّ محصّل مضمون الآيات الثلاث أنّهم مخلوقون من نطفة ـ وهم يعلمون ذلك ـ وهي خلقة جارية والله الّذي هو ربّ الحوادث الجارية الّتي منها خلق الإنسان جيلاً بعد جيل والمدبّر لها قادر أن يذهب بهم ويبدّل لهم خيراً منهم يعتنون بأمر الدين ويستأهلون لدخول الجنّة ، ولا يمنعه خلق هؤلاء أن يبدّل لهم خيراً منهم ويدخلهم الجنّة بكمال إيمانهم من غير أن يضطرّ إلى إدخال هؤلاء الجنّة فلا ينتقض تقديره أنّ الجنّة للصالحين من أهل الإيمان .

قوله تعالى : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتّى يلاقوا يومهم الّذي يوعدون » أمر للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يتركهم وما هم فيه ، ولا يلحّ عليهم بحجاج ولا يتعب نفسه فيهم بعظة ، وقد سمّى ما هم عليه بالخوض واللعب دلالة على أنّهم لا ينتفعون به انتفاعاً حقيقيّاً على ما لهم فيه من الإمعان والإصرار كاللعب الّذي لا نفع فيه وراء الخيال فليتركوا حتّى يلاقوا اليوم الّذي يوعدون وهو يوم القيامة .

وفي إضافة اليوم إليهم إشارة إلى نوع اختصاص له بهم وهو الاختصاص بعذابهم.

قوله تعالى : « يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنّهم إلى نصب يوفضون» بيان ليومهم الّذي يوعدون وهو يوم القيامة .

والأجداث جمع جدث وهو القبر ، وسراعاً جمع سريع ، والنصب ما ينصب علامة في الطريق يقصده السائرون للاهتداء به ، وقيل : هو الصنم المنصوب للعبادة وهو بعيد من كلامه تعالى ، والإيفاض الإسراع والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة ذلك اليوم الّذي كانوا يوعدون » الخشوع تأثّر خاصّ في القلب عن مشاهدة العظمة والكبرياء ، ويناظره الخضوع في الجوارح ، ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور آثاره فيها ، والرهق غشيان الشيء بقهر

وقوله : « ذلك اليوم الّذي كانوا يوعدون » الإشارة إلى مامرّ من أوصافه من الخروج من الأجداث سراعاً وخشوع الأبصار ورهق الذلّة .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج عبد بن حميد عن عبادة بن أنس قال : دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المسجد فقال : مالي أراكم عزين حلقاً حلق الجاهليّة قعد رجل خلف أخيه .

أقول : ورواه عن ابن مردويه عن أبي هريرة ، ولفظه خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه جلوس حلقاً حلقاً فقال : مالي أراكم عزين ، وروى هذا المعنى أيضاً عن جابر بن سمرة .

وفي تفسير القمّي : وقوله : « كلاّ إنّا خلقناهم ممّا يعلمون » قال : من نطفة ثمّ علقة ، وقوله « فلا أُقسم » أي أُقسم « بربّ المشارق والمغارب » قال : مشارق الشتاء ومشارق الصيف ومغارب الشتاء ومغارب الصيف .

وفي المعاني بإسناده إلى عبدالله بن أبي حمّاد رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: لها ثلاثمائة وستّون مشرقا وثلاثمائة وستّون مغربا فيومها الّذي تشرق فيه لا تعود فيه إلّا من قابل .

وفي تفسير القمّي : وقوله : « يوم يخرجون من الأجداث سراعاً » قال : من القبر « كأنّهم إلى نصب يوفضون » قال : إلى الداعي ينادون ، وقوله : « ترهقهم ذلّة » قال : تصيبهم ذلّة .

﴿ سورة نوح مكيّة وهي ثمان وعشرون آية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم انّا أرسلنا نوحاً الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم (١) قال يا قوم اني لكم نذير مبين (٢) أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون (٣) يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى انّ أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون (٤) قال رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً (٥) فلم يزدهم دعائي الّا فراراً (٦) واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً (٧) ثم اني دعوتهم جهاراً (٨) ثم اني اعلنت لهم واسررت لهم اسراراً (٩) فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً (١٠) يرسل السماء عليكم مدراراً (١١) ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهاراً (١٢) مالكم لا ترجون لله وقاراً (١٣) وقد خلقكم اطواراً (١٤) الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً (١٥) وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً (١٦) والله انبتكم من الارض نباتاً (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجاً (١٨) والله جعل لكم الارض بساطاً (١٩) لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً (٢٠) قال نوح رب

انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا (٢١) ومكروا مكرا كبارا (٢٢) وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا (٢٣) وقد اضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا (٢٤) .

﴿ بيان ﴾

تشير السورة إلى رسالة نوح عليه السلام إلى قومه وإجمال دعوته وعدم استجابتهم له ثمّ شكواه إلى ربّه منهم ودعائه عليهم واستغفاره لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ثمّ حلول العذاب بهم وإهلاكهم بالا غراق والسورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم » « أن أنذر قومك » الخ تفسير لرسالته أي أوحينا إليه أن أنذر الخ .

وفي الكلام دلالة على أنّ قومه كانوا عرضة للعذاب بشركهم ومعاصيهم كما يدلّ عليه ماحكي من قوله عليه السلام في الآية التالية : « اعبدوا الله واتّقوه » وذلك أنّ الا نذار تخويف والتخويف إنّما يكون من خطر محتمل لا دافع له لولا التحذّر ، وقد أفاد قوله : « من قبل أن يأتيهم عذاب أليم » أنّه متوجّه إليهم غير تاركهم لولا تحذّرهم منه .

قوله تعالى : « قال ياقوم إنّي لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتّقوه وأطيعون» بيان لتبليغه رسالته إجمالاً بقوله : « إنّي لكم نذير مبين » ، وتفصيلاً بقوله : « أن اعبدوا الله » الخ .

وفي إضافته القوم إلى نفسه إظهار إشفاق ورحمة أي إنّكم قومي يجمعكم وإيّاي مجتمعنا القوميّ تسوؤني ما أساءكم فلست اُريد إلاّ ما فيه خيركم وسعادتكم إنّي

لكم نذير الخ .

وفي قوله : « أن اعبدوا الله » دعوتهم إلى توحيده تعالى في عبادته فإنّ القوم كانوا وثنيّين يعبدون الأصنام ، والوثنيّة لا تجوّز عبادة الله سبحانه لا وحده ولا مع غيره ، وإنّما يعبدون أرباب الأصنام بعبادة الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عندالله ، ولو جوّزوا عبادته تعالى لعبدوه وحده فدعوتهم إلى عبادة الله دعوة لهم إلى توحيده في العبادة .

وفي قوله : « واتّقوه » دعوتهم إلى اجتناب معاصيه من كبائر الإثم وصغائره وهي الشرك فما دونه ، وفعل الأعمال الصالحة الّتي في تركها معصية .

وفي قوله : « وأطيعون » دعوة لهم إلى طاعة نفسه المستلزم لتصديق رسالته وأخذ معالم دينهم ممّا يعبد به الله سبحانه ويستنّ به في الحياة منه عليه‌السلام ففي قوله : « اعبدوا الله واتّقوه وأطيعون » ندب إلى اُصول الدين الثلاثة : التوحيد المشار إليه بقوله : « اعبدوا الله » وتصديق المعاد الّذي هو أساس التقوى [1] والتصديق بالنبوّة المشار إليه بالدعوة إلى الطاعة المطلقة .

قوله تعالى : « يغفر لكم من ذنوبكم » مجزوم في جواب الأمر و كلمة « من » للتبعيض على ما هو المتبادر من السياق ، والمعنى إن تعبدوه وتتّقوه و تطيعوني يغفر لكم بعض ذنوبكم و هي الذنوب الّتي قبل الإيمان : الشرك فمادونه ، وأمّا الذنوب الّتي لم تقترف بعد ممّا سيستقبل فلامعنى لمغفرتها قبل تحقّقها ، ولا معنى أيضا للوعد بمغفرتها إن تحقّقت في المستقبل أوكلّما تحقّقت لاستلزام ذلك إلغاء التكاليف الدينيّة بإلغاء المجازاة على مخالفتها .

ويؤيّد ذلك ظاهر قوله تعالى : « يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم » الأحقاف : ٣١ ، وقوله : « يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » إبراهيم : ١٠ وقوله : « قل للّذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » الأنفال : ٣٨ .

---

(١) اذ لولا المعاد بما فيه من الحساب و الجزاء لم يكن للتقوى الديني وجه ، منه .

وأمّا قوله تعالى يخاطب المؤمنين من هذه الأمّة : «يا أيّها الّذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنّات» الصفّ : ١٢ فهو وإن كان ظاهراً في مغفرة جميع الذنوب لكن رتّبت المغفرة فيه على استمرار الإيمان والعمل الصالح و إدامتهما مادامت الحياة فلا مغفرة فيه متعلّقة بما لم يتحقّق بعد من المعاصي و الذنوب المستقبلة و لا وعد بمغفرتها كلّما تحقّقت .

وقد مال بعضهم اعتمادا على عموم المغفرة في آية الصفّ إلى القول بأنّ المغفور بسبب الإيمان في هذه الأُمّة جميع الذنوب وفي سائر الأُمم بعضها كما هو ظاهر قول نوح لأُمّته : « يغفر لكم من ذنوبكم » ز قول الرسل : كما في سورة إبراهيم « يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » وقول الجنّ كما في سورة الاحقاف لقومهم : «يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم» .

و فيه أنّ آية الصفّ موردها غير مورد المغفرة بسبب الإيمان فقط كما أشرنا إليه . على أنّ آية الأنفال صريحة في مغفرة ما قد سلف ، و المخاطب به كفّار هذه الأُمّة .

وذهب بعضهم إلى كون «من» في قوله : «من ذنوبكم » زائدة ، ولم تثبت زيادة «من» في الإثبات فهو ضعيف ومثله في الضعف قول من ذهب إلى أنّ «من» بيانيّة ،و قول من ذهب إلى أنّها لابتداء الغاية .

قوله تعالى : «ويؤخّركم إلى أجل مسمّى إنّ أجل الله إذا جاء لا يؤخّر لو كنتم تعلمون» تعليق تأخيرهم إلى أجل مسمّى على عبادة الله والتقوى وطاعة الرسول يدلّ على أنّ هناك أجلين أجل مسمّى يؤخّرهم الله إليه إن أجابوا الدعوة ، وأجل غيره يعجّل إليهم لو بقوا على الكفر ، و أنّ الأجل المسمّى أقصى الأجلين وأبعدهما .

ففي الآية وعدهم بالتأخير إلى الأجل المسمّى إن آمنوا وفي قوله : «إنّ أجل

الله إذا جاء لايؤخّر» تعليل للتأخير إلى الأجل المسمّى إن آمنوا فالمراد بأجل الله إذا جاء مطلق الأجل المقضيّ المتحتّم أعمّ من الأجل المسمّى وغير المسمّى فلارادّ لقضائه تعالى ولا معقّب لحكمه .

والمعنى أن اعبدوا الله و اتّقوه وأطيعوني يؤخّركم الله إلى أجل مسمّى هو أقصى الأجلين فإنّكم إن لم تفعلوا ذلك جاءكم الأجل غير المسمّى بكفركم ولم تؤخّروا فإنّ أجل الله إذا جاء لا يؤخّر ، ففي الكلام مضافاً إلى وعد التأخير إلى الأجل المسمّى إن آمنوا ، تهديد بعذاب معجّل إن لم يؤمنوا .

و قد ظهر بما تقدّم عدم استقامة تفسير بعضهم لأجل الله بالأجل غير المسمّى و أضعف منه تفسيره بالأجل المسمّى .

وذكر بعضهم أنّ المراد بأجل الله يوم القيامة والظاهر أنّه يفسّر الأجل المسمّى أيضا بيوم القيامة فيرجع معنى الآية حينئذ إلى مثل قولنا : إن لم تؤمنوا عجّل الله إليكم بعذاب الدنيا و إن آمنتم أخّركم إلى يوم القيامة إنّه إذا جاء لا يؤخّر .

و أنت خبير بأنّه لا يلائم التبشير الّذي في قوله : « يغفر لكم من ذنوبكم » .

وقوله : «لو كنتم تعلمون» متعلّق بأوّل الكلام أي لو كنتم تعلمون أنّ لله أجلين وأنّ أجله إذا جاء لايؤخّر استجبتم دعوتي وعبدتم الله و اتّقيتموه و أطعتموني هذا فمفعول «تعلمون» محذوف يدلّ عليه سابق الكلام .

وقيل : إنّ « تعلمون » منزّل منزلة الفعل اللازم ، وجواب لو متعلّق بأوّل الكلام ، والمعنى لو كنتم من أهل العلم لاستجبتم دعوتي وآمنتم ، أو متعلّق بآخر الكلام ، والمعنى لو كنتم من أهل العلم لعلمتم أنّ أجل الله إذا جاء لا يؤخّر .

قوله تعالى : « قال ربّ إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً » القائل هو نوح عليه السلام والّذي دعا إليه هو عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله ، والدعاء ليلاً ونهاراً كناية عن دوامه من غير فتور ولا توان .

وقوله : « فلم يزدهم دعائي إلّا فرارا » أي من إجابة دعوتي فالمراد بالفرار التمرّد والتأبّي عن القبول استعارة ، وإسناد زيادة الفرار إلى دعائه لما فيه من شائبة

السببيّة لأنّ الخير إذا وقع في محلّ غير صالح قاومه المحلّ بما فيه من الفساد فأفسده فانقلب شرّاً وقد قال تعالى في صفة القرآن : « وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا » أسرى : ٨٢ .

قوله تعالى : « وإنّي كلّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم » الخ ذكر مغفرته تعالى غاية لدعوته والأصل « دعوتهم ليؤمنوا فتغفر لهم » لأنّ الغرض الإشارة إلى أنّه كان ناصحاً لهم في دعوته ولم يرد إلاّ مافيه خير دنياهم وعقباهم .

وقوله : « جعلوا أصابعهم في آذانهم » كناية عن استنكافهم عن الاستماع إلى دعوته ، وقوله : « واستغشوا ثيابهم » أي غطّوا بها رؤسهم ووجوههم لئلاّ يروني ولا يسمعوا كلامي وهو كناية عن التنفّر وعدم الاستماع إلى قوله .

وقوله : « وأصرّوا واستكبروا استكباراً » أي وألحّوا على الامتناع من الاستماع واستكبروا عن قبول دعوتي استكباراً عجيباً .

قوله تعالى : « ثمّ إنّي دعوتهم جهاراً » « ثمّ » للتراخي بحسب رتبة الكلام والجهار النداء بأعلى الصوت .

قوله تعالى : « ثمّ إنّي أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً » الإعلان والإسرار متقابلان وهما الإظهار والإخفاء ، وظاهر السياق أنّ مرجع ضمير لهم فى الموضعين واحد فالمعنى دعوتهم سرّاً وعلانية فتارة علانية وتارة سرّاً سالكاً في دعوتي كلّ مذهب ممكن وسائراً فيها كلّ مسير مرجوّ .

قوله تعالى : « فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً ـ إلى قوله ـ أنهاراً » علّل أمرهم بالاستغفار بقوله : « إنّه كان غفّاراً » دلالة على أنّه تعالى كثير المغفرة وهي مضافاً إلى كثرتها منه سنّة مستمرّة له تعالى .

وقوله : « يرسل السماء عليكم مدراراً » مجزوم في جواب الأمر ، والمراد بالسماء السحاب ، والمدرار كثير الدرور بالأمطار .

وقوله : « ويمددكم بأموال وبنين » الإمداد إلحاق المدد وهو ما يتقوّى به

الممدّ على حاجته، والأموال والبنون أقرب الأعضاد الابتدائيّة الّتي يستعين بها المجتمع الإنسانيّ على حوائجه الحيويّة.

وقوله: « ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً » هما من قسم الأموال غير أنّهما لكونهما من أبسط ضروريّات المعاش خصّا بالذكر.

والآيات ـ كما ترى ـ تعدّ النعم الدنيويّة وتحكي عنه عليه‌السلام أنّه يعد قومه توافر النعم وتواترها عليهم إن استغفروا ربّهم فلمغفرة الذنوب أثر بالغ في رفع المصائب والنقمات العامّة وانفتاح أبواب النعم من السماء والأرض أي أنّ هناك ارتباطا خاصّاً بين صلاح المجتمع الإنسانيّ وفساده وبين الأوضاع العامّة الكونيّة المربوطة بالحياة الإنسانيّة وطيب عيشه ونكده.

كما يدلّ عليه قوله تعالى: « ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس» الروم: ٤١، وقوله: « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الشورى: ٣٠، وقوله: « ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الأعراف: ٩٦ وقد تقدّم في تفسير الآيات ما لا يخلو من نفع في هذا المقام.

قوله تعالى: « ما لكم لا ترجون لله وقاراً » استفهام إنكاريّ والوقار ـ كما في المجمع ـ بمعنى العظمة اسم من التوقير بمعنى التعظيم، والرجاء مقابل الخوف وهو الظنّ بما فيه مسرّة، والمراد به في الآية مطلق الاعتقاد على ما قيل، وقيل: المراد به الخوف للملازمة بينهما.

والمعنى أيّ سبب حصل لكم حال كونكم لا تعتقدون أو لا تخافون لله عظمة توجب أن تعبدوه.

والحقّ أنّ المراد بالرجاء معناه المعروف وهو ما يقابل الخوف و نفيه كناية عن اليأس فكثيراً ما يكنّى به عنه يقال: لا أرجو فيه خيراً أي أنا آئس من أن يكون فيه خير، والوقار الثبوت والاستقرار والتمكّن وهو الأصل في معناه كما صرّح به في المجمع، ووقاره تعالى ثبوته واستقراره في الربوبيّة المستتبع لاُلوهيّته ومعبوديّته.

كأنّ الوثنيّين طلبوا ربّا له وقار في الربوبيّة ليعبدوه فيئسوا منه تعالى فعبدوا غيره وهو كذلك فإنّهم يرون أنّه تعالى لايحيط به أفهامنا فلاسبيل للتوجّه العباديّ إليه ، والعبادة أداء لحقّ الربوبيّة الّتي يتفرّع عليها تدبير الأمر وتدبير اُمور العالم مفوّض إلى أصناف الملائكة والجنّ فهم أربابنا الّذين يجب علينا عبادتهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله ، وأمّا هو تعالى فليس له إلّا الإيجاد إيجاد الأرباب ومربوبيهم جميعاً دون التدبير .

و الآية أعني قوله : «مالكم لاترجون لله وقاراً» وما يتلوها إلى تمام سبع آيات مسوقة لإثبات وقاره تعالى في الربوبيّة وحجّة قاطعة في نفي ما لفّقوه لوجوب عبادة غيره من الملائكة وغيرهم لاستناد تدبير العالم إليهم، ويتبيّن به إمكان التوجّه العبادي إليه تعالى .

ومحصّل الحجّة : ما الّذي دعاكم إلى نفي ربوبيّته تعالى المستتبع للاُلوهيّة والمعبوديّة واليأس عن وقاره ؟ وأنتم تعلمون أنّه تعالى خلقكم وخلق العالم الّذي تعيشون فيه طوراً من الخلق لاينفكّ عن هذا النظام الجاري فيه ، وليس تدبير الكون ومن فيه من الإنسان إلّا التطوّرات المخلوقة في أجزائه والنظام الجاري فيه فكونه تعالى خالقاً هو كونه مالكاً مدبّراً فهو الربّ لا ربّ سواه فيجب أن يتّخذ إلهاً معبوداً .

و يتبيّن به صحّة التوجّه إليه تعالى بالعبادة فإنّا نعرفه بصفاته الكريمة من الخلق و الرزق والرحمة وسائر صفاته الفعلية فلنا أن نتوجّه إليه بما نعرفه من صفاته .(١)

قوله تعالى : «وقد خلقكم أطواراً» حال من فاعل «لاترجون» والأطوار جمع طور وهو حدّ الشيء وحاله الّتي هو عليها .

---

(١) وانما اخذنا بما نعرفه من صفاته الفعلية لان من المنسوب اليهم انهم ينكرون صفاته الذاتية ويفسرونها بسلب النقائص فمعنى كونه حياً قديرا عليما عندهم انه ليس بميت ولاعاجز ولا جاهل على ان الايات ايضا تصفه بالصفات الفعلية، منه .

و محصّل المعنى - لاترجون لله وقاراً في ربوبيّة - و الحال أنّه أنشأكم طوراً بعد طور كل طور يستعقب طوراً آخر فأنشأ الواحد منكم تراباً ثمّ نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ جنينا ثمّ طفلاً ثمّ شاباً ثم كهلاً ثمّ شيخاً و أنشأ جمعكم مختلفة الأفراد في الذكورة والأنوثة و الألوان والهيآت والقوّة والضعف إلى غير ذلك ، وهل هذا إلّا التدبير فهو مدبّر أمركم فهو ربّكم .

قوله تعالى : «ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا» مطابقة السماوات السبع بعضها لبعض كون بعضها فوق بعض أو تطابقهنّ و تماثلهنّ على الاحتمالين المتقدّمين في تفسير أوائل سورة الملك .

والمراد بالرؤية العلم ، وتوصيف السماوات بالسبع - والكلام مسوق سوق الحجّة - يدلّ على أنّهم كانوا يرون كونها سبعا و يسلّمون ذلك فاحتجّ عليهم بالمسلّم عندهم .

وكيف كان فوقوع حديث السماوات السبع في كلام نوح دليل على كونه مأثوراً من الأنبياء عليهم السلام من أقدم العهود .

قوله تعالى : «وجعل القمر فيهنّ نوراً وجعل الشمس سراجاً» الآيات - كما يشهد به سياقها - مسوقة لبيان وقوع التدبير الإلهيّ على الإنسان بما يفيض عليه من النعم حتّى تثبت ربوبيّته فتجب عبادته .

وعلى هذا فكون الشمس سراجاً هو كونها مضيئة لعالمنا ولولاها لانغمرنا في ظلمة ظلماء ، وكون القمر نوراً هو كونه منوّراً لأرضنا بنور مكتسب من الشمس فليس منوّراً بنفسه حتّى يعدّ سراجاً .

وأمّا أخذ السماوات ظرفاً للقمر في قوله : «وجعل القمر فيهنّ نوراً» فالمراد به كما قيل كونه في حيّزهنّ وإن كان في واحدة منها كما تقول : إنّ في هذه الدور لبئراً وإن كانت في واحدة منها لأنّ ماكان في إحداهنّ كان فيهنّ وكما تقول : أتيت بني تميم وإنّما أتيت بعضهم .

قوله تعالى : «والله أنبتكم من الأرض نباتا » أي أنبتكم إنبات النبات وذلك أنّ الإنسان تنتهي خلقته إلى عناصر أرضيّة تركّبت تركّباً خاصّاً به يغتذي و ينمو ويولّد المثل ، وهذه حقيقة النبات فالكلام مسوق سوق الحقيقة من غير تشبيه واستعارة .

قوله تعالى : «ثمّ يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا » الاعادة فيها بالامانة و الإقبار ، والاخراج للجزاء يوم القيامة فالآية والّتي قبلها قريبتا المعنى من قوله تعالى: «فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون» الاعراف : ٢٥ .

وفي قوله : «ويخرجكم» دون أن يقول : ثمّ يخرجكم إيماء إلى أنّ الاعادة والإخراج كالصنع الواحد والإعادة مقدّمة للإخراج ، والإنسان في حالتي الإعادة والإخراج في دار الحقّ كما أنّه في الدنيا في دار الغرور .

قوله تعالى : «والله جعل لكم الأرض بساطاً» أي كالبساط يسهل لكم التقلّب من جانب إلى جانب ، والانتقال من قطر إلى قطر .

قوله تعالى : «لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً» السبل جمع سبيل بمعنى الطريق و الفجاج جمع فجّ بمعنى الطريق الواسعة ، وقيل : الطريق الواقعة بين الجبلين .

قوله تعالى : «قال نوح ربّ إنّهم عصوني واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلّا خساراً » رجوع منه عليه السلام إلى شكواه من قومه إلى ربّه بعد ما ذكر تفصيل دعوته لهم وما ألقاه من القول إليهم من قوله : « ثمّ إنّي دعوتهم جهاراً » إلى آخر الآيات .

وشكواه السابق له قوله : « فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً » بعد ما أخبر باجمال دعوته بقوله : «ربّ إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً » .

وفي الآية دلالة على أنّ العظماء المترفين من قومه عليه السلام كانوا يصدّون الناس عنه ويحرّضونهم على مخالفته وإيذائه .

ومعنى قوله : «لم يزده ماله و ولده إلّا خساراً» - وقد عدّ المال والولدفي سابق كلامه من النعم - أنّ المال والولد الّذين هما من نعمك و كان يجب عليهم شكرهما لم يزيداهم إلّا كفراً وأورثهم ذلك خسراناً من رحمتك .

قوله تعالى : «ومكروا مكراً كبّاراً» الكبّار اسم مبالغة من الكبر .

قوله تعالى : «وقالوا لاتذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودّاً ولا سواعاً ولايغوث و يعوق ونسراً» توصية منهم بالتمسّك بآلهتهم وعدم ترك عبادتها .

وودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر خمس من آلهتهم لهم اهتمام تامّ بعبادتهنّ ولذا خصّوها بالذكر مع الوصيّة بمطلق الآلهة ، ولعلّ تصدير ودّ وذكر سواع ويغوث بلا المؤكّدة للنفي لكونها أعظم أمراً عندهم من يعوق ونسر والله أعلم .

قوله تعالى : «وقدأضلّوا كثيراً ولاتزد الظالمين إلّاضلالاً» ضمير «أضلّوا» للرؤساء المتبوعين ويتأيّد بهأنّهم هم المحدّث عنهم في قوله: «ومكروا» «وقالوا لاتذرنّ آلهتكم» وقيل : الضمير للأصنام فهم المضلّون ، ولا يخلو من بعد .

وقوله : «ولا تزد الظالمين إلّا ضلالاً» دعاء من نوح على الظالمين بالضلال و المراد به الضلال مجازاة دون الضلال الابتدائيّ فهو دعاء منه أن يجازيهم الله بكفرهم وفسقهم مضافاً إلى ماسيحكي عنه من دعائه عليهم بالهلاك .

﴿بحث روائي﴾

في نهج البلاغة : و قد جعل الله سبحانه الاستغفار سبباً لدرور الرزق ورحمة الخلق فقال سبحانه : «استغفروا ربّكم إنّه كان غفّارا يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين» فرحم الله امرء استقبل توبته ، واستقال خطيئته ، وبادر منيّته .

أقول : والروايات في استفادة سببيّة الاستغفار لسعة الرزق والإمداد بالأولاد من هذه الآيات كثيرة .

وفي الخصال عن عليّ عليه السلام في حديث الأربعمائة : أكثر الاستغفار تجلب الرزق .

وفي تفسير القميّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : «لا ترجون لله وقاراً» قال ؟ لاتخافون لله عظمة .

أقول : وقد روي هذا المعنى من طرق أهل السنّة عن ابن عبّاس .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : «سبع سماوات طباقا» يقول بعضها فوق بعض .

وفيه في قوله تعالى : « ربّ إنّهم عصوني واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلّا خساراً» قال: اتّبعوا الأغنياء .

وفي الدّر المنثور أخرج البخاريّ وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عبّاس قال : صارت الأصنام والأوثان الّتي كانت في قوم نوح في العرب بعد .

أمّا ودّ فكانت لكلب في دومة الجندل ، وأمّا سواع فكانت لهذيل ، وأمّا يغوث فكانت لمراد ثمّ لبني غطيف عند سبأ ، وأمّا يعوق فكانت لهمدان ، وأمّا نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع .

و كانوا أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم الّتي كانوا يجلسون أنصاباً و سمّوها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتّى إذ هلك اُولئك و نسخ العلم عبدت .

اقول : لعلّ المراد بصيرورة تلك الأصنام الّتي كانت لقوم نوح إلى العرب مطابقة ما عند العرب لماكان عندهم في الأسماءِ أو في الأوصاف والأسماء ، و أمّا انتقال تلك الأصنام بأشخاصهنّ إلى العرب فبعيد غايته .

وروى القصّة أيضاً في علل الشرائع باسناده عن جعفر بن محمّد عليه السلام كما في الرواية .

و في روضة الكافي باسناده عن المفضّل عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث : فعمل نوح سفينته في مسجد الكوفة بيده فأتى بالخشب من بعد حتّى فرغ منها .

قال : فالتفت عن يساره و أشار بيده إلى موضع دار الداريين و هو موضع دار ابن حكيم ، و ذاك فرات اليوم،فقال لي يا مفضّل وهنا نصبت أصنام قوم نوح : يغوث و يعوق و نسر .



✿ ✿ ✿

مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً (٢٥) وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوَالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً (٢٨)

﴿ بيان ﴾

تتضمّن الآيات هلاك القوم و تتمّة دعاء نوح عليه السلام عليهم .

قوله تعالى : « ممّا خطيآتهم اُغرقوا فاُدخلوا ناراً » الخ « من » لابتداء الغاية تفيد بحسب المورد التعليل و «ما » زائدة لتأكيد أمر الخطايا وتفخيمه ، والخطيآت المعاصي و الذنوب ، و تنكير النار للتفخيم .

و المعنى من أجل معاصيهم و ذنوبهم اُغرقوا بالطوفان فاُدخلوا ـ أدخلهم الله ـ ناراً لا يقدّر عذابها بقدر و من لطيف نظم الآية الجمع بين الإغراق بالماء و إدخال النار .

و المراد بالنار نار البرزخ الّتي يعذّب بها المجرمون بين الموت و البعث دون نار الآخرة ، و الآية من أدلّة البرزخ إذ ليس المراد أنّهم اُغرقوا و سيدخلون النار يوم القيامة ، و لا يعبأ بما قيل : إنّ من الجائز أن يراد بها نار الآخرة .

و قوله : « فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً » أي ينصرونهم في صرف الهلاك و العذاب عنهم . تعريض لأصنامهم و آلهتهم .

قوله تعالى : « وقال نوح ربّ لاتذرعلى الأرض منالكافرين ديّاراً » الديّار

نازل الدار ، والآية تتمة دعائه عليه السلام عليهم ، وكان قوله : « ممّا خطيآتهم أُغرقوا» الخ معترضاً واقعاً بين فقرتي الدعاء للإشارة إلى أنّهم أُهلكوا لما عدّ نوح من خطيآتهم و لتكون كالتمهيد لسؤاله الهلاك فيتبيّن أنّ إغراقهم كان استجابة لدعائه ، و أنّ العذاب استوعبهم عن آخرهم .

قوله تعالى : « إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك و لا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً » تعليل لسؤال إهلاكهم عن آخرهم مفاده أن لافائدة في بقائهم لا لمن دونهم من المؤمنين فإنّهم يضلّونهم ، و لا فيمن يلدونه من الأولاد فإنّهم لا يلدون إلاّ فاجراً كفّاراً - و الفجور الفسق الشنيع و الكفّار المبالغ في الكفر - .

و قد استفاد عليه السلام ما ذكره من صفتهم من الوحي الإلهيّ على ما تقدّم في تفسير قصّة نوح من سورة هود .

قوله تعالى : « ربّ اغفر لي و لوالديّ و لمن دخل بيتي مؤمناً و للمؤمنين و المؤمنات » الخ المراد بمن دخل بيته مؤمنا المؤمنون به من قومه ، و بالمؤمنين و المؤمنات عامّتهم إلى يوم القيامة .

و قوله : « و لاتزد الظالمين إلاّ تباراً » التبار الهلاك ، و الظاهر أنّ المراد بالتبار ما يوجب عذاب الآخرة وهو الضلال وهلاك الدنيا بالغرق ، وقد تقدّما جميعا في دعائه ، و هذا الدعاء آخر ما نقل من كلامه عليه السلام في القرآن الكريم .

﴿سورة الجنّ مكيّة وهي ثمان وعشرون آية﴾

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ قُلْ أُوحيَ اِلَيَّ أنَّهُ استمعَ نفرٌ من الجنِ فقالوا انّا سمعْنا قُرآناً عجباً (١) يهدي الى الرُّشد فآمنّا به ولن نُشرِكَ بربِّنا أحداً (٢) وأنَّهُ تعالى جدُّ ربِّنا ما اتَّخذَ صاحبةً ولا ولداً (٣) وأنَّهُ كانَ يقولُ سفيهُنا على الله شططاً (٤) وأنّا ظننّا أنْ لنْ تقولَ الانسُ والجنُّ على الله كذباً (٥) وانَّهُ كانَ رجالٌ من الانسِ يعوذونَ برجالٍ من الجنِّ فزادوهُمْ رهقاً (٦) وانَّهُم ظنُّوا كما ظننتُمْ انْ لنْ يبعثَ اللهُ احداً (٧) وانّا لمسنا السَّماءَ فوجدْناها مُلئتْ حرساً شديداً وشُهُباً (٨) وانّا كُنّا نقعدُ منْها مقاعدَ للسَّمعِ فمنْ يستمعِ الآنَ يجدْ لهُ شهاباً رصداً (٩) وانّا لا ندري اشرٌّ اُريدَ بمنْ في الأرْضِ امْ ارادَ بهِمْ ربُّهُمْ رشداً (١٠) وانّا منّا الصّالحونَ ومنّا دونَ ذلكَ كُنّا طرائقَ قدداً (١١) وانّا ظننّا انْ لنْ نُعجِزَ اللهَ في الأرْضِ ولن نُعجِزَهُ هرباً (١٢) وانّا لمّا سمعْنا الهُدى آمنّا به فمنْ يُؤمنْ بربِّهِ فلا يخافُ بخساً ولا رهقاً (١٣) وانّا منّا المُسْلمونَ ومنّا القاسطونَ فمنْ اسلمَ فأُولئكَ تحرَّوْا رشداً (١٤) وامّا القاسطونَ فكانُوا لجهنَّمَ حطباً (١٥) وانْ لوِاستقاموا على الطَّريقةِ لأسقيناهُم ماءً غدقاً (١٦) لنفتنَهُمْ فيهِ ومن يُعرِضْ عنْ ذِكرِ ربِّهِ يسلُكْهُ عذاباً صعداً (١٧)

﴿ بيان ﴾

تشير السورة إلى قصّة نفر من الجنّ استمعوا القرآن فآمنوا به وأقرّوا باُصول معارفه ، وتتخلّص منها إلى تسجيل نبوّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، والاشارة إلى وحدانيّته تعالى في ربوبيّته وإلى المعاد ، والسورة مكّيّة بشهادة سياقها .

قوله تعالى : « قل اُوحي إليّ أنّه استمع نفر من الجنّ فقالوا إنّا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد » أمر للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يقصّ القصّة لقومه ، والموحي هو الله سبحانه ، ومفعول «استمع» القرآن حذف لدلالة الكلام عليه ، والنفر الجماعة من ثلاثة إلى تسعة على المشهور ، وقيل : بل إلى أربعين .

والعجب بفتحتين ما يدعو إلى التعجّب منه لخروجه عن العادة الجارية في مثله ، وإنّما وصفوا القرآن بالعجب لأنّه كلام خارق للعادة في لفظه ومعناه أتى به رجل اُمّيّ ما كان يقرء ولا يكتب .

والرشد إصابة الواقع وهو خلاف الغيّ ، وهداية القرآن إلى الرشد دعوته إلى عقائد وأعمال تضمن للمتلبّس بها سعادته الواقعيّة .

والمعنى يا أيّها الرسول قل للناس : اُوحي ـ أي أوحى الله ـ إليّ أنّه استمع القرآن جماعة من الجنّ فقالوا ـ لقومهم لمّا رجعوا إليهم ـ إنّا سمعنا كلاماً مقروّاً خارقاً للعادة يهدي إلى معارف من عقائد وأعمال في التلبّس بها إصابة الواقع والظفر بحقيقة السعادة .

﴿ كلام في الجن ﴾

الجنّ نوع من الخلق مستورون من حواسّنا يصدّق القرآن الكريم بوجودهم ويذكر أنّهم بنوعهم مخلوقون قبل نوع الانسان ، وأنّهم مخلوقون من النار كما أنّ الانسان مخلوق من التراب قال تعالى : « والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم » الحجر : ٢٧ .

وأنّهم يعيشون ويموتون ويبعثون كالإنسان قال تعالى : « اُولئك الّذين حقّ عليهم القول في اُمم قدخلت من قبلهم من الجنّ والإنس » الأحقاف : ١٨ .

وأنّ فيهم ذكوراً و إناثاً يتكاثرون بالتوالد والتناسل قال تعالى : « وأنّه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ » الجنّ : ٦ .

وأنّ لهم شعوراً وإرادة وأنّهم يقدرون على حركات سريعة وأعمال شاقّة كما في قصص سليمان عليه السلام وتسخير الجنّ له وقصّة ملكة سبأ .

وأنّهم مكلّفون كالإنسان ، منهم مؤمنون ومنهم كفّار ، ومنهم صالحون وآخرون طالحون قال تعالى : « وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون » الذاريات: ٥٦ وقال تعالى : «إنّاسمعنا قرآ ناًعجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به» الجنّ : ٢ وقال : « وإنّا منّا المسلمون ومنّا القاسطون » الجنّ : ١٤ وقال : « وإنّا منّا الصالحون ومنّا دون ذلك » الجنّ : ١١ وقال تعالى : « قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتابا اُنزل من بعدموسى مصدّقا لما بين يديه يهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم ياقومنا أجيبوا داعي الله »الأحقاف: ٣١ إلى غير ذلك من خصوصيّات أحوالهم الّتي تشير إليها الآيات القرآنية.

ويظهر من كلامه تعالى أنّ إبليس من الجنّ وأنّ له ذريّة وقبيلا قال تعالى: « كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه» الكهف : ٥٠ وقال تعالى : « أفتتّخذونه وذرّيّته أولياء من دوني » الكهف : ٥٠ وقال : « إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » الأعراف : ٢٧ .

قوله تعالى : « فآمنّا به ولن نشرك بربّنا أحدا » إخبار عن إيمانهم بالقرآن وتصديقهم بأنّه حقّ ، وقوله : « ولن نشرك بربّنا أحداً » تأكيد لمعنى إيمانهم به أنّ إيمانهم بالقرآن إيمان بالله الّذي أنزله فهو ربّهم ، وأنّ إيمانهم به تعالى إيمان توحيد لا يشركون به أحداً أبداً .

قوله تعالى : « وأنّه تعالى جدّ ربّنا ما اتّخذ صاحبة ولا ولداً » فسّر الجدّ بالعظمة وفسّر بالحظّ ، والآية في معنى التأكيد لقولهم : « ولن نشرك بربّنا أحداً».

والقراءة المشهورة « أنّه » بالفتح ، وقرء بالكسر في هذه الآية وفيمابعدها من

الآيات ـ اثنا عشر مورداً ـ إلى قوله : « وأن لو استقاموا » فبالفتح وهو الأرجح لظهور سياق الآيات في أنّها مقولة قول الجنّ .

وأمّا قراءة الفتح فوجهها لا يخلو من خفاء ، وقد وجّهها بعضهم بأنّ الجملة « وأنّه » الخ معطوفة على الضمير المجرور في قوله « آمنّا به » والتقدير وآمنّا بأنّه تعالى جدّ ربّنا الخ فهو إخبار منهم بالإيمان بنفي الصاحبة والولد منه تعالى على ما يقول به الوثنيّون .

وهذا إنّما يستقيم على قول الكوفيّين من النحاة بجواز العطف على الضمير المتّصل المجرور ، وأمّا على قول البصريّين منهم من عدم جوازه فقد وجّهه بعضهم كما عن الفرّاء والزجّاج والزمخشريّ بأنّها معطوفة على محلّ الجارّ والمجرور وهو النصب فإنّ قوله : « آمنّا به » في معنى صدّقناه ، والتقدير وصدّقنا أنّه تعالى جدّ ربّنا الخ ، ولا يخفى ما فيه من التكلّف .

ووجّهه بعضهم بتقدير حرف الجرّ في الجملة المعطوفة وذلك مطّرد في أن وأنّ ، والتقدير آمنّا به وبأنّه تعالى جدّ ربّنا الخ .

ويرد على الجميع أعمّ من العطف على الضمير المجرور أو على محلّه أو بتقدير حرف الجرّ أنّ المعنى إنّما يستقيم حينئذ في قوله : « وأنّه تعالى جدّ ربّنا » الخ، وقوله : « وأنّه كان يقول سفيهنا » الخ ، وأمّا بقيّة الآيات المصدّرة بأنّ كقوله : « وأنّا ظننّا أن لن تقول » الخ ، وقوله : « وأنّه كان رجال من الإنس » الخ ، وقوله « وأنّا لمسنا السماء » فلا يصحّ قطعا فلا معنى لأن يقال : آمنّا أو صدّقنا أنّا ظننّا أن لن تقول الإنس والجنّ على الله شططا ، أو يقال : آمنّا أو صدّقنا أنّه كان رجال من الإنس يعوذون الخ ، أو يقال : آمنّا أو صدّقنا أنّا لمسنا السماء الخ .

ولا يندفع الإشكال إلّا بالمصير إلى ما ذكره بعضهم أنّه إذا وجّه الفتح في الآيتين الاُولين بتقدير الإيمان أو التصديق فليوجّه في كلّ من الآيات الباقية بما يناسبها من التقدير .

ووجّه بعضهم الفتح بأنّ قوله : « وأنّه تعالى » الخ وسائر الآيات المصدّرة بأنّ معطوفة على قوله : « أنّه استمع » الخ .

ولا يخفى فساده فإنّ محصّله أنّ الآيات في مقام الإخبار عمّا اُوحي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله من أقوالهم وقد اُخبر عن قولهم : إنّا سمعنا قرآنا عجبا فآمنّا به بعنوان أنّه إخبار عن قولهم ثمّ حكي سائر أقوالهم بألفاظها فالمعنى اُوحي إليّ أنّه استمع نفر من الجنّ فقالوا إنّا سمعنا كذا وكذا واُوحي إليّ أنّه تعالى جدّ ربّنا الخ واُوحي إليّ أنّه كان يقول سفيهنا إلى آخر الآيات .

فيرد عليه أنّ ما وقع في صدر الآيات من لفظة « أنّه » و « أنّهم » و « أنّا » إن لم يكن جزء من لفظهم المحكيّ كان زائداً مخلاًّ بالكلام ، وإن كان جزء من كلامهم المحكيّ بلفظه لم يكن المحكيّ من مجموع أنّ وما بعدها كلاماً تامّاً واحتاج إلى تقدير ما يتمّ به كلاماً حتّى تصحّ الحكاية ، ولم ينفع في ذلك عطفه على قوله : « أنّه استمع » شيأً فلا تغفل .

قوله تعالى : « وأنّه كان يقول سفيهنا على الله شططا » السفه ـ على ما ذكره الراغب ـ خفّة النفس لنقصان العقل ، والشطط القول البعيد من الحقّ .

والآية أيضاً في معنى التأكيد لقولهم : « لن نشرك بربّنا أحداً » ومرادهم بسفيههم من سبقهم من مشركي الجنّ ، وقيل : المراد إبليس وهو من الجنّ ، وهو بعيد من سياق قوله : « كان يقول سفيهنا » الخ .

قوله تعالى : « وأنّا ظننّا أن لن تقول الإنس والجنّ على الله كذباً » اعتراف منهم بأنّهم ظنّوا أنّ الإنس والجنّ صادقون فيما يقولون ولا يكذبون على الله فلمّا وجدوهم مشركين وسمعوهم ينسبون إليه تعالى الصاحبة والولد أذعنوا به وقلّدوهم فيما يقولون فأشركوا مثلهم حتّى سمعوا القرآن فانكشف لهم الحقّ ؛ وفيه تكذيب منهم للمشركين من الإنس والجنّ .

قوله تعالى : « وأنّه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقاً » قال الراغب : العوذ الالتجاء إلى الغير ، وقال : رهقه الأمر غشيه بقهر انتهى

وفسّر الرهق بالإثم، وبالطغيان، وبالخوف، وبالشرّ، وبالذلّة والضعف، وهي تفاسير بلازم المعنى.

والمراد بعوذ الإنس بالجنّ - على ما قيل: أنّ الرجل من العرب كان إذا نزل الوادي في سفره ليلاً قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه، ونقل عن مقاتل أنّ أوّل من تعوّذ بالجنّ قوم من اليمن ثمّ بنو حنيفة ثمّ فشا في العرب.

و لا يبعد أن يكون المراد بالعوذ بالجنّ الاستعانة بهم في المقاصد من طريق الكهانة، و إليه يرجع ما نقل عن بعضهم أنّ المعنى كان رجال من الإنس يعوذون برجال من أجل الجنّ و من معرّتهم و أذاهم.

و الضميران في قوله: « فزادوهم » أوّلهما لرجال من الإنس و ثانيهما لرجال من الجنّ، و المعنى فزاد رجال الإنس رجال الجنّ رهقاً بالتجائهم إليهم فاستكبر رجال الجنّ وطغوا و أثموا، و يجوز العكس بأن يكون الضمير الأوّل لرجال الجنّ و الثاني لرجال الإنس، و المعنى فزاد رجال الجنّ رجال الإنس رهقاً أي إثماً و طغياناً أو ذلّة وخوفاً.

قوله تعالى: « وأنّهم ظنّوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً» ضمير «إنّهم» لرجال من الإنس، و الخطاب في « ظننتم » لقومهم من الجنّ، والمراد بالبعث بعث الرسول بالرسالة فالمشركون ينكرون ذلك، و قيل: المراد به الإحياء بعد الموت، و سياق الآيات التالية يؤيّد الأوّل.

و عن بعضهم أنّ هذه الآية و الّتي قبلها ليستا من كلام الجنّ بل كلامه تعالى معترضاً بين الآيات المتضمّنة لكلام الجنّ، و عليه فضمير « أنّهم » للجنّ و خطاب « ظننتم» للناس، و فيه أنّه بعيد من السياق.

قوله تعالى: « وأنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً » لمس السماء الاقتراب منها بالصعود إليها، و الحرس - على ما قيل - اسم جمع لحارس و لذا وصف بالمفرد، والمراد بالحرس الشديد الحفّاظ الأقوياء في دفع من يريد الاستراق

منها و لذا شفّع بالشهب و هي سلاحهم .

قوله تعالى : « وأنّا كنّا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » يفيد انضمام صدر الآية إلى الآية السابقة أنّ ملء السماء بالحرس الشديد و الشهب ممّا حدث أخيراً و أنّهم كانوا من قبل يقعدون من السماء مقاعد لاستماع كلام الملائكة و يفيد ذيل الآية بالتفريع على جميع ما تقدّم أنّ من يستمع الآن منّا بالقعود منها مقعداً للسمع يجد له شهاباً من صفته أنّه راصد له يرميه به الحرس.

فيتحصّل من مجموع الآيتين الإخبار بأنّهم عثروا على حادثة سماوية جديدة مقارنة لنزول القرآن و بعثة النبيّ صلى الله عليه و آله و هي منع الجنّ من تلقّي أخبار السماء باستراق السمع .

ومن عجيب الاستدلال ما عن بعضهم أنّ في الآيتين ردّاً على من زعم أنّ الرجم حدث بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله لظهور قوله : « ملئت حرساً » في أنّ الحادث هو الملء و كثرة الحرس لا أصل الحرس ، وظهور قوله : «نقعد منها مقاعد للسمع» في أنّا كنّا نجد فيها بعض المقاعد خالياً من الحرس و الشهب ، و الآن ملئت المقاعد كلّها فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً .

و يدفعه أنّه لو كان المراد بالآيتين هو الإخبار عن ملء السماء بالحرس و تكثير عددهم بحيث لا يوجد فيها مقاعد خالية منهم و قد كانت توجد قبل ذلك كان الواجب أن يتوجّه النفي في قوله : « فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » إلى السمع عن جميع المقاعد قبال إثبات السمع من بعض تلك المقاعد لا نفي مجرّد السمع .

سلّمنا أنّ المراد نفي السمع على الإطلاق وهو يكفي في ذلك لكن تعلّق الغرض في الكلام بالإخبار عن الامتلاء بالحرس مع كون بعض المقاعد خالية عنهم قبل ذلك، و كذا تقييد قوله : « فمن يستمع » الخ بقوله : « الآن » يدلّ على حدوث أمر جديد في رجم الجنّ و هو استيعاب الرجم لهم في أيّ مقعد قعدوا و المنع من السمع مطلقا بعد ما كانوا يستمعون من بعض المقاعد من غير منع ، و هذا المقدار كاف للمدّعي فيما يدّعيه .

وليتنبّه أنّ مدلول الآية حدوث رجم الجنّ بشهاب رصد وهو غير حدوث الشهاب السماويّ و هو ظاهر فلا ورود لما قيل : أنّ الشهب السماويّة كانت من الحوادث الجوّيّة الموجودة قبل زمن النبيّ صلى الله عليه وآله و نزول القرآن .

وجه عدم الورود أنّ الّذي يظهر من القرآن حدوث رجم الشياطين من الجنّ بالشهب من غير تعرّض لحدوث أصل الشهب ، وقد تقدّم في تفسير أوّل سورة الصافّات بعض ما يتعلّق بهذا المقام .

قوله تعالى : « وأنّا لا ندري أشرّ اُريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربّهم رشداً » الرشد بفتحتين و الرشد بالضمّ فالسكون خلاف الغيّ وتنكير « رشداً » لإفادة النوع أي نوعاً من الرشد .

هذا منهم إظهار للجهل والتحيّر فيما شاهدوه من أمر الرجم ومنع شياطين الجنّ من الاطّلاع على أخبار السماء غير أنّهم تنبّهوا على أنّ ذلك لأمر ما يرجع إلى أهل الارض إمّا خير أو شرّ و إذا كان خيراً فهو نوع هدى لهم وسعادة و لذا بدّلوا الخير و هو المقابل للشرّ من الرشد ، و يؤيّده قولهم : « أراد بهم ربّهم » المشعر بالرحمة و العناية .

و قد صرّحوا بالفاعل لإرادة الرشد وحذفوه في جانب الشرّ أدباً ولا يراد شرّ من جانبه تعالى إلّا لمن استحقّه .

قوله تعالى : « وأنّا منّا الصالحون ومنّا دون ذلك كنّا طرائق قدداً » الصلاح مقابل الطلاح ، والمراد بدون ذلك ما يقرب منه رتبة ـ على ما قيل ـ ، والظاهر أنّ دون بمعنى غير ، ويؤيّده قوله : « كنّا طرائق قدداً » الدالّ على التفرّق والتشتّت و الطرائق جمع طريقة و هي الطريق المطروقة المسلوكة ، و القدد القطع جمع قدّة بمعنى قطعة من القدّ بمعنى القطع وصفت الطرائق بالقدد لأنّ كلّ واحدة منها مقطوعة عن غيرها تنتهي بسالكها إلى غاية غير ما ينتهي به إليه غيرها ، و إلى هذا المعنى يرجع تفسير القدد بالطرائق المتفرّقة المتشتّتة .

و الظاهر أنّ المراد بقوله : « الصالحون » الصالحون بحسب الطبع الأوّلي في

المعاشرة والمعاملة دون الصالحين بحسب الإيمان، ولو كان المراد صلاح الإيمان لكان الأنسب أن يذكر بعد ما سيجيىء من حديث إيمانهم لمّا سمعوا الهدى .

وذكر بعضهم أنّ قوله: « طرائق قدداً » منصوب على الظرفيّة أي في طرائق قدد وهي المذاهب المتفرّقة المتشتّتة، وقال آخرون إنّه على تقدير مضاف أي ذوي طرائق، ولا يبعد أن يكون من الاستعارة بتشبيههم أنفسهم في الاختلاف والتباين بالطرق المقطوع بعضها من بعض الموصلة إلى غايات متشتّتة .

والمعنى وأنّا منّا الصالحون طبعاً ومنّا غير ذلك كنّا في مذاهب مختلفة أو ذوي مذاهب مختلفة أو كالطرق المقطوعة بعضها من بعض .

قوله تعالى : « وأنّا ظننّا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً » الظنّ هو العلم اليقينيّ ، والأنسب أن يكون المراد بقوله : « لن نعجز الله في الأرض» إعجازه تعالى بالغلبة عليه فيما يشاء فيها وذلك بالإفساد في الأرض وإخلال النظام الّذي يجري فيها فإنّ إفسادهم لو أفسدوا من القدر، والمراد بقوله : «ولن نعجزه هرباً» إعجازه تعالى بالهرب منه إذا طلبهم حتّى يفوتوه فلا يقدر على الظفر بهم .

وقيل : المعنى لن نعجزه تعالى كائنين في الأرض و لن نعجزه هرباً إلى السماء أي لن نعجزه لا في الأرض ولا في السماء هذا وهو كما ترى .

قوله تعالى : « وأنّا لمّا سمعنا الهدى آمنّا به فمن يؤمن بربّه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً » المراد بالهدى القرآن باعتبار ما يتضمّنه من الهدى ، و البخس النقص على سبيل الظلم ، والرهق غشيان المكروه .

والفاء في قوله : « فمن يؤمن » للتفريع وهو من تفريع العلّة على المعلول لإفادة الحجّة في إيمانهم بالقرآن من دون ريث ولامهل .

ومحصّل المعنى أنّا لمّا سمعنا القرآن الّذي هو الهدى بادرنا إلى الإيمان به من دون مكث لأنّ من آمن به فقد آمن بربّه ومن يؤمن بربّه فلا يخاف نقصانا في خير أو غشياناً من مكروه حتّى يكفّ عن المبادرة والاستعجال ويتروّي في الإقدام عليه لئلاّ يقع في بخس أو رهق .

قوله تعالى : « وأنّا منّا المسلمون ومنّا القاسطون فمن أسلم فاُولئك تحرّوا رشداً » المراد بالإسلام تسليم الأمر لله تعالى فالمسلمون المسلّمون له الأمر المطيعون له فيما يريده ويأمر به ، والقاسطون هم المائلون إلى الباطل قال في المجمع : القاسط هو العادل عن الحقّ و المقسط العادل إلى الحقّ . انتهى .

و المعنى أنّا معشر الجنّ منقسمون إلى من يسلّم لأمر الله مطيعين له ، و إلى من يعدل عن التسليم لأمر الله وهو الحقّ .

وقوله: «فمن أسلم فاُولئك تحرّوا رشداً» تحرّي الشيء توخّيه وقصده ، والمعنى فالّذين أسلموا فاُولئك قصدوا إصابة الواقع و الظفر بالحقّ .

قوله تعالى : « و أمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطباً » فيعذّبون بتسعّرهم و اشتعالهم بأنفسهم كالقاسطين من الإنس قال تعالى : « فاتّقوا النار الّتي وقودها الناس» البقرة : ٢٤ .

و قد عدّ كثير منهم قوله : « فمن أسلم فاُولئك ـ إلى قوله ـ لجهنّم حطباً » تتمّة لكلام الجنّ يخاطبون به قومهم وقيل : إنّه من كلامه تعالى يخاطب به النبيّ صلّى الله عليه وآله .

قوله تعالى : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه»: « أن » مخفّفة من الثقيلة ، والمراد بالطريقة طريقة الإسلام ، والاستقامة عليها لزومها و الثبات على ما تقتضيه من الإيمان بالله و آياته .

والماء الغدق الكثير منه ، ولا يبعد أن يستفاد من السياق أنّ قوله : « لأسقيناهم ماء غدقاً» مثل اُريد به التوسعة في الرزق ، و يؤيّده قوله بعده : « لنفتنهم فيه ».

و المعنى وأنّه لو استقاموا أي الجنّ والإنس على طريقة الإسلام لله لرزقناهم رزقاً كثيراً لنمتحنهم في رزقهم فالآية في معنى قوله : « و لو أنّ أهل القرى آمنوا و اتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض » الأعراف : ٩٦ .

و الآية من كلامه تعالى معطوف على قوله في أوّل السورة : « أنّه استمع » الخ .

قوله تعالى : « ومن يعرض عن ذكر ربّه يسلكه عذاباً صعداً » العذاب الصعد هو الّذي يتصعّد على المعذّب ويغلبه ، وقيل : هو العذاب الشاقّ .

و الإعراض عن ذكر الله لازم عدم الاستقامة على الطريقة و هو الأصل في سلوك العذاب ، ولذا وضع موضعه ليدلّ على السبب الأصليّ في دخول النار .

وهو الوجه أيضاً في الالتفات عن التكلّم مع الغير إلى الغيبة في قوله : « ذكر ربّه » وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ذكرنا وذلك أنّ صفة الربوبيّة هي المبدء الأصلي لتعذيب المعرضين عن ذكره تعالى فوضعت موضع ضمير المتكلّم مع الغير ليدلّ على المبدء الأصليّ كما وضع الإعراض عن الذكر موضع عدم الاستقامة ليدلّ على السبب .

قيل : وقوله : « يسلكه » مضمّن معنى يدخله ولذا عديّ إلى المفعول الثاني ، و المعنى ظاهر .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع روى الواحديّ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما قرء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الجنّ ومارآهم، انطلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين و بين خبر السماء فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم : قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء و اُرسلت علينا الشهب قالوا : ما ذاك إلاّ من شيىء حدث فاضربوا مشارق الأرض و مغاربها .

فمرّ النفر الّذين أخذوا نحو تهامة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر فلمّا سمعوا القرآن استمعوا اله وقالوا : هذا الّذي حال بيننا و بين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم وقالوا : « إنّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربّنا أحداً » فأوحى الله إلى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم : « قل اُوحي إليّ أنّه استمع نفر من الجنّ » .

ورواه البخاريّ ومسلم أيضاً في الصحيح .

اقول : وروى القمّي في تفسيره مايقرب منه وقد أوردنا الرواية في تفسير سورة الأحقاف في ذيل قوله : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ » الخ .

لكن ظاهر روايته أنّ النفر الّذين نزلت فيهم آيات سورة الأحقاف هم النفر الّذين نزلت فيهم هذه السورة وظاهر آيات السورتين لا يلائم ذلك فانّ ظاهر قولهم المنقول في سورة الأحقاف : « إنّا سمعنا كتابا اُنزل من بعد موسى يهدي إلى الحقّ » الآية أنّهم كانوا مؤمنين بموسى ومصدّقين للتوراة وظاهر آيات هذه السورة أنّهم كانوا مشركين لا يرون النبوّة ولازم ذلك تغاير الطائفتين اللهمّ إلّا أن يمنع الظهور.

وفيه عن علقمة بن قيس قال : قلت لعبدالله بن مسعود : من كان منكم مع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ليلة الجنّ ؟ فقال : ما كان منّا معه أحد فقدناه ذات ليلة ونحن بمكّة فقلنا : اغتيل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أو استطير فانطلقنا نطلبه من الشعاب فلقيناه مقبلاً من نحو حراء فقلنا : يا رسول الله أين كنت ؟ لقد أشفقنا عليك ، وقلنا له : بتنا الليلة بشرّ ليلة بات بها قوم حين فقدناك ، فقال لنا : إنّه أتاني داعي الجنّ فذهبت أقرؤهم القرآن فذهب بنا وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم فأمّا أن يكون صحبه منّا أحد فلا .

وفيه وعن الربيع بن أنس قال : ليس لله تعالى جدّ وإنّما قالته الجنّ بجهالة فحكاه الله سبحانه كما قالت ، وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

اقول : المراد بالجدّ المنفيّ عنه تعالى الحظّ والبخت .

وفي الاحتجاج عن عليّ عليه السلام في حديث : فأقبل إليه الجنّ والنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ببطن النخل فاعتذروا بأنّهم ظنّوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ، ولقد أقبل إليه أحد وسبعون ألفاً منهم فبايعوه على الصوم والصلاة والزكاة والحجّ والجهاد ونصح المسلمين فاعتذروا بأنّهم قالوا على الله شططا .

اقول : بيعتهم للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم على الصوم والصلاة الخ يصدّقها قولهم المحكيّ في أوّل السورة : «فآمنّا به» وقولهم : «وأنّا لمّا سمعنا الهدى آمنّا به » ، وأمّا كيفيّة عملهم بها وخاصّة بالزكاة والجهاد فمجهولة لنا ، واعتذارهم الأوّل المذكور لا يخلو من خفاء .

وفي تفسير القمي ّ باسناد إلى زرارة قال : سألت أباجعفر عن قوله الله : «وأنّه كان رجال من الا نس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقاً» قال : كان الرجل ينطلق إلى الكاهن الّذي يوحي إليه الشيطان فيقول : قل للشيطان : فلان قدعاذبك .

وفيه فيقوله تعالى : «فمن يؤمن بربّه فلايخاف بخساً ولارهقاً» قال : البخس النقصان ، والرهق العذاب .

وسئل العالم عن مؤمني الجنّ أيدخلون الجنّة ؟ فقال : لاولكن لله حظائر بين الجنّة والناريكون فيها مؤمنوا الجنّ وفسّاق الشيعة .

اقول : لعلّ المراد بهذه الحظائرهي بعض درجات الجنّة الّتي هي دون جنّة الصالحين .

واعلم أنّه ورد في بعض الروايات من طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام تطبيق ما في الآيات من الهدى والطريقة على ولاية علي عليه السلام وهي من الجري وليست من التفسير في شيء .



✡✡✡

وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً (١٨) وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُاللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (٢٠) قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢) إِلاَّ بَلاَغاً مِنَ اللهِ وَ رِسَالاَتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨)

﴿ بيان ﴾

في الآيات تسجيل للنبوّة وذكر وحدانيّته تعالى والمعاد كالاستنتاج من القصّة وتختتم بالإشارة إلى عصمة الرسالة .

قوله تعالى : « وأنّ المساجد لله فلاتدعوا مع الله أحداً» معطوف على قوله : «أنّه استمع» الخ ، وجملة «أنّ المساجد لله» في موضع التعليل لقوله : « فلاتدعوا مع

الله أحداً» والتقدير لاتدعوا مع الله أحداً غيره لأنّ المساجد له .

و المراد بالدعاء العبادة و قد سمّاها الله دعاء كما في قوله : « وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين » المؤمن : ٦٠ .

وقد اختلف في المراد من المساجد فقيل : المراد به الكعبة ، وقيل : المسجد الحرام ، وقيل : المسجدالحرام وبيت المقدس ، ويدفعهاكون المساجدجمعاً لاينطبق على الواحد والاثنين .

وقيل : الحرم ، وهوتهكّم لادليل‌عليه ، وقيل: الأرض كلّهالقوله صلى الله عليه وآله :جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وفيه أنّه لايدلّ على أزيد من جوازالعبادة في أي بقعة من بقاع الأرض خلافاً لما هو المعروف عن اليهود والنصارى من عدم جواز عبادته تعالى في غير البيع والكنائس ، وأمّا تسمية بقاعها مساجد حتّى يحمل عليها عند الاطلاق فلا .

وقيل : المراد به الصلوات فلايصلّى إلاّ لله ، وهو تهكّم لادليل عليه .

وعن الإمام الجواد عليه السلام أنّ المرادبالمساجد الأعضاء السبعة الّتي يسجدعليها في الصلاة وهي الجبهة والكفّان والركبتان وأصابع الرجلين ، وستوافيك روايته في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله ، ونقل ذلك أيضا عن سعيد بن جبير والفرّاء والزجّاج .

والأنسب على هذا أن يكون المراد بكون مواضع السجود من الانسان لله اختصاصهابه اختصاصاً تشريعيّاً ، والمراد بالدعاءالسجدة لكونها أظهرمصاديق العبادة أو الصلاة بما أنّها تتضمّن السجود لله سبحانه .

والمعنى واُوحي إليّ أنّ أعضاء السجود يختصّ بالله تعالى فاسجدوا له بها ـ أو اعبدوه بها ـ ولا تسجدوا ـ أو لاتعبدوا ـ أحداً غيره .

قوله تعالى : «وأنّهلمّا قام عبدالله‌يدعوه‌كادوا يكونون‌عليه‌لبداً» اللبدبالكسر فالفتح جمع لبدة بالضمّ فالسكون‌المجتمعة المتراكمة ، والمراد بعبد الله النبيّ صلى الله عليه وآله

كما تدلّ عليه الآية التالية ، والتعبير بعبدالله كالتمهيد لقوله في الآية التالية : «قل إنّما أدعو ربّى» . والأنسب لسياق الآيات التالية أن يكون مرجع ضميري الجمع فيقوله : «كادوا يكونون» المشركين وقد كانوا يزدحمون عليه صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلّى وقرء القرآن يستهزؤن ويرفعون أصواتهم فوق صوته على مانقل .

والمعنى وأنّه لمّا قام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يعبد الله بالصلاة كاد المشركون يكونون بازدحامهم لبداً مجتمعين متراكمين .

وقيل : الضميران للجنّ وإنّهم اجتمعوا عليه وتراكموا ينظرون إليه متعجّبين ممّا يشاهدون من عبادته وقراءته قرآناً لم يسمعوا كلاماً يماثله .

وقيل : الضميران للمؤمنين بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المجتمعين عليه اقتداء به في صلاته إذا صلّى وإنصاتاً لما يتلوه من كلام الله .

والوجهان لا يلائمان سياق الآيات التالية تلك الملاءمة كما تقدّمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : «قل إنّما أدعو ربّي ولا اُشرك به أحداً» أمرمنه تعالى للنبيّ صلّى الله عليه وآله أن يبيّن لهم وجه عبادته بياناً يزيل عنهم الحيرة حيث رأوا منه مالم يكونوا رأوه من أحد غيره ، ويتعجّبون حاملين له على نوع من المكيدة والمكر بأصنامهم أو خدعة بهم لأغراض اُخر دنيويّة .

ومحصّل البيان أنّي لست اُريد بما آتي به من العمل شيأ من المقاصد الّتي تحسبونها وترمونني بها وإنّما أدعو ربّي وحده غير مشرك به أحداً وعبادة الإنسان لمن عرفه رباً لنفسه ممّا لاينبغي أن يلام عليه أو يتعجّب منه .

قوله تعالى : «قل إنّي لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً» الّذي يفيده سياق الآيات الكريمة أنّه صلى الله عليه وآله وسلم يبيّن فيها بأمر من ربّه موقع نفسه بالنسبة إلى ربّه وبالنسبة إلى الناس :

أمّا موقعه بالنسبة إلى ربّه فهو أنّه يدعوه ولا يشرك به أحداً وهو قوله : «قل إنّما أدعوا ربّى ولا اُشرك به أحداً» .

وأمّا موقعه بالنسبة إليهم فهو أنّه بشر مثلهم لايملك لهم ضرّاً ولا رشداً حتّى يضرّهم بما يريد أو يرشدهم من الخير إلى مايريد بما عنده من القدرة ، وأنّه مأمور من الله بدعوتهم أمراً ليس له إلّا أن يمتثله فلا مجير يجيره منه ولا ملجأ يلتجيء إليه لوخالف وعصى كما ليس لهم إلّا أن يطيعوا الله ورسوله ومن يعص الله ورسوله فإنّ له نار جهنّم خالدين فيها أبداً ، وسيعلمون إذا رأوا مايوعدون .

ولازم هذا السياق أن يكون المراد بملك الضرّ القدرة على إيقاع الضرّ بهم فيوقعه بهم إذا أراد ، والمراد بملك الرشد القدرة على إيصال النفع إليهم بإصابة الواقع أيّ إنّي لاأدّعي أنّي أقدر أن أضرّكم أو أنفعكم ، وقيل : المراد بالضرّ الغيّ المقابل للرشد تعبيراً باسم المسبّب عن السبب .

قوله تعالى : «قل إنّي لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلّا بلاغاً من الله ورسالاته» الإجارة إعطاء الجوار وحكمه حماية المجير للجار ومنعه ممّن يقصده بسوء ، والظاهر أنّ الملتحد اسم مكان وهو المكان الّذي يعدل وينحرف إليه للتحرّز من الشرّ ، وقيل : المدخل ويتعلّق به قوله : « من دونه » وهو كالقيد التوضيحيّ والضمير لله والبلاغ التبليغ .

وقوله : «إلّا بلاغاً» استثناء من قوله : «ملتحداً» وقوله : «من الله» متعلّق بمقدّر أي كائناً من الله وليس متعلّقاً بقوله : «بلاغاً» لأنّه يتعدّى بعن لابمن ولذا قال بعض من جعله متعلّقاً ببلاغاً : إنّ «من» بمعنى عن ، و المعنى على أيّ حال إلّا تبليغ ما هو تعالى عليه من الأسماء والصفات .

و قوله : « و رسالاته » قيل : معطوف على « بلاغاً » والتقدير إلّا بلاغاً من الله و إلّا رسالاته ، وقيل : معطوف على لفظ الجلالة ومن بمعنى عن والمعنى إلّا بلاغاً عن الله وعن رسالاته .

و فيما استثني منه بلاغاً قول آخر و هو أنّه مفعول « لا أملك » و المعنى لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً إلّا تبليغاً من الله ورسالاته ، ويبعّده الفصل بين المستثنى و المستثنى منه بقوله : « لن يجيرني من الله أحد » الخ وهو كلام مستأنف .

ومعنى الآيتين على ما قدّمنا : قل لن يجيرني من الله أحد فيمنعني منه ولن أجد من دونه مكاناً ألتجيء إليه إلاّ تبليغاً كائنا منه ورسالاته أي إلاّ أن أمتثل ما أمرني به من التبليغ منه تعالى ببيان أسمائه وصفاته و إلاّ رسالاته في شرائع الدين .

قوله تعالى : « و من يعص الله ورسوله فإنّ له نار جهنّم خالدين فيها أبداً » إفراد ضمير « له » باعتبار لفظ « من » كما أنّ جمع « خالدين » باعتبار معناها .

و عطف الرسول على الله في قوله : « و من يعص الله و رسوله » لكون معصيته معصية لله تعالى إذ ليس له إلاّ رسالة ربّه فالردّ عليه فيما أتى به ردّ على الله سبحانه وطاعته فيما يأمر به طاعة لله قال تعالى: « من يطع الرسول فقد أطاع الله» النساء : ٨٠ .

والمراد بالمعصية ـ كما يشهد به سياق الآيات السابقة ـ معصية ما أمر به من التوحيد أو التوحيد وما يتفرّع عليه من اُصول الدين و فروعه فلا يشمل التهديد و الوعيد بخلود النار إلاّ الكافرين بأصل الدعوة دون مطلق أهل المعصية المتخلّفين عن فروع الدين فالاحتجاج بالآية على تخليد مطلق العصاة في النار في غير محلّه .

والظاهر أن قوله : « ومن يعص الله » إلى آخر الآية من كلام الله سبحانه لا من تتمّة كلام النبيّ صلى الله عليه وآله .

قوله تعالى : « حتّى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً » لقوله : « حتّى » دلالة على معنى مدخولها غاية له و مدخولها يدلّ على أنّهم كانوا يستضعفون النبيّ صلى الله عليه وآله بعدّ ناصريه ـ وهم المؤمنون ـ ضعفاء و استقلال عدده بعدّ عددهم قليلاً فالكلام يدلّ على معنى محذوف هو غايته كقولنا : لا يزالون يستضعفون ناصريك ويستقلّون عددهم حتّى إذا رأوا ما يوعدون الخ .

والمراد بما يوعدون نار جهنّم لأنّها هي الموعودة في الآية ، و الآية من كلامه تعالى يخاطب النبيّ صلى الله عليه وآله ولو كانت من كلامه وهي مصدّرة بقوله تعالى « قل » لكان من حقّ الكلام أن يقال : حتّى إذا رأيتم ما توعدون فستعلمون الخ .

قوله تعالى : « قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربّي أمداً » الأمد الغاية الّتي ينتهي إليها ، و الآية بمنزلة دفع دخل تقتضيه حالهم كأنّهم لمّا سمعوا

الوعيد قالوا : متى يكون ذلك فقيل له : « قل إن أدري أقريب » الخ .

قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً » إظهار الشيء على الشيء إعانته و تسليطه عليه ، و« عالم الغيب » خبر لمبتدء محذوف ، والتقدير هو عالم الغيب ، و مفاد الكلمة بإعانة من السياق اختصاص علم الغيب به تعالى مع استيعاب علمه لكلّ غيب ، و لذا أضاف الغيب إلى نفسه ثانياً فقال : « على غيبه » بوضع الظاهر موضع المضمر ليفيد الاختصاص ولو قال : « فلا يظهر عليه » لم يفد ذلك .

و المعنى هو عالم كلّ غيب علماً يختصّ به فلا يطلع على الغيب وهو مختصّ به أحداً من الناس فالمفاد سلب كلّي وإن أصرّ بعضهم على كونه سلباً جزئيا محصّل معناه لا يظهر على كلّ غيبه أحداً ويؤيدّ ما قلنا ظاهر ما سيأتي من الآيات .

قوله تعالى : « إلاّ من ارتضى من رسول » استثناء من قوله : « أحداً » و« من رسول » بيان لقوله « من ارتضى » فيفيد أنّ الله تعالى يظهر رسله على ما شاء من الغيب المختصّ به فالآية إذا انضمّت إلى الآيات الّتي تخصّ علم الغيب به تعالى كقوله : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو » الأنعام : ٥٩ ، وقوله : « و لله غيب السماوات و الأرض » النحل : ٧٧ ، وقوله : « قل لا يعلم من في السماوات و الأرض الغيب إلاّ الله » النمل : ٦٥ أفاد ذلك معنى الأصالة والتبعيّة فهو تعالى يعلم الغيب لذاته وغيره يعلمه بتعليم من الله .

فهذه الآيات نظيرة الآيات المتعرّضة للتوفّي كقوله : « الله يتوفّى الأنفس » الزمر : ٤٢ الدالّ على الحصر ، و قوله : « قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم » الم السجدة : ١١ ، وقوله : « حتّى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا » الأنعام : ٦١ فالتوفّي منسوب إليه تعالى على نحو الأصالة و إلى الملائكة على نحو التبعيّة لكونهم أسباباً متوسّطة مسخّرة له تعالى .

قوله تعالى : « فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ـ إلى قوله ـ عدداً » ضمير « فإنّه » لله تعالى ، وضميرا « يديه » و « خلفه » للرسول ، والراصد المراقب للأمر الحارس له ، والرصد الراصد يطلق على الواحد والجماعة وهو في الأصل مصدر

والمراد بما بين يدي الرسول ما بينه وبين الناس المرسل إليهم ، وبما خلفه ما بينه وبين مصدر الوحي الّذي هو الله سبحانه وقد اعتبر في هذا التصوير ما يوهمه معنى الرسالة من امتداد متوهّم يأخذ من المُرسِل ـ اسم فاعل ـ وينتهي إلى المرسل إليه يقطعه الرسول حتّى ينتهي إلى المرسل إليه فيؤدّي رسالته، والآية تصف طريق بلوغ الغيب إلى الرسول وهو الرسالات الّتي توحى إليه كما يشير إلى ذلك قوله : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم » .

والمعنى فإنّ الله يسلك ما بين الرسول ومن اُرسل إليه وما بين الرسول ومصدر الوحي مراقبين حارسين من الملائكة ـ ومن المعلوم أنّ سلوك الرصد من بين يديه ومن خلفه لحفظ الوحي من كلّ تخليط وتغيير بالزيادة والنقصان يقع فيه من ناحية الشياطين بلا واسطة أو معها .

وقوله : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم » ضمير « ليعلم » لله سبحانه ، وضميرا « قد أبلغوا » و « ربّهم » لقوله : « من » باعتبار المعنى أو لرسول باعتبار الجنس، والمراد بعلمه تعالى بإبلاغهم رسالات ربّهم العلم الفعليّ وهو تحقّق الإبلاغ في الخارج على حدّ قوله : « فليعلمنّ الله الّذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين » العنكبوت: ٣ وهو كثير الورود في كلامه تعالى .

والجملة تعليل لسلوك الرصد بين يدي الرسول ومن خلفه ، والمعنى ليتحقّق إبلاغ رسالات ربّهم أي لتبلغ الناس رسالاته تعالى على ما هي عليه من غير تغيّر وتبدّل .

ومن المحتمل أن يرجع ضميرا « بين يديه ومن خلفه » إلى « غيبه » فيكون الرصد الحرّس مسلوكين بين يدي الغيب النازل ومن خلفه إلى أن يبلغ الرسول ، ويضعّفه أنّه لا يلائم قوله : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم » بالمعنى الّذي تقدّم لعدم استلزام بلوغ الغيب للرسول سليماً من تعرّض الشياطين حصول العلم بإبلاغه إلى الناس .

وإلى هذا المعنى يرجع قول بعضهم إنّ الضميرين يرجعان إلى جبريل حامل

الوحي . ويضعّفه مضافا إلى ما مرّ عدم سبق ذكره .

وقيل : ضمير ليعلم للرسول وضميرا « قد أبلغوا » و « ربّهم » للملائكة الرصد والمعنى يرصد الملائكة الوحي ويحرسونه ليعلم الرسول أنّ الملائكة قد أبلغوا إليه الوحي كما صدر فتطمئنّ نفسه أنّه سليم من تعرّض الشياطين فإنّ لازم العلم بإبلاغهم إيّاه العلم ببلوغه .

ويبعّده أنّ ظاهر السياق ـ ويؤيّده سَبق ذكر الرسول ـ أنّ المراد بالرسالات الرسالات الّتي حمّلها الرسول ليبلغها إلى الناس لا ما حمّلها ملك الوحي فضمير « ربّهم » للرسل دون الملائكة . على أنّ الآية تشير إلى الملائكة بعنوان الرصد وهو غير عنوان الرسالة وشأن الرصد الحفظ والحراسة دون الرسالة .

وقيل : المعنى ليعلم محمد صلى الله عليه وآله أنّ الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربّهم ، وهو وجه سخيف لا دليل عليه ، وأسخف منه ما قيل : إنّ المعنى ليعلم مكذّب الرسل أنّ الرسل قد أبلغوا رسالات ربّهم إليهم .

وقوله : « وأحاط بما لديهم » ضمير الجمع للرسل بناء على ما تقدّم من المعنى والظاهر أنّ الجملة متمّمة لمعنى الحراسة المذكورة سابقاً فقوله : « من بين يديه » يشير إلى رصد ما بين الرسول والمرسل إليهم ، وقوله : « ومن خلفه » إلى حفظ ما بينه ومصدر الوحي ، وقوله : « وأحاط بما لديهم » يشير إلى ظرف نفس الرسول والإحاطة إحاطة علميّة فالوحي في أمن من تطرّق التغيير والتبديل فيما بين مصدر الوحي والرسول وفي نفس الرسول وفيما بين الرسول والمرسل إليهم .

ويمكن أن يكون المراد بما لديهم جميع ماله تعلّق مّا بالرسل أعمّ من مسير الوحي أو أنفسهم كما أنّ قوله : « وأحصى كلّ شيء عدداً » مسوق لإفادة عموم العلم بالأشياء غير أنّه العلم بعددها وتميّز بعضها من بعض .

فقد تبيّن ممّا مرّ في الآيات الثلاث :

أولا أنّ اختصاصه تعالى بعلم الغيب على نحو الأصالة بالمعنى الّذي أوضحناه فهو تعالى يعلم الغيب بذاته وغيره يعلمه بتعليم منه .

و به يظهر أنّ ما حكى في كلامه تعالى من إنكارهم العلم بالغيب اُريدبه نفي الأصالة والاستقلال دون ما كان بوحي كقوله تعالى : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب » الأنعام : ٥٠ ، وقوله : « ولوكنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » الأعراف : ١٨٨ وقوله : « قل ماكنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولابكم إن أتّبع إلّاما يوحى إليّ » الأحقاف : ٩ .

وثانياً أنّ عموم قوله : « فلايظهر على غيبه أحداً » لمّاخصّص بقوله : « إلّامن ارتضى من رسول » عاد عامّاً مخصّصاً لا يأبى تخصيصاً بمخصّص آخر كما في مورد الأنبياء فإنّ الآيات القرآنيّة تدلّ على أنّهم يوحى إليهم كقوله : « إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيّين من بعده» النساء : ١٦٣وتدلّ على أنّ الوحي من الغيب فالنبيّ ينال الغيب كما يناله الرسول هذا على تقدير أن يكون المراد بالرسول في الآية مايقابل النبيّ وأمّا لو اُريد مطلق من أرسله الله إلى الناس والنبيّ ممّن أرسله الله إليهم كما يشهد به قوله : « وماأرسلنا من قبلك من رسول ولانبيّ » الآية الحجّ : ٥٢ ، وقوله : «وما أرسلنا في قرية من نبيّ »الأعراف : ٩٤ فالنبيّ خارج من عموم النفي من غير تخصيص جديد .

وكذا في مورد الإمام بالمعنى الّذي يستعمله فيه القرآن فإنّه تعالى يصفه بالصبر واليقين كما في قوله : « وجعلنامنهم أئمّة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » الم السجدة : ٢٤ و يعرّفهم بانكشاف الغطاء لهم كما في قوله : « و كذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين »الأنعام : ٧٥ ، وقوله : « كلّا لو تعلمون علم اليقين لترونّ الجحيم » التكاثر : ٦ وقد تقدّم كلام في ذلك في بعض المباحث السابقة .

وأمّا الملائكة فما يحمّلونه من الوحي السماويّ قبل نزوله وكذاما يشاهدونه من عالم الملكوت شهادة بالنسبة إليهم و إن كان غيباً بالنسبة إلينا . على أنّ قوله : « فلا يظهر على غيبه أحداً » إنّما يشمل أهل الدنيا ممّن يعيش على بسيط الأرض و إلّا لانتقض بالأموات المشاهدين لاُمور الآخرة و هي من الغيب بنصّ القرآن فلم

يبق تحت عموم النفي حتّى فرد واحد إذ ما من أحد إلّاوهومبعوث ذلك يوم مجموع له الناس و ذلك يوم مشهود ، وكما أنّ الأموات نشأتهم غير نشأة الدنيا كذلك نشأة الملائكة غير نشأة المادّة .

و ثالثاً أنّ قوله : «فإنّه يسلك من بين يديه و من خلفه » إلى آخر الآيتين يدلّ على أنّ الوحي الإلهيّ محفوظ من لدن صدوره من مصدر الوحي إلى بلوغه الناس مصون في طريق نزوله إلى أن يصل إلى من قصد نزوله عليه .

أمّا مصونيّته من حين صدوره من مصدره إلى أن ينتهي إلى الرسول فيكفي في الدلالة عليه قوله « من خلفه » [1] وأمّا مصونيّته حين أخذ الرسول إيّاه وتلقّيه من ملك الوحي بحيث يعرفه ولا يغلط في أخذه، ومصونيّته في حفظه بحيث يعيه كما اُوحي إليه من غير أن ينساه أو يغيّره أو يبدّله، ومصونيّته في تبليغه إلى الناس من تصرف الشيطان فيه فالدليل عليه قوله : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم» حيث يدلّ على أنّ الغرض الالهيّ من سلوك الرصد أن يعلم إبلاغهم رسالات ربّهم أي أن يتحقّق في الخارج إبلاغ الوحي إلى الناس ، و لازمه بلوغه إيّاهم و لولا مصونيّة الرسول في الجهات الثلاث المذكورة جميعاً لم يتمّ الغرض الإلهي وهو ظاهر، وحيث لم يذكر تعالى للحصول على هذا الغرض طريقاً غير سلوك الرصد دلّ ذلك على أنّ الوحي محروس بالملائكة وهو عند الرسول كما أنّه محروس بهم في طريقه إلى الرسول حتّى ينتهي إليه ، ويؤكّده قوله بعد : « وأحاط بما لديهم » .

و أمّا مصونيّته في مسيره من الرسول حتّى ينتهي إلى الناس فيكفي فيه قوله: « من بين يديه » على ما تقدّم من معناه .

أضف إلى ذلك دلالة قوله : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم » بما تقدّم من تقريب دلالته .

---

(١) هذا بناء على رجوع الضمير الى الرسول واما بناء على احتمال رجوع الضمير الى الغيب فالدال عليه مجموع « من بين يديه ومن خلفه » لكنه ضعيف كما تقدم .

و يتفرّع على هذا البيان أنّ الرسول مؤيّد بالعصمة في أخذ الوحي من ربّه و في حفظه وفي تبليغه إلى الناس مصون من الخطا في الجهات الثلاث جميعاً لما مرّ من دلالة الآية على أنّ مانزّله الله من دينه على الناس من طريق الرسالة بالوحي مصون في جميع مراحله إلى أن ينتهي إلى الناس ومن مراحله مرحلة أخذ الرسول للوحي وحفظه له وتبليغه إلى الناس .

والتبليغ يعمّ القول والفعل فإنّ في الفعل تبليغاً كما في القول فالرسول معصوم من المعصية باقتراف المحرّمات وترك الواجبات الدينيّة لأنّ في ذلك تبليغاً لما يناقض الدين فهو معصوم من فعل المعصية كما أنّه معصوم من الخطإ في أخذ الوحي و حفظه وتبليغه قولاً .

وقد تقدّمت الإشارة إلى أنّ النبوّة كالرسالة في دورانها مدار الوحي فالنبيّ كالرسول في خاصّة العصمة ، ويتحصّل بذلك أنّ أصحاب الوحي سواء كانوا رسلاً أو أنبياء معصومون في أخذ الوحي وفي حفظ ماأُوحي إليهم وفي تبليغه إلى الناس قولاً و فعلاً .

ورابعاً أنّ الّذي استثني في الآية من الإظهار على الغيب إظهار الرسول على مايتوقّف عليه تحقّق إبلاغ رسالته أعمّ من أن يكون متن الرسالة كالمعارف الاعتقادية وشرائع الدين و القصص والعبر و الحكم و المواعظ أو يكون من آيات الرسالة و المعجزات الدالّة على صدق الرسول في دعواه كالّذي حكي عن بعض الرسل من الإخبار بالمغيّبات كقول صالح لقومه : «تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام ذلك وعد غير مكذوب» هود : ٦٥ ، وقول عيسى لبني إسرائيل : «وأُنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم إنّ في ذلك لآية لكم» آل‌عمران : ٤٩ ، وكذا ماورد من مواعد الرسل ، وماورد في الكتاب العزيز من الملاحم كلّ ذلك من إظهارهم على الغيب .

﴿ بحث روائي ﴾

عن تفسير العيّاشيّ عن أبي جعفر عليه السلام أنّه سأله المعتصم عن السارق من أيّ موضع يجب أن يقطع ؟ فقال : إنّ القطع يجب أن يكون من مفصل اُصول الأصابع فتترك الكفّ .

فقال : وما الحجّة في ذلك ؟ قال : قول رسول الله صلى الله عليه وآله : السجود على سبعة أجزاء : الوجه و اليدين والركبتين والرجلين فإذا قطع من الكرسوع أو المرفق لم يدع له يداً يسجد عليها وقال الله : « وأنّ المساجد لله » يعني به هذه الأعضاء السبعة الّتي يسجد عليها «فلا تدعوا مع الله أحداً» وما كان لله فلا يقطع . الحديث .

وفي الكافي بإسناده عن حمّاد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث : وسجد يعني أباعبدالله عليه السلام على ثمانية أعظم : الكفّين والركبتين وإبهامي الرجلين والجبهة والأنف ، وقال : سبعة منها فرض يسجد عليها وهي الّتي ذكرها الله في كتابه فقال : «وأنّ المساجد لله فلاتدعوا مع الله أحداً » وهي الجبهة والكفّان والركبتان والإبهامان ووضع الأنف على الأرض سنّة .

وعن الخرائج والجرائح روى محمّد بن الفضل الهاشميّ عن الرضا عليه السلام أنّه نظر إلى ابن هذاب فقال : إن أنا أخبرتك أنّك ستبتلي في هذه الأيّام بدم ذي رحم لك لكنت مصدّقاً لي ؟ قال : لا فإنّ الغيب لا يعلمه إلاّ الله تعالى . قال : أو ليس إنّه يقول : «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول» فرسول الله صلّى الله عليه وآله عندالله مرتضى ، ونحن ورثة ذلك الرسول الّذي أطلعه الله على ما يشاء من غيبه فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة .

أقول : والأخبار في هذا الباب فوق حدّ الإحصاء ، ومدلولها أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أخذه بوحي من ربّه وأنّهم أخذوه بالوراثة منه صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿سورة المزمّل مكيّة وهي عشرون آية﴾

بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المزمل (١) قم الليل الا قليلا (٢) نصفه أو انقص منه قليلا (٣) او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا (٤) انا سنلقي عليك قولا ثقيلا (٥) ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا (٦) ان لك في النهار سبحا طويلا (٧) و اذكر اسم ربك و تبتل اليه تبتيلا (٨) رب المشرق و المغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا (٩) واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا (١٠) و ذرني والمكذبين اولي النعمة و مهلهم قليلا (١١) ان لدينا أنكالا و جحيما (١٢) وطعاما ذا غصة وعذابا أليما (١٣) يوم ترجف الارض و الجبال و كانت الجبال كثيبا مهيلا (١٤) انا ارسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما ارسلنا الى فرعون رسولا (١٥) فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا (١٦) فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا (١٧) السماء منفطر به كان وعده مفعولا (١٨) ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا (١٩)

﴿ بيان ﴾

السورة تأمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بقيام الليل والصلاة فيه ليستعدّ بذلك لتلقّي ثقل ما سيلقى عليه من القول الثقيل و القرآن الموحى إليه ، و تأمره أن يصبر على ما يقولون فيه إنّه شاعر أو كاهن أو مجنون إلى غيرذلك ويهجرهم هجراً جميلا ، وفيها وعيد وإنذار للكفّار وتعميم الحكم لسائر المؤمنين ، وفي آخرها تخفيف مّا للنبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنين .

والسورة مكّيّة من عتائق السور النازلة في أوّل البعثة حتّى قيل : إنّها ثانية السور النازلة على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو ثالثتها .

قوله تعالى : «يا أيّها المزّمّل» بتشديد الزاي والميم وأصله المتزمّل اسم فاعل من التزمّل بمعنى التلفّف بالثوب لنوم ونحوه ، وظاهره أنّه صلى الله عليه وآله كان قد تزمّل بثوب للنوم فنزل عليه الوحي وخوطب بالمزّمّل .

وليس في الخطاب به تهجين ولا تحسين كما توهّمه بعضهم نعم يمكن أن يستفاد من سياق الآيات أنّه صلى الله عليه وآله كان قدقوبل في دعوته بالهزء والسخريّة والإيذاء فاغتمّ في الله فتزمّل بثوب لينام دفعاً للهمّ فخوطب بالمزّمّل واُمر بقيام الليل والصلوة فيه والصبر على ما يقولون على حدّ قوله تعالى : « استعينوا بالصبر والصلاة» البقرة : ١٥٣ فاُفيد بذلك أنّ عليه أن يقاوم الكرب العظام والنوائب المرّة بالصلاة والصبر لا بالتزمّل و النوم .

وقيل : المراد يا أيّها المتزمّل بعباءة النبوّة أي المتحمّل لأثقالها ، ولا شاهد عليه من جهة اللفظ .

قوله تعالى : «قم الليل إلاّ قليلاً نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلا» المرادبقيام اللّيل القيام فيه إلى الصلاة فالليل مفعول به توسعاً كما في قولهم : دخلت الدار ، وقيل : معمول «قم» مقدّر و «الليل» منصوب على الظرفيّة و التقدير قم إلى الصلاة في الليل ، وقوله : «إلاّ قليلا» استثناء من الليل .

وقوله : « نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه » ظاهر السياق أنّه بدل من «الليل إلاّ قليلا» المتعلّق به تكليف القيام ، وضميرا « منه » و «عليه» للنصف ، وضمير « نصفه» للّيل ، والمعنى قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً أو زدعلى النصف قليلاً ، والترديد بين الثلاثة للتخيير فقد خيّر بين قيام النصف وقيام أقلّ من النصف بقليل وقيام أكثر منه بقليل .

وقيل : «نصفه» بدل من المستثنى أعني « قليلاً » فيكون المعنى قم الليل إلّا نصفه أو انقص من النصف قليلا فقم أكثر من النصف بقليل أو زدعلى النصف فقم أقلّ من النصف ، وتكون جملة البدل رافعا لإبهام المستثنى بالمطابقة ولا بهام المستثنى منه بالالتزام عكس الوجه السابق .

والوجهان وإن اتّحدا في النتيجة غير أنّ الوجه السابق أسبق إلى الذهن لأنّ الحاجة إلى رفع الإبهام عن متعلّق الحكم أقدم من الحاجة إلى رفع الإبهام عن توابعه وملحقاته فكون قوله : «نصفه» الخ بدلاً من الليل ولازمه رفع إبهام متعلّق التكليف بالمطابقة أسبق إلى الذهن من كونه بدلا من «قليلاً» .

وقيل : إنّ نصفه بدل من الليل لكنّ المراد بالقليل القليل من الليالي دون القليل من أجزاء الليل ، والمعنى قم نصف الليل أو انقص منه قليلا أو زد عليه إلاّ قليلاً من الليالي وهي ليالي العذر من مرض أو غلبة نوم أو نحو ذلك ، ولا بأس بهذا الوجه لكنّ الوجه الأوّل أسبق منه إلى الذهن .

و قوله : « و رتّل القرآن ترتيلا » ترتيل القرآن تلاوته بتبيين حروفه على تواليها ، و الجملة معطوفة على قوله : « قم الليل » أي قم الليل و اقرء القرآن بترتيل .

والظاهر أنّ المراد بترتيل القران ترتيله في الصلاة أو المراد به الصلاة نفسها وقد عبّر سبحانه عن الصلاة بنظير هذا التعبير في قوله : «أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل و قرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً» أسرى : ٧٨ ، وقيل : المراد إيجاب قراءة القرآن دون الصلاة .

قوله تعالى : «إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » الثقل كيفيّة جسمانيّة من خاصّته أنّه يشقّ حمل الجسم الثقيل، ونقله من مكان إلى مكان وربّما يستعار للمعاني إذا شقّ على النفس تحمّلها أولم تطقها فربّما اُضيف إلى القول من جهة معناه فعدّ ثقيلاً لتضمّنه معنى يشقّ على النفس إدراكه أولا تطيق فهمه أو تتحرّج من تلقّيه كدقائق الأنظار العلميّة إذا اُلقيت على الافهام العامّة ، أو لتضمّنه حقائق يصعب التحقّق بها أوتكاليف يشقّ الإتيان بها والمداومة عليها .

والقرآن قول إلهيّ ثقيل بكلا المعنيين : أمّا من حيث تلقّي معناه فإنّه كلام إلهي مأخوذ من ساحة العظمة و الكبرياء لاتتلقّاه إلّا نفس طاهرة من كلّ دنس منقطع عن كلّ سبب إلاّ الله سبحانه ، و كتاب عزيزله ظهرو بطن و تنزيل و تأويل تبياناً لكلّ شيء ، وقدكان ثقله مشهوداً من حال النبيّ صلى الله عليه وآله بما كان يأخذه من البرحاء وشبه الإغماء على ما وردت به الأخبار المستفيضة .

وأمّا من حيث التحقّق بحقيقة التوحيد وما يتبعها من الحقائق الاعتقاديّة فكفى في الإشارة إلى ثقله قوله تعالى : «لوأنزلناهذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون» الحشر : ٢١ ، وقوله تعالى : «ولو أنّ قرآناً سيّرت به الجبال أوقطّعت به الأرض أوكلّم به الموتى» الرعد : ٣١ .

و أمّا من حيث القيام بما يشتمل عليه من أمر الدعوة و إقامة مراسم الدين الحنيف ، وإظهاره على الدين كلّه فيشهدبه ما لقي صلى الله عليه وآله وسلم من المصائب والمحن في سبيل الله والأذى في جنب الله على ما يشهد به الآيات القرآنيّة الحاكية لما لقيه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من المشركين والكفّار والمنافقين والّذين في قلوبهم مرض من أنواع الإيذاء والهزء والجفاء .

فقوله : «إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » المراد بالقول الثقيل القرآن العظيم على ما يسبق إلى الذهن من سياق هذه الآيات النازلة في أوّل البعثة ، و به فسّره المفسّرون .

والآية في مقام التعليل للحكم المدلول عليه بقوله : « قم اللّيل » الخ فتفيد بمقتضى السياق ـ والخطاب خاصّ بالنبيّ ﷺ ـ أنّ أمره بقيام الليل والتوجّه فيه إليه تعالى بصلاة اللّيل تهيئة له وإعداد لكرامة القرب وشرف الحضور وإلقاء قول ثقيل فقيام الليل هي السبيل المؤدّية إلى هذا الموقف الكريم وقد عدّ سبحانه صلاة الليل سبيلا إليه في قوله الآتي : «إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلا» .

وقد زاد سبحانه وعداً على ما في هذه الآية في قوله : «ومن اللّيل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً» أسرى : ٧٩ وقد تقدّم معنى المقام المحمود في تفسير الآية .

وإذ كان من ثقل القرآن ثقله من حيث التحقّق بحقائقه ومن حيث استجابته فيما يندب إليه من الشرائع والأحكام فهو ثقيل على الاُمّة كما هو ثقيل عليه ﷺ ومعنى الآية إنّا سنوحي إليك قولاً يثقل عليك وعلى اُمّتك أمّا ثقله عليه ﷺ فلما في التحقّق بحقائقه من الصعوبة ولما فيه من محنة الرسالة وما يتبعها من الأذى في جنب الله وترك الراحة والدعة ومجاهدة النفس والانقطاع إلى الله مضافاً إلى ما في تلقّيه من مصدر الوحي من الجهد ، وأمّا ثقله على اُمّته فلأنّهم يشاركونه ﷺ في لزوم التحقّق بحقائقه واتّباع أوامره و نواهيه ورعاية حدوده كلّ طائفة منهم على قدر طاقته .

وللقوم في معنى ثقل القرآن أقوال اُخر :

منها أنّه ثقيل بمعنى أنّه عظيم الشأن متين رصين كما يقال : هذا كلام له وزن إذا كان واقعاً موقعه .

ومنها أنّه ثقيل في الميزان يوم القيامة حقيقة أو مجازاً بمعنى كثرة الثواب عليه.

ومنها أنّه ثقيل على الكفّار والمنافقين بما له من الإعجاز و بما فيه من الوعيد .

ومنها أنّ ثقله كناية عن بقائه على وجه الدهر لأنّ الثقيل من شأنه أن يبقى ويثبت في مكانه .

ومنها غير ذلك والوجوه المذكورة وإن كانت لا بأس بها في نفسها لكن ما تقدّم

من الوجه هو الظاهر السابق إلى الذهن .

قوله تعالى : « إنّ ناشئة الليل هي أشدّ وطأ و أقوم قيلا إنّ لك في النهار سبحاً طويلاً » الآية الاُولى في مقام التعليل لاختيار الليل وقتاً لهذه الصلاة ،والآية الثانية في مقام التعليل لترك النهار والاعراض عنه كما أنّ الآية السابقة أعني قوله: « إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » في مقام التعليل لتشريع أصل هذه الصلاة .

فقوله : « إنّ ناشئة الليل هي أشدّ وطأوأقوم قيلا » الناشئة إمّا مصدر كالعاقبة والعافية بمعنى النشأة وهي الحدوث والتكوّن ، وإمّا اسم فاعل من النشأة مضاف إلى موصوفه وكيف كان فالمراد بها الليل وإطلاق الحادثة على الليل كاطلاقها على سائر أجزاء الخلقة وربما قيل : إنها الصلاة في الليل و وطؤالأرض وضع القدم عليها ، وكونها أشدّ وطأ كناية عن كونها أثبت قدماً لصفاء النفس وعدم تكدّرها بالشواغل النهارية وقيل : الوطء مواطاة القلب اللسان واُيّد بقراءة « أشدّ و طاء » والمراد بكونها أقوم قيلاً كونها أثبت قولاً وأصوب لحضور القلب وهدوّ الأصوات .

والمعنى إنّ حادثة الليل أوالصلاة في الليل هي أثبت قدماً ـ أوأشدّ في مواطاة القلب اللسان وأثبت قولاً وأصوب لما أنّ الله جعل الليل سكنا يستتبع انقطاع الانسان عن شواغل المعيشة إلى نفسه وفراغ باله .

وقوله : « إنّ لك في النهار سبحاً طويلا» السبح المشي السريع في الماء والسبح الطويل في النهار كناية عن الغور في مهمّات المعاش وأنواع التقلّب في قضاء حوائج الحياة .

والمعنى إنّ لك في النهار مشاغل كثيرة تشتغل بها مستوعبة لاتدع لك فراغاً تشتغل فيه بالتوجّه التامّ إلى ربّك والانقطاع إليه بذكره فعليك بالليل و الصلاة فيه.

وقيل : المعنى إنّ لك في النهار فراغاً لنومك وتدبير أمر معاشك والتصرّف في حوائجك فتهجّد في الليل .

وقيل : المعنى إنّ لك في النهار فراغاً فان فاتك من الليل شيء أمكنك أن تتداركه في النهار وتقضيه فيه فالآية في معنى قوله : « وهوالّذي جعل الليل والنهار

خلفة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً » الفرقان : ٦٢ .

والّذي قدّمناه من المعنى أنسب للمقام .

قوله تعالى : « واذكر اسم ربّك و تبتّل إليه تبتيلا » الظاهر أنّه يصف صلاة الليل فهو كالعطف التفسيريّ على قوله : «ورتّل القرآن ترتيلاً» وعلى هذا فالمراد بذكر اسم الربّ تعالى الذكر اللفظي بمواطاة من القلب،وكذا المراد بالتبتّل التبتّل مع اللّفظ.

وقيل : الآية تعميم بعد التخصيص والمراد بالذكر دوام ذكره تعالى ليلاً و نهاراً على أيّ وجه كان من تسبيح وتحميد وصلاة وقراءة قرآن و غير ذلك ، وإنّما فسّر الذكر بالدوام لأنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لم ينسه تعالى حتّى يؤمر بذكره ، والمراد الدوام العرفيّ دون الحقيقيّ لعدم إمكانه . انتهى .

وفيه أنّه إن أراد بالذكر الذكر اللفظيّ فعدم نسيانه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ربّه تعالى لا ينافي أمره بالذكر اللفظى ، و إن أراد مايعمّ الذكر القلبيّ فهو ممنوع ولو سلّم ففيه أوّلا أنّ عدم نسيانه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ربّه إلى حين الخطاب لا ينافي أمره بذكره بعده و ثانيا أنّ عدّه الدوام الحقيقيّ غير ممكن و حمل الدوام على العرفيّ وهم ناش عن عدم تحصيل المعنى على ما هو عليه فالله جلّ ذكره مذكور للانسان لا يغيب عنه ولا لحظة سواء تنبّه عليه الإنسان أو غفل عنه ، و من الممكن أن يعرّفه الله نفسه بحيث لا يغفل عنه و لا في حال قال تعالى : « فالّذين عند ربّك يسبّحون له باللّيل والنهار و هم لا يسأمون » حمّ السجدة : ٣٨ و قال : «يسبّحون الليل والنهار لا يفترون » الأنبياء : ٢٠ .وقد تقدّم في تفسير الآيتين وآخر سورة الأعراف أنّ ذلك لا يختصّ بالملائكة .

و بالجملة قوله : « واذكر اسم ربّك » أمر بذكر اسم من أسمائه أو لفظ الجلالة خاصّة ، و قيل : المراد به البسملة .

و في قوله : « ربّك » التفات عن التكلّم مع الغير في قوله : « إنّا سنلقي » إلى الغيبة و لعلّ الوجه فيه إيقاظ ذلّة العبوديّة الّتي هي الرابطة بين العبد و ربّه ،

بذكر صفة الربوبيّة .

وقوله : « و تبتّل إليه تبتيلاً » فسّر التبتّل بالانقطاع أي وانقطع إلى الله ، و من المرويّ عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ التبتّل رفع اليد إلى الله والتضرّع إليه ، و هذا المعنى أنسب بناء على حمل الذكر على الذكر اللفظيّ كما تقدّم .

و « تبتيلا » مفعول مطلق ظاهرا و كان مقتضى الظاهر أن يقال : و تبتّل إليه تبتّلاً فالعدول إلى التبتيل قيل : لتضمين تبتّل معنى بتّل والمعنى وقطّع نفسك من غيره إليه تقطيعاً أو احمل نفسك على رفع اليد إليه والتضرّع حملا ، و قيل : لمراعاة الفواصل .

قوله تعالى : « ربّ المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو فاتّخذه وكيلا » وصف مقطوع عن الوصفيّة والتقدير هو ربّ المشرق والمغرب ، و ربّ المشرق و المغرب في معنى ربّ العالم كلّه فانّ المشرق والمغرب جهتان نسبيّتان تشملان جهات العالم المشهود كلّها ، و إنّما اختصّا بالذكر لمناسبة ما تقدّم من ذكر الليل والنهار المرتبطين بالشروق والغروب .

و إنّما لم يقتصر في الإشارة إلى ربوبيّته تعالى بقوله السابق : « ربّك » للإيذان بأنّه صلّى الله عليه وآله مأمور باتّخاذه ربّاً لأنّه ربّه و ربّ العالم كلّه لا لأنّه ربّه وحده كما ربّما كان الرجل من الوثنيّين يتّخذ صنماً لنفسه فحسب غير ما اتّخذه غيره من الأصنام ولو كان اتّخاذه صلّى الله عليه وآله له تعالى ربّاً من هذا القبيل أو احتمل ذلك لم تصحّ دعوته إلى التوحيد .

وليكون قوله : ربّك ربّ المشرق والمغرب ـ وهو في معني ربّ العالم كلّه ـ توطئة وتمهيداً لقوله بعده : « لا إله إلاّ هو » يعلّل به توحيد الاُلوهيّة فإنّ الاُلوهية و هي المعبوديّة من فروع الربوبيّة الّتي هي الملك والتدبير كما تقدّم مراراً فهو تعالى الإله وحده لا إله إلاّ هو لأنّه الربّ وحده لا ربّ إلاّ هو .

و قوله : « فاتّخذه وكيلاً » أي في جميع اُمورك ، و توكيل الوكيل هو إقامة الإنسان غيره مقام نفسه بحيث تقوم إرادته مقام إرادته وعمله مقام عمله فاتّخاذه تعالى

وكيلا أن يرى الانسان الأمر كلّه له و إليه تعالى أمّا في الاُمور الخارجيّة والحوادث الكونيّة فأن لا يرى لنفسه ولا لشيء من الأسباب الظاهريّة استقلالاً في التأثير فلا مؤثّر في الوجود بحقيقة معنى التأثير إلاّ الله فلا يتعلّق بتأثير سبب من الأسباب برضىً أو سخط أو سرور أو أسف و غير ذلك بل يتوسّل إلى مقاصده و مآربه بما عرّفه الله من الأسباب من غير أن يطمئنّ إلى استقلالها في التأثير و يرجع الظفر بالمطلوب إلى الله ليختار له ما يرتضيه.

و أمّا الاُمور الّتي لها تعلّق بالعمل من العبادات والمعاملات فأن يجعل إرادته تابعة لإرادة ربّه التشريعيّة فيعمل على حسب ما يريده الله تعالى منه فيما شرّع من الشريعة.

و من هنا يظهر أنّ لقوله: « فاتّخذه وكيلا » ارتباطاً بقوله: « واذكر اسم ربّك » الخ و ما تقدّم عليه من الأوامر التشريعيّة كما أنّ له ارتباطاً بما تأخّر عنه من قوله: « واصبر » و قوله: و « اهجر » و قوله: « و ذرني ».

قوله تعالى: « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً » معطوف هو و ما بعده على مدخول الفاء في قوله: « فاتّخذه وكيلاً » فالمعنى اتّخذه وكيلاً ولازم اتّخاذه وكيلاً أن تصبر على ما يقولون ممّا فيه إيذاؤك والاستهزاء بك و رميك بما ليس فيك كقولهم: افترى على الله، كاهن شاعر، مجنون، أساطير الأوّلين و غير ذلك ممّا يقصّه القرآن.

و أن تهجرهم هجراً جميلاً والمراد بالهجر الجميل على ما يعطيه السياق أن يعاملهم بحسن الخلق والدعوة إلى الحقّ بالمناصحة، ولا يواجه قولهم بما في وسعه من المقابلة بالمثل، والآية لا تدافع آية القتال فلا وجه لقول من قال: إنّها منسوخة بآية القتال.

قوله تعالى: « وذرني والمكذّبين اُولي النعمة و مهّلهم قليلاً » تهديد للكفّار يقال: دعني وفلاناً و ذرني و فلاناً أي لا تحل بيني و بينه حتّى أنتقم منه.

والمراد بالمكذّبين اُولي النعمة الكفّار المذكورون في الآية السابقة أو رؤساؤهم

المتبوعون ، والجمع بين توصيفهم بالمكذّبين و توصيفهم بأولي النعمة للإشارة إلى علّة ما يهدّدهم به من العذاب فإنّ تكذيبهم بالدعوة الإلهيّة و هم متنعّمون بنعمة ربّهم كفران منهم بالنعمة و جزاء الكفران سلب النعمة و تبديلها من النقمة .

والمراد بالقليل الّذي يمهّلونه الزمان القليل الّذي يمكثون في الأرض حتّى يرجعوا إلى ربّهم فيحاسبهم و يجازيهم قال تعالى : «إنّهم يرونه بعيداً ونراه قريباً» المعارج : ٧ و قال : « متاع قليل ثمّ مأواهم جهنّم و بئس المهاد » آل عمران : ١٩٧ .

والآية بظاهرها عامّة ، و قيل : وعيد لهم بوقعة بدر و ليس بظاهر ، وفي الآية التفات عن الغيبة في « ربّك » إلى التكلّم وحده في « ذرني » و لعلّ الوجه فيه تشديد التهديد بنسبة الأمر إليه سبحانه نفسه ثمّ التفت في قوله : « إنّ لدينا » إلى التكلّم مع الغير للدلالة على العظمة .

قوله تعالى : « إنّ لدينا أنكالاً و جحيماً » تعليل لقوله : « ذرني » الخ والأنكال القيود قال الراغب : يقال : نكل عن الشيء ضعف و عجز ، و نكلته قيّدته والنكل ـ بالكسر فالسكون ـ قيد الدابّة وحديدة اللجام لكونهما مانعين ، والجمع الأنكال انتهى ، و قال : الجحمة شدّة تأجّج النار و منه الجحيم . انتهى .

قوله تعالى : « و طعاماً ذا غصّة و عذاباً أليماً » قال في المجمع : الغصّة تردّد اللقمة في الحلق و لا يسيغها آكلها يقال : غصّ بريقه يغصّ غصصاً ، و في قلبه غصّة من كذا و هي كاللدغة الّتي لا يسوغ معها الطعام والشراب ، انتهى .

و الآيتان تذكران نقم الآخرة الّتي بدّلت منها نعم الدنيا جزاء لكفرانهم بنعم الله .

قوله تعالى : « يوم ترجف الأرض والجبال و كانت الجبال كثيباً مهيلاً » ظرف للعذاب الموعود في الآيتين السابقتين قال الراغب : الرجف الاضطراب الشديد يقال : رجفت الأرض والبحر انتهى ، و في المجمع : الكثيب الرمل المجتمع الكثير ، و هلت أهيله هيلاً فهو مهيل إذا حرّك أسفله فسال أعلاه انتهى ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « إنّا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً » إنذار للمكذّبين اُولي النعمة من قومه صلى الله عليه وآله بعد ما أوعد مطلق المكذّبين اُولي النعمة بما أعدّ لهم من العذاب يوم القيامة بقياس حالهم إلى حال فرعون المستكبر على الله و رسوله المستذلّ لرسول الله و من آمن معه من قومه ثمّ قرع أسماعهم بما انتهى إليه أمر فرعون من أخذ الله له أخذاً وبيلاً فليتّعظوا وليأخذوا حذرهم .

وفي الآية التفات عن الغيبة إلى الخطاب كأنّ المتكلّم لمّا أوعدهم بالعذاب على الغيبه هاج به الوجد على اُولئك المكذّبين بما يلقون أنفسهم بأيديهم إلى الهلاك الأبديّ لسفاهة رأيهم فشافههم بالإنذار ليرتفع عن أنفسهم أيّ شكّ وترديد وتتمّ عليهم الحجّة ولعلّهم يتّقون ، ولذا عقّب قياسهم إلى فرعون وقياس النبيّ صلى الله عليه وآله إلى موسى عليه السلام والإشارة إلى عاقبة أمر فرعون بقوله : « فكيف تتّقون إن كفرتم يوماً » الخ .

فقوله : « إنّا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم » إشارة إلى تصديق رسالة النبيّ صلّى الله عليه وآله من قبله تعالى وشهادته على أعمالهم بتحمّلها في الدنيا وتأديتها يوم القيامة ، وقد تقدّم البحث عن معنى شهادة الأعمال في الآيات المشتملة عليها مراراً ، وفي الإشارة إلى شهادته صلى الله عليه وآله نوع زجر لهم عن عصيانه ومخالفته وتكذيبه .

وقوله : « كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً » هو موسى بن عمران عليه السلام .

قوله تعالى : « فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً » أي شديداً ثقيلاً . إشارة إلى عاقبة أمر فرعون في عصيانه موسى عليه السلام ، وفي التعبير عن موسى بالرسول إشارة إلى أنّ السبب الموجب لأخذ فرعون مخالفته أمر رسالته لا نفس موسى بما أنّه موسى ، وإذا كان السبب هو مخالفة الرسالة فليحذروا مخالفة رسالة محمّد صلى الله عليه وآله .

كما أنّ وضع الظاهر موضع الضمير في قوله : « فعصى فرعون » للإيماء إلى أنّ ماكان له من العزّة والعلوّ في الأرض والتبجّج بكثرة العدّة وسعة المملكة و نفوذ المشيّة لم يغن عنه شيئاً ولم يدفع عنه عذاب الله فما الظنّ بهؤلاء المكذّبين ؟ وهم كما قال الله : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » ص:١١ .

قوله تعالى : «فكيف تتّقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً» نسبة الاتّقاء إلى اليوم من المجاز العقليّ والمراد اتّقاء العذاب الموعود فيه ، و عليه فيوماً مفعول به لتتّقون، وقيل : مفعول «تتّقون» محذوف و«يوماً» ظرف له والتقدير فكيف تتّقون العذاب الكائن في يوم ، و قيل : المفعول محذوف و « يوماً » ظرف للاتّقاء وقيل غير ذلك .

وقوله : «يجعل الولدان شيباً» الشيب جمع أشيب مقابل الشابّ ، وجعل الولدان شيباً كناية عن شدّة اليوم لاعن طوله .

قوله تعالى :«السماء منفطر به كان وعده مفعولاً» إشارة بعد إشارة إلى شدّة اليوم ، والانفطار الانشقاق وتذكير الصفة لكون السماء جائز الوجهين يذكّر ويؤنّث ، و ضمير «به» لليوم ، والباء بمعنى في أو للسببيّة والمعنى السماء منشقّة في ذلك اليوم أو بسبب ذلك اليوم أي بسبب شدّته .

وقوله : « كان وعده مفعولاً » استئناف لتسجيل ماتقدّم من الوعيد وأنّه حتم مقضيّ ونسبة الوعد إلى ضميره تعالى لعلّه للإشعار بأن لا يصلح لهذا الوعد إلّا الله تعالى فيكفي فيه الضمير من غير حاجة إلى ذكره باسمه .

قوله تعالى : « إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً » الإشارة بهذه إلى الآيات السابقة بما تشتمل عليه من القوارع والزواجر ، والتذكرة الموعظة الّتي يذكر بها مايعمل عليه .

وقوله : « فمن شاء » مفعول « شاء » محذوف و المعروف في مثل هذا المورد أن يقدّر المفعول من جنس الجواب والسياق يلائمه ، والتقدير فمن شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا اتّخذ الخ ، وقيل : المقدّر الاتّعاظ ، والمراد باتّخاذ السبيل إليه اتّخاذ السبيل إلى التقرّب منه ، والسبيل هو الإيمان والطاعة هذا ماذكره المفسّرون .

و من الممكن أن تكون هذه إشارة إلى ماتقدّم في صدر السورة من الآيات النادبة إلى قيام الليل والتهجّد فيه ، والآية مسوقة لتوسعة الخطاب وتعميمه لغير النبيّ صلّى الله عليه و آله من المؤمنين بعد ما كان خطاب صدر الصورة مختصّاً به صلّى الله عليه وآله وسلّم ،

والدليل على هذا التعميم قوله : «فمن شاء» الخ .

ويؤيّد ماذكرنا وقوع هذه الآية «إنّ هذه تذكرة» الخ بعينها في سورة الدهر بعدما اُشير إلى صلاة الليل بقوله تعالى : «وسبّحه ليلاً طويلاً» ويستنتج من ذلك أنّ صلاة الليل سبيل خاصّة تهدي العبد إلى ربّه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج البزّار و الطبرانيّ في الأوسط وأبونعيم في الدلائل عن جابر قال : اجتمعت قريش في دارالندوة فقالوا : سمّوا هذا الرجل اسماً يصدرالناس عنه فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن . قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون . قالوا ساحر . قالوا : ليس بساحر . قالوا : يفرّق بين الحبيب وحبيبه فتفرّق المشركون على ذلك .

فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فتزمّل في ثيابه وتدثّر فيها فأتاه جبريل فقال : ياأيها المزمّل ياأيّها المدثّر .

اقول : آخر الرواية لايخلومن شيء حيث إنّ ظاهرها نزول السورتين معاً . على أنّ القرآن حتّى في سورة المدّثّر يحكي تسميتهم له صلى الله عليه وآله بألقاب السوء كالكاهن والساحر والمجنون والشاعر ولم يذكر فيها قولهم : يفرّق بين الحبيب وحبيبه .

وفيه أخرج عبدالله بن أحمد في كتاب الزهد و محمد بن نصر في كتاب الصلاة عن عائشة قالت : كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قلّما ينام من الليل لما قال الله له : « قم اللّيل إلاّ قليلاً » .

و في الكشّاف عن عائشة أنّها سئلت : ماكان تزميله ؟ قالت : كان مرطاً طوله أربع عشرة ذراعاً نصفه عليّ وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلّي . فسئلت : ماكان ؟قالت: والله ماكان خزّاً ولا قزّاً ولامرعزّيّاً ولاأبريسماً ولاصوفاً .كان سداه شعراً ولحمته وبراً.

اقول : الرواية مرمية بالوضع فإنّ السورة من العتائق النازلة بمكة ، وعائشة إنّما بنى عليها النبيّ صلى الله عليه وآله بالمدينة بعد الهجرة .

وعن جوامع الجامع روي أنّه قد دخل على خديجة وقد جئث فرقاً [1] فقال : زمّلوني فبينا هو على ذلك إذ ناداه جبريل : « يا أيّها المزّمّل » .

وفي الدّر المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لمّا نزلت « يا أيّها المزّمّل قم اللّيل إلّا قليلاً » مكث النبي صلى الله عليه وآله وسلم على هذه الحال عشر سنين يقوم اللّيل كما أمره الله وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه فأنزل الله بعد عشر سنين « إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم ـ إلى قوله ـ فأقيموا الصلاة » فخفّف الله عنهم بعد عشر سنين .

أقول : و روي نزول آية التخفيف بعد سنة و روي أيضاً نزولها بعد ثمانية أشهر ، ولم يكن قيام اللّيل واجباً على غير النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كما أشير إليه بقوله تعالى « إنّ هذه تذكرة » الآية كما تقدّم ، ويؤيّده ما في الرواية من قوله : « وطائفة من أصحابه » .

وفي التهذيب بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألته عن قول الله تعالى : « قم اللّيل إلّا قليلاً » قال : أمره الله أن يصلّي كلّ ليلة إلّا أن تأتي عليه ليلة من اللّيالي لا يصلّي فيها شيأً .

أقول : الرواية تشير إلى أحد الوجوه في الآية .

وفي المجمع : وقيل : إنّ نصفه بدل من القليل فيكون بياناً للمستثنى ، ويؤيّد هذا القول ماروي عن الصادق عليه السلام قال : القليل النصف أو انقص من القليل قليلاً أو زد على القليل قليلا .

وفي الدرّ المنثور أخرج العسكريّ في المواعظ عن عليّ عليه السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سئل عن قول الله : « ورتّل القرآن ترتيلا » قال : بيّنه تبييناً ، ولا تنثره نثر الدقل ، ولا تهزّه هزّ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحرّكوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة .

اقول : وروى هذا المعنى في اُصول الكافي باسناده عن عبدالله بن سليمان عن الصادق

(١) جئث الرجل ثقل عند القيام أو عند حمل شيء ثقيل والفرق الفزع والخوف .

عن علي عليه السلام وافظ بيّنه تبييناً ولاتهذّه هذّ الشعر، ولاتنثره نثر الرمل، ولكن أفرغوا[1] قلوبكم القاسية ولايكن همّ أحدكم آخر السورة .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن طاوس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله أيّ الناس أحسن قراءة قال الّذي إذا سمعته يقرء رأيت أنّه يخشى الله .

وفي اُصول الكافي بإسناده عن عليّ بن أبي حمزة قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : إنّ القرآن لايقرء هذرمة[2] ولكن يرتّل ترتيلا فإذا مررت بآية فيها ذكر الجنّة فقف عندها واسأل الله عزّ وجل الجنّة ، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوّذ بالله من النار .

وفي المجمع في معنى الترتيل عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : هو أن تتمكّث فيه وتحسن به صوتك .

و فيه روي عن اُمّ سلمة أنّها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقطع قراءته آية آية .

وفيه عن أنس قال : كان صلى الله عليه وآله يمدّ صوته مدّاً .

وفيه سأل الحارث بن هشام رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يارسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال صلى الله عليه وآله : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّ عليّ فيفصم[3] عنّي وقد وعيت ماقال وأحياناً يتمثّل الملك رجلاً فأعي مايقول .

قالت عائشة : إنّه كان ليوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو على راحلته فتضرب بجرانها .

قالت : ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليرفضّ عرقاً .

و عن تفسير العيّاشيّ بإسناده عن عيسى بن عبيد عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال : كان القرآن ينسخ بعضه بعضا ، و إنّما يؤخذ من أمر رسول الله

(١) أفرغ الاناء أخلاه .
(٢) الهذرمة الاسراع فى القراءة .
(٣) الفصم القطع .

صلّى الله عليه وآله بآخره :

و كان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة نسخت ما قبلها و لم ينسخها شيء لقد نزلت عليه و هو على بغلة شهباء و ثقل عليها الوحي حتّى وقفت و تدلّى بطنها حتّى رأيت سرّتها تكاد تمسّ الأرض .

أقول : إن صحّت الرواية كان ظهور أثر ثقل الوحي على الناقة أو البغلة من قبيل تجسّم المعاني و كثيراً ما يوجد مثله فيما نقل من المعجزات و كرامات الأولياء ، و أمّا اتّصاف الوحي و هو كلام بالثقل المادّيّ فغير معقول .

و في التهذيب بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي‌عبدالله عليه‌السلام في قول الله عزّ و جلّ : « إنّ ناشئة اللّيل هي أشدّ وطأ و أقوم قيلاً » قال : يعني بقوله : « و أقوم قيلاً » قيام الرجل عن فراشه يريد به الله عزّ وجلّ لا يريد به غيره .

أقول : و رواه أيضاً بسندين آخرين في التهذيب والعلل عن هشام عنه عليه‌السلام .

وفي المجمع في قوله تعالى : « إنّ ناشئة اللّيل » الآية والمرويّ عن أبي‌جعفر و أبي‌عبدالله عليهما‌السلام أنّهما قالا : هي القيام في آخر اللّيل .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن المنذر عن حسين بن عليّ أنّه رؤي يصلّي بين المغرب والعشاء فقيل له في ذلك ؟ فقال : إنّهما من الناشئة .

و في المجمع في قوله تعالى : «وتبتّل إليه تبتيلاً » و روى محمّد بن‌مسلم وزرارة و حمران عن أبي‌جعفر و أبي‌عبدالله عليهما‌السلام أنّ التبتّل هنا رفع اليدين في الصلاة و في رواية أبي‌بصير قال : هو رفع يدك إلى الله و تضرّعك .

أقول : و ينطبق على قنوت الصلاة ، و في رواية هو رفع اليدين و تحريك السبّابتين ، و في رواية الإيماء بالإصبع و في رواية الدعاء باصبع واحدة يشير بها .

و فيه في قوله تعالى : « وطعاماً ذا غصّة » الآية عن عبدالله بن عمر أنّ النبيّ صلّى الله عليه و سلّم سمع قارئاً يقرء هذا فصعق .

و في تفسير القمّيّ في قوله : و كانت الجبال كثيباً مهيلا » قال : مثل الرمل ينحدر .

✩✩✩

إنَّ رَبَّكَ يَعلَمُ أنَّكَ تَقُومُ أدنىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيلِ وَ نِصفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طٰائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيلَ وَ النَّهٰارَ عَلِمَ أن لَن تُحصُوهُ فَتٰابَ عَلَيكُم فَاقرَءُوا مٰا تَيَسَّرَ مِنَ القُرآنِ عَلِمَ أن سَيَكُونُ مِنكُم مَرضىٰ وَ آخَرُونَ يَضرِبُونَ فِي الأرضِ يَبتَغُونَ مِن فَضلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقرَءُوا مٰا تَيَسَّرَ مِنهُ وَأقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَ آتُوا الزَّكٰوةَ وَ أقرِضُوا اللهَ قَرضاً حَسَناً وَ مٰا تُقَدِّمُوا لِأنفُسِكُم مِن خَيرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيراً وَ أعظَمَ أجراً وَاستَغفِرُوا اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) .

﴾ بيان ﴿

آية مبنيّة على التخفيف فيما أمر به النبيّ ﷺ في صدر السورة من قيام الليل والصلاة فيه ثمّ عمّم الحكم لسائر المؤمنين بقوله : « إنّ هذه تذكرة » الآية .

و لسان الآية هو التخفيف بما تيسّر من القرآن من غير نسخ لأصل الحكم السابق بالمنع عن قيام ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه .

وقد ورد في غير واحد من الأخبار أنّ الآية مكّيّة نزلت بعد ثمانية أشهر أو سنة أو عشر سنين من نزول آيات صدر السورة لكن يوهنه اشتمال الآية على قوله تعالى : « وأقيموا الصلوة و آتوا الزكوة وأقرضوا الله قرضاً حسناً » فإنّ ظاهره أنّ المراد

بالزكاة ـ و قد ذكرت قبلها الصلاة و بعدها الإنفاق المستحبّ ـ هو الزكاة المفروضة و إنّما فرضت الزكاة بالمدينة بعد الهجرة .

و قول بعضهم : إنّ الزكاة فرضت بمكّة من غير تعيين الأنصباء والّذي فرض بالمدينة تعيين الأنصباء . تحكّم من غير دليل ، و كذا قول بعضهم : إنّه من الممكن أن تكون الآية ممّا تأخّر حكمه عن نزوله .

على أنّ في الآية ذكراً من القتال إذ يقول : «وآخرون يقاتلون في سبيل الله» ولم يكن من مصلحة الدعوة الحقّة يومئذ ذاك والظرف ذلك الظرف أن يقع في متنها ذكر من القتال بأيّ وجه كان ، فالظاهر أنّ الآية مدنيّة وليست بمكّيّة وقد مال إليه بعضهم .

قوله تعالى : « إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه» إلى آخر الآية . الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وفي التعبير بقوله : «ربّك» تلويح إلى شمول الرحمة والعناية الإلهيّة ، وكذا في قوله : «يعلم أنّك تقوم» الخ مضافاً إلى ما فيه من لائحة الشكر قال تعالى : «وكان سعيكم مشكوراً» الدهر : ٢٢ .

وقوله : «تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه» «أدنى» اسم تفضيل من الدنوّ بمعنى القرب ، وقد جرى العرف على استعمال أدنى فيما يقرب من الشيء وهو أقلّ فيقال : إنّ عدّتهم أدنى من عشرة إذا كانوا تسعة مثلاً دون ما لو كانوا أحد عشر فمعنى قوله : «أدنى من ثلثي الليل» أقرب من ثلثيه وأقلّ بقليل .

والواو العاطفة في قوله : « ونصفه وثلثه » لمطلق الجمع والمراد أنّه يعلم أنّك تقوم في بعض الليالي أدنى من ثلثي الليل وفي بعضها نصفه وفي بعضها ثلثه .

وقوله : «وطائفة من الّذين معك » المراد المعيّة في الإيمان و «من» للتبعيض فالآية تدلّ على أنّ بعضهم كان يقوم الليل كما كان يقومه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . وقيل «من» بيانيّة ، وهو كما ترى .

وقوله : «والله يقدّر الليل والنهار» في مقام التعليل لقوله : «إنّ ربّك يعلم» والمعنى وكيف لا يعلم وهو الله الّذي إليه الخلق والتقدير ففي تعيين قدر اللّيل والنهار

تعيين ثلثهما ونصفهما وثلثيهما، ونسبة تقدير اللّيل والنهار إلى اسم الجلالة دون اسم الربّ وغيره لأنّ التقدير من شؤن الخلق والخلق إلى الله الّذي إليه ينتهي كلّ شيء.

وقوله: «علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسّر من القرآن» الاحصاء تحصيل مقدار الشيء وعدده والاحاطة به، وضمير «لن تحصوه» للتقدير أو للقيام مقدار ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه، وإحصاء ذلك مع اختلاف الليالي طولاً وقصراً في أيّام السنة ممّا لا يتيسّر لعامّة المكلّفين ويشتدّ عسراً لمن نام أوّل اللّيل وأراد القيام بأحد المقادير الثلاثة دون أن يحتاط بقيام جميع اللّيل أو ما في حكمه.

فالمراد بقوله: «علم أن لن تحصوه» علمه تعالى بعدم تيسّر إحصاء المقدار الّذي اُمروا بقيامه من اللّيل لعامّة المكلّفين.

والمراد بقوله: «فتاب عليكم» توبته تعالى ورجوعه إليهم بمعنى انعطاف الرحمة الالهيّة عليهم بالتخفيف فللهسبحانه توبة على عباده ببسط رحمته عليهم وأثرها توفيقهم للتوبة أو لمطلق الطاعة أو رفع بعض التكاليف أو التخفيف قال تعالى: «ثمّ تاب عليهم ليتوبوا» التوبة: ١١٨.

كما أنّ له توبة عليهم بمعنى الرجوع إليهم بعد توبتهم وأثرها مغفرة ذنوبهم. وقد تقدّمت الاشارة إليه.

والمراد بقوله: «فاقرءوا ما تيسّر من القرآن» التخفيف في قيام اللّيل من حيث المقدار لعامّة المكلّفين تفريعاً على علمه تعالى أنّهم لن يحصوه.

ولازم ذلك التوسعة في التكليف بقيام اللّيل من حيث المقدار حتّى يسع لعامّة المكلّفين الشاقّ عليهم إحصاؤه دون النسخ بمعنى كون قيام الثلث أو النصف أو الأدنى من الثلثين لمن استطاع ذلك بدعة محرّمة وذلك أنّ الاحصاء المذكور إنّما لا يتيسّر لمجموع المكلّفين لا لجميعهم ولو امتنع لجميعهم ولم يتيسّر لأحدهم لم يشرّع من أصله ولا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها.

على أنّه تعالى يصدّق لنبيّه ﷺ وطائفة من الّذين معه قيام الثلث والنصف

والأدنى من الثلثين وينسب عدم التمكّن من الإحصاء إلى الجميع وهم لا محالة هم القائمون وغيرهم فالحكم إنّما كان شاقّاً على المجموع من حيث المجموع دون كلّ واحدفوسّع في التكليف بقوله: «فاقرءُوا ما تيسّر من القرآن» وسهّل الأمر بالتخفيف ليكون لعامّة المكلّفين فيه نصيب مع بقاء الأصل المشتمل عليه صدر السورة على حاله لمن تمكّن من الإحصاء وأراده، والحكم استحبابيّ لسائر المؤمنين وإن كان ظاهر ما للنبيّ صلّى الله عليه وآله من الخطاب الوجوب كما تقدّمت الإشارة إليه.

وللقوم في كون المراد بقيام اللّيل الصلاة فيه أو قراءة القرآن خارج الصلاة، وعلى الأوّل في كونه واجباً على النبيّ صلّى الله عليه وآله والمؤمنين أو مستحبّاً للجميع أو واجباً على النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مستحبّاً لغيره ثمّ في نسخ الحكم بالتخفيف بما تيسّر بهذه الآية أو تبديل الصلاة من قراءة ما تيسّر من القرآن أقوال لا كثير جدوى في التعرّض لها والبحث عنها.

وقوله: «علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله» إشارة إلى مصلحة اُخرى مقتضية للتخفيف في أمر القيام ثلث اللّيل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه، وراء كونه شاقّاً على عامّة المكلّفين بالصفة المذكورة أوّلاً فإنّ الإحصاء المذكور للمريض والمسافر والمقاتل مع ما هم عليه من الحال شاقّ عسير جدّاً.

والمراد بالضرب في الأرض للابتغاء من فضل الله طلب الرزق بالمسافرة من أرض إلى أرض للتجارة.

وقوله: «فاقرءُوا ما تيسّر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً» تكرار للتخفيف تأكيداً، وضمير «منه» للقرآن، والمراد الإتيان بالصلاة على ما يناسب سعة الوقت الّذي قاموا فيه.

والمراد بالصلاة المأمور بإقامتها الفريضة فإن كانت الآية مدنيّة فالفرائض الخمس اليوميّة وإن كانت مكّيّة فبحسب ما كانت مفروضة من الصلاة، والمراد بالزكاة الزكاة المفروضة، والمراد بإقراضه تعالى غير الزكاة من الإنفاقات الماليّة في سبيل الله.

وعطف الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقراض للتلويح إلى أنّ التكاليف الدينيّة على حالها في وجوب الاهتمام بها والاعتناء بأمرها ، فلايتوهّمنّ متوهّم سريان التخفيف والمسامحة في جميع التكاليف فالآية نظيرة قوله في آية النجوى : « فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله » المجادلة : ١٣ .

وقوله : «وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هوخيراً وأعظم أجراً» «من خير» بيان للموصول ، والمراد بالخير مطلق الطاعة أعمّ من الواجبة والمندوبة ، و «هو» ضمير فصل أو تأكيد للضمير في «تجدوه» .

والمعنى و الطاعة الّتي تقدّمونها لأنفسكم ـ أي لتعيشوا بها في الآخرة ـ تجدونها عند الله ـ أي في يوم اللقاء ـ خيراً من كلّ ما تعملون أو تتركون وأعظم أجرا .

وقوله : «واستغفروا الله إنّ الله غفور رحيم» ختم الكلام بالأمر بالاستغفار ، وفي قوله : «إنّ الله غفور رحيم» إشعار بوعد المغفرة والرحمة ، ولايبعد أن يكون المراد بالاستغفار الإتيان بمطلق الطاعات لأنّها وسائل يتوسّل بها إلى مغفرة الله فالإتيان بها استغفار .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّيّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : «إنّ ربّك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي اللّيل ونصفه وثلثه» ففعل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ذلك وبشّر الناس به فاشتدّ ذلك عليهم و « علم أن لن تحصوه » ، وكان الرجل يقوم و لا يدري متي ينتصف اللّيل و متى يكون الثلثان ، و كان الرجل يقوم حتّى يصبح مخافة أن لا يحفظه .

فأنزل الله «إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم ـ إلى قوله ـ علم أن لن تحصوه» يقول : متى يكون النصف و الثلث نسخت هذه الآية « فاقرؤوا ما تيسّر من القرآن » ، و

اعلموا أنّه لم يأت نبيّ قطّ إلاّ خلا بصلاة اللّيل ، ولا جاء نبيّ قطّ بصلاة اللّيل في أوّل اللّيل .

اقول: محصّل الرواية أنّ صدر السورة توجب صلاة اللّيل وذيلها تنسخها ، و روي ما يقرب منه من طرق أهل السنّة عن ابن عبّاس وغيره ، وقد تقدّم ما يتعلّق به في البيان السابق .

و في المجمع روى الحاكم أبو القاسم إبراهيم الحسكانيّ بإسناده عن الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس في قوله تعالى : « وطائفة من الّذين معك » قال : عليّ و أبوذرّ .

و فيه في قوله تعالى : « فاقرؤوا ما تيسّر منه » روي عن الرضا عن أبيه عن جدّه عليه السلام قال : ما تيسّر منه لكم فيه خشوع القلب وصفاء السرّ .

وفي الدّر المنثور أخرج ابن أبي‌حاتم والطبرانيّ وابن مردويه عن ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم «فاقرؤوا ما تيسّر منه» قال : مائة آية .

وفيه أخرج ابن مردويه عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما من جالب يجلب طعاماً إلى بلد من بلاد المسلمين فيبيعه بسعر يومه إلاّ كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد . ثمّ قرء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله» .

وفي تفسير القميّ بإسناده عن زرعة عن سماعة قال : سألته عن قول الله : «وأقرضوا الله قرضاً حسناً» قال : هو غير الزكاة .

وفي الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة : أكثروا الاستغفار تجلبوا الرزق ، وقدّموا ما استطعتم من عمل الخير تجدوه غداً .

اقول: ذيله مأخوذ من قوله تعالى : «وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عندالله هو خيراً وأعظم أجراً» .

﴿ سورة المدّثّر مكّيّة وهي ستّ وخمسون آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ يٰا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيٰابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلاٰ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) .

﴿ بيان ﴾

تتضمّن السورة أمر النبيّ ﷺ بالإنذار في سياق يلوح منه كونه من أوامر أوائل البعثة ثمّ الإشارة إلى عظم شأن القرآن الكريم وجلالة قدره ، والوعيد الشديد على من يواجهه بالإنكار والرمي بالسحر ، وذمّ المعرضين عن دعوته .

والسورة مكّيّة من العتائق النازلة في أوائل البعثة وظهور الدعوة حتّى قيل : إنّها أوّل سورة نزلت من القرآن وإن كان يكذّبه نفس آيات السورة الصريحة في سبق قراءته ﷺ القرآن على القوم وتكذيبهم به وإعراضهم عنه ورميهم له بأنّه سحر يؤثر .

ولذا مال بعضهم إلى أنّ النازل أوّلاً هي الآيات السبع الواقعة في أوّل السورة ولازمه كون السورة غير نازلة دفعة وهو وإن كان غير بعيد بالنظر إلى متن الآيات السبع لكن يدفعه سياق أوّل سورة العلق الظاهر في كونه أوّل ما نزل من القرآن .

واحتمل بعضهم أن تكون السورة أوّل ما نزل على النبيّ ﷺ عند الأمر بإعلان الدعوة بعد إخفائها مدّة في أوّل البعثة فهي في معنى قوله : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » الحجر : ٩٤ ، وبذلك جمع بين ما ورد من أنّها أوّل ما نزل ، وما ورد أنّها نزلت بعد سورة العلق ، وما ورد أنّ سورتي المزّمّل والمدّثّر نزلتا معاً ، وهذا القول لا يتعدّى طور الاحتمال .

وكيف كان فالمتيقّن أنّ السورة من أوائل ما نزل على النبيّ ﷺ من السور القرآنيّة ، والآيات السبع الّتي نقلناها تتضمّن الأمر بالإنذار وسائر الخصال الّتي تلزمه ممّا وصّاه الله به .

قوله تعالى : « يا أيّها المدّثّر » المدّثّر بتشديد الدال والثاء أصله المتدثّر اسم فاعل من التدثّر بمعنى التغطّي بالثياب عند النوم .

والمعنى يا أيّها المتغطّي بالثياب للنوم خطاب للنبيّ ﷺ وقد كان على هذه الحال فخوطب بوصف مأخوذ من حاله تأنيساً وملاطفة نظير قوله : « يا أيّها المزّمّل » .

وقيل : المراد بالتدثّر تلبّسه ﷺ بالنبوّة بتشبيهها بلباس يتحلّى به ويتزيّن وقيل : المراد به اعتزاله ﷺ وغيبته عن النظر فهو خطاب له بما كان عليه في غار حراء ، وقيل : المراد به الاستراحة والفراغ فكأنّه قيل له ﷺ : يا أيّها المستريح الفارغ قد انقضى زمن الراحة وأقبل زمن متاعب التكاليف وهداية الناس .

وهذه الوجوه وإن كانت في نفسها لا بأس بها لكنّ الّذي يسبق إلى الذهن هو المعنى الأوّل .

قوله تعالى : « قم فأنذر » الظاهر أنّ المراد به الأمر بالإنذار من غير نظر إلى من ينذر فالمعنى افعل الإنذار ، وذكر بعضهم أنّ مفعول الفعل محذوف والتقدير أنذر عشيرتك الأقربين لمناسبته لابتداء الدعوة كما ورد في سورة الشعراء .

وذكر آخرون أنّ المفعول المحذوف عامّ وهو جميع الناس لقوله : « وما أرسلناك إلّا كافّة للناس » سبأ : ٢٨ .

ولم يذكر التبشير مع الإنذار مع أنّهما كالمتلازمين في تمام الدعوة لأنّ السورة ممّا نزل في ابتداء الدعوة والإنذار هو الغالب إذ ذاك .

قوله تعالى : « وربّك فكبّر » أي انسب ربّك إلى الكبرياء والعظمة اعتقاداً وعملاً قولاً وفعلاً وهو تنزيهه تعالى من أن يعادله أو يفوقه شيء فلا شيء يشاركه أو يغلبه أو يمانعه ، ولا نقص يعرضه ، ولا وصف يحدّه .

ولذا ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ معنى التكبير : الله أكبر من أن يوصف، فهو تعالى أكبر من كلّ وصف نصفه به حتّى من هذا الوصف ، وهذا هو المناسب للتوحيد الإسلاميّ الّذي يفوق ما نجده من معنى التوحيد في سائر الشرائع السماوية .

وهذا الّذي ذكرناه هو الفرق بين كلمتي التكبير والتسبيح - الله أكبر وسبحان الله - فسبحان الله تنزيه له تعالى عن كلّ وصف عدميّ مبنيّ على النقص كالموت والعجز والجهل وغير ذلك ، والله أكبر تنزيه مطلق له تعالى عن كلّ وصف نصفه به أعمّ من أن يكون عدمياً أو وجودياً حتّى من نفس هذا الوصف لما أنّ كلّ مفهوم محدود في نفسه لا يتعدّى إلى غيره من المفاهيم وهو تعالى لا يحيط به حدّ فافهم ذلك.

وقيل : المراد الأمر بالتكبير في الصلاة .

والتعبير عنه تعالى بربّك لا يخلو من إشعار بأنّ توحيده تعالى يومئذ كان يختصّ به صلى الله عليه وآله .

قال في الكشّاف في قوله : « فكبّر » : ودخلت الفاء لمعنى الشرط كأنّه قيل: وما كان فلا تدع تكبيره .

قوله تعالى : « وثيابك فطهّر » قيل : كناية عن إصلاح العمل ، ولا يخلو من وجه فإنّ العمل بمنزلة الثياب للنفس بما لها من الاعتقاد فالظاهر عنوان الباطن ، وكثيراً ما يكنّى في كلامهم عن صلاح العمل بطهارة الثياب .

وقيل : كناية عن تزكية النفس وتنزيهها عن الذنوب والمعاصي .

وقيل : المراد تقصير الثياب لأنّه أبعد من النجاسة ولو طالت وانجرّت على الأرض لم يؤمن أن تتنجّس .

و قيل : المراد تطهير الأزواج من الكفر والمعاصي لقوله تعالى : « هنّ لباس لكم » البقرة : ١٨٧ .

وقيل : الكلام على ظاهره والمراد تطهير الثياب من النجاسات للصلاة والأقرب على هذا أن يجعل قوله : « وربّك فكبّر » إشارة إلى تكبير الصلاة و تكون الآيتان مسوقتين لتشريع أصل الصلاة مقارناً للأمر بالدعوة .

و لا يرد عليه ما قيل : إنّ نزول هذه الآيات كان حيث لا صلاة أصلاً و ذلك أنّ تشريع الفرائض الخمس اليوميّة على ما هي عليها اليوم و إن كان في ليلة المعراج و هي جميعاً عشر ركعات ثمّ زيد عليها سبع ركعات إلّا أنّ أصل الصلاة كان منذ أوائل البعثة كما يشهد به ذكرها في هذه السورة وسورتي العلق والمزّمّل ، ويدلّ عليه الروايات .

و قيل : المراد بتطهير الثياب التخلّق بالأخلاق الحميدة والملكات الفاضلة .

وفي معنى تطهير الثياب أقوال اُخر أغمضنا عن نقلها لإمكان إرجاعها إلى بعض ما تقدّم من الوجوه ، وأرجح الوجوه المتقدّمة أوّلها وخامسها .

قوله تعالى : « والرُّجز فاهجر » قيل : الرجز بضمّ الراء و كسرها العذاب والمراد بهجره هجر سببه وهو الإثم والمعصية ، والمعنى اهجر الإثم والمعصية .

و قيل : الرجز اسم لكلّ قبيح مستقذر من الأفعال والأخلاق فالأمر بهجره أمر بترك كلّ ما يكرهه الله ولا يرتضيه مطلقاً ، أوأمر بترك خصوص الاخلاق الرذيلة الذميمة على تقدير أن يكون المراد بتطهير الثياب ترك الذنوب والمعاصي .

و قيل : الرجز هو الصنم فهو أمر بترك عبادة الأصنام .

قوله تعالى : « و لاتمنن تستكثر » الّذي يعطيه سياق الآيات و يناسب المقام أن يكون المراد بالمنّ تكدير الصنيعة بذكرها للمنعم عليه كما في قوله تعالى : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى » البقرة : ٢٦٤ ، و قوله : « يمنّون عليك أن أسلموا » الحجرات : ١٧ والمراد بالاستكثار رؤية الشيء و حسبانه كثيراً لا طلب الكثرة .

والمعنى لا تمنن امتثالك لهذه الأوامر و قيامك بالانذار و تكبيرك ربّك و تطهيرك ثيابك و هجرك الرجز حال كونك ترى ذلك كثيراً و تعجبه ـ فإنّما أنت عبد لا تملك من نفسك شيئاً إلّا ما ملّكك الله و أقدرك عليه و هو المالك لما ملّكك والقادر على ما عليه أقدرك فله الأمر و عليك الامتثال ـ .

و للقوم في الآية وجوه اُخر من التفسير لا تلائم السياق تلك الملاءمة فقيل المعنى لا تعط عطيّة لتعطى أكثر منها .

و قيل : المعنى لا تمنن ما أعطاك الله من النبوّة والقرآن على الناس مستكثراً به الأجر .

و قيل : أي لا تمنن إبلاغ الرسالة على اُمتك .

و قيل : المعنى لا تضعف في عملك مستكثراً لطاعاتك .

و قيل : المعنى لا تمنن بعطائك على الناس مستكثراً له .

و قيل : أي إذا أعطيت عطيّة فأعطها لربّك واصبر حتّى يكون هو الّذى يثيبك .

و قيل : هو نهي عن الربا المحرّم أي لا تعط شيئاً طالباً أن تعطى أكثر ممّا أعطيت .

قوله تعالى : « و لربّك فاصبر » أي لوجه ربّك ، والصبر مطلق يشمل الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر عن المعصية ، والمعنى ولوجه ربّك فاصبر عند ما يصيبك من المصيبة والأذى في قيامك بالإنذار وامتثالك هذه الأوامر واصبر على طاعة الله واصبر عن معصيته ، و هذا معنى جامع لمتفرّقات ما ذكروه في تفسير الآية كقول بعضهم : إنّه أمر بنفس الفعل من غير نظر إلى متعلّقه و قول بعضهم : إنّه الصبر على أذى المشركين ، و قول بعضهم : إنّه الصبر على أداء الفرائض ، إلى غير ذلك .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج الطيالسي و عبدالرزّاق و أحمد وعبد بن حميد والبخاريّ ومسلم والترمذي وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر و ابن مردويه وابن الأنباريّ في المصاحف عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أباسلمة بن عبدالرحمان عن أوّل ما نزل من القرآن فقال : يا أيّها المدثّر قلت : يقولون : اقرء باسم ربّك الّذي خلق ؟ فقال أبوسلمة : سألت جابر بن عبدالله عن ذلك ، قلت له مثل ما قلت. قال جابر : لا اُحدّثك إلّا ما حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قال : جاورت بحراء فلمّا قضيت جواري نوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فاذا الملك الّذي جاءني بحراء جالس على كرسيّ بين السماء والارض فجئت منه رعبا فرجعت فقلت : دثّروني دثّروني فنزلت : « يا أيّها المدّثّر قم فأنذر ـ إلى قوله ـ والرجز فاهجر » .

أقول : الحديث معارض بالأحاديث الاُخر الدالّة على كون سورة اقرء أوّل ما نزل من القرآن و يؤيّدها سياق سورة اقرء، على أنّ قوله : « فاذا الملك الّذي جاءني بحراء » يشعر بنزول الوحي عليه قبلا .

و فيه أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة : قلنا : يا رسول الله كيف نقول إذا دخلنا في الصلاة ؟ فأنزل الله « و ربّك فكبّر » فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نفتتح الصلاة بالتكبير .

اقول : وفي الرواية شيء فأبوهريرة ممّن آمن بعد الهجرة بكثير والسورة ممّا نزل في أوّل البعثة فأين كان أبوهريرة أو الصحابة يومئذ ؟ !

و في الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة : تشمير الثياب طهور لها قال الله تبارك و تعالى : « و ثيابك فطهّر » يعني فشمّر .

اقول وفي هذا المعنى عدّة أخبار مرويّة في الكافي والمجمع عن أبي جعفر وأبي عبدالله وأبي الحسن عليهم السلام.

وفي الدرّ المنثور أخرج الحاكم وصحّحه وابن مردويه عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « والرجز فاهجر » برفع الراء، و قال: هي الأوثان.

اقول: و قوله: « هي الأوثان » من كلام جابر أو غيره من رجال السند.

و في تفسير القمّي في قوله تعالى: « ولا تمنن تستكثر » و في رواية أبي الجارود يقول: لا تعط تلتمس أكثر منها.



☆☆☆

فَاِذَا نُقِرَ فِی النَّاقُورِ (٨) فَذٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُوداً (١٢) وَ بَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ اَنْ اَزِيدَ (١٥) كَلَّا اِنَّهُ كَانَ لِاٰيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَاُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧) اِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (٢٢) ثُمَّ اَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ اِنْ هٰذَا اِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) اِنْ هٰذَا اِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَاُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَ مَا اَدْرٰيكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَ مَا جَعَلْنَا اَصْحَابَ النَّارِ اِلَّا مَلٰئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ اِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ اُوتُوا الْكِتَابَ وَ يَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا اِيمَاناً وَ لَا يَرْتَابَ الَّذِينَ اُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا اَرَادَ اللّٰهُ بِهٰذَا مَثَلًا كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ اِلَّا هُوَ وَ مَا هِيَ اِلَّا ذِكْرٰى لِلْبَشَرِ (٣١) .

﴿ بيان ﴾

في الآيات وعيد شديد للطاعنين في القرآن الرامين له بأنّه سحر والمستهزئين لبعض ما فيه من الحقائق.

قوله تعالى: « فإذا نقر في الناقور » النقر القرع والناقور ما ينقر فيه للتصويت، والنقر في الناقور كالنفخ في الصور كناية عن بعث الموتى و إحضارهم لفصل القضاء يوم القيامة والجملة شرطيّة جزاؤها قوله «فذلك» الخ.

قوله تعالى: « فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير» الأشارة بقوله « فذلك » إلى زمان نقر الناقور ولا يبعد أن يكون المراد بيومئذ يوم إذ يرجعون إلى الله للحساب والجزاء أو يوم إذ يرجع الخلائق إلى الله فيكون ظرفاً ليوم نقر الناقور فمن الجائز أن تعتبر قطعة من الزمان ظرفاً لبعض أجزائه كالسنة تجعل ظرفاً للشهر والشهر يجعل ظرفاً لليوم لنوع من العناية أو يعتبر زمان متعدّداً مختلفاً باختلاف صفاته أوالحوادث الواقعة فيه ثمّ يجعل باعتبار بعض صفاته ظرفاً لنفسه باعتبار صفة اُخرى.

والمعنى فزمان نقر الناقور الواقع في يوم رجوع الخلائق إلى الله زمان عسير على الكافرين أو زمان نقر الناقور زمان عسير على الكافرين في يوم الرجوع ـ بناء على كون قوله: « يومئذ » قيداً لقوله: « فذلك » أو لقوله: « يوماً » ـ

وقال في الكشّاف: فإن قلت: بم انتصب إذا وكيف صحّ أن يقع يومئذ ظرفاً ليوم عسير؟ قلت: انتصب إذا بما دلّ عليه الجزاء لأنّ المعنى إذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين، والّذي أجاز وقوع يومئذ ظرفاً ليوم عسير أنّ المعنى فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير لأنّ يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقور. انتهى.

و قال: و يجوز أن يكون يومئذ مبنيّاً مرفوع المحلّ بدلاً من ذلك، و يوم عسير خبر كأنّه قيل: فيوم النقر يوم عسير. انتهى.

وقوله : « غير يسير » وصف آخر ليوم مؤكّد لعسره و يفيد أنّه عسير من كلّ وجه لا من وجه دون وجه .

قوله تعالى : « ذرني و من خلقت وحيداً » كلمة تهديد وقد استفاض النقل أنّ الآية وما يتلوها إلى تمام عشرين آية نزلت في الوليد بن المغيرة ، و ستأتي قصّته في البحث الروائيّ الآتي إن شاء الله تعالى .

و قوله : « وحيداً » حال من فاعل « خلقت » و محصّل المعنى دعني و من خلقته حال كوني وحيداً لا يشاركني في خلقه أحد ثمّ دبّرت أمره أحسن التدبير ، ولا تحل بيني و بينه فأنا أكفيه .

و من المحتمل أن يكون حالاً من مفعول «ذرني» . و قيل حال من مفعول خلقت المحذوف و هو ضمير عائد إلى الموصول ، ومحصّل المعنى دعني ومن خلقته حال كونه وحيداً لا مال له و لا بنون ، واحتمل أيضاً أن يكون « وحيداً » منصوباً بتقدير « أذمّ » و أحسن الوجوه أوّلها .

قوله تعالى : « و جعلت له مالاً ممدوداً » أي مبسوطاً كثيراً أو ممدوداً بمدد النماء .

قوله تعالى : « وبنين شهوداً » أي حضوراً يشاهدهم ويتأيّد بهم ، وهو عطف على قوله : « مالاً » .

قوله تعالى : « و مهّدت له تمهيداً » التمهيد التهيئة و يتجوّز به عن بسطة المال والجاه و انتظام الاُمور .

قوله تعالى : « ثمّ يطمع أن أزيد كلاّ إنّه كان لآياتنا عنيداً » أي ثمّ يطمع أن أزيد فيما جعلت له من المال والبنين و مهّدت له من التمهيد.

و قوله : « كلاّ » ردع له ، وقوله : « إنّه كان » الخ تعليل للردع ، والعنيد المعاند المباهي بما عنده ، قيل ، ما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتّى هلك .

قوله تعالى : « سأرهقه صعوداً » الإرهاق الغشيان بالعنف ، والصعود عقبة الجبل الّتي يشقّ مصعدها شبّه ما سيناله من سوء الجزاء ومرّ العذاب بغشيانه عقبة وعرة صعبة الصعود .

قوله تعالى : «إنّه فكّر وقدّر فقتل كيف قدّر ثمّ قتل كيف قدّر» التفكير معروف ، والتقدير عن تفكير نظم معان وأوصاف في الذهن بالتقديم والتأخير والوضع والرفع لاستنتاج غرض مطلوب ، و قد كان الرجل يهوى أن يقول في أمر القرآن شيئاً يبطل به دعوته و يرضي به قومه المعاندين ففكّر فيه أيقول : شعر أو كهانة أو هذرة جنون أو اسطورة فقدّر أن يقول : سحر من كلام البشر لأنّه يفرّق بين المرء وأهله و ولده ومواليه .

و قوله : « فقتل كيف قدّر » دعاء عليه على ما يعطيه السياق نظير قوله : « قاتلهم الله أنّى يؤفكون » التوبة : ٣٠ .

و قوله : «ثمّ قتل كيف قدّر» تكرار للدعاء تأكيداً .

قوله تعالى : «ثمّ نظر ثمّ عبس وبسر ثمّ أدبر و استكبر فقال إن هذا إلّا سحر يؤثر إن هذا إلّا قول البشر» تمثيل لحاله بعد التفكير و التقدير وهو من ألطف التمثيل وأبلغه .

فقوله : «ثمّ نظر» أي ثمّ نظر بعد التفكير والتقدير نظرة من يريد أن يقضي في أمر سئل أن ينظر فيه ـ على ما يعطيه سياق التمثيل ـ .

وقوله : «ثمّ عبس وبسر» العبوس تقطيب الوجه قال في المجمع : وعبس يعبس عبوساً إذا قبض وجهه والعبوس والتكليح والتقطيب نظائر وضدّها الطلاقة والبشاشة ، وقال : والبسور بدء التكرّه في الوجه انتهى . فالمعنى ثمّ قبض وجهه وأبدا التكرّه في وجهه بعد ما نظر .

وقوله : «ثمّ أدبر واستكبر» الإدبار عن شيء الإعراض عنه ، والاستكبار الامتناع كبراً وعتوّاً ، والأمران أعني الإدبار والاستكبار من الأحوال الروحيّة وإنّما رتّبا في التمثيل على النظر والعبوس والبسور وهي أحوال صوريّة محسوسة لظهورهما

بقوله : «إن هذا إلاّ سحر» الخ ولذا عطف قوله : «فقال إن هذا إلاّ سحر يؤثر» بالفاء دون «ثمّ» .

و قوله : « فقال إن هذا إلاّ سحر يؤثر » أي أظهر إدباره و استكباره بقوله مفرّعاً عليه : « إن هذا ـ أي القرآن ـ إلاّ سحر يؤثر » أي يروى و يتعلّم من السحرة .

وقوله : « إن هذا إلاّ قول البشر» أي ليس بكلام الله كما يدّعيه محمّد صلّى الله عليه وآله .

قيل : إنّ هذه الآية كالتأكيد للآية السابقة وإن اختلفتا معنى لأنّ المقصود منهما نفي كونه قرآنا من كلام الله ، وباعتبار الاتّحاد في المقصود لم تعطف الجملة على الجملة .

قوله تعالى : «ساُصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر »

أي ساُدخله سقر و سقر من أسماءِ جهنّم في القرآن أو دركة من دركاتها ، وجملة «ساُصليه سقر» بيان أو بدل من قوله : «ساُرهقه صعوداً» .

وقوله : « وما أدراك ماسقر» تفخيم لأمرها وتهويل .

وقوله : « لا تبقي ولا تذر » قضيّة إطلاق النفي أن يكون المراد أنّها لا تبقي شيأ ممّن نالته إلاّ أحرقته ، ولاتدع أحداً ممّن اُلقي فيها إلاّ نالته بخلاف نارالدنيا الّتي ربما تركت بعض ما اُلقي فيها ولم تحرقه ، وإذا نالت إنساناً مثلاً نالت جسمه وصفاته الجسميّة ولم تنل شيأ من روحه وصفاته الروحيّة ، وأمّا سقر فلا تدع أحداً ممّن اُلقي فيها إلاّ نالته قال تعالى : « تدعو من أدبر وتولّى » المعارج : ١٧ ، وإذا نالته لم تبق منه شيأ من روح أو جسم إلّا أحرقته قال تعالى : « نار الله الموقدة الّتي تطّلع على الأفئدة» الهمزة : ٧ .

ويمكن أن يراد أنّها لا تبقيهم أحياء ولا تتركهم يموتون فيكون في معنى قوله تعالى : « الّذي يصلى النار الكبرى ثمّ لا يموت فيها ولايحيى » الأعلى : ١٣.

وقيل : المعنى لا تبقي شيأ يلقى فيها إلاّ أهلكته ، وإذا هلك لم تذره هالكاً

حتّى يعاد فيعذّب ثانياً .

وقيل : المراد أنّها لا تبقي لهم لحماً ولا تذر عظماً ، وقيل غير ذلك .

قوله تعالى : « لوّاحة للبشر » اللوّاحة من التلويح بمعنى تغيير اللون إلى السواد وقيل : إلى الحمرة ، والبشر جمع بشرة بمعنى ظاهر الجلد .

قوله تعالى : « عليها تسعة عشر » يتولّون أمر عذاب المجرمين وقد اُبهم ولم يصرّح أنّهم من الملائكة أو غيرهم غير أنّ المستفاد من آيات القيامة ـ وتصرّح به الآية التالية ـ أنّهم من الملائكة .

وقد استظهر بعضهم أنّ مميّز قوله : « تسعة عشر » ملكاً ثمّ قال : ألا ترى العرب وهم الفصحاء كيف فهموا منه ذلك فقد روي عن ابن عبّاس أنّها لمّا نزلت « عليها تسعة عشر » قال أبوجهل لقريش : ثكلتكم اُمّهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أنّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم أيعجز كلّ عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟ فقال أبو الأسد بن اُسيد بن كلدة الجمحيّ وكان شديد البطش : أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين انتهى وأنت ترى أن لا دليل في كلامه على ما يدّعيه . على أنّه سمّى الواحد من الخزنة رجلاً ولا يطلق الرجل على الملك البتّة ولا سيمّا عند المشركين الّذين قال تعالى فيهم : « وجعلوا الملائكة الّذين هم عباد الرحمان إناثا » الزخرف : ١٩ .

قوله تعالى : « وما جعلنا أصحاب النار إلّا ملائكة » إلى آخر الآية . سياق الآية يشهد على أنّهم تكلّموا فيما ذكر في الآية من عدد خزّان النار فنزلت هذه الآية ، ويتأيّد بذلك ما ورد من سبب النزول وسيوافيك في البحث الروائيّ التالي.

فقوله : « وما جعلنا أصحاب النار إلّا ملائكة » المراد بأصحاب النار خزنتها الموكّلون عليها المتولّون لتعذيب المجرمين فيها كما يفيده قوله : « عليها تسعة عشر » ويشهد بذلك قوله بعد : « وما جعلنا عدّتهم إلّا فتنة » الخ .

ومحصّل المعنى أنّا جعلناهم ملائكة يقدرون على ما اُمروا به كما قال :

« عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» التحريم : ٦ فليسوا من البشر حتّى يرجو المجرمون أن يقاوموهم ويطيقوهم .

وقوله : « وما جعلنا عدّتهم إلاّ فتنة للّذين كفروا » الفتنة المحنة والاختبار . ذكروا أنّ المرادبالجعل الجعل بحسب الإخبار دون الجعل بحسب التكوين فالمعنى وما أخبرنا عن عدّتهم أنّها تسعة عشر إلاّ ليكون فتنة للّذين كفروا ، ويؤيّده ذيل الكلام : ليستيقن الّذين اُوتوا الكتاب » الخ .

وقوله : « ليستيقن الّذين اُوتوا الكتاب » الاستيقان وجدان اليقين في النفس أي ليوقن أهل الكتاب بأنّ القرآن النازل عليك حقّ حيث يجدون ما أخبرنا به من عدّة أصحاب النار موافقاً لما ذكر فيما عندهم من الكتاب .

وقوله : « ويزداد الّذين آمنوا إيماناً » أي بسبب ما يجدون من تصديق أهل الكتاب ذلك .

وقوله : « وليقول الّذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً » اللاّم في « ليقول » للعاقبة بخلاف اللاّم في « ليستيقن » فللتعليل بالغاية ، والفرق أنّ قولهم : « ماذا أراد الله بهذا مثلاً » تحقير وتهكّم وهو كفر لايعدّ غاية لفعله سبحانه إلاّ بالعرض بخلاف الاستيقان الّذي هو من الإيمان ، ولعلّ اختلاف المعنيين هو الموجب لإعادة اللاّم في قوله : « وليقول » .

وقد فسّروا « الّذين في قلوبهم مرض » بالشّكّ والجحود بالمنافقين وفسّروا الكافرين بالمتظاهرين بالكفر من المشركين وغيرهم .

وقولهم : « ماذا أراد الله بهذا مثلاً » أرادوا به التحقير والتهكّم يشيرون بهذا إلى قوله تعالى : « عليها تسعة عشر » والمثل الوصف ، والمعنى ما الّذي يعنيه من وصف الخزنة بأنّهم تسعة عشر ؟ فهذه العدّة القليلة كيف تقوى على تعذيب أكثر الثقلين من الجنّ والإنس ؟

(ذنابة لما تقدم من الكلام في النفاق)

ذكر بعضهم أنّ قوله تعالى : « وليقول الّذين في قلوبهم مرض » الآية ـ بناء على أنّ السورة بتمامها مكّيّة ، وأنّ النفاق إنّما حدث بالمدينة ـ إخبار عمّا سيحدث من المغيّبات بعد الهجرة . انتهى .

أمّا كون السورة بتمامها مكّيّة فهو المتعيّن من طريق النقل وقد ادّعي عليه إجماع المفسّرين، وما نقل عن مقاتل أنّ قوله : « وما جعلنا أصحاب النار إلّا ملائكة» الآية مدنيّ لم يثبت من طريق النقل ، وعلى فرض الثبوت هو قول نظري مبنيّ على حدوث النفاق بالمدينة والآية تخبر عنه .

وأمّا حديث حدوث النفاق بالمدينة فقد أصرّ عليه بعضهم محتجّاً عليه بأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله والمسلمين لم يكونوا قبل الهجرة من القوّة ونفوذ الأمر وسعة الطول بحيث يهابهم الناس أو يرجى منهم خير حتّى يتّقوهم ويظهروا لهم الإيمان ويلحقوا بجمعهم مع إبطان الكفر وهذا بخلاف حالهم بالمدينة بعد الهجرة .

والحجّة غير تامّة ـ كما أشرنا إليه في تفسير سورة المنافقون في كلام حول النفاق ـ فإنّ علل النفاق ليست تنحصر في المخافة والاتّقاء أو الاستدرار من خير معجّل فمن علله الطمع ولو في نفع مؤجّل ومنها العصبيّة والحميّة ومنها استقرار العادة ومنها غير ذلك .

ولا دليل على انتفاء جميع هذه العلل عن جميع من آمن بالنبيّ صلى الله عليه وآله بمكّة قبل الهجرة ، وقد نقل عن بعضهم أنّه آمن ثمّ رجع أو آمن عن ريب ثمّ صلح .

على أنّه تعالى يقول : « ومن الناس من يقول آمنّا بالله فإذا اُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربّك ليقولنّ إنّا كنّا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين وليعلمنّ الله الّذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين » العنكبوت : ١١ .

والآيتان في سورة مكّيّة وهي سورة العنكبوت ، وهما ناطقتان بوجود النفاق فيها ومع الغضّ عن كون السورة مكّيّة فاشتمال الآية على حديث الإيذاء في الله

والفتنة أصدق شاهد على نزول الآيتين بمكّة فلم يكن بالمدينة إيذاء في الله وفتنة ، واشتمال الآية على قوله : « ولئن جاء نصر من ربّك » الخ لايدلّ على النزول بالمدينة فللنصر مصاديق اُخرى غير الفتح المعجّل .

واحتمال أن يكون المراد بالفتنة ما وقعت بمكّة بعد الهجرة غير ضائر فإنّ هؤلاء المفتونين بمكّة بعد الهجرة إنّما كانوا من الّذين آمنوا بالنبيّ ﷺ قبل الهجرة وإن اُوذوا بعدها .

و على مثل ذلك ينبغي أن يحمل قوله تعالى : « و من الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأنّ به و إن أصابته فتنة انقلب على وجهه » الحجّ : ١١ إن كان المراد بالفتنة العذاب و إن كانت السورة مدنيّة .

☆☆☆

و قوله : « كذلك يضلّ الله من يشاء و يهدي من يشاء » الإشارة بذلك إلى مضمون قوله : « وما جعلنا عدّتهم إلاّ فتنة » الخ .

وقوله : « ومايعلم جنود ربّك إلاّ هو » علّق تعالى العلم المنفيّ بالجنود ـ وهي الجموع الغليظة الّتي خلقهم وسائط لاجراء أوامره ـ لابخصوص عدّتهم فأفاد بإطلاقه أنّ العلم بحقيقتهم و خصوصيّات خلقتهم وعدّتهم ومايعملونه من عمل ودقائق الحكمة في جميع ذلك يختصّ به تعالى لا يشاركه فيه أحد ، فليس لأحد أن يستقلّ عدّتهم أو يستكثر أو يطعن في شيء ممّا يرجع إلى صفاتهم وهو جاهل بها .

و قوله : « و ما هي إلاّ ذكرى للبشر » الضمير راجع إلى ما تقدّم من قوله : « عليها تسعة عشر » وتأنيثه لتأنيث الخبر ، والمعنى أنّ البشر لا سبيل لهم إلى العلم بجنود ربّك وإنّما أخبرنا عن خزنة النار أنّ عدّتهم تسعة عشر ليكون ذكرى لهم يتّعظون بها .

و قيل : الضمير للجنود ، وقيل : لسقر ، وقيل : للسورة ،و قيل : لنار الدنيا و هو أسخف الأقوال .

و في الآية دلالة على أنّ الخطابات القرآنيّة لعامّة البشر .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « فاذا نقر في الناقور - إلى قوله - وحيداً » فإنها نزلت في الوليد بن المغيرة وكان شيخاً كبيراً مجرّباً من دهاة العرب ، وكان من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

و كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقعد في الحجر و يقرء القرآن فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة فقالوا : يا أبا عبدشمس ما هذا الّذي يقول محمد ؟ أشعر هو أم كهانة أم خطب ؟ فقال : دعوني أسمع كلامه فدنا من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد أنشدني من شعرك . قال : ما هو شعر ولكنّه كلام الله الّذي ارتضاه لملائكته و أنبيائه و رسله فقال : اُتل عليّ منه شيئاً !

فقرء عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حمّ السجدة فلمّا بلغ قوله : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود » قال : فاقشعرّ الوليد و قامت كلّ شعرة في رأسه و لحيته ، و مرّ إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك .

فمشوا إلى أبي‌جهل فقالوا : يا أبا الحكم إنّ أبا عبدشمس صبا إلى دين محمد أما تراه لم يرجع إلينا فغدا أبوجهل إلى‌الوليد فقال : يا عمّ نكست رؤسنا وفضحتنا و أشمتّ بنا عدوّنا و صبوت إلى دين‌محمد: فقال : ما صبوت إلى دينه و لكنّي سمعت كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود فقال له أبوجهل : أخطب هو ؟ قال : لا إنّ الخطب كلام متّصل و هذا كلام منثور و لا يشبه بعضه بعضاً . قال : أفشعر هو ؟ قال : لا أما إنّي‌لقد سمعت أشعار العرب بسيطها و مديدها ورملها ورجزها و ما هو بشعر . قال : فما هو ؟ قال : دعني اُفكّر فيه .

فلمّا كان من‌الغد قالوا له : يا أعبدشمس‌ما تقول فيما قلناه ؟ قال : قولوا : هو سحر فانّه آخذ بقلوب الناس فأنزل على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك : « ذرني ومن خلقت وحيداً » .

و إنّما سمّي وحيداً لأنّه قال لقريش : أنا أتوحّد لكسوة البيت سنة وعليكم في جماعتكم سنة ، و كان له مال كثير و حدائق ، و كان له عشر بنين بمكّة ، وكان له عشرة عبيد عند كلّ عبد ألف دينار يتّجربها و تلك القنطار في ذلك الزمان ، ويقال : إنّ القنطار جلد ثور مملوّ ذهباً .

و في الدرّ المنثور أخرج الحاكم و صحّحه والبيهقيّ في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس أنّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرء عليه القرآن فكأنّه رقّ له فبلغ ذلك أباجهل فأتاه فقال : يا عمّ إنّ قومك يريدون أن يجعلوا لك مالاً ليعطوه لك فانّك أتيت محمّداً لتصيب ممّا عنده . قال: قد علمت قريش أنّي من أكثرها مالاً .

قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنّك منكر أو أنّك كاره له ، قال : و ما ذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منّي لا برجزه و لا بقصيده ولا بأشعار الجنّ والله ما يشبه الّذي يقول شيئاً من هذا ، و والله إنّ لقوله الّذي يقوله حلاوة و إنّ عليه لطلاوة ، و إنّه لمثمر أعلاه ، و مغدق أسفله ، و إنّه ليعلو و لا يعلى ، و إنّه ليحطم ما تحته .

قال : لا يرضى عنك قومك حتّى تقول فيه قال : دعني حتّى اُفكّر فلمّا فكّر قال ما هو إلّا سحر يؤثر يأثره عن غيره فنزلت : « ذرني و من خلقت وحيداً » .

و في المجمع روى العيّاشيّ بإسناده عن زرارة و حمران و محمّد بن مسلم عن أبي عبدالله وأبي جعفر عليهما السلام أنّ الوحيد ولد الزنا . قال زرارة : ذكر لأبي جعفر عليه السلام عن أحد بني هشام أنّه قال في خطبته : أنا ابن الوحيد فقال : ويله لو علم ما الوحيد ما فخر بها فقلنا له : و ما هو ؟ قال : من لا يعرف له أب .

و في الدرّ المنثور أخرج أحمد وابن المنذر والترمذيّ و ابن أبي الدنيا في صفة النار و ابن جرير و ابن أبي حاتم وابن حبّان والحاكم و صحّحه والبيهقي في البعث

عن أبي‌سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ قال : الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثمّ يهوى و هو كذلك فيه أبداً .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « ثمّ عبس » قال : عبس وجهه «وبسر» قال : ألقى شدقه [1] .



(١) زاوية الفم .

✩ ✩ ✩

كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)

﴿ بيان ﴾

في الآيات تنزيه للقرآن الكريم عمّا رموه به ، وتسجيل أنّه إحدى الآيات الإلهيّة الكبرى فيه إنذار البشر كافّة وفي اتّباعه فكّ نفوسهم عن رهانة أعمالهم التي تسوقهم إلى سقر .

قوله تعالى : «كلاّ» ردع وإنكار لما تقدّم قال في الكشّاف : إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن يكون لهم ذكرى لأنّهم لا يتذكّرون ، أو ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيراً . انتهى فعلى الأوّل إنكار لما تقدّم وعلى الثاني ردع لما سيأتي ، وهناك وجه آخر سيوافيك .

قوله تعالى : «والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر» قسم بعد قسم ، وإدبار الليل مقابل إقباله ، وإسفار الصبح انجلاؤه وانكشافه .

قوله تعالى : «إنّها لإحدى الكبر» ذكروا أنّ الضمير لسقر ، والكبر جمع كبرى ، والمراد بكون سقر إحدى الكبر أنّها إحدى الدواهي الكبر لايعادلها غيرهامن الدواهي كما يقال : هو أحد الرجال أي لانظير له بينهم ، والجملة جواب للقسم .

و المعنى اُقسم بكذا وكذا إنّ سقر لإحدى الدواهي الكبر ـ أكبرها ـ إنذاراً للبشر .

ولا يبعد أن يكون «كلاّ» ردعاً لقوله في القرآن : «إن هو إلاّ سحر يؤثر إن هذا إلاّ قول البشر» ويكون ضمير «إنّها» للقرآن بما أنّه آيات أو من باب مطابقة اسم إنّ لخبرها .

والمعنى ليس كما قال اُقسم بكذا وكذا إنّ القرآن ـ آياته ـ لإحدى الآيات الإلهيّة الكبرى إنذاراً للبشر .

وقيل : الجملة «إنّها لإحدى الكبر» تعليل للردع ، والقسم معترض للتأكيد لاجواب له أوجوابه مقدّر يدلّ عليه كلاّ .

قوله تعالى : «نذيراً للبشر» مصدر بمعنى الإنذار منصوب للتمييز ، وقيل : حال ممّا يفهم من سياق قوله : «إنّها لإحدى الكبر» أي كبرت وعظمت حالكونها إنذاراً أي منذرة .

وقيل فيه وجوه اُخر لايعبأبها كقول بعضهم : إنّه صفة للنبيّ ﷺ والآية متّصلة بأوّل السورة والتقدير قم نذيراً للبشرفأنذر ، وقول بعضهم : صفة لهتعالى .

قوله تعالى : «لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخّر» تعميم للإنذار «ولمن شاء» بدل من البشر ، و «أن يتقدّم» الخ مفعول « شاء » والمراد بالتقدّم والتأخّر الاتّباع للحقّ ومصداقه الإيمان والطاعة ، وعدم الاتّباع ومصداقه الكفر والمعصية .

والمعنى نذيراً لمناتّبعمنكم الحقّ ولمن لميتّبعأي لجميعكممن غيراستثناء .

وقيل : «أن يتقدّم» في موضع الرفع على الابتداء و «لمن شاء» خبره كقولك لمن توضّأ أن يصلّي ، والمعنى مطلق لمنشاء التقدّم أوالتأخّرأنيتقدّم أويتأخّر ، و

هو كقوله : «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» والمراد بالتقدّم والتأخّر السبق إلى الخير والتخلّف عنه . انتهى .

قوله تعالى : «كلّ نفس بما كسبت رهينة» الباء بمعنى مع أو للسببيّة أو للمقابلة و «رهينة» بمعنى الرهن على ما ذكره الزمخشريّ قال في الكشّاف : رهينة ليست بتأنيث رهين في قوله : «كلّ امرىء بما كسب رهين» لتأنيث النفس لأنّه لو قصدت لقيل : رهين لأنّ فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكّر والمؤنّث ، وإنّما هي اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كأنّه قيل : كلّ نفس بما كسبت رهن . انتهى .

وكأنّ العناية في عدّ كلّ نفس رهينة أنّ لله عليها حقّ العبوديّة بالإيمان و العمل الصالح فهي رهينة محفوظة محبوسة عند الله حتّى توفّي دينه وتؤدّي حقّه تعالى فإن آمنت وصلحت فكّت واُطلقت ، وإن كفرت وأجرمت وماتت على ذلك كانت رهينة محبوسة دائما ، وهذا غير كونها رهين عملها ملازمة لما اكتسبت من خير و شرّ كما تقدّم في قوله تعالى : «كلّ امرىء بماكسب رهين» الطور : ٢١ .

والآية في مقام بيان وجه التعميم المستفاد من قوله : «نذيراً للبشر لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخّر» فإنّ كون النفس الإنسانيّة رهينة بماكسبت يوجب على كلّ نفس أن تتّقي النار الّتي ستحبس فيها إن أجرمت ولم تتّبع الحقّ .

قوله تعالى : «إلاّ أصحاب اليمين» هم الّذين يؤتون كتابهم بأيمانهم يوم الحساب وهم أصحاب العقائد الحقّة و الأعمال الصالحة من متوسّطي المؤمنين ، وقد تكرّر ذكرهم وتسميتهم بأصحاب اليمين في مواضع من كلامه تعالى ، وعلى هذا فالاستثناء متّصل .

والمتحصّل من مجموع المستثنى منه والمستثنى انقسام النفوس ذوات الكسب إلى نفوس رهينة بماكسبت وهي نفوس المجرمين ، ونفوس مفكوكة من الرهن مطلقة وهي نفوس أصحاب اليمين ، وأمّا السابقون المقرّبون وهم الّذين ذكرهم الله في مواضع من كلامه وعدّهم ثالثة الطائفتين وغيرهما كما في قوله تعالى : «وكنتم أزواجاً ثلاثة

- إلى أن قال - والسابقون السابقون اُولئك المقرّبون » الواقعة : ١١ ، فهؤلاء قد استقرّوا في مستقرّ العبوديّة لا يملكون نفساً و لا عمل نفس فنفوسهم لله و كذلك أعمالهم فلايحضرون ولا يحاسبون قال تعالى : « فانّهم لمحضرون إلاّ عباد الله المخلصين » الصافّات : ١٢٨ فهم خارجون عن المقسم رأساً .

وعن بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالملائكة ، وعن بعضهم التفسير بأطفال المسلمين وعن بعضهم أنّهم الّذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق ، وعن بعضهم أنّهم الّذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وهي وجوه ضعيفة غير خفيّة الضعف .

قوله تعالى : «في جنّات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر» «في جنّات» خبر لمبتدء محذوف وتنوين جنّات للتعظيم، والتقدير هم في جنّات لا يدرك وصفها ، ويمكن أن يكون حالا من أصحاب اليمين .

وقوله : «يتساءلون عن المجرمين » أي يتساءل جمعهم عن جمع المجرمين .

وقوله : «ما سلككم في سقر» أي ما أدخلكم في سقر بيان لتساؤلهم من بيان الجملة بالجملة ، أو بتقدير القول أي قائلين ما سلككم في سقر .

قوله تعالى : «قالوا لم نك من المصلّين» ضمير الجمع للمجرمين ، والمراد بالصلاة التوجّه العبادي الخاصّ إلى الله سبحانه فلا يضرّه اختلاف الصلاة كمّاً وكيفاً باختلاف الشرائع السماويّة الحقّة .

قوله تعالى : « ولم نك نطعم المسكين » المراد بإطعام المسكين الانفاق على فقراء المجتمع بما يقوم به صلبهم ويرتفع به حاجتهم ، وإطعام المسكين إشارة إلى حقّ الناس عملاً كما أنّ الصلاة إشارة إلى حقّ الله كذلك .

قوله تعالى : «وكنّا نخوض مع الخائضين » المراد بالخوض الاشتغال بالباطل قولاً أو فعلاً والغور فيه .

قوله تعالى : «وكنّا نكذّب بيوم الدين» وهو يوم الجزاء فهذه خصال أربع من طبع المجرم أن يبتلي بها كلاّ أو بعضاً ، و لمّا كان المجيب عن التساؤل جمع المجرمين صحّت نسبة الجميع إلى الجميع و إن كان بعضهم مبتلى ببعضها دون بعض .

قوله تعالى : «حتّى أتانا اليقين» قيد للتكذيب، وفسّروا اليقين بالموت لكونه ممّا لاشكّ فيه فالمعنى وكنّا في الدنيا نكذّب بيوم الجزاءِ حتّى أتانا الموت فانقطعت به الحياة الدنيا أي كنّا نكذّب به ما دامت الحياة .

وقيل : المراد به اليقين الحاصل بحقّيّة يوم الجزاء بمشاهدة آيات الآخرة و معاينة الحياة البرزخيّة حين الموت وبعده ، وهو معنى حسن .

قوله تعالى : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين» تقدّم في بحث الشفاعة أنّ في الآية دلالة على أنّ هناك شافعين يشفعون فيشفّعون لكن لاتنفع هؤلاءِ شفاعتهم لأنّهم محرومون من نيلها .

وقد أوردنا جملة من أخبار الشفاعة في الجزء الأوّل من الكتاب .



✩✩✩

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٣) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٤) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) .

﴿ بيان ﴾

في معنى الاستنتاج ممّا تقدّم من الوعيد والوعد اُورد في صورة التعجّب من إعراضهم عن تذكرة القرآن و تنفّرهم عن الحقّ الصريح كأنّه قيل : فاذا كان كذلك فعليهم أن يجيبوا دعوة الحقّ و يتذكّروا بالتذكرة فمن العجب أنهم معرضون عن ذلك كلاّ بل لا يؤمنون بالرسالة و يريد كلّ امرىء منهم أن ينزل عليه كتاب من الله . كلاّ بل لا يخافون الآخرة فلا يرتدعون عن وعيد .

ثمّ يعرض عليهم التذكرة عرضاً فهم على خيرة من القبول والردّ فان شاءوا قبلوا و إن شاؤاردّوا ، لكن عليهم أن يعلموا أنّهم غير مستقلّين في مشيّتهم و ليسوا بمعجزين لله سبحانه فليس لهم أن يذكروا إلاّ أن يشاء الله ، و حكم القدر جار فيهم البتّة .

قوله تعالى « فما لهم عن التذكرة معرضين » تفريع على ما تقدّم من التذكرة والموعظة ، والاستفهام للتعجيب ، و « لهم » متعلّق بمحذوف والتقدير فما كان لهم : و « معرضين » حال من ضمير « لهم » و « عن التذكرة » متعلّق بمعرضين .

والمعنى فاذا كان كذلك فأيّ شيء كان ـ عرض ـ للمشركين الّذين يكذّبون بتذكرة القرآن حالكونهم معرضين عنها أي كان من الواجب عليهم أن يصدّقوا و يؤمنوا لكنّهم أعرضوا عنها و هو من العجب .

قوله تعالى : « كأنّهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة » تشبيه لهم من حيث حالهم في الإعراض عن التذكرة،والحمر جمع حمار ، والمراد الحمر الوحشيّة والاستنفار بمعنى النفرة والقسورة الأسد والصائد ، و قد فسّر بكلّ من المعنيين .

والمعنى معرضين عن التذكرة كأنّهم حمر وحشيّة نفرت من أسد أو من الصائد .

قوله تعالى : « بل يريد كلّ امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة » المراد بالصحف المنشّرة الكتاب السماويّ المشتمل على الدعوة الحقّة .

وفي الكلام إضراب عمّا ذكر من إعراضهم ، والمعنى ليس إعراضهم عن التذكرة لمجرّد النفرة بل يريد كلّ امريء منهم أن ينزّل عليه كتاب من عند الله مشتمل على ما تشتمل عليه دعوة القرآن .

و هذه النسبة إليهم كناية عن استكبارهم على الله سبحانه أنّهم إنّما يقبلون دعوته ولا يردّونها لو دعا كلّ واحد منهم بإنزال كتاب سماويّ إليه مستقلاّ و أمّا الدعوة من طريق الرّسالة فليسوا يستجيبونها و إن كانت حقّة مؤيّدة بالآيات البيّنة .

فالآية في معنى ما حكاه الله سبحانه من قولهم : « لن نؤمن حتّى نؤتى مثل ما اُوتي رسل الله » الأنعام : ١٢٤ ، و في معنى قول الاُمم لرسلهم : « إن أنتم إلاّ بشر مثلنا » على ما قرّرنا من حجّتهم على نفي رسالة الرسل .

وقيل : إنّ الآية في معنى قولهم للنبيّ ﷺ الّذي حكاه الله في قوله : « و لن نؤمن لرقيّك حتّى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه » أسرى : ٩٣.

و يدفعه أنّ مدلول الآية أن ينزل على كلّ واحد منهم صحف منشّرة غير ما ينزل على غيره لا نزول كتاب واحد من السماء على النبيّ ﷺ يقرؤه الجميع كما هو مدلول آية الإسراء .

و قيل : المراد نزول كتب من السماء عليهم بأسمائهم أن آمنوا بمحمّد صلّى الله عليه و آله .

و قيل : المراد أن ينزل عليهم كتب من السماء بالبراءة من العذاب و إسباغ النعمة حتّى يؤمنوا و إلّا بقوا على كفرهم و قيل غير ذلك .

و هي جميعاً معان بعيدة من السياق والتعويل على ما تقدّم .

قوله تعالى : « كلّا بل لا يخافون الآخرة » ردع لهم بما يريدونه من نزول كتاب سماويّ على كلّ واحد منهم فإنّ دعوة الرسالة مؤيّدة بآيات بيّنة و حجج قاطعة لا تدع ريباً لمرتاب فالحجّة تامّة قائمة على الرسول و غيره على حدّ سواء من غير حاجة إلى أن يؤتى كلّ واحد من الناس المدعوّين صحفاً منشّرة .

على أنّ الرسالة تحتاج من طهارة الذات وصلاحيّة النفس إلى ما يفقده نفوس سائر الناس كما هو مدلول جوابه تعالى في سورة الأنعام عن قولهم : « لن نؤمن حتّى نؤتى مثل ما اُوتي رسل الله » بقوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

و قوله : « بل لا يخافون الآخرة » إضراب عن قوله : « يريد كلّ امرىء منهم » الخ والمراد أنّ اقتراحهم نزول كتاب على كلّ امرىء منهم قول ظاهريّ منهم يريدون به صرف الدعوة عن أنفسهم ، والسبب الحقيقيّ لكفرهم و تكذيبهم بالدعوة أنّهم لا يخافون الآخرة ، و لو خافوها لآمنوا و لم يقترحوا آية بعد قيام الحجّة بظهور الآيات البيّنات .

قوله تعالى : « كلّا إنّه تذكرة » ردع ثان لاقتراحهم نزول كتاب سماويّ لكلّ امرىء منهم ، والمعنى لا ننزل كتاباً كذلك إنّ القرآن تذكرة و موعظة نعظهم به لا نريد به أزيد من ذلك ، و أثر ذلك ما أعدّ للمطيع والعاصي عندنا من الجزاء .

قوله تعالى « فمن شاء ذكره » أي فمن شاء اتّعظ به فإنّما هي دعوة في ظرف الاختيار من غير إكراه .

قوله تعالى : « وما يذكرون إلّا أن يشاء الله هو أهل التقوى و أهل المغفرة » دفع لما يمكن أن يتوهّموه من قوله تعالى : « فمن شاء ذكره » أنّ الأمر إليهم وأنّهم

مستقلّون في إرادتهم و ما يترتّب عليها من أفعالهم فإن لم يشاؤوا الذكر و لم يذكروا غلبوه تعالى فيما أراد و أعجزوه فيما شاء من ذكرهم .

والمحصّل من الدفع أنّ حكم القدر جار في أفعالهم كغيرها من الحوادث ، وتذكّرهم إن تذكّروا و إن كان فعلاً اختيارياً صادراً عنهم باختيارهم من غير إكراه فالمشيّة الالهيّة متعلّقة به بماهو اختياريّ بمعنى أنّ الله تعالى يريد بارادة تكوينيّة أن يفعل الانسان الفعل الفلانيّ بإرادته واختياره فالفعل اختياريّ ممكن بالنسبة إلى الإنسان و هو بعينه متعلّق الارادة الالهيّة ضروريّ التحقّق بالنسبة إليها و لولاها لم يتحقّق .

و قوله : « هو أهل التقوى و أهل المغفرة » أي هو أهل لأن يتّقى منه لأنّ له الولاية المطلقة على كلّ شيء ، و بيده سعادة الإنسان وشقاوته ، و أهل لأن يغفر لمن اتّقاه لأنّه غفور رحيم .

والجملة أعني قوله : « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » صالحة لتعليل ماتقدّم من الدعوة في قوله : « إنّه تذكرة فمن شاء ذكره » وهو ظاهر ، ولتعليل قوله : « وما يذكرون إلّا يشاء الله » فانّ كونه تعالى أهل التقوى وأهل المغفرة لا يتمّ إلّا بكونه ذا إرادة نافذة فيهم سارية في أعمالهم فليسوا بمخلّين و ما يهوونه و هم معجزون لله بتمرّدهم واستكبارهم .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « بل يريد كلّ امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة » وذلك أنّهم قالوا : يا محمّد قد بلغنا أنّ الرجل من بني إسرائيل كان يذنب الذنب فيصبح وذنبه مكتوب عند رأسه و كفّارته .

فنزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : يسألك قومك سنّة بني إسرائيل

في الذنوب فإن شاءوا فعلنا ذلك بهم وأخذناهم بماكنّا نأخذ بني اسرائيل فزعموا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كره ذلك لقومه .

اقول: و القصّة لا تلائم لحن الآية و الرواية لا تخلو من إيماء إلى ضعف القصّة .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر عن السدّيّ عن أبي صالح قال : قالوا : إن كان محمّد صادقاً فليصبح تحت رأس كلّ رجل منّا صحيفة فيها براءته وأمنته من النار فنزلت : « بل يريد كلّ امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة » .

اقول: سياق الآيات وما فيها من الردع لا يلائم القصّة .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد « بل يريد كلّ امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة» قال : إلى فلان بن فلان من ربّ العالمين يصبح عند رأس كلّ رجل صحيفة موضوعة يقرؤها .

اقول : ما في الرواية يقبل الانطباق على الرواية السابقة وعلى ما قدّمناه من معنى الآية .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله تعالى : «بل يريد كلّ امريء منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة» قال : قد قال قائلون من الناس لمحمّد صلى الله عليه وآله : إن سرّك أن نتابعك فأتنا بكتاب خاصّة يأمرنا باتّباعك .

أقول : الرواية قابلة التطبيق لما في تفسير الآية من القول بأنّ الآية في معنى قوله تعالى : « ولن نؤمن لرقيّك» الآية وقد تقدّم مافيه .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : «هو أهل التقوى وأهل المغفرة» قال : هو أهل أن يتّقى وأهل أن يغفر .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : «هو أهل التقوى وأهل المغفرة» قال : قال الله عزّ وجلّ : أنا أهل أن اُتّقى ولا يشرك بي عبدي شيئاً وأنا أهل إن لم يشرك بي عبدي شيئاً أن اُدخله الجنّة .

وقال : إنّ الله تبارك و تعالى أقسم بعزّته وجلاله أن لا يعذّب أهل توحيده بالنار .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن عبدالله بن دينار قال : سمعت أباهريرة وابن عمر وابن عبّاس يقولون : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله : «هو أهل التقوى وأهل المغفرة» قال : يقول الله : أنا أهل أن اُتّقى فلا يُجعل معي شريك فإذا اتّقيت ولم يُجعل معي شريك فأنا أهل أن أغفر ماسوى ذلك .

أقول : وفي معناه غير واحد من الروايات عنه صلى الله عليه وآله وسلم .



﴿سورة القيامة مكّيّة وهي أربعون آية﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيٰمَةِ (١) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْانْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (٣) بَلىٰ قادِرِينَ عَلىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْانْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (٥) يَسْئَلُ أَيّانَ يَوْمُ الْقِيٰمَةِ (٦) فَاذا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْانْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلّا لا وَزَرَ (١١) الىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُا الْانْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْانْسانُ عَلىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقىٰ مَعاذِيرَهُ (١٥) .

﴿ بيان ﴾

يطوف بيان السورة حول القيامة الكبرى فتنبىء بوقوع يوم القيامة أوّلاً ثمّ تصفه ببعض أشراطه تارة، وبإجمال ما يجري على الإنسان اُخرى، وينبىء أنّ المساق إليه يبدء من يوم الموت، وتختتم بالاحتجاج على القدرة على الإعادة بالقدرة على الابتداء.

والسورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: «لا اُقسم بيوم القيامة» إقسام بيوم القيامة سواء قيل بكون «لا اُقسم» كلمة قسم أو بكون لا زائدة أو نافية على اختلاف الأقوال.

قوله تعالى: «ولا اُقسم بالنفس اللوّامة» إقسام ثان على ما يقتضيه السياق ومشاكلة اللفظ فلا يعبأ بما قيل: أنّه نفي الإقسام وليس بقسم، والمراد اُقسم بيوم

القيامة ولا اُقسم بالنفس اللوّامة .

والمرادبالنفس اللوّامة نفس المؤمن الّتي تلومه فيالدنيا على المعصية والتثاقل في الطاعة وتنفعه يوم القيامه .

وقيل : المراد به النفس الا نسانيّة أعمّ من المؤمنة الصالحة والكافرة الفاجرة فا نّها تلوم الا نسان يوم القيامة أمّا الكافرة فا نّها تلومه على كفره وفجوره ، وأمّا المؤمنة فا نّها تلومه على قلّة الطاعة وعدم الاستكثارمن الخير .

وقيل : المراد نفسالكافر الّتي تلومه يوم القيامة على ما قدّمتمن كفر ومعصية قال تعالى : «وأسرّوا الندامة لمّا رأوا العذاب» يونس : ٥٤ .

ولكلّ من الأقوال وجه .

وجواب القسم محذوف يدلّ عليه الآيات التالية ، والتقدير ليبعثنّ ، وإنّما حذف للدلالة على تفخيم اليوم وعظمة أمره قال تعالى : «ثقلت في السماوات والأرض لاتأتيكم إلّابغتة» الأعراف : ١٨٧ ، وقال : « إنّ الساعة آتية أكاد اُخفيها لتجزى كلّ نفس بما تسعى» طه : ١٥ ، وقال : «عمّ يتساءلون عن النباء العظيم» النباء : ٢ .

قوله تعالى : «أيحسب الا نسان أن لن نجمع عظامه» الحسبان الظنّ ، وجمع العظام كناية عن الاحياء بعد الموت ، والاستفهام للتوبيخ ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : «بلى قادرين على أننسوّي بنانه» أي بلى نجمعها ، «وقادرين» حال من فاعل مدخول بلى المقدّر ، والبنان أطراف الأصابع وقيل : الأصابع ، و تسوية البنان تصويرها على ماهي عليها من الصور ، والمعنى بلى نجمعها والحال أنّا قادرون على أن نصوّر بنانه على صورها الّتي هي عليها بحسب خلقنا الأوّل .

وتخصيص البنان بالذكر ـ لعلّه ـ للاشارة إلى عجيب خلقها بمالها منالصور وخصوصيّات التركيب والعدد تترتّب عليها فوائد جمّة لا تكاد تحصى من أنواع القبض والبسط والأخذ والردّ وسائر الحركات اللطيفة والأعمال الدقيقة والصنائع الظريفة الّتي يمتاز بها الا نسان من سائر الحيوان مضافاً إلى ما عليها من الهيئآت والخطوط الّتي لا يزال ينكشف للانسان منها سرّ بعد سرّ .

وقيل : المراد بتسوية البنان جعل أصابع اليدين والرجلين مستوية شيأ واحداً من غير تفريق كخفّ البعير وحافر الحمار والمعنى قادرين على أن نجعلها شيأ واحداً فلا يقدر الإنسان حينئذ على ما يقدر عليه مع تعدّد الأصابع من فنون الأعمال ، والوجه المتقدّم أرجح .

قوله تعالى : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه » قال الراغب : الفجر شقّ الشيء شقّاً واسعاً . قال : والفجور شقّ ستر الديانة يقال : فجر فجوراً فهو فاجر وجمعه فجّار وفجرة . انتهى ، و « أمام » ظرف مكان استعير لمستقبل الزمان ، والمراد من فجوره أمامه فجوره مدى عمره وما دام حيّاً ، وضمير « أمامه » للإنسان .

وقوله : « ليفجر أمامه » تعليل سادّ مسدّ معلّله وهو التكذيب بالبعث والاحياء بعد الموت ، و « بل » إضراب عن حسبانه عدم البعث والاحياء بعد الموت .

والمعنى أنّه لا يحسب أن لن نجمع عظامه بل يريد أن يكذّب بالبعث ليفجر مدى عمره إذ لا موجب للإيمان والتقوى لو لم يكن هناك بعث للحساب والجزاء .

هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية ، ولهم وجوه اُخر ذكروها في معنى الآية بعيدة لا تلائم السياق أغمضنا عن ذكرها .

وذكر الإنسان في الآية من وضع الظاهر موضع الضمير والنكتة فيه زيادة التوبيخ والمبالغة في التقريع ، وقد كرّر ذلك في الآية وما يتلوها من الآيات أربع مرّات .

قوله تعالى : « يسأل أيّان يوم القيامة » الظاهر أنّه بيان لقوله : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه » فيفيد التعليل وأنّ السائل في مقام التكذيب والسؤال سؤال تكذيب إذ من الواجب على من دعي إلى الإيمان والتقوى ، واُنذر بهذا النباء العظيم مع دلالة الآيات البيّنة وقيام الحجج القاطعة أن يتّخذ حذره ويتجهّز بالإيمان والتقوى ويتهيّأ للقاء اليوم قريباً كان أو بعيداً فكلّ ما هو آت قريب لا أن يسأل متى تقوم الساعة ؟ وأيّان يوم القيامة ؟ فليس إلّا سؤال مكذّب مستهزىء .

قوله تعالى : « فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر » ذكر

جملة من أشراط الساعة ، وبريق البصر تحيّره في إبصاره ودهشته ، وخسوف القمر زوال نوره .

قوله تعالى : « يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ » أي أين موضع الفرار ، وقوله : « أين المفرّ » مع ظهور السلطنة الإلهيّة له وعلمه بأن لا مفرّ ولا فرار يومئذ من باب ظهور ملكاته يومئذ فقد كان في الدنيا يسأل عن المفرّ إذا وقع في شدّة أوهدّدته مهلكة وذلك كإنكارهم الشرك يومئذ وحلفهم كذباً قال تعالى : « ثمّ لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين » الانعام : ٢٣ ، وقال : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم » المجادلة : ١٨ .

قوله تعالى : « كلاّ لا وزر » ردع عن طلبهم المفرّ ، والوزر الملجأ من جبل أو حصن أو غيرهما ، وهو من كلامه تعالى لا من تمام كلام الإنسان .

قوله تعالى : « إلى ربّك يومئذ المستقرّ » الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله ، وتقديم « إلى ربّك » وهو متعلّق بقوله : « المستقرّ » يفيد الحصر فلا مستقرّ إلى غيره فلا وزر ولا ملجأ يلتجأ إليه فيمنع عنه .

وذلك أنّ الإنسان سائر إليه تعالى كما قال : « يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه » الانشقاق : ٦ وقال : « إنّ إلى ربّك الرجعى » العلق : ٨ وقال : « وأنّ إلى ربّك المنتهى » النجم : ٤٢ فهو ملاقي ربّه راجع و منته إليه لا حاجب يحجبه عنه ولا مانع يمنعه منه وأمّا الحجاب الّذي يشير إليه قوله : « كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون » المطففين: ١٥ فسياق الآيتين يعطي أنّ المراد به حجاب الحرمان من الكرامة لا حجاب الجهل أو الغيبة .

ويمكن أن يكون المراد بكون مستقرّه إليه رجوع أمر ما يستقرّ فيه من سعادة أو شقاوة وجنّة أو نار إلى مشيّته تعالى فمن شاء جعله في الجنّة وهم المتّقون ومن شاء جعله في النار وهم المجرمون قال تعالى : « يعذّب من يشاء ويغفر لمن يشاء » المائدة : ٤٠ .

ويمكن أن يراد به أنّ استقرارهم يومئذ إلى حكمه تعالى فهو النافذ فيهم لا غير قال تعالى : «كلّ شيء هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون » القصص:٨٨ .

قوله تعالى : « ينبّؤ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر » المراد بما قدّم وأخّر ما عمله من حسنة أو سيّئة في أوّل عمره وآخره أو ما قدّمه على موته من حسنة أو سيّئة وما أخّر من سنّة حسنة سنّها أو سنّة سيّئة فيثاب بالحسنات ويعاقب على السيّآت .

و قيل : المراد بما قدّم ما عمله من حسنة أو سيّئة فيثاب على الأوّل و يعاقب على الثاني ، و بما أخّر ما تركه من حسنة أو سيّئة فيعاقب على الأوّل و يثاب على الثاني ، و قيل : المراد ما قدّم من المعاصي و ما أخّر من الطاعات ، و قيل : ما قدّم من طاعة الله و أخّر من حقّه فضيّعه، وقيل: ما قدّم من ماله لنفسه و ما ترك لورثته و هي وجوه ضعيفة بعيدة عن الفهم .

قوله تعالى : « بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » إضراب عن قوله : « ينبّؤ الإنسان » الخ ، والبصيرة رؤية القلب والادراك الباطنيّ وإطلاقها على الإنسان من باب زيد عدل أو التقدير الانسان ذو بصيرة على نفسه .

و قيل : المراد بالبصيرة الحجّة كما في قوله تعالى : « ما أنزل هؤلاء إلاّ ربّ السماوات و الارض بصائر » أسرى : ١٠٢ والإنسان نفسه حجّة على نفسه يومئذ حيث يسأل عن سمعه و بصره و فؤاده ويشهد عليه سمعه و بصره وجلده و يتكلّم يداه ورجلاه قال تعالى: « إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ اُولئك كان عنه مسؤلا » اسرى ٣٦ ، و قال : « شهد عليهم سمعهم و أبصارهم و جلودهم» حمٓ السجدة : ٢٠ . و قال : « و تكلّمنا أيديهم و تشهد أرجلهم » يسٓ : ٦٥ .

وقوله : «و لو ألقى معاذيره » المعاذير جمع معذرة و هي ذكر موانع تقطع عن الفعل المطلوب ، والمعنى هو ذو بصيرة على نفسه و لو جادل عن نفسه واعتذر بالمعاذير لصرف العذاب عنها .

و قيل : المعاذير جمع معذار و هو الستر والمعنى و إن أرخى الستور ليخفى ما عمل فانّ نفسه شاهدة عليه و مآل الوجهين واحد .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « و لا اُقسم بالنفس اللّوامة » قال : نفس آدم الّتي عصت فلامها الله عزّ وجلّ .

اقول : و في انطباقها على الآية خفاء .

و فيه في قوله : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه » قال : يقدّم الذنب و يؤخّر التوبة و يقول : سوف أتوب .

و فيه في قوله : « فاذا برق البصر » قال : يبرق البصر فلا يقدر أن يطرف .

و فيه في قوله تعالى : بل الإنسان على نفسه بصيرة و لو ألقى معاذيره » قال : يعلم ما صنع و إن اعتذر .

وفي الكافي باسناده عن عمر بن يزيد قال : إنّي لأتعشّى مع أبي عبدالله عليه السلام و تلا هذه الآية « بل الإنسان على نفسه بصيرة و لو ألقى معاذيره » ثمّ قال : يا ابا حفص ما يصنع الإنسان أن يعتذر إلى الناس بخلاف ما يعلم الله منه ؟ إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول : من أسرّ سريرة ألبسه الله رداها إن خيراً فخير و إن شرّاً فشرٌّ .

و في المجمع و روى العياشيّ باسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً ويستر سيّئاً ؟ أليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنّه ليس كذلك ؟ والله سبحانه يقول : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » إنّ السريرة إذا صلحت قويت العلانية .

أقول : و رواه في اُصول الكافي باسناده عن فضل أبي العبّاس عنه عليه السلام .

و فيه عن العيّاشيّ عن زرارة قال : سألت أباعبدالله عليه السلام ما حدّ المرض الّذي يفطر صاحبه ؟ قال : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » هو أعلم بما يطيق .

أقول : و رواه في الفقيه أيضاً .

☆ ☆ ☆

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَاِذَا قَرَاْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْاٰخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) اِلٰى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ اَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا اِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ اَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) اِلٰى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلّٰى (٣١) وَلٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلّٰى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ اِلٰى اَهْلِهِ يَتَمَطّٰى (٣٣) اَوْلٰى لَكَ فَاَوْلٰى (٣٤) ثُمَّ اَوْلٰى لَكَ فَاَوْلٰى (٣٥) اَيَحْسَبُ الْاِنْسَانُ اَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) اَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنٰى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّٰى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْاُنْثٰى (٣٩) اَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلٰى اَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتٰى (٤٠)

﴿ بيان ﴾

تتمة صفة يوم القيامة باعتبار حال الناس فيه وانقسامهم إلى طائفة ناضرة الوجوه مبتهجين واُخرى باسرة الوجوه عابسين آيسين من النجاة ، والإشارة إلى أنّ هذا

المساق تبتديء من حين نزول الموت ثم الإشارة إلى أن الانسان لا يترك سدى فالّذي خلقه أوّلاً قادر على أن يحييه ثانيا وبه تختتم السورة .

قوله تعالى : «لاتحرّك به لسانك لتعجل به ـ إلى قوله ـ ثمّ إنّ علينا بيانه» الّذي يعطيه سياق الآيات الأربع بما يحفّها من الآيات المتقدّمة والمتأخّرة الواصفة ليوم القيامة أنّها معترضة متضمّن أدباً إلهيّاً كلّف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يتأدّب به حينما يتلقّى مايوحى إليه من القرآن الكريم فلايبادر إلى قراءة مالم يقرء بعد ولايحرّك به لسانه وينصت حتّى يتمّ الوحي .

فالآيات الأربع في معنى قوله تعالى : «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه» طه : ١١٤ .

فالكلام في هذه الآيات يجري مجرى قول المتكلّم منّا أثناء حديثه لمخاطبه إذا بادر إلى تتميم بعض كلام المتكلّم باللفظة واللفظتين قبل أن يلفظ بها المتكلم و ذلك يشغله عن التجرّد للإنصات فيقطع المتكلّم حديثه ويعترض ويقول لا تعجل بكلامي وأنصت لتفقه ما أقول لك ثمّ يمضي في حديثه .

فقوله : «لاتحرّك به لسانك لتعجل به» الخطاب فيه للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، والضميران للقرآن الّذي يوحى إليه أو للوحي والمعنى لاتحرّك بالوحي لسانك لتأخذه عاجلاً فتسبقنا إلي قراءة مالم نقرء بعد فهو كمامرّ في معنى قوله : «ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه» طه : ١١٤

وقوله : «إنّ علينا جمعه وقرآنه» القرآن ههنا مصدر كالفرقان والرجحان ، والضميران للوحي والمعنى لاتعجل به إذ علينا أن نجمع ما نوحيه إليك بضمّ بعض أجزائه إلى بعض وقراءته عليك فلا يفوتنا شيء منه حتّى يحتاج إلى أن تسبقنا إلى قراءة مالم نوحه بعد .

وقيل : المعنى إنّ علينا أن نجمعه في صدرك بحيث لايذهب عليك شيء من معانيه وأن نثبت قراءته في لسانك بحيث تقرأه متى شئت ولا يخلو من بعد .

وقوله : «فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه» أي فإذا أتممنا قراءته عليك وحياً فاتّبع

قراءتناله واقرء بعد تمامها .

وقيل : المراد باتّباع قرآنه اتّباعه ذهناً بالإنصات والتوجّه التامّ إليه وهو معنى لابأس به .

وقيل : المراد فاتّبع في الأوامر والنواهي قرآنه ، وقيل : المراد اتّباعقراءته بالتكرار حتّى يرسخ في الذهن وهما معنيان بعيدان .

وقوله : « ثمّ إنّعلينا بيانه » أي علينا إيضاحه عليك بعد ماكان علينا جمعه و قرآنه فثمّ للتأخير الرتبيّ لأنّ البيان مترتّب على الجمع والقراءة رتبة .

وقيل : المعنى ثمّ إنّ علينا بيانه للناس بلسانك نحفظه في ذهنك عن التغيّر والزوال حتّى تقرأه على الناس .

وقال بعضهم في معنى هذهالآيات إنّالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يحرّك لسانه عندالوحي بما اُلقي إليه من القرآن مخافة أن ينساه فنهي عن ذلك بالآيات واُمر بالإنصات حتّى يتمّ الوحي فضمير « لا تحرّك به » للقرآن أو الوحي باعتبار ما قرء عليه منه لاباعتبار ما لم يقرء بعد .

وفيه أنّه لايلائم سياق الآيات : تلك الملاءمة نظراً إلىما فيها من النهي عن العجل والأمر باتّباع قرآنهتعالىبعد ماقرء ، وكذا قوله : «إنّعلينا جمعه وقرآنه» فذلك كلّه أظهر فيما تقدّم منها في هذا المعنى .

وعن بعضهم فيمعنى هذهالآيات : الّذي أختارهأنّه لميرد القرآن ، وإنّما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة يدلّعلى ذلك ماقبله وما بعده ، وليسفيه شيء يدلّ على أنّه القرآن ولا شيء من أحكام الدنيا .

وفي ذلك تقريع وتوبيخ له حين لاتنفعه العجلة يقول : لا تحرّك لسانك بما تقرأه من صحيفتك الّتي فيها أعمالك يعني اقرء كتابك ولا تعجل فإنّ هذا الّذي هو على نفسه بصيرة إذا رآى سيّآته ضجر واستعجل فيقال له توبيخاً : لاتعجل وتثبّت لتعلم الحجّة عليك فإنّا نجمعها لك فإذا جمعناه فاتّبع ما جمع عليك بالانقياد

لحكمه والاستسلام للتبعة فيه فإنّه لايمكنك إنكاره ثمّ إنّ علينا بيانه لو أنكرت . انتهى .

ويدفعه أنّ المعترضة لاتحتاج في تمام معناها إلى دلالة ممّا قبلها ومابعدها عليه على أنّ مشاكلة قوله : « ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه » في سياقه لهذه الآيات تؤيّد مشاكلتها له في المعنى .

وعن بعضهم أنّ الآيات الأربع متّصلة بما تقدّم من حديث يوم القيامة ، وخطاب «لا تحرّك» للنبيّ صلى الله عليه وآله ، وضمير «به» ليوم القيامة ، والمعنى لا تتفوّه بالسؤال عن وقت القيامة أصلاً ولو كنت غير مكذّب ولا مستهزىء «لتعجل به» أي بالعلم به «إنّ علينا جمعه وقرآنه » أي من الواجب في الحكمة أن نجمع من نجمعه فيه ونوحي شرح وصفه إليك في القرآن « فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه » أي إذا قرأنا ما يتعلّق به فاتّبع ذلك بالعمل بما يقتضيه من الاستعداد له «ثمّ إنّ علينا بيانه» أي إظهار ذلك بالنفخ في الصور انتهى ملخّصاً وهو كما ترى .

وقد تقدّم في تفسير قوله : «ولاتعجل بالقرآن» أنّ هذا النهي عن العجل بالقرآن يؤيّد ما ورد في الروايات أنّ للقرآن نزولاً على النبيّ صلى الله عليه وآله دفعة غير نزوله تدريجاً .

قوله تعالى : «كلاّ بل تحبّون العاجلة وتذرون الآخرة» خطاب للناس وليس من تعميم الخطاب السابق في شيء لأنّ خطاب «لاتحرّك» اعتراضيّ غير مرتبط بشيء من طرفيه .

وقوله : «كلاّ » ردع عن قوله السابق : «يحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه» وقوله : «بل تحبّون العاجلة» ـ أي الحياة العاجلة وهي الحياة الدنيا ـ « وتذرون الآخرة» أي تتركون الحياة الآخرة ، وما في الكلام من الإضراب إضراب عن حسبان عدم الإحياء بعد الموت نظير الإضراب في قوله : «بل يريد الإنسان ليفجر أمامه» .

قوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة» وصف ليوم القيامة بانقسام الوجوه فيه إلى قسمين : ناضرة وباسرة ، ونضرة الوجه واللون والشجر ونحوها ونضارتها

حسنها وبهجتها .

والمعنى نظراً إلى ما يقابله من قوله : « ووجوه يومئذ باسرة » الخ وجوه يوم إذتقوم القيامة حسنة متهلّلة ظاهرة المسرّة والبشاشة قال تعالى : «تعرف في وجوههم نضرة النعيم» المطفّفين : ٢٤ ، وقال : «ولقّاهم نضرة وسروراً» الدهر : ١١ .

وقوله : «إلى ربّها ناظرة» خبر بعد خبر لوجوه ، و «إلى ربّها» متعلّق بناظرة قدّم عليها لإفادة الحصر أو الأهمّيّة .

والمراد بالنظر إليه تعالى ليس هو النظر الحسّيّ المتعلّق بالعين الجسمانيّة المادّيّة الّتي قامت البراهين القاطعة على استحالته في حقّه تعالى بل المراد النظر القلبيّ ورؤية القلب بحقيقة الإيمان على ما يسوق إليه البرهان ويدلّ عليه الأخبار المأثورة عن أهل العصمة عليهم السلام وقد أوردنا شطراً منها في ذيل تفسير قوله تعالى : «قال ربّ أرني أنظر إليك» الأعراف : ١٤٣ ، وقوله تعالى : «ما كذب الفؤاد ما رآى» النجم : ١١ .

فهؤلاء قلوبهم متوجّهة إلى ربّهم لا يشغلهم عنه سبحانه شاغل من الأسباب لتقطّع الأسباب يومئذ ، ولا يقفون موقفاً من مواقف اليوم ولا يقطعون مرحلة من مراحله إلّا والرحمة الإلهيّة شاملة لهم « و هم من فزع يومئذ آمنون » النمل : ٨٩ ولا يشهدون مشهداً من مشاهد الجنّة ولا يتنعّمون بشيء من نعيمها إلّا وهم يشاهدون ربّهم به لأنّهم لا ينظرون إلى شيء ولا يرون شيئاً إلّا من حيث إنّه آية لله سبحانه والنظر إلى الآية من حيث إنّها آية ورؤيتها نظر إلى ذي الآية و رؤية له .

و من هنا يظهر الجواب عمّا اُورد على القول بأنّ تقديم « إلى ربّها » على « ناظرة » يفيد الحصر والاختصاص ، أنّ من الضروريّ أنّهم ينظرون إلى غيره تعالى كنعم الجنّة .

و الجواب أنّهم لمّا لم يحجبوا عن ربّهم كان نظرهم إلى كلّ ما ينظرون إليه إنّما هو بما أنّه آية ، والآية بما أنّها آية لا تحجب ذا الآية ولا تحول بينه و بين

الناظر إليه فالنظر إلى الآية نظر إلى ذي الآية فهؤلاء لا ينظرون في الحقيقة إلّا إلى ربّهم .

و أمّا ما اُجيب به عنه أنّ تقديم « إلى ربّها » لرعاية الفواصل و لو سلّم أنّه للاختصاص فالنظر إلى غيره في جنب النظر إليه لا يعدّ نظراً ، و لو سلّم فالنظر إليه تعالى في بعض الأحوال لا في جميعها .

فلا يخلو من تكلّف التقييد من غير مقيّد على أنّه أسند النظر إلى الوجوه لا إلى العيون أو الأبصار ووجوه أهل الجنّة إلى ربّهم دائماً من غير أن يواجهوا بها غيره .

قوله تعالى : « ووجوه يومئذ باسرة تظنّ أن يفعل بها فاقرة » فسّر البسور بشدّة العبوس والظنّ بالعلم و« فاقرة » صفة محذوفة الموصوف أي فعلة فاقرة ، والفاقرة من فقره إذا أصاب فقار ظهره ، وقيل : من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار .

والمعنى و وجوه يومئذ شديدة العبوس تعلم أنّه يفعل بها فعلة تقصم ظهورها أو تسم اُنوفها بالنار ، واحتمل أن يكون تظنّ خطابا للنبيّ صلى الله عليه وآله بما أنّه سامع والظنّ بمعناه المعروف .

قوله تعالى : « كلاّ إذا بلغت التراقي » ردع عن حبّهم العاجلة و إيثارها على الآخرة كأنّه قيل : ارتدعوا عن ذلك فليس يدوم عليكم وسينزل عليكم الموت فتساقون إلى ربّكم و فاعل « بلغت » محذوف يدلّ عليه السياق كما في قوله تعالى : « فلولا إذا بلغت الحلقوم » الواقعة : ٨٣ والتقدير إذا بلغت النفس التراقي .

والتراقي العظام المكتنفة للنحر عن يمين وشمال جمع ترقوة ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « وقيل من راق » اسم فاعل من الرقى أي قال من حضره من أهله وأصدقائه من يرقيه و يشفيه ؟ كلمة يأس ، و قيل : المعنى قال بعض الملائكة لبعض : من يرقي بروحه من الملائكة أملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ؟

قوله تعالى : « وظنّ أنّه الفراق » أي وعلم الإنسان المحتضر من مشاهدة هذه

الأحوال أنّه مفارقته للعاجلة الّتي كان يحبّها ويؤثرها على الآخرة .

قوله تعالى : « والتفّت الساق بالساق » ظاهره أنّ المراد به التفاف ساق المحتضر بساقه ببطلان الحياة السارية في أطراف البدن عند بلوغ الروح التراقي .

و قيل : المراد به التفاف شدّة أمر الآخرة بأمر الدنيا : و قيل : التفاف حال الموت بحال الحياة ، و قيل : التفاف ساق الدنيا و هي شدّة كرب الموت بساق الآخرة وهي شدّة هول المطّلع .

و لا دليل من جهة اللفظ على شيء من هذه المعاني نعم من الممكن أن يقال : إنّ المراد بالتفاف الساق بالساق غشيان الشدائد و تعاقبها عليه واحدة بعد اُخرى من حينه ذلك إلى يوم القيامة فينطبق على كلّ من المعاني .

قوله تعالى : « إلى ربّك يومئذ المساق » المساق مصدر ميميّ بمعنى السوق ، والمراد بكون السوق يومئذ إليه تعالى أنّه الرجوع إليه ، و عبّر بالمساق للإشارة إلى أن لاخيرة للإنسان في هذا المسير ولا مناص له عنه فهو مسوق مسيّر من يوم موته و هو قوله : « إلى ربّك يومئذ المساق » حتّى يرد على ربّه يوم القيامة و هو قوله : « إلى ربّك يومئذ المستقرّ » و لو كان تقديم « إلى ربّك » لإفادة الحصر أفاد انحصار الغاية في الرجوع إليه تعالى .

وقيل : الكلام على تقدير مضاف وتقديم « إلى ربّك » لإفادة الحصر والتقدير إلى حكم ربّك يومئذ المُساق أي يساق ليحكم الله و يقضي فيه بحكمه ، أو التقدير إلى موعد ربّك و هو الجنّة و النار ، و قيل : المراد برجوع المساق إليه تعالى أنّه تعالى هوالسائق لا غير ، والوجه ما تقدّم .

قوله تعالى : « فلا صدّق و لا صلّى و لكن كذّب و تولّى ثمّ ذهب إلى أهله يتمطّى » الضمائر راجعة إلى الإنسان المذكور في قوله : « أيحسب الانسان » الخ ، والمراد بالتصديق المنفيّ تصديق الدعوة الحقّة التي يتضمّنها القرآن الكريم ، و بالتصلية المنفيّة التوجّه العباديّ إليه تعالى بالصلاة الّتي هي عمود الدين .

و التمطّي ـ على ما في المجمع ـ تمدّد البدن من الكسل و أصله أن يلوي

مطاه أي ظهره ، والمراد بتمطّيه في ذهابه التبختر والاختيال استعارة .

و المعنى فلم يصدّق هذا الانسان الدعوة فيما فيها من الاعتقاد ولم يصلّ لربّه أي لم يتّبعها فيما فيها من الفروع و ركنها الصلاة و لكن كذّب بها و تولّى عنها ثمّ ذهب إلى أهله يتبختر و يختال مستكبراً .

قوله تعالى « أولى لك فأولى ثمّ أولى لك فأولى » لا ريب أنّه كلمة تهديد كرّرت لتأكيد التهديد ، ولا يبعد ـ والله أعلم ـ أن يكون قوله : « أولى لك » خبراً لمبتدء محذوف هو ضمير عائد إلى ما ذكر من حال هذا الانسان و هو أنّه لم يصدّق و لم يصلّ و لكن كذّب وتولّى ثمّ ذهب إلى أهله متبختراً مختالاً ، وإثبات ما هو فيه من الحال له كناية عن إثبات ما هو لازمه من التبعة والعقاب .

فيكون الكلام و هي كلمة ملقاة من الله تعالى إلى هذا الانسان كلمة طبع طبع الله بها على قلبه حرم بها الايمان والتقوى و كتب عليه أنّه من أصحاب النار ، والآيتان تشبهان بوجه قوله تعالى : « فاذا اُنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم » سورة محمّد : ٢٠ .

و المعنى ما أنت عليه من الحال أولى و أرجح لك فأولى ثمّ أولى لك فأولى لتذوق وبال أمرك و يأخذك ما اُعدّ لك من العذاب .

و قيل : أولى لك اسم فعل مبنيّ و معناه وليك شرّ بعد شرّ .

و قيل : أولى فعل ماض دعائيّ من الولي بمعنى القرب و فاعل الفعل ضمير مستتر عائد إلى الهلاك واللاّم مزيدة والمعنى أولاك الهلاك .

وقيل : الفاعل ضمير مستتر راجع إليه تعالى واللاّم مزيدة والمعنى أولاك الله ماتكرهه ، أوغير مزيدة والمعنى أدناك الله ممّا تكرهه .

و قيل : معناه الذمّ أولى لك من تركه إلاّ أنّه حذف وكثر في الكلام حتّى صار بمنزلة الويل لك و صار من المحذوف الذي لا يجوز إظهاره

و قيل : المعنى أهلكك الله هلاكاً أقرب لك من كلّ شرّ وهلاك .

وقيل : أولى أفعل تفضيل بمعنى الأحرى ، وخبر لمبتدء محذوف يقدّر كما يليق بمقامه فالتقدير هنا النار أولى لك أي أنت أحقّ بها وأهل لها فأولى .

و هي وجوه ضعيفة لا تخلو من تكلّف و الوجه الأخير قريب ممّا قدّمنا و ليس به .

قوله تعالى : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى » مختتم فيه رجوع إلى ما في مفتتح السورة من قوله : « أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه » .

والاستفهام للتوبيخ ، والسدى المهمل ، والمعنى أيظنّ الإنسان أن يترك مهملاً لا يعتنى به فلا يبعث بإحيائه بعد الموت و لازمه أن لا يكلّف ولا يجزى .

قوله تعالى : « ألم يك نطفة من منيّ يمنى » اسم كان ضمير راجع إلى الإنسان ، و إمناءِ المنيّ صبّه في الرحم .

قوله تعالى : « ثمّ كان علقة فخلق فسوّى » أي ثمّ كان الإنسان ـ أو المنيّ ـ قطعة من دم منعقد فقدّره فصوّره بالتعديل و التكميل .

قوله تعالى : « فجعل منه الزوجين الذكر و الأنثى » أي فجعل من الإنسان الصنفين : الذكر والأنثى .

قوله تعالى : « أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » احتجاج على البعث الّذي ينكرونه استبعاداً له بعموم القدرة و ثبوتها على الخلق الابتدائيّ و الإعادة لا تزيد على الابتداء مؤنة بل هي أهون ، و قد تقدّم الكلام في تقريب هذه الحجّة في تفسير الآيات المتعرّضة لها مراراً .

﴿بحث روائي﴾

في الدرّ المنثورأخرج الطيالسيّ و أحمد وعبد بن حميد والبخاريّ و مسلم و الترمذي والنسائيّ و ابن جريروابن المنذر وابن أبي‌حاتم وابن‌الأنباريّ في المصاحف و الطبرانيّ و ابن مردويه و أبونعيم والبيهقيّ معاً في الدلائل عن ابن عبّاس قال :كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعالج من التنزيل شدّة ، و كان يحرّك به لسانه و شفتيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله « لا تحرّك به لسانك لتعجل به إنّ علينا جمعه و قرآنه » قال : يقول : إنّ علينا أن نجمعه في‌صدرك ثمّ نقرأه « فاذا قرأناه » يقول: إذا أنزلناه‌عليك « فاتّبع‌قرآنه» فاستمع‌له وأنصت «ثمّ إنّ‌علينابيانه» بيّنه[نبيّنه ظ] بلسانك ، وفي‌لفظ علينا أن‌نقرأه فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك إذاأتاه جبريل أطرق- و في لفظ استمع ـ فاذا ذهب قرء كما وعده الله .

و فيه أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عبّاس قال : كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إذا اُنزل‌عليه القرآن تعجّل بقراءته ليحفظه فنزلت هذه‌الآية « لاتحرّك به لسانك » .

و كان رسول الله صلّى الله عليه و سلّم لا يعلم ختم سورة حتّى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم .

اقول: و روى ما في معنى صدر الحديث في المجمع عن ابن جبيرو في‌معناه غير واحد من الروايات ، وقد تقدّم أنّ في انطباق هذاالمعنى على‌الآيات خفاء .

و في تفسيرالقميّ قوله تعالى : «كلاّ بل تحبّون العاجلة » قال : الدنيا الحاضرة « وتذرون الآخرة » قال :تدعون « وجوه يومئذناضرة » أي مشرقة « إلى‌ربّها ناظرة» قال : ينظرون إلى وجه الله أي رحمة الله و نعمته .

و في العيون في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من أخبار التوحيد باسناده إلى إبراهيم بن أبي‌محمودقال:قال‌عليّ بن‌موسى‌الرضا عليه السلام في قوله‌تعالى : «وجوه يومئذ

ناضرة إلى ربّها ناظرة » يعني مشرقة تنتظر ثواب ربّها .

أقول : ورواه في التوحيد والاحتجاج والمجمع عن علي عليه السلام ، وقد اعترض على أخذ ناظرة بمعنى منتظرة بأنّ الانتظار لا يتعدّى بإلى بل هو متعدّ بنفسه ، و ردّ عليه في مجمع البيان بالاستشهاد بقول جميل بن معمر :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك جدتني نعما

و قول الآخر :

إنّي إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني الموسر

و عدّ في الكشّاف إطلاق النظر في الآية بمعنى الانتظار استعمالاً كنائيّاً وهو معنى حسن

و في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد والترمذي وابن جرير و ابن المنذر و الآجريّ في الشريعة و الدارقطنيّ في الرؤية و الحاكم و ابن مردويه واللالكائيّ في السنّة والبيهقيّ عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ أدنى أهل الجنّة منزلا لمن ينظر إلى جنانه و أزواجه و نعيمه و خدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة و عشيّة .

ثمّ قرء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « وجوهٌ يومئذٍ ناضرة » قال: البياض والصفاء « إلى ربّها ناظرة » قال :ينظر كلّ يوم في وجهه .

أقول : الرواية تقبل الانطباق على المعنى الّذي أوردناه في تفسير الآية ، و مع الغضّ عنه تقبل الحمل على رحمته و فضله وكرمه تعالى و سائر صفاته الفعليّة فإنّ وجه الشيء ما يستقبل به الشيء غيره وما يستقبل به الله سبحانه خلقه هو صفاته الكريمة فالنظر إلى رحمة الله و فضله وكرمه وصفاته الكريمة نظر إلى وجه الله الكريم .

و فيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قول الله : «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة » قال:ينظرون إلى ربّهم بلا كيفيّة ولا حدّ محدود ولا صفة معلومة .

أقول : والرواية تؤيّد ما قدّمنا في تفسير الآية أنّ المراد به النظر القلبيّ

و رؤية القلب دون العين الحسيّة ، وهي تفسّر ما ورد في عدّة روايات من طرق أهل السنّة ممّا ظاهره التشبيه و أنّ الرؤية بالعين الحسيّة الّتي لا تفارق المحدوديّة .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى: « كلاّ إذا بلغت التراقي » قال : يعني النفس إذا بلغت الترقوة « و قيل من راق » قال : يقال له : من يرقيك « وظنّ أنّه الفراق » علم أنّه الفراق .

في الكافي بإسناده إلى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألته عن قول الله عزّ وجلّ : « و قيل من راق و ظنّ أنّه الفراق » قال : فانّ ذلك ابن آدم إذا حلّ به الموت قال : هل من طبيب « و ظنّ أنّه الفراق » أيقن بمفارقة الأحبّة « والتفّت الساق بالساق » قال : التفّت الدنيا بالآخرة « إلى ربّك يومئذ المساق » قال : المصير إلى ربّ العالمين .

و في تفسير القمّي « والتفّت الساق بالساق » قال : التفّت الدنيا بالآخرة « إلى ربّك يومئذ المساق » قال : يساقون إلى الله .

و في العيون بإسناده عن عبدالعظيم الحسنيّ قال : سألت محمّد بن عليّ الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « أولى لك فأولى ثمّ أولى لك فأولى » قال : يقول الله عزّ وجلّ : بعداً لك من خير الدنيا و بعداً لك من خير الآخرة .

أقول : يمكن إرجاعه إلى ما قدّمناه من معنى الآيتين ، و كذا إلى بعض ما قيل فيه .

و في المجمع وجاءت الرواية أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذ بيد أبي جهل ثمّ قال له : أولى لك فأولى ثمّ أولى لك فأولى. فقال أبوجهل : بأيّ شيء تهدّدني لا تستطيع أنت و ربّك أن تفعلا بي شيئاً ، و إنّي لأعزّ أهل هذا الوادي ، فأنزل الله سبحانه كما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

أقول : و روى ما في معناه في الدرّ المنثور عن عدّة عن قتادة قال : ذكر لنا و ساق الحديث .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « أيحسب الإنسان أن يترك سدىً » قال :

لا يحاسب و لا يعذّب و لا يسأل عن شيء .

و في العلل بإسناده إلى مسعدة بن زياد قال : قال رجل لجعفر بن محمّد عليه السلام : يا أبا عبدالله إنّا خلقنا للعجب قال : و ما ذلك لله أنت ؟ قال : خلقنا للفناء فقال يابن أخ خلقنا للبقاء ، و كيف يفنى جنّة لا تبيد و نار لا تخمد ؟ و لكن قل : إنّما نتحوّل من دار إلى دار .

و في المجمع و جاء في الحديث عن البراء بن عازب قال : لمّا نزلت هذه الآية « أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » قال رسول الله صلى الله عليه وآله : سبحانك اللهمّ وبلى و روي ذلك عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام .

أقول : و روى في الدرّ المنثور عن أبي هريرة و غيره أنّه صلى الله عليه وآله إذا قرء الآية قال : سبحانك اللّهمّ وبلى ، و كذا في العيون عن الرضا عليه السلام أنّه كان إذا قرء السورة قال عند الفراغ سبحانك اللهمّ بلى .



﴿سورة الدهر مدنيّة و هي إحدى و ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً (١) انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً (٢) انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً (٣) انا اعتدنا للكافرين سلاسل واغلالاً و سعيراً (٤) ان الابرار يشربون من كاس كان مزاجها كافوراً (٥) عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً (٦) يوفون بالنذر و يخافون يوماً كان شره مستطيراً (٧) و يطعمون الطعام على حبه مسكيناً و يتيماً و اسيراً (٨) انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً (٩) انا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً (١٠) فوقيهم الله شر ذلك اليوم و لقيهم نضرة و سروراً (١١) و جزيهم بما صبروا جنة و حريراً (١٢) متكئين فيها على الارائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً (١٣) و دانية عليهم ظلالها و ذللت قطوفها تذليلاً (١٤) و يطاف عليهم بآنية من فضة و اكواب كانت قواريرا (١٥) قوارير من فضة قدروها تقديراً (١٦) و يسقون فيها كاساً كان مزاجها زنجبيلاً (١٧) عيناً فيها تسمى سلسبيلاً (١٨) ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رايتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً (١٩) و اذا

رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقَيهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (٢١) إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (٢٢).

﴿ بيان ﴾

تذكر السورة خلق الانسان بعد ما لم يكن شيئاً مذكوراً ثمّ هدايته السبيل إمّا شاكراً و إمّا كفوراً و أنّ الله أعتد للكافرين أنواع العذاب و للأبرار ألوان النعم - و قد فصّل القول في وصف نعيمهم في ثمان عشرة آية و هو الدليل على أنّه المقصود بالبيان -

ثمّ تذكر مخاطباً للنبيّ ﷺ أنّ القرآن تنزيل منه تعالى عليه وتذكرة فليصبر لحكم ربّه ولايتّبع الناس في أهوائهم و ليذكر اسم ربّه بكرة وعشيّاً وليسجد له من الليل و ليسبّحه ليلاً طويلا .

و السورة مدنيّة بتمامها أوصدرها - و هي اثنتان و عشرون آية من أولّها - مدنيّ ، و ذيلها - وهي تسع آيات من آخرها - مكّيّ وقد أطبقت روايات أهل البيت عليهم السلام على كونها مدنيّة ، واستفاضت بذلك روايات أهل السنّة .

وقيل بكونها مكّيّة بتمامها ، وسيوافيك تفصيل القول في ذلك في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا » الاستفهام للتقرير فيفيد ثبوت معنى الجملة و تحقّقه أي قد أتى على الإنسان الخ و لعلّ هذا مراد من قال من قدماء المفسّرين : إنّ « هل » في الآية بمعنى قد لاعلى أنّ ذلك أحد معاني « هل » كما ذكره بعضهم .

و المراد بالإنسان الجنس : و أمّا قول بعضهم : إنّ المراد به آدم عليه السلام فلا

يلائمه قوله في الآية التالية : « إنّا خلقنا الإنسان من نطفة » .

و الحين قطعة من الزمان محدودة قصيرة كانت أو طويلة ، والدهر الزمان الممتدّ من دون تحديد ببداية أو نهاية .

و قوله : « شيأ مذكورا » أي شيأ يذكر باسمه في المذكورات أي كان يذكر مثلاً الأرض و السماء و البرّ و البحر و غيرذلك و لا يذكر الإنسان لأنّه لم يوجد بعد حتّى وجد فقيل : الإنسان فكونه مذكوراً كناية عن كونه موجوداً بالفعل فالنفي في قوله : « لم يكن شيئاً مذكوراً » متوجّه إلى كونه شيأ مذكوراً لا إلى أصل كونه شيأ فقد كان شيئاً ولم يكن شيأ مذكورا ويؤيّده قوله: « إنّا خلقنا الإنسان من نطفة » الخ فقد كان موجوداً بمادّته ولم يتكوّن بعد إنساناً بالفعل والآية و ما يتلوها من الآيات واقعة في سياق الاحتجاج يبيّن بها أنّ الإنسان حادث يحتاج في وجوده إلى صانع يصنعه وخالق يخلقه ، وقد خلقه ربّه وجهّزه التدبير الربوبيّ بأدوات الشعور من السمع و البصر يهتدي بها إلى السبيل الحقّ الّذي من الواجب أن يسلكه مدى حياته فإن كفر فمصيره إلى عذاب أليم وإن شكر فإلى نعيم مقيم .

والمعنى هل أتى ـ قد أتى ـ على الإنسان قطعة محدودة من هذا الزمان الممتدّ ـ غير المحدود و الحال أنّه لم يكن موجوداً بالفعل مذكورا في عداد المذكورات .

قوله تعالى : « إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » النطفة في الأصل بمعنى الماء القليل غلب استعماله في ماء الذكور من الحيوان الّذي يتكوّن منه مثله ، و أمشاج جمع مشيج أو المشج بفتحتين أو بفتح فكسر بمعنى المختلط الممتزج ، ووصفت بها النطفة باعتبار أجزائها المختلفة أو اختلاط ماء الذكور و الإناث .

و الابتلاء نقل الشيء من حال إلى حال و من طور إلى طور كابتلاء الذهب في البوتقة ، و ابتلاؤه تعالى الإنسان في خلقه من النطفة هو ما ذكره في مواضع من كلامه انّه يخلق النطفة فيجعلها علقة و العلقة مضغة إلى آخر الأطوار الّتي تتعاقبها حتّى ينشئه خلقاً آخر .

وقيل : المراد بابتلائه إمتحانه بالتكليف ، ويدفعه تفريع قوله : « فجعلناه سميعاً بصيراً» على الابتلاء ولو كان المراد به التكليف كان من الواجب تفريعه على جعله سميعاً بصيراً لابالعكس ، والجواب عنه بأنّ في الكلام تقديماً وتأخيراً والتقدير إنّا خلقناه من نطفة أمشاج فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه . لايصغى إليه .

وقوله : « فجعلناه سميعاً بصيراً » سياق الآيات و خاصّة قوله : « إنّا هديناه السبيل » الخ يفيد أنّ ذكر جعله سميعاً بصيراً للتوسّل به في التدبير الربوبيّ إلى غايته وهي أن يرى آيات الله الدالّة على المبدء والمعاد ويسمع كلمة الحقّ الّتي تأتيه من جانب ربّه بإرسال الرسل وإنزال الكتب فيدعوه البصر والسمع إلى سلوك سبيل الحقّ والسير في مسير الحياة بالإيمان والعمل الصالح فإن لزم السبيل الّذي هدي إليه أدّاه إلى نعيم الأبد وإلّا فإلى عذاب مخلّد .

وذكر الإنسان في الآية من وضع الظاهر موضع الضمير والنكتة فيه تسجيل أنّه تعالى هو خالقه ومدبّر أمره .

والمعنى إنّا خلقنا الإنسان من نطفة هي أجزاء مختلطة ممتزجة والحال أنّا ننقله من حال إلى حال ومن طور إلى طور فجعلناه سميعاً بصيرا ليسمع ما يأتيه من الدعوة الالهيّة ، ويبصر الآيات الإلهيّة الدالّة على وحدانيّته تعالى والنبوّة والمعاد .

قوله تعالى : «إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً» الهداية بمعنى إراءة الطريق دون الإيصال إلى المطلوب والمراد بالسبيل السبيل بحقيقة معنى الكلمة و هو المؤدّي إلى الغاية المطلوبة وهو سبيل الحقّ .

والشكر استعمال النعمة بإظهار كونها من منعمها وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : «وسيجزي الله الشاكرين» آل عمران : ١٤٤ أنّ حقيقة كون العبد شاكراً لله كونه مخلصاً لربّه، والكفران استعمالها مع ستر كونها من المنعم .

وقوله : «إمّا شاكراً وإمّا كفوراً» حالان من ضمير «هديناه» لا من « السبيل » كما قاله بعضهم ، و « إمّا » يفيد التقسيم والتنويع أي إنّا هديناه السبيل حال كونه

منقسماً إلى الشاكر والكفور أي إنّه مهديّ سواء كان كذا أو كذلك .

والتعبير بقوله : « إمّا شاكراً وإمّا كفوراً » هو الدليل أوّلاً على أنّ المراد بالسبيل السنّة والطريقة الّتي يجب على الإنسان أن يسلكها في حياته الدنيا لتوصله إلى سعادته في الدنيا والآخرة وتسوقه إلى كرامة القرب والزلفى من ربّه ومحصّله الدين الحقّ وهو عندالله الإسلام .

وبه يظهر أنّ تفسير بعضهم السبيل بسبيل الخروج من الرحم غيرسديد .

وثانيا أنّ السبيل المهديّ إليه سبيل اختياريّ وأنّ الشكر والكفر اللّذين يترتّبان على الهداية المذكورة واقعان في مستقرّ الاختيار للإنسان أن يتلبّس بأيّهما شاء من غير إكراه وإجبار كما قال تعالى : «ثمّ السبيل يسّره» عبس : ٢٠ ، و ما في آخر السورة من قوله تعالى : «فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلا وما تشاؤن إلّا أن يشاء الله» إنّما يفيد تعلّق مشيّته تعالى بمشيّة العبد لا بفعل العبد الّذي تعلّقت به مشيّة العبد حتّى يفيد نفي تأثير مشيّة العبد المتعلّقة بفعله ، وقدتقدّمت الإشارة إلى هذا المعنى في هذا الكتاب مراراً .

والهداية الّتي هي نوع إيذان و إعلام منه تعالى للإنسان هداية فطريّة هي تنبيهه بسبب نوع خلقته وما جهّز به وجوده بإلهام من الله سبحانه على حقّ الاعتقاد وصالح العمل قال تعالى : « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها » الشمس : ٨ وأوسع مدلولاً منه قوله تعالى: « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم » الروم : ٣٠ .

وهداية قوليّة من طريق الدعوة ببعث الانبياء وإرسال الرسل و إنزال الكتب وتشريع الشرائع الإلهيّة ، ولم يزل التدبير الربوبيّ تدعم الحياة الإنسانية بالدعوة الدينيّة القائم بها أنبياؤه و رسله ، ويؤيّد بذلك دعوة الفطرة كما قال : « إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح و النبيّين من بعده ـ إلى أن قال ـ رسلاً مبشّرين و منذرين لئلّا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل » النساء : ١٦٥ .

ومن الفرق بين الهدايتين أنّ الهداية الفطريّة عامّة بالغة لا يستثنى منها إنسان لأنّها لازم الخلقة الانسانيّة وهي في الافراد بالسويّة غير أنّها ربّما تضعف أو يلغو أثرها لعوامل وأسباب تشغل الانسان وتصرفه عن التوجّه إلى ما يدعو إليه عقله ويهديه إليه فطرته أو ملكات وأحوال رديئة سيّئة تمنعه عن إجابة نداء الفطرة كالعناد واللجاج وما يشبه ذلك قال تعالى : « أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه و أضلّه الله على علم و ختم على سمعه و قلبه و جعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله » الجاثية : ٢٣ ، والهداية المنفيّة في الآية بمعنى الإيصال إلى المطلوب دون إراءة الطريق بدليل قوله : « وأضلّه الله على علم » .

و أمّا الهداية القوليّة و هي الّتي تتضمّنها الدعوة الدينيّة فانّ من شأنها أن تبلغ المجتمع فتكون في معرض من عقول الجماعة فيرجع إليها من آثر الحقّ على الباطل و أمّا بلوغها لكلّ واحد واحد منهم فإنّ العلل والأسباب الّتي يتوسّل بها إلى بيان أمثال هذه المقاصد ربّما لا تساعد على ذلك على ما في الظروف و الأزمنة والبيئات من الاختلاف وكيف يمكن لإنسان أن يدعو كلّ إنسان إلى ما يريد بنفسه أو بوسائط من نوعه ؟ فمن المتعذّر ذلك جدّاً .

و إلى المعنى الأوّل أشار تعالى بقوله : « و إن من اُمّة إلّا خلا فيها نذير » فاطر : ٢٤ ، و إلى الثاني بقوله : « لتنذرقوماً ما اُنذر آباؤهم فهم غافلون » يس : ٦.

فمن بلغته الدعوة و انكشف له الحقّ فقد تمّت عليه الحجّة و من لم تبلغه الدعوة بلوغاً ينكشف به له الحقّ فقد أدركه الفضل الإلهيّ بعدّه مستضعفاً أمره إلى الله إن يشأ يغفر له و إن يشأ يعذّبه قال تعالى : « إلّا المستضعفين من الرّجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة و لا يهتدون سبيلا » النساء : ٩٨ .

ثمّ من الدليل على أنّ الدعوة الإلهيّة وهي الهداية إلى السبيل حقٌّ يجب على الانسان أن يتّبعها فطرة الانسان و خلقته المجهّزة بما يهدي إليها من الاعتقاد والعمل ، و وقوع الدعوة خارجاً من طريق النبوّة والرسالة فإنّ سعادة كلّ موجود و كماله في الآثار و الأعمال الّتي تناسب ذاته و تلائمها بما جهّزت به من القوى

والأدوات فسعادة الانسان وكماله في اتّباع الدين الالهي الّذي هو سنّة الحياة الفطرية و قد حكم به العقل و جاءت به الأنبياء والرسل عليهم السلام.

قوله تعالى: « إنّا أعتدنا للكافرين سلاسل و أغلالاً و سعيراً » الاعتاد التهيئة، و سلاسل جمع سلسلة وهي القيد الّذي يقاد به المجرم، وأغلال جمع غلّ بالضمّ قيل هي القيد الّذي يجمع اليدين على العنق، و قال الراغب: فالغلّ مختصّ بما يقيّد به فيجعل الأعضاء وسطه. انتهى والسعير النار المشتعلة، والمعنى ظاهر.

والآية تشير إلى تبعة الانسان الكفور المذكور في قوله: « إمّا شاكراً و إمّا كفوراً » و قدّم بيان تبعته على بيان جزاءِ الانسان الشاكر لاختصار الكلام فيه.

قوله تعالى: « إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً » الكأس إناء الشراب إذا كان فيه شراب، والمزاج ما يمزج به كالحزام لما يحزم به، والكافور معروف يضرب به المثل في البرودة و طيب الرائحة، و قيل: هو اسم عين في الجنّة.

و الأبرار جمع برّ بفتح الباء صفة مشبهة من البرّ و هو الإحسان و يتحصّل معناه في أن يحسن الانسان في عمله من غير أن يريد به نفعاً يرجع إليه من جزاء أو شكور فهو يريد الخير لأنّه خير لا لأنّ فيه نفعاً يرجع إلى نفسه وإن كرهت نفسه ذلك فيصبر على مرّ مخالفة نفسه فيما يريده ويعمل العمل لأنّه خير في نفسه كالوفاء بالنذر أو لأنّ فيه خيراً لغيره كإطعام الطعام للمستحقّين من عباد الله.

و إذ لا خير في عمل و لا صلاح إلّا بالإيمان بالله و رسوله واليوم الآخر كما قال تعالى: « اُولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم » الأحزاب: ١٩ إلى غير ذلك من الآيات.

فالأبرار مؤمنون بالله و رسوله واليوم الآخر، و إذ كان إيمانهم إيمان رشد و بصيرة فهم يرون أنفسهم عبيداً مملوكين لربّهم، له خلقهم و أمرهم، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، عليهم أن لا يريدوا إلّا ما أراده ربّهم ولا يفعلوا إلّا ما يرتضيه فقدّموا إرادته على إرادة أنفسهم و عملوا له فصبروا على مخالفة أنفسهم فيما تهواه

وتحبّه و كلفة الطاعة ، و عملوا ما عملوه لوجه الله ، فأخلصوا العبوديّة في مرحلة العمل لله سبحانه .

وهذه الصفات هي التي عرّف سبحانه الأبرار بها كما يستفاد من قوله : « يشرب بها عباد الله » وقوله: «إنّما نطعمكم لوجه الله» وقوله: «وجزاهم بما صبروا» وهي المستفادة من قوله في صفتهم : « ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب و لكنّ البرّ من آمن بالله » الخ البقرة : ١٧٧ و قد مرّ بعض الكلام في معنى البرّ في تفسير الآية و سيأتي بعضه في قوله : « كلاّ إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين » المطفّفين : ١٨ .

والآية أعني قوله : « إنّ الأبرار يشربون » الخ بما يتبادر من معناها من حيث مقابلتها لقوله : « إنّا أعتدنا للكافرين » الخ المبيّن لحال الكافرين في الآخرة ، تبيّن حال الأبرار في الآخرة في الجنّة ، وأنّهم يشربون من شراب ممزوج بالكافور بارداً طيّب الرائحة.

قوله تعالى : « عيناً يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيرا » « عيناً » منصوب بنزع الخافض والتقدير من عين أو بالاختصاص والتقدير أخصّ عينا ، والشرب ـ على ما قيل ـ يتعدّى بنفسه و بالباء فشرب بها و شربها واحد ، والتعبير عنهم بعباد الله للاشارة إلى تحلّيهم بحلية العبوديّة وقيامهم بلوازمها على ما يفيده سياق المدح .

و تفجير العين شقّ الأرض لإجرائها ، وينبغي أن يحمل تفجيرهم العين على إرادتهم جريانها لأنّ نعم الجنّة لا تحتاج في تحقّقها والتنعّم بها إلى أزيد من مشيّة أهلها قال تعالى : « لهم ما يشاؤن فيها » ق : ٣٥ .

والآيتان ـ كما تقدّمت الإشارة إليه ـ تصفان تنعّم الأبرار بشراب الجنّة في الآخرة ، وبذلك فسّرت الآيتان .

ولا يبعد أن تكون الآيتان مسوقتين على مسلك تجسّم الأعمال تصفان حقيقة عملهم الصالح من الإيفاء بالنذر وإطعام الطعام لوجه الله ، وأنّ أعمالهم المذكورة بحسب باطنها شرب من كأس مزاجها كافور من عين لا يزالون يفجّرونها بأعمالهم الصالحة

وستظهر لهم بحقيقتها في جنّة الخلد وإن كانت في الدنيا في صورة الأعمال فتكون الآيتان في مجرى أمثال قوله تعالى: «إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون» يس: ٨

ويؤيّد ذلك ظاهر قوله: «يشربون» و«يشرب بها» ولم يقل: سيشربون وسيشرب بها، ووقوع قوله: يشربون ويوفون ويخافون ويطعمون متعاقبة في سياق واحد، و ذكر التفجير في قوله: «يفجّرونها تفجيراً» الظاهر في استخراج العين وإجرائها بالتوسّل بالأسباب.

ولهم في مفردات الآيتين وإعرابها أقاويل كثيرة مختلفة مذكورة في المطوّلات فليراجعها من أرادالوقوف عليها.

قوله تعالى: «يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شرّه مستطيرا» المستطير اسم فاعل من استطار إذافشى وانتشر في الأقطار غاية الانتشار وهو أبلغ من طار كما قيل يقال: استطار الحريق واستطار الفجر إذا اتّسعا غايته، والمراد باستطارة شرّ اليوم وهو يوم القيامة بلوغ شدائده وأهواله وما فيه من العذاب غايته.

والمراد بالإيفاء بالنذر ماهوظاهره المعروف من معناه، وقول القائل: إنّ المراد به ما عقدوا عليه قلوبهم من العمل بالواجبات أو ما عقدوا عليه القلوب من اتّباع الشارع في جميع ما شرّعه خلاف ظاهر اللفظ من غيردليل يدلّ عليه.

قوله تعالى: «ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً» ضمير «على حبّه» للطعام على ما هو الظاهر، والمراد بحبّه توقان النفس إليه لشدّة الحاجة، ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى: «لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون» آل عمران: ٩٢.

وقيل: الضمير لله سبحانه أي يطعمون الطعام حبّاً لله لاطمعاً في الثواب. ويدفعه أنّ قوله تعالى حكاية منهم: «إنّما نطعمكم لوجه الله» يغني عنه.

ويليه في الضعف ما قيل: إنّ الضمير للإطعام المفهوم من قوله: «ويطعمون»

وجه الضعف أنّه إن اُريد بحبّ الإطعام حقيقة معناه فليس في حبّ الإطعام في نفسه فضل حتّى يمدحوا به ، وإن اُريد به كون الإطعام بطيب النفس وعدم التكلّف فهو خلاف الظاهر ، ورجوع الضمير إلى الطعام هو الظاهر .

والمراد بالمسكين واليتيم معلوم ، والمراد بالأسير ماهو الظاهر منه وهو المأخوذ من أهل دار الحرب .

وقول بعضهم : إنّ المراد به اُسارى بدر أو الأسير من أهل القبلة في دار الحرب بأيدي الكفّار أو المحبوس أو المملوك من العبيد أو الزوجة كلّ ذلك تكلّف من غير دليل يدلّ عليه .

والّذي يجب أن يتنبّه له أنّ سياق هذه الآيات سياق الاقتصاص تذكر قوماً من المؤمنين تسمّيهم الأبرار وتكشف عن بعض أعمالهم وهو الإيفاء بالنذر وإطعام مسكين ويتيم وأسير وتمدحهم وتعدهم الوعد الجميل .

فما تشير إليه من القصّة سبب النزول ، وليس سياقها سياق فرض موضوع و ذكر آثاره الجميلة ، ثمّ الوعد الجميل عليها ، ثمّ إنّ عدّ الأسير فيمن أطعمه هؤلاء الأبرار نعم الشاهد على كون الآيات مدنيّة فإنّ الأسر إنّما كان بعد هجرة النبيّ صلّى الله عليه وآله وظهور الإسلام على الكفر والشرك لاقبلها .

قوله تعالى : «إنّما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءً ولا شكوراً» وجه الشيء هو مايستقبل به غيره ، ووجهه تعالى صفاته الفعليّة الكريمة الّتي يفيض بها الخير على خلقه من الخلق والتدبير والرزق وبالجملة الرحمة العامّة الّتي بها قيام كلّ شيء ، ومعنى كون العمل لوجه الله على هذا كون الغاية في العمل هي الاستفاضة من رحمة الله و طلب مرضاته بالاقتصار على ذلك و الإعراض عمّا عند غيره من الجزاء المطلوب ، ولذا ذيّلوا قولهم «إنّما نطعمكم لوجه الله» بقولهم : «لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً » .

ووراء ذلك صفاته الذاتيّة الكريمة الّتي هي المبدء لصفاته الفعليّة ولمايترتّب

عليها من الخير في العالم ، و مرجع كون العمل لوجه الله على هذا هو الإتيان بالعمل حبّاً لله لأنّه الجميل على الإطلاق ، وإن شئت فقل : عبادته تعالى لأنّه أهل للعبادة .

وابتغاء وجه الله بجعله غاية داعية في الأعمال مذكور في مواضع من كلامه تعالى كقوله : « واصبر نفسك مع الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه » الكهف : ٢٨ ، وقوله : «وماتنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله» البقرة : ٢٧٢ ، وفي هذا المعنى قوله : « و ما اُمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين » البينة : ٥ ، و قوله : « فادعوه مخلصين له الدين » المؤمن : ٦٥ ، و قوله : « ألا لله الدين الخالص» الزمر : ٣ .

وقوله : «لانريد منكم جزاءً ولا شكوراً» الجزاء مقابلة العمل بما يعادله إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً ، ويعمّ الفعل والقول لكن المراد به في الآية بقرينة مقابلته الشكور مقابلة إطعامهم عملاً لا لسانا .

والشكر والشكور ذكر النعمة وإظهارها قلباً أو لساناً أو عملاً ، والمراد به في الآية وقد قوبل بالجزاء الثناء الجميل لسانا .

والآية أعني قوله : «إنّما نطعمكم لوجه الله» الخ خطاب منهم لمن أطعموه من المسكين واليتيم والأسير إمّا بلسان المقال فهي حكاية قولهم أو بتقدير القول وكيف كان فقد أرادوا به تطييب قلوبهم أن يأمنوا المنّ والأذى ، وإمّا بلسان الحال وهو ثناء من الله عليهم لما يعلم من الإخلاص في قلوبهم .

قوله تعالى : «إنّا نخاف من ربّنا يوماً عبوسا قمطريرا » عدّ اليوم وهو يوم القيامة عبوساً من الاستعارة ، والمراد بعبوسه ظهوره على المجرمين بكمال شدّته ، و القمطرير الصعب الشديد على ماقيل .

والآية في مقام التعليل لقولهم المحكي : «إنّما نطعمكم لوجه الله» الخ ينبّهون بقولهم هذا أنّ قصرهم العمل في ابتغاء وجه الله تعالى إخلاصاً للعبوديّة لمخافتهم ذاك اليوم

الشديد ، ولم يكتفوا بنسبة المخافة إلى اليوم حتّى نسبوه نحواً من النسبة إلى ربّهم فقالوا : « نخاف من ربّنا يوما» الخ لأنّهم لمّا لم يريدوا إلّا وجه ربّهم فهم لايخافون غيره كما لايرجون غيره وإنّما يخافون ويرجون ربّهم فلا يخافون يوم القيامة إلاّ لأنّه من ربّهم يحاسب فيه عباده على أعمالهم فيجزيهم بها .

وأمّا قوله قبلاً : «ويخافون يوما كان شرّه مستطيراً» حيث نسب خوفهم إلى اليوم فإنّ الواصف فيه هو الله سبحانه وقد نسب اليوم بشدائده إلى نفسه قبلا حيث قال : «إنّا أعتدنا للكافرين سلاسل » الخ .

وبالجملة ماذكروه من الخوف مخافة في مقام العمل لما يحاسب العبد على عمله فالعبوديّة لازمة للإنسان لاتفارقه وإن بلغ ما بلغ قال تعالى : «إنّ إلينا إيابهم ثمّ إنّ علينا حسابهم» الغاشية : ٢٦ .

قوله تعالى : «فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً» الوقاية الحفظ والمنع من الأذى ولقّى الشيء بكذا يلقّيه أي استقبله به والنضرة البهجة وحسن اللون والسرور مقابل المساءة والحزن .

و المعنى فحفظهم الله و منع عنهم شرّ ذلك اليوم و استقبلهم بالنضرة و السرور ، فهم ناضرة الوجوه مسرورون يومئذ كما قال : « وجوه يومئذ ناضرة » القيامة : ٢٢ .

قوله تعالى : «وجزاهم بما صبروا جنّة وحريراً» المراد بالصبر صبرهم عند المصيبة وعلى الطاعة وعن المعصية فإنّهم ابتغوا في الدنيا وجه ربّهم و قدّموا إرادته على إرادتهم فصبروا على ما قضى به فيهم وأراده من المحن ومصائب الدنيا في حقّهم ، وصبروا على امتثال ما أمرهم به وصبروا على ترك ما نهاهم عنه وإن كان مخالفاً لأهواء أنفسهم فبدّل الله ما لقوه من المشقّة والكلفة نعمة وراحة .

قوله تعالى « متّكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمساً ولا زمهريرا » الأرائك جمع أريكة وهو ما يتّكيء عليه ، والزمهرير البرد الشديد ، والمعنى حال كونهم

متّكئين في الجنّة على الأرائك لايرون فيهاشمساً حتّى يتأذّوا بحرّها ولازمهريراً حتّى يتأذّوا ببرده .

قوله تعالى : «ودانية عليهم ظلالها و ذلّلت قطوفها تذليلا» الظلال جمع ظلّ ، ودنوّ الظلال عليهم قربها منهم بحيث تنبسط عليهم فكأنّ الدنوّ مضمّن معنى الانبساط وقطوف جمع قطف بالكسر فالسكون وهو الثمرة المقطوفة المجتناة ، وتذليل القطوف لهم جعلها مسخّرة لهم يقطفونها كيف شاؤا من غير مانع أو كلفة .

قوله تعالى : «ويطاف عليهم بآنية من فضّة وأكواب كانت قواريرا» الآنية جمع إناء كأكسية جمع كساء وهو الوعاء ، وأكواب جمع كوب وهو إناء الشراب الّذي لاعروة له ولا خرطوم والمراد طوف الولدان المخلّدين عليهم بالآنية وأكواب الشراب كما سيأتي في قوله : «ويطوف عليهم ولدان» الآية .

قوله تعالى « قوارير من فضّة قدّروها تقديرا » بدل من قوارير في الآية السابقة ، وكون القوارير من فضّة مبنيّ على التشبيه البليغ أي إنّها في صفاء الفضّة وإن لم تكن منها حقيقة . كذا قيل ، واحتمل أن يكون بحذف مضاف والتقدير من صفاء الفضّة .

وضمير الفاعل في «قدّروها» للأبرار والمراد بتقديرهم الآنية والأكواب كونها على ما شاؤوا من القدر ترويهم بحيث لاتزيد ولا تنقص كما قال تعالى : «لهم مايشاؤن فيها» ق : ٣٥ وقد قال تعالى قبل : «يفجّرونها تفجيرا» .

ويحتمل رجوع الضمير إلى الطائفين المفهوم من قوله : «يطاف عليهم» والمراد بتقديرهم الآنية والأكواب إتيانهم بها على قدر ما أرادوا محتوية على مااشتهوا قدر مااشتهوا .

قوله تعالى : « ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا » قيل : إنّهم كانوا يستطيبون الزنجبيل في الشراب فوعد الأبرار بذلك وزنجبيل الجنّة أطيب وألذّ .

قوله تعالى : «عيناً فيها تسمّى سلسبيلا» أي من عين أو التقدير أعني أو أخصّ

عيناً . قال الراغب : وقوله : «سلسبيلا» أي سهلاً لذيذاً سلساً جديد الجرية .

قوله تعالى : «ويطوف عليهم ولدان مخلّدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا» أي ولدان دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء وصباحة المنظر ، وقيل : أي مقرّطون بخلدة وهي ضرب من القرط .

والمراد بحسبانهم لؤلؤاً منثوراً أنّهم في صفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانعكاس أشعّة بعضهم على بعض وانبثاثهم في مجالسهم كاللؤلؤ المنثور .

قوله تعالى : «وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً» «ثمّ» ظرف مكان ممحّض في الظرفيّة ، ولذا قيل : إنّ معنى «رأيت» الأوّل : رميت ببصرك ، والمعنى وإذا رميت ببصرك ثمّ يعني الجنّة رأيت نعيماً لا يوصف وملكاً كبيراً لا يقدّر قدره .

وقيل : « ثمّ » صلة محذوفة الموصول والتقدير وإذا رأيت ما ثمّ من النعيم والملك ، وهو كقوله : «لقد تقطّع بينكم» الأنعام: ٩٤ والكوفيّون من النحاة يجوّزون حذف الموصول وإبقاء الصلة وإن منعه البصريّون منهم .

قوله تعالى «عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق» الخ الظاهر أنّ «عاليهم» حال من الأبرار الراجعة إليه الضمائر و «ثياب» فاعله ، والسندس ـ كما قيل ـ ما رقّ نسجه من الحرير ، والخضر صفة ثياب والاستبرق ما غلظ نسجه من ثياب الحرير ، وهو معرّب كالسندس .

وقوله : «وحلّوا أساور من فضّة» التحلية التزيين ، وأساور جمع سوار وهو معروف وقال الراغب : هو معرّب دستواره .

و قوله : « و سقاهم ربّهم شراباً طهوراً » أي بالغاً في التطهير لا تدع قذارة إلاّ أزالها ، و من القذارة قذارة الغفلة عن الله سبحانه و الاحتجاب عن التوجّه إليه فهم غير محجوبين عن ربّهم ولذا كان لهم أن يحمدوا ربّهم كما قال : « وآخر دعواهم أن الحمدلله ربّ العالمين » يونس : ١٠ و قد تقدّم في تفسير سورة الحمد أنّ الحمد وصف لا يصلح له إلاّ المخلصون من عباد الله تعالى لقوله : « سبحان الله عمّا يصفون إلاّ عباد الله المخلصين » الصافات : ١٦٠ .

وقد أسقط تعالى في قوله : « و سقاهم ربّهم » الوسائط كلّها ونسب سقيهم إلى نفسه ، وهذا أفضل ما ذكره تعالى من النعيم الموهوب لهم في الجنّة ، ولعلّه من المزيد المذكور في قوله : « لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥

قوله تعالى : «إنّ هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا» حكاية مايخاطبون به من عنده تعالى عند توفيته أجرهم أو بحذف القول و التقدير ويقال لهم : إنّ هذا كان لكم جزاء الخ .

و قوله : « وكان سعيكم مشكوراً » إنشاءِ شكر لمساعيهم المرضيّة و أعمالهم المقبولة ، ويالها من كلمة طيّبة تطيب بها نفوسهم .

و اعلم أنّه تعالى لم يذكر فيما ذكر من نعيم الجنّة في هذه الآيات نساء الجنّة من الحور العين وهي من أهمّ مايذكره عند وصف نعم الجنّة في سائر كلامه ويمكن أن يستظهر منه أنّه كانت بين هؤلاء الأبرار الّذين نزلت فيهم الآيات من هي من النساء .

وقال في روح المعاني : ومن اللطائف على القول بنزول السورة فيهم يعني في أهل البيت أنّه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين و إنّما صرّح عزّ وجلّ بولدان مخلّدين رعاية لحرمة البتول و قرّة عين الرسول انتهى .

﴿ بحث روائى ﴾

في إتقان السيوطيّ عن البيهقيّ في دلائل النبوّة بإسناده عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن قالا : أنزل الله من القرآن بمكّة اقرء باسم ربّك ون والمزّمّل ـ إلى أن قالا ـ و ما نزل بالمدينة ويل للمطفّفين ، و البقرة ، وآل عمران ، و الأنفال ، و الأحزاب ، و المائدة ، والممتحنة ، والنساء ، وإذا زلزلت ، والحديد ، ومحمّد ، والرعد، و الرحمان ، وهل أتى على الإنسان . الحديث .

وفيه عن ابن الضريس في فضائل القرآن بإسناده عن عثمان بن عطاء الخراسانيّ

عن أبيه عن ابن عبّاس قال : كان إذا نزلت فاتحة سورة بمكّة كتبت بمكّة ثمّ يزيد الله فيها ما شاء .

و كان أوّل ما اُنزل من القرآن اقرء باسم ربّك ثمّ ن ثمّ يا أيّها المزّمّل - إلى أن قال - ثمّ اُنزل بالمدينة سورة البقرة ثمّ الأنفال ثمّ آل عمران ثمّ الأحزاب ثمّ الممتحنة ثمّ النساء ثمّ إذا زلزلت ثمّ الحديد ثمّ القتال ثمّ الرعد ثمّ الرحمان ثمّ الإنسان . الحديث .

و فيه عن البيهقيّ في الدلائل بإسناده عن مجاهد عن ابن عبّاس أنّه قال : إنّ أوّل ما أنزل الله على نبيّه من القرآن اقرء باسم ربّك و ذكر مثل حديث عكرمة والحسين وفيه ذكر ثلاث من السور المكّيّة الّتي سقطت من روايتهما و هي الفاتحة و الأعراف وكهيعص .

و في الدّرّ المنثور أخرج ابن الضريس وابن مردويه و البيهقيّ عن ابن عبّاس قال : نزلت سورة الإنسان بالمدينة .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبّه » الآية قال : نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب و فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

اقول : الآية تشارك سائر آيات صدر السورة ممّا تقدّم عليها أو تأخّر عنها في سياق واحد متّصل فنزولها فيهما عليهما‌السلام لا ينفكّ عن نزولها جميعاً بالمدينة .

و في الكشّاف : و عن ابن عبّاس أنّ الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله صلّى الله عليه وسلم في ناس معه فقالوا : يا أباالحسن لو نذرت على ولدك (ولديك ط) فنذر عليّ و فاطمة و فضّة جارية لهما إن برآ ممّا بهما أن يصوموا ثلاثة أيّام فشفيا و ما معهم شيء .

فاستقرض عليّ من شمعون الخيبريّ اليهوديّ ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال : السلام عليكم أهل بيت محمّد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني

أطعمكم الله من موائد الجنّة فآثروه و باتوا لم يذوقوا إلاّ الماء و أصبحوا صياماً .

فلمّا أمسوا و وضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه ، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك .

فلمّا أصبحوا أخذ عليّ بيد الحسن والحسين و أقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فلمّا أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع قال : ما أشدّ ما يسوءني ما أرى بكم فانطلق معهم فرآى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها[1] ببطنها و غارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل و قال : خذها يا محمّد هنّاك الله في أهل بيتك فأقرءه السورة .

أقول : الرواية مرويّة بغير واحد من الطرق عن عطاء عن ابن عبّاس و نقلها البحرانيّ في غاية المرام عن أبي المؤيّد الموفّق بن أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين بإسناده عن مجاهد عن ابن عبّاس ، و عنه بإسناد آخر عن الضحّاك عن ابن عبّاس و عن الحموينيّ في كتاب فرائد السمطين بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس ، و عن الثعلبيّ بإسناده عن أبي صالح عن ابن عبّاس ، و رواه في المجمع عن الواحدي في تفسيره .

وفي المجمع باسناده عن الحاكم باسناده عن سعيد بن المسيب عن عليّ ابن أبي طالب أنه قال سألت النبيّ عن ثواب القرآن : فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء .

فأوّل ما نزل عليه بمكّة فاتحة الكتاب ثمّ إقرء باسم ربّك ثمّ نٓ ـ إلى أن قال ـ وأوّل ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثمّ الأنفال ثمّ آل عمران ثمّ الأحزاب ثمّ الممتحنة ثمّ النساء ثمّ إذا زلزلت ثمّ الحديد ثمّ سورة محمّد ثمّ الرعد ثمّ سورة الرحمان ثمّ هل أتى . الحديث .

وفيه عن أبي حمزة الثماليّ في تفسيره قال : حدّثني الحسن بن الحسن أبو عبدالله ابن الحسن أنّها مدنيّة نزلت في عليّ و فاطمة السورة كلّها .

و في تفسير القميّ عن أبيه عن عبدالله بن ميمون عن أبي عبدالله عليه السلام قال : كان

---

(١) بطنها بظهرها ظ .

عند فاطمة عليها السلام شعير فجعلوه عصيدة [1] فلمّا أنضجوها و وضعوها بين أيديهم جاء مسكين فقال : مسكين رحمكم الله فقام عليّ عليه السلام فأعطاه ثلثاً فلم يلبث أن جاء يتيم فقال : اليتيم رحمكم الله فقام عليّ عليه السلام فأعطاه الثلث ثمّ جاء أسير فقال : الأسير رحمكم الله فأعطاه عليّ عليه السلام الثلث وما ذاقوها فأنزل الله سبحانه الآيات فيهم و هي جارية في كلّ مؤمن فعل ذلك لله عزّوجلّ .

أقول : القصّة كما ترى ملخّصة في الرواية و روى ذلك البحراني في غاية المرام عن المفيد في الاختصاص مسنداً و عن ابن بابويه في الأمالي بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس ، و بإسناده عن سلمة بن خالد عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام ، و عن محمّد ابن العباس بن ماهيار في تفسيره بإسناده عن أبي كثير الزبيريّ عن عبدالله بن عبّاس ، و في المناقب أنّه مرويّ عن الأصبغ بن نباتة .

و في الاحتجاج عن عليّ عليه السلام في حديث يقول فيه للقوم بعد موت عمر بن الخطّاب : نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزل فيه و في ولده « إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً » إلى آخر السورة غيري ؟ قالوا : لا .

و في كتاب الخصال في احتجاج عليّ على أبي بكر قال : اُنشدك بالله أنا صاحب الآية « يوفون بالنذر و يخافون يوماً كان شرّه مستطيراً » أم أنت ؟ قال : بل أنت .

و في الدرّ المنثور أخرج الطبرانيّ و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عمر قال : جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سل واستفهم فقال : يا رسول الله فضّلتم علينا بالألوان والصور و النبوّة أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بمثل ما عملت به أنّي لكائن معك في الجنة ؟ قال : نعم والّذي نفسي بيده إنّه ليرى بياض الأسود في الجنّة من مسيرة ألف عام . ثمّ قال : من قال : لا إله إلّا الله كان له عهد عند الله و من قال : سبحان الله و بحمده كتبت له مائة ألف حسنة و أربعة و عشرون ألف حسنة و نزلت عليه هذه السورة هل أتى على الانسان حينٌ من

---

(١) العصيدة شعير يلت بالسمن و يطبخ .

الدهر إلى قوله : ملكاً كبيراً .

فقال الحبشيّ : و إنّ عيني لترى ماترى عيناك في الجنّة ؟ قال : نعم فاشتكى حتّى فاضت نفسه . قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدلّيه في حفرته بيده .

و فيه أخرج أحمد في الزهد عن محمّد بن مطرف قال : حدّثني الثقة أنّ رجلاً أسود كان يسأل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن التسبيح و التهليل فقال له عمر بن الخطّاب : مه أكثرت على رسول الله فقال : مه يا عمر و اُنزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «هل أتى على الانسان حين من الدهر» حتّى إذا أتى على ذكر الجنّة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : مات شوقاً إلى الجنّة .

و فيه أخرج ابن وهب عن ابن زيد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قرء هذه السورة هل أتى على الانسان حين من الدهر و قد اُنزلت عليه و عنده رجل أسود فلمّا بلغ صفة الجنان زفز زفرة فخرجت نفسه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أخرج نفس صاحبكم الشوق إلى الجنّة .

أقول : و هذه الروايات الثلاث على تقدير صحّتها لا تدلّ على أزيد من كون نزول السورة مقارناً لقصّة الرجل و أمّا كونها سبباً للنزول فلا ، و هذا المعنى في الرواية الأخيرة أظهر و بالجملة لا تنافي الروايات الثلاث نزول السورة في أهل البيت عليهم السلام .

على أنّ رواية ابن عمر للقصّة الظاهرة في حضوره القصّة وقد هاجر إلى المدينة و هو ابن إحدى عشرة سنة من شواهد وقوع القصّة بالمدينة .

وفي الدرّ المنثور أيضاً أخرج النحّاس عن ابن عبّاس قال : نزلت سورة الانسان بمكّة .

أقول : هو تلخيص حديث طويل أورده النحّاس في كتاب النّاسخ والمنسوخ و قد نقله في الاتقان و هو معارض لما تقدّم نقله مستفيضاً عن ابن عبّاس من نزول السورة بالمدينة و أنّها نزلت في أهل البيت عليهم السلام .

على أنّ سياق آياتها وخاصّة قوله : « يوفون بالنذر » « و يطعمون الطعام »

الخ سياق قصّة واقعة و ذكر الأسير فيمن أطعموهم نعم الشاهد على نزول الآيات بالمدينة إذ لم يكن للمسلمين أسير بمكّة كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك .

قال بعضهم ما ملخّصه أنّ الروايات مختلفة في مكّيّة هذه السورة و مدنيّتها والأرجح أنّها مكّيّة بل الظاهر من سياقها أنّها من عتائق السور القرآنيّة النازلة بمكّة في أوائل البعثة يؤيّد ذلك ما ورد فيها من صور النعم الحسيّة المفصّلة الطويلة و صور العذاب الغليظ كما يؤيّده ما ورد فيها من أمر النبيّ ﷺ بالصبر لحكم ربّه و أن لا يطيع منهم آثماً أو كفوراً و يثبت على ما نزل عليه من الحقّ ولا يداهن المشركين من الأوامر الّتي كانت تتنزّل بمكّة عند اشتداد الأذى على الدعوة و أصحابها بمكّة كما في سورة القلم و المزّمّل و المدّثّر فلا عبرة باحتمال مدنيّة السورة .

و هو فاسد أمّا ما ذكره من اشتمال السورة على صور النعم الحسيّة المفصّلة الطويلة و صور العذاب الغليظ فليس ذلك ممّا يختصّ بالسور المكيّة حتّى يقضى به على كون السورة مكّيّة فهذه سورة الرحمان و سورة الحجّ مدنيّتان على ما تقدّمت في الروايات المشتملة على ترتيب نزول السور القرآنيّة وقد اشتملتا من صور النعم الحسيّة المفصّلة الطويلة وصور العذاب الغليظ على ما يربو و يزيد على هذه السورة بكثير .

و أمّا ما ذكره من اشتمال السورة على أمر النبيّ ﷺ بالصبر و أن لا يطيع منهم آثماً أو كفوراً ولا يداهنهم و يثبت على ما نزل عليه من الحقّ ففيه أنّ هذه الأوامر واقعة في الفصل الثاني من آيات السورة وهو قوله : « إنّا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلا » إلى آخر السورة ومن المحتمل جدّاً أن يكون هذا الفصل من الآيات - وهو ذو سياق تامّ مستقلّ - نازلاً بمكّة ، ويؤيّده ما في كثير من الروايات المتقدّمة أنّ الّذي نزل في أهل البيت بالمدينة هو الفصل الأوّل من الآيات ، و على هذا أوّل السورة مدنيّ وآخرها مكّيّ .

ولوسلّم نزولها دفعة واحدة فأمره صلى الله عليه وآله بالصبر لا اختصاص له بالسور المكيّة فقد ورد في قوله : « واصبر نفسك مع الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه و كان أمره فرطا » الكهف : ٢٨ والآية ـ على ما روي ـ مدنيّة والآية ـ كما ترى ـ متّحدة المعنى مع قوله : « فاصبر لحكم ربّك » الخ و هي في سياق شبيه جدّاً بسياق هذه الآيات فراجع و تأمّل .

ثمّ الّذي كان يلقاه النبيّ صلى الله عليه وآله من أذى المنافقين والّذين في قلوبهم مرض والجفاة من ضعفاء الايمان لم يكن بأهون من أذى المشركين بمكّة يشهد بذلك أخبار سيرته .

ولا دليل أيضاً على انحصار الآثم والكفور في مشركي مكّة فهناك غيرهم من الكفّار وقد أثبت القرآن الإثم لجمع من المسلمين في موارد كقوله : « لكلّ امرىء منهم ما اكتسب من الإثم » النور : ١١، وقوله : « ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثمّ يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » النساء : ١١٢ .

وفي المجمع وروى العيّاشي بإسناده عن عبدالله بن بكير عن زرارة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله : « لم يكن شيئاً مذكوراً » قال : كان شيئاً ولم يكن مذكوراً.

اقول : وروى فيه أيضاً عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبدالله عليه السلام مثله.

وفيه أيضاً عن العيّاشي باسناده عن سعيد الحذّاء عن أبي جعفر عليه السلام قال : كان مذكوراً في العلم ولم يكن مذكوراً في الخلق .

اقول : يعني أنّه كان له ثبوت في علم الله ثمّ خلق بالفعل فصار مذكوراً فيمن خلق .

و في الكافي باسناده عن مالك الجهنيّ عن أبي عبدالله عليه السلام في الآية قال : كان مقدّراً غير مذكور .

اقول : هو في معنى الحديث السابق .

وفي تفسير القمّي في الآية قال : لم يكن في العلم ولا في الذكر ، وفي حديث آخر : كان في العلم ولم يكن في الذكر .

اقول : معنى الحديث الأوّل أنّه لم يكن في علم الناس ولا فيمن يذكرونه فيما بينهم ، ومعنى الثاني أنّه كان في علم الله ولم يكن مذكوراً عند الناس .

وفي تفسير القمّي أيضاً في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى « أمشاج نبتليه » قال : ماءِ الرجل والمرأة اختلطا جميعاً .

وفي الكافي بإسناده عن حمران بن أعين قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ : « إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً » قال : إمّا آخذ فهو شاكر وإما تارك فهو كافر .

اقول : ورواه القمّي في تفسيره بإسناده عن ابن أبي عمير عن أبي جعفر عليه السلام مثله ، وفي التوحيد بإسناده إلى حمزة بن الطيّار عن أبي عبدالله عليه السلام ما يقرب منه ولفظه : عرّفناه إمّا آخذاً وإمّا تاركاً .

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد وابن المنذر عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يعبّر عنه لسانه فإذا عبّر عنه لسانه إمّا شاكراً وإمّا كفوراً والله تعالى أعلم .

وفي أمالي الصدوق بإسناده عن الصادق عن أبيه عليهما السلام في حديث : « عيناً يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيراً » قال : هي عين في دار النبيّ صلى الله عليه وآله يفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين « يوفون بالنذر » يعني عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجاريتهم « ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً » يقول عابساً كلوحاً « ويطعمون الطعام على حبّه » يقول : على شهوتهم للطعام وإيثارهم له « مسكيناً » من مساكين المسلمين « ويتيماً » من يتامى المسلمين « وأسيراً » من اُسارى المشركين .

ويقولون إذا أطعموهم : « إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً » قال : والله ماقالوا هذا لهم ولكنّهم أضمروه في أنفسهم فأخبر الله بإضمارهم يقولون : لانريد جزاءً تكافوننا به ولاشكوراً تثنون علينا به ، ولكنّا إنّما أطعمناكم لوجه الله وطلب ثوابه .

وفي الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن

مردويه عن الحسن قال : كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية « ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » .

اقول : مدلول الرواية نزول الآية بالمدينة ، ونظيرها ما رواه فيه عن عبد بن حميد عن قتادة ، وما رواه عن ابن المنذر عن ابن جريح ، وما رواه عن عبد الرزّاق وابن المنذر عن ابن عبّاس .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : « يوماً عبوساً قمطريراً » قال : يقبض ما بين الأبصار .

وفي روضة الكافي بإسناده عن محمّد بن إسحاق المدنيّ عن أبي جعفر عليه السلام في صفة الجنّة قال : والثمار دانية منهم وهو قوله عزّ وجل : « ودانية عليهم ظلالها وذلّلت قطوفها تذليلا » من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الّذي يشتهيه من الثمار بفيه وهو متّكىء ، وإنّ الأنواع من الفاكهة ليقلن لوليّ الله : يا وليّ الله كلني قبل أن تأكل هذه قبلي .

وفي تفسير القمّي في قوله : « ولدان مخلّدون » قال : مسوّرون .

وفي المعاني بإسناده عن عبّاس بن يزيد قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام وكنت عنده ذات يوم : أخبرني عن قول الله عزّ وجل : « وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » ما هذا الملك الّذي كبّر الله عزّ وجل حتّى سمّاه كبيراً ؟ قال : إذا أدخل الله أهل الجنّة الجنّة أرسل رسولاً إلى وليّ من أوليائه فيجد الحجبة على بابه فتقول له : قف حتّى نستأذن لك ، فما يصل إليه رسول ربّه إلاّ بإذن فهو قوله عزّ وجل : « وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » .

وفي المجمع « وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » لا يزول ولا يفنى عن الصادق عليه السلام .

وفيه « عاليهم ثياب سندس خضر » وروي عن الصادق عليه السلام في معناه : تعلوهم الثياب فيلبسونها .

﴿ كلام في هوية الانسان على ما يفيده القرآن ﴾

لا ريب أن في هذا الهيكل المحسوس الّذي نسمّيه إنسانا مبدءً للحياة ينتسب إليه الشعور والإرادة ، وقد عبّر تعالى عنه في الكلام في خلق الإنسان ـ آدم ـ بالروح وفي سائر المواضع من كلامه بالنفس قال تعالى : « فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » الحجر : ٢٩ ص : ٧٢ ، وقال : « ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه » الم السجدة : ٩ .

والّذي يسبق من الآيتين إلى النظر البادىء أنّ الروح والبدن حقيقتان اثنتان متقارنتان نظير العجين المركّب من الماء والدقيق والإنسان مجموع الحقيقتين فإذا قارنت الروح الجسد كان إنسانا حيّاً وإذا فارقت فهو الموت .

لكن يفسّرها قوله تعالى : « قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم » الم السجدة : ١١ حيث يفيد أنّ الروح الّتي يتوفّاها ويأخذها قابض الأرواح هي الّتي يعبّر عنها بلفظة « كم » وهو الإنسان بتمام حقيقته لا جزء من مجموع فالمراد بنفخ الروح في الجسد جعل الجسد بعينه إنساناً لا ضمّ واحد إلى واحد آخر يغايره في ذاته وآثار ذاته فالإنسان حقيقة واحدة حين تعلّق روحه ببدنه وبعد مفارقة روحه البدن .

ويفيد هذا المعنى قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ثمّ خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثمّ أنشأناه خلقاً آخر » المؤمنون : ١٤ فالّذي أنشأه الله خلقاً آخر هو النطفة الّتي تكوّنت علقة ثمّ مضغة ثمّ عظاماً بعينها .

وفي معناها قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » فتقييد الشيء المنفي بالمذكور يعطي أنّه كان شيئاً لكن لم يكن مذكوراً

فقدكان أرضا أونطفة مثلا لكن لم يكن مذكوراً أنّه الإنسان الفلانيّ ثم صار هوهو.

فمفاد كلامه تعالى أنّ الإنسان واحد حقيقيّ هو المبدء الوحيد لجميع آثار البدن الطبيعيّة والآثار الروحيّة كما أنّه مجرّد في نفسه عن المادة كما يفيده أمثال قوله تعالى : « قل يتوفّاكم ملك الموت » وقوله : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » الزمر : ٤٢ وقوله : « ثمّ أنشأناه خلقاً آخر » وقد تقدّم بيانه .



☆ ☆ ☆

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (٣١) .

﴿ بيان ﴾

لمّا وصف جزاء الأبرار وما قدّر لهم من النعيم المقيم والملك العظيم بما صبروا في جنب الله وجّه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأمره بالصبر لحكم ربّه وأن لا يطيع هؤلاء الآثمين والكفّار المحبّين للعاجلة المتعلّقين بها المعرضين عن الآخرة من المشركين وسائر الكفّار والمنافقين وأهل الأهواء، وأن يذكر اسم ربّه ويسجد له ويسبّحه مستمرّاً عليه ثمّ عمّم الحكم لاُمّته بقوله : « إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلا » .

فهذاوجه اتّصال الآيات بما قبلها وسياقها مع ذلك لا يخلو من شبه بالسياقات المكّيّة وعلى تقدير مكّيّتها فصدر السورة مدنيّ وذيلها مكّي .

قوله تعالى : « إنّا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلا » تصدير الكلام بإنّ وتكرار ضمير المتكلّم مع الغير والاتيان بالمفعول المطلق كلّ ذلك للتأكيد ، ولتسجيل أنّ الّذي نزل من القرآن نجوماً متفرّقة هو من الله سبحانه لم يداخله نفث شيطانيّ ولا هوى نفسانيّ .

قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربّك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » تفريع على ما هو لازم مضمون الآية السابقة فإنّ لازم كون الله سبحانه هو الّذي نزّل القرآن عليه أن يكون ما في القرآن من الحكم حكم ربّه يجب أن يطاع فالمعنى إذا كان تنزيله منّا فما فيه من الحكم حكم ربّك فيجب عليك أن تصبر له فاصبر لحكم ربّك .

وقوله : « ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » ورود الترديد في سياق النهي يفيد عموم الحكم فالنهي عن طاعتهما سواء اجتمعا أو افترقا ، والظاهر أنّ المراد بالآثم المتلبّس بالمعصية وبالكفور المبالغ في الكفر فتشمل الآية الكفّار والفسّاق جميعاً .

وسبق النهي عن طاعة الآثم والكفور بالأمر بالصبر لحكم ربّه يفيد كون النهي مفسّراً للأمر فمفاد النهي أن لا تطع منهم آثماً إذا دعاك إلى إثمه ولا كفوراً إذا دعاك إلى كفره لأنّ إثم الآثم منهم وكفر الكافر مخالفان لحكم ربّك وأمّا تعليق الحكم بالوصف المشعر بالعلّيّة فإنّما يفيد علّيّة الإثم والكفر للنهي عن الطاعة مطلقاً لا علّيّتهما للنهي إذا دعا الآثم إلى خصوص إثمه والكافر إلى خصوص كفره .

قوله تعالى : « واذكر اسم ربّك بكرة وأصيلا » أي داوم على ذكر ربّك وهو الصلاة في كلّ بكرة وأصيل وهما الغدوّ والعشيّ .

قوله تعالى : « ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلاً طويلاً » « من » للتبعيض والمراد بالسجود له الصلاة ، ويقبل ما في الآيتين من ذكر اسمه بكرة وأصيلا والسجود

له بعض الليل الانطباق على صلاة الصبح والعصر والمغرب والعشاء وهذا يؤيّد نزول الآيات بمكّة قبل فرض الفرائض الخمس بقوله في آية الإسراء: « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر » أسرى : ٧٨ .

فالآيتان كقوله تعالى : « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل » هود : ١١٤ ، وقوله : « وسبّح بحمدربّك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبّح وأطراف النهار » طه : ١٣٠ .

نعم قيل : إنّ الأصيل يطلق على ما بعد الزوال فيشمل قوله : « وأصيلا » وقتي صلاتي الظهر والعصر جميعاً ، ولا يخلو من وجه .

و قوله : « و سبّحه ليلاً طويلاً » أي في ليل طويل و وصف الليل بالطويل توضيحي لااحترازيّ ، و المراد بالتسبيح صلاة الليل ، و احتمل أن يكون طويلا صفة لمفعول مطلق محذوف و التقدير سبّحه في اللّيل تسبيحا طويلا .

قوله تعالى : « إنّ هؤلاء يحبّون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً » تعليل لما تقدّم من الأمر والنهي و الإشارة بهؤلاء إلى جمع الآثم و الكفور المدلول عليه بوقوع النكرة في سياق النهي ، و المراد بالعاجلة الحياة الدنيا ، وعدّ اليوم ثقيلاً من الاستعارة ، والمراد بثقله شدّته كأنّه محمول ثقيل يشقّ حمله ، و اليوم يوم القيامة .

و كون اليوم وراءهم تقرّره أمامهم لأنّ وراءِ تفيد معنى الإحاطة ، أو جعلهم إيّاه خلفهم و وراء ظهورهم بناءِ على إفادة « تذرون » معنى الإعراض .

و المعنى فاصبر لحكم ربّك و أقم الصلاة ولا تطع الآثمين و الكفّار منهم لأنّ هؤلاءِ الآثمين و الكفّار يحبّون الحياة الدنيا فلا يعملون إلاّ لها و يتركون أمامهم يوماً شديداً أويعرضون فيجعلون خلفهم يوماً شديداً سيلقونه .

قوله تعالى : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلا» الشدّ خلاف الفكّ ، و الأسر في الأصل الشدّ و الربط ويطلق على ما يشدّ ويربط به فمعنى شددنا أسرهم أحكمنا ربط مفاصلهم بالرباطات والأعصاب والعضلات أوالأسر

بمعنى المأسور والمعنى أحكمنا ربط أعضائهم المختلفة المشدودة بعضها ببعض حتّى صار الواحد منهم بذلك إنساناً واحداً .

و قوله : « و إذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً » أي إذا شئنا بدّلناهم أمثالهم فذهبنا بهم وجئنا بأمثالهم مكانهم وهو إماتة قرن و إحياء آخرين ، و قيل : المراد به تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة القيامة و هو بعيد من السياق .

والآية في معنى دفع الدخل كأنّ متوهّماً يتوهّم أنّهم بحبّهم للدنيا وإعراضهم عن الآخرة يعجزونه تعالى و يفسدون عليه إرادته منهم أن يؤمنوا ويطيعوا فاُجيب بأنّهم مخلوقون لله خلقهم و شدّ أسرهم و إذا شاء أذهبهم و جاء بآخرين فكيف يعجزونه و خلقهم و أمرهم و حياتهم و موتهم بيده ؟

قوله تعالى : « إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً » تقدّم تفسيره في سورة المزّمّل و الإشارة بهذه إلى ما ذكر في السورة .

قوله تعالى : « و ما تشاؤن إلاّ أن يشاء الله إنّ الله كان عليماً حكيماً » الاستثناء من النفي يفيد أنّ مشيّة العبد متوقّفة في وجودها على مشيّته تعالى فلمشيّته تعالى تأثير في فعل العبد من طريق تعلّقها بمشيّة العبد ، و ليست متعلّقة بفعل العبد مستقلّاً و بلا واسطة حتّى تستلزم بطلان تأثير إرادة العبد وكون الفعل جبريّاً و لا أنّ العبد مستقلّ في إرادة يفعل ما يشاؤه شاء الله أولم يشأ ، فالفعل اختياريّ لاستناده إلى اختيار العبد ، و أمّا اختيار العبد فليس مستنداً إلى اختيار آخر ، وقد تكرّر توضيح هذا البحث في مواضع ممّا تقدّم .

و الآية مسوقة لدفع توهّم أنّهم مستقلّون في مشيّتهم منقطعون من مشيّة ربّهم ، و لعلّ تسجيل هذا التنبيه عليهم هو الوجه في الالتفات إلى الخطاب في قوله : « و ما تشاؤن إلاّ أن يشاء الله » كما أنّ الوجه في الالتفات من التكلّم بالغير إلى الغيبة في قوله : « يشاء الله إنّ الله » هو الإشارة إلى علّة الحكم فإنّ مسمّى هذا الاسم الجليل يبتدىء منه كلّ شيء وينتهي إليه كلّ شيء فلا تكون مشيّة إلاّ بمشيّته

و لا تؤثّر مشيّة إلاّ بإذنه .

و قوله : « إنّ الله كان عليماً حكيماً » توطئة لبيان مضمون الآية التالية .

قوله تعالى : « يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً » مفعول « يشاء » محذوف يدلّ عليه الكلام ، و التقدير يدخل في رحمته من يشاء دخوله في رحمته ، و لا يشاء إلاّ دخول من آمن و اتّقى ، و أمّا غيرهم و هم أهل الإثم و الكفر فبيّن حالهم بقوله : « و الظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً » .

والآية تبيّن سنّته تعالى الجارية في عباده من حيث السعادة والشقاء ، وقد علّل ذلك بما في ذيل الآية السابقة من قوله : « إنّ الله كان عليماً حكيماً » فأفاد به أنّ سنّته تعالى ليست سنّة جزافيّة مبنيّة على الجهالة بل هو يعامل كلاًّ من الطائفتين بما هو أهل له و سينبّئهم حقيقة ما كانوا يعملون .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدّر المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : « و لا تطع منهم آثماً أو كفوراً » قال : حدّثنا أنّها نزلت في عدوّ الله أبي جهل .

اقول : و هو أشبه بالتطبيق .

و في المجمع في قوله تعالى : « و سبّحه ليلاً طويلاً » روي عن الرضا عليه‌السلام أنّه سأله أحمد بن محمّد عن هذه الآية و قال : ما ذلك التسبيح ؟ قال : صلاة الليل .

وفي الخرائج والجرائح عن القائم عليه‌السلام في حديث يقول لكامل بن إبراهيم المدنيّ : وجئت تسأل عن مقالة المفوّضة كذبوا بل قلوبنا أوعية لمشيّة الله عزّوجلّ فإذا شاء شئنا ، و الله يقول : « و ما تشاؤن إلاّ أن يشاء الله » .

و في الدّر المنثور أخرج ابن مردويه من طريق ابن شهاب عن سالم عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كان يقول إذا خطب : كلّ ما هو آت قريب ، لا بعد لما

يأتي ، و لا يعجل الله لعجلة أحد ، ما شاء الله لا ما شاء الناس ، يريد الناس أمراً و يريد الله أمراً ، ما شاء الله كان و لوكره الناس ،لامباعد لما قرّب الله ، و لا مقرّب لما باعد الله ، لا يكون شيء إلاّ باذن الله .

اقول : و في بعض الروايات من طرق أهل البيت عليهم السلام تطبيق الحكم في قوله : « فاصبر لحكم ربّك » و الرحمة في قوله : « يدخل من يشاءِ في رحمته » على الولاية و هومن الجري أوالبطن وليس من التفسيرفي شيء .



﴿ سورة المرسلات مكّيّة و هي خمسون آية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً (٢) وَ النَّاشِرَاتِ نَشْراً (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (٥) عُذْراً أَوْ نُذْراً (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَ إِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)

﴿ بيان ﴾

تذكر السورة يوم الفصل و هو يوم القيامة و تؤكّد الإخبار بوقوعه و تشفّعه بالوعيد الشديد للمكذّبين به والإنذار و التبشير لغيرهم و يربو فيها جانب الوعيد على غيره فقد كرّر فيها قوله : « ويل يومئذ للمكذّبين » عشر مرّات .

والسورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « والمرسلات عرفاً » الآية وما يتلوها إلى تمام ستّ آيات إقسام منه تعالى بأُمور يعبّر عنها بالمرسلات فالعاصفات و الناشرات فالفارقات فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً ، و الاُوليان أعني المرسلات عرفا والعاصفات عصفاً لا تخلوان لو خلّيتا ونفسهما مع الغضّ عن السياق من ظهور مّا في الرياح المتعاقبة الشديدة الهبوب لكنّ الاُخيرة أعني الملقيات ذكراً عذراً أو نذراً كالصريحة في الملائكة النازلين على الرسل الحاملين لوحي الرسالة الملقين له إليهم إتماماً للحجّة أو إنذاراً و بقيّة الصفات

لا تأبى الحمل على ما يناسب هذا المعنى .

وحمل جميع الصفات الخمس على إرادة الرياح كما هو ظاهر المرسلات والعاصفات ـ على ما عرفت ـ يحتاج إلى تكلّف شديد في توجيه الصفات الثلاث الباقية وخاصّة في الصفة الأخيرة .

و كذا حمل المرسلات والعاصفات على إرادة الرياح و حمل الثلاث الباقية أو الأخيرتين أو الأخيرة فحسب على ملائكة الوحي إذ لا تناسب ظاهراً بين الرياح و بين ملائكة الوحي حتّى يقارن بينها في الاقسام و ينظم الجميع في سلك واحد ، وما وجّهوه به من مختلف التوجيهات معان بعيدة عن الذهن لا ينتقل إليها في مفتتح الكلام من غير تنبيه سابق .

فالوجه هو الغضّ عن هذه الأقاويل و هي كثيرة جدّاً لا تكاد تنضبط ، و حمل المذكورات على إرادة ملائكة الوحي كنظيرتها في مفتتح سورة الصافّات « والصّافات صفّاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً » و في معناها قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول فانّه يسلك من بين يديه و من خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم » الجن : ٢٨ .

فقوله : « والمرسلات عرفاً » إقسام منه تعالى بها و العرف بالضمّ فالسكون الشعر النابت على عنق الفرس و يشبّه به الأمور إذا تتابعت يقال : جاؤا كعرف الفرس ، و يستعار فيقال : جاء القطا عرفاً أي متتابعة و جاؤا إليه عرفاً واحداً أي متتابعين ، والعرف أيضاً المعروف من الأمر و النهي و « عرفاً » حال بالمعنى الأوّل مفعول له بالمعنى الثاني ، والارسال خلاف الإمساك ، و تأنيث المرسلات باعتبار الجماعات أو باعتبار الروح الّتي تنزّل بها الملائكة قال تعالى : « ينزّل الملائكة بالروح من أمره على يشاء من عباده » النحل : ٢ وقال « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » المؤمن : ١٥ .

والمعنى اُقسم بالجماعات المرسلات من ملائكة الوحي .

و قيل : المراد بالمرسلات عرفاً الرياح المتتابعة المرسلة وقد تقدّمت الاشارة إلى

ضعفه ، و مثله في الضعف القول بأنّ المراد بها الانبياء عليهم السلام فلا يلائمه ما يتلوها .

قوله تعالى : « فالعاصفات عصفاً » عطف على المرسلات والمراد بالعصف سرعة السير استعارة من عصف الرياح إي سرعة هبوبها إشارة إلى سرعة سيرها إلى ما اُرسلت إليه ، والمعنى اُقسم بالملائكة الّذين يرسلون متتابعين فيسرعون في سيرهم كالرياح العاصفة .

قوله تعالى : « و الناشرات نشراً » إقسام آخر ، و نشر الصحيفة و الكتاب والمتوب ونحوها بسطه ، والمراد بالنشر نشر صحف الوحي كما يشير إليه قوله تعالى: « كلاّ إنّها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرّمة مرفوعة مطهّرة بأيدي سفرة كرام بررة » عبس : ١٦ والمعنى و اُقسم بالملائكة الناشرين للصحف المكتوبة عليها الوحي للنبيّ ليتلقّاه .

و قيل : المراد بها الرياح ينشرها الله تعالى بين يدي رحمته و قيل : الرياح الناشرة للسحاب ، و قيل : الملائكة الناشرين لصحائف الأعمال ، و قيل : الملائكة نشروا أجنحتهم حين النزول و قيل : غير ذلك .

قوله تعالى : « فالفارقات فرقاً » المراد به الفرق بين الحقّ و الباطل و بين الحلال والحرام ، والفرق المذكور صفة متفرّعة على النشر المذكور .

قوله تعالى : « فالملقيات ذكراً عذراً أونذراً » المراد بالذكر القرآن يقرؤونه على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو مطلق الوحي النازل على الأنبياء المقرّو عليهم .

والصفات الثلاث أعني النشر والفرق والإلقاء مترتّبة فإنّ الفرق بين الحقّ والباطل والحلال والحرام يتحقّق بنشر الصحف والقائها فبالنشر يشرع الفرق في التحقّق وبالإلقاء يتمّ تحقّقه فالنشر يترتّب عليه مرتبة من وجود الفرق ويترتّب عليها تمام وجوده بالالقاء .

وقوله : « عذراً أو نذراً » هما من المفعول له و « أو » للتنويع قيل : هما مصدران بمعنى الإعذار والإنذار ، والإعذار الإتيان بما يصير به معذورا والمعنى أنّهم يلقون الذكر لتكون عذراً لعباده المؤمنين بالذكر وتخويفا لغيرهم .

وقيل : ليكون عذراً يعتذر به الله إلى عباده في العقاب أنّه لم يكن إلّا على وجه الحكمة ، ويؤل إلى إتمام الحجّة ، فمحصّل المعنى عليه أنّهم يلقون الذكر ليكون إتماماً للحجّة على المكذّبين وتخويفا لغيرهم . وهو معنى حسن .

قوله تعالى : « إنّ ماتوعدون لواقع » جواب القسم ، وما موصولة والخطاب لعامّة البشر ، والمراد بما توعدون يوم القيامة بما فيه من العقاب والثواب والواقع أبلغ من الكائن لما فيه من شائبة الاستقرار ، والمعنى أنّ الّذي وعدكم الله به من البعث والعقاب والثواب سيتحقّق لامحالة .

﴿ كلام في اقسامه تعالى في القرآن ﴾

من لطيف صنعة البيان في هذه الآيات الستّ أنّها مع ماتتضمّن الإقسام لتأكيد الخبر الّذي في الجواب تتضمّن الحجّة على مضمون الجواب وهو وقوع الجزاء الموعود فإنّ التدبير الربوبيّ الّذي يشير إليه القسم أعني إرسال المرسلات العاصفات ونشرها الصحف وفرقها وإلقاءها الذكر للنبيّ تدبير لا يتمّ إلّا مع وجود التكليف الإلهيّ و التكليف لا يتمّ إلّا مع تحتّم وجود يوم معدّ للجزاء يجازى فيه العاصي والمطيع من المكلّفين .

فالّذي أقسم تعالى به من التدبير لتأكيد وقوع الجزاء الموعود هو بعينه حجّة على وقوعه كأنّه قيل : اُقسم بهذه الحجّة أنّ مدلولها واقع .

وإذا تأمّلت الموارد الّتي اُورد فيها القسم في كلامه تعالى وأمعنت فيها وجدت المقسم به فيها حجّة دالّة على حقّيّة الجواب كقوله تعالى في الرزق : « فوربّ السماء والأرض إنّه لحقّ » الذاريات : ٢٣ فإنّ ربوبيّة السماء والأرض هي المبدء لرزق المرزوقين ، وقوله : « لعمرك إنّهم لفي سكرتهم يعمهون » الحجر : ٧٢ فإنّ حياة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الطاهرة المصونة بعصمة من الله دالّة على سكرهم وعمههم ، وقوله : « والشمس وضحاها ـ إلى أن قال ـ ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد

أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها » الشمس : ١٠ فإنّ هذا النظام المتقن المنتهي إلى النفس الملهمة المميّزة لفجورها وتقواها هو الدليل على فلاح من زكّاها وخيبة من دسّاها .

وعلى هذا النسق سائر ما ورد من القسم في كلامه تعالى وإن كان بعضها لايخلو من خفاء يحوج إلى إمعان من النظر كقوله : « والتين والزيتون وطور سينين » التين : ٢ وعليك بالتدبّر فيها .

☆☆☆

قوله تعالى : « فإذا النجوم طمست ـ إلى قوله ـ اُقّتت » بيان لليوم الموعود الّذي اُخبر بوقوعه في قوله : « إنّما توعدون لواقع » وجواب إذا محذوف يدلّ عليه قوله : « لأيّ يوم اُجّلت ـ إلى قوله ـ للمكذّبين » .

وقد عرّف سبحانه اليوم الموعود بذكر حوادث واقعة تلازم انقراض العالم الإنسانيّ وانقطاع النظام الدنيويّ كانطماس النجوم وانشقاق الأرض واندكاك الجبال وتحوّل النظام إلى نظام آخر يغايره ، وقد تكرّر ذلك في كثير من السور القرآنيّة وخاصّة السور القصار كسورة النبأ والنازعات والتكوير والانفطار والانشقاق والفجر والزلزال والقارعة وغيرها ، وقد عدّت الاُمور المذكورة فيها في الأخبار من أشراط الساعة .

ومن المعلوم بالضرورة من بيانات الكتاب والسنّة أنّ نظام الحياة في جميع شؤنها في الآخرة غير نظامها في الدنيا فالدار الآخرة دار أبديّة فيها محض السعادة لساكنيها لهم فيها ما يشاؤن أو محض الشقاء وليس لهم فيها إلّا ما يكرهون والدار الدنيا دار فناء وزوال لايحكم فيها إلّا الأسباب والعوامل الخارجيّة الظاهريّة مخلوط فيها الموت بالحياة ، والفقدان بالوجدان ، والشقاء بالسعادة ، والتعب بالراحة ، والمساءة بالسرور ، والآخرة دار جزاء ولاعمل والدنيا دار عمل ولاجزاء ، وبالجملة النشأة غير النشأة .

فتعريفه تعالى نشأة البعث والجزاء بأشراطها الّتي فيها انطواء بساط الدنيا

بخراب بنيان أرضها وانتساف جبالها وانشقاق سمائها وانطماس نجومها إلى غير ذلك من قبيل تحديد نشأة بسقوط النظام الحاكم في نشأة اُخرى قال تعالى : « ولقد علمتم النشأة الاُولى فلولا تذكّرون » الواقعة : ٦٢ .

فقوله : « فاذا النجوم طمست » أي محي أثرها من النور وغيره ، والطمس إزالة الأثر بالمحو قال تعالى : « وإذا النجوم انكدرت » التكوير : ٢ .

وقوله : «وإذا السماءِ فرجت » أي انشقّت ، والفرج والفرجة الشقّ بين الشيئين قال تعالى : « إذا السماءِ انشقّت » الانشقاق : ١ .

وقوله : « وإذا الجبال نسفت » أي قلعت واُزيلت من قولهم : نسفت الريح الشيءِ أي اقتلعته وأزالته قال تعالى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربّي نسفا » طه : ١٠٥ .

وقوله : « وإذا الرسل اُقّتت » أي عيّن لها الوقت الّذي تحضر فيه للشهادة على الاُمم أو بلغت الوقت الّذي تنتظره لأداءِ شهادتها على الاُمم من التأقيت بمعنى التوقيت ، قال تعالى : « فلنسألنّ الّذين اُرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين » الأعراف ٦ ، وقال : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اُجبتم » المائدة : ١٠٩ .

قوله تعالى « لأيّ يوم اُجّلت ـ إلى قوله : ـ للمكذّبين » الأجل المدّة المضروبة للشيء ، والتأجيل جعل الأجل للشيء ، ويستعمل في لازمه وهو التأخير كقولهم : دين مؤجّل أي له مدّة بخلاف الحالّ وهذا المعنى هو الأنسب للآية ، والضمير في « اُجّلت » للاُمور المذكورة قبلاً من طمس النجوم وفرج السماء ونسف الجبال وتأقيت الرسل ، والمعنى لأيّ يوم اُخّرت يوم اُخّرت هذه الاُمور .

واحتمل أن يكون «اُجّلت» بمعنى ضرب الأجل للشيء وأن يكون الضمير المقدّر فيه راجعا إلى الرسل ، أو إلى مايشعر به الكلام من الاُمور المتعلّقة بالرسل ممّا اُخبروا به من أحوال الآخرة و أهوالها و تعذيب الكافرين و تنعيم المؤمنين فيها ، ولا يخلو كلّ ذلك من خفاء .

وقد سيقت الآية والّتي بعدها أعني قوله : « لأيّ يوم اُجّلت ليوم الفصل » في

صورة الإستفهام وجوابه للتعظيم والتهويل والتعجيب وأصل المعنى اُخّرت هذه الاُمور ليوم الفصل .

وهذا النوع من الجمل الاستفهاميّة في معنى تقدير القول ، والمعنى إنّ من عظمة هذا اليوم وهوله وكونه عجباً أنّه يسأل فيقال : لأيّ يوم اُخّرت هذه الاُمور العظيمة الهائلة العجيبة فيجاب : ليوم الفصل .

وقوله : «ليوم الفصل» هو يوم الجزاء الذي فيه فصل القضاء قال تعالى : «إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة» الحجّ : ١٧ .

وقوله : «وما أدراك ما يوم الفصل» تعظيم لليوم وتفخيم لأمره .

وقوله : «ويل يومئذ للمكذّبين» الويل الهلاك ، والمراد بالمكذّبين المكذّبون بيوم الفصل الّذي فيه ما يوعدون فإنّ الآيات مسوقة لبيان وقوعه وقد أقسم على أنّه واقع .

وفي الآية دعاء على المكذّبين ، وقد استغني به عن ذكر جواب إذا في قوله : «فإذا النجوم طمست» الخ والتقدير فإذا كان كذا وكذا وقع ماتوعدون من العذاب على التكذيب أو التقدير فإذا كان كذا وكذا كان يوم الفصل وهلك المكذّبون به .

﴿ بحث روائي ﴾

في الخصال عن ابن عبّاس قال : قال أبوبكر : أسرع الشيب إليك يارسول الله . قال صلى الله عليه وآله : شيّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون .

وفي الدرّ المنثور أخرج البخاريّ ومسلم والنسائيّ وابن مردويه عن ابن مسعود قال : بينما نحن مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في غار بمنى إذ نزلت عليه سورة والمرسلات عرفاً فإنّه يتلوها وإنّي لألقاها من فيه وإنّ فاه لرطب بها إذ وثبت عليه حيّة فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : أقتلوها فابتدرناها فذهبت فقال النبيّ (ص) وقيت شرّكم كما وقيتم شرّها .

أقول : ورواها أيضاً بطريقين آخرين .

وفي تفسير القمي ّ في قوله تعالى : « والمرسلات عرفا » قال : آيات تتبع بعضها بعضاً .

و في المجمع في الآية و قيل : إنّها الملائكة اُرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه . في رواية الهروي ّ عن ابن مسعود ، وعن أبي حمزة الثمالي ّ عن أصحاب علي ّ عنه عليه السلام .

وفي تفسير القمي ّ في قوله تعالى : « فاذا النجوم طُمست » قال : يذهب نورها وتسقط .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : «فاذا النجوم طمست» فطمسها ذهاب ضوئها «وإذا السماء فرجت» قال : تفرج وتنشق ّ «وإذا الرسل اُقّتت» قال : بعثت في أوقات مختلفة .

وفي المجمع قال الصادق عليه السلام : «اُقّتت» أي بعثت في أوقات مختلفة .

وفي تفسير القمي ّ في قوله تعالى : «لأي ّ يوم اُجّلت» قال : اُخّرت .

☆ ❋ ☆

اَلَمْ نُهْلِكِ الْاَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْاٰخِرِينَ (١٧) كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) اَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) اِلٰى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) اَلَمْ نَجْعَلِ الْاَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) اَحْيَاءً وَاَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَاَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) اِنْطَلِقُوا اِلٰى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) اِنْطَلِقُوا اِلٰى ظِلٍّ ذِي ثَلٰثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) اِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَاَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْاَوَّلِينَ (٣٨) فَاِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) اِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) اِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا

إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

﴿ بيان ﴾

حجج دالّة على توحّد الربوبيّة تقضي بوجود يوم الفصل الّذي فيه جزاء المكذّبين به ، و إشارة إلى ما فيه من الجزاء المعدّ لهم الّذي كانوا يكذّبون به ، و إلى ما فيه من النعمة والكرامة للمتّقين ، وتختتم بتوبيخهم و ذمّهم على استكبارهم عن عبادته تعالى و الإيمان بكلامه .

قوله تعالى : « ألم نهلك الأوّلين ثمّ نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين » الاستفهام للإنكار ، و المراد بالأوّلين أمثال قوم نوح وعاد وثمود من الأمم القديمة عهداً ، و بالآخرين الملحقون بهم من الاُمم الغابرة ، و الإتباع جعل الشيء إثر الشيء .

و قوله : « ثمّ نتبعهم » برفع نتبع على الاستيناف وليس بمعطوف على « نهلك » و إلّا لجزم .

و المعنى قد أهلكنا المكذّبين من الاُمم الأوّلين ثمّ إنّا نهلك الأمم الآخرين على إثرهم .

و قوله : « كذلك نفعل بالمجرمين » في موضع التعليل لما تقدّمه و لذا اُورد بالفصل من غير عطف كأنّ قائلاً قال : لماذا اُهلكوا ؟ فقيل : كذلك نفعل بالمجرمين . و الآيات ـ كما ترى ـ إنذار و إرجاع للبيان إلى الأصل المضروب في السورة أعني قوله : « ويل يومئذ للمكذّبين » و هي بعينها حجّة على توحّد الربوبيّة فإنّ إهلاك المجرمين من الإنسان تصرّف في العالم الإنساني و تدبير ، و إذ ليس المهلك إلّا الله ـ و قد اعترف به المشركون ـ فهو الرّبّ لا ربّ سواه ولا إله غيره .

على أنّها تدلّ على وجود يوم الفصل لأنّ إهلاك قوم لإجرامهم لا يتمّ إلاّ بعد توجّه تكليف إليهم يعصونه و لامعنى للتكليف إلاّ مع مجازاة المطيع بالثواب و العاصي بالعقاب فهناك يوم يفصل فيه القضاء فيثاب فيه المطيع ويعاقب فيه العاصي و ليس هو الثواب و العقاب الدنيويين لأنّهما لا يستوعبان في هذه الدار فهناك يوم يجازى فيه كلّ بما عمل ، و هو يوم الفصل ذلك يوم مجموع له الناس .

قوله تعالى : « ألم نخلقكم من ماءٍ مهين ـ إلى قوله ـ فنعم القادرون » الاستفهام للإنكار ، والماءِ المهين الحقير قليل الغناء والمراد به النطفة ، و المراد بالقرار المكين الرحم و بقوله : « قدر معلوم » مدّة الحمل .

و قوله : « فقدرنا » من القدر بمعنى التقدير ، والفاء لتفريع القدر على الخلق أي خلقناكم فقدرنا ما سيجري عليكم من الحوادث و ما يستقبلكم من الأوصاف و الأحوال من طول العمر و قصره و هيئة و جمال و صحّة و مرض و رزق إلى غير ذلك .

واحتمل أن يكون « قدرنا » من القدرة مقابل العجز والمراد فقدرنا على جميع ذلك ، و ما تقدّم أوجه .

والمعنى قد خلقناكم من ماء حقير هو النطفة فجعلنا ذلك الماء في قرار مكين هي الرحم إلى مدّة معلومة هي مدّة الحمل فقدّرنا جميع ما يتعلّق بوجودكم من الحوادث والصفات والأحوال فنعم المقدّرون نحن .

و يجري في كون مضمون هذه الآيات حجّة على توحّد الربوبيّة نظير البيان السابق في الآيات المتقدّمة ، وكذا في كونه حجّة على تحقّق يوم الفصل فإنّ الربوبيّة تستوجب خضوع المربوبين لساحتها وهو الدين المتضمّن للتكليف ، و لا يتمّ التكليف إلاّ بجعل جزاء على الطاعة و العصيان ، و اليوم الّذي يجازى فيه بالأعمال هو يوم الفصل .

قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء و أمواتاً ـ إلى قوله ـ فراتاً » الكفت والكفات بمعنى الضمّ والجمع أي ألم نجعل الأرض كفاتاً يجمع العباد أحياء

و أمواتاً ، و قيل : الكفات جمع كفت بمعنى الوعاء ، والمعنى ألم نجعل الأرض أوعية تجمع الأحياء والأموات .

و قوله : « و جعلنا فيها رواسي شامخات» الرواسي الثابتات من الجبال ، والشامخات العاليات ، وكأنّ في ذكر الرواسي توطئة لقوله : « وأسقيناكم ماء فراتاً » لأنّ الأنهار والعيون الطبيعية تنفجر من الجبال فتجري على السهول ، والفرات الماء العذب .

و يجري في حجيّة الآيات نظير البيان السابق في الآيات المتقدّمة .

قوله تعالى : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون » حكاية لما يقال لهم يوم الفصل و القائل هو الله سبحانه بقرينة قوله في آخر الآيات : « إن كان لكم كيد فكيدون » والمراد بما كانوا به يكذّبون ، جهنّم ، والانطلاق الانتقال من مكان إلى مكان من غير مكث و المعنى يقال لهم : انتقلوا من المحشر من غير مكث إلى النار الّتي كنتم تكذّبون به .

قوله تعالى : « انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب » ذكروا أنّ المراد بهذا الظلّ ظلّ دخان نار جهنّم قال تعالى : «وظلّ من يحموم» الواقعة :٤٣ .

و ذكروا أنّ في ذكر انشعابه إلى ثلاث شعب إشارة إلى عظم الدخان فانّ الدخان العظيم يتفرّق تفرّق الذوائب .

قوله تعالى : « لا ظليل و لا يغني من اللهب » الظلّ الظليل هو المانع من الحرّ و الأذى بستره على المستظلّ فكون الظلّ غير ظليل كونه لا يمنع ذلك ، واللهب ما يعلو على النار من أحمر و أصفر و أخضر .

قوله تعالى : « إنّها ترمي بشرر كالقصر كأنّه جمالة صفر» ضمير « إنّها » للنار المعلومة من السياق ، والشرر ما يتطاير من النار ، والقصر معروف ، و الجمالة جمع جمل و هو البعير . والمعنى ظاهر.

قوله تعالى : « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » الإشارة إلى يوم الفصل ، والمراد بالإذن الإذن في النطق أو في الاعتذار .

وقوله « فيعتذرون » معطوف على « يؤذن » منتظم معه في سلك النفي ، والمعنى هذا اليوم يوم لا ينطقون فيه أي أهل المحشر من الناس و لا يؤذن لهم في النطق أو في الاعتذار فلا يعتذرون ، و لا ينافي نفي النطق ههنا إثباته في آيات اُخر لأنّ اليوم ذو مواقف كثيرة مختلفة يسألون في بعضها فينطقون ويختم على أفواههم في آخر فلا ينطقون .

و قد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « يوم يأت لا تكلّم نفس إلّا بإذنه » هود : ١٠٥ فليراجع .

قوله تعالى : « هذا يوم الفصل جمعناكم والأوّلين فإن كان لكم كيد فكيدون » سمّي يوم الفصل لما أنّ الله تعالى يفصل و يميّز فيه بين أهل الحقّ و أهل الباطل بالقضاء بينهم قال تعالى : « إنّ ربّك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » السجدة : ٢٥ ، و قال : « إنّ ربّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » يونس : ٩٣ .

والخطاب في قوله : « جمعناكم و الأوّلين » لمكذّبي هذه الاُمّة بما أنّهم من الآخرين ولذا قوبلوا بالأوّلين قال تعالى: « ذلك يوم مجموع له الناس» هود :١٠٣ وقال « وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً » الكهف : ٤٧ .

وقوله : « فإن كان لكم كيد فكيدون » أي إن كانت لكم حيلة تحتالون بي في دفع عذابي عن أنفسكم فاحتالوا ، وهذا خطاب تعجيزيّ منبىء عن انسلاب القوّة والقدرة عنهم يومئذ بالكلّيّة بظهور أن لا قوّة إلّا لله عزّ اسمه قال تعالى : « و لو يرى الّذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوّة لله جميعاً و أنّ الله شديد العذاب إذ تبرّء الّذين اتّبعوا من الّذين اتّبعوا و رأوا العذاب و تقطّعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ .

و الآية أعني قوله : « إن كان لكم كيد فكيدون » أوسع مدلولاً من قوله : « يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا

لا تنفذون إلاّ بسلطان » الرحمن : ٣٣ لاختصاصه بنفي القدرة على الفرار بخلاف الآية الّتي نحن فيها .

وفي قوله : « فكيدون » التفات من التكلّم مع الغير إلى التكلّم وحده والنكتة فيه أنّ متعلّق هذا الأمر التعجيزيّ إنّما هو الكيد لمن له القوّة والقدرة فحسب و هو الله وحده ولو قيل : فكيدونا فات الإشعار بالتوحّد .

قوله تعالى : «إنّ المتّقين في ظلال وعيون و فواكه ممّا يشتهون ـ إلى قوله ـ المحسنين » الظلال والعيون ظلال الجنّة و عيونها الّتي يتنعّمون بالاستظلال بها و شربها ، والفواكه جمع فاكهة و هي الثمرة .

و قوله : « كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » مفاده الإذن والإباحة ، و كأنّ الأكل والشرب كناية عن مطلق التنعّم بنعم الجنّة و التصرّف فيها و إن لم يكن بالأكل والشرب ، وهو شائع كما يطلق أكل المال على مطلق التصرّف فيه .

و قوله : « إنّا كذلك نجزي المحسنين » تسجيل لسعادتهم .

قوله تعالى : « كلوا و تمتّعوا قليلا إنّكم مجرمون » الخطاب من قبيل قولهم : إفعل ما شئت فانّه لا ينفعك ، و هذا النوع من الأمر إيآس للمخاطب أن ينتفع بما يأتي به من الفعل للحصول على ما يريده ، ومنه قوله : « فاقض ما أنت قاض إنّما تقضي هذه الحياة الدنيا » طه : ٧٢ ، و قوله : « اعملوا ما شئتم إنّه بما تعملون بصير » حمٓ السجدة : ٤٠ .

فقوله : « كلوا وتمتّعوا قليلا » أي تمتّعاً قليلاً أو زماناً قليلا إيآس لهم من أن ينتفعوا بمثل الأكل والتمتّع في دفع العذاب عن أنفسهم فليأكلوا وليتمتّعوا قليلا فليس يدفع عنهم شيئاً .

وإنّما ذكر الأكل والتمتّع لأنّ منكري المعاد لا يرون من السعادة إلاّ سعادة الحياة الدنيا ولا يرون لها من السعادة إلاّ الفوز بالأكل والتمتّع كالحيوان العجم قال

تعالى: « والّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » سورة محمّد : ١٢ .

وقوله : « إنّكم مجرمون » تعليل لما يستفاد من الجملة السابقة المشتملة على الأمر أي لا ينفعكم الأكل والتمتّع قليلاً لأنّكم مجرمون بتكذيبكم بيوم الفصل وجزاء المكذّبين به النار لا محالة .

قوله تعالى : «وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون » المراد بالركوع الصلاة كما قيل ولعلّ ذلك باعتبار اشتمالها على الركوع .

وقيل : المراد بالركوع المأمور به الخشوع والخضوع والتواضع له تعالى باستجابة دعوته وقبول كلامه واتّباع دينه ، وعبادته .

وقيل : المراد بالركوع ما يؤمرون بالسجود يوم القيامة كما يشير إليه قوله تعالى « ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون » القلم : ٤٢ والوجهان لا يخلوان من بُعد .

ووجه اتّصال الآية بما قبلها أنّ الكلام كان مسوقاً لتهديد المكذّبين بيوم الفصل وبيان تبعة تكذيبهم به وتمّم ذلك في هذه الآية بأنّهم لا يعبدون الله إذا دعوا إلى عبادته كما ينكرون ذلك اليوم فلا معنى للعبادة مع نفي الجزاء ، وليكون كالتوطئة لقوله الآتي : «فبأيّ حديث بعده يؤمنون» .

ونسب إلى الزمخشريّ أنّ الآية متّصلة بقوله في الآية السابقة : «للمكذّبين» كأنّه قيل : ويل يومئذ للّذين كذّبوا والّذين إذا قيل لهم اركعوا لايركعون .

و في الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله : « وإذا قيل لهم » الخ و وجهه الإعراض عن مخاطبتهم بعد تركهم وأنفسهم يفعلون ما يشاؤون بقوله : «كلوا وتمتّعوا» .

قوله تعالى « فبأيّ حديث بعده يؤمنون » أي إذا لم يؤمنوا بالقرآن وهو آية معجزة إلهيّة ، وقد بيّن لهم أنّ الله لا إله إلّا هو وحده لاشريك له وأنّ أمامهم يوم الفصل بأوضح البيان وساطع البرهان فبأيّ كلام بعد القرآن يؤمنون .

وهذا إيآس من إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر وكالتنبيه على أنّ رفع اليد عن دعوتهم إلى الإيمان بإلقاء قوله : «كلوا وتمتّعوا» إليهم في محلّه فليسوا بمؤمنين ولا فائدة في دعوتهم غير أنّ فيها إتماماً للحجّة .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي : وقوله : «ألم نخلقكم من ماء مهين» قال : منتن «فجعلناه في قرار مكين» قال : في الرحم وأمّا قوله : «إلى قدر معلوم» يقول : منتهى الأجل .

اقول : وفي اُصول الكافي في رواية عن أبي الحسن الماضي عليه السلام تطبيق قوله : «ألم نهلك الأوّلين» على مكذّبي الرسل في طاعة الأوصياء ، وقوله: «ثمّ نتبعهم الآخرين » على من أجرم إلى آل محمّد عليهم السلام . على اضطراب في متن الخبر ، وهو من الجري دون التفسير .

وفيه : وقوله «ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياءً وأمواتاً» قال : الكفات المساكن وقال: نظر أمير المؤمنين عليه السلام في رجوعه من صفّين إلى المقابر فقال : هذه كفات الأموات أي مساكنهم ثمّ نظر إلى بيوت الكوفة فقال : هذه كفات الأحياء . ثمّ تلا قوله :«ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياءً وأمواتاً» .

اقول : وروى في المعاني بإسناده عن حمّاد عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه نظر إلى المقابر . وذكر مثل الحديث السابق .

وفيه : وقوله : «وجعلنا فيها رواسي شامخات» قال : جبال مرتفعة .

وفيه : وقوله : «انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب» قال فيه ثلاث شعب من النار وقوله : «إنّها ترمي بشرر كالقصر» قال : شرر النار مثل القصور والجبال .

وفيه : وقوله : «إنّ المتّقين في ظلال وعيون» قال : في ظلال من نور أنور من الشمس .

وفي المجمع في قوله : «وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون» قال مقاتل : نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة فقالوا : لاننحني . والرواية لانحني فان ذلك سبة علينا . فقال صلى الله عليه وآله : لاخير في دين ليس فيه ركوع وسجود .

اقول : وفي انطباق القصة - وقد وقعت بعد الهجرة - على الآية خفاء .

و في تفسير القمي في الآية السابقة قال : و إذا قيل لهم : تولوا الامام لم يتولوه .

اقول : وهو من الجري دون التفسير .

﴿ سورة النباء مكيّة وهي أربعون آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَساءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (٦) وَالْجِبالَ أَوْتاداً (٧) وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (٨) وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (١٠) وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (١١) وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (١٢) وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (١٣) وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَباتاً (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً (١٦).

﴿ بيان ﴾

تتضمّن السورة الإخبار بمجيىء يوم الفصل وصفته والاحتجاج على أنّه حقّ لاريب فيه ، فقدافتتحت بذكر تساؤلهم عن نبإه ثمّ ذكر في سياق الجواب ولحن التهديد أنّهم سيعلمون ثمّ احتجّ على ثبوته بالإشارة إلى النظام المشهود في الكون بما فيه من التدبير الحكيم الدالّ بأوضح الدلالة على أنّ وراء هذه النشأة المتغيّرة الدائرة نشأة ثابتة باقية ، وأنّ عقيب هذه الدار التي فيها عمل ولا جزاء داراً فيها جزاء ولا عمل فهناك يوم يفصح عنه هذا النظام .

ثمّ تصف اليوم بما يقع فيه من إحضار الناس وحضورهم وانقلاب الطاغين إلى عذاب أليم والمتّقين إلى نعيم مقيم و يختم الكلام بكلمة في الانذار ، و السورة مكيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « عمّ يتساءلون » « عمّ » أصله عمّا وما استفهاميّة تحذف الألف منها اطّراداً إذا دخل عليها حرف الجرّ نحو لم وممّ وعلى م وإلى م ، والتساؤل سؤال القوم بعضهم بعضا عن أمر أو سؤال بعضهم بعد بعض عن أمر وإن كان المسؤل غيرهم فهم كان يسأل بعضهم بعضا عن أمر أوكان بعضهم بعد بعض يسأل النبيّ ﷺ عن أمر وحيث كان سياق السورة سياق جواب يغلب فيه الإنذار والوعيد تأيّد به أنّ المتسائلين هم كفّار مكّة من المشركين النافين للنبوّة والمعاد دون المؤمنين ودون الكفّار والمؤمنين جميعاً .

فالتساؤل من المشركين والإخبار عنه في صورة الاستفهام للإشعار بهوانه وحقارته لظهور الجواب عنه ظهوراً ما كان ينبغي معه أن يتساءلوا عنه .

قوله تعالى : « عن النبإ العظيم الّذي هم فيه مختلفون » جواب عن الاستفهام السابق أي يتساءلون عن النبإ العظيم ، ولا يخفى ما في توصيف النبإ المتساءل عنه بالعظيم من تعظيمه وتفخيم أمره .

والمراد بالنبإ العظيم نبؤ البعث والقيامة الّذي يهتمّ به القرآن العظيم في سوره المكّيّة ولا سيّما في العتائق النازلة في أوائل البعثة كلّ الاهتمام .

ويؤيّد ذلك سياق آيات السورة بما فيه من الاقتصار على ذكر صفة يوم الفصل وما تقدّم عليها من الحجّة على أنّه حقّ واقع .

وقيل: المراد به نبؤ القرآن العظيم ، ويدفعه كون السياق بحسب مصبّه اجنبيّا عنه وإن كان الكلام لا يخلو من إشارة إليه استلزاما .

وقيل : النبؤ العظيم ما كانوا يختلفون فيه من إثبات الصانع وصفاته والملائكة والرسل والبعث والجنّة والنار وغيرها ، وكأنّ القائل به اعتبر فيه ما في السورة من الإشارة إلى حقيّة جميع ذلك ممّا تتضمّنه الدعوة الحقّة الإسلاميّة .

ويدفعه أنّ الإشارة إلى ذلك كلّه من لوازم صفة البعث المتضمّنة لجزاء الاعتقاد الحقّ والعمل الصالح والكفر والإجرام ، وقد دخل فيما في السورة من صفة يوم الفصل تبعاً وبالقصد الثاني .

على أنّ المراد بهؤلاء المتسائلين ـ كما تقدّم ـ المشركون وهم يثبتون الصانع والملائكة وينفون ما وراء ذلك ممّا ذكر .

وقوله : « الّذي هم فيه مختلفون » إنّما اختلفوا في نحو إنكاره وهم متّفقون في نفيه فمنهم من كان يرى استحالته فينكره كما هو ظاهر قولهم على ما حكاه الله : « هل ندلّكم على رجل ينبّئكم إذا مزّقتم كلّ ممزّق إنّكم لفي خلق جديد » سبأ : ٧ ، ومنهم من كان يستبعده فينكره وهو قولهم : « أيعدكم أنّكم إذا متّم وكنتم تراباً وعظاماً أنّكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون » المؤمنون : ٣٦ ، ومنهم من كان يشكّ فيه فينكره قال تعالى : « بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شكّ منها » النمل : ٦٦ ، ومنهم من كان يوقن به لكنّه لا يؤمن عناداً فينكره كما كان لا يؤمن بالتوحيد والنبوّة وسائر فروع الدين بعد تمام الحجّة عناداً قال تعالى : « بل لجّوا في عتوّ ونفور » الملك : ٢١ .

والمحصّل من سياق الآيات الثلاث وما يتلوها أنّهم لما سمعوا ما ينذرهم به القرآن من أمر البعث والجزاء يوم الفصل ثقل عليهم ذلك فغدوا يسأل بعضهم بعضا عن شأن هذا النباء العجيب الّذي لم يكن ممّا قرع أسماعهم حتّى اليوم ، وربّما راجعوا النبيّ صلّى الله عليه وآله والمؤمنين وسألوهم عن صفة اليوم وأنّه متى هذا الوعد إن كنتم صادقين وربّما كانوا يراجعون في بعض ما قرع سمعهم من حقائق القرآن واحتوته دعوته الجديدة أهل الكتاب وخاصّة اليهود ويستمدّونهم في فهمه .

وقد أشار تعالى في هذه السورة إلى قصّة تساؤلهم في صورة السؤال والجواب فقال : « عمّ يتساءلون » وهو سؤال عمّا يتساءلون عنه . ثمّ قال : « عن النبإ العظيم الّذي هم فيه مختلفون » وهو جواب السؤال عمّا يتساءلون عنه . ثم قال : « كلّا سيعلمون » الخ وهو جواب عن تساؤلهم .

وللمفسّرين في مفردات الآيات الثلاث وتقرير معانيها وجوه كثيرة تركناها لعدم ملاءمتها السياق والّذي أوردناه هو الّذي يعطيه السياق .

قوله تعالى : « كلّا سيعلمون ثمّ كلّا سيعلمون » ردع عن تساؤلهم عنه بانين

ذلك على الاختلاف في النفي أي ليرتدعوا عن التساؤل لأنّه سينكشف لهم الأمر بوقوع هذا النبإ فيعلمونه ، وفي هذا التعبير تهديد كما في قوله : « وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » الشعراء : ٢٢٧ .

وقوله : « ثمّ كلاّ سيعلمون » تأكيد للردع والتهديد السابقين ولحن التهديد هو القرينة على أنّ المتسائلين هم المشركون النافون للبعث والجزاء دون المؤمنين ودون المشركين والمؤمنين جميعاً .

قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهاداً » الآية إلى تمام إحدى عشرة آية مسوقة سوق الاحتجاج على ثبوت البعث والجزاء وتحقّق هذا النبإ العظيم ولازم ثبوته صحّة ما في قوله : « سيعلمون » من الإخبار بأنّهم سيشاهدونه فيعلمون .

تقرير الحجّة أنّ العالم المشهود بأرضه وسمائه وليله ونهاره والبشر المتناسلين والنظام الجاري فيها والتدبير المتقن الدقيق لأُمورها من المحال أن يكون لعباً باطلاً لا غاية لها ثابتة باقية فمن الضروريّ أن يستعقب هذا النظام المتحوّل المتغيّر الدائر إلى عالم ذي نظام ثابت باق، وأن يظهر فيه أثر الصلاح الّذي تدعو إليه الفطرة الانسانيّة والفساد الّذي تردع عنه ، ولم يظهر في هذا العالم المشهود أعني سعادة المتّقين وشقاء المفسدين ، ومن المحال أن يودع الله الفطرة دعوة غريزيّة أو ردعاً غريزيّاً بالنسبة إلى ما لا أثر له في الخارج ولا حظّ له من الوقوع فهناك يوم يلقاه الإنسان ويجزى فيه على عمله إن خيراً فخيراً وإنّ شرّاً فشرّاً .

فالآيات في معنى قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظنّ الّذين كفروا فويل للّذين كفروا من النار أم نجعل الّذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار » صٓ : ٢٨ .

وبهذا البيان يثبت أنّ هناك يوماً يلقاه الإنسان ويجزى فيه بما عمل إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً فليس للمشركين أن يختلفوا فيه فيشكّ فيه بعضهم ويستبعده طائفة ، ويحيله قوم ، ولا يؤمن به مع العلم به عناداً آخرون ، فاليوم ضروري الوقوع

والجزاء لا ريب فيه .

ويظهر من بعضهم أنّ الآيات مسوقة لإثبات القدرة وأنّ العود يماثل البدءِ والقادر على الابداءِ قادر على الاعادة ، وهذه الحجّة وإن كانت تامّة وقد وقعت في كلامه تعالى لكنّها حجّة على الإمكان دون الوقوع والسياق فيما نحن فيه سياق الوقوع دون الامكان فالأنسب في تقريرها ما تقدّم .

وكيف كان فقوله : « ألم نجعل الأرض مهاداً » الاستفهام للإنكار ، والمهاد الوطاء والقرار الّذي يتصرّف فيه ، ويطلق على البساط الّذي يُجلس عليه ، والمعنى قد جعلنا الأرض قراراً لكم تستقرّون عليها وتتصرّفون فيها .

قوله تعالى : « والجبال أوتاداً » الأوتاد جمع وتد وهو المسمار إلاّ أنّه أغلظ منه كما في المجمع ، ولعلّ عدّ الجبال أوتاداً مبنيّ على أنّ عمدة جبال الأرض من عمل البركانات بشقّ الأرض فتخرج منه موادّ أرضيّة مذابة تنتصب على فم الشقّة متراكمة كهيئة الوتد المنصوب على الأرض تسكن به فورة البركان الّذي تحته فيرتفع به ما في الأرض من الاضطراب والميدان .

وعن بعضهم أنّ المراد بجعل الجبال أوتاداً انتظام معاش أهل الأرض بما اُودع فيها من المنافع ولولاها لمادت الأرض بهم أي لما تهيّأت لانتفاعهم . وفيه أنّه صرف اللفظ عن ظاهره من غير ضرورة موجبة .

قوله تعالى : « وخلقناكم أزواجاً » أي زوجاً زوجاً من ذكر واُنثى لتجري بينكم سنّة التناسل فيدوم بقاءِ النوع إلى ما شاء الله .

وقيل : المراد به الأشكال أي كلّ منكم شكل للآخر . وقيل : المراد به الأصناف أي أصنافاً مختلفة كالأبيض والأسود والأحمر والأصفر إلى غير ذلك ، وقيل: المراد به خلق كلّ منهم من منيّين منيّ الرجل ومنيّ المرأة ، وهذه وجوه ضعيفة.

قيل : الالتفات في الآية من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الالزام والتبكيت.

قوله تعالى : « وجعلنا نومكم سباتاً » السبات الراحة والدعة فإنّ في المنام

سكوناً وراحة للقوى الحيوانيّة البدنيّة ممّا اعتراها في اليقظة من التعب والكلال بواسطة تصرّفات النفس فيها .

وقيل : السبات بمعنى القطع وفي النوم قطع التصرّفات النفسانيّة في البدن ، وهو قريب من سابقه .

وقيل : المراد بالسبات الموت ، وقد عدّ سبحانه النوم من الموت حيث قال : « وهو الّذي يتوفّاكم بالليل » الأنعام : ٦٠ وهو بعيد ، وأمّا الآية فإنّه تعالى عدّ النوم توفّياً ولم يعدّه موتاً بل القرآن يصرّح بخلافه قال تعالى : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها والّتي لم تمت في منامها » الزمر : ٤٢ .

قوله تعالى : « وجعلنا الليل لباساً » أي ساتراً يستر الأشياء بما فيه من الظلمة الساترة للمبصرات كما يستر اللباس البدن وهذا سبب إلهيّ يدعو إلى ترك التقلّب والحركة والميل إلى السكن والدعة والرجوع إلى الأهل والمنزل .

وعن بعضهم أنّ المراد بكون الليل لباساً كونه كاللباس للنهار يسهل إخراجه منه ، وهو كما ترى .

قوله تعالى : « وجعلنا النهار معاشاً » العيش هو الحياة ـ على ما ذكره الراغب ـ غير أنّ العيش يختصّ بحياة الحيوان فلا يقال : عيشه تعالى وعيش الملائكة ويقال حياته تعالى وحياة الملائكة ، والمعاش مصدر ميميّ واسم زمان واسم مكان ، وهو في الآية بأحد المعنيين الأخيرين ، والمعنى وجعلنا النهار زماناً لحياتكم أو موضعاً لحياتكم تبتغون فيه من فضل ربّكم ، وقيل : المراد به المعنى المصدريّ بحذف مضاف والتقدير وجعلنا النهار طلب معاش أي مبتغى معاش .

قوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبعاً شداداً » أي سبع سماوات شديدة في بنائها .

قوله تعالى : « وجعلنا سراجاً وهّاجاً » الوهّاج شديد النور والحرارة والمراد بالسراج الوهّاج الشمس .

قوله تعالى : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجّاجاً » المعصرات السحب الماطرة وقيل : الرياح الّتي تعصر السحب لتمطر والثجّاج الكثير الصبّ للماء ، والأولى على هذا المعنى أن تكون « من » بمعنى الباء .

قوله تعالى : « لنخرج به حبّاً ونباتاً » أي حبّاً ونباتاً يقتات بهما الإنسان وسائر الحيوان .

قوله تعالى : « وجنّات ألفافا » معطوف على قوله : « حبّاً » وجنّات ألفاف أي ملتفّة أشجارها بعضها ببعض .

قيل : إنّ الألفاف جمع لا واحد له من لفظه .

﴿ بحث روائي ﴾

في بعض الأخبار أنّ النبأ العظيم عليّ عليه السلام وهو من البطن .

عن الخصال عن عكرمة عن ابن عبّاس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله أسرع إليك الشيب . قال : شيّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون .

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهاداً » قال : يمهّد فيها الإنسان « والجبال أوتاداً » أي أوتاد الأرض .

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام ووتّد بالصخور ميدان أرضه .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى: « وجعلنا الليل لباساً » قال : يلبس على النهار.

أقول : ولعلّ المراد به أنّه يخفي ما يظهره النهار ويستر ما يكشفه .

وفيه في قوله تعالى : « وجعلنا سراجاً وهّاجاً » قال : الشمس المضيئة « وأنزلنا من المعصرات » قال : من السحاب « ماء ثجّاجاً » قال : صبّاً على صبّ .

و عن تفسير العيّاشيّ عن أبي عبدالله عليه السلام «عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » بالياء يمطرون .

ثمّ قال : أماسمعت قوله : «وأنزلنا من المعصرات ماء ثجّاجا» .

أقول : المراد أنّ «يعصرون» بضمّ الياء بصيغة المجهول والمراد به أنّهم يمطرون واستشهاده عليه السلام بقوله : «وأنزلنا من المعصرات» دليل على أنّه عليه السلام أخذ المعصرات بمعنى الممطرات من أعصرت السحابة إذا أمطرت .

وروى العيّاشيّ مثل الحديث عن عليّ بن معمر عن أبيه عن أبي عبدالله عليه السلام وروى القميّ في تفسيره مثله عن أمير المؤمنين عليه السلام .



✡✡✡

انّ يوم الفصل كان ميقاتاً (١٧) يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً (١٨) وفتحت السماء فكانت أبواباً (١٩) وسيرت الجبال فكانت سراباً (٢٠) انّ جهنّم كانت مرصاداً (٢١) للطاغين مآباً (٢٢) لابثين فيها أحقاباً (٢٣) لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً (٢٤) الّا حميماً وغساقاً (٢٥) جزاءاً وفاقاً (٢٦) انّهم كانوا لايرجون حساباً (٢٧) وكذّبوا بآياتنا كذّاباً (٢٨) وكلّ شيء أحصيناه كتاباً (٢٩) فذوقوا فلن نزيدكم الّا عذاباً (٣٠) انّ للمتّقين مفازاً (٣١) حدائق و أعناباً (٣٢) وكواعب أتراباً (٣٣) وكاساً دهاقاً (٣٤) لا يسمعون فيها لغواً ولا كذّاباً (٣٥) جزاء من ربّك عطاء حساباً (٣٦) ربّ السموات و الأرض و ما بينهما الرّحمن لايملكون منه خطاباً (٣٧) يوم يقوم الرّوح والملئكة صفّاً لايتكلّمون الّا من اذن له الرّحمن وقال صواباً (٣٨) ذلك اليوم الحقّ فمن شاء اتّخذ الى ربّه مآباً (٣٩) انّا انذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً (٤٠)

﴿ بيان ﴾

تصف الآيات يوم الفصل الّذي أخبر به إجمالاً بقوله : «كلاّ سيعلمون» ثمّ تصف ما يجري فيه على الطاغين والمتّقين ، وتختتم بكلمة في الإنذار وهي كالنتيجة .

قوله تعالى : « إنّ يوم الفصل كان ميقاتاً » قال في المجمع : الميقات منتهى المقدار المضروب لحدوث أمر من الاُمور و هو من الوقت كما أنّ الميعاد من الوعد والمقدار من القدر . انتهى .

شروع في وصف ما تضمّنه النبأ العظيم الّذي أخبر بوقوعه وهدّدهم به في قوله : «كلاّ سيعلمون» ثمّ أقام الحجّة عليه بقوله : «ألم نجعل الأرض مهاداً» الخ وقد سمّاه يوم الفصل ونبّه به على أنّه يوم يفصل فيه القضاء بين الناس فينال كلّ طائفة ما يستحقّه بعمله فهو ميقات وحدّ مضروب لفصل القضاء بينهم والتعبير بلفظ «كان» للدلالة على ثبوته وتعيّنه في العلم الإلهيّ على ما ينطق به الحجّة السابقة الذكر ، ولذا أكّد الجملة بإنّ .

والمعنى إنّ يوم فصل القضاء الّذي نبؤه نبأ عظيم كان في علم الله يوم خلق السماوات والأرض وحكّم فيها النظام الجاري حدّاً مضروباً ينتهي إليه هذا العالم فإنّه تعالى كان يعلم أنّ هذه النشأة الّتي أنشأها لا تتمّ إلّا بالانتهاء إلى يوم يفصل فيه القضاء بينهم .

قوله تعالى : « يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا » قد تقدّم الكلام في معنى نفخ الصور كراراً ، والأفواج جمع فوج وهي الجماعة المارّة المسرعة على ما ذكره الراغب .

وفي قوله : «فتأتون أفواجا» جري على الخطاب السابق الملتفت إليه قضاء لحقّ الوعيد الّذي يتضمّنه قوله : « كلاّ سيعلمون» وكأنّ الآية ناظرة إلى قوله تعالى : «يوم ندعو كلّ اُناس بإمامهم» أسرى : ٧١ .

قوله تعالى : « وفتحت السماء فكانت أبوابا » فاتّصل به عالم الإنسان بعالم الملائكة .

وقيل : التقدير فكانت ذات أبواب ، وقيل : صارفيها طرق ولم يكن كذلك من قبل ، ولا يخلو الوجهان من تحكّم فليتدبّر .

قوله تعالى : « وسيّرت الجبال فكانت سراباً » السراب هو الموهوم من الماء اللامع في المفاوز و يطلق على كلّ ما يتوهّم ذاحقيقة و لا حقيقة له على طريق الاستعارة .

ولعلّ المراد بالسراب في الآية هو المعنى الثاني .

بيان ذلك أنّ تسيير الجبال ودكّها ينتهي بالطبع إلى تفرّق أجزائها وزوال شكلها كما وقع في مواضع من كلامه تعالى عند وصف زلزلة الساعة وآثارها إذقال : «وتسير الجبال سيراً» الطور : ١٠وقال : «وحملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة » الحاقّة : ١٤ ، و قال : « و كانت الجبال كثيباً مهيلا» المزمّل ١٤ ، و قال : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » القارعة : ٥ ، وقال : « وبسّت الجبال بسّاً » الواقعة : ٥ ، وقال : « وإذا الجبال نسفت » المرسلات : ١٠ .

فتسيير الجبال ودكّها ينتهي بها إلى بسّها و نسفها وصيرورتها كثيباً مهيلاً وكالعهن المنفوش كما ذكره الله تعالى وأمّا صيرورتها سرابا بمعنى ما يتوهّم ماء لامعاً فلانسبة بين التسيير وبين السراب بهذا المعنى .

نعم ينتهي تسييرها إلى انعدامها وبطلان كينونتها وحقيقتها بمعنى كونها جبلا فالجبال الراسيات الّتي كانت ترى حقائق ذوات كينونة قويّة لاتحرّكه العواصف تتبدّل بالتسيير سراباً باطلاً لا حقيقة له ، وتظيره من كلامه تعالى قوله في أقوام أهلكهم وقطع دابرهم : «فجعلناهم أحاديث» سبأ : ١٩، وقوله : «فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث» المؤمنون: ٤٤،وقوله في الأصنام: «إن هي إلّا أسماءِ سمّيتموها أنتم وآباؤكم» النجم : ٢٣ .

فالآية بوجه كقوله تعالى : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب» النمل : ٨٨ ـ بناء على كونه ناظرا إلى صفة زلزلة الساعة ـ .

قوله تعالى : «إن جهنّم كانت مرصاداً» قال في المفردات : الرصد الاستعداد للترقّب ـ إلى أن قال ـ والمرصد موضع الرصد قال تعالى : «واقعدوا لهم كلّ مرصد» و المرصاد نحوه لكن يقال للمكان الذي اختصّ بالرصد قال تعالى : «إنّ جهنّم كانت مرصاداً» تنبيهاً على أنّ عليها مجاز الناس ، وعلى هذا قوله تعالى : « وإن منكم إلاّ واردها» . انتهى .

قوله تعالى : «للطاغين مآبا» الطاغون المتلبّسون بالطغيان وهو الخروج عن الحدّ ، والمآب اسم مكان من الأوب بمعنى الرجوع ، والعناية في عدّها مآباً للطاغين أنّهم هيّئوها مأوى لأنفسهم وهم في الدنيا ثمّ إذا انقطعوا عن الدنيا آبوا ورجعوا إليها .

قوله تعالى : «لابثين فيها أحقاباً » الأحقاب الأزمنة الكثيرة والدهور الطويلة من غير تحديد .

وهو جمع اختلفوا في واحده فقيل : واحده حقب بالضمّ فالسكون أو بضمّتين، وقد وقع في قوله تعالى : «أو أمضي حقبا» الكهف : ٦٠ ، وقيل : حقب بالفتح فالسكون و واحد الحقب حقبة بالكسر فالسكون قال الراغب : والحقّ أنّ الحقبة مدّة من الزمان مبهمة . انتهى .

وحدّ بعضهم الحقب بثمانين سنة أو ببضع وثمانين سنة وزاد آخرون أنّ السنة منها ثلاثمائة وستّون يوما كلّ يوم يعدل ألف سنة : وعن بعضهم أنّ الحقب أربعون سنة وعن آخرين أنّه سبعون ألف سنة إلى غير ذلك ولا دليل من الكتاب يدلّ على شيء من هذه التحديدات ولم يثبت من اللغة شيء منها .

وظاهر الآية أنّ المراد بالطاغين المعاندون من الكفّار ويؤيّده قوله ذيلاً : «إنّهم كانوا لا يرجون حسابا وكذّبوا بآياتنا كذّابا» .

وقد فسّروا «أحقابا» في الآية بالحقب بعد الحقب فالمعنى حال كون الطاغين

لابثين في جهنّم حقباً بعدحقب بلاتحديدولانهاية فلاتنافي الآية مانصّ عليه القرآن من خلود الكفّار في النار .

وقيل : إنّ قوله : «لايذوقون فيها» الخ صفة «أحقابا» والمعنى لابثين فيها أحقاباً هي على هذه الصفة وهي أنّهم لا يذوقون فيها برداً ولاشرابا إلّا حميماً وغسّاقا ، ثمّ يكونون على غير هذه الصفة إلى غير النهاية .

وهو حسن لوساعد السياق .

قوله تعالى : «لايذوقون فيها برداً ولاشراباً» ظاهر المقابلة بين البرد والشراب أنّ المراد بالبرد مطلق مايتبرّد به غير الشراب كالظلّ الّذي يستراح إليه بالاستظلال فالمراد بالذّوق مطلق النيل والمسّ .

قوله تعالى : «إلّاحميماًوغسّاقاً» الحميم الماء الحارّ شديد الحرّ ، و الغسّاق صديد أهل النار .

قوله تعالى : «جزاء وفاقا ـ إلى قوله ـ كتابا» المصدر بمعنى اسم الفاعل والمعنى يجزون جزاء موافقاً لما عملوا أو بتقدير مضاف أي جزاءً ذا وفاق أو إطلاق الوفاق على الجزاء للمبالغة كزيد عدل .

وقوله : «إنّهم كانوا لايرجون حسابا وكذّبوا بآياتنا كذّابا» أي تكذيبا عجيباً يصرّون عليه ، تعليل يوضح موافقة جزائهم لعملهم ، وذلك أنّهم لم يرجوا الحساب يوم الفصل فأيسوا من الحياة الآخرة وكذّبوا بالآيات الدالّة عليها فأنكروا التوحيد والنبوّة وتعدّوا في أعمالهم طور العبوديّة فنسوا الله تعالى فنسيهم وحرّم عليهم سعادة الدار الآخرة فلم يبق لهم إلّا الشقاء ولا يجدون فيها إلّا مايكرهون ، ولايواجهون إلّا ما يتعذّبون به وهو قوله : «فذوقوا فلن نزيدكم إلّا عذابا» .

وفي الآية أعني قوله : « جزاءً وفاقاً » دلالة على المطابقة التامّة بين الجزاء والعمل فالإنسان لا يريد بعمله إلّا الجزاء الّذي بإزائه والتلبّس بالجزاء تلبّس بالعمل بالحقيقة قال تعالى : « يا أيّها الّذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنّما تجزون ما كنتم تعملون » التحريم : ٧ .

وقوله : « وكلّ شيء أحصيناه كتابا » أي كلّ شيء ومنه الأعمال ضبطناه وبينّاه في كتاب جليل القدر فالآية في معنى قوله تعالى : « وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين » يس : ١٢ .

أو المراد وكلّ شيء حفظناه حال كونه مكتوباً أي في اللوح المحفوظ أو في صحائف الأعمال، وجوّز أن يكون الإحصاء بمعنى الكتابة أو الكتاب بمعنى الإحصاء فإنّ الإحصاء والكتابة يتشاركان في معنى الضبط والمعنى كلّ شيء أحصيناه إحصاءً أو كلّ شيء كتبناه كتاباً .

والآية على أيّ حال متمّم للتعليل السابق ، والمعنى الجزاء موافق لأعمالهم لأنّهم كانوا على حال كذا وكذا وقد حفظناها عليهم فجزيناهم بها جزاءً وفاقاً .

قوله تعالى : « فذوقوا فلن نزيدكم إلّا عذاباً » تفريع على ما تقدّم من تفصيل عذابهم مسوق لإيآسهم من أن يرجوا نجاة من الشقوة وراحة ينالونها .

والالتفات إلى خطابهم بقوله : « فذوقوا » تقدير لحضورهم ليخاطبوا بالتوبيخ والتقريع بلا واسطة .

والمراد بقوله : « فلن نزيدكم إلّا عذاباً » أنّ ما تذوقونه بعد عذاب ذقتموه عذاب آخر فهو عذاب بعد عذاب وعذاب على عذاب فلا تزالون يضاف عذاب جديد إلى عذابكم القديم فاقنطوا من أن تنالوا شيأ ممّا تطلبون وتحبّون .

والآية لا تخلو من ظهور في كون المراد بقوله : « لابثين فيها أحقاباً » الخلود دون الانقطاع .

قوله تعالى : « إنّ للمتّقين مفازا - إلى قوله - كذّاباً » الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة - على ما قاله الراغب - ففيه معنى النجاة والتخلّص من الشرّ والحصول على الخير ، والمفاز مصدر ميميّ أو اسم مكان من الفوز والآية تحتمل الوجهين جميعاً .

وقوله : « حدائق وأعنابا » الحدائق جمع حديقة وهي البستان المحوّط ، والأعناب جمع عنب وهو ثمر شجرة الكرم وربّما يطلق على نفس الشجرة .

وقوله : « وكواعب» جمع كاعب وهي الفتاة التي تكعّب ثدياها واستدار مع ارتفاع يسير ، والترائب جمع ترب وهي المماثلة لغيرها من اللدات .

وقوله : « وكأساً دهاقاً » أي ممتلئة شراباً مصدر بمعنى اسم الفاعل .

وقوله : « لا يسمعون فيها لغواً ولا كذّابا » أي لا يسمعون في الجنّة لغواً من القول لا يترتّب عليه أثر مطلوب ولا تكذيباً من بعضهم لبعضهم فيما قال فقولهم حقّ له أثره المطلوب وصدق مطابق للواقع .

قوله تعالى : « جزاءً من ربّك عطاءً حساباً » أي فعل بالمتّقين ما فعل حال كونه جزاء من ربّك عطيّة محسوبة فقوله : « جزاءً » حال وكذا « عطاءً » « وحساباً » بمعنى اسم المفعول صفة لعطاء ، ويحتمل أن يكون عطاء تمييزاً أو مفعولا مطلقاً .

قيل : إضافة الجزاء إلى الربّ مضافاً إلى ضميره ﷺ تشريف له ، ولم يضف جزاء الطاغين إليه تعالى تنزّهاً منه تعالى فليس يغشاهم شرّ إلّا من عند أنفسهم قال تعالى : « ذلك بما قدّمت أيديكم وأنّ الله ليس بظلّام للعبيد » الأنفال : ٥١ .

ووقوع لفظ الحساب في ذيل جزاء الطاغين والمتّقين معاً لتثبيت ما يلوّح إليه يوم الفصل الواقع في أوّل الكلام .

قوله تعالى : « ربّ السماوات والأرض وما بينهما الرحمان » بيان لقوله : « ربّك » اُريد به أنّ ربوبيّته تعالى عامّة لكلّ شيء وأنّ الربّ الّذي يتّخذه النبيّ صلّى الله عليه وآله ربّاً ويدعو إليه ربّ كلّ شيء لا كما كان يقول المشركون : إنّ لكلّ طائفة من الموجودات ربّاً والله سبحانه ربّ الأرباب أو كما كان يقول بعضهم: إنّه ربّ السماء .

وفي توصيف الربّ بالرحمان ـ صيغة مبالغة من الرحمة ـ إشارة إلى سعة رحمته وأنّها سمة ربوبيّة لا يحرم منها شيء إلّا أن يمتنع منها شيء بنفسه لقصوره وسوء اختياره فمن شقوة هؤلاء الطاغين أنّهم حرّموها على أنفسهم بالخروج عن طور العبودية.

قوله تعالى : « لا يملكون منه خطاباً يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً لا يتكلّمون إلّا من أذن له الرحمان وقال صواباً » وقوع صدر الآية في سياق قوله :

« ربّ السماوات والأرض وما بينهما الرحمان » ـ وشأن الربوبيّة هو التدبير وشأن الرحمانيّة بسط الرحمة ـ دليل على أنّ المراد بخطابه تعالى تكليمه في بعض ما فعل من الفعل بنحو السؤال عن السبب الداعي إلى الفعل كأن يقال : لم فعلت هذا ؟ ولم لم تفعل كذا ؟ كما يسأل الفاعل منّا عن فعله فتكون الجملة « لا يملكون منه خطاباً » في معنى قوله تعالى : « لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون » الأنبياء : ٢٣ وقد تقدّم الكلام في معنى الآية .

لكن وقوع قوله : « يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً » بعد قوله : « لا يملكون منه خطاباً » الظاهر في اختصاص عدم الملك بيوم الفصل مضافاً إلى وقوعه في سياق تفصيل جزاء الطاغين والمتّقين منه تعالى يوم الفصل يعطي أن يكون المراد به أنّهم لا يملكون أن يخاطبوه فيما يقضي ويفعل بهم باعتراض عليه أو شفاعة فيهم لكنّ الملائكة ـ وهم ممّن لا يملكون منه خطاباً ـ منزّهون عن وصمة الاعتراض عليه تعالى وقد قال فيهم : « عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء ٢٧ وكذلك الروح الّذى هو[1] كلمته وقوله ، وقوله[2] حقّ ، وهو تعالى[3] الحقّ المبين والحقّ لا يعارض الحقّ ولا يناقضه .

ومن هنا يظهر أنّ المراد بالخطاب الّذى لا يملكونه هو الشفاعة وما يجري مجراها من وسائل التخلّص من الشرّ كالعدل والبيع والخلّة والدعاء والسؤال قال تعالى : « من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة » البقرة : ٢٥٤ ، وقال: « ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » البقرة : ١٢٣ ، وقال : « يوم يأت لا تكلّم نفس إلّا بإذنه » هود : ١٠٥ .

وبالجملة قوله : « لا يملكون منه خطاباً » ضمير الفاعل في « لا يملكون » لجميع المجموعين ليوم الفصل من الملائكة والروح والإنس والجنّ كما هو المناسب

(١) النحل : ٤٠ .
(٢) الانعام : ٧٣ .
(٣) النور : ٢٥ .

للسياق الحاكي عن ظهور العظمة والكبرياء دون خصوص الملائكة والروح لعدم سبق الذكر ودون خصوص الطاغين كما قيل لكثرة الفصل ، والمراد بالخطاب الشفاعة وما يجري مجراها كما تقدّم .

وقوله : « يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً » ظرف لقوله : « لا يملكون » ، وقيل : لقوله : « لا يتكلّمون » وهو بعيد مع صلاحية ظرفيّته لما سبقه .

والمراد بالروح المخلوق الأمريّ الّذي يشير إليه قوله تعالى : « قل الروح من أمر ربّي » أسرى : ٨٥ .

وقيل:المراد به أشراف الملائكة ، وقيل حفظة الملائكة وقيل : ملك موكّل على الأرواح . ولا دليل على شيءٍ من هذه الأقوال .

وقيل : المراد به جبريل ، وقيل : أرواح الناس وقيامها مع الملائكة صفّاً إنّما هو بين النفختين قبل أن تلج الأجساد ، وقيل : القرآن والمراد من قيامه ظهور آثاره يومئذ من سعادة المؤمنين به وشقاوة الكافرين .

ويدفعها أنّ هذه الثلاثة وإن اُطلق على كلّ منها الروح في كلامه تعالى لكنّه مع التقييد كقوله : « ونفخت فيه من روحي » الحجر : ٢٩ ، وقوله : « نزل به الروح الأمين » الشعراء : ١٩٣ ، وقوله : « قل نزّله روح القدس » النحل : ١٠٢ ، وقوله : « فأرسلنا إليها روحنا » مريم : ١٧ ، وقوله : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » الشورى : ٥٢ والروح في الآية الّتي نحن فيها مطلق . على أنّ في القولين الأخيرين تحكّما ظاهرا .

و « صفّا » حال من الروح والملائكة وهو مصدر اُريد به اسم الفاعل أي حال كونهم صافّين ، وربّما استفيد من مقابلة الروح للملائكة أنّ الروح وحده صفّ والملائكة جميعاً صفّ .

وقوله : « لا يتكلّمون » بيان لقوله : « لا يملكون منه خطاباً » وضمير الفاعل لأهل الجمع من الروح والملائكة والإنس والجنّ على ما يفيده السياق .

وقيل : الضمير للروح والملائكة ، وقيل : للناس ووقوع « لايملكون » بمامرّ

من معناه و « لا يتكلّمون » في سياق واحد لا يلائم شيئاً من القولين .

وقوله : « إلاّ من أذن له الرحمان » بدل من ضمير الفاعل في « لا يتكلّمون » اُريد به بيان من له أن يتكلّم منهم يومئذ بإذن الله فالجملة في معنى قوله : « يوم يأت لا تكلّم نفس إلّا بإذنه » هود : ١٠٥ على ظاهر إطلاقه .

وقوله : « وقال صواباً » أي قال قولاً صواباً لا يشوبه خطأ وهو الحقّ الّذي لا يداخله باطل ، والجملة في الحقيقة قيد للإذن كأنّه قيل : إلاّ من أذن له الرحمان ولا يأذن إلاّ لمن قال صواباً فالآية في معنى قوله تعالى : « ولا يملك الّذين يدعون من دونه الشفاعة إلاّ من شهد بالحقّ وهم يعلمون » الزخرف : ٨٦ .

وقيل : « إلاّ من أذن » الخ استثناء ممّن يتكلّم فيه والمراد بالصواب التوحيد وقول لا إله إلاّ الله والمعنى لا يتكلّمون في حقّ أحد إلاّ في حقّ شخص أذن له الرحمان وقال ذلك الشخص في الدنيا صواباً أي أقرّ بالوحدانيّة وشهد أن لا إله إلاّ الله فالآية في معنى قوله تعالى : « ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى » الأنبياء : ٢٨ .

ويدفعه أنّ العناية الكلاميّة في المقام متعلّقة بنفي أصل الخطاب والتكلّم يومئذ من كلّ متكلّم لا بنفي التكلّم في كلّ أحد مع تسليم جواز أصل التكلّم فالمستثنون هم المتكلّمون المأذون لهم في أصل التكلّم من دون تعرّض لمن يتكلّم فيه .

﴿ كلام فيما هو الروح في القرآن ﴾

تكرّرت كلمة الروح - والمتبادر منه ما هو مبدء الحياة - في كلامه تعالى ولم يقصرها في الإنسان أو في الإنسان والحيوان فحسب بل أثبتها في غيرهما كما في قوله : « فأرسلنا إليها روحنا » مريم : ١٧ ، وقوله : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » الشورى : ٥٢ إلى غير ذلك فللروح مصداق في الإنسان ومصداق في غيره.

والّذي يصلح أن يكون معرّفاً لها في كلامه تعالى ما في قوله : « يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي» أسرى : ٨٥ حيث أطلقها إطلاقاً وذكر معرّفاً لها أنّها

من أمره وقدعر ّف أمره بقوله: «إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شيء» يس : ٨٣ فبيّن أنّه كلمة الإيجاد الّتي هي الوجود من حيث انتسابه إليه تعالى وقيامه به لا من حيث انتسابه إلى العلل والأسباب الظاهريّة .

وبهذه العناية عدّ المسيح عليه السلام كلمة له وروحاً منه إذقال : «وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» النساء : ١٧١ لمّا وهبه لمريم عليها السلام من غير الطرق العاديّة ويقرب منه في العناية قوله تعالى : «إنّ مثل عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون» آل عمران : ٥٩ .

وهو تعالى وإن ذكرها في أغلب كلامه بالإضافة والتقييد كقوله : «ونفخت فيه من روحي » الحجر : ٢٩ ، وقوله : « ونفخ فيه من روحه » السجدة : ٩ ، وقوله : «فأرسلنا إليها روحنا» مريم : ١٧ ، وقوله : « وروح منه » النساء : ١٧١ ، وقوله : «وأيّدناه بروح القدس» البقرة ٨٧ إلى غير ذلك إلّا أنّه أوردها في بعض كلامه مطلقة من غير تقييد كقوله : «تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر» القدر: ٤ وظاهر الآية أنّها موجود مستقلّ وخلق سماويّ غير الملائكة ، ونظير الآية بوجه قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » المعارج : ٤ .

وأمّا الروح المتعلّقة بالإنسان فقد عبّر عنها بمثل قوله: «ونفخت فيه من روحي» «ونفخ فيه من روحه» وأتى بكلمة «من» الدالّة على المبدئيّة وسمّاه نفخاً وعبّر عن الروح الّتي خصّها بالمؤمنين بمثل قوله : «وأيّدهم بروح منه» المجادلة : ٢٢ فأتى بالباء الدالّة على السببيّة وسمّاه تأييداً وتقوية ، وعبّر عن الروح الّتي خصّها بالأنبياء بمثل قوله : «وأيّدناه بروح القدس» البقرة : ٨٧ فأضاف الروح إلى القدس وهو النزاهة والطهارة وسمّاه أيضاً تأييداً .

وبانضمام هذه الآيات إلى مثل آية سورة القدر يظهر أنّ نسبة الروح المضافة الّتي في هذه الآيات إلى الروح المطلقة المذكورة في سورة القدر نسبة الإفاضة إلى المفيض

والظلّ إلى ذي الظلّ بإذن الله .

وكذلك الروح المتعلّقة بالملائكة من إفاضات الروح بإذن الله ، وإنّما لم يعبّر في روح الملك بالنفخ و التأييد كالإنسان بل سمّاه روحاً كما في قوله تعالى : « فأرسلنا إليها روحنا» ، وقوله : «قل نزّله روح القدس» النحل: ١٠٢، وقوله : «نزل به الروح الأمين» الشعراء : ١٩٣ لأنّ الملائكة أرواح محضة على اختلاف مراتبهم في القرب والبعد من ربّهم ، وما يتراآى من الأجسام لهم تمثّلات كما يشير إليه قوله تعالى : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً » مريم : ١٧ وقد تقدّم الكلام في معنى التمثّل في ذيل الآية بخلاف الإنسان المخلوق مؤلّفاً من جسم ميت وروح حيّة فيناسبه التعبير بالنفخ كما في قوله : « فإذا سوّيته و نفخت فيه من روحي» الحجر:٢٩ .

وكما أوجب اختلاف الروح في خلق الملك والإنسان اختلاف التعبير بالنفخ وعدمه كذلك اختلاف الروح من حيث أثرها وهو الحياة شرفاً وخسّة أوجب اختلاف التعبير بالنفخ والتأييد وعدّ الروح ذات مراتب مختلفة باختلاف أثر الحياة .

فمن الروح الروح المنفوخة في الانسان قال : « ونفخت فيه من روحي » .

ومن الروح الروح المؤيّد بها المؤمن قال : « اُولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيّدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ وهي أشرف وجوداً وأعلى مرتبة وأقوى أثراً من الروح الانسانيّة العامّة كما يفيده قوله تعالى وهو في معنى هذه الآية : « أو من كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ فقد عدّ المؤمن حيّاً ذا نور يمشي به وهو أثر الروح والكافر ميتاً وهو ذو روح منفوخة فللمؤمن روح ليست للكافر ذات أثر ليس فيه .

ومن ذلك يظهر أنّ من مراتب الروح ماهو في النبات لما فيه من أثر الحياة يدلّ على ذلك الآيات المتضمّنة لاحياء الأرض بعد موتها .

ومن الروح الروح المؤيّد بها الأنبياء قال : « وأيّدناه بروح القدس » البقرة ٨٧ وسياق الآيات يدلّ على كون هذه الروح أشرف وأعلى مرتبة من غيرها ممّا في الإنسان .

وأمّا قوله : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » المؤمن : ١٥ ، وقوله : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » الشورى ٥٢ فيقبل الانطباق على روح الايمان وعلى روح القدس والله أعلم .

وقد تقدّم بعض ما ينفع من الكلام في المقام في ذيل هذه الآيات الكريمة .

قوله تعالى : « ذلك اليوم الحقّ » إشارة إلى يوم الفصل المذكور في السورة الموصوف بما مرّ من الأوصاف وهو في الحقيقة خاتمة الكلام المنعطفة إلى فاتحة السورة وما بعده أعني قوله : « فمن شاء اتّخذ إلى ربّه مآباً » الخ فضل تفريع على البيان السابق .

والاشارة إليه بالاشارة البعيدة للدلالة على فخامة أمره والمراد بكونه حقّاً ثبوته حتماً مقضيّاً لا يتخلّف عن الوقوع .

قوله تعالى : « فمن شاء اتّخذ إلى ربّه مآباً » أي مرجعاً إلى ربّه ينال به ثواب المتّقين وينجو به من عذاب الطاغين والجملة كما أشرنا إليه تفريع على ما تقدّم من الاخبار بيوم الفصل والاحتجاج عليه ووصفه ، والمعنى إذا كان كذلك فمن شاء الرجوع إلى ربّه فليرجع .

قوله تعالى : « إنّا أنذرناكم عذاباً قريباً » الخ المراد به عذاب الآخرة ، وكونه قريباً لكونه حقّاً لا ريب في إتيانه وكلّ ما هو آت قريب .

على أنّ الأعمال الّتي سيجزى بها الانسان هي معه أقرب ما يكون منه .

وقوله : « يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه » أي ينتظر المرء جزاء أعماله الّتي قدّمتها يداه بالاكتساب ، وقيل : المعنى ينظر المرء إلى ما قدّمت يداه من الأعمال لحضورها عنده قال تعالى : « يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .

وقوله : « ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » أي يتمنّى من شدّة اليوم أن لو كان تراباً فاقداً للشعور والارادة فلم يعمل ولم يجز .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمّي : وقوله : « وفتحت السماء فكانت أبواباً » قال : تفتح أبواب الجنان ، وقوله : « وسيّرت الجبال فكانت سراباً » قال : تصير الجبال مثل السراب الّذي يلمع في المفازة .

وفيه : وقوله : « لابثين فيها أحقاباً » قال: الأحقاب السنين والحقب سنة والسنة عددها ثلاثمائة وستّون يوماً واليوم كالف سنة ممّا تعدّون .

وفي المجمع روى نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا يخرج من النار من دخلها حتّى يمكث فيها أحقاباً والحقب بضع وستّون سنة والسنة ثلاثمائة وستّون يوماً كلّ يوم كألف سنة ممّا تعدّون فلا يتّكلنّ أحد على أن يخرج من النار .

أقول : وأورد الرواية في الدرّ المنثور وفيها ثمانون مكان ستّون ولفظ آخرها : قال ابن عمر : فلا يتّكلنّ أحد الخ ، وأورد أيضاً رواية اُخرى عنه صلى الله عليه وآله أنّ الحقب أربعون سنة .

وفيه وروى العيّاشيّ بإسناده عن حمران قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال : هذه في الّذين يخرجون من النار ، وروى عن الأحول مثله .

وفي تفسير القمّي وقوله : « إنّ للمتّقين مفازاً » قال: يفوزون، قوله : « وكواعب أتراباً » قال: جوار وأتراب لأهل الجنّة ، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال في قوله : « إنّ للمتّقين مفازاً » قال: هي الكرامات « وكواعب أتراباً » أي الفتيات النواهد .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عبّاس أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤس وأيد وأرجل ثم قرء : « يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً » قال : هؤلاء جند وهؤلاء جند .

أقول : وقدتقدّمت الرواية في ذيل الآيات المشتملة علىالروح عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ الروح خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل ، وتقدّمت الرواية أيضاً عن عليّ عليه السلام أنّ الروح غير الملائكة واستدلّ عليه السلام عليه بقوله تعالى : « تنزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » الآية .

نعم في رواية القمّي عن حمران أنّه ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل وكان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مع الأئمّة عليهم السلام ، ولعلّ المرادبالملك مطلق الموجودالسماويّ أو هو من وهم بعض الرواة في النقل بالمعنى ولادليل على انحصارالموجودات الأمريّة السماويّة في الملائكة بل الدليل على خلافه كما يستفاد من قوله تعالى لإبليس حين أبى عن السجود لآدم وقد سجد له الملائكة كلّهم أجمعون : « يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أستكبرت أم كنت من العالين » صٓ : ٧٥ وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك في تفسير الآية .

وفي اُصول الكافي بإسناده عن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال قلت : « يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً لا يتكلّمون » الآية قال نحن والله المأذون لهم يوم القيامة والقائلون صواباً . قلت : ما تقولون إذا تكلّمتم ؟ قال : نمجّد ربّنا ونصلّي على نبيّنا ونشفع لشيعتنا ولا يردّنا ربّنا الحديث .

أقول : ورواه في المجمع عن العيّاشيّ مرفوعاً عن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام .

والرواية من قبيل ذكر بعض المصاديق فهناك شفعاء اُخر من الملائكة والأنبياء والمؤمنين مأذون لهم في التكلّم ، وهناك شهداء من الاُمم مأذون لهم في التكلّم على ما ينصّ عليه القرآن والحديث .

﴿سورة النازعات مكيّة وهي ستّ وأربعون آية﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَالنّٰازِعٰاتِ غَرْقاً (١) وَالنّٰاشِطٰاتِ نَشْطاً (٢) وَالسّٰابِحٰاتِ سَبْحاً (٣) فَالسّٰابِقٰاتِ سَبْقاً (٤) فَالْمُدَبِّرٰاتِ أَمْراً (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرّٰاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرّٰادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وٰاجِفَةٌ (٨) أَبْصٰارُهٰا خٰاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ ءَانّٰا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحٰافِرَةِ (١٠) ءَاذٰا كُنّٰا عِظٰاماً نَخِرَةً (١١) قٰالُوا تِلْكَ اذاً كَرَّةٌ خٰاسِرَةٌ (١٢) فَانَّمٰا هِيَ زَجْرَةٌ وٰاحِدَةٌ (١٣) فَاذٰا هُمْ بِالسّٰاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتٰيكَ حَدِيثُ مُوسٰى (١٥) اذْ نٰادٰيهُ رَبُّهُ بِالْوٰادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ الٰى فِرْعَوْنَ انَّهُ طَغٰى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ الٰى أَنْ تَزَكّٰى (١٨) وَأَهْدِيَكَ الٰى رَبِّكَ فَتَخْشٰى (١٩) فَأَرٰيهُ الْآيَةَ الْكُبْرٰى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصٰى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعٰى (٢٢) فَحَشَرَ فَنٰادٰى (٢٣) فَقٰالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلٰى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللهُ نَكٰالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولٰى (٢٥) انَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشٰى (٢٦) ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمٰاءُ بَنٰيهٰا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهٰا فَسَوّٰيهٰا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهٰا وَأَخْرَجَ ضُحٰيهٰا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحٰيهٰا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهٰا مٰاءَهٰا وَمَرْعٰيهٰا (٣١) وَالْجِبٰالَ أَرْسٰيهٰا (٣٢) مَتٰاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعٰامِكُمْ (٣٣) فَاذٰا جٰاءَتِ الطّٰامَّةُ الْكُبْرٰى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْانْسٰانُ مٰا سَعٰى (٣٥)

وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) .

﴿ بيان ﴾

في السورة إخبار مؤكّد بوقوع البعث والقيامة ، واحتجاج عليه من طريق التدبير الربوبيّ المنتج أنّ الناس سينقسمون يومئذ طائفتين أصحاب الجنّة وأصحاب الجحيم وتختتم السورة بالإشارة إلى سؤالهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن وقت قيام الساعة والجواب عنه. والسورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً فالمدبّرات أمراً » اختلف المفسّرون في تفسير هذه الآيات الخمس اختلافاً عجيباً مع اتّفاقهم على أنّها إقسام وقول أكثرهم بأنّ جواب القسم محذوف والتقدير اُقسم بكذا وكذا لتبعثنّ .

فقوله : « والنازعات غرقاً » قيل : المراد بها ملائكة الموت تنزع الأرواح من الأجساد ، و « غرقاً » مصدر مؤكّد بحذف الزوائد أي إغراقاً وتشديداً في النزع .

وقيل : المراد بها الملائكة الّذين ينزعون أرواح الكفّار من أجسادهم بشدّة ، وقيل : هو الموت ينزع الأرواح من الأبدان نزعا بالغاً .

وقيل : المراد بها النجوم تنزع من اُفق لتغيب في اُفق أي تطلع من مطالعها لتغرب في مغاربها ، وقيل : المراد بها القسيّ تنزع بالسهم أي تمدّ بجذب وترها إغراقاً في المدّ فالإقسام بقسّي المجاهدين في سبيل الله أو بالمجاهدين أنفسهم وقيل : المراد بها الوحش تنزع إلى الكلا .

وقوله : « والناشطات نشطاً » النشط الجذب والخروج والإخراج برفق وسهولة

وحلّ العقدة قيل : المراد بها الملائكة الّذين يخرجون الأرواح من الأجساد ، وقيل المراد بها خصوص الملائكة الّذين يخرجون أرواح المؤمنين من أجسادهم برفق وسهولة كما أنّ المراد بالنازعات غرقاً الملائكة الّذين ينزعون أرواح الكفّار من أجسادهم.

وقيل : هم الملائكة الّذين ينشطون أرواح الكفّار من أجسادهم ، وقيل : المراد بها أرواح المؤمنين أنفسهم ، وقيل : هي النجوم تنشط وتذهب من اُفق إلى اُفق ، وقيل : هي السهام تنشط من قسيّها في الغزوات ، وقيل : هو الموت ينشط ويخرج الأرواح من الأجساد ، وقيل : هي الوحش تنشط من قطر إلى قطر .

وقوله : «والسابحات سبحاً » قيل : المراد بها الملائكة تقبض الأرواح فتسرع بروح المؤمن إلى الجنّة وبروح الكافر إلى النار و السبح الإسراع في الحركة كما يقال للفرس سابح إذا أسرع في جريه ، و قيل : المراد بها الملائكه يقبضون أرواح المؤمنين يسلّونها من الأبدان سلاّ رفيقاً ثمّ يدعونها حتّى يستريح كالسابح بالشيء في الماء يرمي ، وقيل : هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين ، وقيل : هي النجوم تسبح في فلكها كما قال تعالى : « وكلّ في فلك يسبحون » .

وقيل : هي خيل الغزاة تسبح في عدوها وتسرع ، وقيل : هي المنايا تسبح في نفوس الحيوان ، وقيل : هي السفن تسبح في المياه ، وقيل: السحاب ، وقيل : دوابّ البحر .

و قوله : « فالسابقات سبقاً » قيل المراد بها مطلق الملائكة لأنّها سبقت ابن آدم بالخير والإيمان والعمل الصالح ، وقيل : ملائكة الموت تسبق بروح المؤمن إلى الجنّة وبروح الكافر إلى النار ، وقيل : الملائكة القابضون لروح المؤمن تسبق بها إلى الجنّة ، وقيل : ملائكة الوحي تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء ، وقيل : أرواح المؤمنين تسبق إلى الملائكة الّذين يقبضونها شوقاً إلى لقاء الله سبحانه، وقيل : هي النجوم تسبق بعضها بعضاً في السير ، و قيل : هي خيل الغزاة تسبق بعضها بعضاً في الحرب ، وقيل : هي المنايا تسبق الآمال .

وقوله : « فالمدبّرات أمراً » قيل : المراد بها مطلق الملائكة المدبّرين للأمور كذا فسّر الأكثرون حتّى ادّعى بعضهم اتّفاق المفسّرين عليه ، و قيل : المراد بها

الملائكة الأربعة المدبّرون لاُمور الدنيا : جبريل و ميكائيل و عزرائيل و إسرافيل فجبريل يدبّر أمر الرياح والجنود والوحي ، وميكائيل يدبّر أمر القطر والنبات ، و عزرائيل موكّل بقبض الأرواح ، وإسرافيل يتنزّل بالأمر عليهم وهو صاحب الصور ، وقيل : إنّها الأفلاك يقع فيها أمر الله فيجري بها القضاء في الدنيا .

وهناك قول بأنّ الإقسام في الآيات بمضاف محذوف والتقدير وربّ النازعات نزعاً » الخ .

وأنت خبير بأنّ سياق الآيات الخمس سياق واحد متّصل متشابه الأجزاء لايلائم كثيراً من هذه الأقوال القاضية باختلاف المعاني المقسم بها ككون المراد بالنازعات الملائكة القابضين لأرواح الكفّار ، و بالناشطات الوحش ، و بالسابحات السفن ، و بالسابقات المنايا تسبق الآمال و بالمدبّرات الأفلاك .

مضافاً إلى أنّ كثيراً منها لادليل عليها من جهة السياق إلّا مجرّد صلاحية اللفظ بحسب اللغة للاستعمال فيه أعمّ من الحقيقة والمجاز .

على أنّ كثيراً منها لاتناسب سياق آيات السورة الّتي تذكر يوم البعث وتحتجّ على وقوعه على ماتقدّم في سورة المرسلات من حديث المناسبة بين مافي كلامه تعالى من الإقسام وجوابه .

والّذي يمكن أن يقال ـ والله أعلم ـ أنّ مافي هذه الآيات من الأوصاف المقسم بها يقبل الانطباق على صفات الملائكة في امتثالها للأوامر الصادرة عليهم من ساحة العزّة المتعلّقة بتدبير اُمور هذا العالم المشهود ثمّ قيامهم بالتدبير بإذن الله .

والآيات شديدة الشبه سياقاً بآيات مفتتح سورة الصافّات : « والصافّات صفّاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً » وآيات مفتتح سورة المرسلات : «والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشراً فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً» وهي تصف الملائكة في امتثالهم لأمر الله غير أنها تصف ملائكة الوحي ، و الآيات في مفتتح هذه السورة تصف مطلق الملائكة في تدبيرهم أمر العالم بإذن الله .

ثمّ إنّ أظهر الصفات المذكورة في هذه الآيات الخمس في الانطباق على الملائكة

قوله : « فالمدبّرات أمراً » وقد أطلق التدبير ولم يقيّد بشيء دون شيء فالمراد به التدبير العالمي باطلاقه ، وقوله : «أمراً» تمييز أومفعول به للمدبّرات ومطلق التدبير شأن مطلق الملائكة فالمراد بالمدبّرات مطلق الملائكة .

وإذ كان قوله : « فالمدبّرات أمراً » مفتتحا بفاء التفريع الدالّة على تفرّع صفة التدبير على صفة السبق ، وكذا قوله : «فالسابقات سبقاً » مقروناً بفاءِ التفريع الدالّة على تفرّع السبق على السبح دلّ ذلك على مجانسة المعاني المرادة بالآيات الثلاث : « والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً فالمدبّرات أمراً » فمدلولها أنّهم يدبّرون الأمر بعد ماسبقوا إليه و يسبقون إليه بعدما سبحوا أي أسرعوا إليه عند النزول فالمراد بالسابحات والسابقات هم المدبّرات من الملائكة باعتبار نزولهم إلى ما اُمروا بتدبيره .

فالآيات الثلاث في معنى قوله تعالى : «له معقّبات من بين يديه و من خلفه يحفظونه من أمر الله » الرعد : ١١ على ماتقدّم من توضيح معناه فالملائكة ينزلون على الأشياء وقد تجمّعت عليها الأسباب وتنازعت فيها وجوداً وعدماً و بقاء وزوالاً و في مختلف أحوالها فماقضاه الله فيها من الأمر وأبرم قضاءه أسرع إليه الملك المامور به - بماعيّن له من المقام - وسبق غيره وتمّم السبب الّذي يقتضيه فكان ماأراده الله فافهم ذلك .

وإذا كان المراد بالآيات الثلاث الإشارة إلى إسراع الملائكة في النزول على ماامروا به من أمر وسبقهم إليه وتدبيره تعيّن حمل قوله: «والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً» على انتزاعهم وخروجهم من موقف الخطاب إلى ما اُمروا به فنزعهم غرقاً شروعهم في النزول نحو المطلوب بشدّة وجدّ ، ونشطهم خروجهم من موقفهم نحوه كما أنّ سبحهم إسراعهم إليه بعد الخروج ويتعقّب ذلك سبقهم إليه وتدبير الأمر باذن الله .

فالآيات الخمس إقسام بما يتلبّس به الملائكة من الصفات عند ما يؤمرون بتدبير أمر من اُمور هذا العالم المشهود من حين يأخذون في النزول إليه إلى تمام التدبير .

وفيها إشارة إلى نظام التدبير الملكوتي عند حدوث الحوادث كما أنّ الآيات التالية أعني قوله : «هل أتاك» الخ إشارة إلى التدبير الربوبيّ الظاهر في هذا العالم

وفي التدبير الملكوتي حجّة على البعث والجزاء كما أنّ في التدبير الدنيوي المشهود حجّة عليه على ما سيوافيك إن شاء الله بيانه .

هذا ما يعطيه التدبّر في سياق الآيات الكريمة ويؤيّده بعض التأييد ما سيأتي من الأخبار في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

﴿كلام في أن الملائكة وسائط في التدبير﴾

الملائكة وسائط بينه تعالى وبين الأشياء بدءً وعوداً على ما يعطيه القرآن الكريم بمعنى أنّهم أسباب للحوادث فوق الأسباب المادّيّة في العالم المشهود قبل حلول الموت والانتقال إلى نشأة الآخرة وبعده .

أمّا في العود أعني حال ظهور آيات الموت وقبض الروح وإجراء السؤال وثواب القبر وعذابه وإماتة الكلّ بنفخ الصور وإحيائهم بذلك والحشر وإعطاء الكتاب ووضع الموازين والحساب والسوق إلى الجنّة والنار فوساطتهم فيها غنيّ عن البيان، والآيات الدالّة على ذلك كثيرة لا حاجة إلى إيرادها ، والأخبار المأثورة فيها عن النبيّ صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام فوق حدّ الإحصاء .

وكذا وساطتهم في مرحله التشريع من النزول بالوحي ودفع الشياطين عن المداخلة فيه وتسديد النبيّ وتأييد المؤمنين وتطهيرهم بالاستغفار .

وأمّا وساطتهم في تدبير الاُمور في هذه النشأة فيدلّ عليها ما في مفتتح هذه السورة من إطلاق قوله : «والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً فالمدبّرات أمراً» بما تقدّم من البيان .

وكذا قوله تعالى : « جاعل الملائكة رسلاً اُولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع» فاطر : ١ الظاهر باطلاقه ــ على ما تقدّم من تفسيره ــ في أنّهم خلقوا وشأنهم أن يتوسّطوا بينه تعالى و بين خلقه و يرسلوا لإنفاذ أمره الذى يستفاد من قوله

تعالى في صفتهم : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ وقوله : « يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون » النحل : ٥٠ وفي جعل الجناح لهم إشارة ذلك .

فلا شغل للملائكة إلاّ التوسّط بينه تعالى وبين خلقه بانفاذ أمره فيهم وليس ذلك على سبيل الاتّفاق بأن يجري الله سبحانه أمراً بأيديهم ثمّ يجري مثله لا بتوسيطهم فلا اختلاف ولا تخلّف في سنّته تعالى : «إنّ ربّي على صراط مستقيم» هود : ٥٦ ، وقال «فلن تجد لسنّة الله تبديلاً ولن تجد لسنّة الله تحويلاً » فاطر:٤٣ .

ومن الوساطة كون بعضهم فوق بعض مقاماً وأمر العالي منهم السافل بشيء من التدبير فإنّه في الحقيقة توسّط من المتبوع بينه تعالى وبين تابعه في إيصال أمر الله تعالى كتوسّط ملك الموت في أمر بعض أعوانه بقبض روح من الأرواح قال تعالى حاكياً عن الملائكة : «وما منّا إلاّ له مقام معلوم» الصافّات : ١٦٤، وقال : «مطاع ثمّ أمين» التكوير : ٢١ ، وقال : «حتّى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ما ذا قال ربّكم قالوا الحقّ» سبأ ٢٣ .

ولا ينافي هذا الّذي ذكر من توسّطهم بينه تعالى وبين الحوادث أعني كونهم أسباباً تستند إليها الحوادث استناد الحوادث إلى أسبابها القريبة المادّيّة فإنّ السببيّة طوليّة لا عرضيّة أي إنّ السبب القريب سبب للحادث والسبب البعيد سبب للسبب .

كما لا ينافي توسّطهم واستناد الحوادث إليهم استناد الحوادث إليه تعالى وكونه هو السبب الوحيد لها جميعاً على ما يقتضيه توحيد الربوبيّة فإنّ السببيّة طوليّة كما سمعت لا عرضيّة ولا يزيد استناد الحوادث إلى الملائكة استنادها إلى أسبابها الطبيعيّة القريبة وقد صدّق القرآن الكريم استناد الحوادث إلى أسبابها الطبيعيّة كما صدّق استنادها إلى الملائكة .

وليس لشيء من الأسباب استقلال قباله تعالى حتّى ينقطع عنه فيمنع ذلك استناد ما استند إليه إلى الله سبحانه على ما يقول به الوثنيّة من تفويضه تعالى تدبير الأمر إلى الملائكة المقرّبين فالتوحيد القرآنيّ ينفي الاستقلال عن كلّ شيء من كلّ جهة : لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا .

فمثل الأشياء في استنادها إلى أسبابها المترتّبة القريبة والبعيدة وانتهائها إلى الله سبحانه بوجه بعيد كمثل الكتابة يكتبها الإنسان بيده وبالقلم فللكتابة استناد إلى القلم ثمّ إلى اليد الّتي توسّلت إلى الكتابة بالقلم ، وإلى الإنسان الّذي توسّل إليها باليد وبالقلم ، والسبب بحقيقة معناه هو الإنسان المستقلّ بالسببيّة من غير أن ينافي سببيته استناد الكتابة بوجه إلى اليد وإلى القلم .

ولا منافاة أيضاً بين ماتقدّم أنّ شأن الملائكة هو التوسّط في التدبير وبين ما يظهر من كلامه تعالى أنّ بعضهم أو جميعهم مداومون على عبادته تعالى وتسبيحه والسجود له كقوله : «ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبّحون الليل والنهار لا يفترون» الأنبياء : ٢٠ ، وقوله : « إنّ الّذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته ويسبّحونه وله يسجدون » الأعراف : ٢٠٦ .

وذلك لجواز أن تكون عبادتهم وسجودهم و تسبيحهم عين عملهم في التدبير وامتثالهم الأمر الصادر عن ساحة العزّة بالتوسّط كما ربّما يؤمي إليه قوله تعالى : «ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابّة والملائكة وهم لا يستكبرون » النحل : ٤٩ .

☆ ☆ ☆

قوله تعالى : «يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة» فسّرت الراجفة بالصيحة العظيمة الّتي فيها تردّد واضطراب والرادفة بالمتأخّرة التابعة ، وعليه تنطبق الآيتان على نفختي الصور الّتي يدلّ عليهما قوله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله ثمّ نفخ فيه اُخرى فإذا هم قيام ينظرون » الزمر : ٦٨ .

وقيل : الراجفة بمعنى المحرّكة تحريكاً شديداً ـ فإنّ الرجف يستعمل لازماً بمعنى التحرّك الشديد و متعدّياً بمعنى التحريك الشديد ـ و المراد بها أيضاً النفخة الاُولى المحرّكة للأرض و الجبال ، و بالرادفة النفخة الثانية المتأخّرة عن الاُولى .

وقيل : المرد بالراجفة الأرض و بالرادفة السماوات والكواكب الّتي ترجف وتضطرب وتنشقّ ، وتتلاشى والوجهان لايخلوان من بعد ولاسيّما الأخير .

والأنسب بالسياق على أيّ حال كون قوله : « يوم ترجف» إلخ ظرفاً لجواب القسم المحذوف للدلالة على فخامته وبلوغه الغاية في الشدّة وهو لتبعثنّ ، وقيل : إنّ «يوم» منصوب على معنى قلوب يومئذ واجفة يوم ترجف الراجفة ، ولا يخلو من بعد .

قوله تعالى : «قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة » تنكير «قلوب» للتنويع وهومبتدء خبره«واجفة» والوجيف الاضطراب ، و«يومئذ» ظرف متعلّق بواجفة والجملة استئناف مبيّن لصفة اليوم .

وقوله : «أبصارها خاشعة» ضمير«أبصارها» للقلوب ونسبة الأبصار وإضافتها إلى القلوب لمكان أنّ المراد بالقلوب في أمثال هذه المواضع الّتي تضاف إليها الصفات الادراكيّة كالعلم و الخوف والرجاء و ما يشبهها هي النفوس ، وقد تقدّمت الإشارة إليها .

ونسبة الخشوع إلى الأبصار وهو من أحوال القلب إنّما هي لظهور أثره الدالّ عليه في الأبصار أقوى من سائر الأعضاء .

قوله تعالى : « يقولون ء إنّا لمردودون في الحافرة » إخبار وحكاية لقولهم في الدنيا استبعاداً منهم لوقوع البعث والجزاء وإشارة إلى أنّ هؤلاء الّذين لقلوبهم وجيف ولأبصارهم خشوع يوم القيامة هم الّذين ينكرون البعث وهم في الدنيا ويقولون كذا وكذا .

والحافرة ـ على ماقيل ـ أوّل الشيء ومبتداه ، والاستفهام للإنكار استبعادا ، والمعنى يقول هؤلاء : ءإنّا لمردودون بعد الموت إلى حالتنا الاُولى وهي الحياة .

وقيل : الحافرة بمعنى المحفورة وهي أرض القبر ، والمعنى أنرد من قبورنا بعد موتنا أحياء ، وهو كما ترى .

وقيل : الآية تخبر عن اعترافهم بالبعث يوم القيامة ، والكلام كلامهم بعد الإحياء والاستفهام للاستغراب كأنّهم لمّا بعثوا و شاهدوا ما شاهدوا يستغربون ماشاهدوا فيستفهمون عن الردّ إلى الحياة بعد الموت .

وهو معنى حسن لولم يخالف ظاهر السياق .

قوله تعالى : «ءإذا كنّا عظاماً نخرة» تكرار للاستفهام لتأكيد الاستبعاد فلو كانت الحياة بعد الموت مستبعدة فهي مع فرض نخر العظام وتفتّت الأجزاء أشدّ استبعاداً ، والنخر بفتحتين البلى والتفتّت يقال : نخر العظم ينخر نخراً فهو ناخر ونخر .

قوله تعالى : «قالوا تلك إذاً كرّة خاسرة» الإشارة بتلك إلى معنى الرجعة المفهوم من قوله «ءإنّا لمردودون في الحافرة» والكرّة الرجعة والعطفة ، وعدّ الكرّة خاسرة إمّا مجاز و الخاسر بالحقيقة صاحبها ، أو الخاسرة بمعنى ذات خسران والمعنى قالوا : تلك الرجعة ـ وهي الرجعة إلى الحياة بعد الموت ـ رجعة متلبّسة بالخسران .

وهذا قول منهم أوردوه استهزاء ـ على أن يكون قولهم : «ءإنّا لمردودون» إلخ ممّا قالوه في الدنيا ـ ولذا غيّر السياق وقال : «قالوا تلك إذاً» إلخ بعد قوله : «يقولون ءإنّا لمردودون» إلخ وأمّا على تقدير أن يكون ممّا سيقولونه عند البعث فهو قول منهم على سبيل التشأم والتحسّر .

قوله تعالى : «فإنّما هي زجرة واحدة فإذاهم بالساهرة» ضمير «هي» للكرّة وقيل : للرادفة المراد بها النفخة الثانية ، والزجر طرد بصوت وصياح عبّر عن النفخة

الثانية بالزجرة لما فيها من نقلهم من نشأة الموت إلى نشأة الحياة ومن بطن الأرض إلى ظهرها ، و«إذا» فجائيّة ، والساهرة الأرض المستوية أو الأرض المستوية الخالية من النبات ،

والآيتان في محلّ الجواب عمّا يدلّ عليه قولهم « ءإنّا لمردودون » الخ من استبعاد البعث واستصعابه والمعنى لايصعب علينا إحياؤهم بعد الموت وكرّتهم فإنّما كرّتهم - أوالرادفة الّتي هي النفخة الثانية - زجرة واحدة فإذاهم أحياء على وجه الأرض بعد ماكانوا أمواتاً في بطنها .

فالآيتان في معنى قوله تعالى : « وما أمرالساعة إلّا كلمح البصر أو هو أقرب » النحل : ٧٧ .

قوله تعالى «هل أتاك حديث موسى» الآية إلى تمام اثنتي عشرة آية إشارة إلى إجمال قصّة موسى ورسالته إلى فرعون وردّه دعوته إلى أن أخذه الله نكال الآخرة والاُولى .

وفيها عظة وإنذار للمشركين المنكرين للبعث وقد توسّلوا به إلى ردّ الدعوة الدينيّة إذلا معنى لتشريع الدين لولاالمعاد ، وفيها مع ذلك تسلية للنبيّ ﷺ من تكذيب قومه ، وتهديد لهم كما يؤيّده توجيه الخطاب في قوله : «هل أتاك» .

وفي القصّة مع ذلك كلّه حجّة على وقوع البعث والجزاء فإنّ هلاك فرعون وجنوده تلك الهلكة الهائلة دليل على حقّيّة رسالة موسى من جانب الله إلى الناس ولا تتمّ رسالته من جانبه تعالى إلّا بربوبيّة منه تعالى للناس على خلاف ما يزعمه المشركون أنّلاربوبيّةله تعالى بالنسبة إلىالناس وأنّهناك أرباباً دونه وأنّهسبحانه ربّ الأرباب لاغير .

ففي قوله : «هلأتاك حديث موسى» استفهام بداعي ترغيب السامع في استماع الحديث ليتسلّى به هو ويكون للمنكرين إنذاراً بما فيه من ذكر العذاب وإتماماً للحجّة كما تقدّم .

ولا ينافي هذا النوع من الاستفهام تقدّم علم السامع بالحديث لأنّ الغرض

توجيه نظر السامع إلى الحديث دون السؤال والاستعلام حقيقة فمن الممكن أن تكون الآيات أوّل ما يقصّه الله من قصّة موسى أو تكون مسبوقة بذكر قصّته كما في سورة المزّمّل إجمالاً ـ وهي أقدم نزولاً من سورة النازعات ـ وفي سورة الأعراف وطه و غيرهما تفصيلاً .

قوله تعالى : «إذ ناداه ربّه بالواد المقدّس طوى» ظرف للحديث وهو أوّل ما أوحى الله إليه فقلّده الرسالة ، وطوى اسم للوادي المقدّس .

قوله تعالى : «اذهب إلى فرعون إنّه طغى» تفسير للنداء ، وقيل : الكلام على تقدير القول أي قائلاً اذهب الخ أو بتقدير أن المفسّرة أي أن اذهب الخ وفي الوجهين أنّ التقدير مستغنى عنه ، وقوله : «إنّه طغى» تعليل للأمر .

قوله تعالى : « فقل هل لك إلى أن تزكّى » متعلّق «إلى» محذوف والتقدير هل لك ميل إلى أن تتزكّى أو ما في معناه، والمراد بالتزكّي التطهّر من قذارة الطغيان .

قوله تعالى : «وأهديك إلى ربّك فتخشى» عطف على قوله : «تزكّى» ، والمراد بهدايته إيّاه إلى ربّه ـ كما قيل ـ تعريفه له و إرشاده إلى معرفته تعالى وتترتّب عليه الخشية منه الرادعة عن الطغيان وتعدّي طور العبوديّة قال تعالى : «إنّما يخشى الله من عباده العلماء» فاطر : ٢٨ .

والمراد بالتزكّي إن كان هو التطهّر عن الطغيان بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى كانت الخشية مترتّبة عليه والمراد بها الخشية الملازمة للإيمان الداعية إلى الطاعة والرادعة عن المعصية ، وإن كان هو التطهّر بالطاعة وتجنّب المعصية كان قوله : «وأهديك إلى ربّك فتخشى » مفسّراً لما قبله والعطف عطف تفسير .

قوله تعالى : « فأراه الآية الكبرى » الفاء فصيحة وفي الكلام حذف وتقدير والأصل فأتاه ودعاه فأراه الخ .

والمراد بالآية الكبرى على ما يظهر من تفصيل القصّة آية العصا ، وقيل : المراد بها مجموع معجزاته الّتي أراها فرعون وملأه وهو بعيد .

قوله تعالى : «فكذّب وعصى» أي كذّب موسى فجحد رسالته وسمّاه ساحراً

وعصاه فيما أمره به أو عصى الله .

قوله تعالى : «ثمّ أدبر يسعى» الإدبار التولّي والسعي هو الجدّ والاجتهاد أي ثمّ تولّى فرعون يجدّ ويجتهد في إبطال أمر موسى ومعارضته .

قوله تعالى : «فحشر فنادى» الحشر جمع الناس بإزعاج والمراد به جمعه الناس من أهل مملكته كما يدلّ عليه تفريع قوله : « فنادى فقال أنا ربّكم الأعلى » عليه فإنّه كان يدّعي الربوبيّة لأهل مملكته جميعاً لا لطائفة خاصّة منهم .

وقيل : المراد بالحشر جمع السحرة لقوله تعالى : « فأرسل فرعون في المدائن حاشرين» الشعراء : ٥٣ ، وقوله : «فتولّى فرعون فجمع كيده ثمّ أتى» طه : ٦٠ وفيه أنّه لا دليل على كون المراد بالحشر في هذه الآية هو عين المراد بالحشر والجمع في تينك الآيتين .

قوله تعالى : « فقال أنا ربّكم الأعلى » دعوى الربوبيّة وظاهره أنّه يدّعي أنه أعلى في الربوبيّة من سائر الأرباب الّتي كان يقول بها قومه الوثنيّون فيفضّل نفسه على سائر آلهتهم .

ولعلّ مراده بهذا التفضيل مع كونه وثنيّاً يعبد الآلهة كما يدلّ عليه قوله تعالى حكاية عن ملائه يخاطبونه : « أتذر موسى وقومه ليُفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك» الأعراف : ١٢٧ أنّه أقرب الآلهة منهم تجري بيده أرزاقهم وتصلح بأمره شؤون حياتهم و يحفظ بمشيّته شرفهم و سوددهم ، وسائر الآلهة ليسوا على هذه الصفة .

وقيل : مراده بما قال تفضيل نفسه على كلّ من يلي اُمورهم ومحصّله دعوى الملك وأنّه فوق سائر أولياء اُمور المملكة من حكّام وعمّال فيكون في معنى قوله فيما حكاه الله عنه إذ قال : « ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر » الآية الزخرف : ٥١ .

وهو خلاف ظاهر الكلام وفيما قال قوله لملائه : «يا أيّها الملأ ما علمت لكم من إله غيري» القصص : ٣٨ ، و قوله لموسى : «لئن اتّخذت إلهاً غيري لأجعلنّك

من المسجونين» الشعراء : ٢٩ .

قوله تعالى : «فأخذه الله نكال الآخرة والاُولى» الأخذ كناية عن التعذيب ، والنكال التعذيب الّذي يردع من رآه أوسمعه عن تعاطي مثله ، وعذاب الآخرة نكال حيث إنّ من شأنه أن يردع من سمعه عن تعاطي مايؤدّي إليه من المعصية كما أنّ عذاب الاستئصال في الدنيا نكال .

والمعنى فأخذالله فرعون أي عذّبه ونكله نكال الآخرة والاُولى وأمّا عذاب الدنيا فاغراقه وإغراق جنوده ، وأمّا عذاب الآخرة فعذابه بعد الموت، فالمراد بالاُولى والآخرة الدنيا والآخرة .

وقيل : المراد بالآخرة كلمته الآخرة : «أنا ربّكم الأعلى» و بالاُولى كلمته الاُولى قالها قبل ذلك : «ماعلمت لكم من إله غيري» فأخذه الله بهاتين الكلمتين ونكله نكالهما ، ولا يخلو هذا المعنى من خفاء .

وقيل : المراد بالاُولى تكذيبه ومعصيته المذكوران في أوّل القصّة وبالاُخرى كلمة ـ أنا ربّكم الأعلى ـ المذكورة في آخرها ، وهو كسابقه .

وقيل : الاُولى أوّل معاصيه والاُخرى آخرها والمعنى أخذه الله نكال مجموع معاصيه ولا يخلو أيضا من خفاء .

قوله تعالى : « إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى » الإشارة إلى حديث موسى ، والظاهر أنّ مفعول «يخشى» منسيّ معرض عنه ، والمعنى إنّ في هذا الحديث ـ حديث موسى ـ لعبرة لمن كان له خشية وكان من غريزته أن يخشى الشقاء والعذاب والإنسان من غريزته ذلك ففيه عبرة لمن كان إنساناً مستقيم الفطرة .

وقيل : المفعول محذوف والتقدير لمن يخشى الله والوجه السابق أبلغ .

قوله تعالى : « ءأنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها ـ إلى قوله ـ ولأنعامكم » خطاب توبيخيّ للمشركين المنكرين للبعث المستهزئين به على سبيل العتاب ويتضمّن الجواب عن استبعادهم البعث بقولهم: «ءإنّا لمردودون في الحافرة ءإذا كنّا عظاماً نخرة» بأنّ الله خلق ما هو أشدّ منكم خلقاً فهو على خلقكم وإنشائكم النشأة الاُخرى لقدير .

ويتضمّن أيضاً الإشارة إلى الحجّة على وقوع البعث حيث يذكر التدبير العامّ العالميّ و ارتباطه بالعالم الإنسانيّ و لازمه ربوبيّته تعالى ، و لازم الربوبيّة صحّة النبوّة وجعل التكاليف ، ولازم ذلك الجزاء الّذي موطنه البعث والحشر ، ولذا فرّع عليه حديث البعث بقوله : «فإذا جاءت الطامّة الكبرى» إلخ .

فقوله : «ءأنتم أشدّ خلقاً أم السماء» استفهام توبيخيّ بداعي رفع استبعادهم البعث بعد الموت ، والإشارة إلى تفصيل خلق السماء بقوله : «بناها» الخ دليل أنّ المراد به تقرير كون السماء أشدّ خلقاً .

وقوله : «بناها» استئناف وبيان تفصيليّ لخلق السماء .

وقوله : «رفع سمكها فسوّاها» أي رفع سقفها وما ارتفع منها ، وتسويتها ترتيب أجزائها و تركيبها بوضع كلّ جزء في موضعه الّذي تقتضيه الحكمة كما في قوله : «فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي» الحجر:٢٩ .

وقوله : «وأغطش ليلها وأخرج ضحاها» أي أظلم ليلها وأبرز نهارها ، والأصل في معنى الضحى انبساط الشمس وامتداد النهار اُريد به مطلق النهار بقرينة المقابلة ونسبة الليل والضحى إلى السماء لأنّ السبب الأصلي لها سماويّ وهو ظهور الأجرام المظلمة بشروق الأنوار السماويّة كنور الشمس وغيره وخفاؤها بالاستتار ولا يختصّ الليل والنهار بالأرض الّتي نحن عليها بل يعمّان سائر الأجرام المظلمة المستنيرة .

وقوله : «والأرض بعد ذلك دحاها» أي بسطها ومدّها بعد ما بنى السماء ورفع سمكها وسوّاها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها .

وقيل : المعنى والأرض مع ذلك دحاها كما في قوله : «عتلّ بعد ذلك زنيم» وقد تقدّم كلام فيما يظهر من كلامه تعالى في خلق السماء والأرض في تفسير سورة الم السجدة وذكر بعضهم أنّ الدحو بمعنى الدحرجة .

وقوله : «أخرج منها ماءها ومرعيها» قيل : المرعى يطلق على الرعي بالكسر فالسكون وهو الكلاء كما يجيىء مصدراً ميميّاً واسم زمان ومكان ، والمراد باخراج مائها منها تفجير العيون وإجراء الأنهار عليها ، وإخراج المرعى إنبات النبات عليها

ممّايتغذّى به الحيوان والإنسان فالظاهر أنّ المراد بالمرعى مطلق النبات الّذي يتغذّى به الحيوان والإنسان كما يشعر به قوله: «متاعاً لكم ولأنعامكم» لاما يختصّ بالحيوان كما هو الغالب في استعماله .

وقوله : « والجبال أرساها » أي أثبتها على الأرض لئلاّ تميد بكم وادّخر فيها المياه والمعادن كما ينبىء عنه سائر كلامه تعالى .

وقوله : «متاعاً لكم ولأنعامكم» أي خلق ما ذكر من السماء والأرض ودبّر ما دبّر من أمرهما ليكون متاعاً لكم ولأنعامكم الّتي سخّرها لكم تتمتّعون به في حياتكم فهذا الخلق والتدبير الّذي فيه تمتيعكم يوجب عليكم معرفة ربّكم وخوف مقامه وشكر نعمته فهناك يوم تجزون فيه بما عملتم في ذلك إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً كما أنّ هذا الخلق والتدبير أشدّ من خلقكم فليس لكم أن تستبعدوا خلقكم ثانياً وتستصعبوه عليه تعالى .

قوله تعالى : «فإذا جاءت الطامّة الكبرى» في المجمع : والطامّة العالية الغالبة يقال : هذا أطمّ من هذا أي أعلى منه ، وطمّ الطائر الشجرة أي علاها وتسمّى الداهية الّتى لا يستطاع دفعها طامّة . انتهى فالمراد بالطامّة الكبرى القيامة لأنّها داهية تعلو وتغلب كلّ داهية هائلة ، وهذا معنى اتّصافها بالكبرى وقد اُطلقت إطلاقا .

وتصدير الجملة بفاء التفريع للإشارة إلى أنّ مضمونها أعني مجيىء القيامة من لوازم خلق السماء والأرض وجعل التدبير الجاري فيهما المترتبّة على ذلك كما تقدّمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : «يوم يتذكّر الإنسان ماسعى» ظرف لمجيىء الطامّة الكبرى ، والسعي هو العمل بجدّ .

قوله تعالى : «وبرّزت الجحيم لمن يرى» التبريز الإظهار ومفعول «يرى» منسيّ معرض عنه والمراد بمن يرى من له بصر يرى به ، والمعنى واُظهرت الجحيم بكشف الغطاء عنها لكلّ ذي بصر فيشاهدونها مشاهدة عيان .

فالآية في معنى قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك

فبصرك اليوم حديد» ق : ٢٢ غير أنّ آية ق أوسع معنى .

والآية ظاهرة في أنّ الجحيم مخلوقة قبل يوم القيامة وإنّما تظهر يومئذ ظهوراً بكشف الغطاء عنها .

قوله تعالى : «فأمّا من طغى وآثر الحياة الدنيا فانّ الجحيم هي المأوى وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى» تفصيل حال الناس يومئذ في انقسامهم قسمين اُقيم مقام الإجمال الّذي هو جواب إذا المحذوف استغناء بالتفصيل عن الاجمال ، والتقدير فإذا جاءت الطامّة الكبرى انقسم الناس قسمين فأمّا من طغى إلخ .

وقد قسّم تعالى الناس في الآيات الثلاث إلى أهل الجحيم وأهل الجنّة ـ وقدّم صفة أهل الجحيم لأنّ وجه الكلام إلى المشركين ـ وعرّف أهل الجحيم بما وصفهم به في قوله : «من طغى وآثر الحياة الدنيا» وقابل تعريفهم بتعريف أهل الجنّة بقوله : «من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى» وسبيل ما وصف به الطائفتين على أيّ حال سبيل بيان الضابط .

وإذ كانت الطائفتان متقابلتين بحسب حالهما كان ما بيّن لكلّ منهما من الوصف مقابلاً لوصف الآخر فوصف أهل الجنة بالخوف من مقام ربّهم ـ والخوف تأثّر الضعيف المقهور من القويّ القاهر وخشوعه وخضوعه له ـ يقتضي كون طغيان أهل الجحيم ـ والطغيان التعدّي عن الحدّ ـ هو عدم تأثّرهم من مقام ربّهم بالاستكبار وخروجهم عن زيّ العبوديّة فلا يخشعون ولا يخضعون ولا يجرون على ما أراده منهم ولا يختارون ما اختاره لهم من السعادة الخالدة بل ما تهواه أنفسهم من زينة الحياة الدنيا .

فمن لوازم طغيانهم اختيارهم الحياة الدنيا وهو الّذي وصفهم به بعد وصفهم بالطغيان إذ قال : «وآثر الحياة الدنيا» .

وإذ كان من لوازم الطغيان رفض الآخرة وإيثار الحياة الدنيا وهو اتّباع النفس فيما تريده وطاعتها فيما تهواه ومخالفته تعالى فيما يريده كان لما يقابل الطغيان من

الوصف وهو الخوف ما يقابل الإيثار واتّباع هوى النفس و هو قريحة الردع عن الإخلاد إلى الأرض ونهي النفس عن اتّباع الهوى وهو قوله في وصف أهل الجنّة بعد وصفهم بالخوف : « و نهى النفس عن الهوى» .

وإنّما أخذ في وصفه النهي عن الهوى دون ترك اتّباعه عملاً لأنّ الإنسان ضعيف ربّما ساقته الجهالة إلى المعصية من غير استكبار والله واسع المغفرة قال تعالى « ولله ما في السماوات و ما في الأرض ليجزي الّذين أساءُوا بما عملوا ويجزي الّذين أحسنوا بالحسنى الّذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلاّ اللّمم إنّ ربّك واسع المغفرة» النجم : ٣٢ ، وقال : «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّآتكم وندخلكم مدخلاً كريماً» النساء : ٣١ .

ويتحصّل معنى الآيات الثلاث في إعطاء الضابط في صفة أهل الجحيم و أهل الجنّة في أنّ أهل الجحيم أهل الكفر والفسوق وأهل الجنّة أهل الايمان والتقوى ، وهناك غير الطائفتين طوائف اُخر من المستضعفين والّذين اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيّأً و غيرهم أمرهم إلى الله سبحانه عسى أن يشملهم المغفرة بشفاعة وغيرها .

فقوله : «فأمّا من طغى ـ إلى قوله ـ هي المأوى» أي هي مأواه على أن تكون اللاّم عوضاً عن الضمير أو الضمير محذوف والتقدير هي المأوى له .

وقوله : « و أمّا من خاف مقام ربّه» إلخ المقام اسم مكان يراد به المكان الّذي يقوم فيه جسم من الأجسام وهو الأصل في معناه ككونه اسم زمان ومصدراً ميميّاً لكن ربّما يعتبر ما عليه الشيء من الصفات والأحوال محلاً ومستقرّاً للشيء بنوع من العناية فيطلق عليه المقام كالمنزلة كما في قوله تعالى في الشهادة : «فآخران يقومان مقامهما» المائدة : ١٠٧ وقول نوح عليه‌السلام لقومه على ما حكاه الله : « إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله » يونس : ٧١ ، وقول الملائكة على ما حكاه الله : «وما منّا إلاّ له مقام معلوم» الصافّات : ١٦٤ .

فمقامه تعالى المنسوب إليه بما أنّه ربّ هو صفة ربوبيّته بما تستلزمه أو تتوقّف

عليه من صفاته الكريمة كالعلم والقدرة المطلقة والقهر والغلبة والرحمة والغضب وما يناسبها قال إيذاناً به : «ولاتطغوافيه فيحلّ عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى » طه : ٨٢ ، وقال: «نبّيء عبادي أنّي أنا الغفور الرحيم وأنّ عذابي هو العذاب الأليم» الحجر : ٥٠ .

فمقامه تعالى الّذي يخوّف منه عباده مرحلة ربوبيّته الّتي هي المبدء لرحمته و مغفرته لمن آمن واتّقى ولأليم عذابه وشديد عقابه لمن كذّب وعصى .

وقيل : المراد بمقام ربّه مقامه من ربّه يوم القيامة حين يسأله عن أعماله وهو كماترى .

وقيل : معنى خاف مقام ربّه خاف ربّه بطريق الإقحام كما قيل في قوله « أكرمي مثواه».

﴿ بحث روائي ﴾

في الفقيه وروى عليّ بن مهزيار قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : قوله عزّ وجل « واللّيل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى » وقوله عزّ وجل : « والنجم إذا هوى » وما أشبه هذا ؟ فقال إنّ لله عزّ وجلّ أن يقسم من خلقه بماشاء وليس لخلقه أن يقسموا إلّا به .

اقول : وتقدّم في هذا المعنى رواية الكافي عن محمّد بن مسلم عن الباقر عليه السلام في تفسير أوّل سورة النجم .

وفي الدرّ المنثور أخرج سعيد بن المنصور وابن المنذر عن عليّ في قوله : « والنازعات غرقاً » قال : هي الملائكة تنزع أرواح الكفّار « والناشطات نشطا » هي الملائكة تنشط أرواح الكفّار مابين الأظفار والجلد حتّى تخرجها « والسابحات سبحاً » هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض « فالسابقات سبقاً » هي الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله « فالمدبّرات أمراً » قال هي الملائكة تدبّر أمر العباد من السنة إلى السنة .

اقول : ينبغي أن تحمل الرواية ـ لو صحّت ـ على ذكر بعض المصاديق ، وقوله : « تنشط أرواح الكفّار ما بين الأظفار والجلد حتّى تخرجها » ضرب من التمثيل لشدّة العذاب .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب أنّ ابن الكوّا سأله عن « المدبّرات أمراً » قال : الملائكة يدبّرون ذكر الرحمان وأمره .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة » قال : تنشقّ الأرض بأهلها والرادفة الصيحة .

وفيه في قوله : « ءإنّا لمردودون في الحافرة » قال : قالت قريش : أنرجع بعد الموت ؟

وفيه في قوله : « تلك إذاً كرّة خاسرة » قال : قالوا هذه على حدّ الاستهزاء .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قوله : « ءإنّا لمردودون في الحافرة » يقول : في الخلق الجديد ، وأمّا قوله : « فإذا هم بالساهرة » والساهرة الأرض كانوا في القبور فلمّا سمعوا الزجرة خرجوا من قبورهم فاستووا على الأرض .

وفي اُصول الكافي بإسناده إلى داود الرقّي عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « ولمن خاف مقام ربّه جنّتان » قال : من علم أنّ الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمله من خير أو شرّ فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الّذي خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى .

اقول : يؤيّد الحديث ما تقدّم من معنى الخوف من مقامه تعالى .

وفيه بإسناده عن يحيى بن عقيل قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : إنّما أخاف عليكم الاثنين : اتّباع الهوى وطول الأمل أمّا اتّباع الهوى فإنّه يصدّ عن الحقّ وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة .

✿ ✿ ✿

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَيٰهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَيٰهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَيٰهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَيٰهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَيٰهَا (٤٦) .

﴿ بيان ﴾

تعرّض لسؤالهم عن وقت قيام الساعة وردّ له بأنّ علمه ليس لأحد إلّا الله فقد خصّه بنفسه .

قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة أيّان مرساها » الظاهر أنّ التعبير بيسألونك لإفادة الاستمرار فقدكان المشركون بعد ماسمعوا حديث القيامة يراجعون النبيّ ﷺ ويسألونه أن يعيّن لهم وقتها مصرّين على ذلك وقد تكرّر في القرآن الكريم الإشارة إلى ذلك .

والمرسى مصدر ميميّ بمعنى الإثبات والإقرار وقوله : « أيّان مرساها » بيان للسؤال والمعنى يسألك هؤلاء المنكرون للساعة المستهزؤن به عن الساعة متى إثباتها وإقرارها ؟ أي متى تقوم القيامة ؟

قوله تعالى : « فيم أنت من ذكراها » استفهام إنكاريّ و « فيم أنت » مبتدء وخبر ، و « من » لابتداء الغاية ، والذكرى كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر على ما ذكره الراغب .

والمعنى في أيّ شيء أنت من كثرة ذكر الساعة أي ماذا يحصل لك من العلم بوقتها من ناحية كثرة ذكرها وبسبب ذلك أي لست تعلمها بكثرة ذكرها .

أو الذكرى بمعنى حضور حقيقة معنى الشيء في القلب والمعنى ـ على الاستفهام

الإنكاريّ ـ لست في شيء من العلم بحقيقتها وما هي عليه حتّى تحيط بوقتها وهو أنسب من المعنى السابق .

وقيل : المعنى ليس ذكراها ممّا يرتبط ببعثتك إنّما بعثت لتنذر من يخشاها .

وقيل : « فيم » إنكار لسؤالهم ، وقوله : « أنت من ذكراها » استئناف وتعليل لإنكار سؤالهم والمعنى فيم هذا السؤال إنّما أنت من ذكرى الساعة لاتّصال بعثتك بها وأنت خاتم الأنبياء ، وهذا المقدار من العلم يكفيهم ، وهو قوله صلى الله عليه وآله فيما روي : « بعثت أنا والساعة كهاتين إن كادت لتسبقني » .

وقيل : الآية من تمام سؤال المشركين خاطبوا به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى ما الّذي عندك من العلم بها وبوقتها ؟ أو ما الّذي حصل لك وأنت تكثر ذكرها .

وأنت خبير بأنّ السياق لا يلائم شيئاً من هذه المعاني تلك الملاءمة . على أنّها أو أكثرها لا تخلو من تكلّف .

قوله تعالى : « إلى ربّك منتهاها » في مقام التعليل لقوله : « فيم أنت من ذكراها » والمعنى لست تعلم وقتها لأنّ انتهاءها إلى ربّك فلا يعلم حقيقتها وصفاتها ومنها تعيّن الوقت إلاّ ربّك فليس لهم أن يسألوا عن وقتها وليس في وسعك أن تجيب عنها .

وليس من البعيد ـ والله أعلم ـ أن تكون الآية في مقام التعليل بمعنى آخر وهو أنّ الساعة تقوم بفناء الأشياء وسقوط الأسباب وظهور أن لا ملك إلاّ لله الواحد القهّار فلا ينتسب اليوم إلاّ إليه تعالى من غير أن يتوسّط بالحقيقة بينه تعالى وبين اليوم أيّ سبب مفروض ومنه الزمان فليس يقبل اليوم توقيتاً بحسب الحقيقة .

ولذا لم يرد في كلامه تعالى من التحديد إلاّ تحديد اليوم بانقراض نشأة الدنيا كقوله : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض » الزمر : ٦٨ وما في معناه من الآيات الدالّة على خراب الدنيا بتبدّل الأرض والسماء وانتثار الكواكب وغير ذلك .

وإلاّ تحديده بنوع من التمثيل والتشبيه كقوله تعالى : « كأنّهم يوم يرونها لم

يلبثوا إلاّ عشيّة أوضحاها » ، وقوله : «كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار» الأحقاف : ٣٥ ، وقوله : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة» ثمّ ذكر حقّ القول في ذلك فقال : « وقال الّذين اُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث » الروم : ٥٦ .

ويلوّح إلى ما مرّ ما في مواضع من كلامه أنّ الساعة لا تأتي إلاّ بغتة قال تعالى : « ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلاّ بغتة يسألونك كأنّك حفيّ عنها قل إنّما علمها عند الله ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون » الأعراف : ١٨٧ إلى غير ذلك من الآيات .

وهذا وجه عميق يحتاج في تمامه إلى تدبّر واف ليرتفع به ما يتراآى من مخالفته لظواهر عدّة من آيات القيامة وعليك بالتدبّر في قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » قٓ : ٢٢ وما في معناه من الآيات والله المستعان .

قوله تعالى : « إنّما أنت منذر من يخشاها » أي إنّما كلّفناك بإنذار من يخشى الساعة دون الإخبار بوقت قيام الساعة حتّى تجيبهم عن وقتها إذا سألوك عنه فالقصر في الآية قصر إفراد بقصر شأنه صلى الله عليه وآله وسلم في الإنذار وتنفي عنه العلم بالوقت وتعيينه لمن يسأل عنه .

والمراد بالخشية على ما يناسب المقام الخوف منها إذا ذكّر بها أي شأنيّة الخشية لا فعليّتها قبل الإنذار .

قوله تعالى : « كأنّهم يوم يرونها لم يلبثوا إلّا عشيّة أو ضحاها » بيان قرب الساعة بحسب التمثيل والتشبيه بأنّ قرب الساعة من حياتهم الدنيا بحيث مثلهم حين يرونها مثلهم لو لبثوا بعد حياتهم في الأرض عشيّة أو ضحى تلك العشيّة أي وقتا نسبته إلى نهار واحد نسبة العشيّة إلى ماقبلها منه أو نسبة الضحى إلى ما قبله منه .

وقد ظهر بما تقدّم أنّ المراد باللبث لبث ما بين الحياة الدنيا والبعث أي لبثهم في القبور لأنّ الحساب يقع على مجموع الحياة الدنيا .

وقيل : المراد به اللبث بين حين سؤالهم عن وقتها وبين البعث وفيه أنّهم إنّما يشاهدون لبثهم على هذه الصفة عند البعث والبعث الّذي هو الإحياء بعد الموت إنّما نسبته إلى الموت الّذي قبله دون مجموع الموت وبعض الحياة الّتي بين زمان السؤال عن الوقت وزمان الموت .

على أنّه لا يلائم ظواهر سائر الآيات المتعرّضة للبثهم قبل البعث كقوله تعالى « قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين » المؤمنون : ١١٢ .

وقيل : المراد باللبث اللبث في الدنيا وهو سخيف .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي : « وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فانّ الجنّة هي المأوى » قال : هو العبد إذا وقف على معصية الله وقدر عليها ثمّ تركها مخافة الله ونهي الله ونهى النفس عنها فمكافاته الجنّة قوله « يسألونك عن الساعة أيّان مرساها » قال : متى تقوم ؟ فقال الله : « إلى ربّك منتهاها » أي علمها عندالله ، قوله : « كأنّهم يوم يرونها لم يلبثوا إلّا عشيّة أو ضحاها » قال : بعض يوم .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عبّاس قال : إنّ مشركي مكّة سألوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : متى تقوم الساعة استهزاء منهم فنزلت « يسألونك عن الساعة أيّان مرساها » الآيات .

وفيه أخرج البزّار وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصحّحه وابن مردويه عن عائشة قالت : ما زال رسول الله يسأل عن الساعة حتّى اُنزل عليه « فيم أنت من ذكراها إلى ربّك منتهاها » فلم يسأل عنها .

اقول : ورواه أيضاً عن عدّة من أصحاب الكتب عن عروة مرسلاً ، ورواه أيضاً عن عدّة منهم عن شهاب بن طارق عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مثله ، والسياق لا يلائم كونه

جواباً عن سؤال النبيّ صلى الله عليه وآله .

وفي بعض الروايات : كانت الأعراب إذا قدموا على النبيّ عليه السلام سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان فيهم فيقول : إن يعش هذا قرناً قامت عليكم ساعتكم رواها في الدرّ المنثور عن ابن مردويه عن عائشة .

وهي من التوقيت الّذي يجلّ عنه ساحة النبيّ صلى الله عليه وآله وقد اُوحي إليه في كثير من السور القرآنية سيّما المكّيّة أنّ علم الساعة يختصّ به تعالى لا يعلمه إلّا هو واُمر أن يجيب من سأله عن وقتها بنفي العلم به عن نفسه .



﴿سورة عبس مكيّة وهي اثنان وأربعون آية﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلّٰى (١) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمٰى (٢) وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّٰى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرٰى (٤) أَمّا مَنِ اسْتَغْنٰى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدّٰى (٦) وَما عَلَيْكَ أَلّا يَزَّكّٰى (٧) وَأَمّا مَنْ جاءَكَ يَسْعٰى (٨) وَهُوَ يَخْشٰى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهّٰى (١٠) كَلّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرامٍ بَرَرَةٍ (١٦).

﴿بيان﴾

وردت الروايات من طرق أهل السنّة أنّ الآيات نزلت في قصّة ابن اُمّ مكتوم الأعمى دخل على النبيّ صلّى الله عليه وآله وعنده قوم من صناديد قريش يناجيهم في أمر الإسلام فعبس النبيّ عنه فعاتبه الله تعالى بهذه الآيات وفي بعض الأخبار من طرق الشيعة إشارة إلى ذلك .

وفي بعض روايات الشيعة أنّ العابس المتولّي رجل من بني اُميّة كان عند النبيّ صلّى الله عليه وآله فدخل عليه ابن اُمّ مكتوم فعبس الرجل وقبض وجهه فنزلت الآيات : وسيوافيك تفصيل البحث عن ذلك في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله تعالى .

و كيف كان الأمر فغرض السورة عتاب من يقدّم الأغنياء و المترفين على الضعفاء والمساكين من المؤمنين فيرفع أهل الدنيا ويضع أهل الآخرة ثمّ ينجرّ الكلام

إلى الإشارة إلى هوان أمر الإنسان في خلقه وتناهيه في الحاجة إلى تدبير أمره وكفره مع ذلك بنعم ربّه وتدبيره العظيم لأمره وتتخلّص إلى ذكر بعثه وجزائه إنذاراً ، والسورة مكّيّة بلاكلام .

قوله تعالى : «عبس وتولّى» أي بسر وقبض وجهه وأعرض .

قوله تعالى : « أن جاءه الأعمى » تعليل لما ذكر من العبوس بتقدير لام التعليل .

قوله تعالى : «وما يدريك لعلّه يزّكّى أو يذّكّر فتنفعه الذكرى» حال من فاعل «عبس وتولّى» والمراد بالتزكّي التطهّر بعمل صالح بعد التذكّر الّذي هو الاتّعاظ والانتباه للاعتقاد الحقّ ، ونفع الذكرى هو دعوتها إلى التزكّي بالإيمان والعمل الصالح .

ومحصّل المعنى بسر وأعرض عن الأعمى لمّا جاءه والحال أنّه ليس يدري لعلّ الأعمى الّذي جاءه يتطهّر بصالح العمل بعد الإيمان بسبب مجيئه وتعلّمه وقد تذكّر قبل أو يتذكّر بسبب مجيئه واتّعاظه بما يتعلّم فتنفعه الذكرى فيتطهّر .

وفي الآيات الأربع عتاب شديد ويزيد شدّة بإتيان الآيتين الاُوليين في سياق الغيبة لما فيه من الإعراض عن المشافهة والدلالة على تشديد الإنكار وإتيان الآيتين الأخيرتين في سياق الخطاب لما فيه من تشديد التوبيخ وإلزام الحجّة بسبب المواجهة بعد الإعراض والتقريع من غير واسطة .

وفي التعبير عن الجائي بالأعمى مزيد توبيخ لما أنّ المحتاج الساعي في حاجته إذا كان أعمى فاقداً للبصر وكانت حاجته في دينه دعته إلى السعي فيها خشية الله كان من الحريّ أن يرحم و يخصّ بمزيد الإقبال و التعطّف لا أن ينقبض و يعرض عنه .

وقيل ـ بناء على كون المراد بالمعاتب هو النبيّ صلى الله عليه وآله ـ : أنّ في التعبير عنه أوّلاً بضمير الغيبة إجلالاً له لايهام أنّ من صدر عنه العبوس والتولّي غيره صلى الله عليه وآله

لأنّه لايصدر مثلهعنمثله ، وثانياً بضمير الخطاب إجلالاً له أيضاً لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش والإقبال بعد الإعراض .

وفيه أنّه لايلائمه الخطاب في قوله بعد : « أمّا من استغنى فأنت له تصدّى » إلخ و العتاب و التوبيخ فيه أشدّ ممّا في قوله : « عبس وتولّى » إلخ ولا إيناس فيه قطعاً .

قوله تعالى : «أمّا من استغنى فأنت لهتصدّى وما عليك أن لايزّكّى» الغنى والاستغناء والتغنّي والتغاني بمعنى على ما ذكره الراغب فالمراد بمن استغنى من تلبّس بالغنى ولازمه التقدّم والرئاسة والعظمة في أعين الناس والاستكبار عن اتّباع الحقّ قال تعالى : «إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» العلق : ٧ والتصدّي التعرّض للشيء بالإقبال عليه والاهتمام بأمره .

وفي الآية إلى تمام ستّ آيات إشارة إلى تفصيل القول في ملاك ما ذكر من العبوس والتولّي فعوتب عليه ومحصّله أنّك تعتني وتقبل على من استغنى واستكبر عن اتّباع الحقّ وما عليك أن لايزّكّى وتتلهّى وتعرض عمّن يجتهد في التزكّي وهو يخشى .

وقوله : «وما عليك أن لايزّكّى» قيل : «ما» نافية والمعنى وليس عليك بأس أن لايتزكّى حتّى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الاعراض والتلهّي عمّن أسلم والإقبال عليه .

وقيل : «ما» للاستفهام الإنكاريّ والمعنى وأيّ شيء يلزمك إن لم يتطهّر من الكفر والفجور فإنّما أنت رسول ليس عليك إلّا البلاغ .

وقيل : المعنى ولا تبالي بعدم تطهّره من دنس الكفر والفجور وهذا المعنى أنسب لسياق العتاب ثمّ الّذي قبله ثمّ الّذي قبله .

قوله تعالى : « وأمّا من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهّى » السعي الإسراع في المشي فمعنى قوله : « وأمّا من جاءك يسعى » بحسب ما يفيده المقام : وأمّا من جاءك مسرعاً ليتذكّر ويتزكّى بما يتعلّم من معارف الدين .

وقوله : « وهو يخشى » أي يخشى الله والخشية آية التذكّر بالقرآن قال تعالى: « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلاّ تذكرة لمن يخشى » طه : ٣ ، وقال : « سيذّكّر من يخشى » الأعلى : ١٠ .

وقوله : « فأنت عنه تلهّى » أي تتلهّى وتتشاغل بغيره وتقديم ضمير « أنت » في قوله : « فأنت له تصدّى » وقوله : « فأنت عنه تلهّى » وكذا الضميرين « له » و « عنه » في الآيتين لتسجيل العتاب وتثبيته .

قوله تعالى : « كلاّ إنّها تذكرة فمن شاء ذكره » « كلاّ » ردع عمّا عوتب عليه من العبوس والتولّي والتصدّي لمن استغنى والتلهّي عمّن يخشى .

والضمير في « إنّها تذكرة » للآيات القرآنيّة أو للقرآن وتأنيث الضمير لتأنيث الخبر والمعنى إنّ الآيات القرآنيّة أو القرآن تذكرة أي موعظة يتّعظ بها من اتّعظ أو مذكّر يذكّر حقّ الاعتقاد والعمل .

وقوله : « فمن شاء ذكره » جملة معترضة والضمير للقرآن أو ما يذكّر به القرآن من المعارف ، والمعنى فمن شاء ذكر القرآن أو ذكر ما يذكّر به القرآن وهو الانتقال إلى ماتهدي إليه الفطرة ممّا تحفظه في لوحها من حقّ الاعتقاد والعمل.

وفي التعبير بهذا التعبير « فمن شاء ذكره » تلويح إلى أن لا إكراه في الدعوة إلى التذكّر فلا نفع فيها يعود إلى الداعي وإنّما المنتفع بها المتذكّر فليختر مايختاره.

قوله تعالى : « في صحف مكرّمة مرفوعة مطهّرة » قال في المجمع : الصحف جمع صحيفة ، والعرب تسمّي كلّ مكتوب فيه صحيفة كما تسمّيه كتابا رقّاً كان أو غيره انتهى ..

و « في صحف » خبر بعد خبر لإنّ وظاهره أنّه مكتوب في صحف متعدّدة بأيدي ملائكة الوحي ، وهذا يضعّف القول بأنّ المراد بالصحف اللوح المحفوظ ولم يرد في كلامه تعالى إطلاق الصحف ولا الكتب ولا الألواح بصيغة الجمع على اللوح المحفوظ ، ونظيره في الضعف القول بأنّ المراد بالصحف كتب الأنبياء الماضين لعدم ملاءمته لظهور قوله : « بأيدي سفرة » الخ في أنّه صفة لصحف .

وقوله : «مكرّمة» أي معظّمة ، وقوله : « مرفوعة » أي قدراً عندالله ، وقوله: « مطهّرة » أي من قذارة الباطل ولغو القول والشكّ والتناقض قال تعالى : « لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » حم السجدة : ٤٢ ، وقال : « إنّه لقول فصل وما هو بالهزل » الطارق : ١٤ و قال : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » البقرة : ٢ ، و قال : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » النساء : ٨٢ .

قوله تعالى : « بأيدي سفرة كرام بررة » صفة بعد صفة لصحف ، والسفرة هم السفراء جمع سفير بمعنى الرسول و « كرام » صفة لهم باعتبار ذواتهم و « بررة » صفة لهم باعتبار عملهم وهو الإحسان في الفعل .

ومعنى الآيات أنّ القرآن تذكرة مكتوبة في صحف متعدّدة معظّمة مرفوعة قدراً مطهّرة من كلّ دنس وقذارة بأيدي سفراء من الملائكة كرام على ربّهم بطهارة ذواتهم بررة عنده تعالى بحسن أعمالهم .

ويظهر من الآيات أنّ للوحي ملائكة يتصدّون لحمل الصحف وإيحاء مافيها من القرآن فهم أعوان جبريل وتحت أمره ونسبة إلقاء الوحي إليهم لا تنافي نسبته إلى جبريل في مثل قوله : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٤ وقد قال تعالى في صفته : « إنّه لقول رسول كريم ذي قوّة عند ذي العرش مكين مطاع ثمّ أمين » التكوير : ٢١ فهو مطاع من الملائكة من يصدر عن أمره ويأتي بما يريده والإيحاء الّذي هو فعل أعوانه فعله كما أنّ فعله وفعلهم جميعاً فعل الله وذلك نظير كون التوفّي الّذي هو فعل أعوان ملك الموت فعله ، وفعله وفعلهم جميعاً فعل الله تعالى ، وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا البحث مراراً .

وقيل : المراد بالسفرة الكتّاب من الملائكة ، والّذي تقدّم من المعنى أجلى .

وقيل : المراد بهم القرّاء يكتبونها ويقرؤنها وهو كما ترى .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع : قيل : نزلت الآيات في عبدالله بن أمّ مكتوم وهو عبدالله بن شريح ابن مالك بن ربيعة الفهريّ من بني عامر بن لؤيّ .

وذلك أنّه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعبّاس بن عبد المطّلب وأُبيّاً وأُميّة بن خلف يدعوهم إلى الله ويرجو إسلامهم فقال : يا رسول الله أقرئني وعلّمني ممّا علّمك الله فجعل يناديه ويكرّر النداء ولا يدري أنّه مشتغل مقبل على غيره حتّى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله لقطعه كلامه وقال في نفسه : يقول هؤلاء الصناديد إنّما أتباعه العميان والعبيد فأعرض عنه وأقبل على القوم الّذين كان يكلّمهم فنزلت الآيات .

وكان رسول الله بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال :مرحبا بمن عاتبني فيه ربّي، ويقول له : هل لك من حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرّتين في غزوتين .

أقول : روى السيوطي في الدرّ المنثور القصّة عن عائشة وأنس وابن عبّاس على اختلاف يسير وما أورده الطبرسيّ محصّل الروايات .

وليست الآيات ظاهرة الدلالة على أنّ المراد بها هو النبيّ صلى الله عليه وآله بل خبر محض لم يصرّح بالمخبر عنه بل فيها ما يدلّ على أنّ المعنيّ بها غيره لأنّ العبوس ليس من صفات النبيّ صلى الله عليه وآله مع الأعداء المباينين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين . ثمّ الوصف بأنّه يتصدّى للأغنياء ويتلهّى عن الفقراء لايشبه أخلاقه الكريمة كما عن المرتضى رحمه الله .

وقد عظّم الله خُلقه صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال - وهو قبل نزول هذه السورة - : « وإنّك لعلى خلق عظيم» والآية واقعة في سورة نٓ الّتي اتّفقت الروايات المبيّنة لترتيب نزول السور على أنّها نزلت بعد سورة اقرء باسم ربّك فكيف يعقل أن يعظّم الله خلقه في

أوّل بعثته ويطلق القول في ذلك ثمّ يعود فيعاتبه على بعض ما ظهر من أعماله الخلقيّة و يذمّه بمثل التصدّي للأغنياء و إن كفروا و التلهّي عن الفقراء و إن آمنوا واسترشدوا .

وقال تعالى أيضاً : «وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين» الشعراء : ٢١٥ فأمره بخفض الجناح للمؤمنين والسورة من السور المكّيّة والآية في سياق قوله : «و أنذر عشيرتك الأقربين» النازل في أوائل الدعوة .

وكذا قوله : «لا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين» الحجر : ٨٨ وفي سياق الآية قوله : «فاصدع بما تؤمر و أعرض عن المشركين » الحجر : ٩٤ النازل في أوّل الدعوه العلنيّة فكيف يتصوّر منه صلى الله عليه وآله العبوس والإعراض عن المؤمنين وقد اُمر باحترام إيمانهم وخفض الجناح وأن لا يمدّ عينيه إلى دنيا أهل الدنيا .

على أنّ قبح ترجيح غنى الغنيّ ـ وليس ملاكاً لشيء من الفضل ـ على كمال الفقير وصلاحه بالعبوس والإعراض عن الفقير والإقبال على الغنيّ لغناه قبح عقليّ مناف لكريم الخلق الإنسانيّ لايحتاج في لزوم التجنّب عنه إلى نهي لفظيّ .

وبهذا و ماتقدّمه يظهر الجواب عمّا قيل : إنّ الله سبحانه لم ينهه صلى الله عليه وآله عن هذا الفعل إلاّ في هذا الوقت فلا يكون معصية منه إلّا بعده وأمّا قبل النهي فلا .

وذلك أنّ دعوى أنّه تعالى لم ينهه إلاّ في هذا الوقت تحكّم ممنوع ، ولو سلم فالعقل حاكم بقبحه ومعه ينافي صدوره كريم الخلق وقد عظّم الله خلقه صلى الله عليه وآله قبل ذلك إذ قال : «وإنّك لعلى خلق عظيم» وأطلق القول،والخلق ملكة لاتتخلّف عن الفعل المناسب لها .

وعن الصادق عليه السلام ـ على ما في المجمع ـ أنّها نزلت في رجل من بني اُميّة كان عند النبيّ صلى الله عليه وآله فجاء ابن اُمّ مكتوم فلمّا رآه تقذّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه .

وفي المجمع وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رآى عبدالله بن اُمّ مكتوم قال : مرحباً مرحباً والله لايعاتبني الله فيك أبداً ،وكان يصنع به من اللّطف حتّى كان يكفّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله ممّايفعل به .

اقول : الكلام فيه كالكلام فيما تقدّمه ، ومعنى قوله : حتّى أنّه كان يكفّ الخ أنّه كان يكفّ عن الحضور عند النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لكثرة صنيعه صلى الله عليه وآله وسلم به انفعالاً منه وخجلا .



☆ ☆ ☆

قُتِلَ الْاِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ اَىِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ اَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ اِذا شاءَ اَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما اَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْاِنْسانُ اِلى طَعامِهِ (٢٤) اَنَّا صَبَبْنَا الْماءَصَبًّا(٢٥)ثُمَّ شَقَقْنَا الْاَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَاَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (٢٧) وَعِنَباً وَقَضْباً (٢٨) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدائِقَ غُلْباً (٣٠) وَفاكِهَةً وَاَبًّا (٣١) مَتاعاً لَكُمْ وَلِاَنْعامِكُمْ (٣٢) فَاِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ اَخِيهِ (٣٤) وَاُمِّهِ وَاَبِيهِ (٣٥) وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (٤١) اُولٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) .

﴿بيان﴾

دعاء على الانسان وتعجيب من مبالغته في الكفر بربوبيّة ربّه وإشارة إلى أمره حدوثاً وبقاءً فإنّه لايملك لنفسه شيأمن خلق وتدبير بل الله سبحانه هو الّذي خلقه من نطفة مهينة فقدّره ثمّ السبيل يسّره ثمّ أماته فأقبره ثمّ إذا شاء أنشره فهوسبحانه

ربّه الخالق له المدبّر لأمره مطلقا وهو في مدى وجوده لايقضي ما أمره به ربّه ولا يهتدي بهداه.

ولو نظر الإنسان إلى طعامه فقطّ وهو مظهر واحد من مظاهر تدبيره وغرفة من بحار رحمته رأى من وسيع التدبير ولطيف الصنع ما يبهر عقله ويدهش لبّه ووراء ذلك نعم لا تعدّ - وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها - .

فستره تدبير ربّه وتركه شكر نعمته عجيب وإنّ الإنسان لظلوم كفّار وسيرون تبعة شكرهم وكفرهم من السرور والاستبشار أو الكآبة وسواد الوجه.

والآيات - كما ترى - لاتأبى الاتّصال بما قبلها سياقاً واحداً وإن قال بعضهم أنّها نزلت لسبب آخر كما سيجيء.

قوله تعالى: « قتل الإنسان ما أكفره » دعاء على الإنسان لما أنّ في طبعه التوغّل في اتّباع الهوى ونسيان ربوبيّة ربّه والاستكبار عن اتّباع أوامره.

وقوله: «ما أكفره» تعجيب من مبالغته في الكفر وستر الحقّ الصريح وهو يرى أنّه مدبّر بتدبير الله لايملك شيئا من تدبير أمره غيره تعالى.

فالمراد بالكفر مطلق ستر الحقّ وينطبق على إنكار الربوبيّة وترك العبادة و يؤيّده مافي ذيل الآية من الإشارة إلى جهات من التدبير الربوبيّ المتناسبة مع الكفر بمعنى ستر الحقّ وترك العبادة، وقد فسّر بعضهم الكفر بترك الشكر وكفران النعمة وهو وإن كان معنى صحيحاً في نفسه لكنّ الأنسب بالنظر إلى السياق هو المعنى المتقدّم.

قال في الكشّاف: « قتل الإنسان » دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم لأنّ القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها و«ما أكفره» تعجّب من إفراطه في كفران نعمة الله ولا ترى اُسلوباً أغلظ منه، ولا أخشن مسّاً، ولا أدلّ على سخط، ولا أبعد شوطاً في المذمّة مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للائمة على قصر متنه. انتهى.

وقيل: جملة «ما أكفره» استفهاميّة والمعنى ما هو الّذي جعله كافراً، والوجه المتقدّم أبلغ.

قوله تعالى: «من أيّ شيء خلقه» معناه على ما يعطيه المقام من أيّ شيء خلق الله الإنسان حتّى يحقّ له أن يطغى ويستكبر عن الإيمان والطاعة، وحذف فاعل قوله: «خلقه» وما بعده من الأفعال للإشعار بظهوره فمن المعلوم بالفطرة ـ وقد اعترف به المشركون ـ أن لا خالق إلّا الله تعالى.

والاستفهام بداعي تأكيد ما في قوله: «ما أكفره» من العجب ـ والعجب إنّما هو في الحوادث الّتي لايظهر لهاسبب ـ فاُفيد أوّلاً أنّ من العجب إفراط الإنسان في كفره ثمّ سئل ثانياً هل في خلقته إذ خلقه الله ما يوجب له الإفراط في الكفر فاُجيب بنفيه وأن لاحجّة له يحتجّ بها ولا عذر يعتذر به فانّه مخلوق من ماء مهين لايملك شيئاً من خلقته ولا من تدبير أمره في حياته ومماته ونشره، وبالجملة الاستفهام توطئة للجواب الّذي في قوله: «من نطفة خلقه» الخ.

قوله تعالى: «من نطفة خلقه فقدّره» تنكير «نطفة» للتحقير أي من نطفة مهينة حقيرة خلقه فلا يحقّ له وأصله هذا الأصل أن يطغى بكفره ويستكبر عن الطاعة.

وقوله: «فقدّره» أي أعطاه القدر في ذاته وصفاته وأفعاله فليس له أن يتعدّى الطور الّذي قدّر له ويتجاوز الحدّ الّذي عيّن له فقد أحاط به التدبير الربوبيّ من كلّ جانب ليس له أن يستقلّ بنيل مالم يقدّر له.

قوله تعالى: «ثمّ السبيل يسّره» ظاهر السياق المقصود به نفي العذر من الإنسان في كفره واستكباره أنّ المراد بالسبيل ـ وقد اُطلق ـ السبيل إلى طاعة الله وامتثال أوامره وإن شئت فقل: السبيل إلى الخير والسعادة.

فتكون الآية في معنى دفع الدخل فإنّه إذا قيل: «من نطفة خلقه فقدّره» أمكن أن يتوهّم السامع أنّ الخلق والتقدير إذا كانا محيطين بالإنسان من كلّ جهة كانت أفعال الإنسان لذاته وصفاته مقدّرة مكتوبة ومتعلّقة للمشيّة الربوبيّة الّتي لا تتخلّف فتكون أفعال الإنسان ضروريّة الثبوت واجبة التحقّق والإنسان مجبراً عليها فاقداً للاختيار فلاصنع للإنسان في كفره إذا كفر ولا في فسقه إذا فسق ولم

يقضِ ما أمره الله به وإنّما ذلك بتقديره تعالى وإرادته فلا ذمّ ولا لائمة على الإنسان ولا دعوة دينية تتعلّق به لأنّ ذلك كلّه فرع للاختيار ولا اختيار .

فدفع الشبهة بقوله : « ثمّ السبيل يسّره » ومحصّله أنّ الخلق والتقدير لا ينافيان كون الإنسان مختاراً فيما اُمر به من الإيمان والطاعة له طريق إلى السعادة الّتي خلق لها فكلّ ميسّر لما خلق له وذلك أنّ التقدير واقع على الأفعال الإنسانيّة من طريق اختياره ، والإرادة الربوبيّة متعلقة بأن يفعل الإنسان بإرادته واختياره كذا وكذا فالفعل صادر عن الإنسان باختياره وهو بما أنّه اختياريّ متعلّق للتقدير.

فالإنسان مختار في فعله مسؤول عنه وإن كان متعلقاً للقدر ، وقد تقدّم البحث عن هذا المعنى كراراً في ذيل الآيات المناسبة له في هذا الكتاب .

وقيل : المراد بتيسير السبيل تسهيل خروج الانسان من بطن اُمّه والمعنى ثمّ سهّل للإنسان سبيل الخروج وهو جنين مخلوق من نطفة .

وقيل : المراد الهداية إلى الدين وتبيين طريق الخير والشرّ كما قال: « وهديناه النجدين» البلد : ١٠ والوجه المتقدّم أوجه .

قوله تعالى : «ثمّ أماته فأقبره» الإماتة إيقاع الموت على الانسان ، والمراد بالإقبار دفنه في القبر وإخفاؤه في بطن الأرض وهذا بالبناء على الغالب الّذي جرى عليه ديدن الناس وبهذه المناسبة نسب إليه تعالى لأنّه تعالى هو الّذي هداهم إلى ذلك وألهمهم إيّاه فللفعل نسبة إليه كما له نسبة إلى الناس .

وقيل : المراد بالإقبار جعله ذا قبر ومعنى جعله ذا قبر أمره تعالى بدفنه تكرمة له لتتوارى جيفته فلا يتأذّى بها الناس ولا يتنفّروا .

والوجه المتقدّم أنسب لسياق الآيات المسرود لتذكير تدبيره تعالى التكويني للإنسان دون التدبير التشريعيّ الّذي عليه بناء هذا الوجه .

قوله تعالى « ثمّ إذا شاء أنشره » في المجمع : الإنشار الإحياء للتصرّف بعد الموت كنشر الثوب بعد الطيّ . انتهى فالمراد به البعث إذا شاء الله ، وفيه إشارة إلى كونه بغتة لا يعلمه غيره تعالى .

قوله تعالى : «كلاّ لمّا يقض ما أمره» الّذي يعطيه السياق أنّ «كلاّ» ردع عن معنى سؤال يستدعيه السياق ويلوّح إليه قوله : «لمّا يقض ما أمره» كأنّه لمّا اُشير إلى أنّ الانسان مخلوق مدبّر له تعالى من أوّل وجوده إلى آخره من خلق وتقدير وتيسير للسبيل وإماتة وإقبار وإنشار وكلّ ذلك نعمة منه تعالى سئل فقيل : فما ذا صنع الانسان والحال هذه الحال وهل خضع للربوبيّة أو هل شكر النعمة فاُجيب وقيل : كلاّ ثمّ اُوضح فقيل : لمّا يقض ما أمره الله به بل كفر وعصى .

فقد ظهر ممّا تقدّم أن ضمير «يقض» للانسان والمراد بقضائه إتيانه بما أمر الله به ، وقيل : الضمير لله تعالى والمعنى لمّا يقض الله لهذا الكافر أن يأتي بما أمره به من الايمان والطاعة بل إنّما أمره بما أمر إتماماً للحجّة ، وهو بعيد .

وظهر أيضا أنّ ما في الآيات من الذمّ واللاّئمة إنّما هو للانسان بما في طبعه من الافراط في الكفر كما في قوله : «إنّ الانسان لظلوم كفّار» إبراهيم : ٣٤ فينطبق على من تلبّس بالكفر وأفرط فيه بالعناد ومنه يظهر عدم استقامة ما نقل عن بعضهم أنّ الآية على العموم في الكافر والمسلم لم يعبده أحد حقّ عبادته .

وذلك أنّ الضمير للانسان المذكور في صدر الآيات بما في طبعه من داعية الافراط في الكفر وينطبق على من تلبّس به بالفعل .

قوله تعالى : «فلينظر الانسان إلى طعامه» متفرّع على ما تقدّم تفرّع التفصيل على الاجمال ففيه توجيه نظر الانسان إلى طعامه الّذي يقتات به ويستمدّ منه لبقائه وهو واحد ممّا لا يحصى ممّا هيّأه التدبير الربوبيّ لرفع حوائجه في الحياة حتّى يتأمّله فيشاهد سعة التدبير الربوبيّ الّتي تدهش لبّه وتحيّر عقله ، وتعلّق العناية الالهيّة ـ على دقّتها وإحاطتها ـ بصلاح حاله واستقامة أمره .

والمراد بالانسان ـ كما قيل ـ غير الانسان المتقدّم المذكور في قوله : «قتل الانسان ما أكفره» فإنّ المراد به خصوص الانسان المبالغ في الكفر بخلاف الانسان المذكور في هذه الآية المأمور بالنظر فإنّه عامّ شامل لكلّ إنسان ، ولذلك اُظهر ولم يضمر .

قوله تعالى : «أنّا صببنا الماء صبّاً ـ إلى قوله ـ ولأنعامكم» القراءة الدائرة «أنّا» بفتح الهمزة وهو بيان تفصيليّ لتدبيره تعالى طعام الإنسان نعم هو مرحلة ابتدائيّة من التفصيل وأمّا القول المستوفي لبيان خصوصيّات النظام الّذي هيّأ له هذه الاُمور و النظام الوسيع الجاري في كل من هذه الامور والروابط الكونيّة الّتي بين كلّ واحد منها وبين الإنسان فممّا لا يسعه نطاق البيان عادة .

وبالجملة قوله : «أنّا صببنا الماء صبّاً» الصبّ إراقة الماء من العلو ، والمراد بصبّ الماء إنزال الأمطار على الأرض لإنبات النبات ، ولا يبعد أن يشمل إجراء العيون والأنهار فانّ ما في بطن الأرض من ذخائر الماء إنّما يتكوّن من الأمطار .

وقوله : « ثمّ شققنا الأرض شقّاً » ظاهره شقّ الأرض بالنبات الخارج منها ولذا عطف على صبّ الماء بثمّ وعطف عليه إنبات الحبّ بالفاء .

وقوله : « فأنبتنا فيها حبّا » ضمير « فيها » للأرض ، والمراد بالحبّ جنس الحبّ الّذي يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير ونحوهما وكذا في العنب والقضب وغيرهما .

وقوله : «وعنباً وقضباً» العنب معروف ، ويطلق على شجر الكرم ولعلّه المراد في الآية ونظيره الزيتون .

والقضب هو الغضّ الرطب من البقول الّذي يأكله الإنسان يقضب أي يقطع مرّة بعد اُخرى ، وقيل : هو مايقطع من النبات فتعلّف به الدوابّ .

وقوله : «وزيتوناً ونخلاً » معروفان .

وقوله : «وحدائق غلباً» الحدائق جمع حديقة وهي على ما فسّر البستان المحوّط والغلب جمع غلباء يقال : شجرة غلباء أي عظيمة غليظة فالحدائق الغلب البساتين المشتملة على أشجار عظام غلاظ .

وقوله : « وفاكهة وأبّاً » قيل : الفاكهة مطلق الثمار ، وقيل : ماعدا العنب والرمّان . قيل : إنّ ذكر ما يدخل في الفاكهة أوّلاً كالزيتون والنخل للاعتناء بشأنه

والأبّ الكلاء والمرعى .

وقوله : « متاعاً لكم ولأنعامكم » مفعول له أي أنبتنا ما أنبتنا ممّا تطعمونه ليكون تمتيعاً لكم وللأنعام الّتي خصصتموها بأنفسكم .

والالتفات عن الغيبة إلى الخطاب في الآية لتأكيد الامتنان بالتدبير أو بإنعام النعمة .

قوله تعالى : «فإذا جاءت الصاخّة» إشارة إلى ما ينتهي إليه ماذكر من التدبير العامّ الربوبيّ للإنسان بما أنّ فيه أمراً ربوبيّاً إلهيّاً بالعبودية يقضيه الإنسان أولا يقضيه وهو يوم القيامة الّذي يوفّى فيه الإنسان جزاء أعماله .

والصاخّة الصيحة الشديدة الّتي تصمّ الأسماع من شدّتها والمراد بها نفخة الصور .

قوله تعالى : «يوم يفرّ المرء من أخيه وأُمّه وأبيه و صاحبته وبنيه» إشارة إلى شدّة اليوم فالّذين عدّوا من أقرباء الانسان وأخصّائه هم الّذين كان يأوى إليهم ويأنس بهم ويتّخذهم أعضاداً وأنصاراً يلوذ بهم في الدنيا لكنّه يفرّ منهم يوم القيامة لما أنّ الشدّة أحاطت به بحيث لاتدعه يشتغل بغيره ويعتني بماسواه كائناً من كان فالبليّة إذا عظمت واشتدّت وأطلّت على الإنسان جذبته إلى نفسها وصرفته عن كلّ شيء .

والدليل على هذا المعنى قوله بعد : «لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» أي يكفيه من أن يشتغل بغيره .

وقيل في سبب فرار الإنسان من أقربائه وأخصّائه يومئذ وجوه اُخر لادليل عليها أغمضنا عن إيرادها .

قوله تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة » بيان لانقسام الناس يومئذ إلى قسمين : أهل السعادة وأهل الشقاء ، وإشارة إلى أنّهم يعرفون بسيماهم في وجوههم وإسفار الوجه إشراقه وإضاءته فرحاً وسروراً واستبشاره تهلّله بمشاهدة ما فيه البشرى .

قوله تعالى : « ووجوه يومئذ عليها غبرة » هي الغبار والكدورة وهي سيما الهمّ والغمّ .

قوله تعالى : «ترهقها قترة» أي يعلوها ويغشاها سواد وظلمة ، وقدبيّن حال الطائفتين فيالآيات الأربع ببيان حال وجوههما لأنّ الوجه مرآت القلب فيسروره ومساءته .

قوله تعالى : « اُولئك هم الكفرة الفجرة» أي الجامعون بين الكفر اعتقاداً والفجور وهو المعصية الشنيعة عملا أو الكافرون بنعمة الله الفاجرون ، وهذا تعريف للطائفة الثانية وهم أهل الشقاء و لميأت بمثله في الطائفة الاُولى و هم أهل السعادة لأنّ الكلام مسوق للإنذار والاعتناء بشأن أهل الشقاء .

«بحث روائي»

فيالدّرالمنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة فيقوله : «قتل الإنسان ماأكفره» قال : نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال : كفرت بربّ النجم إذا هوى فدعا عليه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فأخذه الأسد بطريق الشام .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل : «قتل الإنسانما أكفره» أي لعن الإنسان .

وفي تفسير القمّي «ثمّ السبيل يسّره» قال : يسّرله طريق الخير .

أقول : المراد به جعله مختارا في فعله يسهل به سلوكه سبيل السعادة و وصوله إلى الكمال الّذي خلق له . فالخبر منطبق على ما قدّمناه من الوجه في تفسير الآية .

وفيه في قوله : «وقضبا» قال : القضب القتّ .

وفيه قوله : «وفاكهة وأبّاً» قال : الأبّ الحشيش للبهائم .

وفي الدرّ المنثور أخرج أبو عبيد في فضائله عن إبراهيم التيميّ قال : سئل أبو بكر الصدّيق عن قوله : «وأبّاً» فقال : أيّ سماء تظلّني وأي أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم .

وفيه أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان والخطيب والحاكم وصحّحه عن أنس أنّ عمر قرء على المنبر «فأنبتنا فيها حبّاً وعنباً وقضباً ـ إلى قوله ـ وأبّاً» قال : كلّ هذا قد عرفناه فما الأبّ ؟ ثمّ رفض عصاً كانت في يده فقال : هذا لعمر الله هو التكلّف فما عليك أن لا تدري ما الأبّ ؟ اتّبعوا ما بيّن لكم هداه من الكتاب فاعملوا به وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربّه .

وفيه أخرج عبد بن حميد عن عبد الرحمان بن يزيد أنّ رجلاً سأل عمر عن قوله «وأبّاً» فلمّا رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرّة .

اقول : هو مبني على منعهم عن البحث عن معارف الكتاب حتّى تفسير ألفاظه .

وفي إرشاد المفيد وروي أنّ أبا بكر سئل عن قول الله تعالى : « وفاكهة وأبّاً ». فلم يعرف معنى الأبّ من القرآن فقال : أيّ سماء تظلّني أم أيّ أرض تقلّني أم كيف أصنع إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم ؟ أمّا الفاكهة فنعرفها وأمّا الأبّ فالله أعلم .

فبلغ أمير المؤمنين عليه السلام مقاله في ذلك فقال : سبحان الله أما علم أنّ الأبّ هو الكلاء والمرعى ؟ وأنّ قوله تعالى : «وفاكهة وأبّاً » اعتداد من الله بإنعامه على خلقه فيما غذّاهم به وخلقه لهم ولأنعامهم ممّا تحيى به أنفسهم وتقوم به أجسادهم .

وفي المجمع وروي عن عطاء بن يسار عن سودة زوج النبي صلى الله عليه وآله قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يبعث الناس حفاة عراة غرلاً[1] يلجمهم العرق ويبلغ شحمة الأذن

(١) الغرل بالغين المعجمة جمع أغرل وهو الاقلف غير المختون .

قالت : قلت : يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض إذا جاء ؟ قال : شغل الناس عن ذلك وتلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

وفي تفسير القميّ قوله : « لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » قال : شغل يشغله عن غيره .



﴿سورة التكوير مكّيّة وهي تسع وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ اِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَ اِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَ اِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (٣) وَ اِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (٤) وَ اِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَ اِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (٦) وَ اِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَ اِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِاَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَ اِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَ اِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (١١) وَ اِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَ اِذَا الْجَنَّةُ اُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما اَحْضَرَتْ (١٤) .

﴿ بيان ﴾

تذكر السورة يوم القيامة بذكر بعض أشراطها وما يقع فيها وتصفه بأنّه يوم ينكشف فيه للإنسان ماعمله من عمل ثمّ تصف القرآن بأنّه ممّا ألقاه إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله رسول سماويّ وهو ملك الوحي وليس بإلقاء شيطاني ولا أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مجنون يمسّه الشيطان .

ويشبه أن تكون السورة من السور العتائق النازلة في أوائل البعثة كما يشهد به ما فيها من تنزيهه صلّى الله عليه وآله ممّا رموه به من الجنون وقد اتّهموه به في أوائل الدعوة وقد اشتملت على تنزيهه منه سورة نٓ وهي من العتائق .

والسورة مكّيّة بلا كلام .

قوله تعالى : «إذا الشمس كوّرت» التكوير اللفّ على طريق الإدارة كلفّ

العمامة على الرأس ، ولعلّ المراد بتكوير الشمس انظلام جرمها على نحو الإحاطة استعارة .

قوله تعالى : «وإذا النجوم انكدرت» انكدار الطائر من الهواء انقضاضه نحو الأرض ، وعليه فالمراد سقوط النجوم كما يفيده قوله : « و إذا الكواكب انتثرت » الانفطار : ٢ ويمكن أن يكون من الانكدار بمعنى التغيّر وقبول الكدورة فيكون المراد به ذهاب ضوئها .

قوله تعالى : «وإذا الجبال سيّرت» بما يصيبها من زلزلة الساعة من التسيير فتندكّ وتكون هباءً منبثّاً وتصير سراباً على ماذكره سبحانه في مواضع من كلامه.

قوله تعالى : « وإذا العشار عطّلت » قيل : العشار جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء وهي الناقة الحامل الّتي أتت عليها عشرة أشهر فتسمّى عشراءِ حتّى تضع حملها وربّما سمّيت عشراء بعد الوضع أيضاً وهي من أنفس المال عند العرب .

وتعطيل العشار تركها مهملة لا راعي لها ولا حافظ يحفظها وكأنّ في الجملة إشارة على نحو الكناية إلى أنّ نفائس الأموال الّتي يتنافس فيها الإنسان تبقى اليوم ولا صاحب لها يتملّكها ويتصرّف فيها لأنّهم مشغولون بأنفسهم عن كلّ شيء كما قال: «لكلّ امرىءٍ منهم يومئذ شأن يغنيه» عبس : ٣٧ .

قوله تعالى : « وإذا الوحوش حشرت» الوحوش جمع وحش وهو من الحيوان مالا يتأنّس بالإنسان كالسباع وغيرها .

وظاهر الآية من حيث وقوعها في سياق الآيات الواصفة ليوم القيامة أنّ الوحوش محشورة كالإنسان ، ويؤيّده قوله تعالى : « وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ اُمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثمّ إلى ربّهم يحشرون » الأنعام : ٣٨ .

وأمّا تفصيل حالها بعد الحشر وما يؤول إليه أمرها فلم يرد في كلامه تعالى ولا فيما يعتمد عليه من الأخبار ما يكشف عن ذلك نعم ربّما استفيد من قوله في آية الأنعام:

«أمم أمثالكم» وقوله : «ما فرّطنا في الكتاب من شيء» بعض ما يتّضح به الحال في الجملة لا يخفى على الناقد المتدبّر . وربّما قيل : إنّ حشر الوحوش من أشراط الساعة لا ممّا يقع يوم القيامة والمراد به خروجها من غاباتها وأكنانها .

قوله تعالى : «وإذا البحار سجّرت» فسّر التسجير بإضرام النار وفسّر بالملاء والمعنى على الأوّل وإذا البحار اُضرمت ناراً ، وعلى الثاني وإذا البحار ملئت .

قوله تعالى : « وإذا النفوس زوّجت » أمّا نفوس السعداء فبنساء الجنّة قال تعالى : « لهم فيها أزواج مطهّرة » النساء : ٥٧ ، وقال : « و زوّجناهم بحورعين » الدخان : ٥٤ ، وأمّا نفوس الأشقياء فبقرناء الشياطين قال تعالى : « احشروا الّذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون » الصافّات : ٢٢ ، وقال : « ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيّض له شيطاناً فهو له قرين» الزخرف : ٣٦ .

قوله تعالى : « وإذا الموؤدة سئلت بأيّ ذنب قتلت » الموؤدة البنت الّتي تدفن حيّة وكانت العرب تئد البنات خوفاً من لحوق العار بهم من أجلهنّ كما يشير إليه قوله تعالى : « وإذا بشّر أحدهم بالاُنثى ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به أيمسكه على هون أم يدسّه في التراب » النحل : ٥٩ .

والمسؤل بالحقيقة عن قتل الموؤدة أبوها الوائد لها لينتصف منه وينتقم لكن عدّ المسؤل في الآية هي الموؤدة نفسها فسئلت عن سبب قتلها لنوع من التعريض والتوبيخ لقاتلها وتوطئة لأن تسأل الله الانتصاف لها من قاتلها حتّى يسأل عن قتلها فيؤخذ لها منه ، فالكلام نظير قوله تعالى في عيسى عليه السلام : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم ءأنت قلت للناس اتّخذوني واُمّي إلهين من دون الله » المائدة : ١١٦ .

وقيل : إسناد المسؤليّة إلى الموؤدة من المجاز العقلي والمراد كونها مسؤلاً عنها نظير قوله تعالى : « إنّ العهد كان مسؤلا » أسرى : ٣٤ .

قوله تعالى : « وإذا الصحف نشرت » أي للحساب ، والصحف كتب الأعمال .

قوله تعالى : « وإذا السماء كشطت » في المجمع الكشط القلع عن شدّة التزاق

فينطبق على طيّها كما في قوله : « والسماوات مطويّات بيمينه » الزمر : ٦٧ ، وقوله: « ويوم تشقّق السماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلاً » الفرقان : ٢٥ وغير ذلك من الآيات المفصحة عن هذا المعنى .

قوله تعالى : « وإذا الجحيم سعّرت » التسعير تهييج النار حتّى تتأجّج .

قوله تعالى : « وإذا الجنّة اُزلفت » الإزلاف التقريب والمراد تقريبها من أهلها للدخول .

قوله تعالى : « علمت نفس ما أحضرت » جواب إذا ، و المراد بالنفس الجنس والمراد بما أحضرت عملها الّذي عملته يقال : أحضرت الشيء أي وجدته حاضراً كما يقال : أحمدته أي وجدته محموداً .

فالآية في معنى قوله تعالى : « يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .

(بحث روائي)

في تفسير القمّي : « إذا الشمس كوّرت » قال : تصير سوداء مظلمة « وإذا النجوم انكدرت » قال : يذهب ضوؤها « وإذا الجبال سيّرت » قال : تسيّر كما قال « تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب » . قوله : « وإذا العشار عطّلت » قال : الإبل تتعطّل إذا مات الخلق فلا يكون من يحلبها ، قوله : « وإذا البحار سجّرت » قال : تتحوّل البحار الّتي حول الدنيا كلّها نيراناً « وإذا النفوس زوّجت » قال : من الحور العين .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « وإذا النفوس زوّجت» قال : أمّا أهل الجنّة فزوّجوا الخيرات الحسان ، وأمّا أهل النار فمع كلّ إنسان منهم شيطان يعني قرنت نفوس الكافرين والمنافقين بالشياطين فهم قرناؤهم .

أقول : الظاهر أنّ قوله : يعني الخ من كلام الراوي .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم والديلميّ عن أبي مريم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال في قوله : « إذا الشمس كوّرت » قال : كوّرت في جهنّم « وإذا النجوم انكدرت » قال : انكدرت في جهنّم ، وكلّ من عبد من دون الله فهو في جهنّم إلاّ ما كان من عيسى بن مريم واُمّه ولورضيا أن يعبدا لدخلاها .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « وإذا الصحف نشرت » قال : صحف الأعمال قوله : « وإذا السماء كشطت » قال : اُبطلت .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : « وإذا النفوس زوّجت » قال: هما الرجلان يعملان العمل يدخلان الجنّة والنار .

✩ ✩ ✩

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) .

﴿ بيان ﴾

تنزيه للنبي ﷺ من الجنون - وقد اتّهموه به - ولما يأتي به - من القرآن - من مداخلة الشيطان ، وأنّه كلامه تعالى يلقيه إليه ملك الوحي الّذي لا يخون في رسالته ، وأنّه ذكر للعالمين هاد بإذن الله لمن اهتدى منهم .

قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنّس الجوار الكنّس » الخنّس جمع خانس كطلّب جمع طالب ، والخنوس الانقباض والتأخّر والاستتار ، والجواري جمع جارية ، والجري السير السريع مستعار من جري الماء ، والكنّس جمع كانس والكنوس دخول الوحش كالظبي والطير كناسه أي بيته الّذي اتّخذه لنفسه واستقراره فيه .

وتعقّب قوله : « فلا أُقسم بالخنّس » الخ بقوله : « والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفّس » يؤيّد كون المراد بالخنّس الجوار الكنّس الكواكب كلّها أو بعضها لكن صفات حركة بعضها أشدّ مناسبة وأوضح انطباقاً على ماذكر من الصفات المقسم بها : الخنوس والجري والكنوس وهي السيّارات الخمس المتحيّرة : زحل والمشتري والمرّيخ والزهرة وعطارد فإنّ لها في حركاتها على ما تشاهد استقامة ورجعة وإقامة فهي تسير وتجري حركة متشابهة زمانا وهي الاستقامة وتنقبض وتتأخّر وتخنس زماناً وهي الرجعة وتقف عن الحركة استقامة ورجعة زمانا كأنّها الوحش تكنس في كناسها وهي الإقامة .

وقيل : المراد بها مطلق الكواكب وخنوسها استتارها في النهار تحت ضوء الشمس وجريها سيرها المشهود في الليل وكنوسها غروبها في مغربها وتواريها .

وقيل : المراد بها بقر الوحش أو الظبي ولا يبعد أن يكون ذكر بقر الوحش أو الظبي من باب المثال والمراد مطلق الوحوش .

وكيف كان فأقرب الأقوال أوّلها والثاني بعيد والثالث أبعد .

قوله تعالى : « والليل إذا عسعس » عطف على الخنّس ، و « إذا عسعس » قيد للّيل ، والعسعسة تطلق على إقبال اللّيل وعلى إدباره قال الراغب : « والليل إذا عسعس » أي أقبل وأدبر وذلك في مبدء اللّيل ومنتهاه فالعسعسة والعساس رقّة الظلام وذلك في طرفي اللّيل . انتهى والأنسب لاتّصال الجملة بقوله : « والصبح إذا تنفّس » أن يراد بها إدبار الليل .

وقيل : المراد بها إقبال الليل : وهو بعيد لما عرفت .

قوله تعالى : « والصبح إذا تنفّس » عطف على الخنّس ، و « إذا تنفّس » قيد للصبح ، وعدّ الصبح متنفّسا بسبب انبساط ضوئه على الاُفق ودفعه الظلمة الّتي غشيته نوع من الاستعارة بتشبيه الصبح وقد طلع بعد غشيان الظلام الآفاق بمن أحاطت به متاعب أعمال شاقّة ثمّ وجد خلاء من الزمان فاستراح فيه وتنفّس فعدّ

إضاءته للاُفق تنفّساً منه كذا يستفاد من بعضهم .

وذكر الزمخشريّ فيه وجهاً آخر فقال في الكشّاف : فإن قلت : ما معنى تنفّس الصبح ؟ قلت : إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفساً له على المجاز . إنتهى والوجه المتقدّم أقرب إلى الذهن .

قوله تعالى : « إنّه لقول رسول كريم ذي قوّة عند ذي العرش مكين مطاع ثمّ أمين » جواب القسم ، وضمير « إنّه » للقرآن أو لما تقدّم من آيات السورة بما أنّها قرآن بدليل قوله : « لقول رسول » الخ والمراد بالرسول جبريل كما قال تعالى : « من كان عدوّاً لجبريل فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله » البقرة : ٩٧ .

وفي إضافة القول إليه بما أنّه رسول دلالة على أنّ القول لله سبحانه ، ونسبته إلى جبريل نسبة الرسالة إلى الرسول وقد وصفه الله بصفات ستّ مدحه بها .

فقوله : « رسول » يدلّ على رسالته وإلقائه وحي القرآن إلى النبيّ ﷺ ، وقوله : « كريم » أي ذي كرامة وعزّة عندالله بإعزازه ، وقوله : « ذي قوّة » أي ذي قدرة وشدّة بالغة ، وقوله : « عندذي العرش مكين » أي صاحب مكانة عندالله والمكانة القرب والمنزلة ، وقوله : « مطاع ثمّ » أي مطاع عندالله فهناك ملائكة يأمرهم فيطيعونه ، ومن هنا يظهر أنّ له أعواناً من الملائكة يأمرهم فيأتمرون بأمره ، وقوله : « أمين » أي لا يخون فيما اُمر به يبلّغ ما حمّله من الوحي والرسالة من غير أيّ تصرّف فيه .

وقيل : المراد بالرسول الجاري عليه الصفات هو النبيّ ﷺ ، وهو كما ترى ولا تلائمه الآيات التالية .

قوله تعالى : « وما صاحبكم بمجنون » عطف على قوله : « إنّه لقول » الخ وردّ لرميهم له ﷺ بالجنون .

وفي التعبير عنه ﷺ بقوله : « صاحبكم » تكذيب لهم في رميهم له بالجنون وتنزيه لساحته - كما قيل - ففيه إيماء إلى أنّه صاحبكم لبث بينكم معاشراً لكم

طول عمره وأنتم أعرف به قد وجدتموه على كمال من العقل ورزانة من الرأي وصدق من القول ومن هذه صفته لا يرمى بالجنون .

وتوصيف جبريل بما مرّ من صفات المدح دون النبيّ ﷺ لا دلالة فيه على أفضليّته من النبيّ ﷺ لأنّ الكلام مسوق لبيان أنّ القرآن كلام الله سبحانه منزل على النبيّ ﷺ من عنده سبحانه من طريق الوحي لا من أوهام الجنون بالقاء من شيطان و الّذي يفيد في هذا الغرض بيان سلامة طريق الإنزال و تجليل المنزل ـ اسم فاعل ـ بذكر أوصافه الكريمة و المبالغة في تنزيهه عن الخطاء و الخيانة ، وأمّا المنزل عليه فلا يتعلّق به غرض إلّا بمقدار الإشارة إلى دفع ما يرتاب فيه من صفته و قد اُفيد بنفي الجنون الّذي رموه به و التعبير عنه بقوله : «صاحبكم» كما تقدّم توضيحه، كذا قيل .

و في مطاوي كلامه تعالى من نعوت النّبي ﷺ الكريمة مالا يرتاب معه في أفضليّته ﷺ على جميع الملائكة ، وقد أسجد الله الملائكة كلّهم أجمعين للإنسان الّذي هو خليفته في الأرض .

قوله تعالى : «و لقد رآه بالاُفق المبين» ضمير الفاعل في «رآه» للصاحب و ضمير المفعول للرسول الكريم وهو جبريل .

و الاُفق المبين الناحية الظاهرة ، و الظاهر أنّه الّذي أشار إليه بقوله: «و هو بالاُفق الأعلى» النجم : ٧ .

و المعنى و اُقسم لقد رآى النّبي ﷺ جبريل حال كون جبريل كائناً في الاُفق المبين وهو الاُفق الأعلى من سائر الآفاق بما يناسب عالم الملائكة.

و قيل: المعنى لقد رآى ﷺ جبريل على صورته الأصليّة حيث تطلع الشمس و هو الاُفق الأعلى من ناحية المشرق .

وفيه أن لا دليل من اللفظ يدلّ عليه وخاصّة في تعلّق الرؤية بصورته الأصليّة و رؤيته في أيّ مثال تمثّل به رؤيته ، و كأنّه مأخوذ ممّا ورد في بعض الروايات أنّه

رآه في أوّل البعثة و هو بين السماء و الأرض جالس على كرسيّ ، و هو محمول على التمثّل .

قوله تعالى : «وما هوعلى الغيب بضنين» الضمير للنبيّ صلى الله عليه وآله ، والمرادبالغيب الوحي النازل عليه ، والضنين صفة مشبهة من الضّنّ بمعنى البخل يعني أنّه صلى الله عليه وآله لايبخل بشيء ممّا يوحى إليه فلا يكتمه ولا يحبسه ولا يغيّره بتبديل بعضه أو كلّه شيئاً آخر بل يعلّم الناس كما علّمه الله و يبلّغهم ما اُمر بتبليغه .

قوله تعالى : « و ما هو بقول شيطان رجيم » نفي لاستناد القرآن إلى إلقاء شيطان بما هوأعمّ من طريق الجنون فإنّ الشيطان بمعنى الشرير و الشيطان الرجيم كما اُطلق في كلامه تعالى على إبليس و ذرّيّته كذلك اُطلق على أشرار سائر الجنّ قال تعالى : «قال فاخرج منها فإنّك رجيم» صٓ : ٧٧ ، وقال : «و حفظناها من كلّ شيطان رجيم» الحجر : ١٧ .

فالمعنى أنّ القرآن ليس بتسويل من إبليس وجنوده ولا بإلقاء من أشرار الجنّ كما يلقونه على المجانين .

قوله تعالى : «فأين تذهبون» أوضح سبحانه في الآيات السبع المتقدّمة ماهو الحقّ في أمر القرآن دافعاً عنه ارتيابهم فيه بما يرمون به الجائي به من الجنون و غيره على إيجازمتون الآيات فبيّن أوّلاً أنّه كلام الله واتّكاء هذه الحقيقة على آيات التحدّي ، و ثانياً أنّ نزوله برسالة ملك سماويّ جليل القدر عظيم المنزلة وهوأمين الوحي جبريل لاحاجز بينه وبين الله ولا بينه و بين النبيّ صلى الله عليه وآله ، ولاصارف من نفسه أو غيره يصرفه عن أخذه ولا حفظه ولاتبليغه ، و ثالثاً أن الّذي اُنزل عليه وهويتلوه لكم و هو صاحبكم الّذي لايخفى عليكم حاله ليس بمجنون كما يبهتونه به و قد رآى الملك الحامل للوحي و أخذ عنه وليس بكاتم لما يوحى إليه ولا بمغيّر ، و رابعاً أنّه ليس بتسويل من إبليس و جنوده ولا بإلقاء من بعض أشرار الجنّ .

و نتيجة هذا البيان أنّ القرآن كتاب هدى يهتدي به من أراد الاستقامة على

الحقّ و هو قوله : «إنّ هو إلاّ ذكر للعالمين» الخ .

فقوله: «فأين تذهبون» توطئة وتمهيد لذكر نتيجة البيان السابق ، وهو استضلال لهم فيما يرونه في أمر القرآن الكريم أنّه من طواري الجنون أو من تسويلات الشيطان الباطلة .

فالاستفهام في الآية توبيخيّ و المعنى إذا كان الأمر على هذا فأين تذهبون و تتركون الحقّ وراءكم ؟

قوله تعالى : « إن هو إلاّ ذكر للعالمين » أي تذكرة لجماعات الناس كائنين من كانوا يمكنهم بها أن يتبصّروا للحقّ ، و قد تقدّم بعض الكلام في نظيرة الآية .

قوله تعالى : « لمن شاء منكم أن يستقيم » بدل من قوله : « للعالمين » مسوق لبيان أنّ فعليّة الانتفاع بهذا الذكر مشروط بأن يشاؤا الاستقامة على الحقّ و هو التلبّس بالثبات على العبوديّة و الطاعة .

قوله تعالى : « وما تشاؤن إلاّ أن يشاء الله ربّ العالمين » تقدّم الكلام في معناه في نظائر الآية .

و الآية بحسب ما يفيده السياق في معنى دفع الدخل فإنّ من الممكن أن يتوهّموا من قوله : «لمن شاء منكم أن يستقيم» أنّ لهم الاستقلال في مشيّة الاستقامة إن شاؤا استقاموا و إن لم يشاؤا لم يستقيموا ، فلله إليهم حاجة في الاستقامة الّتي يريدها منهم .

فدفع ذلك بأنّ مشيّتهم متوقّفة على مشيّة الله سبحانه فلا يشاؤن الاستقامة إلاّ أن يشاء الله أن يشاؤها ، فأفعال الإنسان الإراديّة مرادة لله تعالى من طريق إرادته وهو أن يريد الله أن يفعل الإنسان فعلاً كذا وكذا عن إرادته .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج سعيد بن منصور والفاريابيّ وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه من طرق عن عليّ في قوله : « فلا اُقسم بالخنّس » قال : هي الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى .

وفي تفسير القمّي في قوله : « فلا اُقسم بالخنّس » قال : أي واُقسم بالخنّس وهو اسم النجوم . « الجوار الكنّس » قال : النجوم تكنس بالنهار فلا تبين .

وفي المجمع « بالخنّس » وهي النجوم تخنس بالنهار وتبدو بالليل «والجوار» صفة لها لأنّها تجري في أفلاكها « الكنّس » من صفتها أيضاً لأنّها تكنس أي تتوارى في بروجها كماتتوارى الظباء في كناسها . وهي خمسة أنجم : زحل والمشتري والمرّيخ والزهرة وعطارد عن عليّ « والليل إذا عسعس » أي إذا أدبر بظلامه عن عليّ .

وفي تفسير القمّي «والليل إذا عسعس » قال : إذا أظلم و « الصبح إذا تنفّس» قال : إذا ارتفع .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن عساكر عن معاوية بن قرّة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لجبرئيل : ما أحسن ما أثنى عليك ربّك : ذي قوّة عندذي العرش مكين مطاع ثمّ أمين فما كانت قوّتك ؟ وما كانت أمانتك ؟

قال : أمّا قوّتي فانّي بعثت إلى مدائن لوط وهي أربع مدائن ، وفي كلّ مدينة أربع مائة ألف مقاتل سوى الذراري فحملتهم من الأرض السفلى حتّى سمع أهل السماء أصوات الدجاج ونباح الكلاب ثمّ هويت بهم فقتلتهم ، وأمّا أمانتي فلم اُؤمر بشيء فعدوته إلى غيره .

اقول : والرواية لاتخلو من شيء وقد ضعّفوا ابن عساكر وخاصّة فيماتفرّد به.

وفي الخصال عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من قال في كلّ يوم من شعبان سبعين

مرّة : أستغفر الله الّذي لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم الحيّ القيّوم وأتوب إليه. كتب في الاُفق المبين . قال : قلت : وما الاُفق المبين ؟ قال : قاع بين يدي العرش فيه أنهار تطّرد وفيه من القدحان عدد النجوم .

وفي تفسير القمّي في حديث أسنده إلى أبي عبدالله عليه السلام قوله : « وما هو بقول شيطان رجيم » قال : يعني الكهنة الّذين كانوا في قريش فنسب كلامهم إلى كلام الشياطين الّذين كانوا معهم يتكلّمون على ألسنتهم فقال : « وما هو بقول شيطان رجيم » مثل اُولئك .

﴿ سورة الانفطار مكيّة وهي تسع عشرة آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ اِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَاِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَاِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَاِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْاِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّيكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَاِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَاماً كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) اِنَّ الْاَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَاِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَيكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَيكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْاَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ (١٩) .

﴿ بيان ﴾

تحدّث السورة يوم القيامة ببعض أشراطه الملازمة له المتصلة به وتصفه بما يقع فيه وهو ذكر الانسان ما قدّم وما أخّر من أعماله الحسنة والسيّئة - على أنّها محفوظة عليه بواسطة حفظة الملائكة الموكّلين عليه - وجزاؤه بعمله إن كان برّاً فبنعيم وإن كان فاجراً مكذّباً بيوم الدين فبجحيم يصلاها مخلّداً فيها .

ثمّ يستأنف وصف اليوم بأنّه يوم لا يملك نفس لنفس شيأ والأمر يومئذ لله ، وهي من غرر الآيات ، والسورة مكّيّة بلا كلام .

قوله تعالى : « إذا السماء انفطرت » الفطر الشقّ والانفطار الانشقاق والآية كقوله : « وانشقّت السماء فهي يومئذ واهية » الحاقّة : ١٦ .

قوله تعالى : « وإذا الكواكب انتثرت » أي تفرّقت بتركها مواضعها الّتي ركزت فيها شبّهت الكواكب بلآلي منظومة قطع سلكها فانتثرت وتفرّقت .

قوله تعالى : « وإذا البحار فجّرت » قال في المجمع : التفجير خرق بعض مواضع الماء إلى بعض على التكثير ، ومنه الفجور لانخراق صاحبه بالخروج إلى كثير من الذنوب ، ومنه الفجر لانفجاره بالضياء . انتهى . وإليه يرجع تفسيرهم لتفجير البحار بفتح بعضها في بعض حتّى يزول الحائل ويختلط العذب منها والمالح ويعود بحراً واحداً ، وهذا المعنى يناسب تفسير قوله : « وإذا البحار سجّرت » التكوير : ٦ بامتلاء البحار .

قوله تعالى : « وإذا القبور بعثرت » قال في المجمع بعثرت الحوض و بحثرته إذا جعلت أسفله أعلاه ، والبعثرة والبحثرة إثارة الشيء بقلب باطنه إلى ظاهره . انتهى ، فالمعنى وإذا قلب تراب القبور واُثير باطنها إلى ظاهرها لإخراج الموتى وبعثهم للجزاء .

قوله تعالى : « علمت نفس ماقدّمت وأخّرت » المراد بالعلم علمها التفصيليّ بأعمالها الّتي عملتها في الدنيا ، وهذا غير ما يحصل لها من العلم بنشر كتاب أعمالها لظاهر قوله تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » القيامة : ١٥ وقوله : « يوم يتذكّر الإنسان ما سعى » النازعات : ٣٥ ، وقوله : « يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .

و المراد بالنفس جنسها فتفيد الشمول ، والمراد بما قدّمت و ما أخّرت هو ما قدّمته ممّا عملته في حياتها ، و بما أخّرت ما سنّته من سنّة حسنة أو سيّئة فعملت بها بعد موتها فتكتب في صحيفة عملها قال تعالى : « و نكتب ما قدّموا و آثارهم » يس : ١٢ .

و قيل : المرادبما قدّمت وأخّرت ما عملته في أوّل العمر و ما عملته في آخره فيكون كناية عن الاستقصاء .

و قيل في معنى التقديم و التأخير وجوه اُخر لايعبأبها مذكورة في مطوّلات التفاسير من أراد الوقوف عليها فليراجعها .

و قد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « ليميزالله الخبيث من الطّيب » الأنفال : ٣٧ ، كلام لايخلو من نفع ههنا .

قوله تعالى : «يا أيها الانسان ماغرّك بربّك الكريم ـ إلى قوله ـ ركّبك » عتاب و توبيخ للإنسان ، و المراد بهذاالانسان المكذّب ليوم الدين ـ على مايفيده السياق المشتمل على قوله : «بل تكذّبون بيوم الدين» وفي تكذيب يوم الدين كفر وإنكار لتشريع الدين و في إنكاره إنكار لربوبيّة الربّ تعالى ، و إنّما وجّه الخطاب إليه بما أنّه إنسان ليكون حجّة أوكالحجّة لثبوت الخصال الّتي يذكرها من نعمه عليه المختصّة من حيث المجموع بالانسان .

و قد علّق الغرور بصفتي ربوبيّته و كرمه تعالى ليكون ذلك حجّة في توجّه العتاب و التوبيخ فإنّ تمرّد المربوب وتوغّله في معصية ربّه الّذي يدبّر أمره و يغشيه نعمه ظاهرة و باطنة كفران لاترتاب الفطرة السليمة فيقبحه ولا في استحقاق العقاب عليه و خاصّةإذاكان الربّ المنعم كريماً لايريد في نعمه و عطاياه نفعاً ينتفع به و لا عوضاً يقابله به المنعم عليه ، و يسامح في إحسانه ويصفح عمّا يأتي به المربوب من الخطيئة والاثم بجهالة فإنّ الكفران حينئذ أقبح وأقبح وتوجّه الذمّ واللائمة أشدّ و أوضح .

فقوله تعالى : « يا أيّها الانسان ما غرّك بربّك الكريم » استفهام توبيخيّ يوبّخ الانسان بكفران خاصّ لاعذر له يعتذر به عنه و هو كفران نعمة ربّ كريم.

وليس للانسان أن يجيب فيقول : أي ربّ غرّني كرمك فقد قضى الله سبحانه فيما قضى وبلّغه بلسان أنبيائه : « لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي

لشديد » إبراهيم : ٧ ، وقال : « فأمّا من طغى وآثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم هي المأوى » النازعات : ٣٩ إلى غير ذلك من الآيات الناصّة في أن لا مخلص للمعاندين من العذاب وأنّ الكرم لا يشملهم يوم القيامة قال : « ورحمتي وسعت كلّ شيء فسأكتبها للّذين يتّقون » الأعراف : ١٥٦ .

ولو كفى الإنسان العاصي قوله : « غرّني كرمك » لصرف العذاب عن الكافر المعاند كما يصرفه عن المؤمن العاصي ، ولا عذر بعد البيان .

ومن هنا يظهر أن لامحلّ لقول بعضهم : إنّ توصيف الربّ بالكريم من قبيل تلقين الحجّة وهو من الكرم أيضاً .

كيف ؟ والسياق سياق الوعيد والكلام ينتهي إلى مثل قوله : « وإنّ الفجّار لفي جحيم يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين » .

وقوله : « الّذي خلقك فسوّاك فعدلك » بيان لربوبيّته المتلبّسة بالكرم فانّ من تدبيره خلق الإنسان بجمع أجزاء وجوده ثمّ تسويته بوضع كلّ عضو فيما يناسبه من الموضع على ما يقتضيه الحكمة ثمّ عدله بعدل بعض أعضائه وقواه ببعض بجعل التوازن والتعادل بينها فما يضعف عنه عضو يقوى عليه عضو فيتمّ به فعله كما أنّ الأكل مثلاً بالالتقام وهو للفم ، ويضعف الفم عن قطع اللقمة ونهشها وطحنها فيتمّ ذلك بمختلف الأسنان ، ويحتاج ذلك إلى نقل اللقمة من جانب من الفم إلى آخر وقلبها من حال إلى حال فجعل ذلك للّسان ثمّ الفم يحتاج في فعل الأكل إلى وضع الغذاء فيه فتوصّل إلى ذلك باليد وتمّم عملها بالكفّ وعملها بالأصابع على اختلاف منافعها وعملها بالأنامل ، وتحتاج اليد في الأخذ والوضع إلى الانتقال المكانيّ نحو الغذاء وعدل ذلك بالرجل .

وعلى هذا القياس في أعمال سائر الجوارح والقوى وهي اُلوف واُلوف لا يحصيها العدّ ، والكلّ من تدبيره تعالى وهو المفيض لها من غير أن يريد بذلك انتفاعاً لنفسه ومن غير أن يمنعه من إفاضتها ما يقابله به الإنسان من نسيان الشكر وكفران النعمة فهو تعالى ربّه الكريم .

وقوله : « في أيّ صورة ما شاء ركّبك » بيان لقوله : « عدلك » ولذا لم يعطف على ما تقدّمه والصورة ما ينتقش به الأعيان ويتميّز به الشيء من غيره و « ما » زائدة للتأكيد .

والمعنى في أيّ صورة شاء أن يركّبك ـ ولا يشاء إلّا ما تقتضيه الحكمة ـ ركّبك من ذكر واُنثى وأبيض وأسود وطويل وقصير ووسيم ودميم وقويّ وضعيف إلى غير ذلك وكذا الأعضاء المشتركة بين أفراد الإنسان المميّزة لها من غيرها كاليدين والرجلين والعينين والرأس والبدن واستواء القامة ونحوها فكلّ ذلك من عدل بعض الأجزاء ببعض في التركيب قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » التين : ٤ والجميع ينتهي إلى تدبير الربّ الكريم لاصنع للإنسان في شيء من ذلك.

قوله تعالى : « كلاّ بل تكذّبون بالدين » « كلاّ » ردع عن اغترار الإنسان بكرم الله وجعل ذلك ذريعة إلى الكفر والمعصية أي لا تغترّوا فلا ينفعكم الاغترار.

وقوله : « بل تكذّبون بالدين » أي بالجزاء . إضراب عمّا يفهم من قوله : « ما غرّك بربّك الكريم » من غرور الإنسان بربّه الكريم على اعتراف منه ولو بالقوّة بالجزاء لقضاء الفطرة السليمة به .

فإذ عاتب الإنسان ووبّخه على غروره بربّه الكريم و اجترائه على الكفران والمعصية من غير أن يخاف الجزاء أضرب عنه مخاطباً للإنسان وكلّ من يشاركه في كفره ومعصيته فقال : بل أنت ومن حاله حالك تكذّبون بيوم الدين والجزاء فتجحدونه ملحّين عليه .

قوله تعالى : « وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون » إشارة إلى أنّ أعمال الإنسان حاضرة محفوظة يوم القيامة من طريق آخر غير حضورها للإنسان العامل لها من طريق الذكر وذلك حفظها بكتابة كتّاب الأعمال من الملائكة الموكّلين بالإنسان فيحاسب عليها كما قال تعالى : « ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » أسرى : ١٤ .

فقوله : « وإنّ عليكم لحافظين » أي إنّ عليكم من قبلنا حافظين يحفظون

أعمالكم بالكتابة كما يفيده السياق .

وقوله : « كراماً كاتبين » أي اُولي كرامة وعزّة عندالله تعالى وقد تكرّر في القرآن الكريم وصف الملائكة بالكرامة ولا يبعد أن يكون المراد به باعانة من السياق كونهم بحسب الخلقة مصونين عن الإثم والمعصية مفطورين على العصمة ، ويؤيّده قوله : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء:٢٦ حيث دلّ على أنّهم لا يريدون إلاّ ما أراده الله ولا يفعلون إلاّ ما أمرهم به ، وكذا قوله : « كرام بررة » عبس : ١٦ .

والمراد بالكتابة في قوله : « كاتبين » كتابة الأعمال بقرينة قوله : « يعلمون ما تفعلون » وقد تقدّم في تفسير قوله : « إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون » الجاثية : ٢٩ كلام في معنى كتابة الأعمال فليراجعه من شاء .

وقوله : « يعلمون ما تفعلون » نفي لخطاهم في تشخيص الخير والشرّ وتمييز الحسنة والسيّئة كما أنّ الآية السابقة متضمّنة لتنزيههم عن الإثم والمعصية فهم محيطون بالأفعال على ما هي عليه من الصفة وحافظون لها على ما هي عليه .

ولا تعيين في هذه الآيات لعدّة هؤلاء الملائكة الموكّلين على كتابة أعمال الإنسان نعم المستفاد من قوله تعالى : « إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » قّ : ١٧ أنّ على كلّ انسان منهم اثنين عن يمينه وشماله ، وقد ورد في الروايات المأثورة أنّ الّذي على اليمين كاتب الحسنات والّذي على الشمال كاتب السيّئات .

وورد أيضاً في تفسير قوله : « إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً » أسرى : ٧٨ أخبار مستفيضة من طرق الفريقين دالّة على أنّ كتبة الأعمال بالنهار يصعدون بعد غروب الشمس وينزل آخرون فيكتبون أعمال اللّيل حتّى إذا طلع الفجر صعدوا ونزل ملائكة النهار وهكذا .

وفي الآية أعني قوله : « يعلمون ما تفعلون » دلالة على أنّ الكتبة عالمون بالنيّات إذ لا طريق إلى العلم بخصوصيّات الأفعال وعناوينها وكونها خيراً أو شرّاً أو حسنة أو سيّئة إلاّ العلم بالنيّات فعلمهم بالأفعال لا يتمّ إلّا عن العلم بالنيّات .

قوله تعالى : « إنّ الأبرار لفي نعيم و إنّ الفجّار لفي جحيم» استئناف مبيّن لنتيجة حفظ الأعمال بكتابة الكتبة وظهورها يوم القيامة .

و الأبرارهم المحسنون عملاً ، و الفجّارهم المنخرقون بالذنوب والظاهر أنّ المراد بهم المتهتّكون من الكفّار إذلاخلودلمؤمن في النار ، وفي تنكير« نعيم» و«جحيم» إشعار بالتفخيم و التهويل ـ كما قيل ـ .

قوله تعالى : «يصلونها يوم الدين» الضمير للجحيم أي يلزمون يعني الفجّار الجحيم يوم الجزاء ولا يفارقونها .

قوله تعالى : «و ماهم عنها بغائبين» عطف تفسيريّ على قوله : «يصلونها» الخ يؤكّد معنى ملازمتهم للجحيم وخلودهم في النار ، و المراد بغيبتهم عنها خروجهم منها فالآية في معنى قوله : «وماهم بخارجين من النار» البقرة : ١٦٧ .

قوله تعالى : « و ما أدراك ما يوم الدين » تهويل و تفخيم لأمر يوم الدين ، و المعنى لا تحيط علماً بحقيقة يوم الدين و هذا التعبير كناية عن فخامة أمر الشيء و علوّه من أن يناله وصف الواصف ، و في إظهار اليوم ـ و المحلّ محلّ الضمير ـ تأكيد لأمر التفخيم .

قوله تعالى : «ثمّ ما أدراك ما يوم الدين » في تكرار الجملة تأكيد للتفخيم .

قوله تعالى : «يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله» الظرف منصوب بتقدير اذكر ونحوه ، و في الآية بيان إجماليّ لحقيقة يوم الدين بعد ما في قوله : «وما أدراك ما يوم الدين» من الحثّ على معرفته .

و ذلك أنّ رابطة التأثير و التأثّر بين الأسباب الظاهريّة ومسبّباتها منقطعة زائلة يومئذ كما يستفاد من أمثال قوله تعالى: « وتقطّعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ ، و قوله : « ولو يرى الّذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوّة لله جميعا» البقرة : ١٦٥ فلاتملك نفس لنفس شيئاً فلا تقدر على دفع شرّ عنها ولا جلب خير لها ، و لاينافي ذلك آيات الشفاعة لأنّها بإذن الله فهو المالك لها لاغير .

وقوله : «و الأمر يومئذ لله » أي هو المالك للأمر ليس لغيره من الأمر شيء.

والمرادبالأمركما قيل واحدالأوامر لقوله تعالى : «لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار» المؤمن : ١٦ وشأن الملك المطاع الأمر بالمعنى المقابل للنهي ، والأمر بمعنى الشأن لايلائم المقام تلك الملاءمة .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « و إذا القبور بعثرت » قال : تنشقّ فتخرج الناس منها .

و في الدّر المنثور أخرج الحاكم و صحّحه عن حذيفة قال : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من استنّ خيراً فاستنّ به فله أجره ومثل اُجور من اتّبعه غير منتقص من اُجورهم ومن استنّ شرّاً فاستنّ به فله وزره و مثل أوزارمن اتّبعه غير منتقص من أوزارهم ، و تلاحذيفة «علمت نفس ما قدّمت و أخّرت » .

و فيه أخرج عبدبن حميد عن صالح بن مسمار قال : بلغني أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم تلا هذه الآية « يا أيها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم» ثمّ قال : جهله .

و في تفسير القمّي « في أيّ صورة ما شاء ركّبك » قال : لو شاء ركّبك على غير هذه الصورة .

أقول : و رواه في المجمع عن الصادق عليه السلام مرسلا .

و فيه « و إنّ عليكم لحافظين » قال : الملكان الموكّلان بالإنسان .

و عن سعد السعود وفي رواية انّهما ـ يعني الملكين الموكّلين ـ يأتيان المؤمن عند حضور صلاة الفجر فإذا هبطا صعد الملكان الموكّلان باللّيل فإذا غربت الشمس نزل إليه الموكّلان بكتابة اللّيل ، و يصعد الملكان الكاتبان بالنهار بديوانه إلى الله عزّ و جلّ .

فلا يزال ذلك دأبهم إلى وقت حضور أجله فإذا حضر أجله قالا للرجل الصالح: جزاك الله من صاحب عنّا خيراً فكم من عمل صالح أريتناه ، و كم من قول حسن أسمعتناه ، و كم من مجلس خير أحضرتناه فنحن اليوم على ما تحبّه و شفعاء إلى

ربّك ، و إن كان عاصياً قالاله : جزاك الله من صاحب عنّا شرّاً فلقد كنت تؤذينافكم من عمل سيّىء أريتناه ، وكم من قول سيّىء أسمعتناه ، و[كم] ظ من مجلس سوء أحضرتناه و نحن اليوم لك على ما تكره ، وشهيدان عند ربّك .

و في المجمع في قوله تعالى : «والأمر يومئذ لله» روى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال : الأمر يومئذ و اليوم كلّه لله . ياجابر إذا كان يوم القيامة بادت الحكّام فلم يبق حاكم إلاّ الله .

أقول : مراده عليه السلام أنّ كون الأمر لله لا يختصّ بيوم القيامة بل الأمر لله دائماً ، و تخصيصه بيوم القيامة باعتبار ظهوره لا باعتبار أصله فالّذي يختصّ به ظهور هذه الحقيقة ظهور عيان فيسقط اليوم أمر غيره تعالى وحكمه ، و نظير الأمر سائر ما عدّ في كلامه تعالى من مختصّات يوم القيامة ؛ فالرواية من غرر الروايات .

﴿ سورة المطفّفين مكيّة أو مدنيّة و هي ستّ و ثلاثون آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) اَلَّذِينَ اِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَ اِذَا كَالُوهُمْ اَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ اُولٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا اِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَ مَا أَدْرٰاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) اَلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَ مَا يُكَذِّبُ بِهِ اِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) اِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْاَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا اِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ اِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّا اِنَّ كِتَابَ الْاَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرٰيكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١)

﴿ بيان ﴾

تفتتح السورة بوعيد أهل التطفيف في الكيل و الوزن و تنذرهم بأنّهم مبعوثون للجزاء في يوم عظيم و هو يوم القيامة ثمّ تتخلّص لتفصيل ما يجري يومئذ على الفجّار و الأبرار .

والأنسب بالنظر إلى السياق أن يكون أوّل السورة المشتمل على وعيد المطفّفين نازلاً بالمدينة وأمّا ما يتلوه من الآيات إلى آخر السورة فيقبل الانطباق على السياقات المكّيّة و المدنيّة .

قوله تعالى : «ويل للمطفّفين» دعاء على المطفّفين و التطفيف نقص المكيال و الميزان ، و قد نهى الله تعالى عنه و سمّاه إفساداً في الأرض كما فيما حكاه من قول شعيب : «ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط و لا تبخسوا الناس أشياءهم و لا تعثوا في الأرض مفسدين » هود : ٨٤ ، وقد تقدّم الكلام في تفسير الآية في معنى كونه إفساداً في الأرض .

قوله تعالى : «الّذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون و إذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » الاكتيال من الناس الأخذ منهم بالكيل ، و تعديته بعلى لإفادة معنى الضرر ، و الكيل إعطاؤهم بالمكيال يقال : كاله طعامه و وزنه و كال له طعامه و وزن له و الأوّل لغة أهل الحجاز و عليه التنزيل و الثاني لغة غيرهم كما في المجمع ، و الاستيفاء أخذ الحقّ تامّاً كاملاً ، والإخسار الإيقاع في الخسارة .

و المعنى الّذين إذا أخذوا من الناس بالكيل يأخذون حقّهم تامّاً كاملاً ، و إذا أعطوا الناس بالكيل أو الوزن ينقصون فيوقعونهم في الخسران.

فمضمون الآيتين جميعاً ذمّ واحد وهو أنّهم يراعون الحقّ لأنفسهم ولا يراعونه لغيرهم و بعبارة اُخرى لا يراعون لغيرهم من الحقّ مثل ما يراعونه لأنفسهم و فيه إفساد الاجتماع الإنسانيّ المبنيّ على تعادل الحقوق المتقابلة وفي إفساده كلّ الفساد.

و لم يذكر الاتّزان مع الاكتيال كما ذكر الوزن مع الكيل إذ قال : « و إذا كالوهم أو وزنوهم » قيل : لأنّ المطفّفين كانوا باعة و هم كانوا في الأغلب يشترون الكثير من الحبوب والبقول ونحوهما من الأمتعة ثمّ يكسبون بها فيبيعونها يسيراً يسيراً تدريجاً ، وكان دأبهم في الكثير من هذه الأمتعة أن يؤخذ و يعطى بالكيل لا بالوزن فذكر الاكتيال وحده في الآية مبنيّ على الغالب .

و قيل : لم يذكر الاتّزان لأنّ الكيل و الوزن بهما البيع و الشراء فذكر

أحدهما يدلّ على الآخر . و فيه أنّ ما ذكر في الاكتيال جار في الكيل أيضاً وقد ذكر معه الوزن فالوجه لا يخلو من تحكّم .

وقيل : الآيتان تحاكيان ما كان عليه دأب الّذين نزلت فيهم السورة فقد كانوا يشترون بالاكتيال فقط و يبيعون بالكيل و الوزن جميعاً ، و هذا الوجه دعوى من غير دليل .

إلى غير ذلك ممّا ذكروه في توجيه الاقتصار على ذكر الاكتيال في الآية ، و لا يخلو شيء منها من ضعف .

قوله تعالى : « ألا يظنّ اُولئك أنّهم مبعوثون ليوم عظيم » الاستفهام للإنكار و التعجيب ، و الظنّ بمعناه المعروف و الإشارة إلى المطفّفين باُولئك الموضوعة للإشارة البعيدة للدلالة على بعدهم من رحمة الله ، و اليوم العظيم يوم القيامة الّذي يجازون فيه بعملهم .

و الاكتفاء بظنّ البعث و حسبانه ـ مع أنّ من الواجب الاعتقاد العلميّ بالمعاد ـ لأنّ مجرّد حسبان الخطر و الضرر في عمل يوجب التجنّب عنه و التحرّز عن اقترافه و إن لم يكن هناك علم فالظنّ بالبعث ليوم عظيم يؤاخذ الله فيه الناس بما كسبوا من شأنه أن يردعهم عن اقتراف هذا الذنب العظيم الّذي يستتبع العذاب الأليم .

و قيل : الظنّ في الآية بمعنى العلم .

قوله تعالى : « يوم يقوم الناس لربّ العالمين » المراد به قيامهم من قبورهم ـ كناية عن تلبّسهم بالحياة بعد الممات ـ لحكمه تعالى و قضائه بينهم .

قوله تعالى : « كلّا إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين و ما أدراك ما سجّين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذّبين » ردع ـ كما قيل ـ عمّا كانوا عليه من التطفيف و الغفلة عن البعث و الحساب .

و قوله : « إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين » الخ الّذي يعطيه التدبّر في سياق

الآيات الأربع بقياس بعضها إلى بعض وقياس المجموع إلى مجموع قوله : « كلّا إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين » إلى تمام أربع آيات أنّ المراد بسجّين ما يقابل علّيّين و معناه علو على علو مضاعف ففيه شيء من معنى السفل و الانحباس فيه كما يشير إليه قوله : « ثمّ رددناه أسفل سافلين» التين : ٥ فالأقرب أن يكون مبالغة من السجن بمعنى الحبس كسكّير و شرّيب من السكر والشرب فمعناه الّذي يحبس من دخله على التخليد كما قيل .

و الكتاب بمعنى المكتوب من الكتابة بمعنى القضاء المحتوم و المراد بكتاب الفجّار ما قدّره الله لهم من الجزاء وأثبته بقضائه المحتوم .

فمحصّل الآية أنّ الّذي أثبته الله من جزائهم أو عدّه لهم لفي سجّين الّذي هو سجن يحبس من دخله حبساً طويلاً أو خالداً .

و قوله : « و ما أدراك ما سجّين » مسوق للتهويل .

و قوله : « كتاب مرقوم » خبر لمبتدء محذوف هو ضمير راجع إلى سجّين و الجملة بيان لسجّين و « كتاب » أيضاً بمعنى المكتوب من الكتابة بمعنى القضاء و الإثبات ، و «مرقوم » من الرقم قال الراغب : الرقم الخطّ الغليظ ، و قيل : هو تعجيم الكتاب ، و قوله تعالى : « كتاب مرقوم » حمل على الوجهين . انتهى ، والمعنى الثاني أنسب للمقام فيكون إشارة إلى كون ما كتب لهم متبيّناً لا إبهام فيه أي إنّ القضاء حتم لا يتخلّف .

و المحصّل أنّ سجّين مقضيّ عليهم مثبت لهم متبيّن متميّز لا إبهام فيه .

ولا ضير في لزوم كون الكتاب ظرفاً للكتاب على هذا المعنى لأنّ ذلك من ظرفية الكلّ للجزء و هي ممّا لا ضير فيه فيكون سجّين كتاباً جامعاً فيه ما قضي على الفجّار و غيرهم من مستحقّي العذاب .

و قوله : « ويل يومئذ للمكذّبين » نعي و دعاء على الفجّار و فيه تفسيرهم بالمكذّبين ، و « يومئذ » ظرف لقوله : « إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين » بحسب

المعنى أي ليهلك الفجّار ـ و هم المكذّبون ـ يومئذ تحقّق ما كتب الله لهم و قضى عليهم من الجزاء و حلّ بهم ما أعدّ لهم من العذاب .

هذا ما يفيده التدبّر في هذه الآيات الأربع ، و هي ذات سياق واحد متّصل متلائم الأجزاء .

و للقوم في تفسير مفردات الآيات الأربع و جملها أقوال متفرّقة كقولهم : إنّ الكتاب في قوله : « إنّ كتاب الفجّار » بمعنى المكتوب و المراد به صحيفة أعمالهم، و قيل : مصدر بمعنى الكتابة وفي الكلام مضاف محذوف و التقدير كتابة عمل الفجّار لفي سجّين .

و قولهم : إنّ الفجّار أعمّ من المكذّبين فيشمل الكفّار و الفسقة جميعاً .

و قولهم : إنّ المراد بسجّين الأرض السابعة السفلى يوضع فيها كتاب الفجّار و قيل : واد في جهنّم ، و قيل : جبّ فيها ، و قيل : سجّين اسم لكتابهم ، و قيل : سجّين الأوّل اسم الموضع الّذي يوضع فيه كتابهم و الثاني اسم كتابهم ، و قيل : هو اسم كتاب جامع هو ديوان الشرّ دوّن فيه أعمال الفجرة من الثقلين ، و قيل: المراد به الخسار و الهوان فهو كقولهم : بلغ فلان الحضيض إذا صار في غاية الخمول ، و قيل : هو السجّيل بدّل لامه نوناً كما يقال جبرين في جبريل إلى غير ذلك ممّا قيل.

و قولهم : إنّ قوله : « كتاب مرقوم » ليس بياناً و تفسيراً لسجّين بل تفسير للكتاب المذكور في قوله : « إنّ كتاب الفجّار » .

و قولهم : إنّ قوله : « ويل يومئذ للمكذّبين » متّصل بقوله : « يوم يقوم الناس لربّ العالمين » و الآيات الثلاث الواقعة بين الآيتين اعتراض .

و أنت إن تأمّلت هذه الأقاويل وجدت كثيراً منها تحكّماً محضاً لا دليل عليه .

على أنّها تقطع ما في الآيات من السياق الواحد المتّصل الّذي يحاذي به ما في الآيات الأربع الآتية في صفة كتاب الأبرار من السياق الواحد المتّصل فلا نطيل الكلام بالتعرّض لواحد واحد منها و المناقشة فيها .

قوله تعالى : « الّذين يكذّبون بيوم الدين » تفسير للمكذّبين و ظاهر الآية ـ و يؤيّده الآيات التالية ـ أنّ المراد بالتكذيب هو التكذيب القوليّ الصريح فيختصّ الذمّ بالكفّار ولايشمل الفسقة من أهل الايمان فلايشمل مطلق المطفّفين بل الكفّار منهم .

اللّهمّ إلّا أن يراد بالتكذيب ما يعمّ التكذيب العمليّ كما ربّما أيّده قوله السابق : « ألا يظنّ اُولئك أنّهم مبعوثون » فيشمل الفجّار من المؤمنين كالكفّار .

قوله تعالى : « و ما يكذّب به إلّا كلّ معتد أثيم » المعتدي اسم فاعل من الاعتداء بمعنى التجاوز و المراد به المتجاوز عن حدود العبوديّة ، و الأثيم كثير الآثام بحيث تراكم بعضها على بعض بانهماكه في الأهواء .

و من المعلوم أنّ المانع الوحيد الّذي يردع عن المعصية هو الإيمان بالبعث و الجزاء ، و المنهمك في الأهواء المتعلّق قلبه بالاعتداء و الإثم تأبى نفسه التسليم لما يردع عنها و التزهّد عن المعاصي و ينتهي إلى تكذيب البعث و الجزاء قال تعالى : « ثمّ كان عاقبة الّذين أساؤا السوآى أن كذّبوا بآيات الله و كانوا بها يستهزؤن » الروم : ١٠ .

قوله تعالى : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين » المراد بالآيات آيات القرآن بقرينة قوله : « تتلى » و الأساطير ما سطروه و كتبوه و المراد بها أباطيل الاُمم الماضين و المعنى إذا تتلى عليه آيات القرآن ممّا يحذّرهم المعصية و ينذرهم بالبعث و الجزاء قال : هي أباطيل .

قوله تعالى : « كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ردع عمّا قاله المكذّبون : « أساطير الأوّلين » قال الراغب : الرين صدأ يعلو الشيء الجليل [1] قال تعالى : « بل ران على قلوبهم » أي صار ذلك كصدء على جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الشرّ . انتهى . فكون ما كانوا يكسبون و هو الذنوب ريناً على

---

(١) الجلي ظ .

قلوبهم هو حيلولة الذنوب بينهم و بين أن يدركوا الحقّ على ما هو عليه .

و يظهر من الآية :

أوّلا أنّ للأعمال السيّئة نقوشاً و صوراً في النفس تنتقش و تتصوّر بها .

و ثانياً أنّ هذه النقوش و الصور تمنع النفس أن تدرك الحقّ كما هووتحول بينها و بينه .

و ثالثاً أنّ للنفس بحسب طبعها الأوّلي صفاءً و جلاءً تدرك به الحقّ كما هو و تميّز بينه و بين الباطل و تفرّق بين التقوى و الفجور قال تعالى : « و نفس و ما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها » الشمس : ٨ .

قوله تعالى : « **كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون** » ردع عن كسب الذنوب الحائلة بين القلب و إدراك الحقّ ، و المراد بكونهم محجوبين عن ربّهم يوم القيامة حرمانهم من كرامة القرب والمنزلة و لعلّه مراد من قال : إنّ المراد كونهم محجوبين عن رحمة ربّهم .

و أمّا ارتفاع الحجاب بمعنى سقوط الأسباب المتوسّطة بينه تعالى و بين خلقه و المعرفة التامّة به تعالى فهو حاصل لكلّ أحد قال تعالى : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار » المؤمن : ١٦ و قال : « و يعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين » النور : ٢٥ .

قوله تعالى : « **ثمّ إنّهم لصالوا الجحيم** » أي داخلون فيها ملازمون لها أو مقاسون حرّها على ما فسّره بعضهم و « ثمّ » في الآية و ما بعدها للتراخي بحسب رتبة الكلام .

قوله تعالى : « **ثمّ يقال هذا الّذي كنتم به تكذّبون** » هو توبيخ و تقريع ، والقائل خزنة النار أو أهل الجنّة .

قوله تعالى : « **كلاّ إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين و ما أدراك ما علّيّون كتاب مرقوم** » ردع في معنى الردع الّذي في قوله : « كلاّ إنّ كتاب الفجّار » و

علّيّون ـ كما تقدّم ـ علو على علو مضاعف ، وينطبق على الدرجات العالية ومنازل القرب من الله تعالى كما أنّ السجّين بخلافه .

و الكلام في معنى الآيات الثلاث نظير الكلام في الآيات الثلاث المتقدّمة الّتي تحاذيها من قوله : « إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين و ما أدراك ما سجّين كتاب مرقوم » .

فالمعنى أنّ الّذي كتب للأبرار و قضي جزاءً لبرّهم لفي علّيّين و ما أدراك ما علّيّون هو أمر مكتوب و مقضيّ قضاءً حتماً لازماً متبيّن لا إبهام فيه .

و للقوم أقاويل في هذه الآيات نظير ما لهم في الآيات السابقة من الأقوال غير أنّ من أقوالهم في علّيّين أنّه السماء السابعة تحت العرش فيه أرواح المؤمنين ، و قيل سدرة المنتهى الّتي إليها تنتهي الأعمال ، و قيل : لوح من زبرجدة تحت العرش معلّق مكتوب فيه أعمالهم ، و قيل : هي مراتب عالية محفوفة بالجلالة ، و الكلام فيها كالكلام فيما تقدّم من أقوالهم .

قوله تعالى : « يشهده المقرّبون» الأنسب لما تقدّم من معنى الآيات السابقة أن يكون « يشهده » من الشهود بمعنى المعاينة و المقرّبون قوم من أهل الجنّة هم أعلى درجة من عامّة الأبرار على ما سيأتي استفادته من قوله : « عينا يشرب بها المقرّبون » فالمراد معاينتهم له بإراءة الله إيّاه لهم وقدقال الله تعالى في مثله من أمر الجحيم : « كلّا لو تعلمون علم اليقين لترونّ الجحيم » التكاثر : ٦ و منه يظهر أنّ المقرّبين هم أهل اليقين .

و قيل : الشهادة هي الحضور و المقرّبون الملائكة ، و المراد حضور الملائكة على صحيفة عملهم إذا صعدوا بها إلى الله سبحانه .

و قيل : المقرّبون هم الأبرار والملائكة جميعا .

و القولان مبنيّان على أنّ المراد بالكتاب صحيفة الأعمال وقدتقدّم ضعفه .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : نزلت يعني سورة المطففين على نبي الله صلى الله عليه وآله حين قدم المدينة و هم يومئذ أسوء الناس كيلاً فأحسنوا الكيل .

و في أصول الكافي بإسناده عن أبيحمزة الثمالي قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : إن الله عز وجل خلقنا من أعلى عليين و خلق قلوب شيعتنا مما خلقنامنه و خلق أبدانهم من دون ذلك فقلوبهم تهوى إلينا لأنها خلقت مما خلقنا ثم تلا هذه الآية « كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين و ما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون » .

و خلق قلوب عدونا من سجين وخلق قلوب شيعتهم مما خلقهم منه وأبدانهم من دون ذلك ، قلوبهم تهوى إليهم لأنها خلقت مما خلقوا منه ثم تلا هذه الآية « كلا إن كتاب الفجار لفي سجين و ما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين » .

أقول و روى مثله في أصول الكافي بطريق آخر عن الثمالي عنه عليه السلام ، ورواه في علل الشرائع بإسناد فيه رفع عن زيد الشحام عن أبي عبدالله عليه السلام مثله ، و الأحاديث ـ كما ترى ـ تؤيد ما قدمناه في معنى الآيات .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « كلا إن كتاب الفجار لفي سجين » قال : ما كتب الله لهم من العذاب لفي سجين .

و فيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : السجين الأرض السابعة و عليون السماء السابعة .

اقول : الرواية لو صحت مبنية على انتساب الجنة و النار إلى جهتي العلو و السفل بنوع من العناية و لذلك نظائر في الروايات كعد القبر روضة من رياض

الجنّة أو حفرة من حفر النار وعدّ وادي برهوت مكاناً لجهنّم .

و في الدّر المنثور أخرج ابن المبارك عن سعيد بن المسيّب قال : التقى سلمان و عبدالله بن سلام فقال أحدهما لصاحبه : إن متّ قبلي فالقني فأخبرني بما صنع ربّك بك و إن أنا متّ قبلك لقيتك فأخبرتك فقال عبدالله : كيف يكون هذا ؟ قال : نعم إنّ أرواح المؤمنين تكون في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت و نفس الكافر في سجّين والله أعلم .

و في اُصول الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : ما من عبد إلّا و في قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب ذنباً خرج في تلك النكتة نكتة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد ، و إن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتّى يغطّي البياض فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً و هو قول الله عزّ وجلّ : « كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

اقول : و روى هذا المعنى في الدرّ المنثور عن عدّة من أصحاب الجوامع عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله .

و فيه بإسناده عن عبدالله بن محمّد الحجّال عن بعض أصحابنا رفعه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : تذاكروا وتلاقوا وتحدّثوا فإنّ الحديث جلاء للقلوب إنّ القلوب لترين كما يرين السيف و جلاؤه الحديث .

و عن روضة الواعظين قال الباقر عليه السلام ما شيء أفسد للقلب من الخطيئة إنّ القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتّى تغلب عليه فيصير أسفله أعلاه و أعلاه أسفله .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : إنّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه منه و إن ازداد زادت فذلك الران الّذي ذكره الله تعالى في كتابه « كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

☆ ☆ ☆

إنّ الأبرار لفي نعيم (٢٢) على الأرائك ينظرون (٢٣) تعرف في وجوههم نضرة النّعيم (٢٤) يسقون من رحيق مختوم (٢٥) ختامه مسك و في ذلك فليتنافس المتنافسون (٢٦) و مزاجه من تسنيم (٢٧) عيناً يشرب بها المقرّبون (٢٨) إنّ الّذين أجرموا كانوا من الّذين آمنوا يضحكون (٢٩) و إذا مرّوا بهم يتغامزون (٣٠) و إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالّون (٣٢) و ما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الّذين آمنوا من الكفّار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥) هل ثوّب الكفّار ما كانوا يفعلون (٣٦).

﴿بيان﴾

بيان فيه بعض التفصيل لجلالة قدر الأبرار و عظم منزلتهم عندالله تعالى و غزارة عيشهم في الجنّة، و أنّهم على كونهم يستهزىء بهم الكفّار و يتغامزون بهم و يضحكون منهم سيضحكون منهم و ينظرون إلى ما ينالهم من العذاب.

قوله تعالى: «إنّ الأبرار لفي نعيم» النعيم النعمة الكثيرة و في تنكيره دلالة على فخامة قدره، والمعنى إنّ الأبرار لفي نعمة كثيرة لايحيط بها الوصف.

قوله تعالى: «على الأرائك ينظرون» الأرائك جمع أريكة و الأريكة السرير

في الجملة و هي البيت المزيّن للعروس و إطلاق قوله : « ينظرون » من غير تقييد يؤيّد أن يكون المراد نظرهم إلى مناظر الجنّة البهجة و ما فيها من النعيم المقيم، و قيل : المراد به النظر إلى ما يجزى به الكفّار وليس بذاك .

قوله تعالى : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » النضرة البهجة و الرونق ،و الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله باعتبار أنّ له أن ينظر فيعرف فالحكم عامّ و المعنى كلّ من نظر إلى وجوههم يعرف فيها بهجة النعيم الّذي هم فيه .

قوله تعالى : « يسقون من رحيق مختوم» الرحيق الشراب الصافي الخالص من الغشّ ، ويناسبه وصفه بأنّه مختوم فإنّه إنّما يختم على الشيء النفيس الخالص ليسلم من الغشّ و الخلط و إدخال ما يفسده فيه .

قوله تعالى : « ختامه مسك و في ذلك فليتنافس المتنافسون » قيل : الختام بمعنى ما يختم به أي إنّ الّذي يختم به مسك بدلاً من الطين و نحوه الّذي يختم به في الدنيا ، و قيل : أي آخر طعمه الّذي يجده شاربه رائحة المسك .

و قوله : «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » التنافس التغالب على الشيء و يفيد بحسب المقام معنى التسابق قال تعالى: «سابقوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة» الحديد: ٢١ و قال : « فاستبقوا الخيرات » المائدة : ٤٨ ، ففيه ترغيب إلى ما وصف من الرحيق المختوم .

واستشكل في الآية بأنّ فيها دخول العاطف على العاطف إذ التقدير وفليتنافس في ذلك الخ .

و اُجيب بأنّ الكلام على تقدير حرف الشرط و الفاء واقعة في جوابه و قدّم الظرف ليكون عوضاً عن الشرط و التقدير و إن اُريد تنافس فليتنافس في ذلك المتنافسون .

و يمكن أن يقال : إنّ قوله : « و في ذلك » معطوف على ظرف آخر محذوف متعلّق بقوله : « فليتنافس» يدلّ عليه المقام فإنّ الكلام في وصف نعيم الجنّة فيفيد قوله : « و في ذلك » ترغيباً مؤكّداً بتخصيص الحكم بعد التعميم ، و المعنى فليتنافس

المتنافسون في نعيم الجنّة عامّة و في الرحيق المختوم الّذي يسقونه خاصّة فهو كقولنا: أكرم المؤمنين والصالحين منهم خاصة ، ولاتكن عيّاباً وللعلماء خاصّة .

قوله تعالى : « و مزاجه من تسنيم » المزاج ما يمزج به ، و التسنيم على ما تفسّره الآية التالية عين في الجنّة سمّاه الله تسنيماً وفي لفظه معنى الرفع والملء يقال: سنّمه أي رفعه و منه سنام الإبل ، و يقال : سنّم الإناء أي ملأه .

قوله تعالى : « عيناً يشرب بها المقرّبون » يقال : شربه و شرب به بمعنى و « عيناً » منصوب على المدح أو الاختصاص و « يشرب بها المقرّبون » وصف لها والمجموع تفسير للتسنيم .

ومفاد الآية أنّ المقرّبين يشربون التسنيم صرفاً كما أنّ مفاد قوله : «ومزاجه من تسنيم » أنّه يمزج بها ما في كأس الأبرار من الرحيق المختوم ، و يدلّ ذلك أوّلا على أنّ التسنيم أفضل من الرحيق المختوم الّذي يزيد لذّة بمزجها ، و ثانياً أنّ المقرّبين أعلى درجة من الأبرار الّذين يصفهم الآيات .

قوله تعالى : « إنّ الّذين أجرموا كانوا من الّذين آمنوا يضحكون » يعطي السياق أنّ المراد بالّذين آمنوا هم الأبرار الموصوفون في الآيات و إنّما عبّر عنهم بالّذين آمنوا لأنّ سبب ضحك الكفّار منهم و استهزائهم بهم إنّما هو إيمانهم كما أنّ التعبير عن الكفّار بالّذين أجرموا للدلالة على أنّهم بذلك من المجرمين .

قوله تعالى : « و إذا مرّوا بهم يتغامزون » عطف على قوله : « يضحكون » أي كانوا إذا مرّوا بالّذين آمنوا يغمز بعضهم بعضاً و يشيرون بأعينهم استهزاءً بهم.

قوله تعالى : «و إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين» الفكه بالفتح فالكسر المرح البطر و المعنى و كانوا إذا انقلبوا و صاروا إلى أهلهم عن ضحكهم و تغامزهم انقلبوا ملتذّين فرحين بمافعلوا أو هو من الفكاهة بمعنى حديث ذوي الاُنس والمعنى انقلبوا وهم يحدّثون بما فعلوا تفكّها .

قوله تعالى : « وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالّون» على سبيل الشهادة عليهم بالضلال أو القضاء عليهم والثاني أقرب .

قوله تعالى : «وما اُرسلوا عليهم حافظين» أي وما اُرسل هؤلاء الّذين أجرموا حافظين على المؤمنين يقضون في حقّهم بما شاؤا أو يشهدون عليهم بما هووا ، و هذا تهكّم بالمستهزئين .

قوله تعالى : «فاليوم الّذين آمنوا من الكفّار يضحكون » المراد باليوم يوم الجزاء ، و التعبير عن الّذين أجرموا بالكفّار رجوع إلى حقيقة صفتهم . قيل: تقديم الجارّ و المجرور على الفعل أعني « من الكفّار » على « يضحكون » لإفادة قصر القلب ، و المعنى فاليوم الّذين آمنوا يضحكون من الكفّار لا الكفّار منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا

قوله تعالى : « على الأرائك ينظرون هل ثوّب الكفّار ما كانوا يفعلون » الثواب في الأصل مطلق الجزاء وإن غلب استعماله في الخير ، وقوله : «على الأرائك» خبر بعد خبر للّذين آمنوا و «ينظرون» خبر آخر ، وقوله : «هل ثوّب» الخ متعلّق بقوله : «ينظرون» قائم مقام المفعول .

والمعنى الّذين آمنوا على سرر في الحجال ينظرون إلى جزاء الكفّار بأفعالهم الّتي كانوا يفعلونها في الدنيا من أنواع الإجرام ومنها ضحكهم من المؤمنين وتغامزهم إذا مرّوا بهم و انقلابهم إلى أهلهم فكهين وقولهم : إنّ هؤلاء لضالّون .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « و في ذلك فليتنافس المتنافسون » قال : فيما ذكرناه من الثواب الّذي يطلبه المؤمن .

و في المجمع في قوله تعالى : «و إذا مرّوا بهم يتغامزون» : قيل نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام وذلك أنّه كان في نفر من المسلمين جاؤا إلى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله فسخر منهم المنافقون وضحكوا و تغامزوا ثمّ رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع

فضحكنا منه فنزلت الآية قبل أن يصل عليّ و أصحابه إلى النبيّ ﷺ . عن مقاتل و الكلبيّ .

اقول : وقد أورده في الكشّاف .

وفيه ذكر الحاكم أبوالقاسم الحسكانيّ في كتاب شواهدالتنزيل لقواعد التفضيل باسناده عن أبي صالح عن ابن عبّاس قال : «إنّ الّذين أجرموا» منافقوا قريش و«الّذين آمنوا» علي بن أبي طالب وأصحابه .

و في تفسير القمّيّ «إنّ الّذين أجرموا ـ إلى قوله ـ فكهين » قال :يسخرون.



﴿ سورة الانشقاق مكيّة و هي خمس و عشرون آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ اِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَ اَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ (٢) وَ اِذَا الْاَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ (٤) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْاِنْسَانُ اِنَّكَ كَادِحٌ اِلٰى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (٦) فَاَمَّا مَنْ اُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً (٨) وَ يَنْقَلِبُ اِلٰى اَهْلِهِ مَسْرُوراً (٩) وَ أَمَّا مَنْ اُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً (١١) وَ يَصْلٰى سَعِيراً (١٢) اِنَّهُ كَانَ فِي اَهْلِهِ مَسْرُوراً (١٣) اِنَّهُ ظَنَّ اَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلٰى اِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً (١٥) فَلَا اُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَ اللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَ الْقَمَرِ اِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَالَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَ اِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَايَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) اِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

﴿ بيان ﴾

تشير السورة إلى قيام الساعة ، و تذكر أنّ للإنسان سيراً إلى ربّه حتّى يلاقيه فيحاسب على ما يقتضيه كتابه وتؤكّد القول في ذلك و الغلبة فيها للإنذار على التبشير . و سياق آياتها سياق مكّي .

قوله تعالى : « إذا السماء انشقّت » شرط جزاؤه محذوف يدلّ عليه قوله : « يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه » و التقدير : لاقى الإنسان ربّه فحاسبه و جازاه على ما عمل .

و انشقاق السماء و هو تصدّعه و انفراجه من أشراط الساعة كمدّ الأرض و سائر ماذكر في مواضع من كلامه تعالى من تكوير الشمس و اجتماع الشمس والقمر و انتثار الكواكب ونحوها .

قوله تعالى : «و أذنت لربّها وحقّت» الإذن الاستماع و منه الاُذن لجارحة السمع و هو مجاز عن الانقياد و الطاعة ، و « حقّت» أي جعلت حقيقة وجديرة بأن تسمع ، و المعنى و أطاعت و انقادت لربّها و كانت حقيقة وجديرة بأن تستمع و تطيع .

قوله تعالى : « و إذا الأرض مدّت » الظاهر أنّ المراد به اتّساع الأرض، و قد قال تعالى: « يوم تبدّل الأرض غير الأرض» إبراهيم : ٤٨ .

قوله تعالى : «وألقت مافيها وتخلّت» أي ألقت الأرض ما في جوفها من الموتى و بالغت في الخلوّ ممّا فيها منهم .

و قيل : المراد إلقاؤها الموتى والكنوز كما قال تعالى : « و أخرجت الأرض أثقالها» الزلزال : ٢ .

وقيل : المعنى ألقت ما في بطنها وتخلّت ممّا على ظهرها من الجبال والبحار ، و لعلّ أوّل الوجوه أقربها .

قوله تعالى : « و أذنت لربّها و حقّت » ضمائر التانيث للأرض كما أنّها في

نظيرتها المتقدّمة للسماء، و قد تقدّم معنى الآية .

قوله تعالى : « يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه » قال الراغب: الكدح السعي و العناء انتهى ففيه معنى السير، و قيل: الكدح جهدالنفس في العمل حتّى يؤثّرفيها انتهى وعلى هذا فهومضمّن معنى السير بدليل تعدّيه بإلى ففي الكدح معنى السير على أيّ حال.

وقوله : «فملاقيه»عطف على «كادح» و قد بيّن به أنّ غاية هذا السير والسعي و العناء هوالله سبحانه بما أنّه الربوبيّة أي إنّ الإنسان بما أنّه عبد مربوب و مملوك مدبّر ساع إلى الله سبحانه بما أنّه ربّه و مالكه المدبّر لأمره فإنّ العبد لايملك لنفسه إرادة و لا عملاً فعليه أن يريد ولايعمل إلّا ما أراده ربّه ومولاه وأمره به فهو مسؤل عن إرادته وعمله .

ومن هنا يظهر أوّلاً أنّ قوله : «إنّك كادح إلى ربّك» يتضمّن حجّة على المعاد لما عرفت أنّ الربوبيّة لاتتمّ إلّا مع عبوديّة ولا تتمّ العبوديّة إلّا مع مسؤليّة ولاتتمّ مسؤليّة إلّا برجوع و حساب على الأعمال ولايتمّ حساب إلّا بجزاء .

و ثانيا أنّ المراد بملاقاته انتهاؤه إلى حيث لاحكم إلّاحكمه من غير أن يحجبه عن ربّه حاجب .

و ثالثا أنّ المخاطب في الآية هو الإنسان بما أنّه إنسان فالمراد به الجنس و ذلك أنّ الربوبيّة عامّة لكلّ إنسان .

قوله تعالى : «فأمّامن اُوتي كتابه بيمينه» تفصيل مترتّب على ما يلوّح إليه قوله : « إنّك كادح إلى ربّك » أنّ هناك رجوعاً و سؤالاً عن الأعمال و حساباً ، و المراد بالكتاب صحيفة الأعمال بقرينة ذكر الحساب ، وقدتقدّم الكلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين في سورتي الإسراء و الحاقّة .

قوله تعالى : « فسوف يحاسب حساباً يسيراً » الحساب اليسير ماسوهل فيه و خلا عن المناقشة .

قوله تعالى : « و ينقلب إلى أهله مسروراً » المراد بالأهل من أعدّه الله له في

الجنّة من الحور و الغلمان و غيرهم و هذا هوالّذي يفيده السياق ، وقيل : المراد به عشيرته المؤمنون ممّن يدخل الجنّة ، و قيل المراد فريق المؤمنين و إن لم يكونوا من عشيرته فالمؤمنون إخوة . والوجهان لايخلوان من بعد .

قوله تعالى : «و أمّا من اُوتي كتابه وراء ظهره» الظرف منصوب بنزع الخافض و التقدير من وراء ظهره ، ولعلّهم إنّما يؤتون كتبهم من وراءِ ظهورهم لردّ وجوههم على أدبارهم كما قال تعالى : « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها » النساء : ٤٧ .

ولامنافاة بين إيتاء كتابهم من وراء ظهورهم و بين إيتائهم بشمالهم كما وقع في قوله تعالى : « و أمّا من اُوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم اُوت كتابيه » الحاقّة: ٢٧ . و سيأتي في البحث الروائيّ التالي ما ورد في الروايات من معنى إيتاء الكتاب من وراءِ ظهورهم .

قوله تعالى : « فسوف يدعو ثبوراً » الثبور كالويل الهلاك و دعاؤهم الثبور قولهم : وا ثبوراه .

قوله تعالى : «و يصلى سعيراً » أي يدخل ناراً مؤجّجة لا يوصف عذابها ،أو يقاسي حرّها .

قوله تعالى : « إنّه كان في أهله مسروراً » يسرّه ما يناله من متاع الدنيا و تنجذب نفسه إلى زينتها و ينسيه ذلك أمر الآخرة و قد ذمّ تعالى فرح الإنسان بما يناله من خير الدنيا و سمّاه فرحاً بغير حقّ قال تعالى بعدذكر النار و عذابها : «ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تمرحون» المؤمن : ٧٥ .

قوله تعالى : «إنّه ظنّ أن لن يحور» أي لن يرجع والمراد الرجوع إلى ربّه للحساب والجزاء ، ولا سبب يوجبه عليهم إلاّ التوغّل في الذنوب والآثام الصارفة عن الآخرة الداعية إلى استبعاد البعث .

قوله تعالى : «بلى إنّ ربّه كان به بصيراً» ردّ لظنّه أي ليس الأمر كما ظنّه بل يحور و يرجع ، و قوله : « إنّ ربّه كان به بصيراً» تعليل للردّ المذكور فإنّ الله

سبحانه كان ربّه المالك له المدبّر لأمره و كان يحيط به علماً و يرى ما كان من أعماله و قد كلّفه بماكلّف و لأعماله جزاء خيراً أو شرّاً فلابدّ أن يرجع إليه ويجزى بما يستحقّه بعمله .

و بذلك يظهر أنّ قوله : «إنّ ربّه كان به بصيراً» من إعطاء الحجّة على وجوب المعاد نظير ما تقدّم في قوله : «إنّك كادح إلى ربّك» الآية .

و يظهر أيضاً من مجموع هذه الآيات التسع أنّ إيتاء الكتب و نشر الصحف قبل الحساب كما يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى : «و كلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه و نخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» أسرى : ١٤ .

ثمّ الآيات كما ترى تخصّ إيتاء الكتاب من وراء الظهر بالكفّار فيقع الكلام في عصاة المؤمنين من أصحاب الكبائر ممّن يدخل النار فيمكث فيها برهة ثمّ يخرج منها بالشفاعة على ما في الأخبار من طرق الفريقين فهؤلاء لايؤتون كتابهم من وراء ظهورهم لاختصاص ذلك بالكفّار و لا بيمينهم لظهور الآيات في أنّ أصحاب اليمين يحاسبون حساباً يسيراً و يدخلون الجنّة ، ولاسبيل إلى القول بأنّهم لايؤتون كتاباً لمكان قوله تعالى : « و كلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه » الآية المفيد للعموم .

و قد تخلّص بعضهم عن الإشكال بأنّهم يؤتون كتابهم باليمين بعد الخروج من النار .

و فيه أنّ ظاهر الآيات إن لم يكن صريحها أنّ دخول النار أو الجنّة فرع مترتّب على القضاء المترتّب على الحساب المترتّب على إيتاء الكتب و نشر الصحف فلا معنى لإيتاء الكتاب بعد الخروج من النار .

واحتمل بعضهم أن يؤتوا كتابهم بشمالهم ويكون الإيتاء من وراء الظهر مخصوصاً بالكفّار كما تفيده الآيات .

وفيه أنّ الآيات الّتي تذكر إيتاء الكتاب بالشمال ـ وهي الّتي في سورة الواقعة و الحاقّة وفي معناها ما في سورة الإسراء أيضاً ـ تخصّ إيتاء الكتاب بالشمال بالكفّار

و يظهر من مجموع الآيات أنّ الّذين يؤتون كتابهم بشمالهم هم الّذين يؤتونه من وراء ظهورهم .

و قال بعضهم من الممكن أن يؤتوا كتابهم من وراء ظهورهم و يكون قوله : «فسوف يحاسب حساباً يسيراً» من قبيل وصف الكلّ بصفة بعض أجزائه .

و فيه أنّ المقام لايساعد على هذا التجوّز فإنّ المقام مقام تمييز السعداء من الأشقياء و تشخيص كلّ بجزائه الخاصّ به فلا مجوّز لإدغام جمع من أهل العذاب في أهل الجنّة .

على أنّ قوله : « فسوف يحاسب » الخ وعد جميل إلهيّ و لامعنى لشموله لغير مستحقّيه ولو بظاهر من القول .

نعم يمكن أن يقال : إنّ اليسر و العسر معنيان إضافيّان و حساب العصاةمن أهل الإيمان يسير بالإضافة إلى حساب الكفّار المخلّدين في النار و لو كان عسيراً بالإضافة إلى حساب المتّقين .

و يمكن أيضاً أن يقال إنّ قسمة أهل الجمع إلى أصحاب اليمين و أصحاب الشمال غير حاصرة كما يدلّ عليه قوله تعالى : « وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ماأصحاب المشأمة والسابقون السابقون اُولئك المقرّبون » الواقعة : ١١ فمدلول الآيات خروج المقرّبين من الفريقين ، و مثلهم المستضعفون كما ربّما يستفاد من قوله تعالى : « و آخرون مرجون لأمر الله إمّا يعذّبهم و إمّا يتوب عليهم » التوبة : ١٠٦ .

فمن الجائز أن لايكون تقسيم أهل الجمع إلى أصحاب اليمين و أصحاب الشمال تقسيماً حاصراً لجميعهم بل تخصيصاً لأهل الجنّة من المتّقين و أهل الخلود في النار بالذكر بتوصيفهم بايتاء الكتاب باليمين و بالشمال لمكان الدعوة إلى الإيمان و التقوى ونظير ذلك مافي سورة المرسلات من ذكر يوم الفصل ثمّ بيان حال المتقين والمكذّبين فحسب و ليس ينحصر الناس في القبيلين ،ونظيره مافي سورة النبا والنازعات وعبس والانفطار ، والمطففين وغيرها فالغرض فيها ذكراُ نموذج من أهل الايمان والطاعة وأهل الكفر

والتكذيب والسكوت عمّن سواهم ليتذكّر أنّ السعادة في جانب التقوى والشفاء في جانب التمرّد والطغوى .

قوله تعالى : « فلا اُقسم بالشفق » الشفق الحمرة ثمّ الصفرة ثمّ البياض الّتي تحدث بالمغرب أوّل الليل .

قوله تعالى : « والليل وما وسق » أي ضمّ وجمع ما تفرّق و انتشر في النهار من الإنسان والحيوان فإنّها تتفرّق و تنتشر بالطبع في النهار وترجع إلى مأواها في الليل فتسكن .

وفسّر بعضهم « وسق » بمعنى طرد أي طرد الكواكب من الخفاء إلى الظهور .

قوله تعالى : « والقمر إذا اتّسق » أي اجتمع وانضمّ بعض نوره إلى بعض فاكتمل نوره و تبدّر .

قوله تعالى : « لتركبنّ طبقاً عن طبق » جواب القسم والخطاب للناس والطبق هو الشيء أو الحال الّذي يطابق آخر سواء كان أحدهما فوق الآخر أم لا والمراد به كيف كان المرحلة بعد المرحلة يقطعها الإنسان في كدحه إلى ربّه من الحياة الدنيا ثمّ الموت ثمّ الحياة البرزخيّة ثمّ الانتقال إلى الآخرة ثمّ الحياة الآخرة ثمّ الحساب والجزاء .

وفي هذا الإقسام ـ كما ترى ـ تأكيد لما في قوله : « يا أيّها الإنسان إنّك كادح » الآية وما بعده من نباء البعث وتوطئة وتمهيد لما في قوله : « فما لهم لا يؤمنون » من التعجيب والتوبيخ وما في قوله : « فبشّرهم بعذاب » الخ من الإنذار والتبشير .

وفي الآية إشارة إلى أنّ المراحل الّتي يقطعها الإنسان في مسيره إلى ربّه مترتّبة متطابقة .

قوله تعالى : « فمالهم لايؤمنون و إذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون » استفهام للتعجيب والتوبيخ ولذا ناسب الالتفات الّذي فيه من الخطاب إلى الغيبة كأنّه لمّا رآى أنّهم لايتذكّرون بتذكيره ولايتّعظون بعظته أعرض عنهم إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله فخاطبه بقوله : « فمالهم لايؤمنون » الخ .

قوله تعالى : « بل الّذين كفروا يكذّبون والله أعلم بما يوعون » «يكذّبون» يفيد الاستمرار ، والتعبير عنهم بالّذين كفروا للدلالة على علّة التكذيب ، والايعاء كما قيل جعل الشيء في وعاء .

والمعنى أنّهم لم يتركوا الإيمان لقصور في البيان أو لانقطاع من البرهان لكنّهم اتّبعوا أسلافهم و رؤساءهم فرسخوا في الكفر واستمرّوا على التكذيب والله يعلم بما جمعوا في صدورهم وأضمروا في قلوبهم من الكفر والشرك .

وقيل : المراد بقوله : « والله أعلم بما يوعون » أنّ لهم وراء التكذيب مضمرات في قلوبهم لا يحيط بها العبارة ولا يعلمها إلّا الله ، وهو بعيد من السياق .

قوله تعالى : « فبشّرهم بعذاب أليم » التعبير عن الاخبار بالعذاب بالتبشير مبنيّ على التهكّم ، والجملة متفرّعة على التكذيب .

قوله تعالى : « إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » استثناء منقطع من ضمير « فبشّرهم » والمراد بكون أجرهم غير ممنون خلوّه من قول يثقل على المأجور .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « إذا السماء انشقّت » قال : يوم القيامة .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن عليّ قال تنشقّ السماء من المجرّة .

وفي تفسير القميّ في قوله : « وإذا الأرض مدّت وألقت ما فيها وتخلّت » قال: تمدّ الأرض فتنشقّ فيخرج الناس منها .

وفي الدرّ المنثور أخرج الحاكم بسند جيّد عن جابر عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : تمدّ الأرض يوم القيامة مدّ الأديم ثمّ لا يكون لابن آدم منها إلّا موضع قدميه .

وفي الاحتجاج عن عليّ عليه السلام في حديث قال والناس يومئذ على صفات ومنازل فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً و ينقلب إلى أهله مسروراً ، ومنهم الّذين يدخلون الجنّة بغير حساب لأنّهم لم يتلبسوا من أمر الدنيا بشيء وإنّما الحساب هناك على من

يلبس بها ههنا ، ومنهم من يحاسب على النقير و القطمير ويصير إلى عذاب السعير .

وفي المعاني بإسناده عن ابن سنان عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلّ محاسب معذّب فقال له قائل : يا رسول الله فأين قول الله عزّ وجلّ : « فسوف يحاسب حساباً يسيراً » قال : ذلك العرض يعني التصفّح .

اقول : وروى في الدرّ المنثور عن البخاريّ ومسلم والترمذيّ و غيرهم عن عائشة مثله .

وفي تفسير القميّ وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « فأمّا من اُوتي كتابه بيمينه » فهو أبو سلمة عبدالله بن عبدالأسود بن هلال المخزوميّ وهو من بني مخزوم ، « وأمّا من اُوتي كتابه وراء ظهره » فهو أخوه الأسود بن عبدالأسود المخزوميّ فقتله حمزة بن عبدالمطّلب يوم بدر .

وفي المجمع في قوله تعالى : « لتركبنّ طبقاً عن طبق » وقيل : معناه شدّة بعد شدّة حياة ثمّ موت ثمّ بعث ثمّ جزاء ، وروي ذلك مرفوعاً .

وعن جوامع الجامع في الآية وعن أبي عبيدة : لتركبنّ سنن من كان قبلكم من الأوّلين وأحوالهم وروي ذلك عن الصادق عليه السلام .



﴿ سورة البروج مكيّة وهي اثنتان وعشرون آية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم والسماء ذات البروج (١) واليوم الموعود (٢) وشاهد ومشهود (٣) قتل أصحاب الأخدود (٤) النار ذات الوقود (٥) اذ هم عليها قعود (٦) وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود (٧) وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (٨) الذى له ملك السموات والارض والله على كل شيء شهيد (٩) ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق (١٠) ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الانهار ذلك الفوز الكبير (١١) ان بطش ربك لشديد (١٢) انه هو يبدىء ويعيد (١٣) وهو الغفور الودود (١٤) ذوالعرش المجيد (١٥) فعال لما يريد (١٦) هل اتيك حديث الجنود (١٧) فرعون وثمود (١٨) بل الذين كفروا فى تكذيب (١٩) والله من ورائهم محيط (٢٠) بل هو قرآن مجيد (٢١) فى لوح محفوظ (٢٢) .

﴿ بيان ﴾

سورة إنذار وتبشير فيها وعيد شديد للّذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات لإيمانهم بالله كما كان المشركون من أهل مكّة يفعلون ذلك بالذين آمنوا بالنبي صلّى الله عليه وآله فيعذّبونهم ليرجعوا إلى شركهم السابق فمنهم من كان يصبر ولا يرجع بلغ الأمر ما بلغ، ومنهم من رجع وارتدّ وهم ضعفاء الايمان كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «ومن الناس من يقول آمنّا بالله فإذا اُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله» العنكبوت: ١٠، وقوله: «ومن الناس من يعبدالله على حرف فإن أصابه خير اطمأنّ به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه» الحجّ: ١١.

وقد قدّم سبحانه على ذلك الإشارة إلى قصّة أصحاب الاُخدود، وفيه تحريض المؤمنين على الصبر في جنب الله تعالى، وأتبعها بالإشارة إلى حديث الجنود فرعون وثمود وفيه تطييب لنفس النبيّ صلّى الله عليه وآله بوعد النصر وتهديد للمشركين.

والسورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: «والسماء ذات البروج» البروج جمع برج وهو الأمر الظاهر ويغلب استعماله في القصر العالي لظهوره على الناظرين ويسمّى البناء المعمول على سور البلد للدفاع برجاً وهو المراد في الآية لقوله تعالى: «ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيّنّاها للناظرين وحفظناها من كلّ شيطان رجيم» الحجر: ١٧، فالمراد بالبروج مواضع الكواكب من السماء.

وبذلك يظهر أنّ تفسير البروج بالبروج الاثنى عشر المصطلح عليها في علم النجوم غير سديد.

وفي الآية إقسام بالسماء المحفوظة بالبروج، ولا يخفى مناسبته لما سيشار إليه من القصّة ثمّ الوعيد والوعد وسنشير إليه.

قوله تعالى: «واليوم الموعود» عطف على السماء و إقسام باليوم الموعود وهو يوم القيامة الّذي وعدالله القضاء فيه بين عباده.

قوله تعالى : «وشاهدومشهود» معطوفان على السماء والجميع قسم بعد قسم على ما اُريد بيانه في السورة وهو ـ كما تقدّمت الإشارة إليه ـ الوعيد الشديد لمن يفتن المؤمنين والمؤمنات لإيمانهم والوعد الجميل لمن آمن وعمل صالحاً .

فكأنّه قيل : اُقسم بالسماء ذات البروج الّتي يدفع الله بها عنها الشياطين إنّ الله يدفع عن إيمان المؤمنين كيد الشياطين وأوليائهم من الكافرين ، واُقسم باليوم الموعود الّذي يجزى فيه الناس بأعمالهم ، واُقسم بشاهد يشهد ويعاين أعمال اُولئك الكفّار وما يفعلونه بالمؤمنين لإيمانهم بالله واُقسم بمشهود سيشهده الكلّ ويعاينونه إنّ الّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، إلى آخر الآيتين .

ومن هنا يظهر أنّ الشهادة في «شاهد» و « مشهود » بمعنى واحد وهو المعاينة بالحضور،على أنّها لو كانت بمعنى تأدية الشهادة لكان حقّ التعبير«ومشهود عليه»لأنّها بهذا المعنى إنّما تتعدّى بعلى .

وعلى هذا يقبل «شاهد» الانطباق على النبيّ صلى الله عليه وآله لشهادته أعمال اُمّته ثمّ يشهد عليها يوم القيامة ، ويقبل «مشهود» الانطباق على تعذيب الكفّار لهؤلاء المؤمنين وما فعلوابهم من الفتنة وإن شئت فقل : على جزائه وإن شئت فقل : على ما يقع يوم القيامة من العقاب والثواب لهؤلاء الظالمين والمظلومين ، وتنكير «مشهود» و«شاهد» على أيّ حال للتفخيم .

ولهم في تفسير شاهد ومشهود أقاويل كثيرة أنهاها بعضهم إلى ثلاثين كقول بعضهم إنّ الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة ، والقول بأنّ الشاهد يوم النحر والمشهود يوم عرفة ، والقول بأنّ الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم القيامة ، والقول بأنّ الشاهد الملك يشهد على بني آدم والمشهود يوم القيامة ، والقول بأنّ الشاهد الّذين يشهدون على الناس والمشهود الّذين يشهد عليهم .

والقول بأنّ الشاهد هذه الاُمّة والمشهود سائر الاُمم ، والقول بأنّ الشاهد أعضاء بني آدم والمشهود أنفسهم والقول بأنّ الشاهد الحجر الأسود والمشهود الحاجّ والقول بأنّ الشاهد الأيّام واللّيالي والمشهود بنو آدم ، والقول بأنّ الشاهد الأنبياء والمشهود

محمد صلى الله عليه وآله ، والقول بأنّ الشاهد هوالله والمشهود لا إله إلّا الله .

والقول بأنّ الشاهد الخلق والمشهودالحقّ ، والقول بأنّ الشاهد هوالله والمشهود يوم القيامة ، والقول بأنّ الشاهد آدم وذرّيّته والمشهود يوم القيامة ، والقول بأنّ الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة ، والقول بأنّها يوم الاثنين ويوم الجمعة ، والقول بأنّ الشاهد المقرّبون والمشهود علّيّون ، والقول بأنّ الشاهد هوالطفل الّذي قال لاُمّه في قصّة الاُخدود : اصبري فانّك على الحقّ والمشهود الواقعة ، والقول بأنّ الشاهد الملائكة المتعاقبون لكتابة الأعمال والمشهود قرآن الفجر إلى غير ذلك من أقوالهم .

وأكثر هذه الأقوال ـ كما ترى ـ مبنيّ على أخذ الشهادة بمعنى أداء ماحمّل من الشهادة ، وبعضها على التفريق بين الشاهد والمشهود في معنى الشهادة وقد عرفت ضعفه ، وأنّ الأنسب للسياق أخذها بمعنى المعاينة وإن استلزم الشهادة بمعنى الأداء يوم القيامة ، وأنّ الشاهد يقبل الانطباق على النبيّ صلى الله عليه وآله .

كيف لا ؟ وقد سمّاه الله تعالى شاهداً إذقال : «يا أيّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً» الأحزاب : ٤٥ ، وسمّاه شهيداً إذقال : «ليكون الرسول شهيداً عليكم» الحجّ ٧٨ ، وقد عرفت معنى شهادة الأعمال من شهدائها فيما مرّ .

ثمّ إنّ جواب القسم محذوف يدلّ عليه قوله : « إنّ الّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات» إلى تمام آيتين ، ويشعر به أيضاً قوله : «قتل أصحاب الاُخدود» الخ وهو وعيد الفاتنين ووعد المؤمنين الصالحين وأنّ الله يوفّقهم على الصبر ويؤيّدهم على حفظ إيمانهم من كيد الكائدين إن أخلصوا كما فعل بالمؤمنين في قصّة الاُخدود .

قوله تعالى : « قتل أصحاب الاُخدود » إشارة إلى قصّة الاُخدود لتكون توطئة وتمهيداً لما سيجيىء من قوله : « إنّ الّذين فتنوا » الخ وليس جواباً للقسم البتّة .

والاُخدود الشقّ العظيم في الأرض ، وأصحاب الاُخدود هم الجبابرة الّذين خدّوا اُخدوداً و أضرموا فيها النار وأمروا المؤمنين بدخولها فأحرقوهم عن آخرهم

نقماً منهم لإيمانهم .

فقوله : «قتل» الخ دعاء عليهم والمراد بالقتل اللعن والطرد .

وقيل : المراد بأصحاب الاُخدود المؤمنون والمؤمنات الّذين اُحرقوا فيه ، و قوله : « قتل » إخبار عن قتلهم بالإحراق و ليس من الدعاء في شيء . و يضعّفه ظهور رجوع الضمائر في قوله : « إذهم عليها» و «هم على مايفعلون» و «ما نقموا » إلى أصحاب الاُخدود ، والمراد بها وخاصّة بالثاني والثالث الجبابرة الناقمون دون المؤمنين المعذّبين .

قوله تعالى : «النار ذات الوقود» بدل من الاُخدود ، والوقود مايشعل به النار من حطب وغيره ، وفي توصيف النار بذات الوقود إشارة إلى عظمة أمر هذه النار وشدّة اشتعالها وأجيجها .

قوله تعالى : «إذهم عليها قعود» أي في حال اُولئك الجبابرة قاعدون في أطراف النار المشرفة عليها .

قوله تعالى : «وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود» أي حضور ينظرون ويشاهدون إحراقهم واحتراقهم .

قوله تعالى : « وما نقموا منهم إلّا أن يؤمنوا بالله » النقم بفتحتين الكراهة الشديدة أي ما كرهوا من اُولئك المؤمنين إلاّ إيمانهم بالله فأحرقوهم لأجل إيمانهم .

قوله تعالى : «العزيز الحميد الّذي له ملك السماوات والأرض والله على كلّ شيء شهيد» أوصاف جارية على اسم الجلالة تشير إلى الحجّة على أنّ اُولئك المؤمنين كانوا على الحقّ في إيمانهم مظلومين فيما فعل بهم لايخفى حالهم على الله وسيجزيهم خير الجزاء ، وعلى أنّ اُولئك الجبابرة كانوا على الباطل مجترين على الله ظالمين فيما فعلوا وسيذوقون وبال أمرهم .

وذلك أنّه تعالى هو الله العزيز الحميد أي الغالب غير المغلوب على الإطلاق والجميل في فعله على الاطلاق فله وحده كلّ الجلال والجمال فمن الواجب أن يخضع

له وأن لايتعرّض لجانبه ، وإذكان لهملك السماوات والأرض فهوالمليك على الاطلاق له الأمر وله الحكم فهو ربّ العالمين فمن الواجب أن يتّخذ إلهاً معبوداً ولايشرك به أحد فالمؤمنون به على الحقّ والكافرون في ضلال .

ثمّ إنّ الله ـ وهو الموجد لكلّ شيء ـ على كلّ شيء شهيد لايخفى عليه شيء من خلقه ولاعمل من أعمال خلقه ولا يحتجب عنه إحسان محسن ولا إساءة مسيء فسيجزي كلاّ بماعمل .

وبالجملة إذ كان تعالى هو الله المتّصف بهذه الصفات الكريمة كان على هؤلاء المؤمنين أن يؤمنوا به و لم يكن لاُولئك الجبابرة أن يتعرّضوا لحالهم ولا أن يمسّوهم بسوء .

وقال بعض المفسّرين في توجيه إجراء الصفات في الآية : إنّ القوم إن كانوا مشركين فالّذي كانوا ينقمونه من المؤمنين وينكرونه عليهم لم يكن هوالإيمان بالله تعالى بل نفي ما سواه من معبوداتهم الباطلة ، وإن كانوا معطّلة فالمنكر عندهم ليس إلاّ إثبات معبودغيرمعهودلهم لكن لمّاكان مآل الأمرين إنكار المعبود الحقّ الموصوف بصفات الجلال والإكرام عبّر بما عبّر با جراء الصفات عليه تعالى .

وفيه غفلة عن أنّ المشركين وهم الوثنيّة ما كانوا ينسبون إلى الله تعالى إلّا الصنع والإيجاد . وأمّا الربوبيّةالّتي تستتبع التدبير والاُلوهيّة الّتي تستوجب العبادة فكانوا يقصرونهمافي أربابهم وآلهتهم فيعبدونها دون الله سبحانه ، فليس له تعالى عندهم إلاّ أنّه ربّ الأرباب وإله الآلهة لاغير .

قوله تعالى : « إنّ الّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثمّ لم يتوبوا فلهم عذاب جهنّم و لهم عذاب الحريق » الفتنة المحنة والتعذيب ، والّذين فتنوا الخ عامّ يشمل أصحاب الاُخدود و مشركي قريش الّذين كانوا يفتنون من آمن بالنبيّ صلى الله عليه وآله من المؤمنين والمؤمنات بأنواع من العذاب ليرجعوا عن دينهم .

قال في المجمع : يسأل فيقال : كيف فصّل بين عذاب جهنّم وعذاب الحريق وهما واحد ؟ اُجيب عن ذلك بأنّ المراد لهم أنواع العذاب في جهنّم سوى الإحراق

مثل الزّقّوم والغسلين والمقامع ولهم مع ذلك الإحراق بالنار انتهى .

قوله تعالى : «إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير» وعد جميل للمؤمنين يطيّب به نفوسهم كما أنّ ما قبله وعيد شديد للكفّار الفاتنين المعذّبين .

قوله تعالى : «إنّ بطش ربّك لشديد» الآية إلى تمام سبع آيات تحقيق و تأكيد لما تقدّم من الوعيد والوعد ، والبطش ـ كما ذكره الراغب ـ تناول الشيء بصولة .

وفي إضافة البطش إلى الربّ وإضافة الربّ إلى الكاف تطييب لنفس النبيّ صلّى الله عليه وآله بالتأييد والنصر ، وإشارة إلى أنّ لجبابرة اُمّته نصيباً من الوعيد المتقدّم .

قوله تعالى : «إنّه هو يبدىء ويعيد» المقابلة بين المبدىء والمعيد يعطي أنّ المراد بالإبداء البدء ، والافتتاح بالشيء قالوا : ولم يسمع من العرب الإبداء لكن القراءة ذلك وفي بعض القراءات الشاذّة يبدء بفتح الياء والدال .

وعلى أيّ حال فالآية تعليل لشدّة بطشه تعالى وذلك أنّه تعالى مبدىء يوجد ما يريده من شيء إيجاداً ابتدائياً من غير أن يستمدّ على ذلك من شيء غير نفسه ، وهو تعالى يعيد كلّ ما كان إلى ما كان وكلّ حال فاتته إلى ما كانت عليه قبل الفوت فهو تعالى لا يمتنع عليه ما أراد ولا يفوته فائت زائل وإذ كان كذلك فهو القادر على أن يحمل على العبد المتعدّي حدّه ، من العذاب ما هو فوق حدّه ووراء طاقته، ويحفظه على ما هو عليه ليذوق العذاب قال تعالى : «والّذين كفروا لهم نار جهنّم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفّف عنهم من عذابها» فاطر : ٣٦ .

و هو القادر على أن يعيد ما أفسده العذاب إلى حالته الاُولى ليذوق المجرم بذلك العذاب من غير انقطاع قال تعالى : «إنّ الّذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب» النساء : ٥٦ .

وبهذا البيان يتّضح :

أوّلاً أنّ سياق قوله : «إنّه هو» الخ يفيد القصر أي إنّ إبداع الوجود

وإعادته لله سبحانه وحده إذ الصنع والإيجاد ينتهي إليه تعالى وحده .

وثانيا أنّ حدود الأشياء إليه تعالى ولو شاء أن لا يحدّ لم يحدّ أو بدّل حدّاً من آخر فهو الّذي حدّ العذاب والفتنة في الدنيا بالموت والزوال ولو لم يشألم يحدّ كما في عذاب الآخرة .

وثالثا أنّ المراد من شدّة البطش ـ وهو الأخذ بعنف ـ أن لا دافع لأخذه ولارادّ لحكمه كيفما حكم إلّا أن يحول بين حكمه و متعلّقه حكمآخر منه يقيّد الأوّل .

قوله تعالى : « وهو الغفور الودود » أي كثير المغفرة والمودّة ناظر إلى وعد المؤمنين كما أنّ قوله : «إنّ بطش ربّك » الخ ناظر إلى وعيد الكافرين .

قوله تعالى : «ذوالعرش المجيدفعّالٌلمايريد» العرشعرش الملك ، وذوالعرش كناية عن الملك أي هو ملك له أن يتصرّف في مملكته كيفما تصرّف ويحكم بماشاء والمجيد صفة من المجد وهو العظمة المعنوية و هي كمال الذات والصفات ، وقوله : «فعّال لما يريد» أي لا يصرفه عمّا أراده صارف لامن داخل لضجروكسل وملل وتغيّر إرادة وغيرها ولامن خارج لمانع يحول بينه وبين ما أراد .

فله تعالى أن يوعد الّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ويعد الّذين آمنوا و عملوا الصالحات بالجنّة لأنّه ذوالعرش المجيد و لن يخلف وعده لأنّه فعّال لما يريد .

قوله تعالى : «هل أتاك حديث الجنودفرعون وثمود» تقرير لماتقدّم منشدّة بطشه تعالى وكونه ملكاً مجيداً فعّالاً لما يريد ، وفيه تسليةللنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و تطييب لنفسه الشريفة بالإشارة إلى حديثهم ، ومعنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى : «بل الّذين كفروا فيتكذيب» لايبعد أن يستفاد من السياقكون المراد بالّذين كفرواهم قومالنبيّ صلّى الله عليه وآله .

وفي الآية إضراب عمّا تقدّم من الموعظة والحجّة من حيث الأثر ، والمعنى لا ينبغي أن يرجى منهم الإيمان بهذه الآيات البيّنات فإنّ الّذين كفروا مصرّون على

تكذيبهم لاينتفعون بموعظة أو حجّة .

ومن هنا ظهر أنّ المراد بكون الّذين كفروا في تكذيب أي بظرفيّة التكذيب لهم إصرارهم عليه .

قوله تعالى : « والله من ورائهم محيط » وراء الشيء الجهات الخارجة منه المحيطة به . إشارة إلى أنّهم غير معجزين لله سبحانه فهو محيط بهم قادر عليهم من كلّ جهة ، وفيه أيضاً تطييب لنفس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم .

وعن بعضهم أنّ في قوله : « من ورائهم » تلويحاً إلى أنّهم اتّخذوا الله وراءهم ظهريّا ، وهو مبنيّ على أخذ وراء بمعنى خلف .

قوله تعالى : «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ» إضراب عن إصرارهم على تكذيب القرآن ، و المعنى ليس الأمر كما يدّعون بل القرآن كتاب مقروّ عظيم في معناه عزيز في معارفه في لوح محفوظ عن الكذب و الباطل مصون من مسّ الشياطين .

﴿بحث روائي﴾

في الدّر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبدالله أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن «السماء ذات البروج» فقال : الكواكب ، وسئل عن«الّذى جعل في السماء بروجاً» فقال : الكواكب . قيل : «فبروج مشيدة » فقال : قصور .

وفيه أخرج عبدبن حميد والترمذيّ وابن أبي الدنيا في الأصول وابن جرير و ابن المنذر و ابن حاتم وابن مردويه والبيهقيّ في سننه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة و الشاهد يوم الجمعة . الحديث .

اقول : وروى مثله بطرق اُخرى عن أبي مالك وسعيد بن المسيّب وجبير بن مطعم عنه صلى الله عليه وآله ، ولفظ الأخير : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة .

وروى هذا اللفظ عن عبد الرزّاق والفاريابيّ و عبدبن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب .

وفيه أخرج عبدبن حميد وابن المنذر عن عليّ قال : اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم النحر .

وفي المجمع وروي أنّ رجلاً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فإذا رجل يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال : فسألته عن الشاهد والمشهود فقال : نعم الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة ، فجزته إلى آخر يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فسألته عن ذلك فقال : أمّا الشاهد فيوم الجمعة وأمّا المشهود فيوم النحر .

فجزتهما إلى غلام كأنّ وجهه الدينار وهو يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت : أخبرني عن شاهد ومشهود فقال : نعم أمّا الشاهد فمحمّد وأمّا المشهود فيوم القيامة أما سمعت الله سبحانه يقول : «ياأيّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً و نذيراً» وقال : «ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود» .

فسألت عن الأوّل فقالوا : ابن عبّاس ، و سألت عن الثاني فقالوا : ابن عمر ، و سألت عن الثالث فقالوا : الحسن بن علي.

اقول : و الحديث مرويّ بطرق مختلفة و ألفاظ متقاربة و قد تقدّم في تفسير الآية أنّ ماذكره عليه السلام أظهر بالنظر إلى سياق الآيات،وإن كان لفظ الشاهد والمشهود لايأبى الانطباق على غيره أيضاً بوجه .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : «قتل أصحاب الاُخدود» قال : كان سببه أنّ الّذي هيّج الحبشة على غزوة اليمن ذو نواس وهو آخر من ملك من حمير تهوّد و اجتمعت معه حمير على اليهوديّة و سمّى نفسه يوسف وأقام على ذلك حيناً من الدهر .

ثمّ اُخبر أنّ بنجران بقايا قوم على دين النصرانيّة و كانوا على دين عيسى و حكم الإنجيل ، و رأس ذلك الدين عبدالله بن بريامن فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم و يحملهم على اليهوديّة و يدخلهم فيها فسار حتّى قدم نجران فجمع من كان

بها على دين النصرانيّة ثمّ عرض عليهم دين اليهوديّة و الدخول فيها فأبوا عليه فجادلهم وعرض عليهم وحرص الحرص كلّه فأبوا عليه وامتنعوا من اليهوديّة والدّخول فيها و اختاروا القتل .

فاتّخذ لهم اُخدوداً وجمع فيه الحطب و أشعل فيه النار فمنهم من اُحرق بالنار و منهم من قتل بالسيف ومثل بهم كلّ مثلة فبلغ عدد من قتل و اُحرق بالنار عشرين ألفاً وأفلت منهم رجل يدعى دوس ذو ثعلبان على فرس له ركضة ، واتّبعوه حتّى أعجزهم في الرمل ، و رجع ذو نواس إلى صنيعه في جنوده فقال الله: «قتل أصحاب الاُخدود ـ إلى قوله ـ العزيز الحميد».

و في المجمع و روى سعيد بن جبير قال : لمّا انهزم أهل إسفندهان قال عمر بن الخطّاب : ما هم يهود ولا نصارى ولا لهم كتاب وكانوا مجوساً فقال علي بن أبي طالب : بلى قد كان لهم كتاب رفع .

و ذلك أنّ ملكاً لهم سكر فوقع على ابنته ـ أو قال : على اُخته ـ فلما أفاق قال لها : كيف المخرج ممّا وقعت فيه ؟ قالت : تجمع أهل مملكتك و تخبرهم أنّك ترى نكاح البنات و تأمرهم أن يحلّوه فجمعهم فأخبرهم فأبوا أن يتابعوه فخدّ لهم اُخدوداً في الأرض ، و أوقد فيه النيران وعرضهم عليها فمن أبى قبول ذلك قذفه في النار ، و من أجاب خلّى سبيله .

اقول : و روى هذا المعنى في الدرّ المنثور عن عبد بن حميد عنه عليه‌السلام .

وعن تفسير العيّاشيّ باسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : أرسل عليّ عليه‌السلام إلى اُسقفّ نجران يسأله عن أصحاب الاُخدود فأخبره بشيء فقال عليه‌السلام : ليس كما ذكرت و لكن ساُخبرك عنهم :

إنّ الله بعث رجلاً حبشيّاً نبيّاً و هم حبشيّة فكذّبوه فقاتلهم فقتلوا أصحابه فأسروه و أسروا أصحابه ثمّ بنوا له حيراً ثمّ ملؤه ناراً ثمّ جمعوا الناس فقالوا : من كان على ديننا و أمرنا فليعتزل ، و من كان على دين هؤلاء فليرم نفسه في النار فجعل أصحابه يتهافتون في النار فجاءت امرأة معها صبيّ لها ابن شهر فلمّا هجمت هابت و

رقّت على ابنها فنادى الصبيّ: لاتهابي وارميني و نفسك في النار فإنّ هذا والله في الله قليل ، فرمت بنفسها في النار وصبيّها ، وكان ممّن تكلّم في المهد .

أقول : و روى هذا المعنى في الدر المنثور عن ابن مردويه عن عبدالله بن نجي عنه عليه‌السلام ، و روى أيضا عن ابن أبي حاتم من طريق عبدالله بن نجي عنه عليه‌السلام قال : كان نبيّ أصحاب الاُخدود حبشيّاً .

و روى أيضاً عن ابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق الحسن عنه عليه‌السلام في قوله تعالى : «أصحاب الاُخدود» قال : هم الحبشة .

ولايبعد أن يستفاد أنّ حديث أصحاب الاُخدود وقائع متعدّدة وقعت بالحبشة واليمن و العجم والإشارة في الآية إلى جميعها وهناك روايات تقصّ القصّة مع السكوت عن محلّ وقوعها .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ» قال: اللوح المحفوظ له طرفان طرف على يمين العرش على جبين إسرافيل فإذا تكلّم الربّ جلّ ذكره بالوحي ضرب اللّوح جبين إسرافيل فنظر في اللوح فيوحي بما في اللّوح إلى جبرئيل .

و في الدّر المنثور أخرج أبوالشيخ و ابن مردويه عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم خلق الله لوحاً من درّة بيضاء دفّتاه من زبرجدة خضراء كتابه من نور يلحظ إليه في كلّ يوم ثلاث مائة و ستّين لحظة يحيي و يميت و يخلق ويرزق و يعزّ و يذلّ و يفعل ما يشاء .

أقول : والروايات في صفة اللوح كثيرة مختلفة وهي على نوع من التمثيل .

﴿سورة الطارق مكّيّة وهي سبع عشرة آية﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَ السَّمَاءِ وَ الطَّارِقِ (١) وَ مَا أَدْرٰيكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) اِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْاِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ (٧) اِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَ الْاَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) اِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) اِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١٥) وَ أَكِيدُ كَيْداً (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (١٧).

﴿ بيان ﴾

في السورة إنذار بالمعاد و تستدلّ عليه بإطلاق القدرة و تؤكّد القول في ذلك، و فيها إشارة إلى حقيقة اليوم، وتختتم بوعيد الكفّار.

و السورة ذات سياق مكّي.

قوله تعالى: « والسماء و الطارق و ما أدراك ما الطارق النجم الثاقب» الطرق في الأصل ـ على ما قيل ـ هو الضرب بشدّة يسمع له صوت و منه المطرقة و الطريق لأنّ السابلة تطرقها بأقدامها ثمّ شاع استعماله في سلوك الطريق ثمّ اختصّ بالإتيان ليلا لأنّ الآتي بالليل في الغالب يجد الأبواب مغلقة فيطرقها ويدقّها ثمّ شاع الطارق

في كلّ ما يظهر ليلاً ، والمراد بالطارق في الآية النجم الّذي يطلع بالليل .

و الثقب في الأصل بمعنى الخرق ثمّ صار بمعنى النيّر المضيء لأنّه يثقب الظلام بنوره و يأتي بمعنى العلوّ و الارتفاع و منه ثقب الطائر أي ارتفع وعلا كأنّه يثقب الجوّ بطيرانه .

فقوله : « و السماء و الطارق » إقسام بالسماء و بالنجم الطالع ليلا ، و قوله : «وما أدراك ما الطارق» تفخيم لشأن المقسم به و هو الطارق ، وقوله : «النجم الثاقب» بيان للطارق و الجملة في معنى جواب استفهام مقدّر كأنّه لمّا قيل : و ما أدراك ما الطارق ؟ سئل فقيل : فما هو الطارق ؟ فاُجيب و قيل : النجم الثاقب .

قوله تعالى : « إن كلّ نفس لمّا عليها حافظ» جواب للقسم و لمّا بمعنى إلّا و المعنى ما من نفس إلّا عليها حافظ ، و المراد من قيام الحافظ على حفظها كتابة أعمالها الحسنة و السيّئة على ما صدرت منها ليحاسب عليها يوم القيامة و يجزى بها فالحافظ هو الملك والمحفوظ العمل كما قال تعالى : «و إنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون» الانفطار : ١٢ .

ولا يبعد أن يكون المراد من حفظ النفس حفظ ذاتها و أعمالها ، والمراد بالحافظ جنسه فتفيد أنّ النفوس محفوظة لا تبطل بالموت ولا تفسد حتّى إذا أحيا الله الأبدان أرجع النفوس إليها فكان الإنسان هو الإنسان الدنيويّ بعينه و شخصه ثمّ يجزيه بما يقتضيه أعماله المحفوظة عليه من خير أو شرّ .

و يؤيّد ذلك كثير من الآيات الدالّة على حفظ الأشياء كقوله تعالى : « قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم » الم السجدة : ١١ ، و قوله : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها و الّتي لم تمت في منامها فيمسك الّتي قضى عليها الموت » الزمر : ٤٢ .

و لا ينا في هذا الوجه ظاهر آية الانفطار السابقة من أنّ حفظ الملائكة هو الكتابة فإنّ حفظ نفس الإنسان أيضا من الكتابة على ما يستفاد من قوله : «إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون » الجاثية : ٢٩ و قد تقدّمت الإشارة إليه .

و يندفع بهذا الوجه الاعتراض على ما استدلّ به على المعاد من إطلاق القدرة كماسيجيء ومحصّله أنّ إطلاق القدرة إنّما ينفع فيما كان ممكنا لكن إعادةالإنسان بعينه محال فإنّ الإنسانالمخلوق ثانيا مثلالإنسان الدنيويّ المخلوق أوّلاً لاشخصه الّذي خلق أوّلاً و مثل الشيء غير الشيء لاعينه .

وجهالاندفاع أنّ شخصيّة الشخص من الإنسانبنفسهلاببدنه والنفس محفوظة فإذا خلق البدن و تعلّقت به النفس كانهو الإنسان الدنيويّ بشخصه وإن كان البدن بالقياس إلى البدن مع الغضّ عن النفس ، مثلاً لاعيناً.

قوله تعالى : «فلينظر الإنسان ممّ خلق» أي ما هو مبدء خلقه؟ و ماهوالّذي صيّره الله إنسانا ؟

و الجملة متفرّعة على الآية السابقة و ما تدلّ عليه بفحواها بحسب السياق و محصّل المعنى و إذ كانت كلّ نفس محفوظة بذاتها و عملها من غير أن تفنى أو ينسى عملها فليذعن الإنسان أن سيرجع إلى ربّه و يجزى بما عمل و لا يستبعد ذلك و لينظر لتحصيل هذا الإذعان إلى مبدء خلقه و يتذكّر أنّه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب .

فالّذي بدء خلقه من ماء هذه صفته يقدر على رجعه وإحيائه بعد الموت .

وفي الإتيانبقوله : «خلق» مبنيّاً للمفعول و ترك ذكر الفاعل و هوالله سبحانه إيماء إلى ظهور أمره ، و نظيره قوله : «خلق من ماء» الخ .

قوله تعالى : «خلق منماء دافق » الدفق تصبّب الماء و سيلانه بدفع و سرعة و الماء الدافق هو المنيّ و الجملة جواب عن استفهام مقدّر يهدي إليه قوله : « ممّ خلق » .

قوله تعالى : « يخرج من بين الصلب و الترائب » الصلب الظهر ، والترائب جمع تريبة وهي عظم الصدر .

و قد اختلفت كلماتهم في الآية و ما قبلها اختلافاً عجيبا ، و الظاهر أنّ المراد بقوله : «بين الصلب و الترائب » البعض المحصور من البدن بين جداري عظام الظهرو

عظام الصدر[1].

قوله تعالى : « إنّه على رجعه لقادر » الرجع الإعادة ، و ضمير « إنّه » له تعالى و اكتفي بالإضمار مع أنّ المقام مقام الإظهار لظهوره نظير قوله : « خلق » مبنيّاً للمفعول .

و المعنى أنّ الّذي خلق الإنسان من ماء صفته تلك الصفة ، على إعادته و إحيائه بعد الموت ـ و إعادته مثل بدئه ـ لقادر لأنّ القدرة على الشيء قدرة على مثله إذ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد .

قوله تعالى : « يوم تبلى السرائر » ظرف للرجع ، و السريرة ما أسرّه الإنسان وأخفاه في نفسه ، والبلاء الاختبار والتعرّف والتصفّح .

فالمعنى يوم يختبر ما أخفاه الإنسان وأسرّه من العقائد و آثار الأعمال خيرها وشرّها فيميّز خيرها من شرّها ويجزى الإنسان به فالآية في معنى قوله تعالى : « إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » البقرة : ٢٨٤ .

قوله تعالى : « فما له من قوّة ولا ناصر » أي لا قدرة له في نفسه يمتنع بها من عذاب الله ولا ناصر له يدفع عنه ذلك أي لا قدرة هناك يدفع عنه الشرّ لا من نفسه و لا من غيره .

قوله تعالى : « و السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع » إقسام بعد إقسام لتأكيد أمر القيامة و الرجوع إلى الله .

و المراد بكون السماء ذات رجع ما يظهر للحسّ من سيرها بطلوع الكواكب بعد غروبها و غروبها بعد طلوعها ، و قيل : رجعها إمطارها ، و المراد بكون الأرض ذات صدع تصدّعها و انشقاقها بالنبات ، ومناسبة القسمين لما اُقسم عليه من الرجوع بعد الموت والخروج من القبور ظاهرة .

قوله تعالى : « إنّه لقول فصل و ما هو بالهزل » الفصل إبانة أحد الشيئين من

---

[1] وقد أورد المراغى فى تفسيره فى ذيل الاية عن بعض الاطباء توجيها دقيقا علميا لهذه الاية من أراده فليراجعه .

الآخر حتّى يكون بينهما فرجة ، والتعبير بالفصل ـ والمراد الفاصل ـ للمبالغة كزيد عدل والهزل خلاف الجدّ .

و الآيتان جواب القسم ، و ضمير «إنّه» للقرآن و المعنى اُقسم بكذا و كذا إنّ القرآن لقول فاصل بين الحقّ و الباطل و ليس هو كلاماً لا جدّ فيه فما يُحقّه حقّ لاريب فيه و ما يبطله باطل لاريب فيه فما أخبركم به من البعث و الرجوع حقّ لاريب فيه .

و قيل : الضمير لماتقدّم من خبر الرجوع والمعاد ، والوجه السابق أوجه .

قوله تعالى : «إنّهم يكيدون كيداً و أكيد كيدا» أي الكفّار يحتالون بكفرهم و إنكارهم المعاد احتيالاً يريدون به إطفاء نور الله وإبطال دعوتك ، و أحتال عليهم بعين أعمالهم بالاستدراج والإملاء والإضلال بالطبع على قلوبهم وجعل الغشاوة على سمعهم وأبصارهم احتيالاً أسوقهم به إلى عذاب يوم القيامة .

قوله تعالى : «فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا» التمهيل والإمهال بمعنى واحد غير أنّ باب التفعيل يفيد التدريج والإفعال يفيد الدفعة ، و الرويد القليل.

و المعنى إذا كان منهم كيد و منّي كيد عليهم بعين ما يكيدون به و الله غالب على أمره،فانتظر بهم ولا تعاجلهم انتظر بهم قليلا فسيأتيهم ما اُوعدهم به فكلّ ما هو آت قريب .

و في التعبير أوّلا بمهّل الظاهر في التدريج و ثانيا مع التقييد برويداً بأمهل الظاهر في الدفعة لطف ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : «إن كلّ نفس لمّا عليها حافظ» قال : الملائكة.

و فيه في قوله تعالى : « خلق من ماء دافق » قال : النطفة الّتي تخرج بقوّة .

وفيه في قوله تعالى : «يخرج من بين الصلب والترائب» قال : الصلب الرجل

والترائب المرأة . وهو صدرها .

أقول : الرواية على إضمارها وإرسالها لاتخلو من شيء .

وفيه في قوله تعالى : «يوم تبلى السرائر» قال : يكشف عنها .

وفي المجمع روي مرفوعاً عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ضمن الله خلقه أربع خصال : الصلاة ، والزكاة ، وصوم شهر رمضان ، والغسل من الجنابة ، وهي السرائر الّتي قال الله تعالى : يوم تبلى السرائر .

أقول : ولعلّه من قبيل ذكر بعض المصاديق كما تؤيّده الرواية التالية .

وفيه عن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما هذه السرائر الّتي ابتلى الله بها العباد في الآخرة ؟ فقال : سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة وكلّ مفروض لأنّ الأعمال كلّها سرائر خفيّة فإن شاء الرجل قال : صلّيت ولم يصلّ و إن شاء قال : توضّيت ولم يتوضّ فذلك قوله : «يوم تبلى السرائر» .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « فما له من قوّة ولا ناصر » قال : ماله من قوّة يهوي بها على خالقه ، ولا ناصر من الله ينصره إن أراد به سوء .

وفيه في قوله تعالى : «والسماء ذات الرجع» قال : ذات المطر « والأرض ذات الصدع» أي ذات النبات .

وفي المجمع «إنّه لقول فصل» يعني أنّ القرآن يفصل بين الحقّ والباطل بالبيان عن كلّ واحد منهما ، وروي ذلك عن الصادق عليه السلام .

وفي الدّر المنثور أخرج ابن أبي شيبة والدارميّ والترمذيّ ومحمّد بن نصر وابن الأنباريّ في المصاحف عن الحارث الأعور قال : دخلت المسجد فإذا الناس قد وقعوا في الأحاديث فأتيت عليّاً فأخبرته فقال : أوقد فعلوها ؟

سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إنّها ستكون فتنة. قلت: فما المخرج منها يا رسول الله قال : كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، من ابتغى الهوى في غيره أضلّه الله ، وهو حبل الله

المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الّذي لاتزيغ به الأهواء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولاتلتبس منه الألسن ، ولا يخلق من الردّ ، ولاتنقضي عجائبه هو الّذي لم ينته الجنّ إذسمعته حتّى قالوا إنّا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد. من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به اُجر ، ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم .

أقول : وروى ما يقرب منه عن معاذ بن جبل عنه صلى الله عليه وآله ، ورواه مختصراً عن ابن مردويه عن علي عليه السلام .



﴿سورة الأعلى مكيّة وهي تسع عشرة آية﴾

بسم الله الرحمن الرحيم سبح اسم ربك الأعلى (١) الّذى خلق فسوى (٢) والّذى قدّر فهدى (٣) والّذى أخرج المرعى (٤) فجعله غثاء أحوى (٥) سنقرئك فلا تنسى (٦) الّا ماشاء الله انّه يعلم الجهر وما يخفى (٧) ونيسرك لليسرى (٨) فذكّر ان نفعت الذّكرى (٩) سيذّكّر من يخشى (١٠) ويتجنّبها الأشقى (١١) الّذى يصلى النّار الكبرى (١٢) ثمّ لايموت فيها ولا يحيى (١٣) قد أفلح من تزكّى (١٤) وذكر اسم ربّه فصلّى (١٥) بل تؤثرون الحيوة الدّنيا (١٦) والآخرة خير و أبقى (١٧) انّ هذا لفى الصّحف الأولى (١٨) صحف ابرهيم وموسى (١٩).

﴿ بيان ﴾

أمرٌ بتوحيده تعالى على مايليق بساحته المقدّسة وتنزيه ذاته المتعالية من أن يذكر مع اسمه اسم غيره أو يسند إلى غيره ما يجب أن يسند إليه كالخلق والتدبير والرزق و وعدله صلى الله عليه وآله وسلم بتأييده بالعلم و الحفظ و تمكينه من الطريقة الّتي هي أسهل وأيسر للتبليغ وأنسب للدعوة .

وسياق الآيات في صدر السورة سياق مكّيّ وأمّا ذيلها أعني قوله : «قد أفلح من تزكّى» الخ فقد وردمن طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام وكذا من طريق أهل السنّة

أنّ المراد به زكاة الفطرة و صلاة العيد و من المعلوم أنّ الصوم و ما يتبعه من زكاة الفطرة و صلاة العيد إنّما شرعت بالمدينة بعد الهجرة فتكون آيات الذيل نازلة بالمدينة .

فالسورة صدرها مكّيّ وذيلها مدنيّ ؛ ولاينافي ذلك ما جاء في الآثار أنّ السوره مكّيّة فإنّه لايأبى الحمل على صدر السورة .

قوله تعالى : «سبّح اسم ربّك الأعلى» أمر بتنزيه اسمه تعالى وتقديسه ، وإذ علّق التنزيه على الاسم ـ وظاهره اللفظ الدالّ على المسمّى ـ والاسم إنّما يقع في القول فتنزيهه أن لا يذكر معه ما هو تعالى منزّه عنه كذكر الآلهة والشركاء والشفعاء ونسبة الربوبيّة إليهم وكذكر بعض ما يختصّ به تعالى كالخلق والإيجاد والرزق والإحياء والإماتة ونحوها ونسبته إلى غيره تعالى أ وكذكر بعض ما لا يليق بساحة قدسه تعالى من الأفعال كالعجز والجهل والظلم والغفلة ومايشبهها من صفات النقص والشين ونسبته إليه تعالى .

و بالجملة تنزيه اسمه تعالى أن يجرّد القول عن ذكر مالا يناسب ذكره ذكر اسمه تعالى و هو تنزيهه تعالى في مرحلة القول الموافق لتنزيهه في مرحلة الفعل .

و هو يلازم التوحيد الكامل بنفي الشرك الجليّ كما في قوله : «و إذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الّذين لا يؤمنون بالآخرة و إذا ذكر الّذين من دونه إذا هم يستبشرون» الزمر : ٤٥ ، و قوله : «و إذا ذكرت ربّك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً» أسرى : ٤٦ .

و في إضافة الاسم إلى الربّ و الربّ إلى ضمير الخطاب تأييد لما قدّمناه فإنّ المعنى سبّح اسم ربّك الّذي اتّخذته ربّاً و أنت تدعو إلى أنّه الربّ الإله فلايقعنّ في كلامك مع ذكر اسمه بالربوبيّة ذكر من غيره بحيث ينافي تسميته بالربوبيّة على ما عرّف نفسه لك .

و قوله : «الأعلى» وهو الّذي يعلو كلّ عال و يقهر كلّ شيء صفة «ربّك» دون الاسم و يعلّل بمعناه الحكم أي سبّح اسمه لأنّه أعلى .

وقيل : معنى «سبّح اسم ربّك الأعلى» قل: سبحان ربّي الأعلى كما عن ابن عبّاس ونسب إليه أيضاً أنّ المعنى صلّ.

وقيل : المراد بالاسم المسمّى والمعنى نزّهه تعالى عن كلّ ما لا يليق بساحة قدسه من الصفات والأفعال.

و قيل : إنّه ذكر الاسم والمراد به تعظيم المسمّى و استشهد عليه بقول لبيد : «إلى الحول ثمّ اسم السلام عليكما» فالمعنى سبّح ربّك الأعلى.

و قيل : المراد تنزيه أسمائه تعالى عمّا لا يليق بأن لا يؤوّل ممّا ورد منها اسم من غير مقتض، ولا يبقي على ظاهره إذا كان ما وضع له لا يصحّ له تعالى، ولا يطلقه على غيره تعالى إذا كان مختصّاً كاسم الجلالة ولا يتلفّظ به في محلّ لا يناسبه كبيت الخلاء، وعلى هذا القياس.

وما قدّمناه من المعنى أوسع و أشمل و أنسب لسياق قوله الآتي « سنقرئك فلا تنسى» «و نيسّرك لليسرى فذكّر» فإنّ السياق سياق البعث إلى التذكرة والتبليغ فبدىء أوّلا بإصلاح كلامه صلى الله عليه وآله و تجريده عن كلّ ما يشعر بجليّ الشرك و خفيّه بأمره بتنزيه اسم ربّه، ووعد ثانياً بإقرائه بحيث لا ينسى شيأ ممّا اُوحي إليه و تسهيل طريقة التبليغ عليه ثمّ اُمر بالتذكير والتبليغ فافهم.

قوله تعالى : «الّذي خلق فسوّى» خلق الشيء جمع أجزائه، و تسويته جعلها متساوية بحيث يوضع كلّ في موضعه الّذي يليق به و يعطى حقّه كوضع كلّ عضو من أعضاء الإنسان فيما يناسبه من الموضع.

والخلق و التسوية و إن كانا مطلقين لكنّهما إنّما يشملان ما فيه تركيب أو شائبة تركيب من المخلوقات.

و الآية إلى تمام أربع آيات تصف التدبير الإلهيّ و هي برهان على ربوبيّته تعالى المطلقة.

قوله تعالى : « والّذي قدّر فهدى» أي جعل الأشياء الّتي خلقها على مقادير مخصوصة و حدود معيّنة في ذواتها و صفاتها وأفعالها لا تتعدّاها و جهّزها بما يناسب

ما قدّر لها فهداها إلى ما قدّر فكلّ يسلك نحوما قدّر له بهداية ربّانيّة تكوينيّة كالطفل يهتدي إلى ثدي اُمّه و الفرخ إلى زقّ اُمّه و أبيه ، و الذكر إلى الاُنثى و ذي النفع إلى نفعه وعلى هذا القياس .

قال تعالى : « و إن من شيء إلّا عندنا خزائنه و ما ننزّله إلّا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ ، و قال : « ثمّ السبيل يسّره » عبس : ٢٠ ، و قال : « لكلّ وجهة هو مولّيها» البقرة : ١٤٨ .

قوله تعالى : « والّذي أخرج المرعى» المرعى ما ترعاه الدوابّ فالله تعالى هو الّذي أخرجها أي أنبتها .

قوله تعالى : «فجعله غثاء أحوى» الغثاء ما يقذفه السيل على جانب الوادي من الحشيش و النبات ، و المراد هنا ـ كما قيل ـ اليابس من النبات ، و الأحوى الأسود .

و إخراج المرعى لتغذّي الحيوان ثمّ جعله غثاء أحوى من مصاديق التدبير الربوبيّ و دلائله كما أنّ الخلق والتسوية و التقدير و الهداية كذلك .

قوله تعالى : « سنقرئك فلا تنسى إلّا ما شاءالله إنّه يعلم الجهر و ما يخفى» قال في المفردات : و القراءة ضمّ الحروف و الكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل ، و ليس يقال ذلك لكلّ جمع لايقال: قرأت القوم إذا جمعتهم،ويدلّ على ذلك أنّه لا يقال للحرف الواحد إذا تفوّه به قراءة ، انتهى ، وقال في المجمع : و الإقراء أخذ القراءة على القاري بالاستماع لتقويم الزلل ، والقاري التالي . انتهى .

وليس إقراؤه تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله القرآن مثل إقراء بعضنا بعضاً باستماع المقري لما يقرؤه القاري و إصلاح مالا يحسنه أو يغلط فيه فلم يعهد من النبيّ صلى الله عليه وآله أن يقرء شيأ من القرآن فلا يحسنه أو يغلط فيه عن نسيان للوحي ثمّ يقرء فيصلح بل المراد تمكينه صلى الله عليه وآله من قراءة القرآن كما اُنزل من غير أن يغيّره بزيادة أو نقص أوتحريف بسبب النسيان .

فقوله : « سنقرئك فلا تنسى » وعدٌ منه لنبيّه صلى الله عليه وآله أن يمكّنه من العلم

بالقرآن و حفظه على ما اُنزل بحيث يرتفع عنه النسيان فيقرؤه كما اُنزل وهو الملاك في تبليغ الوحي كما اُوحي إليه .

و قوله : « إلّا ما شاء الله» استثناء مفيد لبقاء القدرة الإلهيّة على إطلاقها وأنّ هذه العطيّة و هي الإقراء بحيث لاتنسى لاينقطع عنه سبحانه بالإعطاء بحيث لايقدر بعد على إنسائك بل هو باق على إطلاق قدرته له أن يشاء إنساءك متى شاء و إن كان لايشاء ذلك فهو نظير الاستثناء الّذي في قوله : «وأمّا الّذين سعدوا ففي الجنّة خالدين فيها ما دامت السماوات و الأرض إلّا ما شاء ربّك عطاء غير مجذوذ » هود : ١٠٨ و قد تقدّم توضيحه .

و ليس المراد بالاستثناء إخراج بعض أفراد النسيان من عموم النفي و المعنى سنقرئك فلا تنسى شيأ إلّا ما شاء الله أن تنساه وذلك أنّ كلّ إنسان على هذه الحال يحفظ أشياء وينسى أشياء فلا معنى لاختصاصه بالنبيّ صلّى الله عليه وآله بلحن الامتنان مع كونه مشتركا بينه و بين غيره فالوجه ما قدّمناه .

والآية بسياقها لاتخلو من تأييد لما قيل : إنّه كان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إذا نزل عليه جبريل بالوحي يقرؤه مخافة أن ينساه فكان لا يفرغ جبريل من آخر الوحي حتّى يتكلّم هو بأوّله فلمّا نزلت هذه الآية لم ينس بعده شيأ .

ويقرب من الاعتبار أن تكون هذه الآية أعني قوله : «سنقرئك فلاتنسى» نازلة أوّلا ثمّ قوله : « لا تحرّك به لسانك لتعجل به إنّ علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه ثمّ إنّ علينا بيانه» القيامة : ١٩ ثمّ قوله : «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربّ زدني علماً» طه : ١١٤ .

وقوله : «إنّه يعلم الجهر وما يخفى» الجهر كمال ظهور الشيء لحاسّة البصر كقوله : «فقالوا أرنا الله جهرة» النساء : ١٥٣، أو لحاسّة السمع كقوله: «إنّه يعلم الجهر من القول» الأنبياء : ١١٠ ، والمراد بالجهر الظاهر للإدراك بقرينة مقابلته لقوله : «وما يخفى» من غير تقييده بسمع أو بصر .

والجملة في مقام التعليل لقوله : «سنقرئك فلاتنسى» والمعنى سنصلح لك بالك

في تلقّي الوحي وحفظه لأنّا نعلم ظاهر الأشياء وباطنها فنعلم ظاهر حالك و باطنها وما أنت عليه من الاهتمام بأمر الوحي والحرص على طاعته فيما أمر به .

وفي قوله : «إلاّ ماشاء الله إنّه يعلم» الخ التفات من التكلّم مع الغير إلى الغيبة والنكتة فيه الإشارة إلى حجّة الاستثناء فإفاضة العلم والحفظ للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إنّما لايسلب القدرة على خلافه ولا يحدّها منه تعالى لأنّه الله المستجمع لجميع صفات الكمال و منها القدرة المطلقة ثمّ جرى الالتفات في قوله : « إنّه يعلم » الخ لمثل النكتة .

قوله تعالى : «ونيسّرك لليسرى» اليسرى ـ مؤنّث أيسر ـ وهو وصف قائم مقام موصوفه المحذوف أي الطريقة اليسرى والتيسير التسهيل أي ونجعلك بحيث تتّخذ دائما أسهل الطرق للدعوة والتبليغ قولا وفعلا فتهدي قوما وتتمّ الحجّة على آخرين وتصبر على أذاهم .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ونيسّر لك اليسرى كما قال : «ويسّر لي أمري» طه : ٢٦ وإنّما عدل عن ذلك إلى قوله : و«نيسّرك لليسرى» لأنّ الكلام في تجهيزه تعالى نفس النبيّ الشريفة وجعله إيّاها صالحة لتأدية الرسالة ونشر الدعوة . على ما في نيسّر اليسرى من إيهام تحصيل الحاصل .

فالمراد جعله صلى الله عليه وآله وسلم صافي الفطرة حقيقاً على اختيار الطريقة اليسرى الّتي هي طريقة الفطرة فالآية في معنى قوله حكاية عن موسى : «حقيق على أن لا أقول على الله إلاّ الحقّ» الأعراف : ١٠٥ .

قوله تعالى : «فذكّر إن نفعت الذكرى» تفريع على ما تقدّم من أمره صلى الله عليه وآله وسلم بتنزيه اسم ربّه ووعده إقراء الوحي بحيث لاينسى و تيسيره لليسرى وهي الشرائط الضروريّة الّتي يتوقّف عليها نجاح الدعوة الدينيّة .

والمعنى إذ تمّ لك الأمر بامتثال ما أمرناك به وإقرائك فلاتنسى وتيسيرك لليسرى فذكّر إن نفعت الذكرى .

وقد اشترط في الأمر بالتذكرة أن تكون نافعة وهو شرط على حقيقته فإنّها إذا

لم تنفع كانت لغوا وهو تعالى يجلّ عن أن يأمر باللّغو فالتذكرة لمن يخشى لأوّل مرّة تفيد ميلاً من نفسه إلى الحقّ وهو نفعها وكذا التذكرة بعد التذكرة كما قال: « سيذكّر من يخشى » و التذكرة للأشقى الّذي لاخشية في قلبه لأوّل مرّة تفيد تمام الحجّة عليه وهو نفعها ويلازمها تجنّبه وتولّيه عن الحقّ كما قال: « ويتجنّبها الأشقى » ، والتذكرة بعد التذكرة له لاتنفع شيئًا ولذا اُمر بالإعراض عن ذلك قال تعالى: « فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا » النجم : ٢٩ .

وقيل: الشرط شرط صوريّ غيرحقيقيّ وإنّما هو إخبار عن أنّ الذكرى نافعة لامحالة في زيادة الطاعة والانتهاء عن المعصية كما يقال: سله إن نفع السؤال ولذاقال بعضهم «إنّ «إن» في الآية بمعنى قد ، وقال آخرون: إنّها بمعنى إذ .

وفيه أنّ كون الذكرى نافعة مفيدة دائما حتّى فيمن يعاند الحقّ ـ وقدتمّت عليه الحجّة ـ ممنوع كيف ؟ وقدقيل فيهم: «سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة» البقرة : ٧ .

وقيل: إنّ في الكلام إيجازاً بالحذف ، والتقدير فذكّر إن نفعت الذكرى و إن لم تنفع وذلك لأنّه صلى الله عليه وآله بعث للتذكرة والإعذار فعليه أن يذكّر نفع أولم ينفع فالآية من قبيل قوله: « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ » النحل : ٨١ أي والبرد .

وفيه أنّ وجوب التذكرة عليه صلى الله عليه وآله حتّى فيما لايترتّب عليها أثر أصلاً ممنوع .

وقيل: إنّ الشرط مسوق للإشارة إلى استبعاد النفع في تذكرة هؤلاء المذكورين نعياً عليهم كأنّه قيل: افعل ما اُمرت به لتوجر وإن لم ينتفعوا به .

وفيه أنّه يردّه قوله تعالى بعده بلافصل: «سيذّكّر من يخشى» .

قوله تعالى: «سيذّكّر من يخشى» أي سيتذكّر ويتّعظ بالقرآن من في قلبه شيء من خشية الله وخوف عقابه .

قوله تعالى: « ويتجنّبها الأشقى » الضمير للذكرى والمراد بالأشقى بقرينة

المقابلة من ليس في قلبه شيء من خشية الله تعالى ، وتجنّب الشيء التباعد عنه ، والمعنى وسيتباعد عن الذكرى من لا يخشى الله .

قوله تعالى : « الذي يصلى النار الكبرى » الظاهر أنّ المراد بالنار الكبرى نار جهنّم وهي نار كبرى بالقياس إلى نار الدنيا ، وقيل : المراد بها أسفل دركات جهنّم وهي أشدّها عذابا .

قوله تعالى : « ثمّ لا يموت فيها ولا يحيى » ثمّ للتراخي بحسب رتبة الكلام ، و المراد من نفي الموت والحياة عنه معاً نفي النجاة نفياً مؤبّداً فإنّ النجاة بمعنى انقطاع العذاب بأحد أمرين إمّا بالموت حتّى ينقطع عنه العذاب بانقطاع وجوده وإمّا يتبدّل صفة الحياة من الشقاء إلى السعادة ومن العذاب إلى الراحة فالمراد بالحياة في الآية الحياة الطيّبة على حدّ قولهم في الحرض : لا حيّ فيرجى ولا ميّت فينسى .

قوله تعالى : « قد أفلح من تزكّى وذكر اسم ربّه فصلّى » التزكّي هو التطهّر والمراد به التطهّر من ألواث التعلّقات الدنيويّة الصارفة عن الآخرة بدليل قوله بعد « بل تؤثرون الحياة الدنيا » الخ ، والرجوع إلى الله بالتوجّه إليه تطهّر من الإخلاد إلى الأرض ، والإنفاق في سبيل الله تطهّر من لوث التعلّق المالي حتّى أنّ وضوء الصلاة تمثيل للتطهّر عمّا كسبته الوجوه والأيدي والأقدام .

وقوله : « وذكر اسم ربّه فصلّى » الظاهر أنّ المراد بالذكر الذكر اللفظيّ ، وبالصلاة التوجّه الخاصّ المشروع في الإسلام .

والآيتان بحسب ظاهر مدلولهما على العموم لكن ورد في المأثور عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّهما نزلتا في زكاة الفطرة وصلاة العيد وكذا من طرق أهل السنّة .

قوله تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا » إضراب بالخطاب لعامّة الناس على ما يدعو إليه طبعهم البشريّ من التعلّق التامّ بالدنيا والاشتغال بتعميرها ، والإيثار الاختيار ، وقيل : الخطاب للكفّار ، والكلام على أيّ حال مسوق للعتاب والالتفات لتأكيده .

قوله تعالى : «والآخرة خير وأبقى» عدّ الآخرة أبقى بالنسبة إلى الدنيا مع أنّها باقية أبديّة في نفسها لأنّ المقام مقام الترجيح بين الدنيا والآخرة ويكفي في الترجيح مجرّد كون الآخرة خيراً وأبقى بالنسبة إلى الدنيا وإن قطع النظر عن كونها باقية أبديّة .

قوله تعالى : «إنّ هذا لفي الصحف الاُولى صحف إبراهيم وموسى» الإشارة بهذا إلى ما بيّن في قوله : «قد أفلح من تزكّى» إلى تمام أربع آيات ، وقيل : هذا إشارة إلى مضمون قوله : «والآخرة خير وأبقى» .

قيل : وفي إبهام الصحف ووصفها بالتقدّم أوّلاً ثمّ بيانها وتفسيرها بصحف إبراهيم وموسى ثانياً ما لا يخفى من تفخيم شأنها وتعظيم أمرها .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير العيّاشيّ عن عقبة بن عامر الجهنيّ قال : لمّا نزلت : «فسبّح باسم ربّك العظيم» قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اجعلوها في ركوعكم ، ولمّا نزل «سبّح اسم ربّك الأعلى» قال : اجعلوها في سجودكم .

أقول : ورواه أيضاً في الدرّ المنثور عن أحمد وأبي داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة عنه صلى الله عليه وآله .

وفي تفسير القمّيّ «سبّح اسم ربّك الأعلى» قال : قل : سبحان ربّي الأعلى «الّذي خلق فسوّى والّذي قدّر فهدى» قال : قدّر الأشياء بالتقدير الأوّل ثمّ هدى إليها من يشاء .

وفيه في قوله تعالى : «والّذي أخرج المرعى» قال : أي النبات . وفي قوله : «غثاء أحوى» قال : يصير هشيماً بعد بلوغه ويسودّ .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يستذكر القرآن مخافة أن ينساه فقيل له : كفيناك ذلك ونزلت : «سنقرئك فلا تنسى» .

وفي الفقيه وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : «قد أفلح من تزكّى» قال قال : من أخرج الفطرة قيل له : و«ذكر اسم ربّه فصلّى» قال : خرج إلى الجبانة (١) فصلّى .

أقول : ورووى هذا المعنى أيضاً عن حمّاد عن جرير عن أبي بصير وزرارة عنه عليه السلام ورواه القمّي في تفسيره مرسلاً مضمراً .

و في الدّر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدريّ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «قد أفلح من تزكّى وذكر اسم ربّه فصلّى» ثمّ يقسّم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلّى يوم الفطر .

أقول : وروى أيضا نزول الآيتين في زكاة الفطرة وصلاة العيد بطريقين عن أبي سعيد موقوفا ، وكذا بطريقين عن ابن عمر وبطريق عن نائلة بن الأصقع و بطريقين عن أبي العالية و بطريق عن عطاء و بطريق عن محمّد بن سيرين و بطريق عن إبراهيم النخعيّ وكذا عن عمرو بن عوف عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي الخصال عن عتبة بن عمرو الليثيّ عن أبي ذرّ في حديث قلت : يا رسول الله فما في الدنيا ممّا أنزل الله عليك شيء ممّا كان في صحف إبراهيم وموسى ؟ قال : يا باذرّ اقرء «قد أفلح من تزكّى وذكر اسم ربّه فصلّى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إنّ هذا لفي الصحف الاُولى صحف إبراهيم وموسى» .

أقول : يؤيّد الحديث كون الإشارة بهذا إلى مجموع الآيات الأربع كما تقدّم .

وفي البصائر بإسناده عن أبي بصير قال : قال أبوعبد الله عليه السلام : عندنا الصحف الّتي قال الله : «صحف إبراهيم وموسى» قلت : الصحف هي الألواح ؟ قال : نعم .

أقول : ورواه أيضاً بطريق آخر عن أبي بصير عنه عليه السلام والظاهر أنّ المراد بكون الصحف هي الألواح كونها هي التوراة المعبّر عنها في مواضع من القرآن بالألواح كقوله تعالى : «و كتبنا له في الالواح من كلّ شيء» الأعراف : ١٤٥ و قوله : «وألقى

(١) الجبانة الصحراء .

الألواح » الأعراف : ١٥٠ و قوله : « أخذ الألواح » الأعراف : ١٥٤ .

وفي المجمع روي عن أبي ذرّ أنّه قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف نبيّ وأربعة وعشرون ألفاً قلت : يا رسول الله كم المرسلون منهم ؟ قال : ثلاث مائة وثلاثة عشر وبقيّتهم أنبياء . قلت : كان آدم نبيّاً ؟ قال : نعم كلّمه الله وخلقه بيده .

يا باذرّ أربعة من الأنبياء عرب : هود و صالح و شعيب و نبيّك .

قلت : يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب ؟ قال : مائة و أربعة كتب اُنزل منها على آدم عشرة صحف ، و على شيث خمسين صحيفة ، و على اُخنوخ و هو إدريس ثلاثين صحيفة وهو أوّل من خطّ بالقلم وعلى إبراهيم عشر صحائف و التوراة والإنجيل و الزبور و الفرقان .

أقول : و روى ذلك في الدّر المنثور عن عبد بن حميد و ابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذرّ غير أنّه لم يذكر صحف آدم وذكر لموسى عشر صحف قبل التوراة.

﴿ سورة الغاشية مكيّة وهي ستّ و عشرون آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتٰيكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) .

﴿ بيان ﴾

سورة إنذار وتبشير تصف الغاشية وهي يوم القيامة الّذي يحيط بالناس تصفه بحال الناس فيه من حيث انقسامهم فريقين : السعداء والأشقياء واستقرارهم فيما اُعدّ لهم من الجنّة و النار وتنتهي إلى أمره صلّى الله عليه وآله أن يذكّر الناس بفنون من التدبير الربوبي

في العالم الدالّة على ربوبيّته تعالى لهم ورجوعهم إليه لحساب أعمالهم .

و السورة مكيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : «هل أتاك حديث الغاشية » استفهام بداعي التفخيم و الإعظام ، و المراد بالغاشية يوم القيامة سمّيت بذلك لأنّها تغشى الناس و تحيط بهم كما قال: « و حشرناهم فلم نغادر منهم أحداً» الكهف: ٤٧ ، أو لأنّها تغشى الناس بأهوالها بغتة كما قيل ، أو لأنّها تغشى وجوه الكفّار بالعذاب .

قوله تعالى : «وجوه يومئذ خاشعة» أي مذلّلة بالغمّ والعذاب يغشاها ،والخشوع إنّما هو لأرباب الوجوه و إنّما نسب إلى الوجوه لأنّ الخشوع و المذلّة يظهر فيها.

قوله تعالى : « عاملة ناصبة » النصب التعب و «عاملة» خبر بعد خبر لوجوه ، وكذا قوله : « ناصبة » و «تصلى» و «تسقى» و «ليس لهم» ، و المراد من عملها و نصبها بقرينة مقابلتهما في صفة أهل الجنّة الآتية بقوله : «لسعيها راضية» عملها في الدنيا و نصبها في الآخرة فإنّ الإنسان إنّما يعمل ما يعمل في الدنيا ليسعد به و يظفر بالمطلوب لكن عملهم حبط باطل لا ينفعهم شيأ كما قال تعالى : « و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا» الفرقان: ٢٣ فلا يعود إليهم من عملهم إلّا النصب و التعب بخلاف أهل الجنّة فإنّهم لسعيهم الّذي سعوه في الدنيا راضون لما ساقهم إلى الجنّة والراحة.

و قيل : المراد أنّها عاملة في النار ناصبة فيها فهي تعالج أنواع العذاب الّذي تعذّب به وتتعب لذلك .

و قيل : المراد أنّها عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار يوم القيامة .

قوله تعالى : «تصلى ناراً حامية» أي تلزم ناراً في نهاية الحرارة .

قوله تعالى : « تُسقى من عين آنية» أي حارّة بالغة في حرارتها .

قوله تعالى : «ليس لهم طعام إلّا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع» قيل: الضريع نوع من الشوك يقال له : الشبرق و أهل الحجاز يسمّونه الضريع إذا يبس و هو أخبث طعام و أبشعه لا ترعاه دابّة ، ولعلّ تسمية ما في النار به لمجرّد المشابهة شكلا و خاصّة .

قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناعمة » من النعومة فيكون كناية عن البهجة و السرور الظاهر على البشرة كما قال : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » المطفّفين : ٢٤ ، أو من النعمة أي متنعّمة . قيل: ولم يعطف على قوله : «وجوه يومئذ خاشعة » إشارة إلى كمال البينونة بين حالي الفريقين.

قوله تعالى : «لسعيها راضية» اللاّم للتقوية ، و المراد بالسعي سعيها في الدنيا بالعمل الصالح ، و المعنى رضيت سعيها و هو عملها الصالح حيث جوزيت به جزاءً حسنا .

قوله تعالى : « في جنّة عالية ـ إلى قوله ـ و زرابيّ مبثوثة » المراد بعلوّها ارتفاع درجاتها وشرفها و جلالتها وغزارة عيشها فإنّ فيها حياة لاموت معها ، ولذّة لا ألم يشوبها و سروراً لاغمّ و لاحزن يداخله لهم فيها فوق ما يشاؤن.

و قوله : «لاتسمع فيها لاغية » أي لا تسمع تلك الوجوه في الجنّة كلمة ساقطة لافائدة فيها .

وقوله :«فيها عين جارية» المراد بالعين جنسها فقد عدّ تعالى فيها عيوناً في كلامه كالسلسبيل و الشراب الطهور و غيرهما .

وقوله : «فيها سرر مرفوعة» السرر جمع سرير وفي ارتفاعها جلالة القاعدعليها، « و أكواب موضوعة» الأكواب جمع كوب وهو الإبريق لا خرطوم له ولا عروة يتّخذ فيه الشراب « و نمارق مصفوفة» النمارق جمع نمرقة و هي الوسادة و كونها مصفوفة وضعها في المجلس بحيث يتّصل بعضها ببعض على هيئة المجالس الفاخرة في الدنيا « و زرابيّ مبثوثة» الزرابيّ جمع زربية مثلّثة الزاي وهي البساط الفاخر و بثّها بسطها للقعود عليها .

قوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » بعد ما فرغ من وصف الغاشية و بيان حال الفريقين ، المؤمنين و الكفّار عقّبه بإشارة إجماليّة إلى التدبير الربوبيّ الّذي يفصح عن ربوبيّته تعالى المقتضية لوجوب عبادته و لازم ذلك حساب الأعمال و جزاء المؤمن بإيمانه و الكافر بكفره و الظرف الّذي فيه ذلك هو الغاشية .

و قد دعاهم أوّلاً أن ينظروا إلى الإبل كيف خلقت ؟ و كيف صوّر الله سبحانه أرضاً عادمة للحياة فاقدة للشعور بهذه الصورة العجيبة في أعضائها و قواها و أفاعيلها فسخّرها لهم ينتفعون من ركوبها وحملها ولحمها وضرعها وجلدها و وبرها حتّى بولها و بعرتها فهل هذا كله توافق اتّفاقيّ غير مطلوب بحياله ؟

وتخصيص الإبل بالذكر من جهة أنّ السورة مكّيّة وأوّل من تتلى عليهم الأعراب و اتّخاذ الآبال من أركان عيشتهم .

قوله تعالى : « و إلى السماء كيف رفعت » و زيّنت بالشمس و القمر و سائر النجوم الزواهر بما فيها من المنافع لأهل الأرض وقد جعل دونها الهواء الّذي يضطرّ إليه الحيوان في تنفّسه .

قوله تعالى : «و إلى الجبال كيف نصبت» وهي أوتاد الأرض المانعة من مورها و مخازن الماء الّتي تتفجّر منها العيون والأنهار ومحافظ للمعادن .

قوله تعالى : « و إلى الأرض كيف سطحت » أي بسطت و سوّيت فصلحت لسكنى الإنسان و سهل فيها النقل و الانتقال و أغلب التصرّفات الصناعيّة الّتي للإنسان .

فهذه تدبيرات كلّيّة مستندة إليه تعالى بلاريب فيه فهو ربّ السماء و الأرض وما بينهما فهو ربّ العالم الإنسانيّ يجب عليهم أن يتّخذوه ربّاً و يوحّدوه ويعبدوه و أمامهم الغاشية وهو يوم الحساب والجزاء .

قوله تعالى : « فذكّر إنّما أنت مذكّر » تفريع على ما تقدّم و المعنى إذا كان الله سبحانه هو ربّهم لا ربّ سواه وأمامهم يوم الحساب و الجزاء لمن آمن منهم أو كفر فذكّرهم بذلك .

و قوله : «إنّما أنت مذكّر» بيان أنّ وظيفته - وهو رسول - التذكرة رجاء أن يستجيبوا و يؤمنوا من غير إكراه و إلجاء .

قوله تعالى : «لست عليهم بمصيطر» المصيطر - و أصله المسيطر - المتسلّط ، و الجملة بيان و تفسير لقوله : « إنّما أنت مذكّر » .

قوله تعالى : «إلّا من تولّى وكفر» استثناء من المفعول المحذوف لقوله السابق: « فذكّر » و التقدير فذكّر الناس إلّا من تولّى منهم عن التذكرة و كفر إذ تذكرته لغو لا فائدة فيها ، و معلوم أنّ التولّي و الكفر إنّما يكون بعد التذكرة فالمنفيّ بالاستثناء هو التذكرة بعد التذكرة كأنّه قيل : ذكّرهم و أدم التذكرة إلّا لمن ذكّرته فتولّى عنها و كفر ، فليس عليك إدامة تذكرته بل أعرض عنه فيعذّبه الله العذاب الأكبر .

فقوله : «فذكّر ـ إلى أن قال ـ إلّا من تولّى وكفر فيعذّبه الله العذاب الأكبر» في معنى قوله : « فذكّر إن نفعت الذكرى ـ إلى أن قال ـ و يتجنّبها الأشقى الّذي يصلى النار الكبرى» الأعلى : ١٢ وقد تقدّم بيانه .

وقيل : الاستثناء من ضمير «عليهم» في قوله : «لست عليهم بمصيطر» والمعنى لست عليهم بمتسلّط إلّا على من تولّى منهم عن التذكرة وأقام على الكفر فسيُسلّطك الله عليه و يأمرك بالجهاد فتقاتله فتقتله .

وقيل : الاستثناء منقطع والمعنى لست عليهم بمتسلّط لكنّ من تولّى وكفر منهم يعذّبه الله العذاب الأكبر ، وما قدّمناه من الوجه أرجح وأقرب .

قوله تعالى « فيعذّبه الله العذاب الأكبر» هو عذاب جهنّم فالآية كما تقدّم محاذية لقوله في سورة الأعلى «الّذي يصلى النار الكبرى» .

قوله تعالى : «إنّ إلينا إيابهم » الإياب الرجوع و « إلينا » خبر إنّ وإنّما قدّم للتأكيد ولرعاية الفواصل دون الحصر إذ لا قائل برجوع الناس إلى غير الله سبحانه والآية في مقام التعليل للتعذيب المذكور في الآية السابقة .

قوله تعالى : « ثمّ إنّ علينا حسابهم » الكلام فيه كالكلام في الآية السابقة .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع وقال أبوعبدالله عليه السلام : كلّ ناصب وإن تعبّد واجتهد يصير إلى هذه الآية «عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية» .

اقول : ورواه في ثواب الأعمال مسنداً ولفظه كلّ ناصب وإن تعبّد واجتهد يصير إلى هذه الغاية «عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية» .

وفيه عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الضريع شيء في النار يشبه الشوك أمرّ من الصبر وأنتن من الجيفة وأشدّ حرّاً من النار سمّاه الله الضريع .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : «لا تسمع فيها لاغية» قال : الهزل والكذب .

وفيه في قوله تعالى : «لست عليهم بمصيطر» قال : بحافظ ولا كاتب عليهم .

وفي الدّر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذيّ والنسائيّ وابن ماجه وابن جرير والحاكم وابن مردويه والبيهقيّ في الأسماء والصفات عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اُمرت أن اُقاتل الناس حتّى يقولوا : لا إله إلّا الله فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله ثمّ قرء «فذكّر إنّما أنت مذكّر لست عليهم بمصيطر» .

أقول : لا دلالة في الرواية على كون الاستثناء من ضمير «عليهم» وهو ظاهر .

وفيه وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : «إلّا من تولّى وكفر» يريد من لم يتّعظ ولم يصدّقك وجحد ربوبيّتي و كفر نعمتي «فيعذّبه الله العذاب الأكبر» يريد الغليظ الشديد الدائم «إنّ إلينا إيابهم» يريد مصيرهم «ثمّ إنّ علينا حسابهم» يريد جزاءهم .

وفي النهج وسئل عليه السلام : كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ قال : كما يرزقهم على كثرتهم . قيل : فكيف يحاسبهم ولا يرونه ؟ قال : كما يرزقهم ولا يرونه .

و فيه قال الصادق عليه السلام : كلّ اُمّة يحاسبها إمام زمانها ، ويعرف الأئمّة أولياءهم وأعداءهم بسيماهم وهو قوله : «وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم الحديث .

اقول : قد تقدّم توضيح معنى الحديث في تفسير الآية من سورة الأعراف ، وروى هذا المعنى في البصائر عن الصادق عليه السلام مسنداً وفي الكافي عن الباقر والكاظم عليهما السلام وفي الفقيه عن الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة .



﴿سورة الفجر مكيّة وهي ثلاثون آية﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَ الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ اِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) اَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) اِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) اَلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْاَوْتَادِ (١٠) اَلَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَاَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) اِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) فَاَمَّا الْاِنْسَانُ اِذَا مَا ابْتَلٰيهُ رَبُّهُ فَاَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي اَكْرَمَنِ (١٥) وَ اَمَّا اِذَا مَا ابْتَلٰيهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي اَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلٰى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَ تَاْكُلُونَ التُّرَاثَ اَكْلًا لَمًّا (١٩) وَ تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا اِذَا دُكَّتِ الْاَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَ جَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْاِنْسَانُ وَ اَنّٰى لَهُ الذِّكْرٰى (٢٣) يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَايُعَذِّبُ عَذَابَهُ اَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ اَحَدٌ (٢٦) يَا اَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي اِلٰى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) .

﴿ بيان ﴾

في السورة ذمّ التعلّق بالدنيا المتعقّب للطغيان والكفران و إيعاد أهله بأشدّ عذاب الله في الدنيا والآخرة فتبيّن أنّ الإنسان لقصور نظره وسوء فكره يرى أنّ ما آتاه الله من نعمه من كرامته على الله وأنّ ما يتلبّس به من الفقر والعدم من هوانه فيطغى ويفسد في الأرض إذا وجد ويكفر إذا فقد وقد اشتبه عليه الأمر فما يصيبه من القدرة والثروة ومن الفقر وضيق المعاش امتحان وابتلاء إلهيّ ليظهر به ماذا يقدّم من دنياه لاُخراه .

فليس الأمر على ما يتوهّمه الإنسان ويقوله بل الأمر كما سيتذكره إذا وقع الحساب وحضر العذاب أنّ ما أصابه من فقر أو غنى أو قوّة أو ضعف كان امتحاناً إلهيّاً وكان يمكنه أن يقدّم من يومه لغده فلم يفعل وآثر العقاب على الثواب فليس ينال الحياة السعيدة في الآخرة إلّا النفس المطمئنّة إلى ربّها المسلمة لأمره الّتي لا تتزلزل بعواصف الابتلاءات ولا يطغيه الوجدان ولا يكفره الفقدان .

والسورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : «والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر هل في ذلك قسم لذي حجر» الفجر الصبح والشفع الزوج قال الراغب : الشفع ضمّ الشيء إلى مثله ويقال للمشفوع شفع . انتهى . وسرى الليل مضيّه وإدباره ، والحجر العقل فقوله : « و الفجر » إقسام بالصبح و كذا الحال فيما عطف عليه من ليال و الشفع و الوتر والّليل .

ولعلّ ظاهر قوله : «والفجر» أنّ المراد به مطلق الفجر ولا يبعد أيضا أن يراد به فجر يوم النحر وهو عاشر ذي الحجّة .

وقيل : المراد فجر ذي الحجّة ، وقيل : فجر المحرّم أوّل السنة و قيل : فجر يوم الجمعة ، وقيل : فجر ليلة جمع ، وقيل : المراد به صلاة الفجر ، وقيل : النهار كلّه

وقيل : فجر العيون من الصخور وغيرها وهي وجوه رديّة .

وقوله : « وليال عشر » لعلّ المراد بها الليالي العشر من أوّل ذي الحجّة إلى عاشرها والتنكير للتفخيم .

وقيل : المراد بها الليالي العشر من آخر شهر رمضان ، وقيل : الليالي العشر من أوّله ، وقيل الليالي العشر من أوّل المحرّم ، وقيل : المراد عبادة ليال عشر على تقدير أن يراد بالفجر صلاة الفجر .

وقوله « والشفع والوتر » يقبل الانطباق على يوم التروية و يوم عرفة وهو الأنسب على تقدير أن يراد بالفجر و ليال عشر فجر ذي الحجّة و العشر الاُول من لياليها .

وقيل : المراد صلاتا الشفع والوتر في آخر الليل ، وقيل : مطلق الصلاة فمنها شفع ومنها وتر ، وقيل : الشفع يوم النحر و الوتر يوم عرفة ، وقيل : الشفع جميع الخلق لأنّه قال : «وخلقناكم أزواجاً» النبأ : ٨ والوتر هو الله تعالى ، وعلى هذه الأقوال روايات ستوافيك في البحث الروائيّ الآتي إن شاء الله .

وقيل : المراد الزوج والفرد من العدد ، وفي الإقسام بهما تذكير بالعدد لما في ضبط المقادير به من عظيم النعمة من الله سبحانه ، وقيل : الشفع والوتر جميع المخلوقات لأنّ الأشياء إمّا زوج وإمّا فرد ، وقيل : الوتر آدم شفع بزوجته ، وقيل : الشفع الأيّام والليالي والوتر اليوم الّذي لا ليل بعده وهو يوم القيامة ، وقيل : الشفع الصفا والمروة والوتر البيت الحرام ، وقيل : الشفع أيّام عاد والوتر لياليها ، وقيل : الشفع أبواب الجنّة وهي ثمانية و الوتر أبواب جهنّم و هي سبعة إلى غير ذلك من الأقوال وهي كثيرة أنهاها بعضهم إلى ستّة وثلاثين قولا ولا يخلو أكثرها من تحكّم .

وقوله : «والليل إذا يسر» أي يمضي فهو كقوله : «والليل إذ أدبر» المدّثر:٣٣ وظاهره أنّ اللام للجنس فالمراد به مطلق آخر الليل ، وقيل : المراد به ليلة المزدلفة وهي ليلة النحر الّتي يسرى فيها الحاجّ من عرفات إلى المزدلفة فيجتمع فيها على طاعة الله ثمّ يغدو منها إلى منى وهو كما ترى وخاصّة على القول بكون المراد بليال

عشر هو الليالي العشر الأوائل منها .

وقوله : «هل في ذلك قسم لذي حجر» الإشارة بذلك إلى ماتقدّم من القسم ، والاستفهام للتقرير ، والمعنى أنّ في ذلك الّذي قدّمناه قسماً كافيا لمن له عقل يفقه به القول ويميّز الحقّ من الباطل ، وإذا أقسم الله سبحانه بأمر ـ ولا يقسم إلّا بماله شرف ومنزلة ـ كان من القول الحقّ المؤكّد الّذي لاريب في صدقه .

وجواب الأقسام المذكورة محذوف يدلّ عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان والكفران في الدنيا والآخرة وثواب النفوس المطمئنّة ، وأنّ إنعامه تعالى على من أنعم عليه وإمساكه عنه فيمن أمسك إنّما هو ابتلاء وامتحان .

وحذف الجواب والإشارة إليه على طريق التكنية أوقع وآكد في باب الإنذار والتبشير .

قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربّك بعاد » هم عاد الاُولى قوم هود تكرّرت قصّتهم في القرآن الكريم واُشير إلى أنّهم كانوا بالأحقاف ، وقد قدّمنا ما يتحصّل من قصصهم في القرآن الكريم في تفسير سورة هود .

قوله تعالى : « إرم ذات العماد الّتي لم يخلق مثلها في البلاد » العماد وجمعه عمد ما يعتمد عليه الأبنية ، وظاهر الآيتين أنّ إرم كانت مدينة لهم معمورة عديمة النظير ذات قصور عالية وعمد ممدّدة ، وقد انقطعت أخبار القوم لقدم عهدهم وانمحت آثارهم، فلا سبيل إلى الحصول على تفصيل حالهم تطمئنّ إليها النفس إلّا ما قصّه القرآن الكريم من إجمال قصّتهم أنّهم كانوا بعد قوم نوح قاطنين بالأحقاف وكانوا ذوي بسطة في الخلق اُولي قوّة وبطش شديد ، وكان لهم تقدّم ورقيّ في المدنيّة والحضارة لهم بلاد عامرة وأراض خصبة ذات جنّات ونخيل وزروع ومقام كريم وقد تقدّمت القصّة .

وقيل : المراد بإرم قوم عاد ـ وهو في الأصل اسم أبيهم سمّوا باسم أبيهم كما يقال : قريش ويراد به القرشيّون ويطلق إسرائيل ويراد به بنو إسرائيل ـ والمراد بكونهم ذات عماد كونهم اُولي قوّة وسطوة .

والمعنى ألم تر كيف فعل ربّك بقوم عاد الّذين هم قوم إرم ذوو القوّة والشدّة الّذين لم يخلق مثلهم في بسطة الجسم والقوّة والبطش في البلاد أو في أقطار الأرض ولا يخلو من بعد من ظاهر اللفظ .

وأبعد منه ما قيل : إنّ المراد بكونهم ذات العماد أنّهم كانوا أهل عمد سيّارة في الربيع فاذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم .

ومن الأساطير قصّة جنّة إرم المشهورة المرويّة عن وهب بن منبّه وكعب الأحبار .

قوله تعالى : « وثمود الّذين جابوا الصخر بالواد » الجوب القطع أي قطعوا صخر الجبال بنحتها بيوتاً فهو في معنى قوله : « وتنحتون من الجبال بيوتاً » الشعراء : ١٤٩ .

قوله تعالى : « وفرعون ذي الأوتاد » هو فرعون موسى، وسمّي ذا الأوتاد ـ على ما في بعض الروايات ـ لأنّه كان إذا أراد أن يعذّب رجلاً بسطه على الأرض ووتد يديه ورجليه بأربعة أوتاد في الأرض وربّما بسطه على خشب وفعل به ذلك ، ويؤيّده ما حكاه الله من قوله يهدّد السحرة إذ آمنوا بموسى : « ولأُصلّبنّكم في جذوع النخل » طه : ٧١ فإنّهم كانوا يوتّدون يدي المصلوب ورجليه على خشبة الصليب .

قوله تعالى : « الّذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد » صفة للمذكورين من عاد وثمود وفرعون ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب » صبّ الماء معروف وصبّ سوط العذاب كناية عن التعذيب المتتابع المتواتر الشديد ، وتنكير عذاب للتفخيم .

والمعنى فأنزل ربّك على كلّ من هؤلاء الطاغين المكثرين للفساد إثر طغيانهم وإكثارهم الفساد عذاباً شديداً متتابعاً متواليا لا يوصف .

قوله تعالى : « إنّ ربّك لبالمرصاد » المرصاد المكان الّذي يرصد منه ويرقب وكونه تعالى على المرصاد استعارة تمثيليّة شبّه فيها حفظه تعالى لأعمال عباده بمن

يقعد على المرصاد يرقب من يراد رقوبه فيأخذه حين يمرّ به وهو لا يشعر فالله سبحانه رقيب يرقب أعمال عباده حتّى إذا طغوا وأكثروا الفساد أخذهم بأشدّ العذاب.

وفي الآية تعليل ما تقدّم من حديث تعذيب الطغاة المكثرين للفساد من الماضين وفي قوله : « ربّك » باضافة الربّ إلى ضمير الخطاب تلويح إلى أنّ سنّة العذاب جارية في اُمّته صلى الله عليه وآله على ما جرت عليه في الاُمم الماضين.

قوله تعالى : « فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه ونعّمه فيقول ربّي أكرمن » متفرّع على ما قبله ، فيه تفصيل حال الإنسان إذا اُوتي من نعم الدنيا أو حرم كأنّه قيل : إنّ الإنسان تحت رقوب إلهيّ يرصده ربّه هل يصلح أو يفسد ؟ ويبتليه ويمتحنه فيما آتاه من نعمه أو حرمه هذا هو الأمر في نفسه وأمّا الانسان فإنّه إذا أنعم الله عليه بنعمه حسب أنّ ذلك إكرام إلهيّ له أن يفعل بها ما يشاء فيطغى ويكثر الفساد ، وإذا امسك وقدر عليه رزقه حسب أنّه إهانة إلهيّة فيكفر ويجزع.

فقوله : « فأمّا الإنسان» المراد به النوع بحسب الطبع الأوّليّ فاللّام للجنس دون الاستغراق.

وقوله : « إذا ما ابتلاه ربّه » أي امتحنه واختبره ، والعامل في الظرف محذوف تقديره كائنا إذا الخ وقيل : العامل فيه « فيقول ».

وقوله : «فأكرمه ونعّمه » تفسير للابتلاء ، والمراد بالإكرام والتنعيم الصوريّان وإن شئت فقل : الإكرام والتنعيم حدوثاً لا بقاء أي إنّه تعالى أكرمه وآتاه النعمة ليشكره ويعبده لكنّه جعلها نقمة على نفسه تستتبع العذاب.

وقوله : « فيقول ربّي أكرمن » أي جعلني على كرامة منه بالنعم الّتي آتانيها وإن شئت فقل : القدرة والجدة الموهوبتان إكرام وتنعيم حدوثاً وبقاءً فلي أن أفعل ما أشاء.

والجملة أعني قوله : « فيقول ربّي أكرمن » حكاية ما يراه الإنسان بحسب الطبع ، وقول الإنسان : « ربّي أكرمن » الظاهر في نسبة التدبير إلى الله سبحانه ـ

ولا يقول به الوثنيّة والمنكرون للصانع - مبنيّ على اعترافه بحسب الفطرة به تعالى وإن استنكف عنه لساناً ، وأيضاً لرعاية المقابلة مع قوله : « إذا ما ابتلاه ربّه » .

قوله تعالى : « وأمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي أهانن » أي وأمّا إذا ما امتحنه واختبره فضيّق عليه رزقه فيقول ربّي أذلّني واستخفّ بي.

ويظهر من مجموع الآيتين أوّلا حيث كرّر الابتلاء وأثبته في صورتي التنعيم والإمساك عنه أنّ إيتاء النعم والإمساك عنه جميعا من الابتلاء والامتحان الإلهيّ كما قال : « ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة » الأنبياء : ٣٥ لا كما يراه الإنسان .

وثانيا أنّ إيتاء النعم بما أنّه فضل ورحمة إكرام إن لم يبدّلها الإنسان نقما على نفسه .

وثالثا أنّ الآيتين معاً تفيدان أنّ الانسان يرى سعادته في الحياة هي التنعّم في الدنيا بنعم الله تعالى وهو الكرامة عنده والحرمان منه شقاء عنده والحال أنّ الكرامة هي في التقرّب إليه تعالى بالإيمان والعمل الصالح سواء في ذلك الغنى والفقر وأيّ وجدان وفقدان فإنّما ذلك بلاء وامتحان .

ولهم في معنى الآيتين وجوه اُخر تركنا التعرّض لها لقلّة الجدوى .

قوله تعالى : « كلاّ بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضّون على طعام المسكين » ردع لقولهم : إنّ الكرامة هي في الغنى والتنعّم ، وفي الفقر والفقدان هوان ومذلّة والمعنى ليس كما تقولون وإنّما إيتاؤه تعالى النعمة وإمساكه عنه كلّ ذلك ابتلاء وامتحان يختبر به حال الإنسان من حيث عبوديّته .

وفي قوله : « بل لا تكرمون اليتيم » الخ إضراب يؤكّد الردع بذكر بعض التنعّم الّذي لا يجامع الكرامة البتّة كعدم إكرامهم اليتيم بأكل تراثه ومنعه منه وعدم التحريض على إطعام المسكين حبّاً للمال فالفطرة الإنسانيّة لا يرتاب في أن لا كرامة في غنى هذا شأنه .

وفي الإضراب مضافاً إلى أصل الردع تقريع ولتشديد هذا التقريع وقع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب .

فقوله : « بل لا تكرمون اليتيم » عدم إكرامه حرمانه من تراث أبيه ـ كما كانوا يحرمون صغار الأولاد من الإرث ـ وتركه صفر الكفّ بلغ به الجهد ما بلغ كما تؤيّده الآية التالية « وتأكلون التراث » الخ .

وقوله : « ولاتحاضّون على طعام المسكين » أصله ولاتتحاضّون ، وهو تحريض بعضهم بعضاً على التصدّق على المساكين المعدمين ، ومنشأه حبّ المال كما في الآية الآتية « وتحبّون المال » الخ .

قوله تعالى : « وتأكلون التراث أكلاً لمّاً » اللمّ أكل الإنسان نصيب نفسه وغيره وأكله ما يجده من دون أن يميّز الطيّب من الخبيث ، والآية تفسير لعدم إكرامهم اليتيم كما تقدّم .

قوله تعالى : « وتحبّون المال حبّاً جمّاً » الجمّ الكثير العظيم ، والآية تفسّر عدم تحاضّهم على طعام المسكين كما تقدّم .

قوله تعالى : «كلاّ إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً» الدكّ هو الدقّ الشديد ، والمراد بالظرف حضور يوم القيامة .

ردع ثان عمّا يقوله الإنسان في حالي الغنى والفقر ، وقوله : «إذا دكّت الأرض» الخ في مقام التعليل للردع ومحصّل المعنى ليس كما يقوله الإنسان فإنّه سيتذكّر إذا قامت القيامة أنّ الحياة الدنيا وما فيها من الغنى والفقر وأضرابهما لم تكن مقصودة بالذات بل كانت ابتلاء وامتحاناً من الله تعالى يميّز به السعيد من الشقيّ ويهيّىء الإنسان فيها ما يعيش به في الآخرة وقد التبس عليه الأمر فحسبها كرامة مقصودة بالذات فاشتغل بها ولم يقدّم لحياته الآخرة شيأ فيتمنّى عند ذلك ويقول : ياليتني قدّمت لحياتي ولن يصرف التمنّي عنه شيأ من العذاب .

قوله تعالى : «وجاء ربّك والملك صفّاً صفّاً» نسبة المجيء إليه تعالى من المتشابه الّذي يحكمه قوله تعالى : «ليس كمثله شيء» الشورى : ١١ وما ورد في آيات القيامة من خواصّ اليوم كتقطّع الأسباب وارتفاع الحجب عنهم وظهور أنّ الله هو الحقّ المبين .

وإلى ذلك يرجع ماورد في الروايات أنّ المراد بمجيئه تعالى مجيء أمره قال تعالى : «والأمر يومئذ لله» الانفطار : ١٩ ، ويؤيد هذا الوجه بعض التأييد قوله تعالى «هل ينظرون إلّا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر» البقرة : ٢١٠ إذا انضمّ إلى قوله : «هل ينظرون إلّا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربّك» النحل: ٣٣ وعليه فهناك مضاف محذوف والتقدير جاء أمر ربّك أو نسبة المجيء إليه تعالى من المجاز العقليّ.

والكلام في نسبة المجيء إلى الملائكة وكونهم صفّاً صفّاً كمامرّ .

قوله تعالى : «وجيء يومئذ بجهنّم» إلى آخر الآية لايبعد أن يكون المراد بالمجيء بجهنّم إبرازها لهم كما في قوله تعالى : «وبرّزت الجحيم لمن يرى» النازعات: ٣٦ وقوله : «وبرّزت الجحيم للغاوين» الشعراء : ٩١ ، وقوله : «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ق : ٢٢ .

وقوله : «يومئذ يتذكّر الإنسان» أي يتذكّر أجلى التذكّر أنّ ماكان يؤتاه في الحياة الدنيا من خير أو شرّ كان من ابتلاء الله وامتحانه وأنّه قصر في أمره ، هذا ما يفيده السياق .

وقوله : «وأنّى له الذكرى» أي ومن أين له الذكرى كناية عن عدم انتفاعه بها فإنّ الذكرى إنّما تنفع فيما أمكنه أن يتدارك مافرّط فيه بتوبة وعمل صالح واليوم يوم الجزاء لا يوم الرجوع والعمل .

قوله تعالى : «يقول ياليتني قدّمت لحياتي» أي لحياتي هذه وهي الحياة الآخرة أو المراد الحياة الحقيقيّة وهي الحياة الآخرة على مانبّه تعالى عليه بقوله : «وماهذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» العنكبوت : ٦٤ .

والمراد بالتقديم للحياة تقديم العمل الصالح للحياة الآخرة وما في الآية تمنّ يتمنّاه الإنسان عندما يتذكّر يوم القيامة ويشاهد أنّه لاينفعه .

قوله تعالى : «فيومئذ لايعذّب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد» ضميرا «عذابه

ووثاقه» لله تعالى والمعنى فيومئذ لايعذّب عذاب الله أحد من الخلق ولا يوثق وثاق الله أحد من الخلق أي إنّ عذابه ووثاقه تعالى يومئذ فوق عذاب الخلق ووثاقهم . تشديد في الوعيد .

وقرء «لايعذّب» بفتح الدال و«لايوثق» بفتح الثاء بالبناء للمفعول وضمير ا«عذابه ووثاقه» على هذا للإنسان والمعنى لايعذّب أحد يومئذ مثل عذاب الإنسان ولايوثق أحد يومئذ مثل وثاقه .

قوله تعالى : «يا أيّتها النفس المطمئنّة» الّذي يعطيه سياق المقابلة بين هذه النفس بماذكر لها من الأوصاف وعيّن لها من حسن المنقلب وبين الإنسان المذكور قبل بما ذكر له من وصف التعلّق بالدنيا والطغيان والفساد والكفران ، وما أُوعد من سوء المصير هو أنّ النفس المطمئنّة هي الّتي تسكن إلى ربّها وترضى بما رضي به فترى نفسها عبداً لايملك لنفسه شيأ من خير أو شرّ أو نفع أوضرّ ويرى الدنيا دار مجاز وما يستقبله فيها من غنى أوفقر أو أيّ نفع وضرّ ابتلاء وامتحاناً إلهيّاً فلا يدعوه تواتر النعم عليه إلى الطغيان وإكثار الفساد والعلوّ والاستكبار ، ولا يوقعه الفقر والفقدان في الكفر وترك الشكر بل هو في مستقرّ من العبوديّة لا ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط .

قوله تعالى : «ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة» خطاب ظرفه جميع يوم القيامة من لدن إحيائها إلى استقرارها في الجنّة بل من حين نزول الموت إلى دخول جنّة الخلد وليس خطابا واقعاً بعد الحساب كما ذكره بعضهم .

وتوصيفها بالراضية لأنّ اطمئنانها إلى ربّها يستلزم رضاها بما قدّر وقضى تكويناً أو حكم به تشريعا فلا تسخطها سانحة ولا تزيغها معصية ، وإذا رضي العبد من ربّه رضي الربّ منه إذ لا يسخطه تعالى إلّا خروج العبد من زيّ العبوديّة فاذا لزم طريق العبوديّة استوجب ذلك رضى ربّه ولذا عقّب قوله : « راضية » بقوله : « مرضيّة » .

قوله تعالى : « فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي » تفريع على قوله : « ارجعي

إلى ربّك » وفيه دلالة على أنّ صاحب النفس المطمئنّة في زمرة عباد الله حائز مقام العبوديّة .

وذلك أنّه لمّا اطمأنّ إلى ربّه انقطع عن دعوى الاستقلال ورضي بما هو الحقّ من ربّه فرآى ذاته وصفاته وأفعاله ملكاً طلقاً لربّه فلم يردفيما قدّر وقضى ولافيما أمر ونهى إلاّ ما أراده ربّه ، وهذا ظهور العبوديّة التامّة في العبد ففي قوله : « فادخلي في عبادي » تقرير لمقام عبوديّتها .

وفي قوله : « وادخلي جنّتي » تعيين لمستقرّها ، وفي إضافة الجنّة إلى ضمير التكلّم تشريف خاصّ ، ولا يوجد في كلامه تعالى إضافة الجنّة إلى نفسه تعالى وتقدّس إلاّ في هذه الآية .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « والشفع والوتر » : وقيل: الشفع الخلق لأنّه قال: « وخلقناكم أزواجا » والوتر الله تعالى ، عن عطيّة العوفيّ وأبي صالح وابن عبّاس ومجاهد وهي رواية أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وقيل : الشفع والوتر الصلاة منها شفع ومنها وتر وهي رواية ابن حصين عن النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وقيل : الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة عن ابن عبّاس وعكرمة والضحّاك ، وهي رواية جابر عن النبيّ صلّى الله عليه وآله والوجه فيه أنّ يوم النحر يشفّع بيوم نفر بعده ويتفرّد يوم عرفة بالموقف ، وقيل: الشفع يوم التروية والوتر يوم عرفة وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

اقول : الروايات الثلاث المشار إليها مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله من طرق أهل السنّة ويمكن الجمع بينها بأنّ المراد مطلق الشفع والوتر والروايات من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق .

وفي تفسير القمّي « وليال عشر » قال : عشر ذي الحجّة « والشفع والوتر » قال : الشفع ركعتان والوتر ركعة ، وفي حديث : الشفع الحسن والحسين والوتر أمير-

المؤمنين عليه السلام « والليل إذا يسر » قال : هي ليلة جمع .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « لذي حجر » يقول : لذي عقل .

وفي العلل باسناده إلى أبان الأحمر قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجل : « وفرعون ذي الأوتاد » لأيّ شيء سمّي ذا الأوتاد ؟ فقال : لأنّه كان إذا عذّب رجلاً بسطه على الأرض على وجهه ومدّ يديه ورجليه فأوتدها بأربعة أوتاد في الأرض . وربّما بسطه على خشب منبسط فوتّد رجليه ويديه بأربعة أوتاد ثمّ تركه على حاله حتّى يموت فسمّاه الله عزّ وجل فرعون ذا الأوتاد .

وفي المجمع في قوله تعالى : « إنّ ربّك لبالمرصاد » وروي عن علي عليه السلام أنّه قال : إنّ معناه أنّ ربّك قادر أن يجزي أهل المعاصي جزاءهم .

اقول : بناء الرواية على أخذ الجملة استعارة تمثيليّة .

وفيه عن الصادق عليه السلام أنّه قال : المرصاد قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة عبد .

وعن الغوالي عن الصادق عليه السلام في حديث في تفسير قوله تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه » إنّما ظنّ بمعنى استيقن أنّ الله تعالى لن يضيّق عليه رزقه ألا تسمع قول الله تعالى : « وأمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه » أي ضيّق عليه .

وفي تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « كلاّ إذا دكّت الأرض دكّا دكّا » قال : هي الزلزلة .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : هل تدرون ما تفسير هذه الآية « كلاّ إذا دكّت الأرض ـ إلى قوله ـ وجيء يومئذ بجهنّم » قال: إذا كان يوم القيامة تقاد جهنّم بسبعين ألف زمام بيد سبعين ألف ملك فتشرد شردة لولا أنّ الله حبسها لأحرقت السماوات والارض.

اقول : وهو مرويّ أيضا عن أبي سعيد وابن مسعود ومن طرق الشيعة في أمالي

الشيخ باسناده عن داود بن سليمان عن الرضا عن آبائه عن عليّ عليه السلام عن النبيّ صلّى الله عليه وآله .

وفي العيون في باب ما جاء عن الرضا من أخبار التوحيد باسناده عن عليّ بن فضّال عن أبيه قال : سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجل : « وجاء ربّك والملك صفّا صفّا » فقال : إنّ الله سبحانه لا يوصف بالمجيء والذهاب تعالى عن الانتقال إنّما يعني بذلك وجاء أمر ربّك .

وفي الكافي باسناده عن سدير الصيرفيّ قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : جعلت فداك يابن رسول الله هل يكره المؤمن على قبض روحه ؟ قال : لا والله إنّه إذا أتاه ملك الموت ليقبض روحه جزع عند ذلك فيقول ملك الموت : يا وليّ الله لا تجزع فوالّذي بعث محمّداً لأنّي أبرّبك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك ، افتح عينيك فانظر .

قال : ويمثّل له رسول الله صلّى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة من ذرّيّتهم عليهم السلام فيقال له : هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة عليهم السلام رفقاؤك .

قال : فيفتح عينيه فينظر فينادي روحه مناد من قبل ربّ العزّة فيقول : يا أيّتها النفس المطمئنّة إلى محمّد وأهل بيته ارجعي إلى ربّك راضية بالولاية مرضيّة بالثواب فادخلي في عبادي يعني محمّداً وأهل بيته وادخلي جنّتي فما من شيء أحبّ إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي .

اقول : وروى هذا المعنى القمّي في تفسيره والبرقيّ في المحاسن .

﴿ سورة البلد مكيّة وهي عشرون آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِهٰذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهٰذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠) .

﴿ بيان ﴾

تذكر السورة أنّ خلقة الإنسان مبنيّة على التعب والمشقّة فلاتجد شأنا من شوؤن الحياة إلّا مقرونا بمرارة الكدّ والتعب من حين يلج في جثمانه الروح إلى أن يموت فلاراحة له عارية من التعب و المشقّة ولا سعادة له خالصة من الشقاءِ والمشأمة إلّا في الدار الآخرة عند الله .

فليتحمّل ثقل التكاليف الإلهيّة بالصبر على الطاعة وعن المعصية وليجدّ في نشر الرحمة على المبتلين بنوائب الدهر كاليتم والفقر والمرض وأضرابها حتّى يكون

من أصحاب الميمنة وإلاّ فآخرته كاُولاه وهو من أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة.

وسياق آيات السورة، يشبه السياق المكّي فيؤيّد به كون السورة مكّيّة وقد ادّعى بعضهم عليه الاجماع، وقيل: السورة مدنيّة والسياق لا يساعد عليه، وقيل: مدنيّة إلّا أربع آيات من أوّلها وسيأتي في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «لا اُقسم بهذا البلد» ذكروا أنّ المراد بهذا البلد مكّة وتؤيّده مكّيّة سياق السورة وقوله: «ووالد وما ولد» خاصّة بناء على كون المراد بوالد هو إبراهيم عليه السلام على ما سيجيء.

قوله تعالى: «وأنت حلّ بهذا البلد» حال من هذا البلد، ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله: «بهذا البلد» للدلالة على عظم شأنه والاعتناء بأمره وهو البلد الحرام، والحلّ مصدر كالحلول بمعنى الإقامة والاستقرار في مكان والمصدر بمعنى الفاعل.

والمعنى اُقسم بهذا البلد والحال أنك حالٌّ به مقيم فيه وفي ذلك تنبيه على تشرّف مكّة بحلوله صلى الله عليه وآله وسلم فيها وكونها مولده ومقامه.

وقيل: الجملة معترضة بين القسم والمقسم به والمراد بالحلّ المستحلّ الّذي لا حرمة له قال في الكشاف: واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: «وأنت حلّ بهذا البلد» يعني ومن المكابدة أنّ مثلك على عظم حرمتك يستحلّ بهذا البلد الحرام كما يستحلّ الصيد في غير الحرم - عن شرحبيل - يحرّمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا [1] بها شجرة ويستحلّون إخراجك وقتلك، وفيه تثبيت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكّة وتعجيب من حالهم في عداوته انتهى.

ثم قال: أوسلّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقسم ببلده أنّ الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد واعترض بأن وعده فتح مكّة تتميماً للتسلية والتنفيس عنه فقال: «وأنت حلّ بهذا البلد» يعني وأنت حلّ به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر إلى آخر ما قال، ومحصّله تفسير الحل بمعنى المحلّ ضدّ المحرم، والمعنى وسنحلّ لك يوم فتح مكّة حيناً فتقاتل وتقتل فيه من شئت.

---

(١) عضد الشجرة قطعها ونثر ورقها للابل. وشرحبيل راوى الحديث.

قوله تعالى : « ووالد وماولد » لزوم نوع من التناسب و الارتباط بين القسم والمقسم عليه يستدعي أن يكون المراد بوالدوماولد من بينه وبين البلد المقسم به نسبة ظاهرة وينطبق على إبراهيم و ولده إسماعيل عليهما السلام وهما السببان الأصليّان لبناء بلدة مكّة والبانيان للبيت الحرام قال تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » البقرة : ١٢٧ وإبراهيم عليه السلام هوالّذي سأل الله أن يجعل مكّة بلداً آمنا قال تعالى : «وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمنا» إبراهيم : ٣٥ .وتنكير « والد » للتعظيم و التفخيم ، والتعبير بقوله : « وماولد » دون أن يقال : و من ولد ، للدلالة على التعجيب من أمره مدحاً كمافي قوله : «والله أعلم بماوضعت» آل عمران: ٣٦.

والمعنى وأُقسم بوالد عظيم الشأن هو إبراهيم وماولد من ولد عجيب أمره مبارك أثره وهو إسماعيل ابنه وهما البانيان لهذا البلد فمفاد الآيات الثلاث الإقسام بمكّة المشرّفة وبالنبي صلى الله عليه وآله الّذي هو حلٌّ فيها وبا براهيم وإسماعيل اللّذين بنياها.

وقيل : المراد بالوالد إبراهيم وبما ولد جميع أولاده من العرب .

وفيه أنّ من البعيد أن يقارن الله سبحانه بين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و إبراهيم عليه السلام وبين أمثال أبي لهب وأبي جهل وغيرهم من أئمّة الكفر فيقسم بهم جميعاً في سياق وقد تبرّء إبراهيم عليه السلام ممّن لم يتّبعه من بنيه على التوحيد إذقال فيما حكاه الله : «واجنبني و بنيّ أن نعبد الأصنام ربّ إنّهنّ أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فانّه منّي و من عصاني فا نّك غفور رحيم » إبراهيم : ٣٦ .

فعلى من يفسّر ما ولد بأولاد إبراهيم أن يخصّهم بالمسلمين من ذرّيّته كما في دعاء إبراهيم وإسماعيل عندبنائهما الكعبة على ما حكاه الله : « ربّنا و اجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا اُمّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا » البقرة : ١٢٨.

و قيل : المراد بوالد وما ولد ، آدم عليه السلام و ذرّيّته جميعاً بتقريب أنّ المقسم عليه بهذه الأقسام خلق الإنسان في كبد وقدسنّ الله في خلق هذا النوع وإبقاء وجوده سنّة الولادة فقد أقسم في هذه الآيات بمحصول هذه السنّة وهو الوالد وما ولد على أنّ الإنسان في كدّ وتعب بحسب نوع خلقته من حين يحيى إلى حين يموت .

وهذا الوجه في نفسه لابأس به لكن يبقى عليه بيان المناسبة بين بلدة مكّة و بين والد وكلّ مولود في الجمع بينهما في الإقسام.

و قيل : المراد بهما آدم والصالحون من ذرّيّته ، و كأنّ الوجه فيه تنزيهه تعالى من أن يقسم بأعدائه الطغاة والمفسدين من الكفّار والفسّاق .

و قيل : المرادبهما كلّ والد وكلّ مولود وقيل : من يلد ومن لايلد منهم بأخذ « ما» في « ماولد » نافية لاموصولة .

وقيل: المرادبوالدهوالنبي ﷺ وبماولد اُمّته لأنّه بمنزلةالأب لاُمّته وهي وجوه بعيدة .

قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في كبد » الكبد الكدّ والتعب ، والجملة جواب القسم فاشتمال الكبد على خلق الإنسان و إحاطة الكدّ والتعب به في جميع شؤون حياته ممّا لايخفى على ذي لبّ فليس يقصد نعمة من نعم الدنيا إلّا خالصة في طيبها محضة في هنائها ولاينال شيأ منها إلّا مشوبة بما ينغّص العيش مقرونة بمقاساة ومكابدة مضافاً إلى ما يصيبه من نوائب الدهر ويفاجئه من طوارق الحدثان .

قوله تعالى : « أيحسب أن لن يقدرعليه أحد » بمنزلة النتيجة لحجّة الآية السابقة تقريرها أنّ الإنسان لمّا كانت خلقته مبنيّة على كبد مظروفة له لاينال قطّ شيأ ممّا يريد إلّا دون ما يريد أوغير ما يريد فهو محاط في خلقه مغلوب في إرادته مقهورفيما قدّر له من الأمروالّذي يغلبه في إرادته ويقهره على التلبّس بما قدّر له وهوالله سبحانه يقدرعليه من كلّ جهة فله أن يتصرّف فيه بما شاء ويأخذه إذا أراد .

فليس للإنسان أن يحسب أن لن يقدر عليه أحد فيدعوه ذلك إلى أن يعلو على الله ويستكبر عن عبادته أويطيعه في بعض ما أمر به كالإنفاق في سبيله فيستكثره ويمتنّ به على الله أويمكر به تعالى بعد ما عمله رياء و سمعة عملاً لوجهه الكريم فيقول : أهلكت مالاً لبدا .

قوله تعالى : « يقول أهلكت مالاً لبداً » اللبد الكثير، سياق الآية ومايتلوها من الآيات إلى آخر السورة مشعر بأنه كان هناك بعض من أظهر الإسلام أومال إليه

قد أنفق بعض ماله وامتنّ به مستكثراً له بقوله : «أهلكت مالاً لبداً» فنزلت الآيات وردّ الله عليه بأنّ الفوز بميمنة الحياة لا يتمّ إلّا باقتحام عقبة الإنفاق في سبيل الله والدخول في زمرة الّذين آمنوا وتواصوا بالصبر والمرحمة ، ويتأيّد به ما سيأتي في البحث الروائيّ إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « أيحسب أن لم يره أحد » إنكار لما هو لازم قول الإنسان : « أهلكت مالاً لبداً » على طريق التكنية و محصّل المعنى أنّ لازم إخبار الإنسان بإهلاكه مالاً لبداً أنّه يحسب أنّا في غفلة وجهل بما أنفق وقد أخطأ في ذلك فالله سبحانه بصير بما أنفق لكنّ هذا المقدار لا يكفي في الفوز بميمنة الحياة بل لابدّ له من أن يتحمّل ما هو أزيد من ذلك من مشاقّ العبوديّة فيقتحم العقبة ويكون مع المؤمنين في جميع ما هم فيه .

قوله تعالى : « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين » النجد الطريق المرتفع ، والمراد بالنجدين طريق الخير وطريق الشرّ وسمّيا النجدين لما في سلوك كلّ منهما من الجهد والكدح ، وفسّرا بثديي الاُمّ وهو بعيد .

و قوله : « ألم نجعل له عينين » أي جهّزناه في بدنه بما يبصر به فيحصل له العلم بالمرئيّات على سعة نطاقها ، وقوله : «ولساناً وشفتين » أي أولم نجعل له لساناً وشفتين يستعين بها على التكلّم والدلالة على ما في ضميره من العلم و يهتدي بذلك غيره على العلم بالاُمور الغائبة عن البصر .

وقوله : « وهديناه النجدين » أي علّمناه طريق الخير وطريق الشرّ بإلهام منّا فهو يعرف الخير ويميّزه من الشرّ فالآية في معنى قوله تعالى : «ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ .

و في الآيات الثلاث حجّة على قوله : « أيحسب أن لم يره أحد » أي على أنّه تعالى يرى أعمال عباده ويعلم ما في ضمائرهم من وجوه الأعمال ويميّز الخير من الشرّ والحسنة من السيّئة .

محصّلها أنّ الله سبحانه هو الّذي يعرّف المرئيّات للإنسان بوسيلة عينيه وكيف يتصوّر أن يعرّفه أمرا وهو لا يعرفه ؟ وهو الّذي يدلّ الإنسان على ما في الضمير بواسطة الكلام وهل يعقل أن يكشف له عمّا هو في حجاب عنه ؟ وهو الّذي يعلّم الإنسان و يميّز له الخير والشرّ بالإلهام وهل يمكن معه أن يكون هو نفسه لا يعلم به ولا يميّزه؟ فهو تعالى يرى ما عمله الإنسان ويعلم ما ينويه بعمله و يميّز كونه خيراً أو شرّاً و حسنة أو سيّئة .

قوله تعالى : « فلا اقتحم العقبة » الاقتحام الدخول بسرعة و ضغط و شدّة ، والعقبة الطريق الصعب الوعر الّذي فيه صعود من الجبل ، واقتحام العقبة إشارة إلى الإنفاق الذي يشقّ على منفقه كما سيصرّح به .

و قيل : الجملة دعاء على الإنسان القائل : أهلكت مالا لبداً ، وليس بشيء .

قوله تعالى : « وما أدراكما العقبة » تفخيم لشأنها كما مرّ في نظائره .

قوله تعالى : « فكّ رقبة » أي عتقها وتحريرها أو التقدير هي أي العقبة فكّ رقبة فالمراد بالعقبة نفس الفكّ الّذي هو العمل و اقتحامه الإتيان به ، والإتيان بالعمل نفس العمل .

وبه يظهر فساد قول بعضهم إنّ فكّ رقبة اقتحام للعقبة لا نفس العقبة فهناك مضاف محذوف يعود إليه الضمير والتقدير وما أدراكما اقتحام العقبة هو - أي الاقتحام - فكّ رقبة .

وما ذكر في بيان العقبة من فكّ الرقبة والإطعام في يوم ذي مسغبة من مصاديق نشر الرحمة خصّ بالذكر لمكان الأهمّيّة ، وقدّم فكّ الرقبة وابتدىء به لكمال عناية الدين بفكّ الرقاب .

قوله تعالى : « أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة» المسغبة المجاعة ، والمقربة القرابة بالنسب ، والمتربة من التراب و معناها الالتصاق بالتراب من شدّة الفقر ، والمعنى أو إطعام في يوم المجاعة يتيماً من ذي القربى أو

مسكينا شديد الفقر .

قوله تعالى : « ثمّ كان من الّذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » المرحمة مصدر ميميّ من الرحمة ، والتواصي بالصبر وصيّة بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله والتواصي بالمرحمة وصيّة بعضهم بعضاً بالرحمة على ذوي الفقر والفاقة والمسكنة .

والجملة أعني قوله : « ثمّ كان » الخ معطوفة على قوله : « اقتحم » والتقدير فلا اقتحم العقبة ولا كان من الّذين آمنوا الخ وقيل فيها غير ذلك ممّا لا جدوى فيه .

قوله تعالى : « اُولئك أصحاب الميمنة» بمعنى اليمن مقابل الشؤم ، والإشارة باُولئك إلى ما يدلّ عليه السياق السابق أي الّذين اقتحموا العقبة وكانوا من الّذين آمنوا وتواصوا بالصبر والمرحمة أصحاب اليمن لا يرون ممّا قدّموه من الإيمان وعملهم الصالح إلّا أمراً مباركا جميلا مرضيّا .

و قيل : المراد بالميمنة جهة اليمين و أصحاب الميمنة هم الّذين يؤتون كتابهم بيمينهم ، ومقابلة الميمنة بالمشأمة لا تلائمه .

قوله تعالى : « والّذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة » الآيات الآفاقيّة والأنفسية آيات وأدلّة عليه تعالى تدلّ على توحّده في الربوبيّة والاُلوهيّة و سائر ما يتفرّع عليه وردّها كفر بها والكفر بها كفر بالله وكذا القرآن الكريم وآياته ، وكذا ما نزل وبلّغ من طريق الرسالة .

والظاهر أنّ المراد بالآيات مطلقها ، والمشأمة خلاف الميمنة .

قوله تعالى : « عليهم نار مؤصدة » أي مطبقة .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله : « و أنت حلّ بهذا البلد » : قيل : معناه وأنت محلّ بهذا البلد وهو ضدّ المحرم ، والمراد أنت حلال لك قتل من رأيت من الكفّار ، و ذلك حين اُمر بالقتال يوم فتح مكّة فأحلّها الله له حتّى قاتل و قتل ، وقد قال صلى الله عليه وآله : لم يحلّ لأحد قبلي ولا يحلّ لأحد بعدي ولم يحلّ لي إلّا ساعة من نهار . عن ابن عبّاس

ومجاهد وعطاء .

و فيه في الآية وقيل : لا اُقسم بهذا البلد وأنت حلال منتهك الحرمة مستباح العرض لاتحترم فلا تبقى للبلد حرمة حيث هتكت عن أبي مسلم وهوالمرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام .

قال : كانت قريش تعظّم البلد و تستحلّ محمّداً فيه فقال : « لا اُقسم بهذا البلد وأنت حلّ بهذا البلد » يريد أنّهم استحلّوك فيه وكذّبوك وشتموك ، و كانوا لايأخذ الرجل منهم فيه قاتل أبيه ويتقلّدون لحاء شجر الحرم فيأمنون بتقلّدهم إيّاه فاستحلّوا من رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يستحلّوه من غيره فعاب الله ذلك عليهم .

وفيه في قوله تعالى : « و والد وماولد » : و قيل : آدم وما ولد من الأنبياء والأوصياء وأتباعهم . عن أبي عبدالله عليه السلام .

أقول : والمعاني السابقة مرويّة من طرق أهل السنّة في أحاديث موقوفة ، و روى القميّ في تفسيره الأخيرتين بالإرسال والإضمار .

وفي تفسير القميّ « يقول أهلكت مالاً لبداً » قال : اللبد المجتمع وفي المجمع في الآية قيل : هوالحارث بن نوفل بن عبد مناف و ذلك أنّه أذنب ذنبا فاستفتى رسول الله صلى الله عليه وآله فأمره أن يكفّر فقال : لقد ذهب مالي في الكفّارات والنفقات منذ دخلت في دين محمّد ، عن مقاتل .

و في المجمع أنّه قيل لأمير المؤمنين عليه السلام : إنّ اُناسا يقولون في قوله : «وهديناه النجدين» : أنّهما الثديان فقال : لا ، هما الخير والشرّ .

وفي اُصول الكافي بإسناده عن حمزة بن محمّد عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن قول الله تعالى : «وهديناه النجدين» قال : نجد الخير والشرّ .

أقول : و روى في الدرّ المنثور هذا المعنى بطرق عن عليّ عليه السلام وأنس وأبي أمامة وغيرهم عن النبيّ صلى الله عليه وآله ورواه القميّ في تفسيره مرسلاً مضمراً .

وفي الكافي باسناده عن جعفر بن خلّاد قال : كان أبوالحسن الرضا عليه السلام إذا أكل اُتي بصحفة فتوضع قرب مائدته فيعمد إلى أطيب الطعام ممّا يؤتى به فيأخذ من كلّ

شيء شيئاً فيضع في تلك الصحفة ثمّ يأمر بها للمساكين ثمّ يتلو هذه الآية « فلااقتحم العقبة » .

ثمّ يقول : علم الله عزّ وجلّ أنّه ليس كلّ إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنّة .

وفي المجمع وروي مرفوعاً عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابيٌّ إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله علّمني عملاً يدخلني الجنّة قال : إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة ، أعتق النسمة و فكّ الرقبة ، فقال : أوليسا واحداً ؟ قال : لا . عتق الرقبة أن يتفرّد بعتقها و فكّ الرقبة أن يعين في ثمنها ، والفيء على ذي الرحم الظالم .

فإن لم يكن ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وامر بالمعروف وانه عن المنكر فان لم تطق ذلك فكفّ لسانك إلّا من خير .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « او مسكيناً ذامتربة » قال : لا يقيه من التراب شيء .

(سورة الشمس مكيّة وهي ستّ عشرة آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَالشَّمْسِ وَضُحٰيهٰا (١) وَالْقَمَرِ اِذٰا تَلٰيهٰا (٢) وَالنَّهٰارِ اِذٰا جَلّٰيهٰا (٣) وَاللَّيْلِ اِذٰا يَغْشٰيهٰا (٤) وَالسَّمٰاءِ وَمٰا بَنٰيهٰا (٥) وَالْاَرْضِ وَمٰا طَحٰيهٰا (٦) وَنَفْسٍ وَمٰا سَوّٰاهٰا (٧) فَاَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَتَقْوٰاهٰا (٨) قَدْ اَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا (٩) وَقَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰيهٰا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوٰيهٰا (١١) اِذِ انْبَعَثَ اَشْقٰيهٰا (١٢) فَقٰالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نٰاقَةَ اللهِ وَسُقْيٰيهٰا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهٰا (١٤) فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوّٰاهٰا (١٥) وَلٰا يَخٰافُ عُقْبٰيهٰا (١٦).

(بيان)

تذكر السورة أنّ فلاح الانسان ـ وهو يعرف التقوى والفجور بتعريف إلهيّ و إلهام باطنيّ ـ أن يزكّي نفسه وينميها إنماءً صالحاً بتحليتها بالتقوى وتطهيرها من الفجور، والخيبة والحرمان من السعادة لمن يدسّيها، ويستشهد لذلك بماجرى على ثمود من عذاب الاستئصال لمّا كذّبوا رسولهم صالحاً وعقروا الناقة، وفي ذلك تعريض لأهل مكّة، والسورة مكّيّة بشهادة من سياقها.

قوله تعالى: «والشمس وضحاها» في المفردات: الضحى انبساط الشمس وامتداد النهار وسمّي الوقت به انتهى والضمير للشمس، و في الآية إقسام بالشمس وانبساط ضوئها على الأرض.

قوله تعالى: «والقمر إذا تلاها» عطف على الشمس والضمير لها وإقسام بالقمر

حال كونه تاليا للشمس ، والمراد بتلوّه لها إن كان كسبه النور منها فالحال حال دائمة وإن كان طلوعه بعد غروبها فالاقسام به من حال كونه هلالاً إلى حال تبدّره .

قوله تعالى : «والنهار إذا جلّاها» التجلية الاظهار والابراز ، وضمير التأنيث للأرض ، والمعنى واُقسم بالنهار إذا أظهر الأرض للأبصار .

وقيل : ضمير الفاعل في « جلّاها » للنهار وضمير المفعول للشمس ، والمراد الاقسام بحال إظهار النهار للشمس فانّها تنجلي وتظهر إذا انبسط النهار ، وفيه أنّه لايلائم ما تقدّمه فانّ الشمس هي المظهرة للنهار دون العكس .

وقيل : الضمير المؤنّث للدنيا ، وقيل : للظلمة ، وقيل : ضمير الفاعل لله تعالى وضمير المفعول للشمس والمعنى واُقسم بالنهار إذا أظهر الله الشمس ، وهي وجوه بعيدة .

قوله تعالى : « والليل إذا يغشاها » أي يغطّي الأرض ، فالضمير للأرض كما في « جلّاها » ، وقيل : للشمس وهو بعيد فالليل لايغطّي الشمس وإنّما يغطّي الأرض وما عليها .

والتعبير عن غشيان الليل الأرض بالمضارع بخلاف تجلية النهار لها حيث قيل: « والنهار إذا جلّاها والليل إذا يغشاها » للدلالة على الحال ليكون فيه إيماء إلى غشيان الفجور الأرض في الزمن الحاضر الّذي هو أوائل زمن ظهور الدعوة الاسلاميّة لما تقدّم أنّ بين هذه الأقسام وبين المقسم بها نوع اتّصال وارتباط ، هذا مضافاً إلى رعاية الفواصل .

قوله تعالى : « والسماء وما بناها والأرض وما طحاها» طحو الأرض ودحوها بسطها ، و « ما » في « وما بناها » و « ما طحاها » موصولة ، والّذي بناها وطحاها هو الله تعالى والتعبير عنه تعالى بما دون من لإيثار الابهام المفيد للتفخيم والتعجيب فالمعنى واُقسم بالسماء والشيء القويّ العجيب الّذي بناها واُقسم بالأرض والشيء القويّ العجيب الّذي بسطها .

وقيل : ما مصدريّة والمعنى واُقسم بالسماء وبنائها والأرض وطحوها ، والسياق

ـ وفيه قوله : « ونفس وما سوّاها فألهمها الخ ـ لا يساعده .

قوله تعالى : « ونفس وماسوّاها » أي واُقسم بنفس والشيء ذي القدرة والعلم والحكمة الّذي سوّاها ورتّب خلقتها ونظم أعضاءها وعدّل بين قواها .

وتنكير « نفس » قيل: للتنكير ، وقيل : للتفخيم ولايبعد أن يكون التنكير للاشارة إلى أنّ لها وصفاً وأنّ لها نبأ .

والمراد بالنفس النفس الانسانيّة مطلقاً وقيل : المراد بها نفس آدم عليه السلام ولا يلائمه السياق وخاصّة قوله : « قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها » إلّا بالاستخدام على أنّه لا موجب للتخصيص .

قوله تعالى : « فألهمها فجورها وتقواها » الفجور ـ على ما ذكره الراغب ـ شقّ ستر الديانة فالنهي الالهيّ عن فعل أو عن ترك حجاب مضروب دونه حائل بين الانسان وبينه واقتراف المنهيّ عنه شقّ للستر وخرق للحجاب .

والتقوى ـ على ما ذكره الراغب ـ جعل النفس في وقاية ممّا يخاف ، والمراد بها بقرينة المقابلة في الآية بينها وبين الفجور التجنّب عن الفجور والتحرّز عن المنافي وقد فسّرت في الرواية بأنّها الورع عن محارم الله .

والالهام الالقاء في الروع وهو إفاضته تعالى الصور العلميّة من تصوّر أو تصديق على النفس .

وتعليق الالهام على عنواني فجور النفس وتقواها للدلالة على أنّ المراد تعريفه تعالى للانسان صفة فعله من تقوى أو فجور وراء تعريفه متن الفعل بعنوانه الأوّليّ المشترك بين التقوى والفجور كأكل المال مثلا المشترك بين أكل مال اليتيم الّذي هو فجور وبين أكل مال نفسه الّذي هو من التقوى ، والمباشرة المشتركة بين الزنا وهو فجور والنكاح وهو من التقوى وبالجملة المراد أنّه تعالى عرّف الانسان كون ما يأتي به من فعل فجوراً أو تقوى وميّز له ما هو تقوى ممّا هو فجور .

وتفريع الالهام على التسوية في قوله : « وماسوّاها فألهمها » الخ للاشارة إلى أنّ إلهام الفجور والتقوى وهو العقل العملي من تكميل تسوية النفس فهو من نعوت

خلقتها كما قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم » الروم : ٣٠ .

وإضافة الفجور والتقوى إلى ضمير النفس للاشارة إلى أنّ المراد بالفجور والتقوى الملهمين الفجور والتقوى المختصّين بهذه النفس المذكورة وهي النفس الانسانيّة ونفوس الجنّ على ما يظهر من الكتاب العزيز من كونهم مكلّفين بالايمان والعمل الصالح .

قوله تعالى : « قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها » الفلاح هو الظفر بالمطلوب وإدراك البغية ، والخيبة خلافه ، والزكاة نموّ النبات نموّاً صالحاً ذا بركة والتزكية إنماؤه كذلك ، والتدسّي ـ وهو من الدسّ بقلب إحدى السينين ياءِ ـ إدخال الشيءِ في الشيءِ بضرب من الاخفاءِ ، والمراد بها ، بقرينة مقابلة التزكية ، الانماء على غير ما يقتضيه طبعها وركّبت عليه نفسها .

والآية أعني قوله : « قد أفلح » الخ جواب القسم ، وقوله : « وقد خاب » الخ معطوف عليه .

والتعبير بالتزكية والتدسّي عن إصلاح النفس وإفسادها مبتن على ما يدلّ عليه قوله : « فألهمها فجورها و تقواها » على أنّ من كمال النفس الانسانية أنّها ملهمة مميّزة ـ بحسب فطرتها ـ للفجور من التقوى أي أنّ الدين وهو الاسلام لله فيما يريده فطريّ للنفس فتحلية النفس بالتقوى تزكية وإنماء صالح وتزويدلها بما يمدّها في بقائها قال تعالى : « وتزوّدوا فانّ خير الزاد التقوى واتّقون يا اُولي الالباب » البقرة : ١٩٧ وأمرها في الفجور على خلاف التقوى .

قوله تعالى : « كذّبت ثمود بطغواها » الطغوى مصدر كالطغيان ، والباء للسببيّة .

والآية وما يتلوها إلى آخر السورة استشهاد وتقرير لما تقدّم من قوله « قد أفلح من زكّاها » الخ .

قوله تعالى : « إذ انبعث أشقاها » ظرف لقوله : « كذّبت » أو لقوله : « بطغواها »

والمراد بأشقى ثمود هو الّذي عقر الناقة واسمه على ما في الروايات قدار بن سالف وقد كان انبعاثه ببعث القوم كما تدلّ عليه الآيات التالية بما فيها من ضمائر الجمع.

قوله تعالى: « فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها » المراد برسول الله صالح عليه السلام نبيّ ثمود، وقوله: « ناقة الله » منصوب على التحذير، وقوله: «وسقياها» معطوف عليه.

والمعنى فقال لهم صالح برسالة من الله: احذروا ناقة الله وسقياها ولاتتعرّضوا لها بقتلها أومنعها عن نوبتها في شرب الماء، وقد فصّل الله القصّة في سورة هود وغيرها.

قوله تعالى: «فكذّبوه فعقروها فدمدم عليهم ربّهم بذنبهم فسوّاها » العقر إصابة أصل الشيء ويطلق على نحر البعير والقتل، والدمدمة على الشيء الإطباق عليه يقال: دمدم عليه القبر أي أطبقه عليه والمراد شمولهم بعذاب يقطع دابرهم ويمحو أثرهم بسبب ذنبهم.

وقوله: « فسوّاها » الظاهر أنّ الضمير لثمود باعتبار أنّهم قبيلة أي فسوّاها بالأرض أوهو تسوية الأرض بمعنى تسطيحها وإعفاء مافيها من ارتفاع وانخفاض.

وقيل: الضمير للدمدمة المفهومة من قوله: « فدمدم» والمعنى فسوّى الدمدمة بينهم فلم يفلت منهم قويّ ولاضعيف ولاكبير ولاصغير.

قوله تعالى: «ولايخاف عقباها» الضمير للدمدمة أوالتسوية، والواو للاستئناف أوالحال.

والمعنى ولايخاف ربّهم عاقبة الدمدمة عليهم وتسويتهم كما يخاف الملوك والاقوياء عاقبة عقاب أعدائهم وتبعته، لأنّ عواقب الاُمور هي مايريده وعلى وفق مايأذن فيه فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى: «لايسأل عمّا يفعل وهم يسألون» الأنبياء: ٢٣.

وقيل: ضمير «لايخاف» للأشقى، والمعنى ولايخاف عاقر الناقة عقبى ماصنع بها.

وقيل: ضمير «لايخاف» لصالح وضمير «عقباها» للدمدمة والمعنى ولايخاف صالح عقبى الدمدمة عليهم لثقته بالنجاة وضعف الوجهين ظاهر.

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى: « ونفس وماسوّاها » قال : خلقها و صورّها .

وفي المجمع وروى زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام في قوله تعالى : «فألهمها فجورها وتقواها» قال : بيّن لها ما يأتي وما يترك ، وفي قوله تعالى: « قد أفلح من زكّاها» قال : قد أفلح من أطاع « وقد خاب من دسّاها» قال : قد خاب من عصى .

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمران بن حصين أنّ رجلاً قال : يارسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه شيء قد قضي عليهم ومضى عليهم في قدر قد سبق ؟ أوفيما يستقبلون به نبيّهم واتّخذت عليهم به الحجّة ؟ قال : بل شيء قضي عليهم .

قال : فلم يعملون إذا ؟ قال : من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين هيّأه لعملها وتصديق ذلك في كتاب الله «ونفس وماسوّاها فألهمها فجورها وتقواها ».

أقول : قوله : أوفيما يستقبلون الخ الظاهر أنّ الهمزة فيه للاستفهام والواو للعطف والمعنى وهل في طاعتهم لنبيّهم قضاء من الله وقدر قد سبق ؟ وقوله : فلم يعملون إذا، أي فما معنى عملهم واستناد الفعل إليهم ؟

وقوله صلى الله عليه وآله : من كان الله الخ معناه أنّ وجوب صدور الفعل حسنة أو سيّئة منهم بالنظر إلى القضاء والقدر السابقين لاينافي إمكان صدوره بالنظر إلى الإنسان و اختياره ، وقد اتّضح ذلك في الأبحاث السابقة من الكتاب مرارا .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه و الديلميّ عن جويبر عن الضحّاك عن ابن عبّاس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «قد أفلح من زكّاها» الآية أفلحت نفس زكّاها الله وخابت نفس خيّبها الله من كلّ خير.

أقول : انتساب التزكية والتخييب إليه تعالى بوجه لاينافي انتسابهما بالطاعة والمعصية إلى الإنسان.

وإنّما ينتسب إلى الله سبحانه من الإضلال ماكان على طريق المجازاة كماقال: «وما يضلّ به إلاّ الفاسقين» البقرة : ٢٦ .

وفي المجمع وقدصحّت الرواية بالإسنادعن عثمان بن صهيب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب : من أشقى الأوّلين ؟ قال : عاقر الناقة . قال : صدقت فمن أشقى الآخرين ؟ قال : قلت: لاأعلم يارسول الله . قال : الّذي يضربك على هذه فأشار إلى يافوخه .

أقول : وروى فيه هذا المعنى أيضاً عن عمّار بن ياسر .

وفي تفسير البرهان : وروى الثعلبيّ والواحديّ بإسنادهما عن عمّار وعن عثمان بن صهيب وعن الضحّاك وروى ابن مردويه بإسناده عن جابر بن سمرة وعن عمّار وعن ابن عديّ أوعن الضحّاك وروى الخطيب في التاريخ عن جابر بن سمرة وروى الطبريّ والموصلي وروى أحمد عن الضحّاك عن عمّار أنّه قال :قال النبيّ ﷺ : ياعليّ أشقى الأوّلين عاقر الناقة وأشقى الآخرين قاتلك ،وفي رواية من يخضب هذه من هذا .

﴿ سورة الليل مكيّة وهي إحدى وعشرون آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَاللَّيْلِ اِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ اِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) اِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَاَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ اِذَا تَرَدَّى (١١) اِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَ اِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَيهَا اِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) اِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة الانذار وتسلك إليه بالإشارة إلى اختلاف مساعي الناس و أنّ منهم من أنفق واتّقى وصدّق بالحسنى فسيمكّنه الله من حياة خالدة سعيدة ومنهم من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسيسلك الله به إلى شقاء العاقبة ، وفي السورة اهتمام وعناية خاصّة بأمر الإنفاق المالي .

والسورة تحتمل المكّيّة والمدنيّة بحسب سياقها .

قوله تعالى : « والليل إذا يغشى » إقسام بالليل إذا يغشى النهار على حدّ قوله تعالى : « يغشي الليل النهار » الأعراف : ٥٤ ، ويحتمل أن يكون المراد غشيانه الأرض أو الشمس .

قوله تعالى : « والنهار إذا تجلّى » عطف على الليل ، والتجلّي ظهور الشيء بعد خفائه ، والتعبير عن صفة الليل بالمضارع وعن صفة النهار بالماضي حيث قيل : « يغشى » و« تجلّى » تقدّم فيه وجه في تفسير أوّل السورة السابقة .

قوله تعالى : « وما خلق الذكر والاُنثى » عطف على الليل كسابقه ، و « ما » موصولة والمراد به الله سبحانه وإنّما عبّر بما دون من إيثاراً للإبهام المشعر بالتعظيم والتفخيم والمعنى واُقسم بالشيء العجيب الّذي أوجد الذكر والاُنثى المختلفين على كونهما من نوع واحد .

وقيل : ما مصدريّة والمعنى واُقسم بخلق الذكر والاُنثى وهو ضعيف .

والمراد بالذكر والاُنثى مطلق الذكر والاُنثى أينما تحقّقا ، و قيل : الذكر و الاُنثى من الإنسان ، و قيل : المراد بهما آدم و زوجته حوّاء ، و أوجه الوجوه أوّلها .

قوله تعالى : « إنّ سعيكم لشتّى » السعي هو المشي السريع ، والمراد به العمل من حيث يهتمّ به ، وهو في معنى الجمع ، وشتّى جمع شتيت بمعنى المتفرّق كمرضى جمع مريض .

والجملة جواب القسم والمعنى اُقسم بهذه المتفرّقات خلقاً وأثراً إنّ مساعيكم لمتفرّقات في نفسها وآثارها فمنها إعطاء وتقوى وتصديق و لها أثر خاصّ بها ، و منها بخل واستغناء و تكذيب ولها أثر خاصّ بها .

قوله تعالى : « فأمّا من أعطى واتّقى وصدّق بالحسنى فسنيسّره لليسرى » تفصيل تفرّق مساعيهم واختلاف آثارها .

والمراد بالإعطاء إنفاق المال لوجه الله بقرينة مقابلته للبخل الظاهر في الإمساك عن إنفاق المال وقوله بعد : « وما يغني عنه ماله إذا تردّى » .

وقوله : « واتّقى » كالمفسّر للإعطاء يفيد أنّ المراد هو الإعطاء على سبيل التقوى الدينيّة .

وقوله : « وصدّق بالحسنى » الحسنى صفة قائمة مقام الموصوف والظاهر أنّ التقدير بالعدة الحسنى وهي ماوعد الله من الثواب على الإنفاق لوجهه الكريم وهو تصديق البعث والإيمان به ولازمه الإيمان بوحدانيّته تعالى في الربوبيّة والاُلوهيّة، وكذا الإيمان بالرسالة فإنّها طريق بلوغ وعده تعالى للثواب .

ومحصّل الآيتين أن يكون مؤمناً بالله و رسوله واليوم الآخر و ينفق المال لوجه الله وابتغاء ثوابه الّذي وعده بلسان رسوله .

وقوله : « فسنيسّره لليسرى » التيسير التهيئة والإعداد واليسرى الخصلة الّتي فيها يسر من غير عسر ، وتوصيفها باليسر بنوع من التجوّز فالمراد من تيسيره لليسرى توفيقه للأعمال الصالحة بتسهيلها عليه من غير تعسير أو جعله مستعدّاً للحياة السعيدة عند ربّه ودخول الجنّة بسبب الأعمال الصالحة الّتي يأتي بها ، والوجه الثاني أقرب وأوضح انطباقاً على ما هو المعهود من مواعد القرآن .

قوله تعالى : « وأمّا من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسّره للعسرى وما يغني عنه ماله إذا تردّى » البخل مقابل الإعطاء ، والاستغناء طلب الغنى والثروة بالإمساك والجمع ، والمراد بالتكذيب بالحسنى الكفر بالعدة الحسنى و ثواب الله الّذي بلّغه الأنبياء والرسل ويرجع إلى إنكار البعث .

والمراد بتيسيره للعسرى خذلانه بعدم توفيقه للأعمال الصالحة ، بتثقيلها عليه وعدم شرح صدره للإيمان أو إعداده للعذاب .

وقوله : « وما يغني عنه ماله إذا تردّى » التردّي هو السقوط من مكان عال ويطلق على الهلاك فالمراد سقوطه في حفرة القبر أو في جهنّم أو هلاكه .

و « ما » استفهاميّة أو نافية أي أيّ شيء يغنيه ماله إذا مات وهلك أو ليس يغني عنه ماله إذا مات وهلك .

قوله تعالى : « إنّ علينا للهدى وإنّ لنا للآخرة والاُولى » تعليل لما تقدّم من حديث تيسيره لليسرى وللعسرى أو الإخبار به بأوجز بيان محصّله أنّا إنّما نفعل هذا التيسير أونبيّن هذا البيان لأنّه من الهدى والهدى علينا لايزاحمنا في ذلك شيء ولايمنعنا عنه مانع .

فقوله : « إنّ علينا للهدى » يفيد أنّ هدى الناس ممّا قضى سبحانه بهوأوجبه على نفسه بمقتضى الحكمة وذلك أنّه خلقهم ليعبدوه كما قال : « وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون » الذاريات : ۵۶ فجعل عبادته غاية لخلقهم و جعلها صراطاً مستقيما إليه كما قال : «إنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه هذاصراطمستقيم» آل‌عمران : ۵۱ ، وقال : « وإنّك‌لتهدي‌إلى‌صراطمستقيم‌صراط‌الله » الشورى : ۵۳ وقضى‌على نفسه أن يبيّن لهم سبيله ويهديهم إليه بمعنى‌إراءة الطريق سواء سلكوها أم تركوها كما قال : « وعلى‌الله قصد السبيل ومنها جائر » النحل : ۹ ، و قال : « والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل » الأحزاب : ۴ و قال : « إنّا هديناه السبيل إمّا شاكرا و إمّا كفورا » الإنسان : ۳ ولاينافي ذلك قيام غيره تعالى‌بأمر هذا المعنى من الهدى بإذنه كالأنبياء كما قال تعالى : « وإنّك لتهدي إلى صراط مستقيم » الشورى : ۵۲ ، وقال : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني » يوسف : ۱۰۸ .

وقد تقدّم لهذه المسألة بيان عقلي‌في‌مباحث النبوّة في‌الجزء الثاني من‌الكتاب.

هذا في‌الهداية بمعنى‌إراءة الطريق و أمّا الهداية بمعنى‌الإيصال إلى‌المطلوب ـ والمطلوب في المقام الآثارالحسنة‌التي‌تترتّب‌على‌الاهتداء بهدى الله والتلبّس‌بالعبوديّة كالحياة الطيّبة المعجّلة في الدنياوالحياة السعيدة الأبديّة في الآخرة ـ فمن البيّن أنّه من قبيل الصنع والإيجاد الّذي يختصّ به تعالى فهو ممّا قضى به الله و أوجبه على نفسه وسجّله بوعده الحقّ قال تعالى : « فمن‌اتّبع هداي فلايضلّ ولايشقى » طه: ۱۲۳ ، وقال : « من عمل صالحاً من ذكرأواُنثى و هو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » النحل : ۹۷ ، وقال : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً

وعدالله حقّا و من أصدق من الله قيلا » النساء : ١٢٢ .

ولاينافي انتساب هذا المعنى من الهداية إليه تعالى بنحو الأصالة انتسابه إلى غيره تعالى بنحو التبع بتخلّل الأسباب بينه تعالى و بين ما ينسب إليه من الأثر باذنه .

ومعنى الآية ـ إن كان المراد بالهدى إراءة الطريق ـ أنّا إنّما نبيّن لكم ما نبيّن لأنّه من إراءة طريق العبوديّة وإراءة الطريق علينا ، وإن كان المراد به الايصال إلى المطلوب أنّا إنّما نيسّر هؤلاء لليسرى من الأعمال الصالحة أومن الحياة السهلة الأبديّة ودخول الجنة لأنّه من إيصال الأشياء إلى غاياتها وعلينا ذلك .

وأما التيسير للعسرى فهو ممّا يتوقّف عليه التيسير لليسرى « ليميز الله الخبيث من الطيّب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنّم » الأنفال : ٣٧ وقد قال سبحانه في القرآن الّذي هو هدى للعالمين : « وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلّاخسارا » أسرى : ٨٢ .

ويمكن أن يكون المراد به مطلق الهداية أعمّ من الهداية التكوينيّة الحقيقية والتشريعيّة الاعتباريّة ـ على ما هو ظاهر إطلاق اللفظ ـ فله تعالى الهداية الحقيقيّة كما قال : « الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه : ٥٠ ، والهداية الاعتباريّة كما قال : « إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإما كفورا » الانسان : ٣ .

وقوله : « و إنّ لنا للآخرة والاُولى » أي عالم البدء و عالم العود فكلّ ما يصدق عليه أنّه شيء فهو مملوك له تعالى بحقيقة الملك الّذي هو قيام وجوده بربّه القيّوم ويتفرّع عليه الملك الاعتباري الّذي من آثاره جواز التصرّفات .

فهو تعالى يملك كلّ شيء من كلّ جهة فلا يملك شيء منه شيئاً فلا معارض يعارضه ولامانع يمنعه ولاشيء يغلبه كما قال : « والله يحكم لامعقّب لحكمه » الرعد: ٤١ وقال : « والله غالب على أمره » يوسف : ٢١ ، وقال « ويفعل الله مايشاء » إبراهيم: ٢٧.

قوله تعالى : « فأنذرتكم ناراً تلظّى لايصلاها إلاّ الأشقى الّذي كذّب وتولّى »

تفريع على ما تقدّم أي إذا كان الهدى علينا فأنذرتكم نارجهنّم وبذلك يوجّه ما في قوله : « فأنذرتكم » من الالتفات عن التكلّم مع الغير إلى التكلم وحده أي إذا كان الهدى مقضيّة محتومة فالمنذر بالأصالة هوالله وإن كان بلسان رسوله .

وتلظّي النار تلهّبها وتوهّجها ، والمراد بالنار الّتي تتلظّى جهنّم كما قال تعالى : « كلاّ إنّها لظى » المعارج : ١٥ .

والمراد بالأشقى مطلق الكافر الّذي يكفر بالتكذيب والتولّي فإنّه أشقى من سائرمن شقي في دنياه فمن ابتلي في بدنه شقي ومن اُصيب في ماله أو ولده مثلا شقي ومن خسرفي أمرآخرته شقي والشقيّ في أمرآخرته أشقى من غيره لكون شقوته أبديّة لامطمع في التخلص منها بخلاف الشقوة فيشأنمنشؤون الدنيا فإنّها مقطوعة لامحالة مرجوّة الزوال عاجلا .

فالمراد بالأشقى هو الكافر المكذّب بالدعوة الحقّة المعرض عنها على ما يدلّ عليه توصيفه بقوله : « الّذي كذّب وتولّى » ويؤيّده إطلاق الإنذار ، وأمّا الأشقى بمعنى أشقى الناس كلّهم فممّا لايساعد عليه السياق البتة .

والمراد بصلي النار اتّباعهاولزومها فيفيد معنى الخلود وهو ممّا قضى الله به في حقّ الكافر قال تعالى : « والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا اُولئك أصحاب النارهم فيها خالدون» البقرة : ٣٩ .

وبذلك يندفع ماقيل : إنّ قوله : «لايصلاها إلاّ الأشقى» ينفي عذاب النار عن فسّاق المؤمنين على ما هو لازم القصر في الآية ، وجه الاندفاع أنّ الآية إنّما تنفي عن غيرالكافر الخلود فيها دون أصل الدخول .

قوله تعالى : «وسيجنّبها الأتقى الّذي يؤتي ماله يتزكّى وما لأحد عندهمن نعمة تجزى» التجنيب التبعيد ، وضمير «سيجنّبها» للنار ، والمعنى سيبعّد عن النار الأتقى .

والمراد بالأتقى من هوأتقى من غيره ممّن يتّقي المخاطر فهناك من يتّقيضيعة النفوس كالموت والقتل ومن يتّقي فساد الأموال ومن يتّقي العدموالفقر فيمسكعن

بذل المال وهكذا ومنهم من يتّقي الله فيبذل المال ، وأتقى هؤلاء الطوائف من يتّقي الله فيبذل المال لوجهه وإن شئت فقل يتّقي خسران الآخرة فيتزكّى بالإعطاء .

فالمفضّل عليه للأتقى هو من لا يتّقي بإعطاء المال و إن اتّقى سائر المخاطر الدنيويّة أو اتّقى الله بسائر الأعمال الصالحة .

فالآية عامّة بحسب مدلولها غير خاصّة ويدلّ عليه توصيف الأتقى بقوله : «الّذي يؤتي ماله» الخ وهو وصف عامّ وكذا ما يتلوه ، ولا ينافي ذلك كون الآيات أو جميع السورة نازلة لسبب خاصّ كما ورد في أسباب النزول .

وأمّا إطلاق المفضّل عليه بحيث يشمل جميع الناس من طالح أو صالح و لازمه انحصار المفضّل في واحد مطلقا أو واحد في كلّ عصر ، ويكون المعنى وسيجنّبها من هو أتقى الناس كلّهم وكذا المعنى في نظيره : لا يصلاها إلّا أشقى الناس كلّهم فلا يساعد عليه سياق آيات صدر السورة ، وكذا الإنذار العامّ الّذي في قوله : « فأنذرتكم ناراً تلظّى» فلا معنى لأن يقال : أنذرتكم جميعا ناراً لا يخلد فيها إلّا واحد منكم جميعا ولا ينجو منها إلّا واحد منكم جميعا .

وقوله : «الّذي يؤتي ماله يتزكّى» صفة للأتقى أي الّذي يعطي وينفق ماله يطلب بذلك أن ينمو نماءً صالحا .

وقوله : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى » تقرير لمضمون الآية السابقة أي ليس لأحد عنده من نعمة تجزى تلك النعمة بما يؤتيه من المال وتكافأ وإنّما يؤتيه لوجه الله و يؤيّد هذا المعنى تعقيبه بقوله : «إلّا ابتغاء وجه ربّه الأعلى» .

فالتقدير من نعمة تجزى به ، و إنّما حذف الظرف رعاية للفواصل ، و يندفع بذلك ماقيل : إنّ بناء «تجزى» للمفعول لأنّ القصد ليس لفاعل معيّن .

قوله تعالى : «إلّا ابتغاء وجه ربّه الأعلى» استثناء منقطع والمعنى ولكنّه يؤتي ماله طلباً لوجه ربّه الأعلى وقد تقدّم كلام في معنى وجه الله تعالى وفي معنى الاسم الأعلى .

قوله تعالى : «ولسوف يرضى» أي ولسوف يرضى هذا الأتقى بما يؤتيه ربّه

الأعلى من الأجر الجزيل والجزاء الحسن الجميل .

وفي ذكر صفتي الربّ والأعلى إشعار بأنّ مايؤتاه من الجزاء أنعم الجزاء وأعلاه وهوالمناسب لربوبيّته تعالى وعلوّه ، ومن هنا يظهر وجه الالتفات في الآية السابقة في قوله : «وجه ربّه الأعلى» من سياق التكلّم وحده إلى الغيبة بالإشارة إلى الوصفين: ربّه الأعلى .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن محمّد بن مسلم قال : قلت لأبي جعفر عليه‌السلام : قول الله عزّ وجل «واللّيل إذا يغشى» «والنجم إذاهوى» وما أشبه ذلك ؟ فقال : إنّ لله عزّ وجلّ أن يقسم من خلقه بما شاء ، وليس لخلقه أن يقسموا إلّا به .

أقول : ورواه في الفقيه بإسناده عن عليّ بن مهزيار عن أبي جعفر الثاني عليه‌السلام.

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « واللّيل إذا يغشى » قال : حين يغشى النهار وهو قسم .

و عن الحميريّ في قرب الأسناد عن أحمد بن محمّد عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه‌السلام قال : سمعته يقول في تفسير « واللّيل إذا يغشى » إنّ رجلاً كان لرجل في حائطه نخلة فكان يضرّ به فشكى ذلك إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فدعاه فقال : أعطني نخلتك بنخلة في الجنّة فأبى فسمع ذلك رجل من الأنصار يكنّى أبا الدحداح فجاء إلى صاحب النخلة فقال : بعني نخلتك بحائطي فباعه فجاء إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال : يا رسول الله قد اشتريت نخلة فلان بحائطي فقال رسول الله : لك بدلها نخلة في الجنّة .

فأنزل الله تعالى على نبيّه «وما خلق الزوجين الذكر و الاُنثى إنّ سعيكم لشتّى فأمّا من أعطى» يعني النخلة « واتّقى وصدّق بالحسنى» هو ما عند رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله «فسنيسّره لليسرى ــ إلى قوله ــ تردّى» .

أقول : ورواه القمّي في تفسيره مرسلاً مضمرا ، وقوله :الزوجين تفسير منه عليه‌السلام

للذكر والأنثى .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : «وسيجنّبها الأتقى» قال : أبو الدحداح .

قول : هذا مامن طرق الشيعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام .

وروى الطبرسيّ في مجمع البيان القصّة عن الواحديّ بإسناده عن عكرمة عن ابن عبّاس وفيه أنّ الأنصاريّ ساوم صاحب النخلة في نخلته ثمّ اشتراها منه بأربعين نخلة ثمّ وهبها للنبيّ صلى الله عليه وآله فوهبها النبيّ لصاحب الدار ثمّ روى الطبرسيّ عن عطاء أنّ اسم الرجل أبو الدحداح ، وروى السيوطيّ في الدرّ المنثور القصّة عن ابن أبي حاتم عن ابن عباس وضعّفه .

وقد ورد من طرق أهل السنّة أنّ السورة نزلت في أبي بكر قال الرازي في التفسير الكبير : أجمع المفسّرون منّا على أنّ المراد منه ـ يعنى من الأتقى ـ أبو بكر ، واعلم أنّ الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرواية ، ويقولون إنّما نزلت في حقّ عليّ بن أبي طالب والدليل عليه قوله تعالى : « ويؤتون الزكاة وهم راكعون» فقوله : «الأتقى الّذي يؤتي ماله يتزكّى» إشارة إلى ما في تلك الآية من قوله : «ويؤتون الزكاة و هم راكعون » ثمّ أخذ الأتقى بمعنى أفضل الخلق أي أتقى الناس جميعاً وقد تقدّم الكلام فيه .

أمّا ما نسب إلى الشيعة بأسرهم من القول فالمعتمد عليه من طرقهم صحيح الحميريّ المتقدّم وما في معناه من الروايات الدالّة على نزولها في أبي الدحداح الأنصاري .

نعم ورد في رواية ضعيفة عن البرقيّ عن إسماعيل بن مهران عن أيمن بن محرز عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام و فيها : و أمّا قوله : « وسيجنّبها الأتقى » قال : رسول الله صلى الله عليه وآله ومن تبعه ، و «الّذي يؤتي ماله يتزكّى» قال : ذاك أمير المؤمنين عليه السلام وهو قوله : «ويؤتون الزكاة وهم راكعون» ، وقوله : «وما لأحد عنده من نعمة تجزى» فهو رسول الله الّذي ليس لأحد عنده من نعمة تجزى و نعمته جارية على جميع الخلق صلوات الله عليه .

والرواية على ضعف [١] سندها من قبيل الجري و التطبيق دون التفسير ومن واضح الدليل عليه تطبيقه الموصوف على رسول الله صلى الله عليه وآله والوصف على علي عليه السلام ثم الآية التالية على النبي صلى الله عليه وآله ولو كانت من التفسير لفسد بذلك النظم قطعا . هذا لو كانت الواو في قوله : « والذي يؤتي ماله يتزكّى » من الرواية ولو فرضت من الآية كانت الرواية من روايات التحريف المردودة .

وعن الحميري عن أحمد بن محمد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : قلت : قول الله تبارك وتعالى : «إنّ علينا للهدى » قال : إنّ الله يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء .

فقلت له : أصلحك الله إن قوما من أصحابنا يزعمون أنّ المعرفة مكتسبة وأنّهم إن ينظروا من وجه النظر أدركوه .

فأنكر ذلك وقال : مالهؤلاء القوم لا يكتسبون الخير لأنفسهم ؟ ليس أحد من الناس إلاّ و يجب أن يكون خيراً ممّن هو خير منه هؤلاء بنو هاشم موضعهم موضعهم وقرابتهم قرابتهم وهم أحقّ بهذا الأمر منكم أفترى أنّهم لا ينظرون لأنفسهم ؟ وقد عرفتم ولم يعرفوا .

قال أبو جعفر : لو استطاع الناس لأحبّونا .

أقول : أمّا الهداية ـ والمراد بها الإيصال إلى المطلوب ـ فهي لله تعالى لأنها من شؤون الربوبيّة ، وأمّا الإضلال والمراد به الإضلال على سبيل المجازاة دون الإضلال الابتدائي الّذي لا يضاف إليه تعالى فهو لله أيضاً لكونه إمساكا عن إنزال الرحمة وعدما للهداية وإذا كانت الهداية له فالإمساك عنه أيضاً منسوب إليه تعالى .

---

(١) ايمن بن محرز مجهول .

﴿ سورة الضحى مكّيّة أومدنيّة وهي احدى عشرة آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَ الضُّحٰى (١) وَاللَّيْلِ اِذٰا سَجٰى (٢) مٰا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مٰا قَلٰى (٣) وَلَلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْاُولٰى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضٰى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوٰى (٦) وَ وَجَدَكَ ضٰالّاً فَهَدٰى (٧) وَ وَجَدَكَ عٰائِلاً فَأَغْنٰى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلٰا تَقْهَرْ (٩) وَ أَمَّا السّٰائِلَ فَلٰا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمّٰا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) .

﴿ بيان ﴾

قيل : انقطع الوحي عن النبي صلى الله عليه وآله أيّاماً حتّى قالوا : إنّ ربّه ودّعه فنزلت السورة فطيّب الله بها نفسه ، والسورة تحتمل المكّيّة والمدنيّة .

قوله تعالى : «والضحى والليل إذا سجى» إقسام والضحى ـ على ما في المفردات ـ انبساط الشمس و امتداد النهار وسمّي الوقت به ، وسجو اللّيل سكونه وهو غشيان ظلمته .

قوله تعالى : «ما ودّعك ربّك وما قلى» التوديع الترك ، والقلى بكسر القاف البغض أوشدّته ، والآية جواب القسم ، ومناسبة نور النهار وظلمة الليل لنزول الوحي وانقطاعه ظاهرة .

قوله تعالى : « وللآخرة خير لك من الاُولى » في معنى الترقّي بالنسبة إلى ما تفيده الآية السابقة من كونه صلى الله عليه وآله على ما هو عليه من موقف الكرامة والعناية الإلهيّة كأنّه قيل : أنت على ما كنت عليه من الفضل والرحمة مادمت حيّاً في الدنيا وحياتك الآخرة خير لك من حياتك الدنيا .

قوله تعالى: « و لسوف يعطيك ربّك فترضى » تقرير و تثبيت لقوله : « و للآخرة خير لك من الاُولى » وقد اشتمل الوعد على عطاء مطلق يتبعه رضى مطلق .

وقيل : الآية ناظرة إلى الحياتين جميعاً دون الحياة الآخرة فقط .

قوله تعالى: «ألم يجدك يتيماً فآوى» الآية وما يتلوهامن الآيتين إشارةإلى بعض نعمه تعالى العظام عليه صلّىالله عليه وآله فقد مات أبوه و هو في بطن اُمّه ثمّ ماتت اُمّه وهو ابن سنتين ثمّ مات جدّه الكفيل له وهو ابن ثمان سنين فكفّله عمّه وربّاه .

وقيل : المرادباليتيم الوحيدالّذيلانظيرله فيالناسكمايقال : درٌّ يتيم ، والمعنى ألم يجدك وحيداً بين الناس فآوى الناس إليك وجمعهم حولك .

قوله تعالى: « و وجدك ضالاً فهدى » المراد بالضلال عدم الهداية و المراد بكونه صلّى الله عليه وآله ضالاً حاله في نفسه مع قطع النظر عن هدايته تعالى فلاهدى له صلّى الله عليه وآله ولا لأحدمن الخلق إلّا بالله سبحانه فقد كانت نفسه في نفسها ضالّة وإن كانت الهداية الإلهيّة ملازمة لها منذ وجدت فالآية فيمعنى قولهتعالى : «ماكنت تدري ماالكتاب ولا الإيمان»الشورى : ٥٢ ، ومن هذا الباب قولموسىعلى ما حكىالله عنه : «فعلتها إذاً وأنا من الضالّين» الشعراء : ٢٠ أي لم أهتد بهدى الرسالة بعد .

ويقرب منه ما قيل : إنّ المرادبالضلال الذهاب من العلمكما فيقوله: «أنتضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الاُخرى » البقرة : ٢٨٢ ، ويؤيّده قوله : «وإن كنت من قبله لمن الغافلين» يوسف : ٣ .

و قيل المعنى وجدك ضالاً بين الناس لا يعرفون حقّك فهداهم إليك ودلّهم عليك .

وقيل : إنّه إشارة إلى ضلاله في طريق مكّة حينما كانت تجيء به حليمة بنت أبي ذؤيب منالبدوإلى جده عبدالمطلبعلى ماروى .

وقيل : إشارة إلى ما روي من ضلاله في شعاب مكّة صغيرا .

وقيل: إشارة إلى ماروي من ضلاله في مسيره إلى الشام مع عمّه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة.

وقيل غير ذلك وهي وجوه ضعيفة ظاهرة الضعف.

قوله تعالى: « ووجدك عائلاً فأغنى » العائل الفقير الّذي لا مال له وقد كان صلى الله عليه وآله فقيراً لا مال له فأغناه الله بعد ما تزوّج بخديجة بنت خويلد عليها السلام فوهبت له مالها وكان لها مال كثير، وقيل المراد بالاغناء استجابة دعوته.

قوله تعالى: « فأمّا اليتيم فلاتقهر » قال الراغب: القهر الغلبة والتذليل معاً ويستعمل في كلّ واحد منهما. انتهى.

قوله تعالى: «وأمّا السائل فلاتنهر» النهر هو الزجر والردّ بغلظة.

قوله تعالى: « وأمّا بنعمة ربّك فحدّث » التحديث بالنعمة ذكرها قولاً وإظهارها فعلاً و ذلك شكرها، و هذه الأوامر عامّة للناس و إن كانت موجّهة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله.

والآيات الثلاث متفرّعة على الآيات الثلاث الّتي تسبقها وتذكر نعمه تعالى عليه كأنّه قيل: فقد وجدت ما يجده اليتيم من ذلّة اليتم وانكساره فلاتقهر اليتيم باستذلاله في نفسه أوماله، ووجدت مرارة حاجة الضالّ إلى الهدى والعائل إلى الغنى فلاتزجر سائلاً يسألك رفع حاجته إلى هدى أو معاش، ووجدت أنّ ما عندك نعمة أنعمها عليك ربّك بجوده وكرمه ورحمته فاشكر نعمته بالتحديث بها ولاتسترها.

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى: « والضحى » قال: إذا ارتفعت الشمس « والليل إذا سجى » قال: إذا أظلم.

وفيه في قوله تعالى: « وماقلى » قال: لم يبغضك.

وفي الدرّ المنثور في قوله تعالى: « ولسوف يعطيك ربّك فترضى» أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة

على الدنيا « ولسوف يعطيك ربّك فترضى » .

وفيه أخرج العسكريّ في المواعظ وابن لال وابن النجّار عن جابر بن عبدالله قال : دخل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على فاطمة و هي تطحن بالرحى و عليها كساء من حلّة الإبل فلمّا نظر إليها قال : يا فاطمة تعجّلي فتجرّعي مرارة الدنيا لنعيمها الآخرة غداً فأنزل الله « ولسوف يعطيك ربّك فترضى » .

أقول : تحتمل الرواية نزول الآية وحدها بعد نزول بقيّة آيات السورة قبلها ثمّ الإلحاق وتحتمل نزولها وحدها ثانيا .

و فيه أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبونعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال : قلت لأبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين : أرأيت هذه الشفاعة الّتي يتحدّث بها أهل العراق أحقّ هي ؟ قال : إي والله حدّثني عمّي محمّد بن الحنفيّة عن عليّ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : أشفع لاُمّتي حتّى يناديني ربّي : أرضيت يا محمّد ؟ فأقول : نعم يارب رضيت .

ثمّ أقبل عليّ فقال : إنّكم تقولون يا معشر أهل العراق : إنّ أرجى آية في كتاب الله : « يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعا » قلت : إنّا لنقول ذلك . قال : فكلّنا أهل البيت نقول : إنّ أرجى آية في كتاب الله « ولسوف يعطيك ربّك فترضى » الشفاعة .

وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن ابن الجهم عن الرضا عليه السلام في مجلس المأمون قال : قال الله تعالى لنبيّه محمّد صلّى الله عليه وآله : « ألم يجدك يتيماً فآوى » يقول : ألم يجدك وحيداً فآوى إليك الناس ؟ « و وجدك ضالاً » يعني عند قومك « فهدى » أي هداهم إلى معرفتك ؟ « ووجدك عائلاً فأغنى » يقول : أغناك بأن جعل دعاءك مستجاباً ؟ فقال المأمون : بارك الله فيك يابن رسول الله .

وفيه عن البرقيّ بإسناده عن عمرو بن أبي نصر قال : حدّثني رجل من أهل البصرة قال : رأيت الحسين بن عليّ عليه السلام وعبدالله بن عمر يطوفان بالبيت فسألت ابن عمر فقلت : قول الله تعالى : « وأمّا بنعمة ربّك فحدّث » قال : أمره أن يحدّث بما

أنعم الله عليه .

ثمّ إنّي قلت للحسين بن عليّ عليه السلام : قول الله تعالى : « وأمّا بنعمة ربّك فحدّث » ؟ قال : أمره أن يحدّث بما أنعم الله عليه من دينه .

وفي الدّر المنثورعن البيهقي عن الحسن بن عليّ في قوله : « وأمّا بنعمة ربّك فحدّث » قال : إذا أصبت خيراً فحدّث إخوانك .

وفيه أخرج أبوداود عن جابربن عبدالله عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ومن كتمه فقدكفره ، ومن تحلّى بمالم يعط فإنّه كلابس ثوب زور .

﴿ سورة ألم نشرح مكيّة أومدنيّة وهي ثمان آيات ﴾

بِسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَ وَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى اَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَاِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٥) اِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٦) فَاِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَ اِلٰى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) .

﴿ بيان ﴾

أمر بالنصب في الله والرغبة إليه توصّل إليه بتقدمة الامتنان و السورة تحتمل المكيّة والمدنيّة وسياق آياتها أوفق للمدنيّة .

و في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ الضحى وألم نشرح سورة واحدة ، و يروى ذلك أيضاً عن طاوس و عمر بن عبد العزيز قال الرازيّ في التفسير الكبير بعد نقله عنهما : و الّذي دعاهما إلى ذلك هو أنّ قوله تعالى : « ألم نشرح لك » كالعطف على قوله : « ألم يجدك يتيماً » و ليس كذلك لأنّ الأوّل كان نزوله حال اغتمام الرسول صلّى الله عليه وآله من إيذاء الكفّار فكانت حال محنة وضيق صدر ، والثاني يقتضي أن يكون حال النزول منشرح الصدر طيّب القلب فأنّى يجتمعان انتهى .

وفيه أنّ المراد بشرح صدره صلّى الله عليه وآله في الآية جعله بحيث يسع ما يلقى إليه من الحقائق ولا يضيق بما ينزل عليه من المعارف وما يصيبه من أذى الناس في تبليغها كما سيجيء لا طيب القلب والسرور كما فسّره .

ويدلّ على ذلك ما رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : لقد سألت ربّي مسألة وددت أنّي لم أسأله قلت : أي ربّ إنّه

قدكان أنبياء قبلي منهم من سخّرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى . قال :فقال: ألم أجدك يتيماً فآويتك ؟ قال : قلت : بلى قال : ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قال : قلت : بلى أي ربّ . قال : ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك ؟ قال : قلت : بلى أي ربّ ، وللكلام تتمة ستوافيك في تفسير سورة الإيلاف إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : «ألم نشرح لك صدرك» قال الراغب : أصل الشرح بسط اللحم ونحوه يقال : شرحت اللحم وشرّحته ومنه شرح الصدر أي بسطه بنور إلهيّ وسكينة من جهة الله وروح منه قال تعالى : « ربّ اشرح لي صدري» « ألم نشرح لك صدرك » « فمن شرح الله صدره» انتهى .

وترتّب الآيات الثلاث الاول في مضامينها ثمّ تعليلها بقوله : «فإنّ مع العسر يسراً» الظاهر في الانطباق على حاله صلى الله عليه وآله في أوائل دعوته وأواسطها وأواخرها ثمّ تكرار التعليل ثمّ تفريع آيتي آخر السورة كلّ ذلك يشهد على كون المراد بشرح صدره صلى الله عليه وآله بسطه بحيث يسع ما يلقى إليه من الوحي ويؤمر بتبليغه وما يصيبه من المكاره والأذى في الله ، وبعبارة اُخرى جعل نفسه المقدّسة مستعدّة تامّة الاستعداد لقبول ما يفاض عليها من جانب الله تعالى .

قوله تعالى : «ووضعنا عنك وزرك الّذي أنقض ظهرك» الوزر الحمل الثقيل ، وإنقاض الظهر كسره بحيث يسمع له صوت كما يسمع من السرير ونحوه عند استقرار شيء ثقيل عليه ، والمراد به ظهور ثقل الوزر عليه ظهوراً بالغاً .

ووضع الوزر إذهاب ما يحسّ من ثقله وجملة : «ووضعنا عنك وزرك» معطوفة على قوله : «ألم نشرح» الخ لما أنّ معناه قد شرحنا لك صدرك .

والمراد بوضع وزره صلى الله عليه وآله على ما يفيده السياق ـ وقد أشرنا إليه ـ إنفاذ دعوته وإمضاء مجاهدته في الله بتوفيق الأسباب فإنّ الرسالة والدعوة وما يتفرّع على ذلك هي الثقل الّذي حمّله إثر شرح صدره .

وقيل : وضع الوزر إشارة إلى ما وردت به الرواية أنّ ملكين نزلا عليه وفلقا صدره وأخرجا قلبه وطهّراه ثمّ ردّاه إلى محلّه وستوافيك روايته .

وقيل : المراد بالوزر ما صدرعنه صلى الله عليه وآله قبل البعثة ، وقيل : غفلته عن الشرائع ونحوها ممّا يتوقّف على الوحي مع تطلّبه ، وقيل : حيرته في بعض الاُمور كأداء حقّ الرسالة ، وقيل : الوحي وثقله عليه في بادىء أمره ، وقيل : ماكان يرى من ضلال قومه وعنادهم مع عجزه عن إرشادهم ، وقيل : ماكان يرى من تعدّيهم ومبالغتهم في إيذائه، وقيل : همّه لوفاة عمّه أبي طالب وزوجه خديجة ، وقيل : الوزر المعصية ورفع الوزر عصمته ، وقيل : الوزر ذنب اُمته ووضعه غفرانه .

وهذه الوجوه بعضها سخيف وبعضها ضعيف لايلائم السياق ، وهي بين ما قيل به وبين ما احتمل احتمالا .

قوله تعالى : « ورفعنا لك ذكرك » رفع الذكر إعلاؤه عن مستوى ذكر غيره من الناس وقد فعل سبحانه به ذلك ، ومن رفع ذكره أن قرن الله اسمه صلى الله عليه وآله باسمه فاسمه قرين اسم ربّه في الشهادتين اللّتين هما أساس دين الله ، وعلى كلّ مسلم أن يذكره مع ربّه كلّ يوم في الصلوات الخمس المفروضة ، ومن اللطف وقوع الرفع بعد الوضع في الآيتين .

قوله تعالى : «فانّ مع العسر يسرا» لايبعد أن يكون تعليلا لما تقدّم من وضع الوزر ورفع الذكر فما حمّله الله من الرسالة وأمره به من الدعوة ـ وذلك أثقل مايمكن لبشر أن يحمله ـ كان قد اشتدّ عليه الأمر بذلك ، وكذا تكذيب قومه دعوته واستخفافهم به وإصرارهم على إمحاء ذكره كان قد اشتدّ عليه فوضع الله وزره الّذي حمّله بتوفيق الناس لإجابة دعوته ورفع ذكره الّذي كانوا يريدون إمحاءه وكان ذلك جرياً على سنّته تعالى في الكون من الإتيان باليسر بعد العسر فعلّل رفع الشدّة عنه صلى الله عليه وآله بما أشار إليه من سنّته ، وعلى هذا فاللاّم في «العسر» للجنس دون الاستغراق ولعلّ السنّة سنّة تحوّل الحوادث وتقلّب الأحوال وعدم دوامها .

و عن الزمخشريّ في الكشّاف أنّ الفاء في « فإنّ مع العسر » الخ فصيحة والكلام مسوق لتسليته صلى الله عليه وآله بالوعد الجميل .

قال : كان المشركون يعيّرون رسول الله صلى الله عليه وآله والمؤمنين بالفقر والضيقة حتّى

سبق إلى ذهنه الشريف أنّهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم فذكّره سبحانه ما أنعم به عليه من جلائل النعم ثمّ قال : إنّ مع العسر يسرا كأنّه قال : خوّلناك ما خوّلناك فلا تيأس من فضل الله فإنّ مع العسر الّذي أنتم فيه يسرا .

وظاهره أنّ اللاّم في العسر للعهد دون الجنس و أنّ المراد باليسر ما رزقه الله المؤمنين بعد من الغنائم الكثيرة .

وهو ممنوع فذهنه الشريف صلى الله عليه وآله أجلّ من أن يخفى عليه حالهم وأنّهم إنّما يرغبون عن دعوته استكبارا على الحقّ واستعلاء على الله على أنّ القوم لم يرغبوا في الإسلام حتّى بعد ظهور شوكته وإثراء المؤمنين وقد أياس الله نبيّه من إيمان أكثرهم حيث قال : «لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لايؤمنون ـ إلى أن قال ـ وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» يس : ١٠ و الآيات مكيّة وقال : إنّ الّذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» البقرة : ٦ والآية مدنيّة .

ولو حمل اليسر بعد العسر على شوكة الإسلام ورفعته بعد ضعته مع أخذ السورة مكيّة لم يكن به كثير بأس .

قوله تعالى : « إنّ مع العسر يسراً » تكرار للتأكيد والتثبيت وقيل: استئناف وذكروا أنّ في الآيتين دلالة على أنّ مع العسر الواحد يسران بناء على أنّ المعرفة إذا اُعيدت ثانية في الكلام كان المراد بها عين الاُولى بخلاف النكرة كما أنّه لو قيل : إذا اكتسبت الدرهم أو درهما فأنفق الدرهم كان المراد بالثاني هو الأوّل بخلاف ما لو قيل : إذا اكتسبت درهما فأنفق درهما وليست القاعدة بمطّردة .

و التنوين في « يسراً » للتنويع لا للتفخيم كما ذكره بعضهم ، و المعيّة معيّة التوالي دون المعيّة بمعنى التحقّق في زمان واحد .

قوله تعالى : «فإذا فرغت فانصب وإلى ربّك فارغب» خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله متفرّع على ما بيّن قبل من تحميله الرسالة والدعوة ومنّه تعالى عليه بما منّ من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر وكلّ ذلك من اليسر بعد العسر .

وعليه فالمعنى إذا كان العسر ياتي بعده باليسر والأمر فيه إلى الله لا غير فإذا فرغت

ممّا فرض عليك فاتعب نفسك في الله ـ بعبادته ودعائه ـ وارغب فيه ليمنّ عليك بما لهذا التعب من الراحة ولهذا العسر من اليسر .

وقيل : المراد إذا فرغت من الفرائض فانصب في النوافل ، وقيل : إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء ، وما يتضمّنه القولان بعض المصاديق .

وقيل : المعنى إذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة وقيل : المراد إذا فرغت من دنياك فانصب في آخرتك وقيل غير ذلك وهي وجوه ضعيفة .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدّر المنثور أخرج عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد عن اُبيّ بن كعب أنّ أبا هريرة قال : يا رسول الله ما أوّل ما رأيت من أمر النبوّة ؟ فاستوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً وقال : لقد سألت أبا هريرة إنّي لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهرا إذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قطّ ، وأرواح لم أجدها في خلق قطّ وثياب لم أجدها على أحد قطّ فأقبلا إليّ يمشيان حتّى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسّاً .

فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه فأضجعني بلا قصر ولا هصر فقال أحدهما : افلق صدره فحوّى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع فقال له : أخرج الغلّ والحسد فأخرج شيأً كهيئة العلقة ثمّ نبذها فطرحها فقال له : أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الّذي أخرج شبه الفضّة ثمّ هزّ إبهام رجلي اليمنى وقال: اغد وأسلم فرجعت بها أغدو بها رقّة على الصغير ورحمة للكبير .

أقول : وفي نقل بعضهم ـ كما في روح المعاني ـ ابن عشر حجج مكان قوله : ابن عشرين سنة وأشهرا ، وفي بعض الروايات نقل القصّة عند نزول سورة اقرء باسم ربّك وفي بعضها كما في صحيح البخاريّ ومسلم والترمذيّ والنسائي نقل القصّة عند إسراء النبيّ صلى الله عليه وآله .

والقصّة على أيّ حال من قبيل التمثّل بلا إشكال ، وقد أطالوا البحث في توجيه

ما تتضمّنه على أنّها واقعة ماديّة فتمحّلوا بوجوه لا جدوى في التعرّض لها بعد فساد أصلها .

وفيه أخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبّان وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن أبي سعيد الخدريّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : أتاني جبرئيل فقال : إنّ ربّك يقول : تدري كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله أعلم . قال : إذا ذكرت ذكرت معي .

وفيه أخرج عبدالرزّاق وابن جرير والحاكم والبيهقيّ عن الحسن قال : خرج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يوماً مسروراً وهو يضحك ويقول : لن يغلب عسر يسرين «إنّ مع العسر يسراً إنّ مع العسر يسراً» .

وفي المجمع في قوله تعالى : «فإذا فرغت فانصب وإلى ربّك فارغب» معناه فإذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربّك في الدعاء وارغب إليه في المسألة . قال : وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

﴿ سورة التين مكيّة وهي ثمان آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (۱) وَطُورِ سِنِينَ (۲) وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (۴) ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (۵) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۶) فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (۷) أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ (۸) .

﴿ بيان ﴾

تذكر السورة البعث والجزاء وتسلك إليه من طريق خلق الإنسان في أحسن تقويم ثمّ اختلافهم بالبقاء على الفطرة الاُولى وخروجهم منها بالانحطاط إلى أسفل سافلين ووجوب التمييز بين الطائفتين جزاء باقتضاء الحكمة .

والسورة مكّيّة وتحتمل المدنيّة ويؤيّد نزولها بمكّة قوله : «وهذا البلد الأمين» وليس بصريح فيه لاحتمال نزولها بعد الهجرة وهو صلى الله عليه وآله بمكّة .

قوله تعالى : «والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين» قيل : المراد بالتين والزيتون الفاكهتان المعروفتان أقسم الله بهما لما فيهما من الفوائد الجمّة والخواصّ النافعة ، وقيل المراد بهما شجرتا التين والزيتون ، وقيل : المراد بالتين الجبل الّذي عليه دمشق وبالزيتون الجبل الّذي عليه بيت المقدس ، ولعلّ اطلاق اسم الفاكهتين على الجبلين لكونهما منبتيهما ولعلّ الإقسام بهما لكونهما مبعثي جمّ غفير من الأنبياء وقيل غير ذلك .

والمراد بطور سينين الجبل الذى كلّم الله تعالى فيه موسى بن عمران عليه السلام ، ويسمّى أيضا طور سيناء .

والمراد بهذا البلد الأمين مكّة المشرّفة لأنّ الأمن خاصّة مشرّعة للحرم وهي فيه قال تعالى: «أولم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً» العنكبوت: ٦٧ وفي دعاء إبراهيم عليه السلام على ما حكى الله عنه: «ربّ اجعل هذا بلداً آمنا» البقرة: ١٢٦، وفي دعائه ثانيا: «ربّ اجعل هذا البلد آمنا» إبراهيم: ٣٥.

وفي الإشارة بهذا إلى البلد تثبيت التشريف عليه بالتشخيص وتوصيفه بالأمين إمّا لكونه فعيلا بمعنى الفاعل ويفيد معنى النسبة والمعنى ذي الأمن كاللابن والتامر وإمّا لكونه فعيلا بمعنى المفعول والمراد البلد الّذي يؤمن الناس فيه أي لا يخاف فيه من غوائلهم ففي نسبة الأمن إلى البلد نوع تجوّز.

قوله تعالى: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» جواب للقسم والمراد بكون خلقه في أحسن تقويم اشتمال التقويم عليه في جميع شؤونه وجهات وجوده، والتقويم جعل الشيء ذا قوام وقوام الشيء ما يقوم به ويثبت فالإنسان والمراد به الجنس ذو أحسن قوام بحسب الخلقة.

ومعنى كونه ذا أحسن قوام بحسب الخلقة على ما يستفاد من قوله بعد: «ثمّ رددناه أسفل سافلين إلّا الّذين» الخ صلوحه بحسب الخلقة للعروج إلى الرفيع الأعلى والفوز بحياة خالدة عند ربّه سعيدة لا شقوة معها، و ذلك بما جهّزه الله به من العلم النافع ومكّنه منه من العمل الصالح قال تعالى: «ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها» الشمس: ٨ فإذا آمن بما علم وزاول صالح العمل رفعه الله إليه كما قال: «إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه» فاطر: ١٠، وقال: «ولكن يناله التقوى منكم» الحجّ: ٣٧. وقال: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والّذين اُوتوا العلم درجات» المجادلة: ١١ وقال: «فاُولئك لهم الدرجات العلى» طه: ٧٥ إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على ارتفاع مقام الإنسان وارتقائه بالإيمان والعمل الصالح عطاء من الله غير مجذوذ، وقد سمّاه تعالى أجراً كما يشير إليه قوله الآتي: «فلهم أجر غير ممنون».

قوله تعالى: «ثمّ رددناه أسفل سافلين» ظاهر الردّ أن يكون بمعناه المعروف فأسفل منصوب بنزع الخافض، والمراد بأسفل سافلين مقام منحطّ هو أسفل من سفل

من أهل الشقوة والخسران والمعنى ثمّ رددنا الإنسان إلى أسفل من سفل من أهل العذاب .

واحتمل أن يكون الردّ بمعنى الجعل أي جعلناه أسفل سافلين ، وأن يكون بمعنى التغيير والمعنى ثمّ غيّرناه حال كونه أسفل جمع سافلين ، والمراد بالسفالة على أيّ حال الشقاء والعذاب .

وقيل : المراد بخلق الإنسان في أحسن تقويم ما عليه وجوده أوان الشباب من استقامة القوى وكمال الصورة وجمال الهيئة ، وبردّه إلى أسفل سافلين ردّه إلى الهرم بتضعيف قواه الظاهرة والباطنة ونكس خلقته فتكون الآية في معنى قوله تعالى : «ومن نعمّره ننكّسه في الخلق» يس : ٦٨ .

وفيه أنّه لا يلائمه ما في قوله : «إلاّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات» من الاستثناء الظاهر في المتّصل فانّ حكم الخلق عامّ في المؤمن والكافر والصالح والطالح ودعوى أنّ المؤمن أو المؤمن الصالح مصون من ذلك مجازفة .

وكذا القول بأنّ المراد بالإنسان هو الكافر والمراد بالردّ ردّه إلى جهنّم أو إلى نكس الخلق والاستثناء منقطع .

قوله تعالى : «إلاّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون» أي غير مقطوع استثناء متّصل من جنس الإنسان ، وتفريع قوله : «فلهم أجر غير ممنون» عليه يؤيّد كون المراد من ردّه إلى أسفل سافلين ردّه إلى الشقاء والعذاب .

قوله تعالى : «فما يكذّبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين» الخطاب للإنسان باعتبار الجنس ، وقيل للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمراد غيره ، و«ما» استفهاميّة توبيخيّة ، و«بالدين» متعلّق بيكذّبك ، والدين الجزاء والمعنى ـ على ما قيل ـ ما الّذي يجعلك مكذّباً بالجزاء يوم القيامة بعد ما جعلنا الإنسان طائفتين طائفة مردودة إلى أسفل سافلين وطائفة مأجورة أجراً غير ممنون .

وقوله : «أليس الله بأحكم الحاكمين» الاستفهام للتقرير وكونه تعالى أحكم الحاكمين هو كونه فوق كلّ حاكم في إتقان الحكم وحقيّته ونفوذه من غير اضطراب

ووهن وبطلان فهو تعالى يحكم في خلقه وتدبيره بما من الواجب في الحكمة أن يحكم به من حيث الإتقان و الحسن والنفوذ و إذا كان الله تعالى أحكم الحاكمين و الناس طائفتان مختلفتان اعتقاداً وعملاً فمن الواجب في الحكمة أن يميّز بينهم بالجزاء في حياتهم الباقية وهو البعث .

فالتفريع في قوله : «فما يكذّبك بعد بالدين» من قبيل تفريع النتيجة على الحجّة و قوله : «أليس الله بأحكم الحاكمين» تتميم للحجّة المشار إليها بما يتوقّف عليه تمامها .

والمحصّل أنّه إذا كان الناس خلقوا في أحسن تقويم ثمّ اختلفوا فطائفة خرجت عن تقويمها الأحسن وردّت إلى أسفل سافلين وطائفة بقيت في تقويمها الأحسن وعلى فطرتها الاُولى والله المدبّر لأمرهم أحكم الحاكمين ، ومن الواجب في الحكمة أن تختلف الطائفتان جزاء ، فهناك يوم تجزى فيه كلّ طائفة بما عملت ولا مسوّغ للتكذيب به .

فالآيات ـ كما ترى ـ في معنى قوله تعالى : « أم نجعل الّذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار » ص : ٢٨ ، و قوله : « أم حسب الّذين اجترحوا السيّآت أن نجعلهم كالّذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون» الجاثية : ٢١ .

وبعض من جعل الخطاب في قوله : « فما يكذّبك » للنبيّ صلى الله عليه وآله جعل « ما » بمعنى من والحكم بمعنى القضاء ، وعليه فالمعنى إذا كان الناس مختلفين و لازم ذلك اختلاف جزائهم في يوم معدّ للجزاء فمن الّذي ينسبك إلى الكذب بالجزاء أليس الله بأقضى القاضين فهو يقضي بينك وبين المكذّبين لك بالدين .

وأنت خبير بأنّ فيه تكلّفاً من غير موجب .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « والتين والزيتون و طور سينين و هذا البلد الأمين » التين المدينة والزيتون بيت المقدس وطورسينين الكوفة وهذا البلد الأمين مكّة .

اقول : وقد ورد هذا المعنى في بعض الروايات عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولايخلو من شيء ، وفي بعضها أنّ التين والزيتون الحسن والحسين والطورعليّ والبلد الأمين النبيّ صلى الله عليه وآله وليس من التفسيرفي شيء .

وفي الدّر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابربن عبدالله أنّ خزيمة بن ثابت وليس بالأنصاريّ سأل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن البلد الأمين فقال : مكّة .

﴿ سورة العلق مكيّة وهي تسع عشرة آية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الانسان من علق (٢) اقرء و ربك الاكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الانسان مالم يعلم (٥) كلا ان الانسان ليطغى (٦) ان رآه استغنى (٧) ان الى ربك الرجعى (٨) ارايت الذي ينهى (٩) عبداً اذا صلى (١٠) ارايت ان كان على الهدى (١١) او امر بالتقوى (١٢) ارايت ان كذب وتولى (١٣) الم يعلم بأن الله يرى (١٤) كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية (١٥) ناصية كاذبة خاطئة (١٦) فليدع ناديه (١٧) سندع الزبانية (١٨) كلا لا تطعه واسجد واقترب (١٩) .

﴿ بيان ﴾

أمر للنبي ﷺ بتلقّي القرآن بالوحي منه تعالى وهي أوّل سورة نزلت من القرآن ، وسياق آياتها لا يأبى نزولها دفعة واحدة كما سنشير إليه ، وهي مكّيّة قطعا .

قوله تعالى : « اقرء باسم ربّك الّذي خلق خلق الإنسان من علق » قال الراغب : والقراءة ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل ، وليس يقال ذلك لكلّ جمع لا يقال : قرأت القوم إذا جمعتهم ، ويدلّ على ذلك أنّه لا يقال : للحرف الواحد إذا تفوّه به : قراءة انتهى .

وعلى أيّ حال ، يقال : قرأت الكتاب إذا جمعت ما فيه من الحروف والكلمات بضمّ بعضها إلى بعض في الذهن وإن لم تتلفّظ بها ، و يقال : قرأته إذا جمعت الحروف والكلمات بضمّ بعضها إلى بعض في التلفّظ ، ويقال قرأته عليه إذا جمعيت بين حروفه و كلماته في سمعه و يطلق عليها بهذا المعنى التلاوة أيضاً قال تعالى : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة » البينة : ۲ .

وظاهر إطلاق قوله : « اقرء » المعنى الأوّل والمراد به الأمر بتلقّي ما يوحيه إليه ملك الوحي من القرآن فالجملة أمر بقراءة الكتاب وهي من الكتاب كقول القائل في مفتتح كتابه لمن أرسله إليه : اقرء كتابي هذا واعمل به فقوله هذا أمر بقراءة الكتاب وهو من الكتاب .

و هذا السياق يؤيّد أوّلاً ماورد أنّ الآيات أوّل ما نزل من القرآن على النبيّ ﷺ .

وثانيا أنّ التقدير اقرء القرآن أوما في معناه ، وليس المراد مطلق القراءة باستعمال « اقرء » استعمال الفعل اللازم بالإعراض عن المفعول ، ولا المراد القراءة على الناس بحذف المتعلّق وإن كان ذلك من أغراض النزول كما قال : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث و نزّلناه تنزيلا » أسرى : ۱۰۶ ، ولا أنّ قوله : « باسم ربّك » مفعول « اقرء » والباء زائدة والتقدير اقرء اسم ربّك أي بسمل .

وقوله : « باسم ربّك » متعلّق بمقدّر نحو مفتتحا ومبتدءاً أوباقرء والباء للملابسة ولا ينافي ذلك كون البسملة المبتداة بها السورة جزء من السورة فهي من كلام الله افتتح سبحانه بها وأمر أن يقرء مبتدء بها كما أمر أن يقرء قوله : « اقرء باسم » الخ ففيه تعليم بالعمل نظير الأمر بالاستثناءِ في قوله : « ولا تقولنّ لشيء إنّي فاعل ذلك غداً إلّا أن يشاء الله » الكهف : ۲۴ فافهم ذلك .

وفي قوله : « ربّك الّذي خلق » إشارة إلى قصر الربوبيّة في الله عزّ اسمه و هو توحيد الربوبيّة المقتضية لقصر العبادة فيه فإنّ المشركين كانوا يقولون : إنّ الله سبحانه ليس له إلّا الخلق والإيجاد وأمّا الربوبيّة وهي الملك والتدبير فلمقرّبي

خلقه من الملائكة والجنّ والإنس فدفعه الله بقوله : « ربّك الّذي خلق » الناسّ على أنّ الربوبيّة والخلق له وحده .

وقوله : « خلق الإنسان من علق » المراد جنس الإنسان المتناسل والعلق الدم المنجمد والمراد به ما يستحيل إليه النطفة في الرحم .

ففي الآية إشارة إلى التدبير الإلهيّ الوارد على الإنسان من حين كان علقة إلى حين يصير إنساناً تامّاً كاملاً له من أعاجيب الصفات والأفعال ما تتحيّر فيه العقول فلم يتمّ الإنسان إنساناً ولم يكمل إلّا بتدبير متعاقب منه تعالى و هو بعينه خلق بعد خلق فهوتعالى ربّ مدبّرلأمر الإنسان بعين أنّه خالق له فليس للإنسان إلّا أن يتّخذه وحده ربّاً ففي الكلام احتجاج على توحيد الربوبيّة .

قوله تعالى : « اقرء وربّك الأكرم الّذي علّم بالقلم علّم الإنسان مالم يعلم » أمر بالقراءة ثانياً تأكيداً للأمر الأوّل على ما هو ظاهر سياق الإطلاق .

وقيل : المراد به الأمر بالقراءة على الناس وهو التبليغ بخلاف الأمر الأوّل فالمرادبه الأمر بالقراءة لنفسه ،كما قيل : إنّ المراد بالأمرين جمعياً الأمر بالقراءة على الناس ، والوجهان غير ظاهرين .

وقوله : « وربّك الأكرم » أي الّذي يفوق عطاؤه عطاء ماسواه فهوتعالى يعطي لاعن استحقاق وما من نعمة إلّا وينتهي إيتاؤها إليه تعالى .

وقوله : « الّذي علّم بالقلم » الباء للسببيّة أي علّم القراءة أو الكتابة والقراءة بواسطة القلم والجملة حاليّة أواستئنافيّة ، والكلام مسوق لتقوية نفس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وإزالة القلق والاضطراب عنها حيث اُمر بالقراءة وهو اُمّيّ لايكتب ولا يقرء كأنّه قيل : اقرء كتاب ربّك الّذي يوحيه إليك ولاتخف والحال أنّ ربّك الأكرم الّذي علّم الإنسان القراءة بواسطة القلم الّذي يخطّ به فهو قادر على أن يعلّمك قراءة كتابه وأنت اُمّيّ وقد أمرك بالقراءة ولولم يقدرك عليها لم يأمرك بها .

ثمّ عمّم سبحانه النعمة فذكر تعليمه للإنسان مالم يعلم فقال : « علّم الإنسان مالم يعلم » وفيه مزيد تقوية لقلب النبيّ صلى الله عليه وآله وتطييب لنفسه .

والمراد بالإنسان الجنس كما هو ظاهر السياق وقيل : المراد به آدم عليه السلام ، و قيل : إدريس عليه السلام لأنّه أوّل من خطّ بالقلم ، و قيل : كلّ نبيّ كان يكتب وهي وجوه ضعيفة بعيدة عن الفهم .

قوله تعالى : « كلّا إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » ردع عمّا يستفاد من الآيات السابقة أنّه تعالى أنعم على الإنسان بعظائم نعم مثل التعليم بالقلم وسائر ما علّم والتعليم من طريق الوحي فعلى الإنسان أن يشكره على ذلك لكنّه يكفر بنعمته تعالى ويطغى .

وقوله : « إنّ الإنسان ليطغى » أي يتعدّى طوره ، وهو إخبار بما في طبع الإنسان ذلك كقوله : « إنّ الإنسان لظلوم كفّار » إبراهيم : ٣٤ .

وقوله : « أن رآه استغنى » من الرأي دون الرؤية البصريّة ، وفاعل « رآه » ومفعوله الإنسان . وجملة « أن رآه استغنى » في مقام التعليل أي ليطغى لأنّه يعتقد نفسه مستغنياً عن ربّه المنعم عليه فيكفر به ، وذلك أنّه يشتغل بنفسه والأسباب الظاهريّة الّتي يتوصّل بها إلى مقاصده فيغفل عن ربّه من غير أن يرى حاجة منه إليه تبعثه إلى ذكره وشكره على نعمه فينساه ويطغى .

قوله تعالى : « إنّ إلى ربّك الرجعى » الرجعى هو الرجوع والظاهر من سياق الوعيد الآتي أنّه وعيد وتهديد بالموت والبعث ، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله ، وقيل : الخطاب للإنسان بطريق الالتفات للتشديد ، والأوّل أظهر .

قوله تعالى : « أرأيت الّذي ينهى عبداً إذا صلّى أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أرأيت إن كذّب وتولّى ألم يعلم بأنّ الله يرى » بمنزلة ذكر بعض المصاديق للإنسان الطاغي وهو كالتوطئة لوعيده بتصريح العقاب والنهي عن طاعته والأمر بعبادته تعالى ، والمراد بالعبد الّذي كان يصلّي هو النبيّ صلى الله عليه وآله على ما يستفاد من آخر الآيات حيث ينهاه صلى الله عليه وآله عن طاعة ذلك الناهي ويأمره بالسجود والاقتراب .

وسياق الآيات ـ على تقدير كون السورة أوّل ما نزل من القرآن ونزولها دفعة واحدة ـ يدلّ على صلاة النبيّ صلى الله عليه وآله قبل نزول القرآن وفيه دلالة على نبوّته

قبل رسالته بالقرآن .

وأمّا ما ذكره بعضهم أنّه لم يكن الصلاة مفروضة في أوّل البعثة وإنّما شرّعت ليلة المعراج على ما في الأخبار وهو قوله تعالى : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر » أسرى : ٧٨ .

ففيه أنّ المسلّم من دلالتها أنّ الصلوات الخمس اليوميّة إنّما فرضت بهيئتها الخاصّة ركعتين ركعتين ليلة المعراج ولا دلالة فيها على عدم تشريعها قبل وقد ورد في كثير من السور المكّيّة ومنها النازلة قبل سورة الإسراء كالمدّثّر والمزّمّل وغيرهما ذكر الصلاة بتعبيرات مختلفة وإن لم يظهر فيها من كيفيّتها إلّا أنّها كانت مشتملة على تلاوة شيء من القرآن والسجود .

وقد ورد في بعض الروايات صلاة النبيّ ﷺ مع خديجة وعليّ في أوائل البعثة وإن لم يذكر كيفيّة صلاتهم .

وبالجملة قوله : « أرأيت » بمعنى أخبرني ، والاستفهام للتعجيب ، والمفعول الأوّل لقوله : « أرأيت » الأوّل قوله : « الّذي ينهى » ولأرأيت الثالث ضمير عائد إلى الموصول ، ولأرأيت الثاني ضمير عائد إلى قوله : « عبداً » والمفعول الثاني لأرأيت في المواضع الثلاث قوله : « ألم يعلم بأنّ الله يرى » .

ومحصّل معنى الآيات أخبرني عن الّذي ينهى عبداً إذا صلّى وعبدالله الناهي يعلم أنّ الله يرى ما يفعله كيف يكون حاله . أخبرني عن هذا الناهي إن كان ذاك العبد المصلّي على الهدى أو أمر بالتقوى كيف يكون حال هذا الناهي وهو يعلم أنّ الله يرى . أخبرني عن هذا الناهي إن تلبّس بالتكذيب للحقّ والتولّي عن الإيمان به ونهى العبد المصلّي عن الصلاة وهو يعلم أنّ الله يرى ؟ هل يستحقّ إلّا العذاب ؟

وقيل : المفعول الأوّل لأرأيت في جميع المواضع الثلاث هو الموصول أو الضمير العائد إليه تحرّزاً عن التفكيك بين الضمائر .

والأولى على هذا أن يجعل معنى قوله : « أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى » أخبرني عن هذا الناهي إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى وهو يعلم أنّ

الله يرى ماذا كان يجب عليه أن يفعله ويأمر به ؟ وكيف يكون حاله وقد نهى عن عبادة الله سبحانه ؟

وهو مع ذلك معنى بعيد ولا بأس بالتفكيك بين الضمائر مع مساعدة السياق وإعانة القرائن .

وقوله : « ألم يعلم بأنّ الله يرى » المراد به العلم على طريق الاستلزام فإنّ لازم الاعتقاد بأنّ الله خالق كلّ شيء هو الاعتقاد بأنّ له علماً بكلّ شيء وإن غفل عنه وقد كان الناهي وثنيّاً مشركاً والوثنيّة معترفون بأنّ الله هو خالق كلّ شيء وينزّهونه عن صفات النقص فيرون أنّه تعالى لا يجهل شيأً ولا يعجز عن شيء وهكذا .

قوله تعالى : « كلّا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة خاطئة » قال في المجمع : والسفع الجذب الشديد يقال : سفعت بالشيء إذا قبضت عليه وجذبته جذباً شديداً . انتهى ، وفي توصيف الناصية بالكذب والخطاء وهما وصفا صاحب الناصية مجاز .

وفي الكلام ردع وتهديد شديد ، والمعنى ليس الأمر كما يقول ويريد أوليس له ذلك . اُقسم لئن لم يكفّ عن نهيه ولم ينصرف لنأخذنّ بناصيته أخذ الذليل المهان ونجذبنّه إلى العذاب تلك الناصية الّتي صاحبها كاذب فيما يقول خاطىء فيما يفعل ، وقيل : المعنى لنسمنّ ناصيته بالنار ونسوّدنّها .

قوله تعالى : « فليدع ناديه سندع الزبانية » النادي المجلس وكأنّ المراد به أهل المجلس أي الجمع الّذين يجتمع بهم ، وقيل : الجليس ، والزبانية الملائكة الموكّلون بالنار ، وقيل : الزبانية في كلامهم الشرط ، والأمر تعجيزيّ اُشير به إلى شدّة الأخذ والمعنى فليدع هذا الناهي جمعه لينجّوه منّا سندع الزبانية الغلاظ الشداد الّذين لا ينفع معهم نصر ناصر .

قوله تعالى : « كلّا لا تطعه واسجد واقترب » تكرار الردع للتأكيد ، وقوله : « لا تطعه » أي لا تطعه في النهي عن الصلاة وهي القرينة على أنّ المراد بالسجود الصلاة ، ولعلّ الصلاة الّتي كان صلى الله عليه وآله وسلم يأتي بها يومئذ كانت تسبيحه تعالى والسجود له

و قيل : المراد به السجود لقراءة هذه السورة الّتي هي إحدى العزائم الأربع في القرآن .

والاقتراب التقرّب إلى الله ، وقيل : الاقتراب من ثواب الله تعالى .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج عبدالرزّاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاريّ ومسلم وابن جرير وابن الأنباريّ في المصاحف وابن مردويه والبيهقيّ من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة اُمّ المؤمنين أنّها قالت : أوّل ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح .

ثمّ حبّب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه وهو التعبّد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ثمّ يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتّى جاءه الحقّ وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرء قال : قلت : ما أنا بقارىء . قال : فأخذني فغطّني حتّى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني فقال : اقرء فقلت : ما أنا بقارىء قال : فأخذني فغطّني الثانية حتّى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني فقال: اقرء فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطّني الثالثة حتّى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني فقال : اقرء باسم ربّك الّذي خلق خلق الإنسان من علق اقرء وربّك الأكرم الّذي علّم بالقلم الآية .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زمّلوني زمّلوني فزمّلوه حتّى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة : كلّا ما يخزيك الله أبداً إنّك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتكسب [١] المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق [٢] .

---

(١) تكسى ط .

(٢) الخلق ط .

فانطلقت به خديجة حتّى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّي ابن عمّ خديجة وكان امرء قد تنصّر في الجاهليّة ، وكان يكتب الكتاب العبرانيّ فيكتب من الانجيل بالعبرانيّة ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة : يابن عمّ اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وآله خبر ما رآى فقال له ورقة : هذا الناموس الّذي أنزل الله على موسى ! يا ليتني أكون فيها جذعا يا ليتني أكون فيها حيّاً إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أو مخرجيّ هم ؟ قال : نعم لم يأت رجل قطّ بمثل ما جئت به إلاّ عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ثمّ لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي .

قال ابن شهاب : وأخبرني أبوسلمة بن عبدالرحمان أنّ جابر بن عبدالله الانصارى قال وهو يحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه : بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الّذي جاءني بحراء جالس على كرسيّ بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت : زمّلوني زمّلوني فأنزل الله : يا أيّها المدّثّر قم فأنذر وربّك فكبّر وثيابك فطهّر والرجز فاهجر فحمي الوحي وتتابع .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل عن عبدالله بن شدّاد قال : أتى جبريل محمّداً صلى الله عليه و سلم فقال : يا محمّد اقرء . قال : وما أقرء فضمّه ثمّ قال : يا محمّد اقرء . قال : وما أقرء . قال : اقرء باسم ربّك الّذي خلق . حتّى بلغ «مالم يعلم» .

فجاء إلى خديجة فقال : يا خديجة ما أراه إلاّ قد عرض لي قالت : كلاّ والله ما كان ربّك يفعل ذلك بك وما أتيت فاحشة قطّ فأتت خديجة ورقة فأخبرته الخبر قال : لئن كنت صادقة إنّ زوجك لنبيّ و ليلقينّ من اُمّته شدّة و لئن أدركته لأؤمننّ به .

قال : ثمّ أبطأ عليه جبريل فقالت خديجة : ما أرى ربّك إلاّ قد قلاك فأنزل الله «والضحى واللّيل إذا سجى ما ودّعك ربّك وما قلى» .

أقول : وفي رواية أنّ الّذي ألقاه جبريل سورة الحمد .

والقصّة لاتخلومن شيء وأهون ما فيها من الإشكال شكّ النبي صلى الله عليه وآله في كون ما شاهده وحياً إلهيّاً من ملك سماويّ ألقى إليه كلام الله وتردّده بل ظنّه أنّه من مسّ الشياطين بالجنون ، وأشكل منه سكون نفسه في كونه نبوّة إلى قول رجل نصرانيّ مترهّب وقد قال تعالى : «قل إنّي على بيّنة من ربّي» الأنعام : ٥٧ وأيّ حجّة بيّنة في قول ورقة ؟ وقال تعالى : «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني» فهل بصيرته صلى الله عليه وآله هي سكون نفسه إلى قول ورقة ؟ وبصيرة من اتّبعه سكون أنفسهم إلى سكون نفسه إلى مالاحجّة فيه قاطعة ؟ وقال تعالى : «إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيّين من بعده» النساء : ١٦٣ فهل كان اعتمادهم في نبوّتهم على مثل ما تقصّه هذه القصّة ؟

والحقّ أنّ وحي النبوّة والرسالة يلازم اليقين من النبيّ والرسول بكونه من الله تعالى على ما ورد عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام .

وفي المجمع في قوله : «أرأيت الّذي ينهى» الآية إنّ أباجهل قال : هل يعفر محمّد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فبالّذي يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ رقبته فقيل له : هاهو ذلك يصلّي فانطلق ليطأ على رقبته فما فجأهم إلّا وهو ينكص على عقبيه و يتّقي بيديه فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : إنّ بيني و بينه خندقاً من نار و هؤلاء أجنحة ، وقال نبيّ الله : والّذي نفسي بيده لودنا منّي لاختطفته الملائكة عضواً عضواً فأنزل الله «أرأيت الّذي ينهى» إلى آخر السورة . رواه مسلم في الصحيح .

وفي تفسير القمّي في الآية : كان الوليد بن المغيرة ينهى الناس عن الصلاة وأن يطاع الله ورسوله فقال الله : «أرأيت الّذي ينهى عبداً إذا صلّى» .

أقول : مفاده لايلائم ظهور سياق الآيات في كون المصلّي هو النبيّ صلى الله عليه وآله .

وفي المجمع في الحديث عن عبدالله بن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً .

وفي الكافي بإسناده إلى الوشاء قال : سمعت الرضا عليه السلام يقول : أقرب مايكون العبد من الله وهو ساجد وذلك قوله : «واسجد واقترب» .

وفي المجمع روى عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : العزائم الم التنزيل وحم السجدة والنجم إذا هوى واقرء باسم ربك ، وما عداها في جميع القرآن مسنون وليس بمفروض .

﴿ سورة القدر مكيّة وهي خمس آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرٰيكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلٰئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتّٰى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥).

﴿ بيان ﴾

تذكر السورة إنزال القرآن في ليلة القدر وتعظّم اللّيلة بتفضيلها على ألف شهر وتنزّل الملائكة والروح فيها، والسورة تحتمل المكّيّة والمدنيّة ولا يخلو بعض[1] ما روي في سبب نزولها عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وغيرهم من تأييد لكونها مدنيّة.

قوله تعالى: « إنّا أنزلناه في ليلة القدر » ضمير « أنزلناه » للقرآن وظاهره جملة الكتاب العزيز لا بعض آياته ويؤيّده التعبير بالإنزال الظاهر في اعتبار الدفعة دون التنزيل الظاهر في التدريج.

وفي معنى الآية قوله تعالى: « والكتاب المبين إنّا أنزلناه في ليلة مباركة » الدخان: ٣ وظاهره الإقسام بجملة الكتاب المبين ثمّ الإخبار عن إنزال ما اُقسم به جملة.

فمدلول الآيات أنّ للقرآن نزولاً جمليّاً على النبيّ ﷺ غير نزوله التدريجي الّذي تمّ في مدّة ثلاث وعشرين سنة كما يشير إليه قوله: « وقرآنا فرقناه لتقرأه

---

(١) وهو مادل على أن السورة نزلت بعد رؤيا النبى صلى الله عليه وآله أن بنى امية يصعدون منبره فاغتم فسلاه الله بها.

على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلا » أسرى : ١٠٦ ، وقوله : « وقال الّذين كفروا لو لا نزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا » الفرقان : ٣٢ .

فلا يعبأ بما قيل : إنّ معنى قوله : « أنزلناه » ابتدأنا بإنزاله والمراد إنزال بعض القرآن .

وليس في كلامه تعالى ما يبيّن أنّ الليلة أيّة ليلة هي غير ما في قوله تعالى : « شهر رمضان الّذي اُنزل فيه القرآن » البقرة : ١٨٥ فإنّ الآية بانضمامها إلى آية القدر تدلّ على أنّ الليلة من ليالي شهر رمضان . وأمّا تعيينها أزيد من ذلك فمستفاد من الأخبار وسيجيء بعض ما يتعلّق به في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله .

وقد سمّاها الله تعالى ليلة القدر ، والظاهر أنّ المراد بالقدر التقدير فهي ليلة التقدير يقدّر الله فيها حوادث السنة من الليلة إلى مثلها من قابل من حياة وموت ورزق وسعادة وشقاء وغير ذلك كما يدلّ عليه قوله في سورة الدخان في صفة الليلة : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم أمراً من عندنا إنّا كنّا مرسلين رحمة من ربّك » الدخان:٦ فليس فرق الأمر الحكيم إلّا إحكام الحادثة الواقعة بخصوصياتها بالتقدير .

ويستفاد من ذلك أنّ الليلة متكرّرة بتكرّر السنين ففي شهر رمضان من كلّ سنة قمريّة ليلة تقدّر فيها اُمور السنة من الليلة إلى مثلها من قابل إذ لا معنى لفرض ليلة واحدة بعينها أو ليال معدودة في طول الزمان تقدّر فيها الحوادث الواقعة الّتي قبلها والّتي بعدها وإن صحّ فرض واحدة من ليالي القدر المتكرّرة ينزل فيها القرآن جملة واحدة .

على أنّ قوله : « يفرق » ـ وهو فعل مضارع ـ ظاهر في الاستمرار ، وقوله : « خير من ألف شهر » و « تنزّل الملائكة » الخ يؤيّد ذلك .

فلا وجه لما قيل : إنّها كانت ليلة واحدة بعينها نزل فيها القرآن من غير أن يتكرّر ، وكذا ما قيل : إنّها كانت تتكرّر بتكرّر السنين في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله ثمّ رفعها الله ، وكذا ما قيل : إنّها واحدة بعينها في جميع السنة وكذا ما قيل : إنّها في

جميع السنة غير أنّها تتبدّل بتكرّر السنين فسنة في شهر رمضان وسنة في شعبان وسنة في غيرهما .

وقيل : القدر بمعنى المنزلة وإنّما سمّيت ليلة القدر للاهتمام بمنزلتها أو منزلة المتعبّدين فيها ، وقيل : القدر بمعنى الضيق وسمّيت ليلة القدر لضيق الأرض فيها بنزول الملائكة . والوجهان كما ترى .

فمحصّل الآيات ـ كما ترى ـ أنّها ليلة بعينها من شهر رمضان من كلّ سنة فيها إحكام الاُمور بحسب التقدير ، ولاينافي ذلك وقوع التغيّر فيها بحسب التحقّق في ظرف السنة فإنّ التغيّر في كيفيّة تحقّق المقدّر أمر والتغيّر في التقدير أمر آخر كما أنّ إمكان التغيّر في الحوادث الكونيّة بحسب المشيّة الإلهيّة لاينافي تعيّنها في اللوح المحفوظ قال تعالى : « وعنده اُمّ الكتاب » الرعد : ٣٩ .

على أنّ لاستحكام الاُمور بحسب تحقّقها مراتب من حيث حضور أسبابها وشرائطها تامّة وناقصة ومن المحتمل أن تقع في ليلة القدر بعض مراتب الإحكام ويتأخّر تمام الإحكام إلى وقت آخر لكنّ الروايات كما ستأتي لا تلائم هذا الوجه .

قوله تعالى : « وما أدراك ما ليلة القدر » كناية عن جلالة قدر الليلة وعظم منزلتها ويؤكّد ذلك إظهار الاسم مرّة بعد مرّة حيث قيل : « ما ليلة القدر ليلة القدر خير » ولم يقل : وما أدراك ما هي هي خير .

قوله تعالى : « ليلة القدر خير من ألف شهر » بيان إجماليّ لما اُشير إليه بقوله : « وما أدراك ما ليلة القدر » من فخامة أمر الليلة .

والمراد بكونها خيراً من ألف شهر خيريّتها منها من حيث فضيلة العبادة على ما فسّره المفسّرون وهو المناسب لغرض القرآن وعنايته بتقريب الناس إلى الله فإحياؤها بالعبادة خير من عبادة ألف شهر ، ويمكن أن يستفاد ذلك من المباركة المذكورة في سورة الدخان في قوله : « إنّا أنزلناه في ليلة مباركة » وهناك معنى آخر سيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

قوله تعالى : « تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر » تنزّل

أصله تتنزّل ، والظاهر من الروح هو الروح الّذي من الأمر قال تعالى : « قل الروح من أمر ربّي » أسرى : ٨٥ والإذن في الشيء الرخصة فيه وهو إعلام عدم المانع منه .

و « من » في قوله : « من كلّ أمر » قيل : بمعنى الباء وقيل : لابتداء الغاية وتفيد السببيّة أي بسبب كلّ أمر إلهيّ ، وقيل : للتعليل بالغاية أي لأجل تدبير كلّ أمر من الاُمور والحقّ أنّ المراد بالأمر إن كان هو الأمر الإلهيّ المفسّر بقوله « إنّما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن » يس : ٨٢ فمن للابتداء وتفيد السببيّة والمعنى تتنزّل الملائكة والروح في ليلة القدر بإذن ربّهم مبتدءً تنزّلهم وصادراً من كلّ أمر إلهيّ .

وإن كان هو الأمر من الاُمور الكونيّة والحوادث الواقعة فمن بمعنى اللاّم التعليليّة والمعنى تتنزّل الملائكة والروح في الليلة بإذن ربّهم لأجل تدبير كلّ أمر من الاُمور الكونيّة .

قوله تعالى : « سلام هي حتّى مطلع الفجر » قال في المفردات : السلام والسلامة التعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة انتهى فيكون قوله : « سلام هي » إشارة إلى العناية الإلهيّة بشمول الرحمة لعباده المقبلين إليه وسدّ باب نقمة جديدة تختصّ بالليلة ويلزمه بالطبع وهن كيد الشياطين كما اُشير إليه في بعض الروايات .

وقيل : المراد به أنّ الملائكة يسلّمون على من مرّوا به من المؤمنين المتعبّدين ومرجعه إلى ما تقدّم .

والآيتان أعني قوله : « تتنزّل الملائكة » إلى آخر السورة في معنى التفسير لقوله : « ليلة القدر خير من ألف شهر » .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير البرهان عن الشيخ الطوسيّ عن أبي ذرّ قال : قلت يا رسول الله ليلة القدر شيء يكون على عهد الأنبياء ينزل عليهم فيها الأمر فاذا مضوا رفعت ؟ قال : لا بل هي إلى يوم القيامة .

أقول : وفي معناه غير واحد من الروايات من طرق أهل السنّة .

وفي المجمع وعن حمّاد بن عثمان عن حسّان بن أبي عليّ قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن ليلة القدر قال : اطلبها في تسع عشرة وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين.

أقول : وفي معناها غيرها ، وفي بعض الأخبار الترديد بين ليلتين الاحدى والعشرين والثلاث والعشرين كرواية العيّاشيّ عن عبدالواحد عن الباقر عليه السلام ويستفاد من روايات أنّها ليلة ثلاث وعشرين وإنّما لم يعيّن تعظيماً لأمرها أن لا يستهان بها بارتكاب المعاصي .

وفيه أيضاً في رواية عبدالله بن بكير عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال : ليلة ثلاث وعشرين هي ليلة الجهنيّ ، وحديثه أنّه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ منزلي ناء عن المدينة فمرني بليلة أدخل فيها فأمره بليلة ثلاث وعشرين .

أقول : وحديث الجهنيّ واسمه عبدالله بن أنيس الأنصاريّ مرويّ من طرق أهل السنّة أيضاً أورده في الدرّ المنثور عن مالك والبيهقيّ .

وفي الكافي باسناده عن زرارة قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : التقدير في تسع عشرة ، والابرام في ليلة إحدى وعشرين ، والامضاء في ليلة ثلاث وعشرين .

أقول : وفي معناها روايات اُخر .

فقد اتّفقت أخبار أهل البيت عليهم السلام أنّها باقية متكرّرة كلّ سنة ، وأنّها ليلة من ليالي شهر رمضان وأنّها إحدى الليالي الثلاث .

وأمّا من طرق أهل السنّة فقد اختلفت الروايات اختلافا عجيبا يكاد لا يضبط

والمعروف عندهم أنّها ليلة سبع وعشرين فيها نزلت القرآن ، ومن أراد الحصول عليها فليراجع الدرّ المنثور وسائر الجوامع .

وفي الدرّ المنثور أخرج الخطيب عن ابن المسيّب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اُريت بني اُميّة يصعدون منبري فشقّ ذلك عليّ فأنزل الله إنّا أنزلناه في ليلة القدر.

أقول : وروى أيضاً مثله عن الخطيب في تاريخه عن ابن عبّاس ، وأيضاً ما في معناه عن الترمذيّ وابن جرير والطبرانيّ وابن مردويه والبيهقيّ عن الحسن بن عليّ وهناك روايات كثيرة في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وفيها أنّ الله تعالى سلّى نبيّه صلى الله عليه وآله بإعطاء ليلة القدر وجعلها خيرا من ألف شهر وهي مدّة ملك بني اُميّة .

وفي الكافي بإسناده عن ابن أبي عمير عن غير واحد عن أبي عبدالله عليه السلام قال له بعض أصحابنا ولا أعلمه إلاّ سعيد السمّان : كيف تكون ليلة القدر خيراً من ألف شهر ؟ قال : العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر .

وفيه بإسناده عن الفضيل وزرارة ومحمّد بن مسلم عن حمران أنّه سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « إنّا أنزلناه في ليلة مباركة » قال : نعم ليلة القدر وهي في كلّ سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر فلم ينزل القرآن إلّا في ليلة القدر قال الله عزّ وجلّ : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » .

قال : يقدّر في ليلة القدر كلّ شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل : خير وشرّ طاعة ومعصية ومولود وأجل أو رزق فما قدّر في تلك الليلة وقضي فهو المحتوم ولله عزّ وجل فيه المشيّة .

قال : قلت : « ليلة القدر خير من ألف شهر » أيّ شيء عنى بذلك ؟ فقال : والعمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة وأنواع الخير خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، ولولا ما يضاعف الله تبارك وتعالى للمؤمنين ما بلغوا ولكنّ الله يضاعف لهم الحسنات .

أقول : وقوله : ولله فيه المشيّة يريد به إطلاق قدرته تعالى فله أن يشاء مايشاء

وإن حتم فإنّ إيجابه الأمر لا يقيّد القدرة المطلقة فله أن ينقض القضاء المحتوم وإن كان لا يشاء ذلك أبدا .

وفي المجمع روى ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : إذا كان ليلة القدر تنزّل الملائكة الذين هم سكّان سدرة المنتهى ومنهم جبرائيل فينزل جبرائيل ومعه ألوية ينصب لواء منها على قبري ولواء على بيت المقدس ولواء في المسجد الحرام ولواء على طور سيناء ولا يدع فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلاّ سلّم عليه إلاّ مدمن خمر وآكل لحم الخنزير [١] والمتضمّخ بالزعفران .

وفي تفسير البرهان عن سعد بن عبدالله بإسناده عن أبي بصير قال : كنت مع أبي عبدالله عليه السلام فذكر شيأ من أمر الإمام إذا ولد فقال : استوجب زيادة الروح في ليلة القدر فقلت : جعلت فداك أليس الروح هو جبرئيل ؟ فقال : جبرئيل من الملائكة والروح أعظم من الملائكة أليس إنّ الله عزّوجلّ يقول : « تنزّل الملائكة والروح».

أقول : والروايات في ليلة القدر وفضلها كثيرة جدّاً ، وقد ذكرت في بعضها لها علامات ليست بدائمة ولا أكثريّة كطلوع الشمس صبيحتها ولا شعاع لها واعتدال الهواء فيها أغمضنا عنها .

---

(١) تضمح بالطيب تلطخ به .

﴿ سورة البيّنة مدنيّة وهي ثمان آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَيُؤْتُوا الزَّكٰوةَ وَذٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) .

﴿ بيان ﴾

تسجّل السورة رسالة محمّد صلّى الله عليه وآله لعامّة أهل الكتاب والمشركين وبعبارة اُخرى للملّيّين وغيرهم وهم عامّة البشر فتفيد عموم الرسالة وأنّها ممّا كانت تقتضيه السنّة الإلهيّة - سنّة الهداية - الّتي تشير إليها أمثال قوله تعالى : « إنّا هديناه السبيل امّا شاكراً وإمّا كفورا » الانسان : ٣ ، وقوله : « وإن من اُمّة إلّا خلا فيها نذير »

فاطر : ٢٤ ، وتحتجّ على عموم دعوته صلى الله عليه وآله بأنّها لا تتضمّن إلاّ ما يصلح المجتمع الإنسانيّ من الاعتقاد والعمل على ما سيتضّح إن شاء الله .

والسورة تحتمل المكيّة والمدنيّة وإن كان سياقها بالمدنيّة أشبه .

قوله تعالى : « لم يكن الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتّى تأتيهم البيّنة » ظاهر الآيات ـ وهي في سياق يشير إلى قيام الحجّة على الّذين كفروا بالدعوة الإسلاميّة من أهل الكتاب والمشركين وعلى الّذين اُوتوا الكتاب حينما بدا فيهم الاختلاف ـ أنّ المراد هو الإشارة إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله من مصاديق الحجّة البيّنة القائمة على الناس الّتي تقتضي قيامها السنّة الإلهيّة الجارية في عباده فقد كانت توجب مجيء البيّنة إليهم كما أوجبته من قبل ما تفرّقوا في دينهم .

وعلى هذا فالمراد بالّذين كفروا في الآية هم الكافرون بالدعوة النبويّة الإسلاميّة من أهل الكتاب والمشركين ، و « من » في قوله : « من أهل الكتاب » للتبعيض لا للتبيين ، وقوله : « والمشركين » عطف على « أهل الكتاب » والمراد بهم غير أهل الكتاب من عبدة الأصنام وغيرهم .

وقوله : « منفكّين » من الانفكاك وهو الانفصال عن شدّة اتّصال ، والمراد به ـ على ما يستفاد من قوله : « حتّى تأتيهم البيّنة » ـ انفكاكهم عمّا تقتضي سنّة الهداية والبيان كأنّ السنّة الإلهيّة كانت قد أخذتهم ولم تكن تتركهم حتّى تأتيهم البيّنة ولمّا أتتهم البيّنة تركتهم وشأنهم كما قال تعالى : « وما كان الله ليضلّ قوما بعد إذ هداهم حتّى يبيّن لهم ما يتّقون » التوبة : ١١٥ .

وقوله : « حتّى تأتيهم البيّنة » على ظاهره من الاستقبال والبيّنة هي الحجّة الظاهرة والمعنى لم يكن الّذين كفروا برسالة النبيّ صلى الله عليه وآله أو بدعوته أو بالقرآن لينفكّوا حتّى تأتيهم البيّنة والبيّنة هي محمّد صلى الله عليه وآله .

وللقوم اختلاف عجيب في تفسير الآية ومعاني مفرداتها حتّى قال بعضهم ـ على ما نقل ـ : إنّ الآية من أصعب الآيات القرآنيّة نظماً وتفسيراً . انتهى ، والّذي أوردناه من المعنى هو الّذي يلائمه سياقها من غير تناقض بين الآيات وتدافع بين

الجمل والمفردات ، ومن أراد الاطّلاع على تفصيل ما قيل ويقال فعليه أن يراجع المطوّلات .

قوله تعالى : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة فيها كتب قيّمة » بيان للبيّنة والمراد به محمّد رسول الله صلّى الله عليه وآله قطعاً على ما يعطيه السياق .

والصحف جمع صحيفة وهي مايكتب فيها ، والمراد بها أجزاء القرآن النازلة وقدتكرّر في كلامه تعالى إطلاق الصحف على أجزاء الكتب السماويّة ومنها القرآن الكريم قال تعالى : « في صحف مكرّمة مرفوعة مطهّرة بأيدي سفرة كرام بررة » عبس : ١٦ .

والمرادبكون الصحف مطهّرة تقدّسها من قذارة الباطل بمسّ الشياطين ، وقد تكرّر منه تعالى أنّه حقّ مصون من مداخلة الشياطين وقال : « لا يمسّه إلاّ المطهّرون » الواقعة : ٧٩ .

وقوله : « فيها كتب قيّمة » الكتب جمع كتاب ومعناه المكتوب ويطلق على اللوح والقرطاس ونحوهما المنقوشة فيه الألفاظ وعلى نفس الألفاظ الّتي تحكي عنها النقوش ، وربّما يطلق على المعاني بما أنّها محكيّة بالألفاظ ، ويطلق أيضاً على الحكم والقضاء يقال كتب عليه كذا أي قضى أن يفعل كذا قال تعالى : « كتب عليكم الصيام » البقرة : ١٨٣ وقال : « كتب عليكم القتال » البقرة : ٢١٦ .

والظاهر أنّ المرادبالكتب الّتي في الصحف الأحكام والقضايا الإلهيّة المتعلقة بالاعتقاد والعمل ، ومن الدليل عليه توصيفها بالقيّمة فإنّها من القيام بالشيء بمعنى حفظه ومراعاة مصلحته وضمان سعادته قال تعالى : « أمر أن لا تعبدوا إلاّ إيّاه ذلك الدين القيّم » يوسف : ٤٠ ، ومعلوم أنّ الصحف السماويّة إنّماتقوم بأمر المجتمع الإنسانيّ وتحفظ مصلحته بما فيها من الأحكام والقضايا المتعلّقة بالاعتقاد والعمل .

فمعنى الآيتين : الحجّة البيّنة الّتي أتتهم رسول من الله يقرء صحائف سماويّة مطهّرة من دنس الباطل في تلك الصحائف أحكام وقضايا قائمة بأمر المجتمع الإنسانيّ حافظة لمصالحه .

قوله تعالى : « وماتفرّق الّذين اُوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءتهم البيّنة » كانت الآية الاُولى ـ لم يكن الّذين كفروا من أهل الكتاب الخ » تشير إلى كفرهم بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكتابه المتضمّن للدعوة الحقّة وهذه الآية تشير إلى اختلافهم السابق على الدعوة الإسلاميّة وقد اُشير إلى ذلك في مواضع من القرآن الكريم كما قال تعالى : « وما اختلف الّذين اُوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » آل عمران : ١٩ إلى غير ذلك من الآيات .

ومجيء البيّنة لهم هوالبيان النبويّ الّذي تبيّن لهم في كتابهم أو أوضحه لهم أنبياؤهم قال تعالى : « ولمّا جاء عيسى بالبيّنات قال قد جئتكم بالحكمة ولاُبيّن لكم بعض الّذي تختلفون فيه فاتّقوا الله وأطيعون إنّ الله هو ربّي وربّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم » الزخرف : ٦٥ .

فإن قلت : ما باله تعرّض لاختلاف أهل الكتاب وتفرّقهم في مذاهبهم ولم يتعرّض لتفرّق المشركين وإعراضهم عن دين التوحيد وإنكارهم الرسالة .

قلت : لايبعد أن يكون قوله : « وماتفرّق الّذين اُوتوا الكتاب » الخ شاملاً للمشركين كما هوشامل لأهل الكتاب فقد بدّل أهل الكتاب ـ وهم في عرف القرآن اليهودوالنصارى والصابئون والمجوس أواليهود والنصارى ـ من الّذين اُوتوا الكتاب والتعبيران متغايران وقد صرّح تعالى بأنّه أنزل الكتاب ـ وهو الشريعة المفروضة عليهم الحاكمة فيإختلافاتهم في اُمورالحياة ـ أوّل ما بدا الاختلافات الحيويّة بينهم ثمّ اختلفوا في الدين بعد تبيّن الحقّ لهموقيام الحجّة عليهم فعامّة البشر آتاهم الله كتاباً ثمّ اختلفوا فيه فمنهم من نسي ما اُوتيه ، ومنهم من أخذ به محرّفاً ومنهم من حفظه وآمن به قال تعالى : « كان‌الناس اُمّة واحدة فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين‌الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلاّ الّذين اُوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم » البقرة : ٢١٣ وقد مرّ تفسير الآية .

وفي هذا المعنى قوله تعالى : « تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض ـ إلى أن

قال ـ ولو شاء الله ما اقتتل الّذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البيّنات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » البقرة : ۲۵۴ .

وبالجملة فالّذين اُوتوا الكتاب أعمّ من أهل الكتاب فقوله : « وما تفرّق الّذين اُوتوا الكتاب » الخ يشمل المشركين كما يشمل أهل الكتاب .

قوله تعالى : « وما اُمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء» الخ ضمير « اُمروا » للّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أي ولم يتضمّن رسالة الرسول صلّى الله عليه وآله والكتب القيّمة الّتي في صحف الوحي إلاّ أمرهم بعبادة الله تعالى بقيد الإخلاص في الدين فلا يشركوا به شيأ .

وقوله : « حنفاء » حال من ضمير الجمع وهو جمع حنيف من الحنف وهو الميل عن جانبي الإفراط والتفريط إلى حاقّ وسط الاعتدال وقد سمّى الله تعالى الإسلام دينا حنيفا لأنّه يأمر في جميع الاُمور بلزوم الاعتدال والتحرّز عن الإفراط والتفريط .

وقوله : « ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ أو الجزء بعد الكلّ اهتماماً بأمره فالصلاة والزكاة من أركان الإسلام وهما التوجّه العبوديّ الخاصّ إلى الله وإنفاق المال في الله .

وقوله : « وذلك دين القيّمة » أي دين الكتب القيّمة على ما فسّروا ، والمراد بالكتب القيّمة إن كان جميع الكتب السماويّة أعني كتاب نوح ومن دونه من الأنبياء عليهم السلام فالمعنى إنّ هذا الّذي اُمروا به ودعوا إليه في الدعوة المحمّديّة هو الدين الّذي كلّفوا به في كتبهم القيّمة وليس بأمر بدع فدين الله واحد وعليهم أن يدينوا به لأنّه القيّم .

وإن كان المراد به ما كان يتلوه النبيّ ﷺ من الكتب القيّمة الّتي في الصحف المطهّرة فالمعنى أنّهم لم يؤمروا في الدعوة الإسلامية إلاّ بأحكام وقضايا هي القيّمة الحافظة لمصالح المجتمع الإنسانيّ فلا يسعهم إلاّ أن يؤمنوا بها ويتديّنوا .

فالآية على أيّ حال تشير إلى كون دين التوحيد الّذي يتضمّنه القرآن

الكريم المصدّق لما بين يديه من الكتاب والمهيمن[1] عليه فيما يأمر المجتمع البشري قائماً بأمرهم حافظاً لمصالح حياتهم كما يبيّنه بأوفى البيان قوله تعالى: « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم » الروم : ٣٠ .

وبهذه الآية يكمل بيان عموم رسالة النبيّ ﷺ وشمول الدعوة الإسلاميّة لعامّة البشر فقوله : « لم يكن الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين » الخ يشير إلى أنّه كان من الواجب في سنّة الهداية الإلهيّة أن تتمّ الحجّة على من كفر بالدعوة من أهل الكتاب والمشركين ، وهؤلاء و إن كانوا بعض أهل الكتاب والمشركين لكن من الضروريّ أن لا فرق بين البعض والبعض في تعلّق الدعوة فتعلّقها بالبعض لا ينفكّ عن تعلّقها بالكلّ .

وقوله : « رسول من الله » الخ يشير الى أنّ تلك البيّنة محمّد ﷺ ، وقوله : « وما تفرّق » الخ يشير إلى أنّ تفرّقهم وكفرهم السابق بالحقّ أيضاً كان بعد مجيء البيّنة .

وقوله : « وما اُمروا إلّا ليعبدوا الله » الخ يفيد أنّ الّذي دعوا إليه واُمروا به دين قيّم حافظ لمصالح المجتمع البشريّ فعليهم جميعاً أن يؤمنوا به ولا يكفروا .

قوله تعالى : « إن الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنّم خالدين فيها اُولئك هم شرّ البريّة » لمّا فرغ من الإشارة إلى كفرهم بالبيّنة الّتي كانت توجبها سنّة الهداية الإلهيّة وما كانت تدعو إليه من الدين القيّم أخذ في الإنذار والتبشير بوعيد الكفّار ووعد المؤمنين . والبريّة الخلق ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات اُولئك هم خير البريّة » فيه قصر الخيريّة في المؤمنين الصالحين كما أنّ في الآية السابقة قصر الشرّيّة في الكفّار .

---

(١) سورة المائدة آية ٤٨ .

قوله تعالى : « جزاؤهم عندربّهم - إلى قوله - ذلك لمن خشي ربّه » العدن الاستقرار والثبات فجنّات عدن جنّات خلود ودوام وتوصيفها بقوله : « خالدين فيها أبدا » تأكيد بما يدلّ عليه الاسم .

وقوله : « رضي الله عنهم » الرضى منه تعالى صفة فعل ومصداقه الثواب الّذي أعطاهموه جزاء لإيمانهم وعملهم الصالح .

وقوله : « ذلك لمن خشي ربّه » علامة مضروبة لسعادة الدار الآخرة وقد قال تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » فاطر : ٢٨ فالعلم بالله يستتبع الخشية منه ، والخشية منه تستتبع الإيمان به بمعنى الالتزام القلبي بربوبيّته واُلوهيّته ثمّ العمل الصالح .

واعلم أنّ لهم في تفسير مفردات هذه الآيات اختلافا شديدا وأقوالا كثيرة لا جدوى في التعرّض لها من أراد الوقوف عليها فليراجع المطوّلات .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في روايه أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : البيّنة محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله من أكرم الخلق على الله ؟ قال : يا عائشة أماتقرئين « إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات اُولئك هم خير البريّة » ؟

وفيه أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبدالله قال : كنّا عند النبي صلى الله عليه وآله فأقبل عليّ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : والّذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ونزلت « إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات اُولئك هم خير البريّة » فكان أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله إذا أقبل عليّ قالوا : جاء خير البريّة .

أقول : وروى هذا المعنى أيضاً عن ابن عديّ عن ابن عبّاس ، وأيضاً عن ابن

مردويه عن عليّ عليه السلام ، ورواه أيضاً في البرهان عن الموفّق بن أحمد في كتاب المناقب عن يزيد بن شراحيل الأنصاريّ كاتب عليّ عنه ، وكذا في المجمع عن كتاب شواهد التنزيل للحاكم عن يزيد بن شراحيل عنه ، ولفظه : سمعت عليّاً يقول : قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنامسنده إلى صدري فقال : يا عليّ ألم تسمع قول الله : «إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات أُولئك هم خير البريّة » هم شيعتك وموعدي وموعدكم الحوض إذا اجتمع الأُمم للحساب يدعون غرّاً محجّلين .

وفي المجمع عن مقاتل بن سليمان عن الضحّاك عن ابن عبّاس في قوله : «هم خير البريّة » قال : نزلت في عليّ وأهل بيته .



﴿ سورة الزلزال مدنيّة وهي ثمان آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ إِذا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزالَها (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقالَها (٢) وَقالَ الإِنْسانُ مالَها (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨).

﴿ بيان ﴾

ذكر للقيامة وصدور الناس للجزاء وإشارة إلى بعض أشراطها وهي زلزلة الأرض وتحديثها أخبارها . والسورة تحتمل المكّيّة والمدنيّة .

قوله تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها » الزلزال مصدر كالزلزلة ، وإضافته إلى ضمير الأرض تفيد الاختصاص والمعنى إذا زلزلت الأرض زلزلتها الخاصّة بها فتفيد التعظيم والتفخيم أي إنّها منتهية في الشدّة والهول .

قوله تعالى : « وأخرجت الأرض أثقالها » الأثقال جمع ثقل بفتحتين بمعنى المتاع أو خصوص متاع المسافر أو جمع ثقل بالكسر فالسكون بمعنى الحمل ، وعلى أيّ حال المراد بأثقالها الّتي تخرجها ، الموتى على ما قيل أو الكنوز والمعادن الّتي في بطنها أو الجميع ولكلّ قائل وأوّل الوجوه أقربها ثمّ الثالث لتكون الآية إشارة إلى خروجهم للحساب ، و قوله : « يومئذ يصدر الناس » إشارة إلى انصرافهم إلى الجزاء .

قوله تعالى : « وقال الإنسان مالها » أي يقول مدهوشاً متعجّباً من تلك الزلزلة الشديدة الهائلة : ما للأرض تتزلزل هذا الزلزال ، وقيل : المراد بالإنسان الكافر غير

المؤمن بالبعث ، وقيل غير ذلك كما سيجيء .

قوله تعالى : « يومئذ تحدّث أخبارها بأنّ ربّك أوحى لها » فتشهد على أعمال بني آدم كما تشهد بها أعضاؤهم وكتّاب الأعمال من الملائكة وشهداء الأعمال من البشر وغيرهم .

وقوله : « بأنّ ربّك أوحى لها » اللاّم بمعنى إلى لأنّ الايحاء يتعدّى بإلى والمعنى تحدّث أخبارها بسبب أنّ ربّك أوحى إليها أن تحدّث فهي شاعرة بما يقع فيها من الأعمال خيرها وشرّها متحمّلة لها يؤذن لها يوم القيامة بالوحي أن تحدّث أخبارها وتشهد بما تحمّلت ، وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : «وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم» أسرى : ٤٤ ، وقوله : «قالوا أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء » حمٓ السجدة : ٢١ أنّ المستفاد من كلامه سبحانه أنّ الحياة والشعور ساريان في الأشياء وإن كنّا في غفلة من ذلك .

وقد اشتدّ الخلاف بينهم في معنى تحديث الأرض بالوحي أهو بإعطاء الحياة والشعور للأرض الميتة حتّى تخبر بما وقع فيها أو بخلق صوت عندها وعدّ ذلك تكلّماً منها أو دلالتها بلسان الحال بما وقع فيها من الأعمال ، ولا محلّ لهذا الاختلاف بعد ما سمعت ولا أنّ الحجّة تتمّ على أحد بهذا النوع من الشهادة .

قوله تعالى : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم » الصدور انصراف الإبل عن الماء بعد وروده ، وأشتات كشتّى جمع شتيت بمعنى المتفرّق ، والآية جواب بعد جواب لإذا .

والمراد بصدور الناس متفرّقين يومئذ انصرافهم عن الموقف إلى منازلهم في الجنّة و النار و أهل السعادة والفلاح منهم متميّزون من أهل الشقاء والهلاك ، و إراءتهم أعمالهم إراءتهم جزاء أعمالهم بالحلول فيه أو مشاهدتهم نفس أعمالهم بناء على تجسّم الأعمال .

وقيل : المراد به خروجهم من قبورهم إلى الموقف متفرّقين متميّزين بسواد الوجوه وبياضها وبالفزع والأمن وغير ذلك لإعلامهم جزاء أعمالهم بالحساب والتعبير

عن العلم بالجزاء بالرؤية وعن الإعلام بالإراءة نظيرما في قوله تعالى : « يوم تجدكلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء» آل عمران : ٣٠ ، والوجه الأوّل أقرب وأوضح .

قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره و من يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره» المثقال مايوزن به الأثقال ، و الذرّة مايرى في شعاع الشمس من الهباء ، وتقال لصغار النمل .

تفريع على ما تقدّم من إراءتهم أعمالهم ، فيه تأكيد البيان في أنّه لايستثنى من الاراءة عمل خيراً أوشرّاً كبيراً أو صغيراً حتّى مثقال الذرّة من خير أوشرّ ، وبيان حال كلّ من عمل الخير والشرّ في جملة مستقلّة لغرض إعطاء الضابط وضرب القاعدة .

ولا منافاة بين ما تدلّ عليه الآيتان من العموم و بين الآيات الدالّة على حبط الأعمال ، والدالّة على انتقال أعمال الخير والشرّ من نفس إلى نفس كحسنات القاتل إلى المقتول و سيّآت المقتول إلى القاتل ، والدالّة على تبديل السيّآت حسنات في بعض التائبين إلى غير ذلك ممّا تقدّمت الإشارة إليه في بحث الأعمال في الجزء الثاني من الكتاب وكذا في تفسير قوله : «ليميز الله الخبيث من الطيّب» الآية الأنفال : ٣٧ .

وذلك لأنّ الآيات المذكورة حاكمة على هاتين الآيتين فإنّ من حبط عمله الخير محكوم بأنّه لم يعمل خيراً فلا عمل له خيراً حتّى يراه وعلى هذا القياس في غيره فافهم .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه والبيهقيّ في شعب الإيمان عن أنس بن مالك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : إنّ الأرض لتخبر يوم القيامة بكلّ ما عمل على ظهرها وقرء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم «إذا زلزلت الأرض زلزالها» حتّى بلغ «يومئذ تحدّث أخبارها» قال أتدرون ما إخبارها ؟ جاءني جبريل قال : خبرها إذا كان يوم القيامة أخبرت بكلّ عمل عمل على ظهرها .

أقول : وروى مثله عن أبي هريرة .

وفيه أخرج الحسين بن سفيان في مسنده و أبو نعيم في الحلية عن شدّاد بن أوس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

أيّها الناس إنّ الدنيا عرض حاضر يأكل منه البرّ والفاجر ، وإنّ الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر يحقّ فيها الحقّ ويبطل الباطل .

ايّها الناس كونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإنّ كلّ اُمّ يتبعها ولدها ، اعملوا و أنتم من الله على حذر ، و اعلموا أنّكم معروضون على أعمالكم و أنّكم ملاقو الله لابدّ منه فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « وأخرجت الأرض أثقالها » قال : من الناس «وقال الانسان مالها» قال : ذلك أمير المؤمنين عليه السلام «يومئذ تحدّث أخبارها ـ إلى قوله ـ أشتاتا » قال : يجيئون أشتاتا مؤمنين وكافرين ومنافقين « ليروا أعمالهم» قال : يقفون على مافعلوه .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : «فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره» يقول : إن كان من أهل النار قد عمل مثقال ذرّة في الدنيا خيراً (كان عليه ظ) يوم القيامة حسرة إن كان عمله لغير الله «ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره » يقول : إن كان من أهل الجنّة رآى ذلك الشرّ يوم القيامة ثمّ غفر له .

﴿ سورة العاديات مدنيّة وهي إحدى عشرة آية ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (٥) انَّ الْانْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَانَّهُ عَلٰى ذٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَانَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ اذٰا بُعْثِرَ مٰا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مٰا فِي الصُّدُورِ (١٠) انَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١).

﴿ بيان ﴾

تذكر السورة كفران الإنسان لنعم ربّه وحبّه الشديد للخير عن علم منه به وهو حجّة عليه وسيحاسب على ذلك.

والسورة مدنيّة بشهادة ما في صدرها من الإقسام بمثل قوله: «والعاديات ضبحا» الخ الظاهر في خيل الغزاة المجاهدين على ما سيجيىء، وإنّما شرّع الجهاد بعد الهجرة ويؤيّد ذلك ما ورد من طرق الشيعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ السورة نزلت في عليّ عليه السلام وسريّته في غزوة ذات السلاسل، ويؤيّده أيضا بعض الروايات من طرق أهل السنّة على ما سنشير إليه في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله.

قوله تعالى: «والعاديات ضبحاً» العاديات من العدو وهو الجري بسرعة والضبح صوت أنفاس الخيل عند عدوها و هو المعهود المعروف من الخيل و إن ادّعي أنّه يعرض لكثير من الحيوان غيرها، والمعنى اُقسم بالخيل اللاّتي يعدون يضبحن ضبحاً.

وقيل: المراد بها إبل الحاج في ارتفاعها بركبانها من الجمع إلى منى يوم النحر

وقيل : إبل الغزاة ، وما في الآيات التالية من الصفات لا يلائم كون الإبل هو المراد بالعاديات .

قوله تعالى : «فالموريات قدحا» الإيراء إخراج النار والقدح الضرب والصكّ المعروف يقال : قدح فأورى إذا أخرج النار بالقدح ، والمراد بها الخيل تخرج النار بحوافرها إذا عدت على الحجارة والأرض المحصبة .

وقيل : المراد بالإيراء مكر الرجال في الحرب ، وقيل : إيقادهم النار ، وقيل : الموريات ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلّم به ، وهي وجوه ظاهرة الضعف .

قوله تعالى : «فالمغيرات صبحاً» الإغارة والغارة الهجوم على العدوّ بغتة بالخيل وهي صفة أصحاب الخيل ونسبتها إلى الخيل مجاز ، و المعنى فاُقسم بالخيل الهاجمات على العدوّ بغتة في وقت الصبح .

وقيل : المراد بها الآبال ترتفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى والسنّة أن لا ترتفع حتّى تصبح ، والإغارة سرعة السير وهو خلاف ظاهر الإغارة .

قوله تعالى : «فأثرن به نقعاً» أثرن من الإثارة بمعنى تهييج الغبار ونحوه ، والنقع الغبار ، والمعنى فهيّجن بالعدو والإغارة غباراً .

قيل : لا بأس بعطف «أثرن» وهو فعل على ما قبله وهو صفة لأنّه اسم فاعل وهو في معنى الفعل كأنّه قيل : اُقسم باللاّتي عدون فأورين فأغرن فأثرن .

قوله تعالى : « فوسطن به جمعاً » وسط وتوسّط بمعنى ، وضمير « به » للصبح والباء بمعنى في أو الضمير للنقع والباء للملابسة .

والمعنى فصرن في وقت الصبح في وسط جمع والمراد به كتيبة العدوّ أو المعنى فتوسّطن جمعاً ملابسين للنقع .

وقيل : المراد توسّط الآبال جمع منى وأنت خبير بأنّ حمل الآيات الخمس بما لمفرداتها من ظواهر المعاني على إبل الحاج الّذين يفيضون من جمع إلى منى خلاف ظاهرها جدّاً .

فالمتعيّن حملها على خيل الغزاة وسياق الآيات وخاصّة قوله : « فالمغيرات صبحا » « فوسطن به جمعا » يعطي أنّها غزاة بعينها أقسم الله فيها بخيل المجاهدين العاديات والفاء في الآيات الأربع تدلّ على ترتّب كلّ منها على ما قبلها .

قوله تعالى : « إنّ الإنسان لربّه لكنود » الكنود الكفور ، والآية كقوله : « إنّ الإنسان لكفور » الحجّ : ٦٦ ، وهو إخبار عمّا في طبع الإنسان من اتّباع الهوى والانكباب على عرض الدنيا والانقطاع به عن شكر ربّه على ما أنعم عليه .

وفيه تعريض للقوم المغار عليهم ، وكأنّ المراد بكفرانهم كفرانهم بنعمة الإسلام الّتي أنعم الله بها عليهم وهي أعظم نعمة اُوتوها فيها طيب حياتهم الدنيا وسعادة حياتهم الأبديّة الاُخرى .

قوله تعالى : « وإنّه على ذلك لشهيد » ظاهر اتّساق الضمائر أن يكون ضمير « إنّه » للإنسان فيكون المراد بكونه شهيدا على كفران نفسه علمه بكفران نفسه المذموم وتحمّله له .

فالمعنى وإنّ الإنسان على كفرانه بربّه شاهد متحمّل فالآية في معنى قوله : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » القيامة : ١٤ .

وقيل : الضمير لله واتّساق الضمائر لا يلائمه .

قوله تعالى : « وإنّه لحبّ الخير لشديد » قيل : اللاّم في « لحبّ الخير » للتعليل والخير المال ، والمعنى وإنّ الإنسان لأجل حبّ المال لشديد أي بخيل شحيح ، وقيل : المراد أنّ الإنسان لشديد الحبّ للمال ويدعوه ذلك إلى الامتناع من إعطاء حقّ الله ، والإنفاق في الله . كذا فسّروا .

ولا يبعد أن يكون المراد بالخير مطلقه ويكون المراد أنّ حبّ الخير فطريّ للإنسان ثمّ إنّه يرى عرض الدنيا وزينتها خيراً فتنجذب إليه نفسه وينسيه ذلك ربّه أن يشكره .

قوله تعالى : « أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ـ إلى قوله ـ لخبير » البعثرة كالبحثرة البعث والنشر ، وتحصيل ما في الصدور تمييز ما في باطن النفوس من صفة

الإيمان والكفر ورسم الحسنة والسيئة قال تعالى : « يوم تبلى السرائر » الطارق : ٩ وقيل : هو إظهار ما أخفته الصدور لتجازى على السرّ كما تجازى على العلانية .

وقوله : « أفلا يعلم » الاستفهام فيه للإنكار ، ومفعول يعلم جملة قائمة مقام المفعولين يدلّ عليه المقام . ثمّ استونف فقيل : إذا بعثر ما في القبور الخ تأكيداً للإنكار ، والمراد بما في القبور الأبدان .

والمعنى ـ والله أعلم ـ أفلا يعلم الإنسان أنّ لكنوده وكفرانه بربّه تبعة ستلحقه ويجازى بها ، إذا اُخرج ما في القبور من الأبدان وحصّل وميّز ما في سرائر النفوس من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية إنّ ربّهم بهم يومئذ لخبير فيجازيهم بما فيها .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع : قيل : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله سريّة إلى حيّ من كنانة فاستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاريّ أحد النقباء فتأخّر رجوعهم فقال المنافقون : قتلوا جميعاً فأخبر الله تعالى عنها بقوله : « والعاديات ضبحاً » عن مقاتل .

وقيل : نزلت السورة لمّا بعث النبيّ صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام إلى ذات السلاسل فأوقع بهم وذلك بعد أن بعث عليهم مراراً غيره من الصحابة فرجع كلّ منهم إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله . وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث طويل .

قال : وسمّيت هذه الغزوة ذات السلاسل لأنّه اُسر منهم وقتل وسبي وشدّ اُسراؤهم في الحبال مكتّفين كأنّهم في السلاسل .

ولمّا نزلت السورة خرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الناس فصلّى بهم الغداة وقرء فيها « والعاديات » فلمّا فرغ من صلاته قال أصحابه : هذه سورة لم نعرفها فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : نعم إنّ عليّاً ظفر بأعداء الله وبشّرني بذلك جبريل في هذه الليلة فقدم عليّ عليه السلام بعد أيّام بالغنائم والاُسارى .

﴿ سورة القارعة مكّيّة وهي إحدى عشرة آية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم القارعة (١) ما القارعة (٢) وما ادريك ما القارعة (٣) يوم يكون الناس كالفراش المبثوث (٤) وتكون الجبال كالعهن المنفوش (٥) فامّا من ثقلت موازينه (٦) فهو في عيشة راضية (٧) و امّا من خفّت موازينه (٨) فامه هاوية (٩) وما ادريك ماهيه (١٠) نار حامية (١١) .

﴿ بيان ﴾

إنذار وتبشير بالقيامة يغلب فيه جانب الإنذار ، والسورة مكّيّة .

قوله تعالى : « القارعة ما القارعة » مبتدء وخبر ، والقارعة من القرع وهو الضرب باعتماد شديد ، وهي من أسماء القيامة في القرآن . قيل : سمّيت بها لأنّها تقرع القلوب بالفزع وتقرع أعداء الله بالعذاب .

والسؤال عن حقيقة القارعة في قوله : « ما القارعة » مع كونها معلومة إشارة إلى تعظيم أمرها و تفخيمه وأنّها لا تكتنه علما ، وقد اُكّد هذا التعظيم والتفخيم بقوله بعد : « وما أدراك ما القارعة » .

قوله تعالى : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » ظرف متعلّق بفعل مقدّر نحو اذكر وتقرع وتأتي ، والفراش على ما نقل عن الفرّاء الجراد الّذي ينفرش ويركب بعضه بعضا وهو غوغاء الجراد . قيل : شبّه الناس عند البعث بالفراش لأنّ الفراش إذا ثار لم يتّجه إلى جهة واحدة كسائر الطير وكذلك الناس إذا خرجوا من قبورهم أحاط بهم الفزع فتوجّهوا إلى جهات شتّى أو توجّهوا إلى منازلهم المختلفة

سعادة وشقاء . والمبثوث من البثّ وهو التفريق .

قوله تعالى : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » العهن الصوف ذو ألوان مختلفة ، والمنفوش من النفش وهو نشر الصوف بندف ونحوه فالعهن المنفوش الصوف المنتشر ذوألوان مختلفة إشارة إلى تلاشي الجبال على اختلاف ألوانها بزلزلة الساعة .

قوله تعالى : « فأمّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية » إشارة إلى وزن الأعمال وأنّ الأعمال منها ما هو ثقيل في الميزان وهو ماله قدر ومنزلة عند الله وهو الإيمان وأنواع الطاعات ، ومنها ما ليس كذلك وهو الكفر وأنواع المعاصي ويختلف القسمان أثراً فيستتبع الثقيل السعادة ويستتبع الخفيف الشقاء ، وقد تقدّم البحث عن معنى الميزان في تفسير السور السابقة .

وقوله : « في عيشة راضية » العيشة بكسر العين كالجلسة بناء نوع ، وتوصيفها براضية ـ والراضي صاحبها ـ من المجاز العقليّ أو المعنى في عيشة ذات رضى .

قوله تعالى : « وأمّا من خفّت موازينه فاُمّه هاوية » الظاهر أنّ المراد بهاوية جهنّم وتسميتها بهاوية لهويّ من اُلقي فيها أي سقوطه إلى أسفل سافلين قال تعالى : «ثمّ رددناه أسفل سافلين إلاّ الّذين آمنوا» التين : ٦ .

فتوصيف النار بالهاوية مجاز عقليّ كتوصيف العيشة بالراضية وعدّ هاوية اُمّاً للداخل فيها لكونها مأواه ومرجعه الّذي يرجع إليه كما يرجع الولد إلى اُمّه .

وقيل : المراد باُمّه اُمّ رأسه والمعنى فأُمّ رأسه هاوية أي ساقطة فيها لأنّهم يلقون في النار على اُمّ رأسهم ، ويبعّده بقاء الضمير في قوله : « ماهيه » بلا مرجع ظاهر .

قوله تعالى : «وما أدراك ماهية» ضمير هي لهاوية ، والهاء في « هيه » للوقف والجملة تفسير تفيد تعظيم أمر النار وتفخيمه .

قوله تعالى : «نار حامية» أي حارّة شديدة الحرارة وهو جواب الاستفهام في «ماهيه» وتفسير لهاوية .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : «كالعهن المنفوش» قال: العهن الصوف ، وفي قوله : «وأمّا من خفّت موازينه » قال : من الحسنات ، وفي قوله : « فأُمّه هاوية » قال : اُمّ رأسه ، يقذف في النار على رأسه .

وفي الدّرالمنثور أخرج ابن مردويه عن أبي أيّوب الأنصاري أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: إنّ نفس المؤمن إذا قبضت يلقاها أهل الرحمة من عباد الله كما يلقون البشير من أهل الدنيا فيقولون : أنظروا صاحبكم يستريح فإنّه كان في كرب شديد ثمّ يسألونه مافعل فلان وفلانة ؟ هل تزوّجت ؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فيقول : هيهات قد مات ذاك قبلي فيقولون : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ذُهب به إلى اُمّه الهاوية فبئست الاُمّ وبئست المربّية .

اقول : وروى هذا المعنى عن أنس بن مالك وعن الحسن والأشعث بن عبدالله الأعمى عنه صلّى الله عليه وآله .

﴿ سورة التكاثر مكيّة وهي ثمان آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ أَلْهَيكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) .

﴿ بيان ﴾

توبيخ شديد للناس على تلهّيهم بالتكاثر في الأموال والأولاد والأعضاد وغفلتهم عمّا وراءه من تبعة الخسران والعذاب ، وتهديد بأنّهم سوف يعلمون ويرون ذلك ويسألون عن هذه النعم الّتي اُوتوها ليشكروا فتلهّوا بها وبدّلوا نعمة الله كفرا .

والسورة بمالها من السياق تحتمل المكّيّة والمدنيّة ، وسيأتي ماورد في سبب نزولها في البحث الروائيّ إن شاء الله .

قوله تعالى : « ألهاكم التكاثر حتّى زرتم المقابر » قال في المفردات : اللهو ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهمّه . قال : ويقال : ألهاه كذا أي شغله عمّا هو أهمّ إليه قال تعالى : «ألهاكم التكاثر» انتهى .

وقال : والمكاثرة والتكاثر التباري في كثرة المال والعزّ . انتهى وقال : المقبرة ـ بكسر الميم ـ والمقبرة ـ بفتحها ـ موضع القبور وجمعها مقابر قال تعالى : «حتّى زرتم المقابر» كناية عن الموت انتهى .

فالمعنى على ما يعطيه السياق شغلكم التكاثر في متاع الدنيا وزينتها والتسابق

في تكثير العدّة والعدّة عمّا يهمّكم وهو ذكر الله حتّى لقيتم الموت فعمّتكم الغفلة مدى حياتكم .

وقيل : المعنى شغلكم التباهي والتباري بكثرة الرجال بأن يقول هؤلاء : نحن أكثر رجالاً و هؤلاء : نحن أكثر حتّى إذا استوعبتم عدد الأحياء صرتم إلى القبور فعددتم الأموات من رجالكم فتكاثرتم بأمواتكم .

وهذا المعنى مبنيّ على ما ورد في أسباب النزول أنّ قبيلتين من الأنصار تفاخرتا بالأحياء ثمّ بالأموات ، وفي بعضها أنّ ذلك كان بمكّة بين بني عبدمناف وبني سهم فنزلت السورة ، وسيأتي القصّة في البحث الروائيّ .

قوله تعالى : «كلاّ سوف تعلمون» ردع عن اشتغالهم بما لا يهمّهم عمّا يعنيهم وتخطئة لهم ، وقوله : «سوف تعلمون» تهديد معناه على ما يفيده المقام سوف تعلمون تبعة تلهّيكم هذا وتعرفونها إذا انقطعتم عن الحياة الدنيا .

قوله تعالى : «ثمّ كلاّ سوف تعلمون» تأكيد للردع والتهديد السابقين ، وقيل: المراد بالأوّل علمهم بها عند الموت وبالثاني علمهم بها عند البعث .

قوله تعالى : كلاّ لو تعلمون علم اليقين لترونّ الجحيم» ردع بعد ردع تأكيدا واليقين العلم الّذي لا يداخله شكّ وريب .

وقوله : «لو تعلمون علم اليقين» جواب لو محذوف والتقدير لو تعلمون الأمر علم اليقين لشغلكم ما تعلمون عن التباهي والتفاخر بالكثرة ، وقوله :«لترونّ الجحيم» استئناف في الكلام ، واللاّم للقسم ، والمعنى اُقسم لترونّ الجحيم الّتي جزاء هذا التلهّي كذا فسّروا .

قالوا : ولا يجوز أن يكون قوله : «لترونّ الجحيم» جواب لو الامتناعيّة لأنّ الرؤية محقّق الوقوع وجوابها لا يكون كذلك .

وهذا مبنيّ على أن يكون المراد رؤية الجحيم يوم القيامة كما قال : «وبرّزت الجحيم لمن يرى» النازعات : ٣٦ وهو غير مسلّم بل الظاهر أنّ المراد رؤيتها قبل يوم القيامة رؤية البصيرة وهي رؤية القلب الّتي هي من آثار اليقين على ما يشير إليه

قوله تعالى : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ وقد تقدّم الكلام فيها ، وهذه الرؤية القلبيّة قبل يوم القيامة غير محقّقة لهؤلاء المتلهّين بل ممتنعة في حقّهم لامتناع اليقين عليهم .

قوله تعالى : « ثمّ لترونّها عين اليقين » المراد بعين اليقين نفسه ، والمعنى لترونّها محض اليقين ، وهذه بمشاهدتها يوم القيامة ومن الدليل عليه قوله بعد ذلك « ثمّ لتسألنّ يومئذ عن النعيم » فالمراد بالرؤية الاُولى رؤيتها قبل يوم القيامة وبالثانية رؤيتها يوم القيامة .

وقيل : الاُولى قبل الدخول فيها يوم القيامة والثانية إذا دخلوها .

وقيل : الاُولى بالمعرفة والثانية بالمشاهدة ، وقيل : المراد الرؤية بعد الرؤية إشارة إلى الاستمرار والخلود ، وقيل غير ذلك وهي وجوه ضعيفة .

قوله تعالى : « ثمّ لتسألنّ يومئذ عن النعيم » ظاهر السياق أنّ هذا الخطاب وكذلك الخطابات المتقدّمة في السورة للناس بما أنّ فيهم من اشتغل بنعمة ربّه عن ربّه فأنساه التكاثر فيها عن ذكر الله ، وما في السورة من التوبيخ والتهديد متوجّه إلى عامّة الناس ظاهراً واقع على طائفة خاصّة منهم حقيقة وهم الّذين ألهاهم التكاثر .

وكذا ظاهر السياق أنّ المراد بالنعيم مطلقه وهو كلّ ما يصدق عليه أنّه نعمة فالإنسان مسؤل عن كلّ نعمة أنعم الله بها عليه .

وذلك أنّ النعمة ـ وهي الأمر الّذي يلائم المنعم عليه و يتضمّن له نوعاً من الخير والنفع ـ إنّما تكون نعمة بالنسبة إلى المنعم عليه إذا استعملها بحيث يسعد بها فينتفع وأمّا لو استعملها على خلاف ذلك كانت نقمة بالنسبة إليه وإن كانت نعمة بالنظر إلى نفسها .

وقد خلق الله تعالى الإنسان وجعل غاية خلقته الّتي هي سعادته ومنتهى كماله التقرّب العبوديّ إليه كما قال : « وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون » الذاريات ٥٦ وهي الولاية الالهيّة لعبده ، وقد هيّأ الله سبحانه له كلّ ما يسعد و ينتفع به في سلوكه نحو الغاية الّتي خلق لها وهي النعم فأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة .

فاستعمال هذه النعم على نحو يرتضيه الله وينتهي بالإنسان إلى غايته المطلوبة هو الطريق إلى بلوغ الغاية وهو الطاعة ، واستعمالها بالجمود عليها ونسيان ما وراءها غيّ وضلال وانقطاع عن الغاية وهو المعصية ، وقد قضى سبحانه قضاء لا يردّ ولا يبدّل أن يرجع الإنسان إليه فيسأله عن عمله فيحاسبه ويجزيه ، وعمله هو استعماله للنعم الإلهيّة قال تعالى : «وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى وأنّ سعيه سوف يرى ثمّ يجزاه الجزاء الأوفى وأنّ إلى ربّك المنتهى » النجم : ٤٢ فالسؤال عن عمل العبد سؤال عن النعيم كيف استعمله أشكر النعمة أم كفر بها ؟

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع : قيل : نزلت في اليهود قالوا : نحن أكثر من بني فلان ، و بنو فلان أكثر من بني فلان ألهاهم ذلك حتّى ماتوا ضلّالاً عن قتادة .

وقيل : نزلت في فخذ من الأنصار تفاخروا عن أبي بريدة ، و قيل : نزلت في حيّين من قريش : بني عبد مناف بن قصيّ وبني سهم بن عمرو تكاثروا وعدّوا أشرافهم فكثرهم بنو عبد مناف . ثمّ قالوا : نعدّ موتانا حتّى زاروا القبور فعدّوهم و قالوا : هذا قبر فلان وهذا قبر فلان فكثرهم بنو سهم لأنّهم كانوا أكثر عدداً في الجاهليّة . عن مقاتل والكلبيّ .

وفي تفسير البرهان عن البرقيّ عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : «لو تعلمون علم اليقين » قال : المعاينة .

أقول: الرواية تؤيّد ما قدّمناه من المعنى .

وفي تفسير القمّيّ بإسناده عن جميل عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قلت له : « لتسألنّ يومئذ عن النعيم » قال : تسأل هذه الاُمّة عمّا أنعم الله عليها برسوله ثمّ بأهل بيته .

وفي الكافي بإسناده عن أبي خالد الكابليّ قال : دخلت على أبي جعفر عليه السلام فدعا بالغذاء فأكلت معه طعاماً ما أكلت طعاما أطيب منه قطّ ولا ألطف فلمّا فرغنا من

الطعام قال : يا أبا خالد كيف رأيت طعامك ؟ أوقال: طعامنا ؟ قلت : جعلت فداك ما أكلت طعاماً أطيب منه قطّ ولا أنظف[1] ولكن ذكرت الآية التي في كتاب الله عزّ وجلّ « ثمّ لتسألنّ يومئذ عن النعيم » فقال أبوجعفر عليه السلام : إنّما يسألكم عمّا أنتم عليه من الحقّ .

وفيه بإسناده عن أبي حمزة قال :كنّا عند أبي عبدالله عليه السلام جماعة فدعا بطعام مالنا عهد بمثله لذاذة وطيباً واُتينا بتمر تنظر فيه أوجهنا من صفائه و حسنه فقال رجل : لتسألنّ عن هذا النعيم الّذي تنعّمتم به عند ابن رسول الله فقال أبوعبدالله عليه السلام إنّ الله عزّ وجلّ أكرم وأجلّ أن يطعم طعاماً فيسوّغكموه ثمّ يسألكم عنه إنّما يسألكم عمّا أنعم عليكم بمحمّد وآل محمّد صلى الله عليه وآله .

أقول: وهذا المعنى مرويّ عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام بطرق اُخرى وعبارات مختلفة وفي بعضها أنّ النعيم ولايتنا أهل البيت ، ويؤل المعنى إلى ماقدّمناه من عموم النعيم لكلّ نعمة أنعم الله بها بما أنّها نعمة .

بيان ذلك أنّ هذه النعم لوسئل عن شيء منها فليست يسأل عنها بما أنّها لحم أوخبز أوتمر أوماء بارد أو أنّها سمع أو بصر أويد أو رجل مثلا وإنّما يسأل عنها بما أنّها نعمة خلقها الله للإنسان وأوقعها في طريق كماله والحصول على التقرّب العبوديّ كما تقدّمت الإشارة إليه وندبه إلى أن يستعملها شكراً لاكفراً .

فالمسؤل عنها هي النعمة بما أنّها نعمة ، ومن المعلوم أنّ الدالّ على نعيميّة النعيم وكيفيّة استعماله شكراً والمبيّن لذلك كلّه هو الدين الّذي جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله ونصب لبيانه الأئمّة من أهل بيته فالسؤال عن النعيم مرجعه السؤال عن العمل بالدين في كلّ حركة وسكون ومن المعلوم أيضا أنّ السؤال عن النعيم الّذي هو الدين سؤال عن النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة من بعده الّذين افترض الله طاعتهم وأوجب اتّباعهم في السلوك إلى الله الّذي طريقه استعمال النعم كما بيّنه الرسول والأئمّة .

وإلى كون السؤال عن النعيم سؤالا عن الدين يشيرما في رواية أبي خالد من قوله : « انّما يسئلكم عمّا أنتم عليه من الحق ».

وإلى كونه سؤالاً عن النعيم الّذي هو النبيّ وأهل بيته يشير ما في روايتي جميل وأبي حمزة السابقتين من قوله : «يسأل هذه الاُمّة عمّا أنعم الله عليها برسوله ثمّ بأهل بيته » أو ما في معناه ، وفي بعض الروايات[1] : « النعيم هورسول الله صلى الله عليه وآله أنعم الله به على أهل العالم فاستنقذهم من الضلالة » ، و في بعضها أنّ النعيم ولايتنا أهل البيت ، والمآل واحد ومن ولاية أهل البيت افتراض طاعتهم واتّباعهم فيما يسلكونه من طريق العبوديّة .

وفي المجمع : وقيل : النعيم الصحّة والفراغ عن عكرمة ، ويعضده ما رواه ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : نعمتان مغبون فيهماكثيرمن الناس : الصحة والفراغ .

وفيه : وقيل : هويعني النعيم الأمن والصحّة عن عبدالله بن مسعود ومجاهد ، وروي ذلك عن أبي جعفروأبي عبدالله عليهما السلام .

اقول: وفي روايات اُخرى من طرق أهل السنة أنّ النعيم هوالتمروالماءالبارد وفي بعضها غيرهما ، وينبغي أن يحمل الجميع على إيراد المثال .

وفي الحديث النبويّ من طرقهم أيضا : ثلاث لايسأل عنها العبد : خرقة يواري بها عورته أوكسرة يسدّ بها جوعته أوبيت يكنّه من الحرّ والبرد . الحديث ، وينبغي أن يحمل على خفّة الحساب في الضروريّات ونفي المناقشة فيه والله أعلم .



﴿ سورة العصر مكيّة وهي ثلاث آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ وَالْعَصْرِ (١) اِنَّ الْاِنْسانَ لَفي خُسْرٍ (٢) اِلَّا الَّذينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) .

﴿ بيان ﴾

تلخّص السورة جميع المعارف القرآنيّة وتجمع شتات مقاصد القرآن في أوجز بيان ، وهي تحتمل المكّيّة والمدنيّة لكنّها أشبه بالمكّيّة .

قوله تعالى : « والعصر » إقسام بالعصروالأنسب لما تتضمّنه الآيتان التاليتان من شمول الخسران للعالم الإنساني إلّا لمن اتّبع الحقّ وصبر عليه وهم المؤمنون الصالحون عملا ، أن يكون المراد بالعصر عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وهو عصر طلوع الإسلام على المجتمع البشريّ وظهور الحقّ على الباطل .

و قيل : المراد به وقت العصر وهو الطرف الأخير من النهار لما فيه من الدلالة على التدبير الربوبيّ بإدبار النهار وإقبال الليل وذهاب سلطان الشمس ، و قيل : المراد به صلاة العصر و هي الصلاة الوسطى الّتي هي أفضل الفرائض اليوميّة ، و قيل الليل والنهار ويطلق عليهما العصران ، وقيل الدهر لما فيه من عجائب الحوادث الدالّة على القدرة الربوبيّة ، وغير ذلك .

وقد ورد في بعض الروايات أنّه عصر ظهور المهديّ عليه السلام لما فيه من تمام ظهور الحقّ على الباطل .

قوله تعالى : « إنّ الإنسان لفي خسر » المراد بالإنسان جنسه ، والخسر والخسران والخسار والخسارة نقص رأس المال قال الراغب : وينسب ذلك إلى الإنسان

فيقال : خسر فلان وإلى الفعل فيقال : خسرت تجارته انتهى والتنكير في « خسر » للتعظيم ويحتمل التنويع أي هو في نوع من الخسر غير الخسارات المالية والجاهية قال تعالى : « الّذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين » الزمر : ١٥ .

قوله تعالى : «إلاّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات» استثناء من جنس الإنسان الواقع في الخسر ، والمستثنون هم الأفراد المتلبّسون بالايمان والأعمال الصالحة فهم آمنون من الخسر .

وذلك أنّ كتاب الله يبيّن أنّ للإنسان حياة خالدة مؤبّدة لا تنقطع بالموت وإنّما الموت انتقال من دار إلى دار كما تقدّم في تفسير قوله تعالى : «على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون» الواقعة : ٦١ ويبيّن أنّ شطراً من هذه الحياة وهي الحياة الدنيا حياة امتحانيّة تتعيّن بها صفة الشطر الأخير الّذي هو الحياة الآخرة المؤبّدة من سعادة وشقاء قال تعالى : «وما الحياة الدنيا في الآخرة إلّا متاع» الرعد : ٢٦ وقال: «كلّ نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة» الأنبياء : ٣٥ .

ويُبيّن أنّ مقدّميّة هذه الحياة لتلك الحياة إنّما هي بمظاهرها من الاعتقاد والعمل فالاعتقاد الحقّ والعمل الصالح ملاك السعادة الاُخرويّة والكفر والفسوق ملاك الشقاء فيها قال تعالى : «وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى و أنّ سعيه سوف يرى ثمّ يجزاه الجزاء الأوفى» النجم : ٤١ ، وقال : «من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون» الروم : ٤٤ ، وقال : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » حمّ السجدة : ٤٦ ، وقد سمّى الله تعالى ما سيلقاه الإنسان في الآخرة جزاء وأجراً في آيات كثيرة .

ويتبيّن بذلك كلّه أنّ الحياة رأس مال للإنسان يكسب به ما يعيش به في حياته الآخرة فإن اتّبع الحقّ في العقد والعمل فقد ربحت تجارته وبورك في مكسبه وأمن الشرّ في مستقبله ، وإن اتّبع الباطل وأعرض عن الإيمان والعمل الصالح فقد خسرت تجارته وحرم الخير في عقباه وهو قوله تعالى : «إنّ الإنسان لفي خسر إلاّ الّذين

آمنوا وعملوا الصالحات» .

والمراد بالإيمان الإيمان بالله و من الإيمان بالله الإيمان بجميع رسله والإيمان باليوم الآخر فقد نصّ تعالى فيمن لم يؤمن ببعض رسله (١) أوباليوم الآخر أنّه غير مؤمن بالله .

وظاهر قوله : « وعملوا الصالحات» التلبّس بجميع الأعمال الصالحة فلا يشمل الاستثناء الفسّاق بترك بعض الصالحات من المؤمنين ولازمه أن يكون الخسر أعمّ من الخسر في جميع جهات حياته كما في الكافر المعاند للحقّ المخلّد في العذاب ، والخسر في بعض جهات حياته كالمؤمن الفاسق الّذي لا يخلّد في النار وينقطع عنه العذاب بشفاعة ونحوها .

قوله تعالى : «وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر» التواصي بالحقّ هو أن يوصي بعضهم بعضاً بالحقّ أي باتّباعه والدوام عليه فليس دين الحقّ إلاّ اتّباع الحقّ اعتقاداً وعملاً والتواصي بالحقّ أوسع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشموله الاعتقاديات ومطلق الترغيب والحثّ على العمل الصالح .

ثمّ التواصي بالحقّ من العمل الصالح فذكره بعد العمل الصالح من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ اهتماماً بأمره كما أنّ التواصي بالصبر من التواصي بالحقّ وذكره بعده من ذكر الخاصّ بعد العامّ اهتماماً بأمره ، ويؤكّده تكرار ذكر التواصي حيث قال : «وتواصوا بالصبر » ولم يقل : وتواصوا بالحق والصبر .

وعلى الجملة ذكر تواصيهم بالحقّ وبالصبر بعد ذكر تلبّسهم بالإيمان والعمل الصالح للإشارة إلى حياة قلوبهم وانشراح صدورهم للإسلام لله فلهم اهتمام خاصّ واعتناء تامّ بظهور سلطان الحقّ وانبساطه على الناس حتّى يتّبع ويدوم اتّباعه قال تعالى : «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اُولئك في ضلال مبين» الزمر : ٢٢ .

---

(١) النساء : ١٥٠ ـ ١٥١ .

وقد اُطلق الصبر فالمراد به أعمّ من الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصيته ، والصبر عند النوائب الّتي تصيبه بقضاء من الله وقدر .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي بإسناده عن عبد الرحمان بن كثير عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : «إلاّ الّذين آمنوا» الخ فقال : استثنى أهل صفوته من خلقه .

أقول : وطبّق في ذيل الرواية الإيمان على الإيمان بولاية عليّ عليه السلام ، والتواصي بالحقّ على توصيتهم ذرّيّاتهم وأخلافهم بها .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله : «والعصر إنّ الإنسان لفي خسر » يعني أبا جهل بن هشام « إلاّ الّذين آمنوا و عملوا الصالحات » ذكر عليّاً وسلمان .



﴿ سورة الهمزة مكيّة وهي تسع آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) اَلَّذِى جَمَعَ مالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ اَنَّ مالَهُ اَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ (٤) وَما اَدْريٰكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ (٦) اَلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْاَفْئِدَةِ (٧) اِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) .

﴿ بيان ﴾

وعيد شديد للمغرمين بجمع المال المستعلين به على الناس المستكبرين عليهم فيزرون بهم ويعيبونهم بما ليس بعيب ، والسورة مكيّة .

قوله تعالى : «ويل لكلّ همزة لمزة» قال في المجمع : الهُمزة الكثير الطعن على غيره بغير حقّ العائب له بما ليس بعيب ، وأصل الهمز الكسر . قال : واللمز العيب أيضاً والهمزة واللمزة بمعنى ، وقد قيل : بينهما فرق فإنّ الهمزة الّذي يعيبك بظهر الغيب ، واللمزة الّذي يعيبك في وجهك . عن الليث .

وقيل : الهمزة الّذي يؤذي جليسه بسوء لفظه ، واللمزة الّذي يكسر عينه على جليسه ويشير برأسه ويؤمي بعينه . قال : وفُعَلة بناء المبالغة في صفة من يكثر منه الفعل ويصير عادة له تقول : رجل نكحة كثير النكاح وضحكة كثير الضحك وكذا هُمزة ولمزة . انتهى .

فالمعنى ويل لكلّ عيّاب مغتاب ، وفسّر بمعان اُخر على حسب اختلافهم في تفسير الهمزة واللمزة .

قوله تعالى : «الّذي جمع مالاً وعدّده يحسب أنّ ماله أخلده» بيان لهمزة لمزة

وتنكير «مالاً» للتحقير فإنّ المال وإن كثر ما كثر لا يغني عن صاحبه شيأ غير أنّ له منه ما يصرفه في حوائج نفسه الطبيعيّة من أكلة تشبعه وشربة ماء ترويه ونحو ذلك و«عدّده» من العدّ بمعنى الإحصاء أي إنّه لحبّه المال وشعفه بجمعه يجمع المال ويعدّه عدّاً بعد عدّ التذاذاً بتكثّره . وقيل : المعنى جعله عدّة وذخراً لنوائب الدهر .

وقوله : «يحسب أنّ ماله أخلده» أي يخلده في الدنيا ويدفع عنه الموت والفناء فالماضي اُريد به المستقبل بقرينة قوله : «يحسب» .

فهذا الإنسان لإخلاده إلى الأرض وانغماره في طول الأمل لا يقنع من المال بما يرتفع به حوائج حياته القصيرة و ضروريّات أيّامه المعدودة بل كلّما زاد مالاً زاد حرصاً إلى مالا نهاية له فظاهر حاله أنّه يرى أنّ المال يخلده ، ولحبّه الغريزيّ للبقاء يهتمّ بجمعه وتعديده ، ودعاه ما جمعه وعدّده من المال وما شاهده من الاستغناء إلى الطغيان والاستعلاء على غيره من الناس كما قال تعالى : «إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» العلق : ٧ ويورثه هذا الاستكبار والتعدّي الهمز واللمز .

ومن هنا يظهر أنّ قوله : «يحسب أنّ ماله أخلده» بمنزلة التعليل لقوله : «الّذي جمع مالاً وعدّده» ، وقوله : «الّذي جمع» الخ بمنزلة التعليل لقوله : «ويل لكلّ همزة لمزة» .

قوله تعالى : «كلاّ لينبذنّ في الحطمة» ردع عن حسبانه الخلود بالمال ، واللاّم في «لينبذنّ» للقسم ، والنبذ القذف والطرح ، والحطمة مبالغة من الحطم وهو الكسر وجاء بمعنى الأكل ، وهي من أسماء جهنّم على ما يفسّرها قوله الآتي : «نار الله الموقدة» .

والمعنى ليس مخلّداً بالمال كما يحسب اُقسم ليموتنّ ويقذفنّ في الحطمة .

قوله تعالى : «وما أدراك ما الحطمة» تفخيم وتهويل .

قوله تعالى : «نار الله الموقدة الّتي تطّلع على الأفئدة» إيقاد النار إشعالها والاطّلاع والطلوع على الشيء الإشراف والظهور ، والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب ، والمراد به في القرآن مبدء الشعور والفكر من الإنسان وهو النفس الإنسانيّة .

وكأنّ المراد من اطّلاعها على الأفئدة أنّها تحرق باطن الإنسان كما تحرق ظاهره بخلاف النار الدنيويّة الّتي إنّما تحرق الظاهر فقط قال تعالى : «وقودها الناس والحجارة» البقرة : ٢٤ .

قوله تعالى : «إنّها عليهم مؤصدة» أي مطبقة لامخرج لهم منها ولا منجا .

قوله تعالى : «في عمد ممدّدة» العمد بفتحتين جمع عمود والتمديد مبالغة في المدّ قيل : هي أوتاد الأطباق الّتي تطبق على أهل النار ، وقيل : عمد ممدّدة يوثقون فيها مثل المقاطر وهي خشب أو جذوع كبار فيها خروق توضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص وغيرهم ، وقيل غير ذلك .

﴿ بحث روائي ﴾

في روح المعاني في قوله تعالى : «ويل لكلّ همزة لمزة» نزل ذلك على ما أخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عمر في اُبيّ بن خلف ، وعلى ما أخرج عن السدي في اُبيّ بن عمرو الثقفيّ الشهير بالأخنس بن شريق فإنّه كان مغتاباً كثير الوقيعة .

وعلى ما قال ابن إسحاق في اُميّة بن خلف الجمحي وكان يهمز النبيّ صلى الله عليه وآله .

وعلى ما أخرج ابن جرير و غيره عن مجاهد في جميل بن عامر وعلى ماقيل في الوليد بن المغيرة و اغتيابه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وغضّه منه ، وعلى قول في العاص ابن وائل .

أقول : ثمّ قال : ويجوز أن يكون نازلا في جميع من ذكر انتهى ولا يبعد أن يكون من تطبيق الرواة وهو كثير في أسباب النزول .

وفي تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « ويل لكلّ همزة » قال : الّذي يغمز الناس ويستحقر الفقراء ، وقوله :«لمزة» يلوي عنقه ورأسه ويغضب إذا رآى فقيراً أوسائلاً «الّذي جمع مالاً وعدّده» قال : أعدّه ووضعه .

وفيه في قوله تعالى : « الّتي تطّلع على الأفئدة » قال : تلتهب على الفؤاد قال

أبوذرّ رضي الله عنه : بشّر المتكبّرين بكيّ في الصدور وسحب على الظهور . قوله : «إنّها عليهم موصدة » قال : مطبقة «في عمد ممدّدة» قال : إذا مدّت العمد عليهم أكلت والله الجلود .

وفي المجمع روى العيّاشيّ بإسناده عن محمّد بن النعمان الأحول عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنّ الكفّار والمشركين يعيّرون أهل التوحيد في النار ويقولون : ما نرى توحيدكم أغنى عنكم شيأ وما نحن وأنتم إلاّ سواء قال : فيأنف لهم الربّ تعالى فيقول للملائكة : اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله ثمّ يقول للنبيّين : اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله ثمّ يقول للمؤمنين : اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله ويقول الله : أنا أرحم الراحمين اخرجوا برحمتي فيخرجون كما يخرج الفراش .

قال : ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام : ثمّ مدّت العمد واُوصدت عليهم وكان والله الخلود .

﴿ سورة الفيل مكيّة و هي خمس آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) .

﴿ بيان ﴾

فيها إشارة إلى قصّة أصحاب الفيل إذ قصدوا مكّة لتخريب الكعبة المعظّمة فأهلكهم الله بإرسال طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل فجعلهم كعصف مأكول ، وهي من آيات الله الجليّة الّتي لا سترة عليها، وقد أرّخوا بها وذكرها الجاهليّون في أشعارهم ، والسورة مكّيّة .

قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل » المراد بالرؤية العلم الظاهر ظهور الحسّ ، والاستفهام إنكاريّ ، والمعنى ألم تعلم كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل ، وقد كانت الواقعة عام ولد فيه النبيّ صلى الله عليه وآله .

قوله تعالى : « ألم يجعل كيدهم في تضليل » المراد بكيدهم سوء قصدهم بمكّة وإرادتهم تخريب البيت الحرام ، والتضليل والإضلال واحد ، وجعل كيدهم في تضليل جعل سعيهم ضالاًّ لا يهتدي إلى الغاية المقصودة منه فقد ساروا لتخريب الكعبة وانتهى بهم إلى هلاك أنفسهم .

قوله تعالى : « وأرسل عليهم طيراً أبابيل » الأبابيل ـ كما قيل ـ جماعات في تفرقة زمرة زمرة ، والمعنى وأرسل الله على أصحاب الفيل جماعات متفرّقة من الطير والآية والّتي تتلوها عطف تفسير على قوله : « ألم يجعل كيدهم في تضليل » .

قوله تعالى : « ترميهم بحجارة من سجيل » أي ترمي أبابيل الطير أصحاب الفيل بحجارة من سجّيل ، وقد تقدّم معنى السجّيل في تفسير قصص قوم لوط .

قوله تعالى : « فجعلهم كعصف مأكول » العصف ورق الزرع والعصف المأكول ورق الزرع الّذي اُكل حبّه أو قشر الحبّ الّذي اُكل لبّه والمراد أنّهم عادوا بعد وقوع السجّيل عليهم أجساداً بلا أرواح أو أنّ الحجر بحرارته أحرق أجوافهم ، وقيل: المراد ورق الزرع الّذي وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود فيفسده و فسّرت الآية ببعض وجوه اُخر لا يناسب الأدب القرآنيّ .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع : أجمعت الرواة على أنّ ملك اليمن الّذي قصد هدم الكعبة هو أبرهة ابن الصباح الأشرم وقيل: إنّ كنيته أبو يكسوم و نقل عن الواقديّ أنّه جدّ النجاشي الّذى كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ثمّ ساق الكلام في قصّة استيلائه على ملك اليمن إلى أن قال : ثمّ إنّه بنى كعبة باليمن وجعل فيها قباباً من ذهب فأمر أهل مملكته بالحجّ إليها يضاهي بذلك البيت الحرام ، وإنّ رجلاً من بني كنانة خرج حتّى قدم اليمن فنظر إليها ثمّ قعد فيها يعني لحاجة الإنسان فدخلها أبرهة فوجد تلك العذرة فيها فقال : من اجترء عليّ بهذا ؟ ونصرانيّتي لأهدمنّ ذلك البيت حتّى لايحجّه حاج أبدا ودعا بالفيل وأذّن قومه بالخروج ومن اتّبعه من أهل اليمن ، وكان أكثر من اتّبعه منهم عكّ والأشعرون وخثعم .

قال : ثمّ خرج يسير حتّى إذا كان ببعض طريقه بعث رجلاً من بني سليم ليدعو الناس إلى حجّ بيته الّذي بناه فتلقّاه أيضاً رجل من الحمس من بني كنانة فقتله فازداد بذلك حنقاً وحثّ السير والانطلاق .

وطلب من أهل الطائف دليلاً فبعثوا معه رجلاً من هذيل يقال له نفيل فخرج

بهم يهديهم حتّى إذا كانوا بالمغمس نزلوه وهو من مكّة على ستّة أميال فبعثوا مقدّماتهم إلى مكّة فخرجت قريش عباديد في رؤوس الجبال وقالوا : لا طاقة لنا بقتال هؤلاء ولم يبق بمكّة غير عبد المطلب بن هاشم أقام على سقايته وغير شيبة بن عثمان بن عبد الدار أقام على حجابة البيت فجعل عبد المطّلب يأخذ بعضادتي الباب ثمّ يقول :

لا همّ إنّ المرء يمنع رحله فامنع جلالك

لا يغلبوا بصليبهم ومحالهم عدواً محالك

لا يدخلوا البلد الحرام إذاً فأمرما بدالك

ثمّ إنّ مقدّمات أبرهة أصابت نعماً لقريش فأصابت فيها مائتي بعير لعبدالمطلب ابن هاشم فلمّا بلغه ذلك خرج حتّى أتى القوم ، وكان حاجب أبرهة رجلاً من الأشعرين وكان له بعبد المطّلب معرفة فاستأذن له على الملك وقال له : أيّها الملك جاءك سيّد قريش الّذي يطعم إنسها في الحيّ ووحشها في الجبل فقال له : ائذن له.

وكان عبد المطّلب رجلاً جسيماً جميلاً فلمّا رآه أبو يكسوم أعظمه أن يجلسه تحته وكره أن يجلسه معه على سريره فنزل من سريره فجلس على الارض وأجلس عبد المطّلب معه ثمّ قال : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي مائتا بعير لي أصابتها مقدّمتك فقال أبو يكسوم : والله لقدرأيتك فأعجبتني ثمّ تكلّمت فزهدت فيك فقال : ولم أيّها الملك ؟ قال : لأنّي جئت إلى بيت عزّكم ومنعتكم من العرب وفضلكم في الناس وشرفكم عليهم ودينكم الّذي تعبدون فجئت لأكسره واُصيبت لك مائتا بعير فسألتك عن حاجتك فكلّمتني في إبلك ولم تطلب إليّ في بيتكم .

فقال له عبد المطّلب : أيّها الملك أنا اُكلّمك في مالي ولهذا البيت ربّ هو يمنعه لست أنا منه في شيء فراع ذلك أبا يكسوم وأمر بردّ إبل عبد المطّلب عليه ثمّ رجع وأمست ليلتهم تلك الليلة كالحة نجومها كأنّها تكلّمهم كلاما لاقترابها منهم فأحسّت نفوسهم بالعذاب .

إلى أن قال : حتّى إذا كان مع طلوع الشمس طلعت عليهم الطير معها الحجارة فجعلت ترميهم ، وكلّ طائر في منقاره حجر وفي رجليه حجران وإذا رمت بذلك مضت وطلعت اُخرى فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلاّ خرقه ولا عظم إلاّ أوهاه وثقبه ، وثاب أبو يكسوم راجعاً قد أصابته بعض الحجارة فجعل كلّما قدم أرضاً انقطع له فيها إرب حتّى إذا انتهى إلى اليمن لم يبق شيء إلاّ باده فلمّا قدمها تصدّع صدره وانشقّ بطنه فهلك ولم يصب من الأشعرين وخثعم أحد . الحديث .

أقول : وفي الروايات اختلاف شديد في خصوصيّات القصّة من أراد الوقوف عليها فعليه بمطوّلات السير والتواريخ .



﴿ سورة لايلاف مكيّة وهي خمس آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ لِايلافِ قُرَيْشٍ (١) ايلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ (٤) وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٥) .

﴿ بيان ﴾

تتضمّن السورة امتناناً على قريش بإيلافهم الرحلتين وتعقّبه بدعوتهم إلى التوحيد وعبادة ربّ البيت ، والسورة مكيّة .

و لمضمون السورة نوع تعلّق بمضمون سورة الفيل ولذا ذهب قوم من أهل السنّة إلى كون الفيل ولإيلاف سورة واحدة كما قيل بمثله في الضحى وألم نشرح لما بينهما من الارتباط كما نسب ذلك إلى المشهور بين الشيعة والحقّ أنّ شيئاً ممّا استندوا إليه لا يفيد ذلك .

أمّا القائلون بذلك من أهل السنّة فإنّهم استندوا فيه إلى ما روي أنّ أُبيّ ابن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة ، وبما روي عن عمرو بن ميمون الأزديّ قال : صلّيت المغرب خلف عمر بن الخطّاب فقرء في الركعة الاُولى والتين وفي الثانية ألم تر ولإيلاف قريش من غير أن يفصل بالبسملة .

واُجيب عن الرواية الاُولى بمعارضتها بما روي أنّه أثبت البسملة بينهما في مصحفه ، وعن الثانية بأنّ من المحتمل على تقدير صحّتها أن يكون الراوي لم يسمع قراءتها أو يكون قرأها سرّاً . على أنّها معارض بما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الله فضّل قريشاً بسبع خصال وفيها « ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد

غيرهم : لا يلاف قريش». الحديث على أنّ الفصل متواتر .

وأمّا القائلون بذلك من الشيعة فاستندوا فيه إلى ما في المجمع عن أبي العبّاس عن أحدهما عليهما السلام قال : ألم تر كيف فعل ربّك ولا يلاف قريش سورة واحدة ، وما في التهذيب باسناده عن العلاء عن زيد الشحّام قال : صلّى بنا أبو عبدالله عليه السلام الفجر فقرء الضحى وألم نشرح في ركعة ، وما في المجمع عن العيّاشيّ عن المفضّل بن صالح عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول : لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة إلّا الضحى وألم نشرح وألم تر كيف ولا يلاف قريش ، ورواه المحقّق في المعتبر نقلاً من كتاب الجامع لأحمد بن محمّد بن أبي نصر عن المفضّل مثله .

أمّا رواية أبي العبّاس فضعيف لما فيها من الرفع .

وأمّا رواية الشحّام فقد رويت عنه أيضاً بطريقين آخرين : أحدهما ما في التهذيب باسناده عن ابن مسكان عن زيد الشحّام قال : صلّى بنا أبو عبدالله عليه السلام فقرء بنا بالضحى وألم نشرح ، وثانيهما عنه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن زيد الشحّام قال : صلّى بنا أبو عبدالله عليه السلام فقرء في الاُولى الضحى وفي الثانية ألم نشرح لك صدرك .

وهذه أعني صحيحة ابن أبي عمير صريحة في قراءة السورتين في ركعتين ولا يبقى معها لرواية العلاء ظهور في الجمع بينهما ، وأمّا رواية ابن مسكان فلا ظهور لها في الجمع ولا صراحة ، وأمّا حمل رواية ابن أبي عمير على النافلة فيدفعه قوله فيها : «صلّى بنا» فانّه صريح في الجماعة ولا جماعة في نفل .

وأمّا رواية المفضّل فهي أدلّ على كونهما سورتين منها على كونهما سورة واحدة حيث قيل : لا تجمع بين سورتين ثمّ استثني من السورتين الضحى وألم نشرح وكذا الفيل ولا يلاف .

فالحقّ أنّ الروايات إن دلّت فانّما تدلّ على جواز القران بين سورتي الضحى وألم نشرح وسورتي الفيل ولا يلاف في ركعة واحدة من الفرائض وهو ممنوع في غيرها ، ويؤيّده رواية الراونديّ في الخرائج والجرائح عن داود الرقّيّ عن أبي

عبدالله عليه السلام في حديث قال : فلمّا طلع الفجر قام فأذّن وأقام وأقامني عن يمينه وقرء في أوّل ركعة الحمد والضحى وفي الثانية بالحمد وقل هو الله أحد ثمّ قنت ثمّ سلّم ثمّ جلس .

قوله تعالى : « لا يلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » الإلف بكسر الهمزة اجتماع مع التئام كما قاله الراغب ومنه الاُلفة ، وقال في الصحاح : وفلان قد ألف هذا الموضع بالكسر يألفه إلفاً وآلفه إيّاه غيره ، ويقال أيضاً : آلفت الموضع اُولفه إيلافاً انتهى .

وقريش عشيرة النبي صلّى الله عليه وآله وهم ولد النضر بن كنانة المسمّى قريشاً ، والرحلة حال السير على الراحلة وهي الناقة القويّة على السير كما في المجمع ، والمراد بالرحلة خروج قريش من مكّة للتجارة وذلك أنّ الحرم واد جديب لا زرع فيه ولا ضرع فكانت قريش تعيش فيه بالتجارة ، وكانت لهم في كلّ سنة رحلتان للتجارة رحلة في الشتاء إلى اليمن و رحلة بالصيف إلى الشام ، وكانوا يعيشون بذلك وكان الناس يحترمونهم لمكان البيت الحرام فلا يتعرضون لهم بقطع طريقهم أو الإغارة على بلدهم الآمن .

وقوله : « لا يلاف قريش » اللاّم فيه للتعليل ، وفاعل الإيلاف هو الله سبحانه وقريش مفعوله الأوّل ومفعوله الثاني محذوف يدلّ عليه ما بعده ؛ وقوله : « إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » بدل من إيلاف قريش ، وفاعل إيلافهم هو الله ومفعوله الاُوّل ضمير الجمع ومفعوله الثاني رحلة الخ ، والتقدير لا يلاف الله قريشاً رحلة الشتاء والصيف .

قوله تعالى : « فليعبدوا ربّ هذا البيت » الفاء في « فليعبدوا » لتوهّم معنى الشرط أي أيّ شيء كان فليعبدوا ربّ هذا البيت لا يلافه أيّام الرحلتين أو لتوهّم التفصيل أي مهما يكن من شيء فليعبدوا ربّ هذا البيت الخ ، فهو كقوله تعالى : « ولربّك فاصبر » المدّثّر : ٧ .

ومحصّل معنى الآيات الثلاث ليعبد قريش ربّ هذا البيت لأجل إيلافه إيّاهم رحلة الشتاء والصيف وهم عائشون بذلك في أمن .

هذا بالنظر إلى كون السورة منفصلة عمّا قبلها ذات سياق مستقلّ في نفسها ، وأمّا على تقدير كونها جزء من سورة الفيل متمّمة لها فذكروا أنّ اللاّم في « لا يلاف » تعليلية متعلّقة بمقدّر يدلّ عليه المقام والمعنى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منّا على قريش مضافة إلى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء والصيف فكأنّه قال : نعمة إلى نعمة ولذا قيل : إنّ اللاّم مؤدّية معنى إلى وهو قول الفرّاء .

وقيل : المعنى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل لتألف قريش بمكّة و يمكنهم المقام بها أولنؤلف قريشا فإنّهم هابوا من أبرهة لمّا قصدها وهربوا منه فأهلكناهم لترجع قريش إلى مكّة ويألفوا بها ويولد محمّد صلى الله عليه وآله فيبعث إلى الناس بشيراً و نذيراً هذا ، والكلام في استفادة هذه المعاني من السياق .

قوله تعالى : « الّذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » إشارة إلى ما في إيلافهم الرحلتين من منّه الواضح ونعمته الظاهرة عليهم وهو الإطعام والأمن فيعيشون في أرض لاخصب فيها ولا أمن لغيرهم فليعبدوا ربّاً يدبّر أمرهم أحسن التدبير و هو ربّ البيت .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : «لايلاف قريش إيلافهم» قال : نزلت في قريش لأنّه كان معاشهم من الرحلتين رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، وكانوا يحملون من مكّة الأدم واللّب وما يقع من ناحية البحر من الفلفل و غيره فيشترون بالشام الثياب والدرمك و الحبوب ، وكانوا يتألّفون في طريقهم و يثبتون في الخروج في كلّ خرجة رئيساً من رؤساء قريش وكان معاشهم من ذلك .

فلمّا بعث الله نبيّه استغنوا عن ذلك لأنّ الناس وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وحجّوا إلى البيت فقال الله : « فليعبدوا ربّ هذا البيت الّذي أطعمهم من جوع » لايحتاجون أن يذهبوا إلى الشام « وآمنهم من خوف » يعني خوف الطريق .

أقول : قوله : فلمّا بعث الله الخ خفيّ الانطباق على سياق آيات السورة ، ولعلّه من كلام القمّي أخذه من بعض ما روي عن ابن عبّاس .

﴿ سورة الماعون مدنيّة أو مكيّة وهي سبع آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) .

﴿ بيان ﴾

وعيد لمن كان من المنتحلين بالدين متخلّقاً بأخلاق المنافقين كالسهو عن الصلاة والرياء في الأعمال ومنع الماعون ممّا لايلائم التصديق بالجزاء .

والسورة تحتمل المكيّة والمدنيّة ، وقيل : نصفها مكّي ونصفها مدنيّ .

قوله تعالى : « أرأيت الّذي يكذّب بالدين » الرؤية تحتمل الرؤية البصريّة وتحتمل أن تكون بمعنى المعرفة ، والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله بما أنّه سامع فيتوجّه إلى كلّ سامع ، والمراد بالدين الجزاء يوم الجزاء فالمكذّب بالدين منكر المعاد و قيل المراد بهالدين بمعنى الملّة .

قوله تعالى : « فذلك الّذي يدعّ اليتيم » الدعّ هوالردّ بعنف وجفاء ، والفاء في « فذلك » لتوهّم معنى الشرط والتقدير أرأيت الّذي يكذّب بالجزاء فعرفته بصفاته اللازمة لتكذيبه فإن لم تعرفه فذلك الّذي يردّ اليتيم بعنف ويجفوه ولايخاف عاقبة عمله السيّىء ولو لم يكذّب به لخافها ولوخافها لرحمه .

قوله تعالى : « ولايحضّ على طعام المسكين » الحضّ الترغيب ، والكلام على تقدير مضاف أي لايرغّب الناس على إطعام طعام المسكين قيل: إنّ التعبير بالطعام دون

الإطعام للإشعار بأنّ المسكين كأنّه مالك لما يعطى له كما في قوله تعالى : «وفي أموالهم حقّ للسائل والمحروم» الذاريات : ١٩ وقيل : الطعام في الآية بمعنى الإطعام.

والتعبير بالحضّ دون الإطعام لأنّ الحضّ أعمّ من الحضّ العمليّ الذي يتحقّق بالإطعام.

قوله تعالى : «فويل للمصلّين الّذين هم عن صلاتهم ساهون» أي غافلون لا يهتمّون بها ولا يبالون أن تفوتهم بالكلّيّة أو في بعض الأوقات أو تتأخّر عن وقت فضيلتها وهكذا.

وفي الآية تطبيق من يكذّب بالدين على هؤلاء المصلّين لمكان فاء التفريع و دلالة على أنّهم لا يخلون من نفاق لأنّهم يكذّبون بالدين عملا وهم يتظاهرون بالإيمان.

قوله تعالى : «الّذين هم يراؤن» أي يأتون بالعبادات لمرآة الناس فهم يعملون للناس لا لله تعالى.

قوله تعالى : «ويمنعون الماعون» الماعون كلّ ما يعين الغير في رفع حاجة من حوائج الحياة كالقرض تقرضه والمعروف تصنعه ومتاع البيت تعيره ، و إلى هذا يرجع متفرّقات ما فسّر به في كلماتهم.

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : «أرأيت الّذي يكذّب بالدين» قال : نزلت في أبي جهل وكفّار قريش ، وفي قوله : «الّذين عن صلاتهم ساهون» قال : عنى به تاركون لأنّ كلّ إنسان يسهو في الصلاة قال أبو عبدالله عليه‌السلام : تأخير الصلاة عن أوّل وقتها لغير عذر.

وفي الخصال عن عليّ عليه‌السلام في حديث الأربعمائة قال : ليس عمل أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من الصلاة فلا يشغلنّكم عن أوقاتها شيء من اُمور الدنيا فإنّ الله عزّ وجلّ

ذمّ أقواماً فقال : « الّذين هم عن صلاتهم ساهون » يعني أنّهم غافلون استهانوا بأوقاتها .

وفي الكافي بإسناده عن محمّد بن الفضيل قال : سألت عبداً صالحاً عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « الّذين هم عن صلاتهم ساهون » قال : هو التضييع .

أقول : وفي هذه المضامين روايات اُخر .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عليّ ابن أبي طالب « الّذين هم يراؤن » قال : يراؤن بصلاتهم .

وفيه أخرج أبو نعيم والديلميّ وابن عساكر عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : « و يمنعون الماعون » قال : ما تعاون الناس بينهم الفاس والقدر والدلو وأشباهه .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث قال : و قوله عزّ وجلّ : « ويمنعون الماعون » هو القرض تقرضه والمعروف تصنعه و متاع البيت تعيره ومنه الزكاة .

أقول : وتفسير الماعون بالزكاة مرويّ من طرق أهل السنّة أيضا عن عليّ عليه السلام كما في الدرّ المنثور ولفظه : الماعون الزكاة المفروضة يراؤن بصلاتهم و يمنعون زكاتهم .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن قانع عن عليّ بن أبي طالب سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : المسلم أخو المسلم إذا لقيه حيّاه بالسلام و يردّ عليه ما هو خير منه لايمنع الماعون . قلت : يا رسول الله ما الماعون ؟ قال صلى الله عليه وآله : الحجر والحديد والماء وأشباه ذلك .

أقول : وقد فسّر صلى الله عليه وآله في رواية اُخرى الحديد بقدور النحاس وحديد الفاس والحجر بقدور الحجارة .

﴿ سورة الكوثر مكّيّة وهي ثلاث آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) اِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْاَبْتَرُ (٣) .

﴿ بيان ﴾

امتنان على النبيّ ﷺ بإعطائه الكوثر وتطييب لنفسه الشريفة بأنّ شانئه هو الأبتر ، وهي أقصر سورة في القرآن وقد اختلفت الروايات في كون السورة مكّيّة أو مدنيّة ، والظاهر أنّها مكّيّة ، وذكر بعضهم أنّها نزلت مرّتين جمعاً بين الروايات .

قوله تعالى : «إنّا أعطيناك الكوثر» قال في المجمع الكوثر فوعل وهو الشيء الّذي من شأنه الكثرة ، والكوثر الخير الكثير ، انتهى .

وقد اختلفت أقوالهم في تفسير الكوثر اختلافاً عجيباً فقيل : هو الخير الكثير ، وقيل نهر في الجنّة ، وقيل : حوض النبيّ ﷺ في الجنّة أو في المحشر ، وقيل : أولاده وقيل : أصحابه وأشياعه ﷺ إلى يوم القيامة ، وقيل : علماء اُمّته ﷺ ، وقيل القرآن وفضائله كثيرة ، وقيل : النبوّة وقيل : تيسير القرآن وتخفيف الشرائع وقيل : الإسلام ، وقيل التوحيد ، وقيل : العلم والحكمة ، وقيل: فضائله ﷺ ، وقيل المقام المحمود ، وقيل : هو نور قلبه ﷺ إلى غير ذلك ممّا قيل ، وقد نقل عن بعضهم أنّه أنهى الأقوال إلى ستّة وعشرين .

وقد استند في القولين الأوّلين إلى بعض الروايات ، وباقي الأقوال لاتخلو من تحكّم ، وكيفما كان فقوله في آخر السورة : «إنّ شانئك هو الأبتر» ـ وظاهر الأبتر هو المنقطع نسله وظاهر الجملة أنّها من قبيل قصر القلب ـ أنّ كثرة ذرّيّته ﷺ هي

المرادة وحدها بالكوثر الّذي اُعطيه النبيّ صلى الله عليه وآله أو المراد بها الخير الكثير وكثرة الذرّيّة مرادة في ضمن الخير الكثير ولو لا ذلك لكان تحقيق الكلام بقوله : « إنّ شانئك هو الأبتر » خالياً عن الفائدة .

وقد استفاضت الروايات أنّ السورة إنّما نزلت فيمن عابه صلى الله عليه وآله بالبتر بعد ما مات ابناه القاسم وعبدالله ، وبذلك يندفع ما قيل : إنّ مراد الشانيء بقوله : « أبتر » المنقطع عن قومه أو المنقطع عن الخير فردّ الله عليه بأنّه هو المنقطع من كلّ خير .

ولما في قوله : « إنّا أعطيناك » من الامتنان عليه صلى الله عليه وآله جيء بلفظ المتكلّم مع الغير الدالّ على العظمة ، ولما فيه من تطييب نفسه الشريفة اُكّدت الجمله بإنّ وعبّر بلفظ الإعطاء الظاهر في التمليك .

والجملة لاتخلومن دلالة على أنّ ولد فاطمة عليها السلام ذرّيّته صلى الله عليه وآله ، وهذا في نفسه من ملاحم القرآن الكريم فقدكثّر الله تعالى نسله بعده كثرة لايعادلهم فيها أيّ نسل آخرمع ما نزل عليهم من النوائب و أفنى جموعهم من المقاتل الذريعة .

قوله تعالى : « فصلّ لربّك وانحر » ظاهر السياق في تفريع الأمر بالصلاة والنحر على الامتنان في قوله : «إنّا أعطيناك الكوثر» أنّه من شكر النعمة والمعنى إذا مننّا عليك بإعطاء الكوثر فاشكر لهذه النعمة بالصلاة والنحر .

والمراد بالنحر على ما رواه الفريقان عن النبيّ صلى الله عليه وآله وعن عليّ عليه السلام وروته الشيعة عن الصادق عليه السلام و غيره من الأئمّة هو رفع اليدين في تكبير الصلاة إلى النحر .

وقيل : معنى الآية صلّ لربّك صلاة العيد وانحر البدن ، وقيل : يعني صلّ لربّك واستوقائماً عند رفع رأسك من الركوع وقيل غير ذلك .

قوله تعالى : «إنّ شانئك هو الأبتر» الشانيء هوالمبغض والأبترمن لاعقب له وهذا الشانيء هو العاصي بن وائل .

وقيل : المراد بالأبترالمنقطع عن الخير أو المنقطع عن قومه ، وقد عرفت أنّ

روايات سبب نزول السورة لا تلائمه وستجيىء .

﴿بحث روائي﴾

في الدرّ المنثور أخرج البخاريّ وابن جرير والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس أنّه قال : الكوثر الخير الّذي أعطاه الله إيّاه قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير فإنّ ناساً يزعمون أنّه نهر في الجنّة قال : النهر الّذي في الجنّة من الخير الّذي أعطاه الله إيّاه .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقيّ في سننه عن عليّ بن أبي طالب قال : لمّا نزلت هذه السورة على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « إنّا أعطيناك الكوثر » قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل : ما هذه النحيرة الّتي أمرني بها ربّي ؟ قال : إنّها ليست بنحيرة ولكن يأمرك إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبّرت وإذا ركعت و إذا رفعت رأسك من الركوع فإنّها صلاتنا وصلاة الملائكة الّذين هم في السماوات السبع ، وإنّ لكلّ شيء زينة وزينة الصلاة رفع اليدين عند كلّ تكبيرة .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : رفع اليدين من الاستكانة الّتي قال الله : «فما استكانوا لربّهم وما يتضرّعون» .

أقول : ورواه في المجمع عن المقاتل عن الأصبغ بن نباتة عنه عليه السلام ثمّ قال : أورده الثعلبيّ والواحديّ في تفسيريهما ، وقال أيضا : إنّ جميع عترته الطاهرة رووا عنه عليه السلام أنّ معنى النحر رفع اليدين إلى النحر في الصلاة .

وفيه أخرج ابن جرير عن أبي جعفر في قوله : « فصلّ لربّك » قال : الصلاة «وانحر» قال : يرفع يديه أوّل ما يكبّر في الافتتاح .

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله : « فصلّ لربّك وانحر » قال : إنّ الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبّرت للصلاة فذاك النحر .

وفي المجمع في الآية عن عمر بن يزيد قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول في قوله «فصلّ لربّك وانحر» هو رفع يديك حذاء وجهك .

أقول : ثمّ قال : وروى عنه عبد الله بن سنان مثله ، وروى أيضا قريبا منه عن جميل عنه عليه السلام .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس قال : كان أكبر ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القاسم ثمّ زينب ثمّ عبد الله ثمّ أُمّ كلثوم ثمّ فاطمة ثمّ رقيّة فمات القاسم وهو أوّل ميّت من ولده بمكّة ثمّ مات عبدالله فقال العاصي بن وائل السهميّ قد انقطع نسله فهو أبتر فأنزل الله « إنّ شانئك هو الأبتر » .

وفيه أخرج الزبير بن بكار وابن عساكر عن جعفر بن محمّد عن أبيه قال : توفّي القاسم بن رسول الله بمكّة فمرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو آت من جنازته على العاصي بن ابن وائل وابنه عمرو فقال حين رآى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّي لأشنؤه فقال العاصي بن وائل : لاجرم لقد أصبح أبتر فأنزل الله «إنّ شانئك هو الأبتر» .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال : كانت قريش تقول - إذا مات ذكور الرجل - بتر فلان فلمّا مات ولد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال العاصي بن وائل : بتر والأبتر الفرد .

أقول : و في بعض الآثار أنّ الشانىء هو الوليد بن المغيرة ، و في بعضها أبو جهل وفي بعضها عقبة بن أبي معيط ، و في بعضها كعب بن الأشرف ، والمعتمد ما تقدّم .

ويؤيّده ما في احتجاج الطبرسيّ عن الحسن بن عليّ عليهما السلام في حديث يخاطب فيه العمرو بن العاصي : وإنّك ولدت على فراش مشترك فتحاكمت فيك رجال قريش منهم أبوسفيان بن حرب والوليد بن المغيرة وعثمان بن الحارث والنضر بن الحارث بن كلدة والعاصي بن وائل كلّهم يزعم أنّك ابنه فغلبهم عليك من بين قريش ألأمهم حسباً

وأخبثهم منصباً وأعظمهم بغية .

ثمّ قمت خطيباً وقلت : أنا شانيء محمّد وقال العاصي بن وائل : إنّ محمّداً رجل أبتر لاولدله فلوقدمات انقطع ذكره فأنزل الله تباركوتعالى : «إنّ شانئك هو الأبتر» الحديث .

وفي تفسير القمّيّ « إنّا أعطيناك الكوثر » قال : الكوثر نهرفي الجنّة أعطى الله محمّداً صلى الله عليه وآله عوضاً عن ابنه إبراهيم .

أقول : الخبر على إرساله وإضماره معارض لسائر الروايات و تفسير الكوثر بنهر في الجنّة لاينافي التفسير بالخير الكثير كما تقدّم في خبرابن جبير .

﴿ سورة الكافرون مكّيّة وهي ستّ آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قُلْ يا أَيُّها الْكافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ (٤) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) .

﴿ بيان ﴾

فيها أمره ﷺ أن يظهر للكفّار براءته من دينهم ويخبرهم بامتناعهم من دينه فلادينه يتعدّاه إليهم ولادينهم يتعدّاهم إليه فلايعبدما يعبدون أبداً ولايعبدون ما يعبد أبداً فلييأسوا من أيّ نوع من المداهنة والمساهلة .

و اختلفوا في كون السورة مكّيّة أو مدنيّة ، و الظاهر من سياقها أنّها مكّيّة .

قوله تعالى : «قل يا أيّها الكافرون» الظاهر أنّ هؤلاء قوم معهودون لاكلّ كافر ويدلّ على ذلك أمره صلّى الله عليه و آله أن يخاطبهم ببراءته من دينهم وامتناعهم من دينه .

قوله تعالى : «لا أعبدما تعبدون» الآية إلى آخر السورة مقول القول ، والمراد بماتعبدون الأصنام الّتي كانوا يعبدونها ، ومفعول «يعبدون» ضمير راجع إلى الموصول محذوف لدلالة الكلام عليه ولرعاية الفواصل ، وكذا مفاعيل الأفعال التالية : «أعبد» و«عبدتم» و«أعبد» .

وقوله : لا أعبد» نفي استقباليّ فإنّ «لا» لنفي الاستقبال كما أنّ «ما» لنفي الحال ، والمعنى لا أعبد أبداً ماتعبدونه اليوم من الأصنام .

قوله تعالى : «ولا أنتم عابدون ما أعبد» نفي استقبالي أيضاً لعبادتهم مايعبده ﷺ وهو إخبار عن امتناعهم عن الدخول في دين التوحيد في مستقبل الأمر .

وبانضمام الأمر الّذي في مفتتح الكلام تفيد الآيتان أنّ الله سبحانه أمرني بالدوام على عبادته وأن اُخبركم أنّكم لاتعبدونه أبداً فلا يقع بيني و بينكم اشتراك في الدين أبداً .

فالآية في معنى قوله تعالى : «لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون» يس : ٧ ، وقوله : «إنّ الّذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» البقرة : ٦ .

وكان من حقّ الكلام أن يقال : ولا أنتم عابدون من أعبد. لكن قيل: ما أعبد ليطابق ما في قوله : «لا أعبد ما تعبدون» .

قوله تعالى : «ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد» تكرار لمضمون الجملتين السابقتين لزيادة التأكيد ،كقوله : «كلاّ سوف تعلمون ثمّ كلاّ سوف تعلمون» التكاثر : ٤ وقوله : «فقتل كيف قدّر ثمّ قتل كيف قدّر» المدّثّر: ٢٠ .

وقيل : إنّ «ما» في «ماعبدتم» و «ما أعبد» مصدرية لاموصولة والمعنى ولا أنا عابد عبادتكم ولا أنتم عابدون عبادتي أي لا اُشارككم ولاتشاركونني لافي المعبود ولا في العبادة فمعبودي هو الله و معبودكم الوثن و عبادتي ماشرعه الله لي و عبادتكم ما ابتدعتموه جهلاً وافتراء ، وعلى هذا فالآيتان غير مسوقتين للتأكيد ، ولايخلومن بعد وسيأتي في البحث الروائيّ التالي وجه آخر للتكرار لطيف .

قوله تعالى : «لكم دينكم ولي دين» تأكيد بحسب المعنى لما تقدّم من نفي الاشتراك ، واللاّم للاختصاص أي دينكم وهوعبادة الأصنام يختصّ بكم ولا يتعدّاكم إليّ وديني يختصّ بي ولا يتعدّاني إليكم ولا محلّ لتوهّم دلالة الآية على إباحة أخذ كلّ بما يرتضيه من الدين ولاأنّه ﷺ لايتعرض لدينهم بعد ذلك فالدعوة الحقّة الّتي يتضمّنها القرآن تدفع ذلك أساسا .

وقيل: الدين في الآية بمعنى الجزاء والمعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي ، وقيل: إنّ هناك مضافاً محذوفاً والتقدير لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني ، والوجهان بعيدان عن الفهم .

(بحث روائي)

في الدّر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباريّ في المصاحف عن سعيد بن ميناء مولى أبي البختريّ قال : لقي الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطّلب وأُميّة بن خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : يا محمّد هلمّ فلنعبد ما تعبد و تعبد ما نعبد ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كلّه فإن كان الّذي نحن عليه أصحّ من الّذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً وإن كان الّذي أنت عليه أصحّ من الّذي نحن عليه كنّا قد أخذنا منه حظاً فأنزل الله «قل يا أيّها الكافرون لا أعبد ما تعبدون» حتّى انقضت السورة .

اقول : وروى الشيخ في الأمالي بإسناده عن ميناء عن غير واحد من أصحابه قريباً منه .

وفي تفسير القميّ عن أبيه عن ابن أبي عمير قال : سأل أبو شاكر أبا جعفر الأحول عن قول الله : «قل يا أيّها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد» فهل يتكلّم الحكيم بمثل هذا القول ، ويكرّر مرّة بعد مرّة ؟ فلم يكن عند أبي جعفر الأحول في ذلك جواب .

فدخل المدينة فسأل أبا عبدالله عليه السلام عن ذلك فقال: كان سبب نزولها وتكرارها أنّ قريشاً قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فأجابهم الله بمثل ما قالوا فقال فيما قالوا : تعبد آلهتنا سنة : قل يا أيّها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، وفيما قالوا : نعبد إلهك سنة : ولا أنتم عابدون

ما أعبد ، و فيما قالوا : تعبد آلهتناسنة : « ولاأنا عابد ماعبدتم » و فيما قالوا : نعبد إلهك سنة : « ولاأنتم عابدون ماأعبد لكم دينكم ولي دين».

قال : فرجع أبوجعفر الأحول إلى أبي شاكرفأخبره بذلك فقال أبو شاكر : هذا حملته الإبل من الحجاز .

اقول : مفاد التكرار في كلام قريش الاستمرار على عبادة آلهتهم سنة وعبادة الله تعالى سنة .



﴿ سورة النصر مدنيّة وهي ثلاث آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣).

﴿ بيان ﴾

وعدله صلّى الله عليه وآله بالنصر والفتح وأنّه سيرى الناس يدخلون في الإسلام فوجاً بعد فوج وأمره بالتسبيح حينئذ والتحميد والاستغفار، والسورة مدنيّة نزلت بعد صلح الحديبيّة وقبل فتح مكّة على ما سنستظهر.

قوله تعالى: «إذا جاء نصر الله والفتح» ظهور «إذا» المصدّرة بها الآية في الاستقبال يستدعي أن يكون مضمون الآية إخباراً بتحقّق أمر لم يتحقّق بعد، وإذ كان المخبر به هو النصر والفتح وذلك ممّا تقرّ به عين النبيّ صلّى الله عليه وآله فهو وعد جميل وبشرى له صلّى الله عليه وآله ويكون من ملاحم القرآن الكريم.

وليس المراد بالنصر والفتح جنسهما حتّى يصدقا على جميع المواقف الّتي أيّد الله فيها نبيّه صلّى الله عليه وآله على أعدائه وأظهر دينه على دينهم كما في حروبه و مغازيه وإيمان الأنصار وأهل اليمن كما قيل إذ لا يلائمه قوله بعد: «ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً».

وليس المراد بذلك أيضاً صلح الحديبيّة الّذي سمّاه الله تعالى فتحاً إذ قال «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» الفتح: ١ ـ لعدم انطباق الآية الثانية بمضمونها عليه.

وأوضح ما يقبل الانطباق عليه النصر والفتح المذكوران في الآية هو فتح مكّة

الّذي هو اُمّ فتوحاته ﷺ في زمن حياته والنصر الباهر الّذي انهدم به بنيان الشرك في جزيرة العرب .

ويؤيّده وعد النصر الّذي في الآيات النازلة في الحديبيّة «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً» الفتح : ٣ فإنّ من القريب جداً أن يكون ما في الآيات وعداً بنصر عزيز يرتبط بفتح الحديبيّة وهو نصره تعالى نبيّه ﷺ على قريش حتّى فتح مكّة بعد مضيّ سنتين من فتح الحديبيّة .

وهذا الّذي ذكر أقرب من حمل الآية على إجابة أهل اليمن الدعوة الحقّة ودخولهم في الإسلام من غير قتال ، فالأقرب إلى الاعتبار كون المراد بالنصر والفتح نصره تعالى نبيّه ﷺ على قريش وفتح مكّة ، وأن تكون السورة نازلة بعد صلح الحديبيّة ونزول سورة الفتح وقبل فتح مكّة .

قوله تعالى : «ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا» قال الراغب : الفوج الجماعة المارّة المسرعة ، وجمعه أفواج . انتهى . فمعنى دخول الناس في دين الله أفواجاً دخولهم فيه جماعة بعد جماعة ، والمراد بدين الله الإسلام قال تعالى : «إنّ الدين عند الله الإسلام» آل عمران : ١٩ .

قوله تعالى : «فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنّه كان توّاباً» لمّا كان هذا النصر والفتح إذلالاً منه تعالى للشرك وإعزازاً للتوحيد و بعبارة اُخرى إبطالاً للباطل وإحقاقاً للحقّ ناسب من الجهة الاُولى تنزيهه تعالى و تسبيحه ، وناسب من الجهة الثانية ـ الّتي هي نعمة ـ الثناء عليه تعالى وحمده فلذلك أمره ﷺ بقوله : «فسبّح بحمد ربّك» .

وههنا وجه آخر يوجّه به الأمر بالتسبيح والتحميد والاستغفار جميعاً وهو أنّ للربّ تعالى على عبده أن يذكره بصفات كماله و يذكر نفسه بماله من النقص والحاجة ولمّا كان في هذا الفتح فراغه ﷺ من جلّ ماكان عليه من السعي في إماطة الباطل و قطع دابر الفساد أمر أن يذكره عند ذلك بجلاله وهو التسبيح وجماله

وهو التحميد وأن يذكره بنقص نفسه وحاجته إلى ربّه وهو طلب المغفرة ومعناه فيه ﷺ - وهو مغفور - سؤال إدامة المغفرة فانّ الحاجة إلى المغفرة بقاء كالحاجة إليها حدوثاً فافهم ذلك ، وبذلك يتمّ شكره لربّه تعالى وقد تقدّم [1] كلام في معنى مغفرة الذنب في الأبحاث السابقة .

وقوله : «إنّه كان تواباً» تعليل للأمر بالاستغفار لايخلو من تشويق وتأكيد .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع عن مقاتل: لمّا نزلت هذه السورة قرأها ﷺ على أصحابه ففرحوا واستبشروا وسمعها العبّاس فبكى فقال ﷺ: مايبكيك ياعمّ؟ قال: أظنّ أنّه قد نعيت إليك نفسك يا رسول الله فقال : إنّه لكما تقول فعاش بعدها سنتين ما رؤي بعدها ضاحكا مستبشرا .

أقول : و روي هذا المعنى في عدّة روايات بألفاظ مختلفة وقيل في وجه دلالتها أنّ سياقها يلوّح إلى فراغه ﷺ ممّا عليه من السعي والمجاهدة وتمام أمره ، وعند الكمال يرقب الزوال .

وفيه عن اُمّ سلمة قالت : كان رسول الله ﷺ بالآخرة لايقوم ولايقعد ولا يجيء ولايذهب إلاّ قال : سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه فسألناه عن ذلك فقال ﷺ : إنّي اُمرت بها ثمّ قرء « إذا جاء نصر الله والفتح » .

أقول : وفي هذا المعنى غير واحد من الروايات مع اختلاف مّا فيما كان يقوله: صلّى الله عليه وآله .

وفي العيون بإسناده إلى الحسين بن خالد قال : قال الرضا عليه السلام سمعت أبي يحدّث عن أبيه عليه السلام إنّ أوّل سورة نزلت « بسم الله الرحمن الرحيم اقرء باسم ربّك» وآخر سورة نزلت « إذا جاء نصر الله » .

---

(١) في آخر الجزء السادس من الكتاب .

أقول : لعلّ المراد به أنّها آخر سورة نزلت تامّة كما قيل .

وفي المجمع في قصّة فتح مكّة : لمّا صالح رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً عام الحديبيّة كان في أشراطهم أنّه من أحبّ أن يدخل في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله دخل فيه فدخلت خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وآله و دخلت بنو بكر في عقد قريش ، وكان بين القبيلتين شرّ قديم .

ثمّ وقعت فيما بعد بين بني بكر وخزاعة مقاتلة ورفدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل باللّيل مستخفياً ، و كان ممّن أعان بني بكر على خزاعة بنفسه عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو .

فركب عمرو بن سالم الخزاعي حتّى قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة وكان ذلك ممّا هاج فتح مكّة فوقف عليه وهو في المسجد بين ظهراني القوم وقال :

لاهمّ إنّي ناشد[1] محمّدا حلف أبينا و أبيه الأتلدا[2]

إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا و نقضوا ميثاقك المؤكّدا

وقتلونا ركّعاً وسجّدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : حسبك ياعمرو ثمّ قام فدخل دار ميمونة وقال : اسكبي لي ماء فجعل يغتسل وهو يقول : لانصرت إن لم أنصر بني كعب وهم رهط عمرو بن سالم ثمّ خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتّى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبروه بما اُصيب منهم ومظاهرة قريش بني بكر عليهم ثمّ انصرفوا راجعين إلى مكّة وقد كان صلى الله عليه وآله قال للناس : كأنّكم بأبي سفيان قد جاء ليشدّ العقد و يزيد في المدّة وسيلقى بديل بن ورقاء فلقوا أباسفيان بعسفان وقد بعثته قريش إلى النبي صلى الله عليه وآله ليشدّد العقد .

فلمّا لقي أبوسفيان بديلاً قال : من أين أقبلت يابديل قال : سرت في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي قال : ما أتيت محمّداً ؟ قال : لا فلمّا راح بديل إلى مكّة قال أبو ـ

---

(١) الناشد الطالب والمذكر .

(٢) الاتلد القديم .

سفيان : لئن كان جاء من المدينة لقد علّف بها النوى فعمد إلى مبرك ناقته وأخذ من بعرها ففتّه فرآى فيه النوى فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمّدا .

ثمّ خرج أبوسفيان حتّى قدم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا محمّد احقن دم قومك وأجر بين قريش وزدنا في المدّة فقال: أغدرتم يا أباسفيان ؟ قال : لا فقال صلى الله عليه وآله : فنحن على ماكنّا عليه فخرج فلقي أبابكر فقال : أجر بين قريش قال : ويحك وأحد يجير على رسول الله عليه السلام ؟ ثمّ لقي عمر بن الخطّاب فقال له مثل ذلك ثمّ خرج فدخل على اُمّ حبيبة فذهب ليجلس على الفراش فأهوت إلى الفراش فطوته فقال : يا بنيّة أرغبت بهذا الفراش عنّي ؟ فقالت : نعم هذا فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كنت لتجلس عليه وأنت رجس مشرك .

ثمّ خرج فدخل على فاطمة عليها السلام فقال: يا بنت سيّد العرب تجيرين بين قريش وتزيدين في المدّة فتكونين أكرم سيّدة في الناس ؟ فقالت : جواري جوار رسول الله صلّى الله عليه وآله . قال : أتأمرين ابنيك أن يجيرا بين الناس ؟ قالت : والله ما بلغ ابناي أن يجيرا بين الناس وما يجير على رسول الله صلى الله عليه وآله أحد فقال : يا أبا الحسن إنّي أرى الاُمور قد اشتدّت عليّ فانصحني فقال علي عليه السلام : إنّك شيخ قريش فقم على باب المسجد وأجر بين قريش ثمّ الحق بأرضك قال: وترى ذلك مغنياً عنّي شيئاً ؟ قال: لا والله ما أظنّ ذلك ولكن لا أجد لك غير ذلك فقام أبوسفيان في المسجد فقال : يا أيّها الناس إنّي قد أجرت بين قريش ثمّ ركب بعيره فانطلق .

فلمّا قدم على قريش قالوا : ما وراءك ؟ فأخبرهم بالقصّة فقالوا : والله إن زاد عليّ بن أبي طالب على أن لعب بك فما يغني عنّا ما قلت ؟ قال: لا والله ما وجدت غير ذلك .

قال: فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالجهاز لحرب مكّة وأمر الناس بالتهيئة وقال: اللّهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نبغتها في بلادها ، وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر من السماء فبعث علياً عليه السلام والزبير حتّى أخذا كتابه

من المرأة وقد مضت هذه القصّة في سورة الممتحنة .

ثمّ استخلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أباذرّ الغفاريّ وخرج عامداً إلى مكّة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان في عشرة آلاف من المسلمين ونحو من أربعمائة فارس ولم يتخلّف من المهاجرين والأنصار عنه أحد .

وقد كان أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطّلب وعبدالله بن اُميّة بن المغيرة قد لقيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنيق العقاب فيما بين مكّة والمدينة فالتمسا الدخول عليه فلم يأذن لهما فكلّمته اُمّ سلمة فيهما فقالت : يا رسول الله ابن عمّك وابن عمّتك وصهرك قال لاحاجة لي فيهما أما ابن عمّي فهتك عرضي ، وأمّا ابن عمّتي وصهري فهو الّذي قال : لي بمكّة ماقال فلمّا خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بنيّ له قال: والله ليأذننّ لي أو لآخذنّ بيد بنيّ هذا ثمّ لنذهبنّ في الأرض حتّى نموت عطشاً وجوعاً فلمّا بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رقّ لهما فأذن لهما فدخلا عليه فأسلما .

فلمّا نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ الظهران وقد غمّت الأخبار عن قريش فلايأتيهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبر خرج في تلك الليلة أبوسفيان بن حرب و حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسّسون الأخبار وقد قال العبّاس ليلتئذ : ياسوء صباح قريش والله لئن بغتها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بلادها فدخل مكّة عنوة إنّه لهلاك قريش إلى آخر الدهر فخرج على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: أخرج إلى الأراك لعلّي أرى حطّاباً أوصاحب لبن أوداخلاً يدخل مكّة فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيأتونه فيستأمنونه .

قال العبّاس فوالله إنّي لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له إذسمعت صوت أبي سفيان و حكيم بن حزام و بديل بن ورقاء و سمعت أباسفيان يقول : والله ما رأيت كالليلة قطّ نيرانا فقال بديل: هذه نيران خزاعة فقال أبوسفيان : خزاعة ألأم من ذلك قال : فعرفت صوته فقلت : يا أبا حنظلة يعني أباسفيان فقال : ابوالفضل ؟ فقلت : نعم قال: لبيّك فداك أبي واُمّي ما وراءك ؟ فقلت : هذا رسول الله وراءك قدجاء بما لاقبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين .

قال : فما تأمرني؟ قلت : تركب عجزهذه البغلة فأستامن لك رسول الله صلى الله عليه وآله

فوالله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك فردفني فخرجت أركض به بغلة رسول الله ﷺ فكلّما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : هذا عمّ رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله حتّى مررت بنار عمر بن الخطّاب فقال يعني عمر : يا أباسفيان الحمدلله الّذي أمكن منك بغير عهد ولاعقد ثمّ اشتدّ نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة حتّى اقتحمت باب القبّة وسبقت عمر بما يسبق به الدابّة البطيئة الرجل البطيء .

فدخل عمر فقال : يا رسول الله هذا أبوسفيان عدوّ الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولاعقد فدعني أضرب عنقه فقلت : يا رسول الله إنّي قد أجرته ثمّ إنّي جلست إلى رسول الله ﷺ وأخذت برأسه وقلت : والله لايناجيه اليوم أحد دوني فلما أكثر فيه عمر قلت : مهلاً يا عمر فوالله ما يصنع هذا الرجل إلاّ أنّه رجل من آل بني عبد مناف ولو كان من عديّ بن كعب ما قلت هذا قال : مهلاً ياعبّاس لا إسلامك يوم أسلمت كان أحبّ إليّ من إسلام الخطّاب لو أسلم فقال ﷺ : اذهب فقد آمنّاه حتّى تغدو به عليّ في الغداة .

قال : فلمّا أصبح غدوت به على رسول الله ﷺ فلمّا رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لاإله إلّا الله ؟ فقال : بأبي أنت واُمّي ما أوصلك و أكرمك وأرحمك وأحلمك والله لقد ظننت أن لو كان معه إله لأغنى يوم بدر ويوم اُحد فقال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله ؟ فقال : بأبي أنت واُمّي أمّا هذه فإنّ في النفس منها شيأ قال العبّاس : فقلت له : ويحك اشهد بشهادة الحقّ قبل أن يضرب عنقك فتشهّد .

فقال ﷺ للعبّاس : انصرف يا عبّاس فاحبسه عند مضيق الوادي حتّى يمرّ عليه جنود الله قال : فحبسته عند خطم[1] الجبل بمضيق الوادي ومرّ عليه القبائل قبيلة قبيلة وهو يقول : من هؤلاء ؟ وأقول : أسلم وجهينة وفلان حتّى مرّ رسول الله ﷺ في الكتيبة الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد لايرى منهم إلاّ الحدق فقال: من هؤلاء يا أبا الفضل ؟ قلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار فقال : يا أبا الفضل

(١) خطم الجبل انفه .

لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً ، فقلت : ويحك إنّها النبوّة فقال : نعم إذاً .

وجاء حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأسلما و بايعاه فلمّا بايعاه بعثهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين يديه إلى قريش يدعوانهم إلى الإسلام وقال : من دخل دار أبي سفيان وهي بأعلى مكّة فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم وهي بأسفل مكّة فهو آمن ، ومن أغلق بابه وكفّ يده فهو آمن .

ولمّا خرج أبوسفيان وحكيم من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عامدين إلى مكّة بعث في اثرهما الزبير بن العوّام وأمّره على خيل المهاجرين وأمره أن يغرز رايته بأعلى مكّة بالحجون وقال له : لا تبرح حتّى آتيك ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكّة وضربت هناك خيمته ، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدّمته ، وبعث الخالد بن الوليد فيمن كان أسلم من قضاعة وبني سليم وأمره أن يدخل أسفل مكّة ويغرز رايته دون البيوت.

وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جميعا أن يكفّوا أيديهم ولا يقاتلوا إلاّ من قاتلهم ، وأمرهم بقتل أربعة نفر عبدالله بن سعد بن أبي سرح والحويرث بن نفيل و ابن خطل ومقبس بن ضبابة وأمرهم بقتل قينتين كانتا تغنّيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و قال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة فقتل عليّ عليه السلام الحويرث بن نفيل وإحدى القينتين وأفلتت الاُخرى ، وقتل مقبس بن ضبابة في السوق ، و ادرك ابن خطل وهو متعلّق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث وعمّار بن ياسر فسبق سعيد عمّاراً فقتله .

قال : وسعى أبوسفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ غرزه أي ركابه فقبّله ثمّ قال : بأبي أنت واُمّي أما تسمع ما يقول سعد إنّه يقول :

اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة

فقال صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام : أدركه وخذ الراية منه وكن أنت الذي يدخل بها وأدخلها إدخالا رفيقا فأخذها عليّ عليه السلام وأدخلها كما أمر .

ولمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكّة دخل صناديد قريش الكعبة وهم يظنّون أنّ السيف لا يرفع عنهم وأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووقف قائماً على باب الكعبة فقال : لا إله

إلاّ الله وحده وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا إنّ كلّ مال أو مأثرة ودم يدّعى فهو تحت قدمي هاتين إلاّ سدانة الكعبة وسقاية الحاجّ فإنهما مردودتان إلى أهليهما ، ألا إنّ مكّة محرّمة بتحريم الله لم تحلّ لأحد كان قبلي ولم تحلّ لي إلاّ ساعة من نهار وهي محرّمة إلى أن تقوم الساعة لايختلى خلاها ، ولايقطع شجرها ولاينفر صيدها ، ولاتحلّ لقطتها إلاّ لمنشد .

ثم قال : ألالبئس جيران النبيّ كنتم لقدكذّبتم وطردتم وأخرجتم وآذيتم ثم مارضيتم حتّى جئتموني في بلادي تقاتلونني فاذهبوا فأنتم الطلقاء فخرج القوم فكأنّما اُنشروا من القبور ودخلوا في الإسلام ، وكان الله سبحان أمكنه من رقابهم عنوة فكانوا له فيأ فلذلك سمّي أهل مكّة الطلقاء .

وجاء ابن الزبعرى إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وأسلم وقال :

يا رسول الإله إنّ لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور[1]

إذ اُباري[2] الشيطان في سنن[3] الغيّ ومن مال ميله مثبور

آمن اللّحم والعظام لربّي ثمّ نفسى الشهيد أنت النذير

قال : وعن ابن مسعود قال : دخل النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يوم الفتح وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : «جاء الحقّ وما يبدىء الباطل وما يعيد» «جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا» .

وعن ابن عبّاس قال : لمّا قدم النبي صلّى الله عليه وآله إلى مكّة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فامر بها فاُخرجت وصورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وفي أيديهما الأزلام فقال صلّى الله عليه وآله قاتلهم الله أما والله لقد علموا أنّهما لم يستقسما بها قطّ .

أقول : والروايات حول قصّة الفتح كثيرة من أراد استقصاءها فعليه بكتب السير وجوامع الأخبار وماتقدّم كالملخّص منها .

(١) البور الهالك .

(٢) المباراة المباهاة .

(٣) السنن وسط الطريق .

﴿سورة تبّت مكّيّة وهي خمس آيات﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥).

﴿بيان﴾

وعيد شديد لأبي لهب بهلاك نفسه وعمله وبنار جهنّم ولامرأته ، والسورة مكّيّة .

قوله تعالى : «تبّت يدا أبى لهب وتبّ» التبّ والتباب هو الخسران والهلاك على ماذكره الجوهريّ ، ودوام الخسران على ماذكره الراغب ، وقيل : الخيبة ، وقيل الخلوّ من كلّ خير والمعاني ـ كما قيل ـ متقاربة فيدالإنسان هي عضوه الّذي يتوصّل به إلى تحصيل مقاصده وينسب إليه جلّ أعماله وتباب يديه خسرانهما فيماتكتسبانه من عمل وإن شئت فقل : بطلان أعماله الّتي يعملها بهما من حيث عدم انتهائها إلى غرض مطلوب وعدم انتفاعه بشيء منها وتباب نفسه خسرانها في نفسها بحرمانها من سعادة دائمة وهو هلاكها المؤبّد .

فقوله : «تبّت يدا أبي لهب وتبّ» أي أبولهب ، دعاء عليه بهلاك نفسه وبطلان ماكان يأتيه من الأعمال لإطفاء نور النبوّة أوقضاء منه تعالى بذلك .

و أبولهب هذا هو أبولهب بن عبد المطلب عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان شديد المعاداة للنبيّ صلى الله عليه وآله مصرّاً في تكذيبه مبالغاً في إيذائه بما يستطيعه من قول وفعل وهو الّذي قال للنبيّ صلى الله عليه وآله : تبّاً لك لمّا دعاهم إلى الإسلام لأوّل مرة فنزلت السورة وردّ الله التباب عليه .

وذكر بعضهم أنّ أبالهب اسمه وإن كان في صورة الكنية ، وقيل : اسمه عبدالعزّى وقيل : عبدمناف وأحسن ماقيل في ذكره في الآية بكنيته لا باسمه أنّ في ذلك تهكّماً به لأنّ أبالهب يشعر بالنسبة إلى لهب النار كما يقال أبوالخير وأبو الفضل وأبو الشرّ في النسبة إلى الخير والفضل والشرّ فلمّا قيل : «سيصلى ناراً ذات لهب » فهم منه أنّ قوله : «تبّت يدا أبي لهب» في معنى قولنا : تبّت يدا جهنّمي يلازم لهبها .

وقيل : لم يذكر باسمه وهو عبدالعزّى لأنّ عزّى اسم صنم فكره أن يعدّ بحسب اللفظ عبداً لغير الله وهو عبدالله وإن كان الاسم إنّما يقصد به المسمّى .

قوله تعالى : «ما أغنى عنه ماله وما كسب» ما الاُولى نافية وما الثانية موصولة ومعنى «ما كسب» الّذي كسبه بأعماله وهو أثر أعماله أو مصدريّة والمعنى كسبه بيديه وهو عمله ، والمعنى ما أغنى عنه عمله .

ومعنى الآية على أيّ حال لم يدفع عنه ماله ولا عمله ـ أو أثر عمله ـ تباب نفسه ويديه الّذي كتب عليه أودعي عليه .

قوله تعالى : «سيصلى ناراً ذات لهب» أي سيدخل ناراً ذات لهب وهي نار جهنّم الخالدة ، وفي تنكير لهب تفخيم له وتهويل .

قوله تعالى : « وامرأته حمّالة الحطب » عطف على ضمير الفاعل المستكنّ في «سيصلى» والتقدير: وستصلى امرأته الخ و « حمّالة الحطب» بالنصب وصف مقطوع عن الوصفيّة للذمّ أي أذمّ حمّالة الحطب ، وقيل : حال من «امرأته» وهو معنى لطيف على ما سيأتي .

قوله تعالى : «في جيدها حبل من مسد » المسد حبل مفتول من الليف ، والجملة حال ثانية من امرأته .

والظاهر أنّ المراد بالآيتين أنّها ستتمثّل في النار الّتي تصلاها يوم القيامة في هيئتها الّتي كانت تتلبّس بها في الدنيا وهي أنّها كانت تحمل أغصان الشوك وغيرها تطرحها باللّيل في طريق رسول الله صلّى الله عليه وآله تؤذيه بذلك فتعذّب بالنار وهي تحمل الحطب وفي

جيدها حبل من مسد .

قال في مجمع البيان : وإذا قيل : هل كان يلزم أبالهب الإيمان بعدهذه السورة وهل كان يقدرعلى الإيمان ولو آمن لكان فيه تكذيب خبرالله سبحانه بأنّه سيصلى ناراً ذات لهب .

فالجواب أنّ الإيمان يلزمه لأنّ تكليف الإيمان ثابت عليه وإنّما توعّده الله بشرط أن لايؤمن انتهى موضع الحاجة .

أقول : مبنى الإشكال على الغفلة من أنّ تعلّق القضاء الحتميّ منه تعالى بفعل الإنسان الاختياريّ لايستوجب بطلان الاختيار واضطرار الإنسان على الفعل فإنّ الإرادة الإلهيّة ـ وكذا فعله تعالى ـ إنّما يتعلّق بفعله الاختياريّ على ما هو عليه أي أن يفعل الإنسان باختياره كذا وكذا فلولم يقع الفعل اختياريّاً تخلّف مراده تعالى عن إرادته وهومحال وإذا كان الفعل المتعلّق للقضاء الموجب اختياريّاً كان تركه أيضا اختياريّا و إن كان لا يقع فافهم وقد تقدّم هذا البحث في غير موضع من المباحث السابقة .

فقد ظهر بذلك أنّ أبالهب كان في اختياره أن يؤمن وينجو بذلك عن النارالّتي كان من المقضيّ المحتوم أن يدخلها بكفره .

ومن هذا الباب الآيات النازلة في كفّار قريش أنّهم لا يؤمنون كقوله : « إنّ الّذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» البقرة : ٦ ، وقوله : «لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لايؤمنون» يس : ٧ ، ومن هذا الباب أيضاً آيات الطبع على القلوب .

﴿ بحث روائی ﴾

في المجمع في قوله تعالى : «وأنذر عشيرتك الأقربين» عن ابن عبّاس قال : لمّا نزلت هذه الآية صعد رسول الله صلى الله عليه وآله الصفا فقال : يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقالوا : مالك ؟ فقال : أرأيتكم إن أخبرتكم أنّ العدوّ مصبحكم وممسيكم ما كنتم

تصدّقونني ؟ قالوا : بلى . قال : فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد قال أبولهب : تبّاً لك ألهذا دعوتنا جميعا ؟ فأنزل الله عزّ وجل «تبّت يدا أبي لهب» .

اقول : ورواه أيضاً في تفسير السورة عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس ولم يذكر فيه كون الدعوة عند نزول آية «وأنذر عشيرتك» الآية .

وفيه أيضاً عن طارق المحاربيّ قال: بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا بشابّ يقول أيّها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا ، وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول : يا أيّها الناس إنّه كذّاب فلا تصدّقوه فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هو محمّد يزعم أنّه نبيّ وهذا عمّه أبولهب يزعم أنّه كذّاب .

و في قرب الأسناد بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام في حديث طويل يذكر فيه آيات النبيّ صلى الله عليه وآله قال: من ذلك أنّ اُمّ جميل امرأة أبي لهب أتته حين نزلت سورة تبّت ومع النبيّ صلى الله عليه وآله أبوبكر بن أبي قحافة فقال : يا رسول الله هذه اُمّ جميل محفظة أي مغضبة تريدك ومعها حجر تريد أن ترميك به فقال صلى الله عليه وآله : إنّها لاتراني فقالت لأبي بكر : أين صاحبك ؟ قال : حيث شاء الله قالت : جئته ولو أراه لرميته فإنّه هجاني واللاّت والعزّى إنّي لشاعرة فقال أبوبكر : يا رسول الله لم ترك ؟ قال صلى الله عليه وآله : لا . ضرب الله بيني وبينها حجابا .

اقول : وروي مايقرب منه بغير واحد من طرق أهل السنّة .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : «وامرأته حمّالة الحطب» قال : كانت اُمّ جميل بنت صخر وكانت تنمّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وتنقل أحاديثه إلى الكفّار .

﴿ سورة الإخلاص مكّيّة وهي أربع آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤).

﴿ بيان ﴾

السورة تصفه تعالى بأحديّة الذات ورجوع ماسواه إليه في جميع حوائجه الوجوديّة من دون أن يشاركه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهو التوحيد القرآني الّذي يختصّ به القرآن الكريم ويبني عليه جميع المعارف الإسلاميّة.

وقد تكاثرت الأخبار في فضل السورة حتّى ورد من طرق الفريقين أنّها تعدل ثلث القرآن كما سيجيء إن شاء الله.

والسورة تحتمل المكّيّة والمدنيّة، والظاهر من بعض ما ورد في سبب نزولها أنّها مكّيّة.

قوله تعالى: «قل هو الله أحد» هو ضمير الشأن والقصّة يفيد الاهتمام بمضمون الجملة التالية له، والحقّ أنّ لفظ الجلالة علم بالغلبة له تعالى بالعربيّة كما أنّ له في غيرها من اللغات اسماً خاصّاً به، وقد تقدّم بعض الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة.

وأحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد غير أنّ الأحد إنما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهناً ولذلك لا يقبل العدّ ولا يدخل في العدد بخلاف الواحد فإنّ كلّ واحد فإنّ له ثانيا وثالثاً إمّا خارجاً وإمّا ذهناً بتوهّم أو بفرض العقل فيصير بانضمامه كثيرا، وأمّا الأحد فكلّ ما فرض له ثانياً كان هو هو ولم يزد عليه شيء.

واعتبر ذلك في قولك: ما جاءني من القوم أحد فإنّك تنفي به مجيء اثنين منهم وأكثر كما تنفي مجيء واحد منهم بخلاف مالو قلت: ماجاءني واحد منهم فإنّك إنّما تنفي به مجيء واحد منهم بالعدد ولا ينافيه مجيء اثنين منهم أو أكثر، ولإفادته هذا

المعنى لا يستعمل في الايجاب مطلقا إلاّ فيه تعالى ومن لطيف البيان في هذا الباب قول عليّ عليه أفضل السلام في بعض خطبه في توحيده تعالى : كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل ، وقدأورد ناطرفاً من كلامه عليه السلام في التوحيدفي ذيل البحث عن توحيد القرآن في الجزء السادس من الكتاب .

قوله تعالى : «الله الصمد» الأصل في معنى الصمد القصد أوالقصدمع الاعتماد يقال : صمده يصمده صمداً من باب نصر أي قصده أوقصده معتمداً عليه ، وقد فسّروا الصمد ـ وهو صفة ـ بمعاني متعدّدة مرجع أكثرها إلى أنّه السيّد المصمود إليه أي المقصود في الحوائج ، وإذ اُطلق في الآية ولم يقيّدبقيد فهوالمقصود في الحوائج على الاطلاق .

وإذ كان الله تعالى هوالموجد لكلّ ذي وجود ممّا سواه يحتاج إليه فيقصده كلّ ماصدق عليه أنّه شيء غيره ، في ذاته وصفاته وآثاره قال تعالى : «ألا له الخلق والأمر» الأعراف : ٥٤ وقال وأطلق : « وأنّ إلى ربّك المنتهى » النجم : ٤٢ فهو الصمد في كلّ حاجة في الوجود لايقصد شيء شيئاً إلاّ وهو الّذي ينتهي إليه قصده و ينجح به طلبته و يقضي به حاجته .

ومن هنا يظهر وجه دخول اللاّم في الصمد وأنّه لافادة الحصر فهو تعالى وحده الصمد على الاطلاق ، وهذا بخلاف أحد في قوله « الله أحد» فإنّ أحداً بما يفيده من معنى الوحدة الخاصّة لايطلق في الاثبات على غيره تعالى فلاحاجة فيه إلى عهد أوحصر .

وأمّا إظهار اسم الجلالة ثانياً حيث قيل : «الله الصمد» ولم يقل : هو الصمد ، ولم يقل : الله أحد صمد فالظاهر أنّ ذلك للاشارة إلى كون كلّ من الجملتين وحدها كافية في تعريفه تعالى حيث إنّ المقام مقام تعريفه تعالى بصفة تختصّ به فقيل : الله أحد الله الصمد إشارة إلى أنّ المعرفة به حاصلة سواء قيل كذا أوقيل كذا .

والآيتان مع ذلك تصفانه تعالى بصفة الذات وصفة الفعل جميعا فقوله : «الله أحد» يصفه بالأحديّة الّتي هي عين الذات ، وقوله : «الله الصمد» يصفه بانتهاء كلّ شيء إليه

وهو من صفات الفعل .

وقيل : الصمد بمعنى المصمت الّذي ليس بأجوف فلايأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يلد ولايولد وعلى هذا يكون قوله : «لم يلد ولم يولد» تفسيرا للصمد .

قوله تعالى : «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» الآيتان الكريمتان تنفيان عنه تعالى أن يلد شيابتجزّيه في نفسه فينفصل عنه شيء سنخه بأيّ معنى اُريد من الانفصال والاشتقاق كما يقول به النصارى في المسيح عليه السلام انه ابن الله وكما يقول الوثنيّة في بعض آلهتهم أنّهم أبناء الله سبحانه .

وتنفيان عنه أن يكون متولّداً من شيءٍ آخر ومشتقّاً منه بايّ معنى اُريد من الاشتقاق كما يقول الوثنيّة ففي آلهتهم من هو إله أبو إله ومن هو إلهة اُمّ إله ومن هو إله ابن إله .

وتنفيان أن يكون له كفؤ يعدله في ذاته أو في فعله [1] وهو الإيجاد والتدبير ولم يقل أحد من الملّيّين وغيرهم بالكفؤ الذاتيّ بأن يقول بتعدّد واجب الوجود عزّ اسمه ، وأمّا الكفؤ في فعله وهو التدبير فقد قيل به كآلهة الوثنيّة من البشر كفرعون ونمرود من المدّعين للاُلوهيّة ، وملاك الكفاءة عندهم استقلال من يرون اُلوهيّته في تدبير ما فوّض إليه تدبيره كما أنّه تعالى مستقلّ في تدبير من يدبّره وهم الأرباب والآلهة وهو ربّ الأرباب وإله الآلهة .

وفي معنى كفاءة هذا النوع من الإله ما يفرض من استقلال الفعل في شيء من الممكنات فإنه كفاءة مرجعها استغناؤه عنه تعالى وهو محتاج من كلّ جهة والآية تنفيها .

وهذه الصفات الثلاث المنفيّة وإن أمكن تفريع نفيها على صفة أحديّته تعالى بوجه لكنّ الأسبق إلى الذهن تفرّعها على صفة صمديّته .

أمّا كونه لم يلد فإنّ الولادة الّتي هي نوع من التجزّي والتبعّض بأيّ معنى

---

(١) لم نذكر الصفة لانها اما صفة الذات فهى عين الذات واما صفة الفعل منتزعة عن الفعل منه .

فسّرت لا تخلو من تركيب فيمن يلد ، وحاجة المركّب إلى أجزائه ضروريّة والله سبحانه صمدينتهي إليه كلّ محتاج في حاجته ولا حاجة له ، وأمّا كونه لم يولد فانّ تولّد شيء من شيء لا يتمّ إلاّ مع حاجة من المتولّد الى ما ولد منه في وجوده وهو سبحانه صمد لا حاجة له ، وأمّا أنّه لا كفؤ له فلأنّ الكفؤ سواء فرض كفواً له في ذاته أو في فعله لا تتحقّق كفاءته إلّا مع استقلاله واستغنائه عنه تعالى فيما فيه الكفاءة والله سبحانه صمد على الاطلاق يحتاج إليه كلّ من سواه من كلّ جهة مفروضة .

فقد تبيّن أنّ ما في الآيتين من النفي متفرّع على صمديّته تعالى ومآل ماذكر من صمديّته تعالى وما يتفرّع عليه إلى إثبات توحّده تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله بمعنى أنّه واحد لا يناظره شيء ولا يشبهه فذاته تعالى بذاته ولذاته من غير استناد إلىغيره واحتياج إلىمنسواه وكذا صفاته وأفعاله ، وذوات منسواه وصفاتهموأفعالهم بإفاضة منه على ما يليق بساحة كبريائه وعظمته فمحصّل السورة وصفه تعالى بأنّه أحد واحد .

وممّا قيل في الآية أنّ المراد بالكفؤ الزوجة فإنّ زوجة الرجل كفؤه فيكون في معنى قوله : «تعالى جدّ ربّنا ما اتّخذ صاحبة» وهو كماترى .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : إنّ اليهود سألوا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فقالوا : انسب لنا ربّك فلبث ثلاثاً لايجيبهم ثمّ نزلت «قل هوالله أحد» إلى آخرها .

اقول : و في الاحتجاج عن العسكريّ عليه‌السلام أنّ السائل عبد الله بن صوريا اليهوديّ ، وفي بعض روايات أهل السنّة أنّ السائل عبدالله بن سلام سأله صلى‌الله‌عليه‌وآله ذلك بمكّة ثمّ آمن وكتم إيمانه ، وفي بعضها أنّ اُناساً من اليهود سألوه ذلك ، و في غير

واحد من رواياتهم أنّ مشركي مكّة سألوه ذلك ، وكيف كان فالمراد بالنسبة النعت والوصف .

وفي المعاني باسناده عن الأصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام في حديث : نسبة الله عزّوجلّ قل هوالله .

و في العلل باسناده عن الصادق عليه السلام في حديث المعراج أنّ الله قال له أي للنبي صلى الله عليه وآله : اقرء قل هوالله أحدكما أنزلت فانّها نسبتي ونعتي .

اقول : وروى أيضاً باسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام ما في معناه .

وفي الدّرالمنثور أخرج أبوعبيد في فضائله عن ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال قل هو الله أحد ثلث القرآن .

اقول : وقدتكاثرت الروايات من طرقهم في هذا المعنى رووه عن عدّة من الصحابة كابن عبّاس وقد مرّ وأبي الدرداء وابن عمر وجابر وابن مسعود وأبي سعيد الخدريّ ومعاذبن أنس وأبي أيّوب وأبي أمامة وغيرهم عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، وورد أيضاً في عدّة من الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، وقد وجّهوا كون السورة تعدل ثلث القرآن بوجوه مختلفة أعدلها أنّ مافي القرآن من المعارف تنحلّ إلى الاُصول الثلاثة : التوحيد والنبوّة والمعاد والسورة تتضمّن واحدامن الثلاثة وهو التوحيد .

وفي التوحيد عن أميرالمؤمنين عليه السلام رأيت الخضر عليه السلام في المنام قبل بدربليلة فقلت له : علّمني شيئاً أنصر به على الأعداء فقال : قل : ياهويا من لاهو إلاّ هو فلمّا أصبحت قصصتها على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لي : يا عليّ علّمت الاسم الأعظم فكان على لساني يوم بدر .

وإنّ أميرالمؤمنين عليه السلام قرء قل هوالله أحد فلمّا فرغ قال : يا هو يامن لاهو إلاّ هو اغفرلي وانصرني على القوم الكافرين .

وفي نهج البلاغة الأحد لابتأويل عدد .

اقول : ورواه في التوحيد عن الرضا عليه السلام ولفظه : أحد لابتأويل عدد .

و في اُصول الكافي باسناده عن داود بن القاسم الجعفريّ قال : قلت لأبي

جعفر الثاني عليه السلام : ما الصمد ؟ قال عليه السلام : السيّد المصمود إليه في القليل والكثير .

اقول : وفي تفسير الصمد معان اُخر مروية عنهم عليهم السلام فعن الباقر عليه السلام : الصمد السيّد المطاع الّذي ليس فوقه آمر وناه ، وعن الحسين عليه السلام : الصمد الّذي لاجوف له والصمد الّذي لا ينام ، والصمد الّذي لم يزل ولا يزال ، وعن السجّاد عليه السلام : الصمد الّذي إذا أراد شيأ قال له : كن فيكون ، والصمد الّذي أبدع الأشياء فخلقها أضداداً وأشكالاً وأزواجاً وتفرّد بالوحدة بلاضدّ ولا شكل ولا مثل ولا ندّ .

والأصل في معنى الصمد هو الّذي رويناه عن أبي جعفر الثاني عليه السلام لما في مادّته لغة من معنى القصد فالمعاني المختلفة المنقولة عنهم عليهم السلام من التفسير بلازم المعنى فإنّ المعاني المذكورة لوازم كونه تعالى مقصوداً يرجع إليه كلّ شيء في كلّ حاجة فإليه ينتهي الكلّ من دون أن تتحقّق فيه حاجة .

وفي التوحيد عن وهب بن وهب القرشيّ عن الصادق عن آبائه عليهم السلام أنّ أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن عليّ عليهما السلام يسألونه عن الصمد فكتب إليهم : بسم الله الرحمن الرحيم أمّا بعد فلاتخوضوا في القرآن ولا تجادلوا فيه ولا تتكلّموا فيه بغير علم فقد سمعت جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : من قال في القرآن بغير علم فليتبوّء مقعده من النار ، وإنّ الله سبحانه فسّر الصمد فقال : الله أحد الله الصمد ثمّ فسّره فقال : لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وفيه بإسناده إلى ابن أبي عمير عن موسى بن جعفر عليه السلام أنّه قال : واعلم أنّ الله تعالى واحد أحد صمد لم يلد فيورث ولم يولد فيشارك .

وفيه في خطبة اُخرى لعليّ عليه السلام الّذي لم يولد فيكون في العزّ مشاركاً ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً .

وفيه في خطبة له عليه السلام : تعالى أن يكون له كفؤ فيشبه به .

اقول : وفي المعاني المتقدّمة روايات اُخرى .

﴿ سورة الفلق مكيّة وهي خمس آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ اِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ اِذَا حَسَدَ (٥) .

﴿ بيان ﴾

أمر للنبيّ ﷺ أن يعوذ بالله من كلّ شرّ ومن بعضه خاصّة والسورة مدنيّة على ما يظهر ممّا ورد في سبب نزولها .

قوله تعالى : « قل أعوذ بربّ الفلق » العوذ هو الاعتصام والتحرّز من الشرّ بالالتجاء إلى من يدفعه ، والفلق بالفتح فالسكون الشقّ والفرق ، والفلق بفتحتين صفة مشبهة بمعنى المفعول كالقصص بمعنى المقصوص ، والغالب إطلاقه على الصبح لأنّه المشقوق من الظلام ، وعليه فالمعنى أعوذ بربّ الصبح الّذي يفلقه ويشقّه ومناسبة هذا التعبير للعوذ من الشرّ الّذي يستر الخير ويحجب دونه ظاهر .

وقيل : المراد بالفلق كلّ ما يفطر ويفلق عنه بالخلق والإيجاد فإنّ في الخلق والإيجاد شقّاً للعدم وإخراجاً للموجود إلى الوجود فيكون مساوياً للمخلوق ، وقيل هو جبّ في جهنّم ويؤيّده بعض الروايات .

قوله تعالى : «من شرّ ما خلق» أي من شرّ من يحمل شرّاً من الإنس والجنّ والحيوانات وسائر ماله شرّ من الخلق فإنّ اشتمال مطلق ما خلق على الشرّ لا يستلزم الاستغراق .

قوله تعالى : «ومن شرّ غاسق إذا وقب» في الصحاح : الغسق أوّل ظلمة اللّيل

وقد غسق الليل يغسق إذا أظلم والغاسق الليل إذا غاب الشفق . انتهى ، والوقوب الدخول فالمعنى ومن شرّ الليل إذا دخل بظلمته . ونسبة الشرّ إلى الليل إنّما هي لكونه بظلمته يعين الشرير في شرّه لستره عليه فيقع فيه الشرّ أكثر ممّا يقع منه بالنهار ، والإنسان فيه أضعف منه في النهار تجاه هاجم الشرّ ، وقيل : المراد بالغاسق كلّ هاجم يهجم بشرّه كائنا ما كان .

وذكر شرّ الليل إذا دخل بعد ذكر شرّ ما خلق من ذكر الخاصّ بعد العامّ لزيادة الاهتمام وقد اهتمّ في السورة بثلاثة من أنواع الشرّ خاصّة هي شرّ الليل إذا دخل وشرّ سحر السحرة وشرّ الحاسد إذا حسد لغلبة الغفلة فيهنّ .

قوله تعالى : «ومن شرّ النفّاثات في العقد» أي النساء الساحرات اللاتي يسحرن بالعقد على المسحور وينفثن في العقد . وخصّت النساء بالذكر لأنّ السحر كان فيهنّ ومنهنّ أكثر من الرجال ، وفي الآية تصديق لتأثير السحر في الجملة ، ونظيرها قوله تعالى : في قصّة هاروت وماروت : «فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارّين به من أحد إلّا بإذن الله » البقرة : ١٠٢ ونظيره ما في قصّة سحرة فرعون .

وقيل : المراد بالنفّاثات في العقد النساء اللاّتي يملن آراء أزواجهنّ إلى ما يرينه ويردنه فالعقد هو الرأي والنفث في العقد كناية عن حلّه ، وهو بعيد .

قوله تعالى : « ومن شرّ حاسد إذا حسد » أي إذا تلبّس بالحسد وعمل بما في نفسه من الحسد بترتيب الأثر عليه .

وقيل : الآية تشمل العائن فعين العائن نوع حسد نفساني يتحقّق منه إذا عاين ما يستكثره ويتعجّب منه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج عبد بن حميد عن زيد بن أسلم قال : سحر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رجل من اليهود فاشتكى فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوّذتين وقال : إنّ رجلاً من اليهود سحرك والسحر في بئر فلان فأرسل عليّاً فجاء به فأمره أن يحلّ العقد ويقرء آية فجعل يقرء ويحلّ حتّى قام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كأنّما نشط من عقال .

أقول : وعن كتاب طبّ الأئمّة بإسناده إلى محمّد بن سنان عن المفضّل عن الصادق عليه السلام مثله وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق أهل السنّة باختلافات يسيرة ، وفي غير واحد منها أنّه أرسل مع عليّ عليه السلام زبيراً وعمّاراً وفيه روايات اُخرى أيضاً من طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام .

وما استشكل به بعضهم في مضمون الروايات أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان مصوناً من تأثير السحر كيف ؟ وقد قال الله تعالى : « وقال الظالمون إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا » الفرقان : ٩ .

يدفعه أنّ مرادهم بالمسحور المجنون بفساد العقل بالسحر وأمّا تأثّره عن السحر بمرض يصيبه في بدنه ونحوه فلا دليل على مصونيّته منه .

وفي المجمع وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان كثيراً ما يعوّذ الحسن والحسين عليهما السلام بهاتين السورتين .

و فيه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اُنزلت عليّ آيات لم ينزل مثلهنّ المعوّذتان ، أورده في الصحيح .

أقول : وأسندها في الدرّ المنثور إلى الترمذيّ والنسائيّ وغيرهما أيضاً ، وروى ما في معناه أيضاً عن الطبرانيّ في الأوسط عن ابن مسعود ، ولعلّ المراد من عدم نزول مثلهنّ أنّهما في العوذة فقط ولا يشاركهما في ذلك غيرهما من السور .

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد والبزّار والطبرانيّ وابن مردويه من طرق صحيحة

عن ابن عبّاس وابن مسعود أنّه كان يحكّ المعوّذتين من المصحف ويقول : لاتخلطوا القرآن بما ليس منه إنّهما ليستا من كتاب الله إنّما اُمر النبيّ أن يتعوّذ بهما ، وكان ابن مسعود لايقرء بهما .

أقول : ثمّ قال السيوطيّ قال البزّار : ولم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة وقد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قرء بهما في الصلاة وقد اُثبتتا في المصحف انتهى .

وفي تفسير القمّيّ بإسناده عن أبي بكر الحضرميّ قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام إنّ ابن مسعود كان يمحو المعوّذتين من المصحف . فقال : كان أبي يقول : إنّما فعل ذلك ابن مسعود برأيه وهو [هما] من القرآن .

اقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق الفريقين على أنّ هناك تواتراً قطعيّاً من عامّة المنتحلين بالإسلام على كونهما من القرآن ، و قد استشكل بعض المنكرين لإعجاز القرآن أنّه لوكان معجزاً في بلاغته لم يختلف في كون السورتين من القرآن مثل ابن مسعود واُجيب بأنّ التواتر القطعيّ كاف في ذلك على أنّه لم ينقل عنه أحد أنّه قال بعدم نزولهما على النبي صلّى الله عليه و آله أو قال بعدم كونهما معجزتين في بلاغتهما بل قال بعدم كونهما جزء من القرآن وهو محجوج بالتواتر .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : الفلق جبّ في جهنّم مغطّى .

اقول : وفي معناه غير واحد من الروايات في بعضها : قال صلى الله عليه وآله : باب في النار إذا فتح سعّرت جهنّم رواه عقبة بن عامر ، وفي بعضها : بئر في جهنّم إذا سعّرت جهنّم فمنه تسعّر ،رواه عمرو بن عنبسة إلى غير ذلك .

وفي المجمع وقيل : الفلق جبّ في جهنّم يتعوّذ أهل جهنّم من شدّة حرّه عن السدّيّ ورواه أبو حمزة الثماليّ وعليّ بن إبراهيم في تفسيريهما .

وفي تفسير القمّيّ عن أبيه عن النوفليّ عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام

قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : كادالفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر .

اقول : الرواية مرويّة بلفظها عن أنس عنه صلى الله عليه وآله .

وفي العيون بإسناده عن السلطيّ عن الرضا عن أبيه عن آبائه عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : كادالحسد أن يسبق القدر .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ الحسد ليأكل الحسنات كما يأكل النار الحطب .



﴿ سورة الناس مدنيّة وهي ستّ آيات ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلٰهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) .

﴿ بيان ﴾

أمر للنبيّ ﷺ أن يعوذ بالله من شرّ الوسواس الخنّاس والسورة مدنيّة كسابقتها على ما يستفاد ممّا ورد في سبب نزولها بل المستفاد من الروايات أنّ السورتين نزلتا معا .

قوله تعالى : « قل أعوذ بربّ الناس ملك الناس إله الناس » من طبع الإنسان إذا أقبل عليه شرّ يحذره ويخافه على نفسه وأحسّ من نفسه الضعف أن يلتجىء بمن يقوى على دفعه ويكفيه وقوعه والّذي يراه صالحاً للعوذ والاعتصام به أحد ثلاثة إمّا ربّ يلي أمره ويدبّره ويربّيه يرجع إليه في حوائجه عامّة ، وممّا يحتاج إليه في بقائه دفع ما يهدّده من الشرّ ، وهذا سبب تامّ في نفسه ، و إمّا ذو قوّة وسلطان بالغة قدرته نافذ حكمه يجيره إذا استجاره فيدفع عنه الشرّ بسلطته كملك من الملوك ، وهذا أيضاً سبب تامّ مستقل في نفسه .

وهناك سبب ثالث وهو الإله المعبود فإنّ لازم معبوديّة الإله وخاصّة إذا كان واحداً لاشريك له إخلاص العبد نفسه له فلا يدعو إلّا إيّاه ولا يرجع في شيء من حوائجه إلّا إليه فلا يريد إلّا ما أراده ولا يعمل إلّا ما يشاؤه .

والله سبحانه ربّ الناس وملك الناس وإله الناس كما جمع الصفات الثلاث لنفسه في قوله : « ذلكم الله ربّكم له الملك لا إله إلّا هو فأنّى تصرفون » الزمر : ٦ وأشار

تعالى إلى سببيّة ربوبيّته واُلوهيّته بقوله : «ربّ المشرق والمغرب لا إله إلّا هو فاتّخذه وكيلا» المزمل : ٩ ، وإلى سببية ملكه بقوله : «له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الاُمور» الحديد : ٥ فإن عاذ الإنسان من شرّ يهدّده إلى ربّ فالله سبحانه هو الربّ لا ربّ سواه وإن أراد بعوذه ملكا فالله سبحانه هو الملك الحقّ له الملك وله الحكم [(١)] وإن أراد لذلك إلهاً فهو الإله لا إله غيره .

فقوله تعالى : « قل أعوذ بربّ الناس » الخ أمر لنبيّه ﷺ أن يعوذ به لأنّه من الناس وهو تعالى ربّ الناس ملك الناس إله الناس .

وممّا تقدّم ظهر أوّلا وجه تخصيص الصفات الثلاث : الربّ والملك والإله من بين سائر صفاته الكريمة بالذكر وكذا وجه ما بينها من الترتيب فذكر الربّ أوّلا لأنّه أقرب من الإنسان وأخصّ ولاية ثمّ الملك لأنّه أبعد منالا وأعمّ ولاية يقصده من لا وليّ له يخصّه ويكفيه ثمّ الإله لأنّه وليّ يقصده الإنسان عن إخلاصه لا عن طبعه المادّي .

وثانياً وجه عدم وصل قوله : « ملك الناس إله الناس » بالعطف وذلك للإشارة إلى كون كلّ من الصفات سبباً مستقلاً في دفع الشرّ فهو تعالى سبب مستقلّ لكونه ربّاً لكونه ملكاً لكونه إلهاً فله السببيّة بأيّ معنى اُريد السبب وقد مرّ نظير الوجه في قوله : «الله أحد الله الصمد ».

وبذلك يظهر أيضا وجه تكرار لفظ الناس من غير أن يقال : ربّهم وإلههم فقد اُشير به إلى أنّ كلاً من الصفات الثلاث يمكن أن يتعلّق بها العوذ وحدها من غير ذكر الاُخريين لاستقلالها ولله الأسماء الحسنى جميعا ، وللقوم في توجيه اختصاص هذه الصفات وسائر ما مرّ من الخصوصيّات وجوه لا تغني شيأ .

قوله تعالى : « من شرّ الوسواس الخنّاس » قال في المجمع : الوسواس حديث النفس بما هو كالصوت الخفيّ انتهى فهو مصدر كالوسوسة كما ذكره وذكروا أنّه سماعيّ والقياس فيه كسر الواو كسائر المصادر من الرباعيّ المجرّد وكيف كان فالظاهر

(١) التغابن : ١ .

كما استظهر أنّ المراد به المعنى الوصفيّ مبالغة ، وعن بعضهم أنّه صفة لا مصدر .

والخنّاس صيغة مبالغة من الخنوس بمعنى الاختفاء بعد الظهور قيل : سمّي الشيطان خنّاسا لأنّه يوسوس للإنسان فإذا ذكر الله تعالى رجع وتأخّر ثمّ إذا غفل عاد إلى وسوسته .

قوله تعالى : « الّذي يوسوس في صدور الناس » صفة للوسواس الخنّاس ، والمراد بالصدور هي النفوس لأنّ متعلّق الوسوسة هو مبدء الإدراك من الإنسان وهو نفسه وإنّما اُخذت الصدور مكاناً للوسواس لما أنّ الإدراك ينسب بحسب شيوع الاستعمال إلى القلب والقلب في الصدر كما قال تعالى : « ولكن تعمى القلوب الّتي في الصدور » الحجّ : ٤٦ .

قوله تعالى : « من الجنّة والناس » بيان للوسواس الخنّاس وفيه إشارة إلى أنّ من الناس من هو ملحق بالشياطين و في زمرتهم كما قال تعالى : « شياطين الانس والجنّ » الانعام : ١١٢ .

وأمّا ما قيل : إنّ الناس يطلق على جماعة الجنّ كما يطلق على الإنس ، وقوله « من الجنّة والناس » بيان للناس بهذا المعنى الأعمّ فتحكّم لا يصغى إليه .

وكذا ما قيل : إنّ قوله : « والناس » معطوف على « الوسواس » والمعنى من شرّ الوسواس الخنّاس من الجنّة ومن شرّ الناس بعيد عن الفهم كما لا يخفى .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع : أبو خديجة عن أبي عبدالله عليه السلام قال : جاء جبرئيل إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وهو شاك فرقاه بالمعوّذتين وقل هو الله أحد وقال : بسم الله أرقيك والله يشفيك من كلّ داء يؤذيك خذها فلتهنيك فقال : بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ بربّ الناس إلى آخر السورة .

أقول : وتقدّم بعض الروايات الواردة في سبب نزول السورة .

وفيه روي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإذا نسي التقم فذلك الوسواس الخنّاس .

وفيه وروى العيّاشي بإسناده عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مؤمن إلّا ولقلبه في صدره اُذنان اُذن ينفث فيها الملك واُذن ينفث فيها الوسواس الخنّاس فيؤيّد الله المؤمن بالملك ، وهو قوله سبحانه : « وأيّدهم بروح منه » .

وفي أمالي الصدوق بإسناده إلى الصادق عليه السلام قال: لمّا نزلت هذه الآية « والّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » صعد إبليس جبلاً بمكّة يقال له ثوير فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا : يا سيّدنا لم دعوتنا ؟ قال : نزلت هذه الآية فمن لها ؟ فقام عفريت من الشياطين فقال : أنا لها بكذا وكذا . قال : لست لها فقام آخر فقال مثل ذلك فقال لست لها .

فقال الوسواس الخنّاس : أنا لها . قال : بماذا ؟ قال : أعدهم واُمنّيهم حتّى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار فقال : أنت لها فوكّله بها إلى يوم القيامة .

اقول : تقدّم بعض الكلام في الشيطان في أوائل الجزء الثامن من الكتاب .

☆ ☆ ☆

تمّ الكتاب والحمد لله واتّفق الفراغ من تأليفه في ليلة القدر المباركة الثالثة والعشرين من ليالي شهر رمضان من شهور سنة اثنتين وتسعين وثلاث مائة بعد الألف من الهجرة والحمدلله على الدوام ، والصلاة على سيّدنا محمّد وآله والسلام .

بعض المواضيع المبحوث عنها فى الكتاب

السورة	الموضوع	نوع البحث	الصحيفة
سورة الجن	كلام فى الجن	قرآنى	١١٢
« المدثر	ذنابة لما تقدم من الكلام فى النفاق	«	١٧٢
« الدهر	كلام فى هوية الانسان على مايفيده القرآن	«	٢٣٠
سورة المرسلات	كلام فى اقسامه تعالى فى القرآن .	«	٢٤١
سورة النباء	كلام فيما هو الروح فى القرآن	«	٢٧٢
سورة النازعات	كلام فى انّ الملائكة وسائط فى التدبير .	«	٢٨٣